حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكي
LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية
الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير
الأمير شكيب أرسلان

المجلد الثالث

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر



حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكي

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

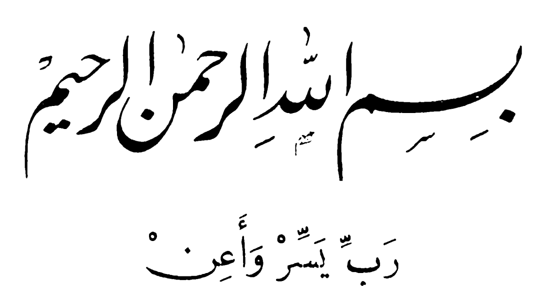
بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الثالث

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عُنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر


بسم الله الرحمن الرحيم
رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

فهرست

المجلد الثالث

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

الدعوة الاسلامية فى افريقية للامير شكيب من صفحة ١ — ٥٤
الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب فى أمر المدنية صفحة ٢
الخلاصة صفحة ١١
التبشير والمبشرون صفحة ١٢
الكامرون صفحة ١٦
السودان صفحة ٢١
سكوتو و بورنو صفحة ٢٣
الباقرمى والسنيغال ووادای وكانم صفحة ٢٤
مملكة مالى صفحة ٢٩
مسألة الرقيق والشرع صفحة ٤٣
تتمة ذكر السودان صفحة ٤٥
الاسلام فى السودان مقال للاستاذ ديريش وسترمان الألمانى فى مجلة العالم الاسلامى الألمانية من صفحة ٥٥ — ٥٨
العرب فى الكونغو للامير شكيب من صفحة ٥٩ — ٦٢
سلطنة رابح للامير شكيب من صفحة ٦٢ — ٦٤
ممالك أواسط افريقية للامير شكيب من صفحة ٦٥ — ٦٨
شرقى افريقية للامير شكيب من صفحة ٦٩ — ٧٧
مسلمو الحبشة للامير شكيب من صفحة ٧٨ — ١١٩

الاسـلام فى ماداغسكر وجزائر القومور و بيانات عن الحضارمـة للامير شـكيب
من صفحة ١٢٠ — ١٨٢
جزائر القومور أو القمر صفحة ١٤٢
جزائر انجوان صفحة ١٤٨
تصحيح وتوضيح و بيانات عن الحضارمة بقلم العـلامة المؤرخ المدقق السيد محمـد
ابن عبد الرحمن بن شهاب العلوى الحضرمى من صفحة ١٥٧ — ١٨٣
الأمير محمد بن عبد الـكريم زعيم الريف للامير شكيب من صفحة ١٨٤ — ٢٠٧
التعصب الأوربى أم التعصب الاسلامى ومائة مشروع لتقسيم تركيا للامـير شـكيب
من صفحة ٢٠٨ — ٣٤٢
مباحث اجتماعيـة ورمى الاوربيـين الشرع الاسـلامى بالجمود للامير شكيب
من صفحة ٣٤٣ — ٣٥٠
قضية فصل الدين عن السياسة من صفحة ٣٥١ — ٣٦٤
احصاء المسلمين للامير شكيب من صفحة ٣٦٥ — ٣٦٧
مسلمو الفيلبين صفحة ٣٦٧
ققفاسيا صفحة ٣٦٨
ترجمة القرآن صفحة ٣٦٩
مسألة الصلب وقول ابن حزم صفحة ٣٧٠
عود الى رأى هورغرونيه صفحة ٣٧٢
السيد احمد الشريف السنوسى صفحة ٣٧٤
تقرير عن القضية الطرابلسية البرقاوية من صفحة ٣٧٦ — ٣٨٥
رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية ليبيريا من صفحة ٣٨٥ — ٣٨٨
الدفاع عن الحروف العربية من صفحة ٣٨٩ — ٣٩٣
اظهار محاسن الاسلام لعالم ايطالى من صفحة ٣٩٤ — ٣٩٦
طرابلس وبرقة أيضاً من صفحة ٣٩٧ — ٣٩٨

الدعوة الاسلامية فى افريقية

الأمير شكيب

١ — الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب فى المدنية
٢ — الخلاصة
٣ — الكامرون
٤ — السودان . سكوتو . بورنو . الباقيرمى . السنيغال . واداى . كانم . مملكة مالى
٥ — مسألة الرقيق والشرع
٦ — تتمة ذكر السودان

قال المسيو مورى : فلننظر الآن الى مجارى الدعاية الاسلاميه فى قارة افريقية :

فالمجرى الاول هو التيار المراكشى ، الذى يتحدون من زوايا المغرب العديدة ، ومدارس فاس ومراكش ، ويخترق بلاد الآدرار (بجهة السنيغال) فينشر دعوة الاسلام فى كاآرته ، وفوتاجالون ، والسودان .

والمجرى الثانى هو الذى يخرج من مدارس القادرية فى تمبكتو ، ومن بعض زوايا التيجانية ، ويتبع مجرى النيجر الى بلاد صانقا (من الكونغو الفرنسى) ، فيتلاقى مع مراكز التبشير المسيحى فى ملتقى نهرى النيجر والبنيوى .

والمجرى الثالث هو الذى يصدر عن زوايا السنوسية فى الجغبوب وغدامس منتحيا جهات بحيرة تشاد ، و به أصبحت وادى و بورونو ، مراكز تتأجج فيها حرارة الاسلام .

والمجرى الرابع يخرج من الأزهر بمصر فيتبع النيل الى كردوفان ، الى الاوغاندة حيث ينازع مبشرى البروتستانت والكاثوليك على قيادة الارواح .

وأهم مجارى الدعاية الاسلامية هو ما يقوم به تجار المسلمين ، الذين يقصدون دارفور والسودان تارة من مصر وطورا من طرابلس ، وأفعل من هؤلاء رهط التجار الذى يقوم من زنزيبار قاصدا بلاد البحيراب الكبر الى الكونغو ، تابعا مجرى هذا النهر الى بلاد

البانتو (١) حيث يسابق البعثات المسيحية على أرواح هذا الشعب .

والحق يقال ان الاسلام فى هذه الصفحة الاخيرة من تاريخه قد دل على أنه يملك حيوية عظيمة ، وقابلية شديدة للانتشار . فليتذكر الناس حركات أمة البله (٢) ونشاط الدراويش أتباع الطرق ، وتكاثر الزوايا ، وثورة الحاج عمر الفوتى وخلفائه ، والمهدى السودانى ، وتجارة الرقيق . ولا ينكر أن الرق ألغى وان أحمدو وساموري ومحمد أحمد انكسروا ، وان الغارة الاسلامية توقفت فى السودان الفرنسى وفى السودان المصرى ، ولكن التعصب الاسلامى لم ينطفئ وانما هو يتوقد تحت الرماد ، وتجد الدعوة الاسلامية ماشية بالرغم من كل الحوائل فى الاوغاندة ، ووادى الكونغو ، ووادى النيجر ، ووادى الغامبية ، وساحل غينية ، وسنرى فى الفصل الآتى مواقف الديانتين بعضهما بازاء بعض .

الصراع بين الاسلام والنصرانية

وأيهما الغالب فى أمر المدنية

قال : ان الديانتين الاسلامية والنصرانية ، واقفتان كل منهما فى مقابلة الاخرى على خطين طويلين ، فاذا خططنا خطاً يمتد من مصب السنيغال الدرجة ١٦ من العرض الشمالى ، قاطعا الى شرقى افريقية الدرجة ٢ والدقيقة ٣٠ من العرض الجنوبى . وخطا ثانيا ، يمتد من الدرجة ٥ من العرض الشمالى مع الدرجة ١٠ من الطول الغربى الى الدرجة ١٥ من العرض الجنوبى مع الدرجة ٤٠ من الطول الشرقى فى قرب موزامبيق ، تكونت لنا منطقة واسعة جدا ، يضطرب ضمنها مائة مليون نسمة هم معترك النزاع بين الاسلام والنصرانية .

وقد تقدم كون مراكز دعوة الاسلام هى فاس ، وطرابلس ، وجغبوب ، والازهر ، وزنزيبار ، وان طلائعها فى بحيرة تشاد وتمبكتو . وأما النصرانية فدعاتها من فرنسيس ، وطليان والمان ، وسكندينافيين ، وانكليز ، وامريكيين ، قد اخترقوا الكتلة الفتيشية من

(١) شعب زنجى كبير يتألف منه سكان الكونغو ، وأهالى بلدان البحيرات الكبر ، وأقاليم إفريقية الجنوبية كالزولو ، والبتشوانه الخ

(٢) أمة سودانية تسكن ضفة السنيغال الشمالية ، ومنها أهالى فوتاجالون ، وبلاد النيجر العليا والوسطى وسمرة ألوان هذه الأمة مشربة بحمرة ، وشعورهم مائلة الى السباطة ، وسحنتهم تكاد تكون أوربية ، ويقال لهم أيضاً الفولاه والفولبه وكلهم مسلمون

ثلاث أو اربع نقاط وهى : وادى غامبيه وأعلى السنيغال ، وسيراليون وساحل غينية ، ومثلث النيجر ، وأعلى الزامبيز ، و بلاد البحيرات الكبر . وأعز مراكز النصرانية اليوم هى السودان الغربى ، والكونغو ، و بلاد الكافر ، والاوغانده ، والزامبيز الاعلى . (١)

أما من جهة العدد فالمتنصرون من السود لا يزيدون على سبعة ملايين وخمسمائة الف ، حال كون المسلمين ٣٦ مليونا اكثرهم مستعمرات فرنسا فانهم فى السنيغال الى شرقى بافولابه ومنهم أكثر أهالى نيورو ، وغومبو ، وسوكوتو وجميع منطقة فاقيبين ، وتمبكتو ، و وادى النيجر ، و بلاد فوتاجالون ، و بلاد كيتا ، و بامباكو ، وستادونغو الخ .

ثم أخذ يسرد المسيو بونه مورى الاسباب التى جعلت للاسلام الفوز فى افريقية بين السود ، وأهم هذه الاسباب بساطة العقيدة الاسلامية ، التى تنحصر فى كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، مما يقبله عقل الزنجى بدون عناء كبير ، كذلك الجنة التى عند المسلمين تطابق ميول الزنوج ، أكثر من فردوس النصارى ، كذلك الاسلام ليس فيه طبقات ودرجات ، فالزنجى لا يرى نفسه محتقرا فى الجماعة الاسلامية . قال: ومع كون الفقير والغنى متساويين عند كل الملل فليس عند أغنياء المسلمين هذه العظمة والخشونة اللتان عند أغنيائنا ، بل أغنياء الاسلام أكثر تذكرا لزوال النعم وتحول الاحوال من أغنياء النصارى ، والفقير المسلم لا يعز عليه أن يدخل بيب أى واحد من أغنياء الاسلام وان يجدهناك مضافا .

---

(١) الكونغو نهر عظيم في أواسط افريقية يخرج من غربى بحيرة نياسا وينتهى فى الأوقيانوس الاطلانتيكى ، طوله ٤٦٠٠ كيلو متر وحجمهمائة من ٤٠ ألف الى ٧٠ ألف متر مكعب ، والبلاد التى تجاوره تسمى بلاد الكونغو وهى أربعة أقسام الكونغو الألمانى فى الشمال وهو الكامرون ، والكونغو البرتقالى وهو انقوله فى الجنوب ، والكونغو الفرنسى ، ثم الكونغو البلجيكى ، وأعظمها البلجيكى الذى عدد سكانه ١٤ مليوناً . وأما الاوغاند فحقها أن تكون من السودان المصرى وهي شمالى بحيرة فيكتوريا نيانزه الى الغرب ، أهلها مليون نسمة حصلت فيها فتن بعد وفاة ملكها ميتزا بسبب الدعوات الدينية ، بين المسلمين والبروتستانت والكاثوليك ويقول موريس فال الفرنسى فى قاموسه ان الغلبة كانت للبروتستانت بسبب عضد الضباط الانكليز لهم . والاوغاندة كما لا يخفى أدخلتها انكلترة في مستعمراتها. وأما بلاد الكافر فهى فى افريقية الجنوبية قد مر ذكرها ، وأما الزامبيز فهو نهر عظيم يتكون من ملتقى ليبا وكامبومبو، اللذين ينبعان فى نحو الدرجة ١٢ من العرض الجنوبى تنسب الى هذا النهر مستعمرة الزامبيز البريطانية وأهلها مليون وثلاثمائة ألف

ثم ان العرب والمغاربة والبربر يتزوجون بالسودانيات ، فتحصل بينهم و بين الزنوج وشائج انساب وأرحام تريد نفوذ أولئك عليهم ، حال كونه من النادر الا ندر أن يتزوج أوربى بسمراء أو يرضى بمصاهرة رجل اسود . ثم ان تعدد الازواج ، وجواز الرق (كذا) ، ومنع القرآن للمسكرات ، كلها أسباب تجعل الرجحان فى كفة الاسلام .

وأكثر الذين صنفوا على افريقية حتى الذين منهم اشتهروا بعداوة الاسلام ، اعترفوا بحسن عاقبة اسلام السود من الوجهة الدينية والادبية . لانهم تخلصوا من عبادة الاوثان والحيوانات ، وأقلعوا عن عادة الذبائح البشرية ، وتركوا السحر والسحرة ، وانصرفوا الى عبادة اله واحد عدل ، يعبدونه عبادة روحية منزهة . ثم ان دعاة الاسلام يعلمون المهتدين مبادئ اللغة العربية التى هى فى الاسلام بمثابة اللاتينى فى أمم النصرانية . ومما لا شك فيه ، أن الاسلام يزيد النفس عزة ، وينهض بوجدان الزنجى كما قال آتربورى Atterbury وهو قوله : « بمجرد ما يدخل الزنجى فى الاسلام يشعر بكرامة نفسه ، و بعد أن كان يعتقد ذاته عبدا ، يصبح فى نظر نفسه حراً . »

وان جميع وصايا جمعيات المبشرين بترك المسكرات ، لم تبلغ شيئا من درجة تأثير الاسلام فى حظر هذه الرذيلة . وربما قيل انه كما كان الامساك عن شرب الخمر يرفع درجة الانسان ، فالتزوج باكثر من واحدة يعمل عكس ذلك . والجواب على هذا أن أكثر المسلمين يقتصرون على الزوجة الواحدة أولا لأن القرآن شرط لتعدد الزوجات شروطا ثقيلة ، ثانيا ، لأن النفوذ الاوربى ازداد فى العالم الاسلامى ، وصار كثيرون من المسلمين ينفرون من تعدد الزوجات — وأتى بونه مورى على ذلك بشواهد كثيرة ، وخاض فى بحث المرأة الجديدة فى الاسلام ، وتكلم على كتاب المرحوم قاسم أمين ، وعلى مدارس الاناث المحدثة فى الاسلام الى أن قال : « أما مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية فمنها تعدد الزوجات . »

لأن تعدد الزوجات بذاته يسقط من مكانة المرأة ، التى هى فى نظر السواد الاعظم من المسلمين واسطة شهوة ، ووسيلة للنسل لا غير . فهذا من مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية ثم هناك ضعف آخر وهو فساد القضاء الاسلامى وفقد العدل فيه ، اذ كل ما هو مشهور عن قضاة الحكومات السابقة فى فرنسا من الرشوة والتزوير والظلم . لا يحسب

شيئا فى جنب مساوىء قضاة الاسلام فى افريقية . فانه يكاد يكون مستحيلا نجاح فقير فى دعوى مع غنى ، أو انصاف أرملة وقاصرين فى نزاع مع وصى

فليفكر جيداً المسلمون فى هذه الكلمة ، وليعلموا أنه اذا كان الله تعالى أباح تعدد الزوجات تحت شروط ، فلم يبح الظلم بوجه من الوجوه. بل الاسلام وضع العدل فوق العبادة ومع هذا فقد صار الأمر الى أن فساد القضاء وفقد العدل فى محاكم الاسلام ، أصبحا حجة على الاسلام ، ونقطة يهاجم بها . ولا شك أن أمثال هؤلاء القضاة من المسلمين ، هم بأعمالهم أفحش نكاية بالاسلام من جميع أعدائه . أفلا يعلم هؤلاء أن مثل هذه الأحوال ، هى التى رفعت ثقة الاوروبيين ، لا بل الشرقيين من المحاكم الشرعية ، وحملت الكثيرين على طلب الغائها ، أو وضعها تحت السيطرة الأوربية ؟ فأى عار على الاسلام أكبر من هذا ؟ وأى جناية على الاسلام أفظع من أن يصوّره رجال الشرع بغير صورته بسوء أعمالهم ، فبدلا من أن يرغب فيه الناس تراهم يرغبون عنه بسببهم .

ثم جعل المسيو بونه مورى استحلال الرق من جملة نقائص الاسلام ، واعترف بان العبيد أبناء العبيد الذين يخدمون فى البيوت ويدينون بالاسلام ، لاتساء معاملتهم ، ولكن أفاض فى وصف سوء المعاملة التى يلقاها أسرى الحرب ، وطعن كثيراً فى تجار الرقيق لا سيما من العرب ، ووصف القسوة التى تظهر منهم فى معاملة من يصطادونهم من الزنوج . وجعل أصل التبعة فى ذلك على الاسلام . ونسى أن الرق وجد فى جميع الأزمان ، وانه وجد فى النصرانية أيضاً . وان البوير الأوربيين فى جنوبى افريقية ثقل عليهم تحرير الرقيق ، أكثر من تجار العرب . وان الحرب فى أميركا استمرت عدة سنوات ، بسبب أن قسما عظيما من أهالى أميركا أبوا الخضوع لقانون ابطال الرق . ونسى أيضاً صاحبنا أن أكثر الأمة الروسية ، وهم الفلاحون كانوا أرقاء للامراء والأشراف ، ولم يتحرروا الا منذ نحو ١٥٠ سنة وهم من الجنس الأوربى لا من الزنج . كذلك غفل أو تغافل عما أوصى به الاسلام بشأن الرقيق ، وما عظم من فضيلة تحرير الرقاب ، وكيف أن آخر كلام النبى ﷺ وهو على فراش احتضاره كان ، التوصية بالأرقاء . فنظر المؤلف من جهة واحدة ، وذكر السيئات وأغفل الحسنات .

ثم خاض المسيو بونه مورى فى ثمرات الدعوة المسيحية فقال ، ان عدد المتنصرين

من المسلمين لا يكاد يذكر ، ولكن لا يخرج من ذلك أن الدعوة المسيحية لم تكن ذات تأثير على المسلمين بل ان الميل الحاضر عندهم الى الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، والاعتناء بترقية سوىّ المرأة ، واصلاح المحاكم ، كل هذا كان من نتائج الدعوة المسيحية . فاما بين الوثنيين فان دعاة الانجيل قاوموا عبادة الفتيش [1] والاعتقاد بالسحر والتعاويذ ، والذبائح البشرية ، والرق ، وأصلحوا حال المرأة ، واجتهدوا فى تعليم الزنجى ، الاقتصار على الزوجة الواحدة ، وأفهموا السود أن على المرأة واجبات غير الولادة ، وهى تهذيب الأولاد وتمريض المرضى والزمنى ، بخلاف المسلمين الذين يرون فى المرأة واسطة للنسل لا غير . (كذا)

وعلموا السود النظافة وقوانين حفظ الصحة ، ومرنوهم على الأشغال اليدوية والزراعة وأما من جهة المستشفيات ولا سيما ملاجئ المجذومين ، فحدث فى هذا الباب ولا حرج . ثم ان المبشرين هم الذين نشروا فى أوربا فظائع صيد البشر حتى اهتمت الدول بذلك ، وعقدت المؤتمرات التى قررت فيها منع بيع الرقيق . ولم يتوقف المبشرون عن التشهير بمساوئ تجار الرقيق بل شهروا بسيئات المستعمرين الاور بيين أنفسهم فيما لو خبطوا الاهالى بعصا العسف وذلك كما فعل المبشرون الانكليز ، عند ما رأوا أعمال بعض البلجيكيين فى الكونغو . ومما لا يمكن السكوت عنه أن بعض الاور بيين ارتكبوا جريمة بيع المسكرات بين الزنوج ، ومنهم ضباط وحكام استعملوا القسوة فى معاملتهم ، فكانوا مثالا سيئا وان بعض المبشرين أنفسهم ، ارتزقوا من حرف غير لائقة بالعمل الذى بعثوا من أجله ، وان كثيراً من المبشرين تشاجر بعضهم مع بعض ، لا سيما الكاثوليك والبروتستانت ، وحصلت فى الاوغاندة وقائع دموية بسبب نشر الدين ، فهذا مما يقدح الشكوك فى قلوب الذين ذهب المبشرون لهدايتهم ، وما ذا تقول فى حرب الترانسفال التى دارت بين أمتين مسيحيتين تحت أعين الزنوج ، فجاءت بتكذيب دعوى البيض بكون انجيلهم هو واسطة السلام .

قال : وبالجملة فاذا كان الاسلام قد رجح من جهة عدد الذين اتبعوه من السود ، فالنصرانية كانت الرجحى فى أهمية النتائج الأدبية والاقتصادية ، ثم لا يوجد وجه للمقايسة بين المدارس النصرانية و بين كتاتيب الزرايا فضلا عن كون مبشرى الانجيل أسسوا مدارس صناعية مثل باقامويو Bagamoyo ومدرسة لوفيدال Lovedale ومدارس زراعية

---

(١) لفظة برتقالية الأصل معناها الوثن أو المعبود من الحيوانات

مع انموذجاتها نظير مؤسسة الآباء البيض فى كيتا Kita وأين تجد عند دعاة الاسلام من دور الأيتام وملاجئ العجزة والزمنى ومستشفيات المجاذيم ، ما تجده عند دعاة النصرانية ، وأين فى العالم الاسلامى النسوة اللائى مثل راهبات الرحمة الكاثوليكيات والاخوات الانجيليات ، ونساء المبشرين . لا جرم أن النصرانية فى هذا الموطن هى العليا وان كان الاسلام هو الفائق فى قضية منع الكحول .

فنحن لا ننكر ما قاله المسيو بونه مورى من أنه لا وجه للمقايسة بين مؤسسات الاسلام والنصرانية فى افريقية وغيرها من جهة الاتقان والتفنن ، وتنوع العلوم ، والصناعات ، واشتراك النساء مع الرجال فى هذه المشروعات الخيرية ، وما تأتى به هذه الراهبات من الخوارق فى خدمة الانسانية. كلا والله لا ننكر ذلك ، (والحق من ربك فلا تكونن من الممترين) . ولكن مما لاينكر أيضاً أن انحطاط المؤسسات الخيرية الاسلامية ، انما وقع بانحطاط القوة السياسية الاسلامية فى الاعصر الاخيرة ، اما قبل ذلك فلم تكن مدينة تذكر فى الاسلام الا فيها البيمارستانات ، ودور المجاذيم ، والمجاذيب ، وملاجئ الزمنى ، وملاجئ العميان وكل هذه المؤسسات كانت لها أوقاف دارّة ، ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة .

لا بل الذى خطر ببال المسلمين من جهة اسداء الخير ، واماطة الأذى ، وتخفيف آلام البشر قد وصل من التناهى الى درجات ، لم تبلغها أوربا فى عصر مدنيتها هذه ، ودل على أن فى الاسلام من رقة الشعور ، ودقة اللحظ ، وتوقع النادر من النوازل ، ما ليس فى غيره . واليك هذا المثال :

كانت فى دمشق الشام عدا دور المجانين والمجاذيب والمجاذيم ، أوقاف على الحيوانات ، ويقال ان مرجة دمشق هذه التى هى اليوم متنزه أهل الحاضرة ، كانت وقفا على الخيل التى تعبت فى الجهاد وأسنت ، يطوّل لها فيها دون غيرها .

وسمعت رواية من أفواه بعض الأدباء لم أجد عليها نصاً ، ولكنها قريبة الى التصديق وهى ، أنهم وجدوا فى الوثائق المتروكة عن المستشفى النورى الشهير [1] وظيفة من جملة وظائف المعالجة لم يخطر ببال الاوربيين ، مع تناهيهم فى الترف والعناية بالصحة

(١) محل المحكمة الشرعية الآن وهو منسوب الى الملك العادل نور الدين زنكى رحمه الله

أن يجعلوها وظيفة ، ولا أن يرتبوا لها جعلا معلوماً ، وهى تكاليف اثنين بان يقفا بمسمع من المريض ، و بدون أن يلحظ أن ذلك جار منهما عمداً يسأل أحدهما الآخر عن حقيقة علة ذلك المريض ، فيجاوبه رفيقه بانه لا يوجد فى علته ما يشغل البال ، وأن الطبيب رتب له كذا وكذا من الدواء ، ولا يظن أنه يحتاج الى أكثر من كذا من الوقت حتى ينقه ، وغير ذلك من الحديث ، الذى اذا تهامس به اثنان على مسمع عليل ثقيل الحال وظنه صحيحا ، زاد فى نشاطه ، ونهض من قوته المعنوية بما يفعل فعل انجع الادوية لا سيما عند ذوى الامزجة العصبية . فهذه نكتة ، لم يتنبه الاوربيون الى أن يدخلوها فى جملة وظائف المستشفيات الى هذه الساعة ، مع انها فى منتهى درجات الرقة والفائدة .

ومن أرق وألطف ما وجد فى الاسلام من هذا المعنى وقف الزبادى ، الذى كان فى دمشق ، وقد حدّث عنه ابن بطوطة وهو مكان توجد فيه صحاف من الخزف الصينى الجليل القدر ، وقفها أصحابها لأجل انه اذا كان غلام كسر آنية لسيده وتعرض بذلك لغضبه ، يذهب الى هذا المكان و يضع الاناء المكسور ، ويأتى باناء صحيح بدلا عنه . فهل لحظ أرباب المبرات من الافرنج معروفاً ، بلغ هذا المبلغ من الكياسة ، ولطف الشعور ؟

و وجد فى الشام وقف لتزويج البنات الفقيرات .

و وقف لسقيا الماء المثلوج فى الصيف لعابرى السبيل ، وقد يسقونه بماء الخروب أو غيره من الأشربة .

و وقف لمستشفى المجاذيم ، من جملة أراضية القرى التى كانت للمرحوم أحمد باشا الشمعة فى حوران .

أما أوقاف البيمارستانات فهذه لاتحصى فى الاسلام .

وفى مكة المكرمة وقف ، مخصص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة .

وقف لاعارة الحلى والزينة فى الاعراس والأفراح ، بحيث ان العامة والفقراء لابل الطبقة الوسطى يرتفقون بهذا المعهد الخيرى ، فيستعيرون منه مايلزمهم من الحلى لأجل التزين به فى الحفلات ، و يعيدونه الى مكانه بعد انتهائها فيتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ، ولعروسه أن تجلى بحلية رائقة مما يجبر خاطرهما ، وكذلك يستغنى المتوسط فى الثروة عن أن يشترى مالا طاقة له به .

وفى مكة وقف آخر تستعار منه أدوات السفر والمفروشات للولائم والوضائم .

و بلغنى أنه يوجد بمصر وقف لسكنى الأيامى . ووقف آخر لكسوة أولاد الفقراء . و وقف لاطعام الكلاب .

و يوجد بتونس الخضراء وقف مرصد ريعه لتزويج بنات الفقراء واليتيمات ، و وقف للصبيان ، لهم يوم مخصوص هو يوم الخميس يسألونهم فيه عن جميع ماقرأوه فى الاسبوع ، و يعطونهم بعد ذلك دراهم بعثاً لهممهم ، وتفريحاً لقلوبهم . و وقف للاستحمام مجاناً ، توضع فيه صرر من الدراهم كل صرة فيها مقدار أجرة الحمام ، فيدخل المحتاج الى الاستحمام أو ازالة الجنابة ، و يتناول احدى هذه الصرر و يذهب الى الحمام ، فيدفعها بعينها و يستحم .

و يوجد فى تونس وقف غير الوقف الأول ، لتزويج البنات الا بكار اللائى بمحل الزواج .

وفى تونس وقف لدار المجاذيم . و وقف آخر للمعاتيه .

وفى تونس وقف لختان أولاد الفقراء ، يختن الولد و يعطى كسوة ودراهم . وهناك وقف توزع منه الحلواء فى رمضان مجانا .

وقيل لى ان فى تونس كما فى دمشق وقفا لمن انكسر بيده اناء ، فيذهب و يأخذ منه بدل الاناء الذى انكسر .

و يأتى الى تونس فى بعض أيام السنة نوع من السمك تفيض به شواطئها ، فيوجد فى تونس وقف يشترى من ريعه جانب كبير من هذا السمك ، و يوزع على الفقراء .

و يوجد فى فاس وقف أشبه بالوقف الذى فى دمشق ، والآخر الذى فى تونس ، لمن ينكسر بيده اناء .

وفيها وقف لاحتياط آخر ، وهو أن من وقع عليه زيت مصباح ، أو تلوث ثوبه بشئ آخر ، يذهب الى هذا الوقف و يأخذ منه مايشترى به ثوبا آخر .

وهناك وقف سيدى أبى العباس السبتى للعميان والزمنى ، يأخذون كل يوم من ريعه مايعيشون به ذكوراً واناثا على كثرة عددهم .

و يوجد وقف اسمه وقف سيدى على أبى غالب ، ينفق منه على ذوى العاهات .

ووقف فى فاس ، ينفق منه لرفع الحجارة من الطرقات .

ووقف للمؤذنين الذين يحيون الليل بالنوبة ، كل منهم يسبح الله نحو ساعة بصوته الرخيم ، ويسمى هذا المؤذن « بمؤنس الغرباء » أو « مؤنس المرضى » لأن المريض لايقدر أن ينام ولا يوجد فى كل الاحيان من يحيي الليل لأجله ، فليس له أنيس احسن من هذا المؤذن الذى يشجيه بصوته الرخيم فى تسبيح البارى تعالى فى ساعات الليل الأخيرة .

وفى مدينة مراكش وقف لسقى الماء المثلوج فى أيام القيظ كما فى دمشق .

وفيها مؤسسة اسمها « دار الدقة » وهى ملجأ تذهب اليه النساء اللائى يقع نفور بينهن وبين بعولتهن فلهن ان يقمن به آكلات شاربات ، الى ان يزول مابينهن وبين أزواجهن من النفور . وعلى دار الدقة هذه ، أوقاف عديدة دارة .

ويوجد فى مراكش مكان اسمه « سيدى فرج » عليه أوقاف كثيرة دارة فائضة ، وذلك لايواء المجاذيب والمعاتيه ، ولتجهيز الموتى من الضعفاء والمساكين . ويؤخذ من ريع أوقاف سيدى فرج هذا ، لشراء ملابس توزع على الفقراء فى أول الشتاء .

وروى جان وجيروم تارو الاخوان ، الكاتبان الفرنسيان فى رحلتهما الى مراكش ، ان فى مدينة مراكش ملجأ لايوجد مثله فى الدنيا بأسرها ، وهو بناء يكاد يكون بلدة ، وله ساحة يكاد الطرف لايأتى على آخرها ، وفى هذا الملجأ ستة آلاف أعمى ينامون ، ويأكلون ويشربون ، ويقرأون ، ولهم أنظمة ، وقوانين ، وهيئة ادارة ، وصندوق الخ .

فهذا مثال مما فى العالم الاسلامى من المشروعات الخيرية والمآثر الانسانية ، مما لم يتفطن لاكثره العالم الأوربى بعد ان وصل الى ما وصل اليه من الغاية القصوى فى العمران ، والدرجة العليا فى الاحتياط لازاحة علل الانسان . وربما كان كثير من هذه الأوقاف والملاجئ قد انحط أودرس ، أو استأثر نظاره بريعه لسوء الحظ ، ولكن هذا لايمنع من أن تكون هذه المؤسسات الجليلة ، وهذه الخواطر الخيرية الدقيقة قد وجدت فى الاسلام أيام عزه ، ولا يزال قسم كبيرمنها موجودا . فافتخار المسيو بونه مورى على الاسلام بوفرة الملاجئ ودور الايتام ، وكثرة معاهد الخير فى النصرانية ، دون الاسلام ليس فى محله . ولو اطلع على هذه المعلومات ، التى هى قليل من كثير مما فى الاسلام من المبرات العامة لرجع عن كلامه .

الخلاصة

استخلص صاحب كتاب الاسلام والنصرانية فى افريقية من ابحاث كتابه هذا ، التى لخصنا أكثرها تلخيصا مطابقا للأصل ، ان الأديان التى جاءت افريقية بأفضل وأسلم مبادئ المدنية هى الاديان الثلاثة ، الموسوية ، والنصرانية ، والاسلامية . وان الوثنية التى كانت عليها قرطاجنة والاسكندرية فى الأعصر القديمة لم تفد افريقية شيئا ، كما أن الفتيشية الحاضرة بين الزنوج ، هى مصدر لافظع الأعمال واسخف العبادات .

وقد كان لليهودية دور عظيم بمصر لعهد البطالسة وفى افريقية الرومانيه ، قبل مولد السيد المسيح بقرن و بعده بقرنين . ولكنها الآن انحطت كثيرا فى هذه القارة ، فليس فى شمالى افريقية أكثر من ٢٦٠ ألف نسمة من اليهود ، أقلهم انحطاطا يهود الجزائر ومصر ، وترى جمعية الاتحاد الاسرائيلى عاملة لاعلاء سويهم بهمة عظيمة .

أما النصرانية فازدهرت كثيراً فى القرن الثانى الى السابع للميلاد وعمت شمالى افريقية من مصر الى أقصى المغرب ، فلما جاء الفتح العربى الأول فى القرن السابع ثم الثانى فى القرن الحادى عشر جرفا كل آثار النصرانية هناك الا ما كان للقبط بمصر والحبشة .

وأما الاسلام فبعد أن أشرقت به أنوار العلوم والصناعات بمصر و بالمغرب توقف على مستوى واحد ، ثم شرع بالتدهور بعد سقوط الاندلس .

ثم عادت النصرانية بواسطة جمعيات التبشير المسيحىّ الى العمل بين الزنوج الفتيشيين ، ولكنك ترى دعاتها فى سواحل زنجبار ، ونواحى البحيرات الكبرى وفى واداى ، وحول بحيرة تشاد ، وفى البلاد الواقعة بين منحدر النيجر ومنابع السنيغال ، يتصادمون مع رجال الطرق الاسلامية ، وطلبة فاس ، والأزهر الذين يأبون النصرانية بأى وجه كان . فمنذ بداية القرن التاسع عشر اشتدت المزاحمة بين هاتين الديانتين ، وتسابقتا على السيادة الدينية بل على السيادة الدينية السياسية ، بما لا يقل حرارة عن مساجلتهما أيام القرون الوسطى .

فماذا ينبغى لنا أن نتمنى من جهة نتيجة هذه المصارعة بين هاتين الديانتين ؟ وأية خطة يجب أن يتبعها مبشرو النصرانية لاكمال عملهم ؟

الجواب على السؤال الأول : لاينبغى لنا ان نتمنى لافشل الاسلام ولا فوزه . لاينبغى أن نتمنى فشل الاسلام لأنه مما لامشاحة فيه أن دين محمد قد أعلى مستوى القبائل الفتيشية التى دانت به ، وخدم بذلك الانسانية . فان غاب هذا الدين عن بعض تلك المراكز ، سادت فيها البربرية وعم شرب الخور . ولا ينبغى لنا أن نشتهى فوزه لأنه اذا فاز ، هاج التعصب الاسلامى وعقبت ذلك حروب دموية ، وربما مذابح يهلك فيها الأوربيون . هذا فضلا عن كون الاسلام اذا رفع مستوى الزنجى فانه يقف به فيما بعد على درجة ، لايتقدم عنها ولا يتأخر . (يشير الى الجمود الحاضر) .

وعندى ان الاولى بقاء الديانتين فى مراكزهما الحاضرة تسعى كل منهما سعيها مع التسامح والتفاهم . فأما فى البلاد التى دخلت فى الاسلام فيجب العدول عن سياسة التنصير والاكتفاء بادخال مبادىء مدنيتنا بواسطة المدارس الفرنسوية العربية ، أو الانجليزية العربية والمستشفيات والملاجىء ، ومدارس تعليم البنات الخ . وكذلك يحسن بالاوربيين أن يقتدوا بالمسلمين فى الامتناع عن المسكرات وفى احترامهم الفتيشى ، الذى يقلع عن عقيدته الأولى ، وعده مساويا للابيض ، وفى الالفة بين الغنى والفقير .

ولكن حيث أباح الأسلام التعذيب فى القضاء ، أو تجارة الرقيق ، أو الشعوذات السحرية ، فيجب على ممثلى النصرانية أن يأذنوا بذلك حكوماتهم ، حتى تبطل هذه الأمور بالقوة .

وعلى دعاة النصرانية أن يسرعوا فى عملهم ، ويضاعفوا همتهم ونشاطهم بحيث يسبقون دعاية الاسلام ، ويعرفوا المائة مليون زنجى الباقين على الفتيشية بانجيل المسيح ، قبل أن يسمع هؤلاء بذكر القرآن . وعليهم أن يتوخوا البساطة فى التعليم المسيحى ، وينهجوا الطريق الذى نهجه حواريو المسيح فى وقتهم عند ما كانوا يهدون الوثنيين . وأما الفضائل فيجب على المبشرين أنفسهم أن يكونوا هم القدوة بها ، ليمحوا سيآت غيرهم من النصارى البيض . اه

التبشير والمبشرون

هذه خلاصة كتاب الاسلام والنصرانية فى افريقية عولنا عليه ، لأنه أجمع مارأينا فى هذا الموضوع . وكان ستودارد قد نقل عنه . واطلعت على كتاب عنوانه « عصر فى افريقية والاوقيانوس » لجمعية التبشير الانجيلية الباريزية مطبوع فى السنة ١٩٢٣ الماضية

فوجدت فيه بعض نبذات تتعلق بالاسلام فى أواسط افريقية .

فذكر ان فى السنيغال خمسة أو ستة أجيال ، مجموعهم مليون ونصف مليون نسمة ، وان أحصاهم عددا جيل يقال لهم الاولوف Ouolof فقال ان هؤلاء قاطبة كانوا مسلمين ولا يزالون مسلمين ، ولكنهم بمجيء شبابهم أثناء الحرب الكبرى الى فرنسا ، حصلت ثورة فى أفكارهم وتساهلوا فى الدين .قال : ولا نقدر ان نقول ان هذه الثورة الفكرية أفادتهم من الوجهة الأدبية . كلا بل صاروا مدمنين للسكر ، بعد أن كانوا لايذوقون الاشربة المتخمرة أصلا ولم تقتصر هذه الثلمة فى سور التعاليم القرآنية على شرب الخمر بل تجاوزت الى عدم الصوم فى رمضان وترك الصلاة .

قال وحصل منذ نحو عشر سنوات أن شاباً مسلماً ابن عائلة وجيهة فى سور Sor ، تردد كثيراً على المدرسة الانجيلية فى هذه البلدة ، الى أن التمس من المسيو أندرى درانكو تعليمه الدين المسيحى ، ولحظ أهله ذلك فلم يعارضوه فى أول الأمر ظناً بأنه لايصبأ عن دينه ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا أن الشاب ترك صلاة المسلمين وصيام رمضان ، وانه مرق من الاسلام ، فأرسلوه الى جهة بعيدة لم يرجع منها .

قال فاما فى هذه الأيام فحوادث كهذه لاتقع لالكون الأهالى تركوا الاسلام، بل لكون النشء الجديد تملص من القيود العتيقة . فصار بعض الشبان يغشون محلات العبادة عند النصارى سواء فى سان لويس ، أو فى داقار ، ويشتركون فى الأناشيد الروحية ، مما يدل على حالة عقلية لم تكن من قبل . فعلى المبشرين أن يستغلوا هذه الحالة الجديدة بتوجيهها الى جهة المسيح . وقد آن لنا أن نستفيد عبراً من الماضى ، فاننا نحن منذ مدة طويلة مستولون على السنيغال ، وعند ما جاء أول مبشر الى السنيغال منذ ٦٠ سنة ، كانت مقاطعات كثيرة من السنيغال لم يقبل أهلها دين الاسلام . ولكن نقصتنا الثقة وأعوزنا الثبات ، مع أن الأرض اذا كانت خصبة تحتمت فلاحتها وزرعها ولو تأخر الوقت . نعم ان السنيغال بلاد اسلامية ، ولكن فيها طوائف لا يزالون فتيشيين مثل السريريين Sereres ، الذين يبلغ عددهم ٣ الى ٤ مائة ألف ، وكذلك أهالى كازامانس الذين معظمهم وثنيون .

ففى السنيغال مليون ونصف مليون نفس كلها خلائق الله ، وكلها فى حاجة الى المخلص

ولقد كانت تربيتها الى هـذا اليوم اسلامية بحتة ، ولـكن جرى تحول فى الأفـكار بهـذه المدة الأخيرة ، فالساعة اذاً قد أزفت للعمل . اهـ

وكاتب هذا الفصل المبشر البرت درانـكورت يحرض قومه على البذل والاهتمام و بث الدعاة فى السنيغال .

ثم اطلعت فى هذا الـكتاب نفسه عن فصل آخر ، لمبشر يقال له المسيو فو ر Faure يتـكلم على البعثة الانجيلية فى بلاد الغابون أو الـكونغو الفرنسى ، و يقول فيه ان هـذه البلاد بعد ان ضُمت اليها مستعمرة الـكامرون الألمانية ، صارت بقـدر فرنسا أر بعاً أو خمس مرات ، وان سكانها أقوام مختلفـة من سود افريقية منهم مسـلمون وأ كثرهم فتيشيون . ومن جملة ما ورد فى هذا الفصل قوله :

ان الأور بيين ، قد جنوا على السلالة السوداء جنايات كثيرة لا مندوحـة لهم من التـكفير عنها . فاذا كانت أمم المبونغوى ، Mpongwé والغالوه ، Galoa والنـكومى ، Nakomi وغيرها وقد انقرض كثرها فما ذاك الا لـكون النخاسين البيض كانوا يصطادون أبناء هـذه الأقوام ، و يستعبدونهم و يبيعونهم ، ولـكون أ كثر أر باح التجار البيض ، هى من تجارة السلاح والبارود والمسكرات ، و بالآخر فلنقل الحقيقـة وهى ان الزنا مع ما يجره من الأمراض التى كادت تفنى هؤلاء الزنوج ، انما فشا فيهم بواسطة الأور بيين . ولـكم من جرم جره الأور بيون بين هؤلاء السود البؤساء ، ومما لا نقدر أن نـكابر فيه هو أن الاستعمار العصرى ان هو الا استغلال المستعمرات وأهلها ، بأى وجه كان . فمسئولية أوطاننا من هـذه الجهة باهظة ولا سبيـل لانـكارها [1] فمن الواجب اذاً علينا . نحن البروتستانت أن نعوض الضرر الذى ألحقه أبناء جنسنا بأهل افريقية ، وان نحمـل كلمة الحياة والنور والقوة ، الى حيث الانحطاط والظلمـات ولنتذكر ان مئات ألوف من هؤلاء الأهالى لبوا نداء بلادنا فى الحرب الـكبرى ، وقتلوا فى سبيلنا ، فان ثلثى هؤلاء الذين سقناهم الى الحرب لم يعودوا الى أوطانهم ، لأن منهم من قتل ومنهم من مات بالأمراض الخ .

ومما يستجلب النظر فى هـذا الـكتاب فصـل لمبشر اسمه فريدريك فرنيـه Fréderic Vernier عن التبشير الانجيلى فى ماداغسكر أشار فيه الى نجاح الدعوة فى تلك

(١) فليتأمل القارئ فى شهادة هذا المبشر الانجيلى على قومه

الجزيرة الكبرى ، ولكنه لم يخل كلامه من شكوى مرة من أعمال الجزويت ، الذين لبثوا مدة طويلة مستخدمين قوة الحكومة الفرنسية لاعنات البروتستانت ، ولم يتمكن هؤلاء من رفع الظلم والانتقام عنهم الا ببذل أموال جزيلة ودماء زكية . وكذلك شكا من حملة الملاحدة من الأوربيين الذين كانوا يناوئون الدعوة الدينية من أصلها ، ثم من فساد الأخلاق وفتور العزائم المستوليين على سكان ماداغسكر ، ومما يجعل وصاية البعثات الانجلية على الكنائس الوطنية حتماً .

ثم ذكر ان نسبة المسيحيين الى الوثنيين فى مقاطعات ايمرنيه Imérina ، و بيتسليو Betsiléo ، وتاماتاف Tamatave ، و بلاد السكالاف Sakalaves هى نسبة اثنين الى ثلاثة. وشكا من كون الوثنية فى المدة الأخيرة أخذت تتقدم الى الامام ، وان مبشرا انجيلياً فاجأ ٦٠٠ وثنى مجتمعين لعبادتهم . قال : « وان جميع الأهالى فى ماداغسكر يعتقدون باله واحد يسمونه « اندريا مانيترا » أو « ادريا ماتاهارى » أى أبدى وخالق . وكما يستدل عليه من أمثالهم وعباراتهم ، لا تخلو دياناتهم من مبادئ أدبية سامية . مثلا يقولون : اندريا ميتراتسى تياراتسى . ومعناها : الله لا يحب الشر . و يقولون عبارات معناها : انه يوجد عدل لابد أن ينتصر يوما . والله لا ينخدع . والله لا يخطئ ولكن الناس هم الذين فى الضلال وغير ذلك . ومع هذا فهذه العقيدة بقيت عاجزة عن اعطاء الماداغسكريين ديانة قيمة قادرة على تزكية النفوس . فانهم يوجهون صلاتهم الى جماجم الموتى ، ويظنون ان أرواح الأهالى الأصليين الذين طردتهم أمة الهوفا Hovas من ديارهم ، عادت فاتخذت مساكن فى بعض الحجارة والينابيع ، فلهذا يقدمون لها القرابين لتسكين غضبها . وهم يعتقدون بالسحر والسحرة ، وبالتعاويذ والرقى ، والطلسمات ، وبالاجال فدينهم دين الخوف ، ولا يعرفون شيئاً عن الاله الكريم العفو الغفار قابل التوب . الى آخر ما قال .

ثم ان فى هذا الكتاب فصلا مهما عن الكامرون نلخص منه بعض معلومات مفيدة وهو من قلم المبشر المسيو الليغره Allegret . قال :

الكامرون

ان الكامرون قطر واقع فى داخل خليج غينية ، مساحتها أربعمائة وتسعون ألف كيلو متر مربع أى بقدر مساحة فرنسا ، وهو من بحيرة تشاد الى الاقيانوس من الشرق الى الغرب ، ومن النيجر الى الغابون من الشمال الى الجنوب . وأما أهالى الكامرون فعددهم أربعة ملايين أى ضعف أهالى ماداغسكر ، هذا عدا القبائل العاصية المعتصمة بالجبال والمظنون أن نحو ثلثى الأهالى لا يزالون وثنيين . ويسكن فى الآجام الجنوبية جيل متوحش اسمهم البيغمه Pygmé ، والباقون من الأهالى ثلاثة أقسام :

الأول البانتو ، فى السواحل والوسط والجنوب وكلهم فتيشيون ، وهم فرق الدوالة ، والباسة والثورى والبولو الخ . و بين هؤلاء تأسست مراكز التبشير بالانجيل .

الثانى السودانيون الباقى أكثرهم على الفتيشية ، وأصلهم مهاجرون من الشرق وهم سكان شمالى الكامرون ، ولهم امارات وحكومات وطيدة .

الثالث المسلمون وهم الحاوسة ، والفولبة ، والعرب الذين فى سواحل بحيرة تشاد ، فأما الحاوسه ، فان بأيديهم جميع التجارة من شمالى الكامرون الى جنوبيها وهم يهود هاتيك البلاد وتراهم فى كل مكان لا تخلو منهم بقعة ، وفى كل قرية من قرى الجنوب حارة للحاوسة . كما أنه على أبواب المدن الكبيرة توجد قرى للحاوسة والأهالى لا يحبون الحاوسة ولكنهم محتاجون الى البضائع التى يأتون بها ، ويظهر أن هذه النفرة منهم ستزول شيئا فشيئاً وسينتهى الأمر بسيادة الهلال (أى الاسلام) على كل محل ان لم يبادر المسيحيون باتقاء الخطر . وفى الحالة الحاضرة لا تجدهم مفرطين فى التعصب ، فلا يزال عند المبشرين المسيحيين الوقت الكافى لمسابقة دعايتهم .

ولقد كان احتلال أمة الفولبة لبلاد الآداموا ، منذ عهد غير بعيد . جاءوا من بلاد السنيغال والنيجر ، و بورنو وانتجعوها ، وكان أصل انتجاعهم لها ارتياد المراعى لمواشيهم ، ولبثوا حقبة يؤدون اتاوة لملوك الوثنيين ، كما أنه لا يزال طائفة منهم اسمهم البورورو Bororos ، بقرب مدينة فومبان يؤدونها الى اليوم . ولكن لما تكاثر الفولبه اعصوصبوا حول زعيم لهم يقال له آدما وهو الذى انتسبت الى اسمه بلاد الآداموا فاستولى على

المملكة ، وصار الوثنيون هم الذين يؤدون الجزية للمسلمين وصار هؤلاء يأخذونهم أرقاء ، وانهزم جم من الوثنيين الى الجبال حرصاً على استقلالهم . ومع هذا فقد بقي طوائف من المسلمين تحت سيادة الوثنيين . ويوجد أقوام مثل التيكار والباموں والفوت ، يتكون منهم مناطق حائلة بين المسلمين والفتيشيين .

ثم قال وان الكامرون هى أرض مختارة للتبشير ولها مستقبل عظيم ، كأن نتمكن من تنصير الوثنيين الذين فيها ونقف حاجزاً بينهم و بين الدعوة الاسلامية ، وأخيراً ننشر النصرانية بين المسلمين أنفسهم . انتهى كلامه بحرفه

ثم فى محل آخر تكلم هذا المبشر عن آفات الدعوة الدينية من تزاحم الأوربيين على التجارة والربح المالى . وزعم أن الألمان اغتصبوا الأهالى أراضيهم ، وانهم فى أغسطس سنة ١٩١٤ شنقوا ملك دواله ، بحجة أنه تمرد على السلطة الألمانية . ثم انتقل الى ذكر الحرب العامة فقال انها جاءت كصرصر عاتية لم تبق ولم تذر ، فخيل للناس أن عمل المبشرين حبط تماماً بزوال الحكومة الألمانية من الكامرون . إذ أنه لما سيق المبشرون الى الساحل أسارى هجمت العساكر السوداء من الفريقين ، وثار الأهالى وخربوا المؤسسات والمراكز التى كانت للتبشير . وأناس كثيرون هجروا القرى ولاذوا بالجبال فراراً من العساكر وان ١٥ ألفاً من الألمان وأعوانهم قبض عليهم وسيقوا الى دواله حيث كان منهم الى سنة ١٩٢٠ يعملون فى الأرض . فلا حاجة الى ذكر ما حل بالضمائر ونزل بالعقائد من جراء هذه الحوادث ، فقد مات التبشير ودرست معالمه ، وحصل رد فعل استؤنفت به قوة الوثنية ، ورفعت رؤوسها دعاة الكنيسة النصرانية الأهلية ، وصاروا ينادون علناً : لا نريد أن نكون تحت سيطرة البيض ولا أن نكون مسيحيين ، اذ هذه أفعال البيض قد ظهرت للعيان ، فلنعد الى عقائد آبائنا . وهكذا عادت الوثنية الى سطوتها الأولى . وانفرد بعض تلاميذ البعثات الأوربية بمذاهب مزجوا بها بين العقائد المسيحية والفتيشية . وعاد كثيرون من الزنوج الى تعدد الزوجات ، واغتنمت هذه الفرصة الكنيسة الافريقية التى قاعدتها « افريقية للافريقيين » وأخذت تنفر الأهالى من المبشرين الأوربيين ، وأباحت لأتباعها تعدد الزوجات . فان هذه الكنيسة الأهلية لم تكن فى الحقيقة ثمرة نهضة روحية ، بل هى نتيجة دخول روح الوثنية فى النصرانية . فانقسمت الكنائس الى ثلاث كل منها تقاتل

الأخرى . وانتهز دعاة الكاثوليك هذه الغرة ليقولوا للزنوج البروتستانتيين : « أما وقد صرتم من تبعة فرنسا الآن فلا تستطيعون أن تكونوا بروتستانتاً . »

و بينما الوثنية تهاجم النصرانيــة من هذه الجهة اذ هاجمها الاسلام من الجهة الأخرى فان سلطان بامون الذى كان من قبل دعا المبشرين من نفسه ولى وجهه شطر الاسلام و بنى جامعاً ودعا جميع تبعته أن يتخذوا الاسلام دينا .

ثم ذكر هذا المبشر كيف أن الحكومة الفرنسية أرسلت بعثة لاصلاح هذه الحال ، وما عانوه من الصعاب حتى أعادوا الشئ كما كان أو قريبا ممــا كان ، وكيف وحدوا بين الكنائس وأقاموا جبهة واحدة بازاء الاسلام من جانب ، والوثنية من جانب آخر . ثم ختم فصله بقوله :

أما موضوع الاسلام فهو من الطول بحيث لا أقدر أن أفتحه ، فقد سبق لنا أن بيّنّا كيف أن نجويا Njoya سلطان البامون ولى وجهــه شطر الاسلام ، ولكن اسلامه كان ممزوجاً بعقائد وثنية وأخرى مسيحية . وقد صنف كتاباً يعلن فيه مذهبه وسماه « طريق الحياة » وفى الحقيقة أنه فتيشى ، لم يسلم الا ليكون القائد المطلق لشعبه . ولو لم تكن البعثة الانجيلية قد دخلت فى البلاد ، لربما كان الاسلام قد عمها . وقــد خالطت بنفسى أمة البله الذين فى بامون فوجدتهم مسالمين غير متعصبين وهم على جانب من الوداعة ، فظهر لى أنه يمكننا أن نبذر زرع الانجيل بين هذه الامم التى تغلغل فيها الاسلام ، وان نقف تقدمه بل نهاجمه رأساً فى أماكنه فيلزم أن نعيد الى الكنائس الاهلية الصبغة التبشيرية ، ونجعلها دائما تحت سيطرة رسالات الدعاية ولا تنفك عن الدعوة ، ونذكر كنائس سواحل الكامرون بان الاسلام الذى أخنى على جميع كنائس شمالى افريقية ، يمكنه أن يخنى عليها هى ان لم تتدارك هذا الخطر عاجلا . انتهى

وقــد اطلعت على كتاب عن المستعمرات الالمانيــة للاستاذ رورباخ Rohrbach الالمانى ذكر فيــه بلاد الآداموا من شمالى الكامرون فقال : « ان هذه البلاد هى مركبة من القسم الذى كان يخص المانية من قبــل ، وأضيف اليه القسم الذى تخلت عنــه فرنسا لالمانية بموجب اتفاق ١٩١١ . فالآداموا من الجنوب تتصل بالقسم الاعلى من الكامرون ، وتشتمل على أعالى بلاد فنو مع النواحى التى بين فنو واراضى لوغونه ، التى هى حــدود

الالمان من جهة الاملاك الفرنسية المتاخمة لبحيرة تشاد . قال ، وفى هذه الجهات أقوام وطنيون كثيرون لهم سلاطين من أنفسهم ، ويقال للسلطان عندهم لاميدوس Lamidos ، والاهالى منذ عهد طويل هنا هم تحت نفوذ التعليم العربى ، واكثرهم مسلمون . وتوجد مدن مهمة مثل غاروه Garua ، وماروه Marrua ، الى الشمال من فنو . وأعظم امارات بلاد الفلاحين أى المسلمين هى ريبو به Riebnba ، ثم من الآداموا المقتطعة من الاملاك الفرنسية بموجب اتفاق سنة ١٩١١ مدينة ليرة Lere ، و بندر Binder ، وعلى الحدود الالمانية من جهة لونغونه مدينة كوسرى Kusseri ، وفى الشمال على بحيرة تشاد بلدة المونغو Mongo . قال : والاهالى فى الآداوموا حسنو القيام على الزراعة ، وعندهم مواسم حبوب عظيمة ، و يستخرجون زيت الزيتون والسمسم والقطن بكثرة ، وعندهم صناعة النسج مترقية ، وهم يتفننون بها و يكتسون منها ، ولا شك أن للآداموا مستقبلاً عظيما من جهة زراعة القطن .

ثم ذكر بلاد الطوغو من مستعمرات المانية فى خط الاستواء ، وقال ان الاسلام فيها هو فى تقدم مستمر ، ونشر صورة مسجد اسلامى فى مدينة سانزانه مانغو Sansane Mango فى شمالى الطوغو . »

وقد ورد فى كتاب يسمى « المملكة الاستعمارية الألمانية » كلام طويل ، على مسلمى الكامرون وأواسط افريقية نلخص منه مايأتى :

« انه فى القرون الوسطى ، كانوا فى شمالى افريقية يعتقدون بوجود شعوب زنجية سمراء فى بلاد التوارق العليا والتيبستى من جهة وادى دراعة وقزان ، و يظن الرحالة الألمانى ناختيغال Nachtigal ، ان هؤلاء هم الذين يقال لهم كارامانت Karamant ، وكان قد ذكرهم هيرودوتس المؤرخ . ولما فتح العرب شمالى افريقية جاء قسم من البربر وأجلوا الغوبير Gobir الذين هم من أطراف أمة الحاوسة الحاضرين الى السودان فامتدوا هناك وأسسوا الامارات السبع التى يروون انها كانت للحاوسة ، فأما الامارات الخارجة عنهافيظن انها ممالك الأمم التى غلب الحاوسة عليها و يرجح كون مملكة كانم أقدم من ممالك الحاوسة وفى القرن الثانى عشر للمسيح ، جاء الاسلام ودخل بقوة عظيمة ، وانتشر فى جنوبى بحيرة تشاد وفى غربيها ، و بعد حروب شديدة مع أمة تسمى الايزو Eso ، انتهى الأمر بتغلب

الاسلام . وفى القرن الرابع عشر والخامس عشر ، استولى البولالا Bulala ، الذين هم من أصل عربى سودانى مختلط على الكانم . وتراهم اليوم يسكنون فى الجنوب الشرقى من بحيرة تشاد ، وقد تمكنوا من بورنو الى الغرب من البحيرة ، وباختلاط هؤلاء مع الايزو المار ذكرهم تولد الجيل المسمى بالكانورى Kanuri ، ثم عظمت سلطنة بورنو فى القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر الى أن سقطت حديثا[1]. وقدحقق المؤرخ دسبلاغنس Desplages انه فى سنة ١٢٠٠ ، جاء شعب من أصل بربرى ، وأجلب بخيله على غربى السودان ، وكان اسمه السوسو ، وكان شعارهم على أسلحتهم الافعى . ويظن انهم أنفس الهيكسوس خرجوا من وادى النيل الى شرقى السودان فهؤلاء السوسو يحتمل أن يكونوا هم أنفس الايزو الذين فى مدة أربع سنوات قتلوا أربعة من ملوك بورنو . والرحالتان بارت وناختيغال يظنان وقوع هذا الحادث فى القرن الرابع عشر . وعلى كل حال فان عددا من القبائل العربية جاءوا من شرقى السودان ، وانتجعوا البلاد الواقعة جنوبى بحيرة تشاد ، واستقروا فى دارفور ووادای واختلطوا بأهلهما ، وهم أصحاب البلاد لهذا العهد . ثم جاء شعب آخر من الغرب من بلاد السنيغال ، وهو الشعب الذى يقال له الفولبه واشتهر باسم الفلانه ، فهؤلاء أسسوا بلاد الكامرون ، ويظن بارت أن أصلهم من جنوبى مراكش ، ويقول دسبلاغنس انهم بدو من القبائل الرحل فى الصحراء فمنذ عدة قرون جاء هؤلاء من السنيغال وأوطنوا بلاد تشارى رعاة لمواشيهم .

وسنة ١٨٠٦ حصل انقلاب فى مملكة سوكوتو ، أساسه حركة زعيم دينى اسمه الشيخ عثمان يوديو ، وظهر من الفولبه هؤلاء تعصب شديد فى الاسلام ، وتأسست حكومة أمراء ممتدة من النيجر الى البلاد العالية ، الى جنوبى بلاد الاداموا . وصارت سكوتو هى العاصمة وصار تحت حكم سكوتو عدة ممالك ، من جملتها الاداموا التى كانت عاصمتها يولا Jola وكان من توابعها مدينتا تيباتى Tibati وناغاومدره Nagaumdere ، وخضع لمملكة الاسلام جانب من الوثنيين . وجرت حروب كثيرة بين أمة الفولبة ومملكة بورنو ، حضر بعض وقائعها الرحالة الانجليزى دنهام Denham ، وثبت أهالى مدينتى لره Lere ، ولامه Lama ، الوثنيون أمام الفولبة ، ولكن الفولبه استولوا على ناغا ومدره ، وبانقو ، والانحاء

(١) على أيدى المستعمرين الأوربيين

الجنوبية .

ولما سقطت الحكومة المصرية مدة فى السودان الشرقى ظهر الأسود المسمى رابح ، وفتح دارفور ، ودار بنده ، ودار يونقه ، ومملكة الباقرمى وبورنو و بلاد بحيرة تشاد ، وأسس سلطنة عظيمة . (وسيأتى خبر رابح) .

وجاء فى كتاب « المملكة الاستعمارية الألمانية » بمناسبة ذكر الكامرون ، انه يوجد الآن فى جنوبى بحيرة تشاد ، مائة ألف عربى يقال لهم شوا Schua ، جاءوا من أوائل أعصر الاسلام وقد حافظوا على لغتهم طاهرة نقية الى يومنا هذا ، حال كون قبائل عربية أخرى ، جاءت الى الادامو وا واندمجت فى الأهالى ، ففقدت لغتها . على انه مما لا ينكر ، ان اللغة العربية تمثل دوراً مهماً فى جميع العالم السودانى الاسلامى ، لكونها لغة مكتوبة ، وهى لغة القرآن .

السودان

ننقل عن المسيو موريس فال Maurice Wahl معلم التاريخ والجغرافية فى مدرسة كوندورسه Condorcet ومفتش المعارف فى المستعمرات الفرنسية تحت عنوان كلمة « سودان » الفصل الآتى ملخصاً :

« بلاد من افريقية تمتد من الصحراء شمالا الى خط الاستواء جنوبا ، (البحيرات الكبر والكونغو) ومن الاوقيانوس الاطلانتيكى غربا الى الحبشة والبحر الأحمر شرقا ، وهو السودان المطلق فى الغرب والوسط ، والسودان المصرى فى الشرق . فالسودان المطلق اذا دخل فيه ساحل الاطلانتيك مثل السنيغامبيه وغينية العليا ، فمساحته ثلاثة ملايين كيلو متر مربع واكثره يفاع من الأرض قليل الارتفاع من ٥٠٠ الى ٦٠٠ متر ، فيه بعض سلاسل من الجبال مثل سلسلة فوتاجالون فى الغرب تعلو من ١٣٠٠ الى ١٥٠٠ متر ، وسلسلة نياورى فى الجنوب الغربى علوها ١٨٠٠ متر ، وسلاسل جبال الادامو وا وسوكوتو فى الوسط وهى تعلو ٢١٠٠ متر ، وجبال دارفور فى الشرق ارتفاعها ١٨٣٠ متراً . وتهطل الأمطار فى هذه البلاد من حزيران (يونيو) الى اكتوبر ، وهى تنقص كلما أخذت شمالا ، وهذه الأمطار تملأ الأنهار المسماة بالسنيغال والغامبية والكازامانس وريوغراند ومالا كورى ، فى الجانب الغربى ، وكافالى أو باندامه وكوموى وفولتا وويمى ، فى الجنوب . وأهم الجميع

النيجر ، وهناك الشارى والدومادوغو فى نواحى بحيرة تشاد . وأما الساحل الاطلانتيكى فهو شواطئ رملية من الرأس الابيض الى الرأس الاخضر ، وجبال منقطعة مشرفة على البحر من الرأس الأخضر الى جزيرة شربر والمراسى الجيدة فيه قليلة ، والمناخ وبى . وهواء السودان حار مع يبوسة صوب الشمال ، ومع رطوبة نحو الجنوب ، والحراج الكبار لاتوجد الا فى الجنوب الغربى . وأهم المحاصيل الذرة ، والارز ، والقطن ، والتبغ ، وهناك من الحيوانات الخيل والبقر والمعزى والغنم والجواميس ، ومن المعادن الرصاص والنحاس والذهب والفضة ، ويمكن تقسيم السودان الى أربع مناطق ، الاولى فى الشمال الغربى وهى السنيغال والبلاد الواقعة شمالى النيجر ،وأرضها ليست خصبة . والثانية ، بلاد النيجر وجبال كونغ وفوتاجالون ، وهى ذات أرضين مروية وهواء مقبول . والثالثة ، بلاد الغابات المتاخمة خط الاستواء وسواحل غينية . والرابعة ، البلاد التى فى الوسط سوكوتو والآداموا وغيرها وهى خصبة معمورة .

أما الاهالى فانهم من ١٥ الى ٢٠ مليونا ، منهم سود يقال لهم الاولوف Oulofs والسيرير Sèrères والبامباره Bambara والماندينغ Mandinges والكرو Krou والفانتى Fanti والاشانتى Achantis والداهومى الخ فى الغرب والجنوب . ومنهم الحاوسه والسونغاى والكانورى فى الوسط . ومنهم البهل Peuhls والتوكولور Toucouleurs والبربر والتوارق والعرب فى الوسط والشمال . والاكثرية الساحقة فى هذه البلدان كلها للاسلام ، والديانة الاسلامية تكسب دائما من أمم الفتيش . وأكثر السودان أصبح الآن مستعمرات للاوربيين ، فالسنيغال وغينية الفرنسية والسودان الفرنسى وساحل العاج والداهومى لفرنسا . والغامبية وسيراليون وساحل الذهب ولاغوس وأراضى شركة النيجر لانكلترة . وبين السنيغال وغينية الفرنسوية غينية البرتقالية للبرتقال . وللالمانية بلاد توغو على ساحل غينية. وأما الممالك الاهلية المستقلة بعض الاستقلال ، فهى جمهورية ليبريه[١] على الساحل الجنوبى الغربى ، ومملكة كونغ ، وأملاك سامورى على النيجر ومملكة سوكوتو بين البنيوى والنيجر والآداموا جنوبى النيجر ، وبورنو الى الغرب والجنوب من بحيرة تشاد ، والكانم فى الشمال الشرقى ، والباقيرمى فى الجنوب الشرقى ممتدا الى الشرق

---

(١) هذه مستقلة تماماً

بواسطة واداى .

وأما السودان الشرقى فهو الواقع شرقى البلاد التى ذكرناها ، يشتمل على جميع وادى النيل من غوندوكورو الى وادى حلفا ماخلا الحبشة ، متوسط ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ متر ، والنيل يخترقه من الجنوب الى الشمال ، منضمة اليه من الشمال انهر بحر الغزال ، ومن الجنوب السوبات وأنهر الحبشة وبحر الازرق والعطبرة . والأهالى نحو عشرة ملايين نسمة وهم سود فى ناحية الجنوب يقال لهم دينكا وبونغوس ونوير وشيلوق ، وعرب وبهل فى دارفور ، وأما فى بلاد النوبة فأجناس مختلطة ، برابرة وبجة وبيشارى ممتزجون بالعرب . ويقال للناحية الجنوبية الشرقية من السودان المصرى بلاد سنار ، وللبلاد التى شمالى النيل الكردوفان وللتى الى الغرب منه دار فور ، وللتى فى الشمال بلاد النوبة » . اه

سوكوتو

وقال الجغرافى المذكور عن مملكة سوكوتو :

« مملكة فى السودان بين النيجر الأدنى والبنيوى ، مستوية فى الشمال ، مضرسة فى الجنوب ، يرويها نهرا سوكوتو وكومادوقو الصادران من بحيرة تشاد ، هواؤها ناشف فى الشمال كثير الرطوبة فى الجنوب ، زراعتها الارز والقطن وقصب السكر والتمر ، مساحتها ٤٠٠ ألف كيلو متر ، وعدد الاهالى ١٠ ملايين سود ، من الحاوسه والبهل والتوكولور والسونغاى ، كلهم مسلمون ، الا القليل . أعظم مدنهم كانو واورنو وسوكوتو وكفى ابديسانغه Keffi - Abdes - senga وياقو باوغومبى . وقد كانت تأسست سلطنة سوكوتو على يد عثمان دانغ فوديه سنة ١٨٠٢ ، ومدت رواقها على جميع الاقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد ، فانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو والاداموا وغاندو ونوبى ، ولكنها لاتزال تعترف بسيادة سلطان سوكوتو الدينية » .

بورنو

ثم قال عن مملكة بورنو مايأتى :

« مملكة فى السودان الى الجنوب والغرب من بحيرة تشاد ، بين هذه البحيرة

والصحراء وسوكوتو والآداموا والباقيرمى ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وأهلها خمسة ملايين من جنس الكانورى الذين هم متولدون من اختلاط السود والبربر والعرب . والبلاد خصيبة تجود فيها زراعة القطن ، وفيها الغنم والبقر والخيل والنحل بكثرة ، وأهلها ينسجون الثياب والسجادات ، وعاصمتها كوكا » .

الباقيرمى

وقال عن مملكة الباقيرمى ما يأتى :

« مملكة من السودان الأوسط الى الجنوب الشرقى من بحيرة تشاد ، يسيقها نهر شارى ، واقعة اليوم ضمن منطقة النفوذ الفرنسى ، وأهلها مليون نسمة ، وعاصمتها ماسينيه Massenya ، ويقيم السلطان ببلدة بوقومان على الضفة اليسرى من الشارى » .

السنيغال

وذكر عن بلاد السنيغال : « انها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وان أهاليها مليون وثلاثمائة ألف ، من الأولوف والسيرير والبامباره والمالينكه الخ . وقال ان الفرنسيس دخلوا الى السنيغال فى القرن السادس عشر ، ولكنهم لبثوا أحقاباً لا يملكون غير سان لويس وآرغين وغورى ، ثم أخذوا يوسعون فتوحاتهم شيئاً فشيئاً ، ولم تصر السنيغال مستعمرة حقيقية الا سنة ١٨٧٨ ومن السنيغال تبسط الفرنسيس فى أواسط افريقية » .

واداى

وقال عند ذكر واداى :

« بلاد فى السودان الأوسط بين دافور من الشرق ، والبرقوات من الشمال ، والكانم والباقيرمى من الغرب ، والكونغو الفرنساوى من الجنوب ، مساحتها ٤٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وأهلها مليونان ونصف مليون سودانيون مختلطون بعرب ، كلهم مسلمون والطريقة السنوسية سائدة هناك ، وأرض واداى خصبة فى الوسط والجانب الشرقى منها » .

كانم

وذكر عن كانم « أنها الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد ، وان أهلها عرب وتيبو ،

وعددهم مائة ألف وهى اليوم تابعة واداى » . اه .

وللفاضل الأديب الشيخ محمد بن عمر التونسى ، رحلة الى دارفور وواداى مترجمة الى اللغة الفرنسوية بقلم الدكتور پرون Perron مدير المدرسة الطبية فى مصر أيام محمد على وأحد أعضاء الجمعية الآسيوية ، وقد تضمنت هذه الرحلة فوائد عظيمة عن تاريخ دارفور وواداى والباقيرمى وما جاورها ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وحروبها الداخلية ، نأثر منها نبذة عما يتعلق بسكان واداى ، الذين بينهم قبائل كثيرة من العرب ، وقد اضطررنا لنقل ذلك من الترجمة الفرنسية لعدم وصول يدنا الى الأصل العربى ، قال فى الصفحة ٢٤٥ :

« ان سكان دار صليح (اسم وادى) هم المصاليت والميمة والداجو والكاشمرة والقرعان والكوكا والجنادرة والبيرقيد . وكل من هذه الشعوب يسكن فى ناحية ، فالمصاليت يسكنون فى دار الصباح أى بلاد الشرق وهم انسباء لمصاليت دارفور ، وعددهم كثير سواء فى دارفور أو فى واداى ، وهم مرابيع القامات شديدو السمرة ، وأكثر بلادهم سهول . وأما أهل واداى الأصليون فيسكنون فى وسط البلاد ، ومنهم ينتخب وزراء السلطان وأجناده ، وبلادهم جبلية وأعظمها جبل آبوسنون ، وهم يزعمون أنهم أصل أهل واداى وان سائر أقوام واداى متشعبة منهم ، وهم طوال القامات أشداء كالعمالقة . وأما الكشامرة ، فيسكنون على مسافة أربعة أيام من « واره » عاصمة واداى ، فى واد لطيف تجرى فيه المياه وتسقى أراضيهم ، وهم كثيرو العدد ، وقراهم معمورة جداً ، واذا قرع طبل الحرب خرج من أصغر قراهم ٥٠٠ رجل شاكى السلاح ، وهم اذا اجتمعوا يشكلون وحدهم جيشاً عظيما مع أنهم أطوع من غيرهم للسلطان ، وعندهم وداعة بدون ضعة ، ولونهم بين الأبيض والاسود ، ولغتهم تختلف عن سائر لغات أهل واداى . وأما الكوكا فانهم كثيرو العدد ، ونساؤهم موصوفة بالجمال يضاهين أجمل النساء الحبشيات ، وهم طوال رشيقو القدود أقوياء ، مفتولو السواعد ، وقراهم معمورة وأراضيهم مروية ، والسلاطين تتزوج منهم لجمال نسائهم .

«وأما القرعان فانهم فى شمالى واداى ، ونساؤهم أيضاً موصوفات بالجمال ، وعندهم كثير

من المواشى [١] .

«وأما الجادو فانهم فى جنوبى دار صليح جيران للكوكا ، ولكنهم غلاظ الطباع قريبون للتوحش . ويجاورهم الميمة وهؤلاء فى الجنوب . والجنا كرة هم عبيد السلطان ، وعددهم وافر ، ومساكنهم الى الجنوب الشرقى من واداى . والبيرقيد هم شرار أهل واداى ليس عندهم عهد ولا صدق ، يقطعون الطرق وينهبون السابلة ، قصار القامات ، وهم سقاط فى نظر أهل واداى . وحول واداى تسكن قبائل عربية صريحة ، فمن الشرق ، الزبيدية ، وعرب البحر والعريقات ، ثلاث قبائل غنية قوية . وقد حقق لى الفقيه موسى زعيم الزبيدية أخو بدر الدين الامام الذى يصلى بالسلطان صابون صاحب واداى أن الزبيدية هم من زبيد فى اليمن ، أصلهم من حمير . أما العريقات فقال لى الفقيه محمد أحدهم وهو ترجمان السلطان ان أصلهم من العراق ، من سلالة لخم وجذام ، وأما عرب البحر فانهم كثيرو العدد ، ينقسمون الى عدة بطون ويلى أمرهم زعيم واحد . والى الشمال من واداى المحاميد ، وهم بطون وأفخاذ عديدة ، وعندهم أموال لا تحصى من الابل والخيل وغيرها ، وفى الجنوب يوجد عرب المسيرة والفلاآن وهم كثيرون جداً » . انتهى بتصرف .

وجاء ذكر العرب فى محل آخر من هذه الرحلة فيقول فى صفحة ٢١ : « ان قبائل الكوكا والكودكو والبيقو والداجو والماوبيه والبيرقيد والحيات والبنداله والفيرتى فى الجنوب والغرب والبرتى والميمة والغيمير والمسمجة والمادافو والبلاله والهليلات فى الشمال ، والمصاليت فى الشمال،وغيرهم ، كل قبيلة منها لها ملك والقبائل العربية التى كلها تسكن أرض وادى أو بعضها مثل السلامات والجعاتنة وبنى راشد ، عليهم أيضا مشايخ ، وكلهم تحت نظر ولاة السلطان ، كل زغيم أو ملك تابع لوكيل السلطان الذى يليه » . اه .

وكنت سمعت أن سلاطين واداى ينتسبون الى بنى العباس ، وأخبرنى سيدى أحمد الشريف السنوسى أن هذا هو المشهور عند أهل السودان ، وأن أهل واداى لا يدعون على منابرهم الا لسلطانهم ولا يعرفون خليفة ولا اماماً غيره. فلما كنت أطالع رحلة الشيخ محمد بن عمر التونسى وجدته يشير الى انساب سلاطين دارفور وكردوفان وواداى ، فقال ما يأتى ملخصاً :

---

(١) ذكر لى الاستاذ السنوسى الكبير سيدى أحمد الشريف أن بلاد القرعان هؤلاء تمتد الى أطراف الصحراء والى الواح التى هى بلاد السنوسية جنوبى الكفرة .

« عند ما جئت الى واداى وكنت أصلى الجمعة كنت أسمع الخطيب يدعو دائما بنصر السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان محمد صالح بن السلطان محمد جوده ابن السلطان صليح ، فخطر لى أن أسأل شيوخ البلاد عن نسب السلطان صليح ومحتده ، فكانت الأجوبة مختلفة ، فبعضهم قال لى انه سناوى أى من أهل واداى الأصليين سكان جبل آبوسنون . ثم لحظت ان ختم السلطان مكتوبة عليه هذه الكلمات « السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان صالح العباسى » فسألت عن كيفية اتصال نسبه ببنى العباس ، فبعضهم ذهب الى أنها نسبة غير حقيقية ، وآخرون وثقوا هذه النسبة ، فسألت العقيد أحد من أكابر رجال الدولة وكان متوقد الذهن واسع المعرفة ، فقال انه عند استيلاء التتار على بغداد انهزم العباسيون الى مصر ، ولما غلبت دولة المماليك على مصر تفرقوا أيضا فى الأطراف ، فذهب منهم واحد الى الحجاز وولد له ولد سماه صالحا ، فلما كبر صالح صادف فى مكة حجاجاً من سنار ، وكان فقيها عالماً حكيما ورعاً ، مواظباً على الفروض الدينية ، يحبه العلماء والصلحاء ، فأحبه السناريون ورغبوه فى زيارة بلدهم ، فجاء الى سنار ، فرأى فيها من الفسق والفجور ما اشمأزت منه نفسه فلم يطل المقام عندهم ، وما زال يضرب فى البلاد حتى وصل الى جبل آبوسنون فى واداى . وكان أهل هذا الجبل وثنيين ، فأسلموا على يده لما رأوا من دينه وصلاحه وارشاده ، وأقاموه رئيسا عليهم وكانوا فى كثرة عظيمة ففرض الزكاة على الأغنياء لاعانة الفقراء . ثم دعا الى الجهاد فى المشركين ، فأطاعه الذين شرح الله صدورهم للاسلام وغزوا الكفار . الا أن صالحا قدم بين يدى السيف الدعوة باللطف ، فأجابه الى الاسلام أربع قبائل كبيرة ، قبيلة آبوسنون ثم المالانقه والمادابه والماداله ، وهم أصل مملكة واداى . ولا يمكن أن يكون سلطان الا اذا كانت أمه من إحدى هذه القبائل . ثم يليهم قبيلة آبو داراغ ، ولا تساوى أولئك فى الشرف لأن اسلامها وقع متؤخراً . ثم شرع صالح فى الجهاد وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فلما اتسع نطاق الاسلام فى تلك البلاد ، بويع صالح سلطانا وصار الملك فى أعقابه

قال : «وسمعت من جهة أخرى من الشريف سميح ، ان ملوك واداى ودارفور وكردوفان ، كانوا ثلاثة اخوة من فزارة . وذكر تفاصيل هذه الرواية ولكنه قال ، انه لا يوجد دليل من خط أو من تاريخ مكتوب على شئ من هذه الروايات ، وكلها

مسموعات وأخبار شفوية غير موثوقة ، ولكن قال ان الذى اشتهر من سجايا السلطان صليح أشبه بمناقب الرشيد والمأمون ، فى العقل والحزم والكرم وشدة البأس . وعلى كل حال فسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فان عهد تأسيس هذه الممالك الثلاث ، واداى ودارفور وكردوفان ليس بقديم ، ولا يزيد على مائتى سنة » انتهى

أقول ان صح كون أهل واداى لم يدينوا بالاسلام الا منذ مائتى سنة كما يذهب اليه الفاضل الشريف الشيخ محمد بن عمر التونسى ، فمن المقرر ان الاسلام دخل السودان قبل ذلك بكثير . فهذا صاحب صبح الأعشى الذى عاش قبل هذا العهد بنحو خمسمائة سنة ، يقول عن أهل برنو انهم مسلمون ، ويذكر أنه وصل كتاب من ملك البرنو فى أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه انه من ذرية سيف بن ذى يزن ، الا انه لم يحقق النسب ، فذكر انه من قريش وهو غلط منهم فان سيف بن ذى يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير . قال : وقاعدتهم مدينة « كا كا » بكافين بعد كل منهما ألف ، فيما ذكر لى رسول سلطانهم ، الواصل الى الديار المصرية صحبة الحجيج فى الدولة الظاهرية برقوق .

واليك ماقال عن الكانم : « والكانم بكاف بعدها ألف ثم نون مكسورة ، وميم فى الآخر وهم مسلمون أيضاً ، والغالب على ألوانهم السواد . قال فى « مسالك الأبصار » : و بلادهم بين افريقية و برقة ، ممتدة فى الجنوب الى سمت الغرب الأوسط . ثم نقل عن « مسالك الأبصار » ان أحوال كانم وأحوال أهلها حسنة و ر بما كان فيهم من أخذ فى التعليم ، ثم قال نقلا عن « مسالك الأبصار » وسلطان هذه البلاد رجل مسلم قال فى « تقويم البلدان » وهو من ولد سيف بن ذى يزن . وقال فى « مسالك الأبصار » وأول من بث فيهم الاسلام ، الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه وملكها ثم صارت بعده لليزنيين . وذكر فى « التعريف » ان سلطان الكانم من بيت قديم فى الاسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوى فى بنى الحسن . قال فى « مسالك الأبصار » : وملكهم على حقارة سلطانه وسوء بقعة مكانه ، فى غاية لا تدرك من الكبرياء يمسح برأسه عنان السماء مع ضعف أجناد وقلة متحصل بلاد ، لا يراه أحد الا فى العيدين بكرة وعند العصر ، أما فى سائر أيام السنة ، فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً ، الا من وراء حجاب . قال : والعدل قائم فى بلادهم ، و يتمذهبون بمذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وهم ذو و اختصار فى اللباس

يابسون فى الدين ، وعسكرهم يتلثمون ، وقد بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم » . اه . قلت من كان العدل به قائماً فلا يعد ملكه حقيراً .

مملكة مالّى

ثم ذكر فى صبح الأعشى مملكة مالى فى السودان قال : « ومالى بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناة تحت فى الآخر وهى المعروفة عند العامة ببلاد التكرور ، قال فى « مسالك الأبصار » وهذه المملكة فى جنوبى المغرب متصلة بالبحر المحيط . قال فى « التعريف » وحدها فى الغرب البحر المحيط [١] وفى الشرق بلاد البرنو ، وفى الشمال جبل البربر ، وفى الجنوب الهمج » ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : « انها تقع فى جنوب مراكش ودواخل بر العدوة ، جنوبا بغرب الى البحر المحيط . قال : وهذه المملكة هى أعظم ممالك السودان المسلمين » : وذكر صاحب « العبر » أنها تشتمل على خمسة أقاليم كل اقليم منها مملكة بذاتها . الاقليم الأول اقليم مالى ، واقع بين اقليم صوصو واقليم كوكو . صوصو من غربيه وكوكو من شرقيه . ثم ذكر اقليم صوصو [٢] ثم ذكر اقليم غانة [٣] فقال : « بفتح الغين المعجمة ثم نون مفتوحة وهاء فى الآخر وهى غربى اقليم صوصو المقدم ذكره ، تجاور البحر المحيط الغربى » . قال : وقد حكى ابن سعيد :« ان لغانة نيلا شقيق نيل مصر (هو النيجر) ، يصب فى البحر المحيط الغربى عند طول عشر درج ونصف وعرض أربع عشرة . واليها تسير التجار المغاربة من سجلماسة فى بر مقفر ومفاوز عظيمة فى جنوب الغرب نحو خمسين يوما ، فيكون بين غانة و بين مصبه نحو أربع درج ، وهى مبنية على ضفتى نيلها هذا . قال فى العبر : « وكان أهلها قد أسلموا فى أول الفتح الاسلامى . وقد ذكر فى « تقويم البلدان » أنها مدينتان على ضفتى نيلها احداهما ، يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار » .

---

(١) أى الاقيانوس الاطلانتيكي ، والظاهر أن بلاد مالى هى السنيغال ومضافاتها ، فقد مر بك أن الأوربيين يذكرون من أعظم شعوب السنيغال المالينكه ، وبينها وبين كلمة مالى من المشابهة مالا يخفى

(٢) تقدم ذكر أمة السوسو نقلا عن بعض مؤرخى الافرنجة وذهاب بعضهم الى انهم من الهكسوس ، وقال ربما أبدلوا الصاد سينا مهملة

(٣) هى التى تقول لها الافرنجة غينية

ثم ذكر اقليم كوكو وقال ان ملكها قائم بنفسه ، له حشم وأجناد وقواد وزى كامل ، قال : وقاعدته مدينة كوكو بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها ، وموقعها فى الجنوب عن الاقليم الأول ، قال ابن سعيد حيث الطول أربع وأربعون درجة والعرض عشر درج قال : وهى مقر صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل من غربيه من مسلمى غانة ومن شرقية من مسلمى الكانم . وذكر المهلبى فى العزيزى أنهم مسلمون و بينها و بين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف » .

وذكر بلاد التكرور وهى الاقليم الخامس . قال فى « الروض المعطار » وهى مدينة على النيل على القرب من ضفافه . قال : « و بينها و بين سجلماسة من بلاد المغرب أربعون يوما بسير القوافل . وأقرب البلاد اليها من بلاد لمتونة بالصحراء (آسفى) بينهما خمس وعشرون مرحلة » . قال فى « مسالك الأبصار » انهذه المملكة تشتمل على أربعة عشر اقليما وهى : غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانه وبانبغو وزرنطابنا و بيترا ودمورا وزاغا وكابرا و براغودى وكوكو ومالى . قال : وفى شمالى بلاد مالى ، قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها وهم نيتصر ونتيغراس ومدوسة ولمتونة » . و بعد شروح طويلة ذكر ماقاله صاحب « العبر » وهو : ان هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة ، وكان من أعظمها مملكة غانة ، فلما أسلم الملثمون من البربر تسلطوا عليهم بالغزو ، حتى دان كثير منهم بالاسلام ، وأعطى الجزية آخرون . وضعف بذلك ملك غانة واضمحل ، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم وملكوا غانة من أيدى أهلها . وكان ملوك مالى قددخلوا فى الاسلام من زمن قديم . قال : ويقال ان أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانه » ثم حج بعد اسلامه ، فاقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده . ثم جاء منهم ملك اسمه « مارى جاطه » . ومعنى مارى الأمير الذى يكون من نسل السلطان ، ومعنى جاطه الأسد ، فقوى ملكه وغلب على صوصو وانتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك غانة الذى يليه الى البحر المحيط ، ثم ملك بعده ابنه « منساولى » ومعنى منسا بلغتهم السلطان ، ومعنى ولى على . وكان من أعظم ملوكهم . وحج أيام الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر . ثم ملك بعده أخوه « والى » ثم ملك بعده أخوه « خليفة » وكان أحمق ، فوثب عليه أهل مملكته وقتلوه . ثم ولى عليهم سبط من أسباط مارى جاطه المقدم ذكره ، اسمه أبو بكر . ثم تغلب على الملك

مولى من مواليهم اسمه « ساكبوره » ويقال « سيكره » فاتسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كوكو واستضافها الى مملكته ، واتصل ملكه من البحر المحيط الغربي الى بلاد التكرور ، وحج أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ورجع فقتل فى أثر عوده .

وملك بعده « قو » ابن السلطان ماري جاطه : ثم ملك بعده محمد بن قو . ثم انتقل الملك من ولد ماري جاطه الى ولد أخيه أبي بكر ، فولى منهم « منسى موسى » بن أبي بكر قال فى « العبر » وكان رجلا صالحا وملكا عظيما ، له أخبار فى العدل تؤثر عنه وعظمت المملكة فى أيامه الى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد . قال فى « مسالك الأبصار » حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه ، انه فتح بسيفه أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع . قال فى « مسالك الأبصار » قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك اليه فقال : « ان الذى كان قبلى كان يظن ان البحر المحيط له غاية تدرك فجهزمئين سفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لايرجعوا حتى يبلغوا نهايته أوتنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عادت منهم سفينة واحدة، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتي ، فلم يصدقه ، فجهز الفي سفينة الفا للرجال وألفا للأزواد ، واستخلفنى وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . فكان آخرالعهد به وبمن معه ».

قلت : ان صحت هذه الرواية ولايوجد دليل على كذبها ، فيكون المسلمون قدحاولوا اكتشاف القارة الجديدة مرتين ، أولاهما ، عند ما أبحر الاخوة المغرورون من اشبونة عاصمة البرتقال موغلين فى بحر الاطلانتيك ، والثانية ، على يد هذا الملك الذى حاول هذا الأمر مرتين وذهب فى سبيله شهيداً .

قال فى « العبر » وكان حج الملك منسى موسى سنة أربع وعشرين وسبعمائة فى الأيام الناصرية (محمد بن قلاون)

قال فى « مسالك الأبصار » قال لى المهمندار خرجت لملتقاه من جهة السلطان ،

فأكرمنى اكراماً عظيماً وعاملنى بأجل الآداب ، ولكنه كان لايحدثنى الا بترجمان ، مع اجادته اللسان العربى . قال : ولما قدم ، قدم للخزانة السلطانية حملا من التبر ، ولم يترك أميراً ولارب وظيفة سلطانية الاو بعث اليه بالذهب ، وكنت أحاوله فى طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية . فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان ويقول : « جئت للحج لا لغيره » . ولم أزل به حتى وافق على ذلك . فلما صار الى الحضرة السلطانية قيل له : قبل الأرض ، فتوقف وأبى اباء ظاهراً . وقال : « كيف يجوز هذا ؟ » فأسرّ اليه رجل كان الى جانبه كلاما . فقال : « أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ثم سجد » وتقدم الى السلطان . فقام له ببعض القيام وأجلسه الى جانبه وتحدثا طويلا . ثم قام السلطان موسى فبعث اليه السلطان بالخلع الكاملة له ولأصحابه (وأفاض فى وصف الخلع) ولما آن أوان الحج بعث اليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهجن جليلة كاملة الاكوار والعدة لمركبه ، وهجن اتباع لأصحابه وأزوادجة ، وركز له العليق فى الطرق ، وأمر أمير الركب باكرامه واحترامه . ولما عاد بعث الى السلطان من هدية الحجاز تبركا ، فبعث اليه بالخلع الكاملة له ولأصحابه . وذكر عن ابن أمير حاجب والى مصر انه كان معه مائة حمل ذهبا أنفقها فى سفرته تلك على من بطريقه الى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر الى الحجاز توجها وعوداً حتى احتاج الى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم فى كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، وبعث اليهم بذلك بعد توجهه الى بلاده . قال فى « العبر » ودام ملكه خمساً وعشرين سنة ومات فملك بعده ابنه « منسامغا » ومعنى مغا عندهم محمد يعنون السلطان محمداً ، ومات لاربع سنين من ولايته . وملك بعده أخوه « منسا سليمان بن أبى بكر » . قال فى « مسالك الابصار » واجتمع له ماكان أخوه افتتحه من بلاد السودان وأضافه الى يد الاسلام ، وبنى به المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام به الجمع والجماعات والأذان ، وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وتفقه فى الدين . قال فى « العبر » ودام ملكه أربعاً وعشرين سنة ، ثم مات وولى بعده ابنه « قنبتا بن سليمان » ومات لتسعة أشهر من ملكه . وملك بعده « مارى جاطه » بن منسامغا بن منسى موسى ، فأقام أربع عشرة سنة أساء فيها السيرة ، وأفسد ملكهم ، وأتلف ذخائرهم بسرفه وتبذيره ، حتى

انتهى به الحال فى السرف ، أنه كان بخزائنهم حجر ذهب زنته عشرون قنطاراً منقولا من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار وكانوا يرونه من أنفس ذخائرهم لندور وجود مثله فى المعدن ، فباعه على تجار مصر المترددين اليه بأبخس ثمن وصرف ذلك كله فى الفسوق ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد ، لا سيما الرؤساء منهم ، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يفيق ، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

وملك بعده ابنه موسى ، فنكب عن طريق أبيه وأقبل على العدل وحسن السيرة . وتغلب على دولته وزيره « مارى جاطه » فحجره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسن تدبير . وبقى « منسا موسى » حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وملك بعده أخوه « منسا مغا » وقتل بعده بسنة أو نحوها . وملك بعده « صندكى » زوج أم موسى المقدم ذكره ومعنى صندكى الوزير ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت مارى جاطه . ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه محمود ، ينسب الى « منساقو بن منسا ولى بن مارى جاطه » ولقبه منسا مغا ، وغلب على الملك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة قال فى «التعريف» وصاحب التكرورهذا يدّعى نسباً الى عبد الله بن صالح بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله أبى الكرام بن موسى الجون ابن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه. وقد ذكر فى تقويم البلدان «أن سلطان غانة ، يدعى النسب الى الحسن بن على عليهما السلام ، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة ، لأن من جملة من فى طاعته ، غانة . » . انتهى ببعض تصرف .

فأنت ترى ما للاسلام فى تلك الديار من القدم ورسوخ القدم . وجاء فى « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » تحت عنوان « تلخيص القول فى سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامى الى هذا التاريخ » ما يأتى :

« اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ، ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة ، وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السودانى فيه . وتتصل بهم من

جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو (بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين) ثم بعدها أمة أخرى يقال لها مالى ، ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكو ويقال كاغو ، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لها أيضاً سغاى [١] ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم ، وهو أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها ، ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر ، فأما أهل غانة فقد كانوا فى صدر الاسلام من أعظم أمم السودان ، أسلموا قديماً وكان لهم ملك ضخم ، وكانت حاضرة ملكهم هى غانة ، وهى مدينتان على ضفتى النيل السودانى من أعظم مدن العالم وأكثرها عمراناً ، ذكرها صاحب نزهة المشتاق (الشريف الادريسى) ، وصاحب المسالك والممالك وغيرهما . وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى فى شرح المقامات الحريرية ما نصه : غانة بلد من بلاد السودان واليها ينتهى التجار (يعنى من المغرب) والمدخل اليها من سجلماسة ومن سجلماسة اليها ذهاباً مسيرة ثلاثة أشهر ، ومن غانة الى سجلماسة اياباً مسيرة شهر ونصف ، وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالأمتعة والأثقال فتباع فى غانة بالتبر ، فمن سافر اليها بثلاثين حملا يرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين ، واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التى فى طريقها الخ . الى أن قال : والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة فى خلقهن وخلقهن فوق المراد ، من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح . اه . وقال ابن خلدون كان فى غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين ، يعرفون ببنى صالح . قال صاحب الاستقصا الشيخ أحمد الناصرى السلاوى : ثم ان أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم فى المائة الخامسة ، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلى البربر ، وزحف اليهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه ، فلما رجع الأمير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر ، واقتضى منهم الأتاوات ، وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام ، فدانوا به . ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية ، وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورين لهم ثم ان أهل مالى كثروا أمم السودان فى نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو ، وملكوا

---

(١) مر بك ذكر السونغاى فى ما نقلناه عن كتب الأوربيين

ما كان بايديهم و بايدى أهل غانة ، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها الى ملكهم وصارت دولة مالى متصلة فيما بين غانة فى الغرب وأرض التكرور فى الشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ، ومن هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبى بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما و بين السلطان أبى الحسن المرينى (صاحب المغرب) من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره [١] ، وكان مع السلطان منسا موسى المذكور ، الأديب الشاعر أبو اسحاق الطويجى الأندلسى الذى بنى له القبة المربعة ، العجيبة الصنعة ، البديعة النقش والتخريم ، التى أجازه عليها باثنى عشر ألف مثقال من التبر ، وغير ذلك مما مر فى أخبار الدولة المرينية . وكان منها أيضا السلطان مارى زاطه[٢] ، الذى هادى السلطان أبا سالم المرينى وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم ، قالوا وكان هذا السلطان مسرفا مبذراً بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم [٣] ، ثم مات بمرض النوم . ثم توارث بنوه الملك من بعده ، فكانوا فى تراجع وانتقاص الى أن انقرض أمرهم شان غيرهم من الدول ، وظهرت دول آل سكية من أهل مملكة كوكو ، و يقال كاغو . قال الامام التكرورى فى كتابه « نصيحة أهل السودان » : ان آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان ، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية (بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث) وكان الحاج محمد المذكور رحل فى أواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز ، بقصد حج بيت الله الحرام و زيارة قبر نبيه ﷺ ، فلقى بمصر الخليفة العباسى ، اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ ، حتى محاه السلطان سليم العثمانى أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له فى امارة بلاد السودان ، وان يكون خليفته هناك ففوض اليه الخليفة العباسى النظر فى أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من و راءه من المسلمين ، فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة ، وجرى على منهاج أهل السنة ، ولقى بمصر أيضا الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطى فاخذ عنه عقائده ، وتعلم

(١) ومنسى موسى هو الذى حج ومر بمصر فى أيام الناصر ابن قلاوون حسبما تقدم

(٢) وفى صبح الأعشى يقول مارى جاطه

(٣) وتقل الحكايات التى نقلناها عن صبح الأعشى

منـه الحلال والحرام ، وسمع عليه جلا من آداب الشريعـة وأحـكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه . فرجع الى السودان ونصر السـنة ، وأحي طريق العـدل ، وجرى على منهاج الخليفة العباسى فى مقعده وملبسه وسائر امور ه ، ومال الى السيرة العر بية وعدل عن سيرة العجم ، فصلحت الأحوال ، وكان الحاج محمـد المذكور سهـل الحجاب ، رقيق القلب ، خافض الجناح ، شديد التعظيم لأئمة الدين ، محبا للعلماء مكرما لهم ، ولم يكن فى أيامـه كلها بؤس ولا بأس ، بل كانت رعيته فى خفض عيش وأمن سرب ، وفرض عليهم شيئا خفيفاً من المغارم وظفه عليهم ، وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطى شيخه ، ولم يزل على سيرته المـذكورة الى أن اخترمتـه المنية . فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد ، فاحسن ما شاء وتبع سيرة أبيه الى أن لحق بر به . فقام بالامر بعده ولده اسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه واستمر حاله الى أن غزته جيوش المنصور [1] ، فنقضت ملـكه ونثرت سلـكه ، وانقرض آل سكية بعـد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان . وأما مملـكة تـكرور وكانم فقال ابن خلـكان ، ان كانم (بكسرالنون) جنس من السودان وهم بنو عم تـكرو ر ، وكل واحـدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم ، وانما كانم اسم بلدة بنواحى غانة ، وتـكرور اسم للارض التى هم فيها . قال فى الاستقصا انه كان لاهل كانم مع الدولة الحفصية (بتونس) فى المائة السابعـة وما بعـدها ، مهاداة ومواصلة كما كان لاهل مالى مع بنى مرين . ونقل عن الشيخ أحمد بابا السودانى من تقييده المسمى بمعراج الصعود ، أن أهل السودان اسلموا طوعا بلا استيلاء أحـد عليهم ، كاهـل كانو وكنتى وبرنو وسنغاى ، ماسمعنا قط ان أحداً استولى عليهم قبـل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كاهل مالى أسلموا فى القرن الخامس أو قر به ، وكاهل برنو وسنغاى . اهـ . قال وقد علمت ان أهل غانة تقدم اسلامهم على هذا التاريخ

وقال المسيو اندرى آرسين André Arcin مدير القـلم المخصوص بوالى غينيـة فى كتابه المسمى غينية الفرنسية La Guiné Française المطبوع سنة ١٩٠٧ ، ان احمد بابا المـذكور ، يزعم انه سنة ٦٠ للهجرة ، كان فى مدينة غانة العظيمة لا أقل من ١٢ جامعا ولـكن فى هذا القول مبالغة عظيمة ، والارجح أن مملـكة السونغاى لم تدخـل فى الاسلام

---

(١) السعدى صاحب المغرب

الا فى القرن الحادى عشر [١] .

اما ياقوت الحموى فيقول فى معجم البلدان عن أهل كانم انهم سودان مشركون ، وقد كان ياقوت فى أواخر القرن السادس الى أوائل السابع فيظهر أن اسلام أهل كانم أحدث عهداً من اسلام أهل مالى وغانه ، أو ان خبر اسلامهم لم يبلغ ياقوت فى وقته . وذكر ياقوت شاعراً بمراكش اسمه الكانمى ، كما أن صاحب الاستقصا ذكر شاعراً هو أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الذى أنشد المنصور الموحدى قوله : —

أزال حجابه عنى وعينى تراه من المهابة فى حجاب
وقربنى تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابى

قلت أظن الشاعر الكانمى الذى ذكره ياقوت هو هذا الذى ذكره صاحب الاستقصا لأن عهد ياقوت هو عهد الموحدين ، وأما هذا المعنى الذى نظمه فقد أخطر ببالى من شعر الحداثة قصيدة نظمتها وأنا ابن ست عشرة سنة ومنها :

لقد أناك بالقدر التدانى وقد أدناك بالحب التناءى
توقد شدة وتذوب لطفاً كطبع السيف من نار وماء

وذكر صاحب الاستقصا من علماء برنو ، الشيخ العارف بالله أبا محمد عبد الله البرنوى شيخ الولى الكبير أبى فارس عبد العزيز الدباغ قال ، وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء .

وذكر صاحب الاستقصا دخول ملك برنو فى طاعة السلطان المنصور السعدى صاحب المغرب فى خبر طويل نقلا عن « مناهل الصفا » خلاصته أنه فى سنة تسعين وتسعمائة ، ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول ملك برنو ، ومعه هدايا مما جرت عادتهم بأن يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسى السودان وطرفه . وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين . فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس ، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة ، جلس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه واستوقف الموالى والمماليك سماطين من التوأمتين الى القبة العربية ، ثم منها الى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ، ثم منه الى باب المعسكر القبلى وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل

(١) أى القرن الخامس للهجرة

بالديوان، وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً، وكرسى المملكة وسرير الخلافة منصوبا به، والمهابة قد اخرست الألسن وأخشعت القلوب والأبصار، فجلس الرسول هنالك ملياً، ثم توجه به على سبيل الترقى الى القبة العربية فجلس بها، ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعته السعيدة، فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله، واعترف للمملكة العظيمة بحقها، وآظهر من الخضوع والاستكانة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به الى معسكر ولى العهد تاج الاسلام، وكافل الأمة بعد والده المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء. فأشرف الرسول على دنيا اخرى، وأبهة مدهشة، ومحلة هائلة، فوقف موقف الحيرة واستدرج الى أن وصل لقباب ولى العهد ومضاربه، وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه الفخم قعود، ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه، حيى وفدّى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس، وأدر عليه من الانعام والاكرام ما لم يكن له فى حساب. وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار، لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار. وكان هذا الرسول قد وفد من قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثمانى، يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان، واخفق سعيه ولم يحصل على طائل، فوجهه فى هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد، فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول، جر اليهم ذلك توغلهم فى الجهل، وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة. وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطرى توات وتكورارين وأمل أن يجعلهما ركابا لبلاد السودان، والاستيلاء على ممالكها التى وجه اليها عساكره بعد ذلك. فبلغت مملكة مالى الى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب. فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة، وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو، ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته، وتوجيه هدية من عتاق الخيل بكسى من ملابس الخلافة، واسباب أخر. ولما بلغ الرسول، والقى المعذرة، الى سلطانه، استأنف الهدية واعرب اذ ذاك عن مراده، ورد الرسول ثانية الى باب امير المؤمنين

فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش ، فازال اللبس و بين الغرض ، فلما تحقق المنصور بقصده ، صدع له بالحق والدعاء الى التى هى أقوم ، وطالبهم بالبيعة له والدخول فى دعوته النبوية ، التى أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد الانقياد اليها ، وقررهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق ، ان الجهاد الذى ينتحلونه و يظهرون الميل اليه لا يتم لهم فرضه ، ولا يكتب لهم عمله ما لم يشدوا فى أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذى اختص الله أمير المؤمنين بوصفه ، اذ هو الكافل لهذه الأمة و وارث تراث النبوة ، وقيضه الله لخلافة بيضة الاسلام ، وخصه بالشرف القرشى ، الذى هو شرط فى الخلافة باجماع من علماء الاسلام ، وأئمة السنة الاعلام ، والزمهم القيام فى اقطارهم بدعوته . ومجاهدة اعدائهم الكفار بكلمته ، وعلق لهم أيده الله (١) الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط ، فالتزمه الرسول و زعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة ، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء ، فانشأها كاتب الدولة ابو فارس عبد العزيز الفشتالى ونصها : « الحمد لله الذى أعلى لكلمة الحق منارا ، يسامى فى مطالعها النجوم ، وزاح بها عن شمس الهداية المنيرة ، غياهب الغباوة المدلهمة ، وسحاب الغواية المركوم » الخ وارسلوا نص البيعة الى السلطان أبى العلا صاحب مملكة برنو . وانتخب المنصور رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة باحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه باخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها . و بعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها ، بأن يرتب على معدن الملح الذى فى تغازى بين المغرب والسودان وظيفا ، بأن يجعل على كل من يحمل منه شيئاً من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار ، لأن ذلك بحر لا ساحل له . وكان المنصور لم يكاتبه فى ذلك حتى استفتى علماء ايالته وأشياخ الفتيا بها ، فأفتوه بما هو المنصوص من أن النظر فى المعادن مطلقا انما هو للامام ، وانه ليس لأحد أن يتصرف فى ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه . و بعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول ، من انشاء العلامة الأديب مفتى الحضرة المراكشية ، المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى . ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان

---

(١) صاحب مناهل الصفا محرر هذا الكلام معاصر للمنصور

اسحق سكية واطلع عليها ، شق عليه ذلك وماطل فى الجواب ، وحيث أبطأ الرسول ، فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة ، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان . قال الفشتالى لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية والمنصور أمير ناحية ، وانه لا تجب طاعته عليه ، شاور المنصور أصحابه وأهل الرأى والتقى فى يوم مشهود . فقال لهم « انى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو لتجتمع كلمة المسلمين ولأن بلاد السودان كثيرة الخراج يتقوى بها جيش الاسلام » الخ فلما فرغ المنصور من كلامه سكت الحاضرون ، فقال لهم اسكتم استصواباً لرأيى ، أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لى . فأجاب كلهم بلسان واحد ان ذلك رأى عن الصواب منحرف ، وذلك لأن بيننا و بين السوادان مهامه فيحاء ، تقصر فيها الخطى وتحار فيها القطا ، وليس فيها ماء ولا كلأ ، فلا يتأتى السفر فيها ، وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها ، لم تطمح همة واحد منهم لشئ من ذلك ، وحسبنا أن نقتفى أثر تلك الدول ، فان المتأخر لا يكون أعقل من الأول . فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم قال لهم « ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمرى وفيلتم به رأيى ، فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندى ، فاما قولكم بيننا و بينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدو بتها وعطشها ، فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك المهامه فى كل وقت ، و يخوضون احشاءها مشاة وركبانا وجماعة و وحدانا ، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها ، وأنا أقوى أهبة منهم ، وللجيش همة ليست للقوافل . وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الافرنج ، والموحدون اقتفوا سبيلهم فى ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد الواد بتلمسان ، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو عليها جملة ، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ماأردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرسانا رامحة و رماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف ، وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فقاتلتهم سهلة

وحربهم أيسر من كل شئ (١) وأيضا فان السودان أنفع من افريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير فى نفع قليل. فهذا جواب ماعرض لكم،ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعادالقريب ، فانه كم ترك الأول للآخر ».فلما فرغ المنصور من خطابه، انفصل الجمع على البعث الى السودان ومتابعة المنصور فى رأيه عليه . قال صاحب الاستقصا : وفى كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الأول ، ماقاله من ان الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان ، يعنى بهم الذين أقاموا بأرض المغرب مثل يوسف بن تاشفين و بنيه ، فلا يرد عليه ان الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر ، لان ذلك بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها ، واعراضه عن ملك المغرب . الثانى ، ماقال من أن البارود لم يكن فى تلك الدول الفارطة ، يعنى به لم يكن موجوداً فيها بكثرة ، فلا يرد عليه ان ظهوره كان فى أوائل المائة السابعة لأول دولة بنى مرين . ثم انه فى سنة سبع وتسعين وتسعمائة . اخذ باعداد آلة السفر ومهماته ، وتهيئة المدافع والعجلات التى تحملها ، والبارود والرصاص ، و بقى فى الاستعداد مدة طويلة . وفى اليوم السادس عشر من ذى الحجة سنة ٩٩٨ خرجت العساكر وعدتها اثنان وعشرون ألفاً ، منهم ألفان من المدفعية والبحرية وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر ، وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة ، وكتب الى قاضى تنبكتو العلامة أبى حفص عمر بن الشيخ محمود بن عمر آقيت الصنهاجي ، يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة . فنهض العسكر من تانسيفت الى ثنية الكلاوى الى درعة ودخلوا القفر فقطعوه مائة مرحلة ، ولم يضع لهم عقال بعير الى أن وصلوا الى تنبكتو ثغر السودان ، فأراحوا بها أياما وساروا قاصدين دار اسحق سكية ، فاحتشد لهم أمم السودان وقبائلها ، والملثمين المهادنين لهم يقال انه جمع فوق مائة ألف مقاتل . ولما تقارب الجمعان عبى الباشا جوذر عساكره للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة ، وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر ، وكانت أسلحتهم هى السيوف والرماح ، فلم تغن مع البارود شيئا . ولما كان آخر النهار ، انهزم السودان وحكمت فى رقابهم سيوف جؤذر وجنده ، حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون ، نحن

(١) لله در المنصور السعدى كأنه دولة استعمارية تتكلم

اخوانكم فى الدين ، والسيوف عاملة فيهم [1] ، وتم النصر لعساكر المنصور فى منتصف جادى الاولى سنة ٩٩٩ ، وراسل ابن سكية جؤذرا فى الصلح على مال معين يدفعه ، فاجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه وكانت العساكر أصابتها الحمى فاتفق رأى الامراء على الرجوع الى تنبكتو ، وكتبوا الى المنصور ولبثوا ينتظرون الجواب . وأخذ جؤذر فى انشاء السفن وتركيبها ، ولما كملت دفعها فى النيل ، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد ، وقوم عسكرا خفيفاً أرسله مع مملوكه الآخر محمود باشا وهو أخو جؤذر ، وقلده أمر العساكر كلها وعزل جؤذرا عنها ، وأمر محمود باشا أن يبقيه معه وكتب الى أمراء العساكر يعاتبهم على الصلح مع ابن سكية ، ويؤكد عليهم فى الرجوع الى بلاده ، واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدوة الأخرى . وخرج محمود باشا فى عسكره فى زمن الحر ، فى وقت لايقدر على الحركة فيه الا القطا الكدر ، وقطع القفر فى خمسين مرحلة ، ونزل بالعساكر على رأس تنبكتو على رأس سنة الألف . ثم شحنوا السفن وساروا بالملاحين والجند الى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك سكية ، وكان هذا حشد لهم أمم السودان ، لكنهم لما سمعوا رعد المدافع والمهاريس ورأوا ارتفاع القنابر فى الجو ، انهزموا وسار اسحق سكية فى فل من جوعه وعبر النيل الى العدوة الأخرى ، فتبعه محمود وعبر النيل خلفه وأوقع به ، ونهب جميع ما احتوى عليه معسكره ، فانهزم الى القفر وهلك فيه . وقام اخو اسحق وجمع جموعا وزحف الى محمود باشا ، فهزمه هذا وقتله . وتمهدت السودان كلها وكتب بخبر الفتح الى المنصور ، فأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة ، وزينت الأسواق وأخرج فيها المنصور الصدقات ، وأعتق الرقاب ، ووصلته من محمود باشا الغنائم مما لايحصى من جلتها أربعون حملا من التبر الخ وانتظمت الممالك السودانية فى سلك طاعته مابين البحر المحيط من أقصى المغرب ، الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر . وكان فى تنبكتو أسرة يقال لها بوآقيت ، ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والقضاة ، وتوارثوا رياسة العلم فى السودان مدة تقرب من مائتى سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد لايبالون بالسلطان فمن دونه ، فلما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم محمود باشا على حالهم الى ان كانت سنة ١٠٠٢ ، فكان أهل السودان

(١) اذاً لم تصدق دعوى المنصور بأنه انما يحارب لأجل الاسلام

سئموا ملكة المغاربة فتخوف المنصور من آل آقيت ، فكتب بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش ، فقبض على جماعة منهم ، فيهم العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت المدعو أحمد بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف ، والقاضى أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت ، وغيرهما ، وحملوا مصفدين فى الحديد الى مراكش ومعهم حريمهم ، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم . واستمروا مدة فى مراكش فى حكم الثقاف الى أن انصرم امد المحنة ، فسرحوا فى ٢١ رمضان سنة ١٠٠٤ وفرحت قلوب المؤمنين لذلك . ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور قال له : أىّ حاجة لك فى نهب متاعى وكتبي وتصفيدى من تنبكتو الى هنا ، حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساق . قال له المنصور : « أردنا ان تجتمع الكلمة ، وانتم فى بلادكم من أعيانها ، فان أذعنتم اذعن غيركم » . فقال له الشيخ أبو العباس : فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان ، فانهم أقرب اليك منا ؟ فقال المنصور : « قال النبى صلى الله عليه وسلم ، اتركوا الترك ماتركوكم ، فامتثلنا الحديث . فقال أبو العباس : ذاك زمان ، و بعده قال ابن عباس ، لاتتركوا الترك وان تركوكم . فسكت المنصور وانفض المجلس ، و بقى آل آقيت بمراكش الى أن مات المنصور ، فاذن لهم ابنه بالرجوع الى تنبكتو . » انتهى ببعض تصرف . وعقب على ذلك صاحب الاستقصا بفصل فى مسألة الرقيق والشرع آثرنا تلخيصه

مسئلة الرقيق والشرع

قال : قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ماكان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من قديم ، وانهم من أحسن الأمم اسلاما وأقومهم دينا ، و بهذا يظهر لك شناعة ماعمت به البلوى المغرب (والمشرق) من استرقاق أهل السودان مطلقا ، وجلب القطائع الكثيرة منهم فى كل سنة ، و بيعها فى أسواق المغرب ، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب ، بل أفحش ، قد تمالأ الناس على ذلك ، وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون ، وكونه مجلوبا من تلك الناحية . وهذا لعمرى من أعظم المناكر فى الدين ، اذ أهل السودان قوم مسلمون ، فلهم مالنا ، وعليهم ماعلينا . ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر ، فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم هو الاسلام ، والحكم للغالب . ولو فرضنا أن

لاغالب ، وان الكفر والاسلام هناك متساويان ، فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار . والأصل فى نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ، ومدعى خلاف الحرية مدعى خلاف الأصل . ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين ، لما تقرر فى الباعة من الكذب مطلقا عند بيع سلعهم ، وفى باعة الرقيق خصوصا ، ولا يعتمد أيضا على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء . لاختلاف الأغراض والأحوال فى ذلك ، فان البائع قد يضربهم حتى لايقروا الا بمالا يقدح فى صحة بيعهم ، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض فى الخروج عن ملك من هو بيده بأى وجه كان ، فيهون عليه أن يقر على نفسه كى ينفذ بيعه عاجلا . وقداستفاض عن أهل العدل ان أهل السودان اليوم وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ، ويسرقونهم من الأماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم ، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب (والمشرق) فى اغارة بعضهم على بعض ، واختطاف مواشيهم ، والكل مسلمون . وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ماهو من هذا القبيل .(الى أن يقول) أما وضع يد الجالبين لهم عليهم ، فلا تكفى شرعا فى جواز الاقدام على شرائهم . لضعف هذه العلامة بمااحتف بها من القرائن المكذبة لها ، وليستفت المرء قلبه فقد قال ﷺ استفت قلبك وان أفتوك . فانه اذا رجع الى قلبه فى هذه المعضلة ، لايقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال . ونقول لولم يكن فى ذلك الاالشبهة القوية وفساد الزمان ، ورقة ديانة أهله ، لكان فى هذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذى هو أحد أصول الشريعة لاسيما عند الامام مالك رضى الله عنه ، مايوجب التخلى عن ملابسة هذه المفسدة بالعرض والدين نسأل الله أن يوفق من ولاه أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعى الذى كان على عهد النبى ﷺ والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبى الناشئ عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله ، وسوق الناس الى دينه الذى اصطفاه لعباده ، هذا هو ديننا الذى شرعه لنا نبينا ﷺ وخلافه خلاف الدين ، وغيره غير المشروع . انتهى ببعض تصرف . والحمد لله على كون الحكومات الاسلامية العصرية ، انتبهت لسد الذريعة ووافقت على ابطال الرق .

تتمةُ ذكر السودان

وذكر المسيو اندرى راسين صاحب كتاب « غينية الفرنسية » مامحصله ان البربر هم الذين من الشمال زحفوا على أمم الفتيش ونشروا بينها الاسلام ، فصارت فى الجنوب مراكز عظيمة للدعاية الاسلامية مثل «دييه» Diéné المدينة التى يقطنها السونغاى ، فقد اجتمع فيها بعد اسلامها بقليل سنة ١٠٥٠ مسيحية ، من جميع أصناف مسلمى الشمال ، لاسيما المانده ، وصارت أعظم ملتقى للتجار فى غربى افريقية بل من أعظم مراكز الاسلام التجارية . و بنى فيها كومبورو مسجدا جامعا مدهش البناء ، ثم تأسست مدينة تنبكتو فى الشمال ، فصارت مركزا آخر يتسرب منها دعاة الاسلام الى الجنوب . ودخلوا الى بلاد ساراكوله Sarakholé على ضفاف السنيغال ، و بلاد منابع النيجر (النيل السودانى) وغينية و بورى Bouré وقسم من سانكاران Sankaran ومن وازولو Ouasoulou ، مع المدينة الدينية كانكان Kankan وما زال الاسلام ينمو على النيجر حتى أسلم أكثر أهالى وادى النيجر وسواحل السنيغال وسيراليون ، و بقيت كورة واحدة أكثرها فتيشية لجهة البحر. وأكثر هذا النمو الاسلامى، كان سببه أمة الفوله والحاج عمر وساموري وانما كان الذين أتوا بالاسلام من الأصل، قبائل من البربر المتعامين، مثل القبيلة المسماة أهل سيدى على وأولاد فاضل وأولاد برّى والشيوش والجيلوبه والكونتة وغيرهم . ومن هؤلاء الكونتة البكاءون الذين اشتهروا فى جهات تنبكتو . وأصل الكونتة من زناتة من بلاد التوات هاجروا الى الجنوب فى القرن الثالث عشر للمسيح ، و بنوا فى تنبكتو المدارس والرباطات مما لمعت به تلك المدينة طويلا ، وتراهم الآن متفرقين فى السوادين ، لكن أهم مراكزهم تاغان Tagan واريبنده Aribinda . والبكاءون يزعمون انهم من سلالة عقبة (بن نافع بن عبد القيس الفهرىّ) الفاتح العربى ، ثم انضم الى ذلك تأثير الطرق الصوفية ، لأن هذه الطرق هى من أحسن الأجهزة للنضال . وأحدثها عهدا وأشدها عزما هى السنوسية ، والتيجانية. وهذه الثانية هى فى السودان الغربى والسواحل أعظم انتشارا . وأما الطريقة القادرية فهى أعظم من الجميع ، وقد اشتهرت بالتسامح والتساهل ، وان كان المهدى السودانى وكثير ممن حاربونا نحن ، هم من أتباعها . وتجد القادرية فى السودان أقساماً منها القادرية البكائية

والقادرية المختارية ، والقادرية أتباع زين العابدين ابن سيدى أحمد ، والقادرية أتباع الشيخ سيديا ، والقادرية الفاضلية جماعة الشيخ سعد بو . فالسواد الأعظم من مسلمى السنيغال وغامبية وغينية والنيجر الأعلى هم قادرية من أتباع هؤلاء ، ثم فى بلاد أولاته Oualata القادرية الرقانية أتباع الشيخ أحمد الرقانى ، وهم ثلاث فرق . أما التيجانية فهى حديثة العهد تأسست فى سنة ١١٨٦ للهجرة ، وأشهر من شهرها فى السودان الحاج عمر ، ومن الغريب انها فى الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيس ، وفى السودان ترفع راية الجهاد . وأما السنوسية فموصوفون بالشدة وعداوة الأجانب أكثر من الجميع ، واتباعهم فى السودان الغربى ليسوا كثيرين ولكن مملكة واداى أكثرها هم .

ولايوجد فى غينية مرابطون على النحو الذى فى المغرب ، بل يوجد بمقام المرابطين رؤساء سياسيون حولهم أتباع وأعوان ، وطبقة أخرى هم معلمو المدارس والفقهاء فى الدين ، ويسمى الواحد من هؤلاء « كاراموكو » Karamokho وعندهم لقب آخر للمجاهدين والذين فتحوا البلدان وهو « المامى » منحوتا من « أمير المؤمنين » (أو نسبة الى الامام) .

وليس عند أهل غينية رغبة عظيمة فى الحج ، بل الذين يحجون الى مكة كل سنة هم عدد قليل بالرغم من كون تورودو الحاج موسى بنى لهم فى مكة رباطا . ولكن لاينبغى أن نغتر ببعض ظواهر الفتور التى تلوح على اسلام غينية ، بأن نعتقد عدم رسوخ الاسلام فيهم وعدم امكان تحفزهم للقيام علينا : فانك لتجدهم شديدى الرغبة بتعليم عقائدهم وفيهم علماء كثيرون لا يكتفون بالقرآن ، بل يقرأون السنة وكتاب خليل فى الفقه المالكى وعندهم مكاتب شرعية مهمة . أخبر الدكتور بليدن Blyden انه عرف منهم اناسا يشترون النسخة الواحدة من المصحف بخمس ليرات انكليزية ، ولا يجدون ذلك كثيرا . وتجد منهم كثيرين مؤلفين وأكثر تآليفهم مخطوطة ، ولكن القرآن صار يطبع فى سيراليون وكوناكرى . وان التربية الدينية فى تلك البلاد ، هى أوسع مما يظن لا سيما فى جهات فوته وكنكان ، فالبنات يدرسن سنتين والذكور أربع سنوات وأحيانا ثمانى سنوات . ومدة الدرس كل يوم تبلغ أربع ساعات . ومن التلاميذ من يرغب فى زيادة التفقه ، فيذهب الى الشمال مثل بلد ديينه وتورو أو يقصد المغرب . ولدينا احصاء ادارى عن مدارس الاسلام

فى بعض النواحى . ففى الديتين Ditinn ٣٤٦ مدرسة فيها ٢٩٦٢ تلميذاً ، وفى كانكان ٦٠ مدرسة فيها ٨٠٠ تلميذ ، وفى كوين Koïn ٤١ مدرسة فيها ٥٧٤ تلميذا ، وفى سيغورى Sguri ٢٨ مدرسة فيها ١٦٠ طالبا . وكان فى فوكومبه Foukoumba مركز بلاد فوته الدينى سنة ١٨٩١ ثلاثون مدرسة للذكور والاناث . وكان فى دينغيراى Dinguiray سنة ١٩٠٠ نحو ٢٠٠ مسجد و ١٨٠ مدرسة فيها ٨٠٠ طالب . وهذا العدد فى دينغراى على ٣٢ ألف نسمة لا زيادة . و وظيفة المعلم محترمة موقرة ، وكثيرون من الزعماء هم يعلمون أولادهم بأنفسهم . و يأخذ المعلم عادة ٢٠ فرنكا على كل سورة يحفظها التلميذ . وعند ما يحفظ نصف القرآن يقدمون له ثوراً ، ومتى حفظ القرآن كله يعطونه فرسا . والمعلم يعلم الأولاد الكتابة بواسطة ألواح فى أيديهم ، وهذا هو التعليم الابتدائى . ولكن الذين يريدون اكمال التحصيل يتعلمون التفسير . وانما قد تبين من تقرير رسمى فرنساوى على حالة التعليم فى احدى كورو وادى النيجر ، انه من بين ألف ولد يخرج ٧٠٠ لايعلمون شيئاً ، و ٢٥٠ يعرفون القراءة والكتابة و ٤٠ يحفظون القرآن كله بدون أن يحسنوا تفسيره بلغتهم ، و ١٠ يمكنهم أن يفسروه بلغتهم . أما الصلاة وأحكام العبادة فمحفوظة جيداً ، واسم الصلاة « سالى » أو « دالى » وساعة الصلاة «ساليفانا» وفى بعض السواحل « سولوفانا » ، وصلاة الفجر فى السواحل « سونغوفو » وصلاة العصر « لانسارا » ، ويقال لها عند المالينكه « لانساما » وصلاة المغرب « سونغومانى » وأما أمم الديولا والسونينكى والماندى فيطلقون عليها أسماءها العربية . ونهار الجمعة يجتمع المسلمون فى المسجد الجامع ، ولكن مما يذكر أن هذه العادة قد خفت كثيراً بعد استيلائنا لا سيما فى فوتا ديالو Fouta Dialo ، وقل ازدحام المصلين فى صلاة الجمعة . ويصومون رمضان لكن لابالتشديد الذى عليه المغاربة ،وعند مايلوح الهلال يكون العيد الصغير ، فيطلقون البواريد. ويسمون عيد الفطر « سونغالوسالى » أو « كالوسالى » وهذا بلغة الماندى ، أما فى لغة الفوله فاسمه « كوريليورو سومايى » ، وفى العيد الكبير يضحون كل واحد كبشا . ويسمى هذا العيد « تاباسكى » بلغة الأولوف و « سالبيا كالو » أو « دونكى سالى » بلغة المالينكه و « باناسالى » بلغة السانينكه.(ثم ذكر اندرى ارسين بعض الحروب التى وقعت بين المسلمين والفتيشيين ، وقال)

ان هؤلاء طالما قاوموا الاسلام بشدة بالغة الحد ، وقد استولى الفتيشيون مرة على كانكان هذه المدينة الاسلامية المقدسة ، ولكن أمة السوننكه الاسلامية كانت تواصل التقدم من الشمال ، وصارت بورى وموسادوغو وموساردو مدنا اسلامية ، وهى أحسن المدن وأعمرها وأنظفها هناك ، ولكن الفتيشيين لبثوا فتيشيين . وكانت غينية العليا أسلمت بتمامها فى أيام المامى سامورى ، ولكن بعد موته رجع الكورما ، والوازولو ، والتورون ، والسانكاران ، والكورانكو ، والكيسى الى أوثانهم ، وعادوا الى شرب المسكر . وأما بلاد التوما فمن البداية لم تطع سامورى .

أما فى الأوان الحاضر فمدن الاسلام فى غينية العليا ممتدة على طول الأنهر،وفيها كثير من الغرباء الذين يتواردون اليها منذ قرنين . وبالاجمال ففى مقاطعة بورى من غينية أشهر مدن الاسلام ، كيرانه Kérouané ، والاهينا Alahina ، ومدينة Medina ، وكاكاتومبو Kakatoumbo ، وفى مقاطعة سييكه Sieké بيرامفيرا Biramfera ، وسيندوقو Sindougou ، وتوقين Togin ، وفى مقاطعة كولوكالان Kouloukalan دوقوره Dougoura ، وكوبانى Kobani وكينيكرو Kiniékrou ، وفى المادينغ Mading ، أهم مدنهم بالانكوما كونا Balankoumakana وأما فى سائر المدن لا سيما فى مقاطعتى ديوما Diouma ونوغا Nouga ، فالأكثرية ليست للاسلام . وأما كانكان فهى من أعظم كراسى الاسلام فى السودان الفرنسى ، أكثر أهلها سوننكه . وكذلك كونغ ودييته . وقد أسس أشياخ الطريقة التيجانية مدارس فى كانكان ومكاتب ، ونشأ فيها مرابطون كثيرون كانت لهم اليد الطولى فى نشر الاسلام فى افريقية الغربية والجنوبية . والى هذا اليوم هى مركز جاذبية لبلاد سيفيرى وكرروسه . وفيها آل سريفو الذين يدعون انهم أشراف من آل البيت ، وان اسمهم مشتق من شريف . ومن المدن الاسلامية العظيمة مدينة طوبا Tonba فى ساحل العاج ، وبيلا Beyla وذاكر الله ، وبلال الله ، ونيالا ودياكوليدغو الخ . وأما بلاد الفوته ديالو فان لها تاريخا مهما فى الاسلام هناك ، فقد جاءتها الدعوة من الشمال بواسطة التوكولور ، ومن الشرق بواسطة السوننكه ، ولذلك تألف بها حزبان أحدهما يقال له « ألفيا » Alfaia والثانى « صوريا » Soria ، فالصوريا هم الشرقيون اتخذوا الطريقة القادرية حال كون الألفيا بحسب قول المسيو لوشاتليه

Le Chatelier ، تمسكوا بالسنة ولم يعرفوا الطرق وقد كان مبدأ الاسلام فى فوته على أيدى البهل والسونينكه ، ولكن لما أسلم على أيديهم الديالونكه صار هؤلاء من أشد الدعاة حمية وليست بلاد فوته منقسمة الى كور اسلامية وأخرى وثنية كما هو الحال فى غينية العليا ، بل جميعها دار اسلام . والمدينة المقدسة فيها هى فوكومبا ، وفى جامعها جرت العادة بمبايعة المامى ، وهذا الامتياز لها ، من أجل كون أمير هذه البلدة هو أقدم أمراء تلك البلاد اسلاما ومن البلدان الاسلامية العظيمة « فوتاطورو » وهى أقرب البلاد الى ديالو . وبلاد الساراكولى وهم من الأقوام الشديدة الاعتقاد ، وفيها مدارس للعلوم الدينية . ومن المراكز المشهورة فى تعليم الدين « تمبى » و « لابى » و « دونهول فلاح » و «فوكومبا» و « بارفلاّ » و « دنتارى » و « كولانغى » وغيرها وفيها الجوامع العظيمة

والاسلام ممتد أيضاً فى الجهات الجنوبية الغربية من غينية ، والسبب فى امتداده الى هناك هى فتوحات القبائل الشمالية مثل السونينكه والتورودو والديولا والديا كانكه ، ومن هذه الأقوام جند الحاج عمر أحسن عساكره ، وخلف مريدين قاوموا الفرنسيس أشد المقاومة ، مثل المرابط محمد ، ولامينا درامى . وقد كان اختلاط السونينكة والديولا بأهالى الجنوب سببا فى زيادة نشر الدعوة المحمدية ، حتى لا يكاد يخلو منها مكان فى سواحل غينية . واشتهر بشدة التمسك بالاسلام أمة النالوماندى . حتى ان ملك النالو تلقب بأمير المؤمنين . كذلك زعيم الساراكولى فى بلاد ميلاكورى لقب بمامى موريا أى امام موريا . فوريا وموريبايا وكالوم وسومبويا وبراميا وبونغو ونونز العليا ، الأكثرية فيها هى للاسلام والأهالى من جنس الصوصو . وكان الميكيفورى Mikiforé باقين على الفتيشية ، لكن الضابط بروكارد Brocard قرر بعد فحص أجراه ، ان الاسلام غلب عليهم اليوم ، حتى قال انهم يعتقدون ان الرجل الحر له وحده الحق بالقاء السلام . وكذلك قبيلة الباغافوره Bage Foré التى هى من أشد قبائل السواحل عتواً . دخلها الاسلام وبدأ كثير من رؤسائها بهجرة الخمرة . وفى بعض الأماكن تجد الزعماء قد صاروا مسلمين وان كان عامة شعبهم باقين على الوثنية . ولقد سرت مع أحد حكام غينية السفلى وهو المسيونوارو Noirot فى أطراف هذه البلاد ، وكانت مضت عليه سنون طوال فى جنوبى غينية ، فاندهش مما رآه من آثار العقيدة الاسلامية مما لم يكن رآه قبلا ، اذ فى كل قرية حتى فى صغريات القرى تجد

مصليات للاسلام . نعم ان مسلمى جنوبى غينية ليس عندهم تعصب مسلمى الشمال . ومن المدن الاسلامية المشهورة فى الجنوب « بنا » و « كيسى كيسى » و « كوناكرى » وبلاد « الهوبو » وأما بلاد « كادى » و « كونسوتامى » و « بومبايا » فهى اسلامية بحتة ، ومعدودة من أقسام « فوته » الضاربة فى نحر الاوقيانوس . ومن علامات تقدم الاسلام فى الجنوب شيوع لقب « المامى » فى ملوكهم مما يغضب أهل فوته ديالو ، الذين يقولون : مامن مامى فى كل غينية سوى أميرهم . وقد يعترفون بهذا اللقب لمامى موريا ، ولكن يصعب عليهم اقرار به لملوك « ريوبونعو » و « كانيا » و « تاميسو » و « نالو » و « كالوم » .

وجميع المرابطين الدعاة فى كورة « واسو » هم فى الأصل من السونينكه ، ويقال لهم « السيسى » و « الدارامى » والتورى والى الشرق من ميلاكورى يوجد قوم اسمهم « اليولا » متمسكون جدا بالاسلام ، وكان لهم يد فى نشره بين الأمم المجاورة ، كذلك فى جهة « فارانا » يوجد قوم اسمهم « الفيريا » مقيمون لشعائر الاسلام بكل دقة لاسيما فى « داندو » و « أولادا » .

والشرف الأعظم فى نظر مسلمى السودان هو الانتساب الى العرب ، فالعرب عندهم هم انموذج الشعوب كما قال المسيو فامشون Famechon ، لاسيما الانتماء الى آل البيت . »

وأنهى المسيو اندرى آرسين كلامه على غينية أو غانة بقوله : ان الاسلام انتشر بسرعة عظيمة فى بلاد الزنوج نعم ان تقدمه اليوم أصبح أبطأ من ذى قبل ، لكنه صار أرسخ من ذى قبل بسبب السكون والامان . واذا اعتبر الانسان انه منذ مائة وخمسين سنة لم يكن مسلمون فى غينية السفلى ، وانهم الآن صاروا نحو النصف من الأهالى عرف مقدار سير الاسلام فى هذه الأقطار . كذلك المرابط منذ ثلاثين سنة فقط ، لم يكن يجرؤ ان يتوغل فى هاتيك الاصقاع ، فصار اليوم يسير و بين يديه جاعات وله اتباع . ثم علل مؤلف « غينية الفرنسوية » نمو الاسلام بين السود ببساطة قواعده ، وما أشبه ذلك من الأسباب التى أشار اليها مؤلف كتاب « الاسلام والنصرانية فى افريقية » .

وقد عرفت الرحالة الشيخ عبد الكريم مراد ، نزيل كانو من بلاد النيجر ، أصله من طرابلس الشام زارنى فى لوزان سويسرة فى العام الماضى ١٩٢٣ ، فسألته عن بلاد النيجر والسوادين فقال لى : « ان بلاد النيجر تشتمل على ٢٠ مليون نسمة ، مقسومة بين

الانكليز والفرنسيس ، وان عاصمة النيجر الانكليزى مدينة لاغوس Lagos ، وان سلطان سوكوتو كان كبير سلاطين السودان كلهم قبل دخول الانكليز ، فلما دخل الانكليز أخرجوا كل أولئك السلاطين من طاعته ، فبقيت له سيادة اسمية . وأما السلاطين المذكورون ، فمنهم سلطان كشينا حج فى العام الماضى . وسلطان كانو . وسلطان برنو . وسلطان زاريا . وسلطان بدا . وسلطان آبدان . وسلطان لورى وغيرهم . وأما سلطان لاغوس وسلطان أبى كتا ، فمشركان . ولكن للاسلام قوة فى بلادهما وفى جميع بلاد الفتيشيين . وسلطان هؤلاء يحتفل بعيد الاسلام ، ويلبس فيه الملابس الرسمية وعند سلطان أبى كتا وزير مسلم ، والجوامع كثيرة فى بلاد الكفار تقام فيها ، الجمع والاذان مسموع . وسألته عن مدينة كانو التى كان فيها ، فأجابنى ان أهلها نحو ثلاثين ألف نسمة وهم مسلمون »

وأختم هذا الفصل بنكتة سمعتها من المرحوم الشيخ عبد الجليل براده من علماء المدينة المنورة ، وأدباء عصره ، قال : سأل واحد من أهل الأدب وهو فى موسم الحج حاجاً أسمر عن بلده فى السودان ، فأجابه : غانة . فأنشد السائل على الفور هذا البيت :

كذا كذا فليزر مولاه من عرفه من غانة غاية الدنيا الى عرفه

* * *

وجدنا من تمام الفائدة فى الاعلام عن غربى افريقية عقد فصل خاص بجنوبى الصحراء الكبرى بين المغرب الأقصى والسنيغال واعتمدنا فيه على رحلة المسيو « غاسطون دونه » Gaston Donnet الافرنسى الذى أرسلته وزارة المستعمرات الافرنسية سنة ١٨٩٣ الى تلك البقاع لارتيادها

قال انه كلف اختراق البلاد المسماة « الترارزة » و « أولاد أبو سبع » و « أولاد دليم » و « بلاد الادرار » والاقامة مدة من الزمن فى مستعمرة « ريو دو اورو » الاسبانيولية ثم التقدم من جهة الشمال الشرقى الى حد « تين دوف » ثم « رأس جوبى » أى وادى دراعة .

وقد كانت هذه الرحلة قبل احتلال فرنسة للمغرب الأقصى . ولصاحبها كتاب آخر اسمه « من السنيغال الى تيريس »

و بلاد السنيغال مأخوذ اسمها من نهر السنيغال . وهذا منسوب الى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة التى منها فروع فى تلك الأصقاع ولما كان الأهالى يلفظون جيم « صنهاجة »

كالـكاف الفارسية أو الجيم المصرية قالوا « صنهاكة » وجاء الفرنسيس فجعلوا منها اسم بلاد « السنيكال » واصطلح كتاب العرب على كتابتها بالغين أى « سنيغال » وقبيـلة صنهاجة هى شعب كبير من البربر قد اختلط بالعرب بالزواج وتولد منه الشعب الذى يسكن الآن فى أطراف الصحراء على حدود السنيغال

وأهم القبائل المجاورة للسنيغال هى ثلاث : الترارزة فى شمالى والو والبراخنة فى شمالى ديمار وفوتا والدويش فى شمالى دمغة الى الشرق والمغاربة فى تلك الديار ينقسمون الى مغاربة شماليين وقبليين فالشماليون هم الذين لا يفارقون أعالى الصحراء والقبليون ويقال لهم القبالة هم الذين يذهبون جنوباً حتى يشرفوا على النهر ويبيعوا هناك الصمغ الذى هو محصولهم الى تجار سان لويس ، وللطرارزة عائلتان وجيهتان فيما بينهم إحداهما أولاد دايمان والأخرى عائد . فأولاد دايمان مرابطون أى لهم الرئاسة الدينية وأولاد عائد محاربون أى لهم إمارة السيف . ولقد تناقصت أهمية هاتين العائلتين بعـد أن صار أحمد سلوم أميراً على الطرارزة بمعاونة فرنسا . وأما عائلات المرابطين المشهورة فهم أولاد دامان وعائلة يقال لها أهل أبياى وعائلة يقال لهـا أهل ريّس وتاغنيت وتاجا كاند والبـارك الله وايت أوالى وايت أبو الحسن وتنداغة وايت يعقوب والسويلات وغيرهم .

وأما طبقة المحـاربين فهى مختلطة من عرب وبربر وسودان والجيش الذى يعتمد عليه أحمد سلوم أمير الطرارزة هو مؤلف من مغاربة مختلطين بسودان من الجيـل الذين يقال لهم ألوف . وأشهر عائلات هـذه الطبقة الهيب الله وأولاد أكـحر وأولاد بوسـبع والعبيدات وأولاد رقيّق وأولاد عايد وزنبوقى وأولاد البُلّيه وأولاد عبـد الواحد والمبارك والرقيبات والدغمولة والسبحات وأولاد عمران وغيرهم . وأكثر هذه القبائل تدفع ضريبة لأحـد سلوم من غنم و بقر وهجن ومعزى وسـكـر وسمك مقدّد و تمر و بارود وبعض مسكوكات . أما عائلات المرابطين فهى معفاة من هـذه الرسوم ويوجد قبيلة اسمها أليب هذه تـكاد تكون مستقلة فلا تخضع لأحد سلوم وهى ترعى المواشى وتكثر بينها و بين أولاد دليم الحروب لأن هؤلاء تغلب عليهم اللصوصية وهم عرب فى الأصل (١)

وأكثر الخوف فى الصحراء من أولاد دليم وهم يجوبون البيداء من كل جهة ويبدأ

(١) قبائل دليم كثيرة بين المدينة المنورة ونجد

مكان سلطتهم فى قنيطير و ينتهى فى ر يّو دو أورو

واما أهالى بلاد تاسيست ونيجيريت و إمشيرى ففى تاسيست البركة الله مرابطون والغورا والبنى عمر البود وهم من أولاد دليم والبو يلى . وأما فى نيجريت فالبركة الله والفوديرو بعض بربر من صنهاجة .وأما فى الامشيرى فيوجد من هذه القبائل ومن أولاد لاب وهم من أولاد دليم فى الأصل . وأولاد لاب هؤلاء متفقون مع الطرارزة . وأما أولاد بو سبع فهم طائفة من المرا كشيين المهاجرين الى الرقيبات وتكنه و بلادهم تبدأ بأعالى أغادير وحدّها الشمالى قيريس . وحدّها الشرقى تاسيست ونيجريت . وأ كثرهم صيادو سمك يصطادون على سواحل طافولىّ وقنيطير وهم تابعون للأمير أحمد سلوم

والعادة فى جميع هذه القبائل أن يسودها صاحب السيف وهو الأمير ثم المرابط وهو الزعيم الدينى و يأتى بعدهما العامة الذين يدفعون الضرائب ولكنهم أحرار تماماً . ثم يأتى الأرقاء وهؤلاء أصلهم من السود غير المسلمين و اذا استرق الانسان زنجياً غير مسلم لا يجبره على الاسلام ، واذا أسلم الزنجى لا يتخلص من الرق ولكن لا يسوغ لصاحبه أن يبيعه من غير مسلم . ويجب على السيد أن يطعم عبده بقدر طاقته ولا يحمله أحمالا شاقة لا يطيقها والعبد يأ كل و يلبس نظير سيده و إذا تحقق أن عبداً كان سيده لا يطعمه فانه يجبر على بيعه . وأ كثر هؤلاء العبيد لا يريدون الحرية فانه يقدر الواحد منهم أن يفر الى سان لو يس فى السنغال ففى الحال ينال حريته . ولكنهم لا يذهبون ليتحرروا لأنهم يرون أنهم لو رجعوا الى السودان وعاشوا بين قبائلهم فان حريتهم فيها لا توازى رقهم عند المغاربة

ومعيشة هذه القبائل هى على وتيرة واحدة دائمة فهم يتنقلون من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . وأرقاؤهم يشتغلون لهم وأ كثر أوقاتهم يقضونها بالأحاديث يجتمعون ويضطجعون و يشربون الشاى و يتحدثون تارة عن سلطان المغرب وأحياناً عن استانبول وأحياناً عن الافرنج وكثيراً ما يشنون الغارات على القوافل ثم ذ كر صاحب هذا الكتاب أنه بقى مدة عند أحد المرابطين الشيخ باباوُلْد حمدى وهو من المشايخ المشهورين هناك وكان يقيم فى قرية اسمها « بوزوبرة » قال : وكنت أرى الأهالى يقومون الصبح و يصلون وراء هذا الشيخ وكان يعظهم وطالما نهاهم عن النهب والتعدى ولكنهم قلما ينتهون . وتكلم أيضاً عن الشيخ سعد بو وأصله من الحوض لكنه من ثلاثين

سنة مقيم فى تاسيست وهو رجل محمود السيرة وكان قد أنقذ الافرنسى « بول سُلْيلِيه » من يد أولاد دليم ولذلك كسب اسما حسنا عند الافرنج . وهو يسكن فى بيت من الحجر لا فى مضارب و بر كغيره و يجلس على كرسى لا على الأرض و يقرأ القرآن و يفسره . وله أخ اسمه ماء العينين له اسم كبير ، وقد ذكر المؤلف تفاصيل كثيرة عن سعد بو وأخيه أهملناها نظراً لمضى زمانها ولكون الفرنسيس بعد ذلك التاريخ احتلوا بلاد المغرب وأصبحوا هم أصحاب الكلمة فى تلك الأصقاع فتغيرت الحالة هناك . وهو يذكر أن هذه القبائل المغربية كانت تنفر من الأوروبى و ترى فيه العدو الدائم وليست أسباب هذه البغضاء هى العداوة بين المسلم والمسيحى فقط بل يظهر أن الافرنج الذين فى سان لويس يسيئون معاملة هؤلاء المغاربة عندما يذهبون الى تلك المدينة و يحتقرونهم و يجرحون عزة أنفسهم والمؤلف ينصح قومه بتبديل هذه المعاملة

و يذكر عن كسل هذه القبائل شيئاً كثيراً و يقول ان شغل أراضيهم ومواشيهم كله بيد العبيد . ولا يمدح منهم غير أولاد بو سبع و يقول انهم القبيلة الوحيدة التى تشتغل وتأخذ وتعطى وأكثر شغلهم بالسمك المقدد . ولا شك أن الحالة قدتغيرت الآن هنالك عما كانت يوم كتب هذا التأليف أى منذ خمس وثلاثين سنة الى أربعين سنة لأنه طرأ على العالم تغييرات كثيرة غير أننا نستبعد أن يكون وقع تغيير فى حالة العلاقات بين المغاربة والأوربيين وربما كانت العداوة اليوم أشد منها قبل أن بسطت فرنسا حمايتها على المغاربة وذلك لأسباب لا تخفى عن أحد

الاسلام فى السودان

مقال قيم للاستاذ ديريش وسترمان الألمانى

فى مجلة العالم الاسلامى الألمانية

نشر الاستاذ الالمانى المعروف ديريش وسترمان مقالا فى مجلة (العالم الاسلامى) الالمانية عن الاسلام فى السودان ، ننشره فيما يلى .

تقتصر الابحاث الآتية عن الاسلام فى بلاد السودان الممتدة من الصحراء وسواحل غيانا العليا الى سواحل الكمرون ومنها الى الحدود الغربية للوادى فى اتجاه شمالى شرقى ، أو بعبارة أوضح على مناطق نفوذ قبائل « الماندينجو » و « الهوسا » و « الفولبا » السياسية والاقتصادية ، ولوان نفوذ قبيلتى « الهوسا »و «الفولبا» فى شمالى بحيرة تشاد أقل أثراً ، الا ان اتصال هذه المنطقة بالجهات الغربية وثيق ومتعدد النواحى بحيث لا يمكن التفويق بين مقاطعتى « بورنو » وباجيرسى » و بين المقاطعات الاخرى الغربية

يصعب جداً تقرير درجة انتشار الاسلام على وجه التحديد فى بلاد السودان ، من حيث مساحة الاراضى أو من حيث عدد المسلمين ، فان عدد السكان على العموم لم يحص احصاء دقيقاً للآن فى هذه الجهات ، هذا علاوة على عدم احصاء عدد التابعين لكل دين بالمرة ، وذلك لصعوبة التفرقة فى كثير من الاحوال لانتشار الجهل وتعدد النحل والمذاهب المختلفة ، اذ انه توجد درجات دينية كثيرة بين المسلم المتعلم المتمسك بدينه مثل قبائل « تيمبوس » و « كانوس » و بين عبيد الغابات التى تقتصر معارفهم الدينية على تقليد بعض العادات السطحية دون أن يكون لهم بأبسط قواعد الاسلام أى معرفة ، الا انه يمكن التنبؤ بأن مستقبل هذه الجهات فى صالح الاسلام وليس فى صالح الوثنية أو الاديان الاخرى

و بما أن الاسلام دخل الاراضى السودانيةمن الشمال فاننا نجد جهاته الشمالية أكثر وأشد إسلاما من باقى البقاع ، ويحتل المسلمون اغلب هذه المساحات حتى حدود الغابات ، ولو انهم جاسوا خلالها فى كثير من الجهات ووصلوا بطريق المواصلات الحديثة حتى

السواحل . و يعتبر العرب فى هذه البلاد اشد القبائل اسلاما وغيرة على دينهم و يليهم مباشرة الحاميون : المغاربة والفولبا والتواريج والهوسا ، ولو اننا نسمع من حين لآخر عن بعض الوثنيين فى قبيلة الفولبا ولكن ذلك يرجع فى الغالب الى مصادر غير موثوق بها ، و يوجد كذلك القليل من الوثنيين الآن بين من يتكام بلغة الهوسا ولكنهم ليسوا من أفراد الهوسا الحقيقية .

أما فى افريقيا الغربية الفرنسية فيمكننا أن نعتمد على احصائيات دقيقة ، ففى السنغال مثلا يعيش ٧٨٥٠٠ من الفولبا و ١٥٨٠٠٠ من الدكرور وكل من الفريقين فخور معتز بأصله ومتعلق بالديانة الاسلامية جداً ، وأما الولوف واليولوف وهم أكبر عنصر فى المستعمرة الفرنسية فأكثرهم من المسلمين وتكاد تختفى الوثنية بينهم على عكس قبيلة السيرر وعددهم ١٩٠ الفاً وهم خليط بين الفولبا والولوف فأكثرهم بقى على الوثنية ، أما قبائل السوننكه التابعين للماندينجو فشديدو الغيرة على اسلامهم . وكذلك أصبح عدد الوثنيين قليلا جداً بين قبائل المالنكه

أما فى غيانا الفرنسية فيبلغ عدد المسلمين الفولبا حوالى ٦٧٠ ألف نسمة و ٤٩٢ ألفاً من المالنكه وغالبيتهم الساحقة من المسلمين ، وأما باقى السكان فنهم ٣٨٥ ألفاً من الجالونكه وكانوا فى الاصل يقطنون فى الجهات الشمالية فى فوتاجالون فأغلبهم من الوثنيين ، الا ان الاسلام يتقدم بينهم تقدما سريعاً بفضل مجهود قبائل الفولبا ، و باقى الاهالى من قبائل تمنا ومندا ونالو وتوما وكيسى يكادون يكونون جميعاً وثنيين

و يبلغ عدد سكان ساحل العاج حوالى مليونى نسمة ، منهم ٢٤٢ ألفاً مانداجولا من المسلمين والسينو فو وأغلبهم وثنيون و باقى الاهلين يكاد لا يكون للاسلام بينهم اثر ، وكذلك الحال فى داهومى التى يبلغ عدد سكانها ٦٥٥ ألفاً ، ولا يزيد عدد المسلمين بها على ٧٠ ألفاً ، وأما المقيمون على شواطئ نهر نيجر و يطلق عليهم اسم دندى فهم شديدو التمسك بالدين الاسلامى ، وكذلك قبائل الفولبا الرحل الذين يقيمون فى مقاطعة بار با بجوار قرى الوطنيين ، وأما الاهالى الوطنيون فلم يبلغ الاسلام بينهم مبلغاً بعيداً ففى سنغال الأعلى لا يوجد أكثر من ٢٠ ألف مسلم بين قبائل البامبارا الوثنية البالغ عددهم ٤٧٧ ألف نسمة ، الا أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة فائقة بعد زوال الفوارق السياسية بين

السكان على وجه العموم . وكذلك الحال فى مقاطعة موسّى التى يمكن الآن اعتبار الاسلام فيها هو دين المستقبل ، بالرغم من أن معظم سكانها الآن يتبعون العادات والتقاليد الوثنية

و يبلغ عـدد سكان سنغال الأعلى من خمسة الى خمسة ملايين ونصف مليون لا يقل عدد المسلمين به عن مليونين

* * *

وعلى العموم يمكن القول بأن الاسلام يتقدم بين الوثنيين فى ساحل العاج وداهومى. وكذلك فى غيانا الفرنسية وسنغال الأعلى بخطوات بطيئة لأن الأهالى فى هذه الخطوات يعدون من الوثنيين العنيدين فى تقاليدهم وعباداتهم

وأما فى المستعمرات الانجليزية فلا نكاد نحصل على معلومات بالمرة عن عدد المسلمين و يضطر الباحث أن يكتفى ببعض المعلومات التى يحصل عليها عرضاً

و يبلغ عدد سكان سيراليونا مليوناً و ٣٠٧ آلاف أغلبهم وثنيون ، لايتبع الاسلام فيها غير القليل من الفولبا من سكان الجهات الشمالية وغالبية الماندنيجو ، وأما قبائل تمنا ومندا فأغلبهم وثنيون ولو أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة عظيمة أيضاً

وفى المدن الساحلية يغلب عدد الأهالى المسلمين ، ففى بورت لوكوه سنة ١٩٠٣ كان جميع السكان تقريباً من المسلمين ، وفى فريتون توجد ٥ مدارس اسلامية حكومية بها مالا يقل عن ٧٦٠ تلميذاً مع أن عدد السكان لايزيد على ٣٤ ألف نسمة

فالحال اذاً فى سيراليونا هى أن الاسلام جاءها من داخل البلاد الى الشواطئ حتى عم جميع المدن الساحلية فى حين أن سكان القرى الداخلية بقيت على وثنيتها

وأما فى ساحل الذهب فيبلغ عدد السكان مليوناً وستمائة ألف نسمة كانت غالبيتهم وثنية ، الا أن الاسلام تقدم بينهم تقدماً سريعاً ، فانه لاتوجد ناحية تجارية هامة تخلو من جامع ومدارس اسلامية ، ولو أن المسلمين ليسوا من الأهالى الوطنيين بل من الأجانب النازحين الى البلاد من جهات مختلفة ، فأصبح بمدينـة تامالا وهى عاصمة المقاطعات الشمالية مالايقل عن ألف مسلم من ٦٠٠٠ عدد السكان ، وكذلك يتقدم الاسلام يوماً بعديوم فى المقاطعات الأخرى وعلى السواحـل الهامة ، وأكثر عناصر القبائل الاسلامية انتشاراً هى الهوسا والماندينجو الذين كثرت مهاجرة التجار منهم الى هذه البلاد

وقد قدرت جريدة « الجمعية الافريقية » المسلمين فى جميع نواحى ساحل الذهب فى عام ١٩٠٩ بمالا يقل عن مائة ألف وقدأصبح الآن بدون مغالاة لايقل عن ضعف هذا العدد

وأكثرهم فى المقاطعات الشمالية

وقد لاتوجد جهة أخرى فى البلاد السودانية انتشر فيها الاسلام فى الفترة الأخيرة مثل نيجيريا ويبلغ عدد سكانها حوالى ١٦ مليوناً ، خصوصا فى الأقاليم الجنوبية التى كانت حتى زمن قريب تعتبر موطنا للوثنيين ، وأما فى شمال نيجيريا وهى البلاد التى فتحتها قبائل الهوسا والفولبا فان الاسلام هو الدين الغالب .

وأما القبائل التى تقطن جنوب نهر النيجر والبنوى وعلى امتداد الشواطئ الشمالية والشرقية من نهر النيجر فأغلبها من الوثنيين . وفى شمال نيجيريا مالا يقل عن ٢ أو ٣ ملايين وثنيين من عدد السكان وهو عشرة ملايين نسمة ، الا انهم فى طريقهم الى الدخول فى الدين الاسلامى بفضل مجاورتهم للأغلبية الاسلامية الساحقة هذا فضلا عن أثر ثقافة الاسلام فيهم

وأما فى جنوب نيجيريا فان المسلمين لا يكونون شعبا موحداً رغما عن التقدم الباهر الذى أحرزه الاسلام بين الأهالى فى السنوات الأخيرة خصوصا فى المدن الكبيرة حتى أصبحت للأئمة المسلمين القيادة الفكرية فى هذه النواحى ، حتى ان سكان مدينة لاجوس — وهى مركز رئيسى للتبشير المسيحى — يدين الآن أكثر من نصفهم بالدين الاسلامى ، وكذلك يتقدم الاسلام فى باقى البلدان الأخرى الشرقية والساحلية بسرعة غريبة وفى مستعمرة غامبيا أصبح الآن من يدين بالاسلام أكثر من ٩٠٠٠ ولا يزيد عدد سكانها على ١٦ ألف نسمة

أما الحال فى المستعمرات الألمانية السابقة فان توجو تكاد تكون كلها وثنية ، فلا يكاد يزيد عدد المسلمين بها عن ١٤ ألفاً من تعداد يبلغ المليون ، وهو عدد يكاد لايذكر بجانب الأغلبية الوثنية الساحقة . وفى الكمرون يوجد شعب اسلامى موحد لايستثنى منه غير سكان جبال المندرا الوثنيين والذين هم فى عزلة تامة عن كافة المواصلات الحديثة ، ولو أن سكان بلادهم الكبيرة يدينون بالاسلام أيضاً بالرغم من ذلك . وفى اداماوه تدين البقاع التى احتلتها قبائل الفولبا كذلك بالدين الاسلامى ولو أن الوثنية تعم النواحى الجنوبية .

ويلاحظ أن تقدم الاسلام قدوقف قليلا فى هذه النواحى منذ زالت دولة الفولبا وان كانت التقاليد التى ورثها رؤساء القبائل الوثنية عن أسيادهم المسلمين لازالت متبعة ومحبوبة عندهم ، وقد تقدمت قبائل الهوسا المسلمين نحو مناطق الغابات والشواطئ فى المدة الأخيرة ولو أنهم لم يتمكنوا من مساعدة انتشار الاسلام هناك كثيراً ، وعلى الجملة فان الاحصائيات الأخيرة تدل على أن مايقرب من ثلث سكان الكمرون يدين بالديانة الاسلامية

(عن مجلة نور الاسلام)

العرب فى الكونغو

للامير شكيب

اطلعت على رحلة لأحد أدباء البلجيك المسمى فريتزفان در ليندن Fritz Van der Linden استوفى فيها الشرح على الكونغو ، فعثرت فيها على بعض جمل تتعلق بالعرب فى الكونغو ، وعلمت أن الاسلام قد دخل فى هذه المملكة العظيمة التى هى الكونغو البلجيكى . قال فى الصفحة ٢٦١ ، فى بحث عن تداول الأهالى للمسكوكات : « ان أكثر الأهالى المستعربين Arabisés يعرفون النقود ، وان تجار العرب من الكاسونغو وأكبر التجار الذين لهم علاقات مع زنزيبار ، يؤثرون الذهب لا سيما الليرة السترلينية ، لأن علاقاتهم متصلة مع عرب الأوغانده ، والمستعمرات الألمانية فى شرقى افريقية . وتراهم مع شدة مراقبة الحكومة ، يتمكنون من أخذ العاج وادخال البارود الى مستعمراتنا سراً . وأما تجارة الرقيق فانهم لا يتعاطونها الا فى داخل البلاد من قرية الى قرية ومنع ذلك يكاد يكون مستحيلا ، اذ ليس الاسترقاق هو اليوم بالقوة المسلحة كما كان قبلاً ، بل فظائع الاستعباد التى كان يصفها ليفنسون وستورم وهوديستر هذه كلها دخلت فى خبر كان . ولكن العربى أو المستعرب لا يشتغل بيده فلا يستغنى عن العبد ، لأجل الغراس وخدمة البيت والنقل والحمل ، وليست معاملته للعبد بسيئة وقد ينتقل العبد من سيد الى سيد ، والذى يظهر انه لو تحرر هؤلاء العبيد كلهم دفعة واحدة لكانت ضربة قاضية على سعادة البلاد ، وتحول هؤلاء الى رعاع متشردين .

وان العنصر العربى لا يزال عظيما فى جهات كاسونغو ، لكن مجده الماضى قد زال ، والمراكز التى كانت لمونى محره [1] وسعيد بن عبدلى قد ذهبت . أما كاسونغو القديمة ، فهى قرية جميلة مبنية باللبن مقطعة بالشوارع وهناك عرب صراح يلبسون جبباً بيضاء ، ويتلفعون بكوفيات مطرزة تطريزاً بديعاً ، سيماهم تدل على الكرامة والوقار ، وحركاتهم

(١) يظهر انه اسم زعيم عربى

وسكناتهم مقرونة بالأدب التام ، والكياسة المتناهية ، والرصانة الفائقة ، فنسق حياتهم يختلف كثيراً عن نسق الزنزيباريين العبيد القدماء ، الذين يظهرون عظمة تستحق السخرية ، بتقليدهم ساداتهم العرب فى كسوتهم و رفاهيتهم .

ومرة دعانى أحد العرب فى كاسونغو الى منزله قائلا : سفا كيدى كاريبو . ومعناها : صباح الخير تفضل . فدخلت الى بيته فوجدته مفروشاً بالحصير ومزيناً بالمتاع اللطيف ، وأبواب البيت والشبابيك كلها منقوشة ، وعلى أحد الأبواب كتابة عربية أظنها آية من القرآن . فقدم لى العربى طاساً لذيذاً من القهوة ، و باعنى بعض الحصر ، وهو يظهر انه انما أسدى الى مكرمة .

وترى القرى على الطريق المؤدية من كاسونغو القديمة الى كاسونغو كلها جميلة نظيفة والمسحة العربية بادية عليها ، ولكن مرض النوم فاش فى هذه الأنحاء ، وقد نقص كثيراً فى عدد الأهالى فى جوار كاسونغو . ولا تجد فى جوار كاسونغو أكثر من ألف مستعرب من الرجال البالغين ، وثلاثة أو أربعة عرب صراح ، وأربعة أو خمسة زنجباريين . وليس بين الأهالى جامعة يخشى من عواقبها ، فنقدر أن ننظر الى المستقبل باطمئنان .

ثم ذكر مدينة نيانقفة Niangwe، فنقل عن قائم المقام السويدى غليروب Gleerub قوله فى سنة ١٨٨٦ :

« ان نيانقفه هى مقر العرب الأصلى وهى مقسومة الى قسمين يفصل بينهما واد عميق تكثر فيه مزارع الأرز ، فاذا بلغ ارتفاع نهر الكونغو معظمه طمت المياه على هذا الوادى . وقد ازدادت هذه المدينة من عهد ستانلى ازدياداً عظيما ، فأهلها اليوم يبلغون نحو عشرة آلاف . وترى على جانبى الوادى أنخر المزارع والمغارس وجميع الأشجار المثمرة المجلوبة من افريقية الشرقية ، كذلك العرب أدخلوا فيها المواشى والحمير الفارهة للركوب » اه . قال فريتزفان درليدن : « أما اليوم فقد نزلت نيا نقفه عن درجتها هذه ، بسبب ثورة سنة ١٨٩٣ ، و بمرض النوم أيضا ، ولم يبق فيها الا ألفا رجل . وتحولت تلك المخارف البديعة التى كانت مصطفة بها الأشجار على ضفتى النهر ، الى شعاب سطا عليها العوسج والشوك ، ولم يبق فى نيانقفه منزل يستحق الذكر ، سوى بيت بيانيسنغا Pianisengha

هذا الزعيم العربى الذى بقى أمينا للحكومة البلجيكية ، وحظى بمقابلة الملك فى قصر بروكسل » .

ثم فى الصفحة ٢٧٤ من الكتاب ذكر المؤلف نهراً يتشعب من الكونغو ، ويمتد نحو ٣١٥ كيلو مترا بعرض يتفاوت من ٢٠٠٠ الى ٦٠٠ متر ، وقال ان على جانبيه القرى ، وان الأهالى هم من العرب والمستعربين ، والطرّاء من أماكن بعيدة . ووصف العرب بالنظافة والاتقان فى العمل ، وقال ان المستعربين والعبيد الذين يخدمونهم يشكلون قرى نظيفة تحيط بها مزارع أرز واسعة . ثم أطرى هؤلاء الأهالى فى شدة انهما كهم بالتجارة .

وفى الصفحة ٢٩٠ ذكر قرية مستعربة مدحها بنظافتها ، وبين الفرق العظيم بينها وبين القرى الأخرى التى يسكنها غير المستعربين ، وشاهد فيها سوقاً مهمة تقام كل يوم من الصبح الى نحو الظهر فى ساحة القرية ، ووصف الدكاكين التى فيها ، معروضة أمامها أصناف البضائع ، وحوانيت الخياطين وباعة الخزف والخوص وغير ذلك ، وقال ان المستعربين رحبوا بهم ترحيباً ودعوهم الى منازلهم ، فعاجوا على معلم كتاب أمامه جماعة من الصبيان يعلمهم القرآن .

وذكر ان سكان هذه القرية المستعربة يبلغ عددهم ألفى رجل . وقال انه سأل المسيو دومولستر المندوب العام فى الكونغو ، عن عدد المستعربين فى الولاية الشرقية من الكونغو فقال له : لا أقدر أن أجزم بشئ ، ولكننى أظن انهم نحو مائتى ألف . فقال له : أفلا تراهم خطراً دائماً على المستعمرة ؟ فأجابه : كلا . لأنهم متفرقون ، ولاننا نحن نملك القوة اللازمة لقمع كل ثورة . ثم قال له :

« طالما اتهم هؤلاء العرب والمستعربون تهما باطلة ، فلا أنكر انه يجب علينا مراقبتهم واجبارهم على طاعة القوانين ، ولكن مما لاأنكره أيضا انهم عنصر جيد فى البلاد ، لأنهم قوامون على الزراعة ، مدنيون بطبعهم ، وعندهم ميل الى الجنس الأبيض ، ونحن كل سنة نشترى منهم فى جهات ستانليفيل و بونتيارفيل ولوكاندو وكيروندو ، مقدارا مهما من الأرز » . اه

سلطنة رابح

للأمير شكيب

معلوم انه كان رجل يقال له الزبير باشا حاكما من قبل الايالة المصرية على بلاد بحر الغزال من السودان ، فصرفته الحكومة المصرية من هناك برجل ايطالى الأصل ، اسمه غسى باشا ، واعتقلت الزبير باشا بمصر . فثار ابنه سليمان انتقاما لأبيه ، فانهزم وقتل ، وتفرق الجماعة الذين كانوا حوله وحول أبيه ، ومنهم عبد للزبير اسمه رابح ، انفرد بنفسه وتبعه كثير من الضباط الذين كانوا مع الزبير ، فحشد ثمانية بيارق كل بيرق ١٢٠ رجلا الى ١٣٠ رجلا مسلحا . و وقع ذلك سنة ١٨٧٩ فباشر رابح بهذه القوة غزواته الشهيرة ، ولقبه رهطه السلطان رابح وهذا كان مبدأ أمره .

وقد كتب كثير من الأوربيين على رابح هذا ، من جملتهم صديقنا البارون ماكس أو بنهايم الألمانى الذى هو من أشهر الرحالات الذين عرفوا الشرق وأهله ، فانه ألف كتابا اسمه Rabeh und Tchadgebiete أى ، « رابح و بلاد تشاد » ، جاء فيه بخبر هذا الرجل الأفاق على وجهه (١٩٠٢) وكذلك كتاب جنتيل Gentil المسمى « سقوط سلطنة رابح » المطبوع سنة ١٩٠٢ أيضا . وقد جاء ذكر رابح فى كتاب للدكتور دكورس Decorse طبيب الجنود فى المستعمرات الفرنسية ، والمسيو دومبين Demombynes أحد أساتذة مدرسة المستعمرات ، واسم هذا الكتاب « رابح وعرب الشارى » وألف المسيو دوجارى Dujarric كتابا اسمه « حياة السلطان رابح » وغير ذلك .

وأول مابدأ رابح بالعمل كان فى « دار مانغا » اذ منها غزا غزوة فى دارفور ، ثم فى واداى ، ثم واصل غزواته فى باطن السودان ، وجعل مركزه فى بلاد شارى . ثم صعد فى نهر شارى الى ضفته الشمالية ، ثم نزل الى ضفته الجنوبية وأقام مدة ببلد « كوتى » وغزا بلاد « سومراى » ومازال من غزاة الى غزاة الى سنة ١٨٩٢ فأقام ببلدة « بوسو » على الشارى وجهز حملة على « الباقيرمى » ، فاستولى عليها . والتجأ سلطان الباقيرمى الى بلاد الشارى الأسفل ، ثم الى واداى (١٨٩٤) فوجه رابح حينئذ عزمه الى بورنو واستولى على

« كرناك لوغبون » فأرسل اليه سلطان بو رنو قوة يقودها محمد طاهر وما لا كريم ، فهزمهما رابح وزحف رابح قاصدا « كوكا » عاصمة بو رنو بطريق « نقالة » فخرج هاشم سلطان بو رنو لقتاله ، والتقيا فى أم « حبيس » فانكسر هاشم ودخل رابح « كوكا » ، وجعل عاليها سافلها ثم اعتصم ببلدة اسمها « ديكوا » فقام بسلطنة بو رنو أبو خيارى عم السلطان هاشم ، وناوش رابحا القتال . ثم انبرى لمقاومة رابح زعيم دينى اسمه الشيخ أبو قنطور ، فصارت بينهما واقعة فى «غاجيبو» الى الشرق من ديكوا ، ومع هذا فبقى رابح سائدا ، وكان سلطان زيندر يدفع اتاوة لسلطان بو رنو ، فلما استولى رابح على بو رنوا أبى دفعها له ، فزحف فضل الله بن رابح الى سلطان زيندر المذكور وقاتله فلم يظفر منه بطائل .

و بينما الأمور متسقة لرابح وهو يفكر فى تأسيس سلطنة عظيمة اذ زحف اليه الفرنسيس الذين هالهم مستقبل أمره ، فقصدوا خضد شوكته قبل أن يستفحل شأنه ، ففى ١٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٩ وصل الضابط بريتونه Bretonnet الى كونو ، فنهد اليه رابح بقوة صاعدا نهر شارى وما زال من بلد الى بلد حتى وصل الى كونو ، فلما علم الضابط الفرنسى بوصوله أخلى كونو واعتصم بهضاب عالية موافقة للدفاع من بلاد « نياليم » ، ولكن رابح استأصل تلك القوة الفرنسية بأسرها مع قوة « غاورانغ » سلطان الباقيرمى ، الذى كان حليفاً للفرنسيس ، وذلك فى ١٧ يوليو سنة ١٨٩٩ .

وعاد رابح الى كونو فهاجمه الفرنسيس بقيادة جنتيل فى ٢٧ اكتوبر من السنة المذكورة ، فلم يقدروا على أخذ المدينة ، ولكنهم اضطروا رابحا الى اخلائها من نفسه . فانحاز رابح الى بلدة « ميلتو » ثم قصد « لوغون » من جهة بحر الرقيق وعاد الى ديكوا ، فلم يقم بها الا شهرا وذهب يحشد جنوده فى « كوسرى » .

فزحفت اليه معاً جنود البعثة الصحراوية ، و بعثة افريقية الوسطى ، و بعثة شارى ، تحت قيادة جولاند Jolland وما نييه Maynier وذلك فى ١٠ دسمبر سنة ١٨٩٩ ثم فى السنة التالية أردفا بقائدين آخرين ، فورو Foureau ولامى Lamy فجاء فضل الله بن رابح وناوش مانييه القتال ، وكانت قوة فضل الله سمائة بندقية . ثم بلغه ان لامى استولى على كوسرى . فزحف الى كوسرى من الجنوب ثم اضطر ان أن يرجع الى لوغون . وجاء رابح بنفسه فخيم فى «لختة» ودارت رحى الحرب فانكسر رابح وقتل فى ٢٢ ابريل ، ولكن

رجاله قتلوا من الفرنسيس عدداً كبيرا ، منهم القائد لامى نفسه ، وقائد آخر اسمه «كوانته» . و بلغ فضل الله خبر مقتل أبيه ، وهو فى لوغون ، فاخلى هذه المدينة قاصدا ديكوا التى كان فيها اخوه « نيابى » ، فقصده الفرنسيس الى ديكوا فخرج منها بدون قتال ، فتعقبه الفرنسيس بقوة أدركته فى ٢ مايو سنة ١٩٠٠ فى مكان يقال له «دغيمبه » فدحرته الى الجنوب فسار وا وراءه الى محل يقال له « ايشيغو ية » فلم يفو زوا منه بطائل ، ثم وقف فضل الله فى بلدة تسمى « برغامه » وأخذ يحشد جنوده مراقبا حوادث بو رنو .

وكان سلطان بو رنو « عمر ساندا » يكره الفرنسيس فعزله هؤلاء و ولوا مكانه اخاه « غرباى » فقصده فضل الله وتغلب عليه فى واقعة « نقاله » ففر الى جهة كانم . فاشتد عزم فضل الله وكشر عن ناب العداوة للفرنسيس و بعث الى قائد منهم اسمه «ر و بيليو » يطالبه باسلاب أبيه التى أخذوها من كوسرى ، فأرسل ر و بيليو الى فضل الله ثلاثة رسل يعرض عليه الملاقاة فأمر فضل الله بقط رقابهم . فقصده ر و بليو بجيشه وهزمه : فالتجأ فضل الله الى مستعمرة النيجر الانكليزية ثم رجع الى معسكره الأصلى فى « برغامه » وهناك دخل فى مفاوضات مع الانكليز و زاره الماجو ر « ماك كلينتوك » ، ثم بلغ فضل الله ان غرباى عاد الى بو رنو واستوى على عرشها . فقصده وهزمه ودخل ديكوا . فزحف الكولونل الفرنسى دستناف الى ديكوا فوجد فضل الله قد برحها فأرسل فى أثره قوة دهمته فى « قوجبه» من أراضى المستعمرة الانكليزية فقتل فضل الله فى المعركة وتشتت الذين معه ، ودخلوا الى بلاد « كيردى » التى أهلها وثنيون فقاتلوهم بالسهام فاضطر نيابى بن رباح أن يستسلم الى الفرنسيس . وهكذا انتهت سلطنة رابح وأولاده بعد أن لمعت سيوفهم لمعانا هائلا فى باطن افريقية.

﴿ تابع للكلام على مملكة وادای ودارفور وباقيرمى
وبونو وغيرها من ممالك أواسط افريقية ﴾

لالأمير شكيب

تقدم ما نقلناه عن تأسيس سلطنة وادای من رحلة الشريف بن عمر التونسى ، وقد اطلعنا على رحلة لرجل انكليزى محفوظة عند السادة السنوسية ولم يصرح فيها باسم المؤلف ، ففيها رواية ثانية وهى هذه ملخصة :

فى السنة العشرين بعد الألف أسقط عبد الكريم بن يامى حكومة « تينجر » الكافرة وأسس حكومة وادای . وابنه خاروط الذى خلفه أسس مدينة « وارا » وجعلها عاصمة للمملكة المذكورة . وخلفه ابنه خريف الذى قتلته قبيلة « تاما » لثلاث سنين من ملكه . وخلف هذا أخوه الأصغر يعقوب عروس . وهذا هو الذى كان قاتل سلطان دارفور موسى ابن سليمان وسليمان هذا هو أول سلطان مسلم على دارفور . وقد دارت الدائرة على يعقوب سلطان وادای وخلفه ابنه خاروط الثانى الذى استمر ملكه أربعين سنة بالراحة والسعادة . ثم خلفه ابنه جوده الملقب بخريف التيمان ، والملقب أيضاً بمحمد صولاى الذى معناه محمد المنجى ، لأنه نجى وادای من نير دارفور فى مدة السلطان أبى القاسم سلطان دارفور وهذا هو المسلم السادس من سلاطين هذه المملكة . ثم ان محمد صولاى هذا استولى على كانم ، انتزعها من يد السلطان بورنو ، وتولى أربعين سنة . وخلفه ابنه صالح الملقب « بدرّة » ولم يكن محمود السيرة . وفى السنة الثامنة من حكمه ثار عليه ابنه عبد الكريم الملقب بصابون فقتل الوالد وتولى الولد وكانت حكومته أكثر حكمة من جميع الحكومات التى عرفتها وادای . فتقوت فى أيامه وادای وطوّعت الباقرمى وأراد أن يفتح طرقاً الى الشمال الى البحر الأبيض ، لكنه توفى سنة ١٢٣٠ تاركا ستة أولاد من الذكور لعشر سنوات من ملكه . ووقع اختلاف بين أولاد صابون وحروب ، انتهت بظفر حزب ولده يوسف . فهذا تولى ١٦ سنة بالظلم والقهر ثم قتل سنة ١٢٤٥ وخلفه ابنه راكب ، فمات بتلك السنة . وجلس على كرسى الملك

أحد أفراد البيت المالك واسمه عبد العزيز بن راداما ، فتولى نحو خمس سنوات ونصف سنة وتوفى ، فتولى ولده الصغير آدم فهذا بقى سنة واحدة ثم أخذ أسيراً الى دارفور بطلب محمد صالح أخى السلطان عبد الكريم صابون الذى استمد محمد فضل سلطان دارفور لاسترجاع ملكه . فجلس محمد صالح على كرسى واداى سنة ١٢٥٠ وأحسن السياسة ، وفى سنة ١٢٦١ هاجم مملكة بورنو فلم يغز بطائل ثم ثار محمد بن محمد صالح بابيه ونشبت حرب داخلية .

قال الرحالة الانجليزى : ولما برح الناقل باقرمى ، كان سمع أن الابن غلب أباه وجلس مكانه فليس فى هذه الرواية شئ من خبر انتساب سلاطين واداى الى بنى العباس .

وذكر هذا الرحالة فوائد كثيرة عن أواسط افريقية ، فلما كان فى سياحته هناك أى منذ ثمانين سنة ، كان جيش دارفور عشرة آلاف فارس ، وكان فى وسع واداى أن تجهز خمسة أو ستة آلاف من الخيالة ، وكانت مملكة الباقرمى تقدر أن تجند ثلاثة آلاف فارس ، هذا مع العرب الذين يقال لهم « شوا » و يقولون لهم « شيوا » .

قال : وعرب شيوا الذين فى باقرمى ، ينقسمون الى أولاد سلامه و بنى حسن وأولاد موسى وأولاد على وديغاغره

وذكر معلومات أخرى عن تأسيس ممالك دارفور والباقيرمى أو الباجيرمى مآلها :

انه من السنة التسعمائة الى الألف للهجرة ، كانت أمة التينجر من الكفرة تملك جميع دارفور وواداى والباقيرمى ، ففى نحو السنة الألف غلب على دارفور الأمير المسمى كورد وأسس سلطنة دارفور وكان خلفه الثالث سليمان وهو أول من أسلم من ملوك دارفور . ثم فاز عبد الكريم ابن يامى بسلطنة واداى . وأسلمت سلطنة الباقيرمى بعد واداى بعشر سنوات ، وأول من ملكها من المسلمين السلطان عبد الله ، وخلفه ولده « وانجا » وخلف وانجا « لاونى » وفى مدة لاونى اضطرت الباقيرمى أن تدفع اتاوة لسلطنة بورنو . ثم ملك السلطان بوغوماندا فى الباقيرمى ، ثم الحاج محمد الأمين ، وكان ملكه حليفا للاقبال والمجد وخلفه ابنه عبد الرحمن فحاربه عبد الكريم صابون سلطان واداى ، وقهره وقتله بطلب محمد الكانمى شيخ بورنو من عبد الكريم[1] ووضع عبد الكريم على تخت الباقيرمى ابن السلطان المقتول وهو عبد الرحمن وكان صغيراً . فجاءه أخوه الأكبر عثمان وسمل عينيه

(١) الرحالة التونسى يذكر أن سبب غزو عبد الكريم صابون للباقرمى ، هو سوء سيرة سلطان هذه البلاد وتماديه فى اتباع شهواته حتى انه تزوج باخته مع نهى علماء الدين له بأجمعهم

وجلس مكانه فعاد سلطان واداى الى الباقيرمى وحارب عثمان وهزمه وأعاد الى السلطنة أخاه الأعمى . ولما عاد عبد الكريم الى بلاده ، ظهر عثمان وغلب أخاه وأغرقه فى النهر وجلس محله ثانيـة . ثم ثار به الأهالى نخلعوه ، ونصبوا أخاً آخر له يسمى الحاج فالتجأ عثمان الى عدوه القديم سلطان واداى . فأعاده عبد الكريم الى ملكه ولكنه ضرب عليه اتاوة أعظم مما كانت تؤدى الباقيرمى الى بورنو . فلما رأى الشيخ سلطان بورنو أن الباقيرمى لا تريد أن تكون تحت سلطة بورنو ، استمد يوسف باشا والى طرابلس لقتال الباقيرمى ، فأرسل اليه أمير فزان مصطفى الأحمر ومعه قوة سنة ١٢٣٣ ، ثم فى سنة ١٢٤٠ كانت حرب انفالا الثانية ولم يوفق سلطان بورنو لتدويخ الباقيرمى . ومات عثمان سنة ١٢٦٠ وخلفه ابنه عبد القادر الذى كان هو الجالس على عرش باقيرمى يوم حرر ذلك السائح رحلته وقال ان سكان باقيرمى يومئذ كانوا مليوناً ونصف مليون نسمة .

وذكر سياحته الى مملكة « لوغون » ومقابلته لسلطانها ، ولكن بدون أن يشاهده وجهاً لوجه بل كان السلطان قاعـداً وراء ستر من الحصير ، وكان يترجم بينهما ضابط بورنوى ، اسمه « كاشلا معدى » كان ذهب الى هناك لقبض الاتاوة السنوية التى تدفعها لوغون الى بورنو . ويقال لسلطان لوغون « ميّارا » (بتشديد الياء) فعرض السائح الانكليزى السلطان المذكور ان الدولة الانكليزية كانت أرسلت ضابطا معتمداً من قبلها وهو المسمى بالرئيس خليل ، لاجل تقديم التحية لوالده « ميارا صالح » ، وهى الآن مرسلته هو لاجل تقديم التحية لسعادته السلطانية . فسر السلطان بذلك وكان اسم هذا السلطان ميارا يوسف . وكانت مملكته تدفع اتاوة لبورنو وللباقيرمى معا . ويقول السائح الانكليزى ان مملكة لوغون كانت جـديدة ولم يكن مضى على دخولها فى الاسـلام أكثر من ستين سنـة ، يوم جاءها السائح . وقال ان فيها قبائل من العرب وذكر انه فارق مـدينة قارناق لوغون عاصمة لوغون قاصداً الباقيرمى ، وبعـد أن ذكر تفاصيل كثيرة عن أحوال تلك البلدان ، وصناعتها وزراعتها وغاباتها وأنهارها ، ومن عرف من رجالها ، ذكر رجلا اسمه الحاج أبو بكر صادق من أهل الباقيرمى كان يحسن العربية ، أنه سهل له أموره وساعده فى شدائد كثيرة عرضت له ، وفى دخول « ماضه » عاصمة الباقيرمى . وكان سلطان الباقيرمى يوم وصول السائح غائبا فتعرف فيها بثلاثة رجال أحدهم الحاج أحـمد ، أصله من البامباره

على ساحل البحر المحيط ، كان يتجر بين تنبكتو والتوات ثم قصد المدينة المنورة ، ومنها جاء الى بر الشام وحضر حصار ابراهيم باشا ابن محمد على لعكا ، ثم ذهب الى بغداد والبصرة وأخيراً عاد الى المدينة المنورة ، وكان مجيئه الى الباقيرمى لاجل أخذ عبيد لخدمة الحرم النبوى . والثانى هو المسمى بالفقيه سامبو من الفلاته ، كان مكفوفا ، لكنه فى غاية النباهة ، قرأ فى الازهر وتبحر فى الادب والفلسفة ، وكان قصد مدينة زبيد فى اليمن لدرس الحساب والجبر لاشتهار زبيد بهذه العلوم ، فحال دون وصوله الى زبيد ما كان من حروب الوهابية ، فجاء الى دارفور ومنها الى واداى ، واتصل بسلطانها عبد العزيز ، ثم بعد موت هذا السلطان تحول الى الباقيرمى . قال السائح الانكليزى ان فقيه سامبو كان يروى تاريخ الخلافة ، ويحدث عن عظمتها من بغداد الى الاندلس ، ويعرف ذلك حق المعرفة . وأما الثالث ، فكان رجلا مصريا اسمه سليمان هو فى غاية التهذيب ، وقد عرف استانبول ومكة وغيرهما من البلدان . قال واثناء اقامته بماضة احتبس المطر طويلا ، فتطير به الاهالى وقالوا ان قدوم هذا السائح الانكليزى هو السبب فى امتناع الغيث فقال لهم : ان هذا عيب عليكم لانكم مسلمون ولا يجوز أن تكون لكم أفكار عبدة الاصنام . فقال له أحد رجال تلك الدولة : نعلم انه لا يحتبس المطر بسبب أحد ولكن نرغب اليك أن تشترك أنت مع الاهالى فى الدعاء بنزول الغيث . ثم وردت الى السائح كتب من الحكومة الانكليزية تشكره فيها على عمله ، ومن سلطان بورنو يلتمس منه الرجوع اليه . فوقعت هذه الكتب فى أيدى رجال الحكومة الباقيرمية ، فحصلت لهم فيه شبهة وأرادوا أن يعتقلوه ، وطلبوا منه كتاب الرحلة الذى كان يحرره ، وأحيلت هذه الكتب والرحلة الى جماعة العلماء الذين هناك ومنهم الفقيه سامبو ، فبعد البحث فيها قالوا للحكومة ليس فى هذه المكاتبات شئ يوجب الحذر ، وهذا الرجل انما غايته العلم والاطلاع . وبعد ذلك امكنت السائح مقابلة السلطان عبد القادر الباقيرمى ، فقال للسلطان : ان الدولة الانكليزية هى متفقة مع سلطان استامبول ! ومن هنا يظهر انه طالما تقرب الانكليز الى ملوك الاسلام ، حتى فى السودان ، بدعوى الاتفاق مع سلطان استانبول ....

شرقى افريقية

للأمير شكيب

من البلاد الاسلامية المعدودة فى افريقية ، بلاد سواحل زنجبار والصومال والغاله Gallas والقسم الاسلامى من الحبشة . ولما كان هدفنا الذى نرمى اليه فى هذه التعليقات ليس التعريف بجميع بلدان الاسلام وشؤون الاسلام ، بل التعريف بما نأى من البلاد وغمض من الشؤون وخفى من الأخبار ، مع ترك الحقائق المشهورة والتواريخ التى يعرفها الخاص والعام ، رأينا أن نقول كلمة عن هذه البلاد .

لا يخفى أن سياسة « المناطق » هى الصفحة الأولى من الاستعمار ، ولا يوجد شئ أشد خطراً على الممالك المستقلة من تعيين الدول العظام « المناطق » التى يتفقن على اعطائها لكل منهن ، فقد تكون أعدى من الجذام ، وقد تجر الى الحروب العظام . وما أخذت فرنسا مراكش الا مقابلة لأخذ انكلترة مصر ، وما دخلت ايطالية طرابلس الا مقابلة لأخذ تينك الدولتين مراكش ومصرا . وما شبت حرب البلقان الا على أثر الغارة الايطالية على طرابلس وذلك أن دول البلقان الصغيرة لما رأت ايطالية قد استباحت حمى الدولة العثمانية بدون أدنى تحرج ، وخلافاً للمعاهدات الدولية ، أباحت هى لنفسها ما أباحه غيرها لنفسه ، فكانت الحرب البلقانية التى هى بلا مراء أم الحرب العامة . فأنت ترى ما ولده جشع الدول الكبرى وما نشأ عن تقسيمات فرنسا وانكلترة فى افريقية بموجب عقد سنة ١٩٠٢ ، ولنذكر لك الآن خلاصة استيلاء الألمان على مستعمرة شرقى افريقية ، وقضاءهم على سلطنة تلك البلاد التى كانت للعرب فنقول :

كان بسمارك يكره الاستعمار ويذهب الى كون ألمانيا يجب أن تكتفى باستثمار داخل بلادها ، وتمضى فى طريق ترقيها الصناعى الذى فاقت فيه جميع الأمم ، وكان يتجنب مشكلات الاستعمار التى هى مفاتيح للحروب والمصائب ، ولكن جميع الألمان الذين كانوا يسيحون فى البلدان الشرقية ، ويرون أعلام فرنسا وانكلترة وهولاندة خافقة على بلاد

السود والحمر والصفر ، لم يكونوا يرون رأى بسمارك ، بل كانت تأخذهم الغـيرة من تبسط هاتيك الدول وراء البحار مع انـكماش ألمانيا فى داخل بلادها . مع أنه كما قال الشاعر :

فلا كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

ثم لما اتسعت تجارة ألمانيا وارتقت صناعتها هـذا الارتقاء الهائل ، لم تشأ الشركات الألمانية أن تبقى فى استجلاب المواد الخام عالة على تجار الممالك الأخر ، بل أحبت أن تكون لها مستعمرات هى أيضاً تأخذ منها ما تحتاج اليه رأساً ، وما زال الألمان ببسمارك حتى أنزلوه الى ميدان الاستعمار .

وأول شركة تجارية ألمانية حاولت التملك فى افريقية هى شركة فرمن Wöermann النقلية ، كانت لها مصالح عظيمة فى سواحل افريقية الغربيـة ، فأرادت عام ١٨٨٢ أن تملك لنفسها مرسى على تلك السواحل ، وسـنة ١٨٨٣ أبلغ سفير ألمانية فى لندن حكومة بريطانيـة العظمى ، ان الأراضى التى لا يكون عليها دعوى من انكلترة أو دولة أخرى ، تحفظ ألمانية لنفسها حق وضع اليد عليها . وفى ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٤ أبلغت ألمانية انكلترة أن الأراضى التى تملكها الألمـان داخل مرسى « انغرابكينا » وشمالى نهر الاورانج بموجب صكوك بينهم و بين بعض زعماء الهوتنتوه هذه ، قد صارت تحت الحماية الألمانية . وأبدت حكومة مستعمرة الـكاب معارضة لهـذا التملك الألمـانى فى تلك الناحية ، فأرسل بسمارك بارجتين حربيتين سلمتا الالمان هاتيك الأراضى بالقوة .

وفى تلك الاثناء كانت فرنسا قد اتفقت مع انـكلترة على اقتسام البلدان الواقعـة شمالى سيراليون ، وانـكلترة اتفقت مع البرتغال على اقتسام مستعمرات جنوبى افريقية ، فاشتدت حركة الغيرة فى المانية ، وسنة ١٨٨٣ اشترت شركة فرمن السالفة الذكر أرض مالنبا Malinba فى الـكامرون ، وسنة ١٨٨٤ التمس بعض زعماء بلاد توغو باغراء تجار الالمان حماية الامبراطورية الالمانية ، ومنذ ذلك الوقت تأسست مستعمرة الـكامرون واضطرت انـكلترة وفرنسا ان تحددا حـدود مستعمراتهما بينها و بين المانيـة ، التى صارت مالـكة الـكامرون والتوغو ، وتم ذلك سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٦ .

ولم يقتصر الالمان على منافسة الانـكليز والفرنسيس فى غربى افريقيـة بل تبسطوا فى شرقى هذه القارة ، فاشترت « شركة الاستعمار الالمانى » سنة ١٨٨٤ أراضى واسعة فى

بلاد فيتو Witu ، واتفقت مع سلطان فيتو على أن يعترف بحمايتها للاراضى المذكورة . فاحتج سلطان زنجبار على عمل سلطان فيتو وزعم أنه لا يملك حق النزول للالمان عن شئ ، وسرح جنودا الى هاتيك الارجاء لحفظ حقوق سيادته عليها . وكان سلطان زنجبار يدعى حق السلطنة على جميع البلاد الممتدة من رأس دلغادو Cap Delgado جنوبا ، الى فارشيخ Warscheich شمالا ، والتى تمتد من البحر الى البحيرات الكبرى فى داخل القارة .

فالالمان نالوا من الانكليز الاعتراف بصحة عملهم ، فى اتفاق مؤرخ فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٥ وفى ٧ أغسطس من تلك السنة جاءت خمس بوارج حربية المانية ، وهددت سلطان زنجبار فى عاصمته بجزيرة زنزيبار . فانتهى الخلاف بعقد معاهدة بين السلطان والالمان ، على أن تعفى من المكوس جميع البضائع والمتاجر المشحونة الى بلاد الالمان ، وجعلت فرضة دار السلام على الساحل الافريقى فى يد المانية . وتأسست مستعمرة شرقى افريقية الالمانية ، وتعينت لجنة المانية مختلطة بانكليز وفرنسيس لتحديد حدود هذه المستعمرة .

وسنة ١٨٨٦ تم تعيين الحدود ، فخرج فى نصيب سلطان زنجبار جزر زنزيبار وبمبا ولامسه Lamee ومافيا Mafia ، وعشرة أميال بحرية من العرض على طول سيف البحر الممتد من مصب نهر المينيغانى فى جون زونغى Zunghi الى كيبينى Kipini ، مع بلاد كيسماجو Kismaju وبارافا Barawa ومركا Merka ومقديشو Makdischu وفارشيخ . وتعين لسلطان فيتو البلاد التى تمتد من كيبينى الى شمالى جون ماندا Manda .

وكان حد المستعمرة الألمانية من الجنوب نهر رفوما Rovuma ومن الشمال خط يمتد من مصب نهر الفانغا Wanga الى بحيرة جيب Jipe ومن هناك فى وسط أراضى زافتا Zaveta ودشاقا Dechagga تابعاً المصب الشرقى من « الكليمانجارو » حتى بحيرة فكتوريا نيانزا وتعهدت المانية بان لا تمتد شمالى هذا الخط ، وانكلترة بان لا تمتد جنوبيه وأما البلاد التى فى الشمال الى زانا Zana ومنها الى معارضة الدرجة ١ من العرض الشمالى مع الدرجة ٣٧ من الطول الشرقى ، فجعلت منطقة نفوذ انكليزية . واتفقت دولتا انكلترة والمانية على اقناع سلطان زنجبار بقبول معاهدة الكونغو ، كما ان المانية رضيت بامضاء الاتفاق الانكليزى الفرنسى ، المتعلق بتمام استقلال زنزيبار . وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦

امضى سلطان زنزيبار هذا الاتفاق الذى امضته فرنسا أيضا . وفى ١٠ ديسمبر رضيت البرتقال أن يكون نهر ر وفوما حداً بينها و بين المستعمرة الالمانية ولكن الالمان اتبعوا خطة غيرهم فى التوسيع ، فاضطرت انكلترة ان تذكر المانية بكون معاهدة سنة ١٨٦٢ الانكليزية الفرنسية تضمن استقلال سلطنة زنزيبار ليس الجزر فقط ، بل السواحل التى تقابلها . فادعت المانية أن كلا من سلطان زنزيبار وسلطان فيتو عاجز عن توطيد الامن والنظام فى أرضه ، وأرادت ارسال حملة عسكرية بحجة الغاء الرقيق وتنظيم البلاد . ولما كان بسمارك بدهائه لا يريد ايجاد معضلة سياسية بينه و بين دولة عظيمة كانكلترة لاجل مستعمرة ، فقد اختار طريقة اخرى وهو ان يشترى سكوت انكلترة ببعض المسامحات ، فاعترف فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٩ بان المانيا تعتبر الاوغانده ووادلاى والاراضى الواقعة شمالى الدرجة الواحدة من العرض الجنوبى ، خارجة عن دائرة العمل الالمانى .

وفى مدة كاپريفى عقدت المانية مع انكلتره اتفاقا تنزل فيه هذه عن جزيرة هليجولاند التى فى البحر الشمالى ، بمقابلة تخلى المانية لانكلترة عن حماية سلطنة فيتو وساحل الصومالى ، وصار لانكلترة بموجب هذا الاتفاق حق السيطرة على سلطنة زنزيبار . مع جزر بمبا والاراضى التابعة لفيتو ، وأنزل سلطان زنزيبار لالمانية عن جزيرة مافيا وما يقابلها . وذهبت سلطنة فيتو باستيلاء انكلترة عليها ، وهكذا تمزقت هذه السلطنة العربية كل ممزق باتفاق انكلترة مع المانية ، وهو الذى نقضت بموجبه جميع هاتيك العهود السالفة . وكان ينبغى للعرب الذين اغتروا بمواعيد انكلترة لهم فى أثناء الحرب العامة ، أن يطلعوا على ما جريات هذه الدولة ومعاهداتها مع عرب آخرين مثلهم ، فربما كان لهم بذلك عبرة يعتبرون بها ...

ولم تقبل فرنسا ان تصدق هذه المواطآت الانجليزية الالمانية الا ببدل ، هو اعتراف انكلترة بحماية فرنسا لمداغسكر .

وتبلغ مساحة المستعمرة الالمانية المسماة بمستعمرة شرقى افريقية ، ٩٩٥٠٠٠ كيلو متر وعدد سكانها سبعة ملايين وخمسمائة وأحد عشر الف نسمة ، من أصلها ثلاثة ملايين من أمم البانتو والواميهى والمافيتى والفاهوما والمأسابى . وهم سكان البلاد الأصليون ، ومن بقى فهم جنس اسمه السواحلى ، متولد من اختلاط العرب والزنوج ، فهؤلاء يبلغون ثلاثة

ملايين ونصف مليون هذا بحسب تقويم المسيو براديه Prader ناموس مجلس الأمة الفرنسي في كتابه المسمى « بالمستعمرات الألمانية وقيمتها » المطبوع في سنة ١٩١٩ ، ويقول المؤلف المذكور ان في هذه المستعمرة خمسة آلاف عربي . ونحو عشرة آلاف هندي ، ونحو ٥٣٠٠ أوربي أكثرهم ألمان . وهذه البلاد من أوفر بلاد الله محاصيل وغلات ، وفيها معادن كثيرة ، وقبل الحرب بقليل صدر منها الى ألمانية ١٢ ألف بالة قطن ، ونصف مليون كيلو من البن ، وأطال الكتاب .

وقد ورد في كتاب « السلطنة الاستعمارية الالمانية » ما يأتي ملخصا :

« ان البرتقاليين لما جاءوا الى هذه البلاد في أواخر القرن الخامس عشر ، وجدوا فيها كثيرا من التجار الهنود والصينيين ، ولكن هؤلاء لم يتركوا أدنى أثر من مدنيتهم بين الأهالي السود حتى ان مايوجد من الخزف الصيني بهذه البلاد انما وجد بواسطة العرب والفرس .

يقول المؤرخ بطوليموس ان العرب في النصف الثاني من القرن الأول للمسيح ، كانوا بدأوا يتجرون مع شرقي افريقية بالعاج والعبيد ويصلون الى حدود الموزامبيق . أما بعد ظهور الاسلام فازدادت هذه التجارة في شرقي افريقية ازدياداً عظيما حتى انقلبت في نحو القرن الثامن للمسيح استعماراً حقيقياً . وتأسست في أوائل القرن العاشر «مغدشو» و « بارا كا » وفي السنة ٩٧٥ جاء فرس من شيراز وأسسوا « كيلفا » ، وتوغلوا في السواحل الى « رودسيا » طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقي ووصلوا الى مغدشو وباراكا وماليندي ومومباسه وتونغوني وزنزيبار وبمبا عند دار السلام الحالية ومافيا وغيرها . ووجدت امارات فارسية صغيرة بين الامارات العربية . ولما ورد البرتقاليون تلك البلاد ، وجدوا فيها المدنية الاسلامية مؤسسة مؤثلة . ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك ، بل اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس ، مثل المانغو والرمان والاترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندي والبهارات الهندية والأرز واتوا بكثير من حيوانات بلدانهم . وبقيت المدنية الاسلامية قروناً طويلة في هذه السواحل ، لكنها في القرن التاسع عشر أدخلها العرب الى الداخل . على أن البرتقال ، كانوا قد

وضعوا حداً للدور الأول من مدنية العرب عند ما احتلوا زنزيبار سنة ١٥٠٣، وبارا كا سنة ١٥٠٤ وكليفا سنة ١٥٠٥ ، ومونباسه فى السنة نفسها . وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التى تأتى من الهند ، ووضع اليد على معادن الذهب فى « سوفالا » وبقى البرتقال هم السادة فى تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر اذ قاتلهم عرب عمان قتالا شديداً ، بدأوا به فى ساحل عمان نفسها سنة ١٧٥٠ ، فلما جلوهم من هناك ، هاجوهم فى مستعمراتهم بالهند وفى شرقى افريقية ، وفتحوا زنزيبار ومافيا وبمبا ومونباسه فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . ثم ان حروبا داخلية فى عمان حملت السلطان سعيداً على تحويل كرسيه الى زنزيبار ، ثم صار ماجد سلطاناً لشرقى افريقية ، وبقى السلطان توينى على كرسى مسقط . وهذا فى نحو سنة ١٨٥٦ ، ثم توفى ماجد وخلفه أخوه برغش . وفى أيام هذا السلطان بدأت الحوادث ، التى انتهت بتقسيم هذه السلطنة العربية . وبالجملة فالسلطنة العمانية العربية ، التى استمرت من آخر القرن السابع عشر الى آخر القرن التاسع عشر ، قد تمكنت من التوغل فى داخل افريقية أكثر من جميع الدول التى قبلها ولم يكن السبب فى ذلك هو التجارة فحسب ، بل الزراعة التى كان العرب يستجلبون لها العملة من داخل البلاد . وازدادت تجارة الرقيق بازدياد الغراس ونمو الزراعة فى السواحل ، وأسس العرب فى البلاد الداخلية فى قسم انجامفيزى Unjamwesi المدينة المسماة « طابوره » و « او دجيدشى » وغيرهما ، ووصلوا الى الكونغو الأعلى وأسسوا فيها مدنا وقرى ، وكانت لهم هناك جنود مسلحة لحماية قوافلهم ولا جرم أن العرب بحضارتهم كانوا يفيدون الأمم الزنجية السوداء . ولما ألغيت تجارة الرقيق فى زمان السلطان برغش سنة ١٨٧٣ ساءت حالة الزراعة فى السواحل وتقهقرت البلاد الى الوراء بسبب ندورة العملة . اه .

ثم ذكر مؤلفو كتاب « السلطنة الاستعمارية الألمانية » تاريخ بسط انكلترة وألمانية حمايتهما على سلطنة زنجبار وملحقاتها مما لا يخرج عما تقدم ، ولكنهم قالوا : انه فى ٨ ابريل سنة ١٨٨٨ استأجرت الشركة الألمانية الاستعمارية من سلطان زنجبار مكوس السواحل كلها فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب مع من معهم من الزنوج ثورة عظيمة لاسيما مع كراهيتهم من قبل للجنس الأوربى ، وكان مقدام هذه الثورة الشيخ أبو شيرى

وسنة ١٨٩٠ فى الثلاثين من يناير (كانون الثانى) أصدر المجلس الألمانى (الرايستاغ) قراراً بتجنيد جيش من السود واخماد نار الثورة ، وعين الهرفيزمان قائداً عسكريا وواليا ، وكانت حرب شديدة صعبة المراس ، لأنه كان لا بد من ايجاد كل شئ من العدم ، ولكن هذا الجيش بمساعدة الأسطول تمكن من فتح البلاد .

ثم جاء فى هذا الكتاب ذكر أهالى البلاد ، فقيل انهم عرب وعجم وهنود وكومور وزنوج والأمة التى يقال لها السواحليون ، وهم من أصل يقال له فانقفانا Wangvana اختلطوا مع العرب من ألف سنة ، واختلطوا مع السود سكان الداخل ومع سائر الأجناس حتى الأجناس البيضاء . وهم يزعمون كونهم من أصل شيرازى ، وصورهم جميلة ، وتقاطيعهم لطيفة ، وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم و يغتسلون دائماً ولا يستعملون الوشم مثل الزنوج و يختتنون لأنهم مسلمون . ومن عادتهم لبس البياض ، و يجعلون على رؤسهم كمة بيضاء ان لم يلبسوا الطربوش الأحمر . ولكنهم الى اليوم لايلبسون البنطلون . ونساؤهم لا يتنقبن ، ولكنهنّ يأتزرن بشئ اسمه (الشقة) يغطى الجسم و يجعلون على الاكتاف شيئاً اسمه (كسونو) وهم اجمالا سواء منهم سكان المدن أو القرى ، لا يشبهون فى شئ سكان الداخل من الزنوج ، بل عندهم أدب وكياسة ، ومن صفاتهم حسن المعاشرة ، وقرب الألفة ، وسرعة العاطفة والبر بالاهل والحنو على الأولاد و يحبون السكنى بعضهم بقرب بعض ، ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التى بين بيوتهم نظيفة ، و يبنون بيوتهم صفوفا و يغرسون أمامها صفوفا من الأشجار الكبيرة مثل الكوكو والتامار يند ، وأينما وجد السواحلى اعتنى بغرس الشجر . وأكثر شغل الحقول يقوم به نساؤهم وأما الرجال فيصطادون السمك أو يتجرون بالبضائع أو يحملون الأثقال . و بالاجمال فلا تعد هذه الأمة بين الأمم الموصوفة بالشجاعة ، لكن بين الأمم الموصوفة بالوداعة . و يقال ان عندهم شيئاً من الكذب والكسل ، وان عندهم ميلا عظيما الى الطرب ، يحبون الزفن والغناء ، و يعزفون بالطبول والطنابير ، و يقضون أوقاتهم بالسرور . ولغة السواحليين أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً يقال لها « كيسواحلى » Kist aheli وأنقى هذه اللغة ما يتكلم به فى بلد (لامو) و يسمى (كينغوزى) وهو بمقام لغة ثقيف أو سعد بن بكر فى العربية . وأردأ السواحلى ما يتكلمون به فى جزيرة زنزيبار ، لأنه خليط من العربى والفارسى والاوردو

والانكليزى والبرتغالى، و بعد الاحتلال الألمانى دخل فيه الألمانى أيضا . وليس للغة السواحلية كتابة ولا آداب وكانوا يكتبون بالحروف العربية ، وصاروا اليوم يكتبون كثيراً بالالمانى والانكليزى ، واللغة المذكورة غنية بالكلمات الدالة على العواطف والمعانى المجردة . ويوجد فى لغتهم خاصة لاتوجد فى غيرها ، وهى ان بعض الكلمات يتغير معناها بتغير كيفية لفظها كأن تمد الحرف أو تقصره أو ترفع صوتك عند اللفظ أو تخفضه .

أما شعب جزائر الكومور أو القمر فاسمهم (انغاسيغا) أجسامهم حسنة التركيب وعقولهم جيدة ، ولكن أخلاقهم غير جيدة ، و بسبب لباقتهم وذكائهم يستخدمهم الأوربيون فى البيوت حشما وفى السفن نواتية .

أما السوماليون فكانوا يأتون الى هذه السواحل للتجارة ثم استقروا بها ، وهم طوال القامات مع دقة فى العضلات .

وأما العربى العمانى النبيل ، فقد بدأ يقل وجوده هناك (ويالأسف) ! وكانت له هيئة جميلة جدا فى زنزيبار وتلك السواحل ، وكانت على العربى سيماء الشرف والسراوة ، حتى الى مابعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسى والتجارى . فلم يزل الباقون منهم يعيشون معيشة الأكابر محفوفين بالحشم والعبيد ولايعملون بأيديهم . وهم يناظرون الهنود فى التجارة . وكانت منهم بيوتات غنية كثيرة ، هوت فى الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب فى تلك البلاد هم أشراف البلاد ، لايشتغلون بأيديهم أينما وجدوا . ويرتدون ملابس بهية منها مايسمونه القفطان ، جوخ أسود مطرز مفتوح من الأمام تحته قميص أبيض طويل يسمى كانز وثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجراً محلى بالفضة ، وهم طوال القامات ، رشاق القدود ، سمر الألوان ظاهر و الرصانة تجد حركاتهم كلها موزونة بدون تملق بل بشىء من الانقباض

ويوجد صنف آخر من العرب اسمه « شحرى » نسبة الى الشحر من جهات حضرموت ، فهذا الصنف ليس من النمط الأول لأنهم فقراء يتجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرون على مزاحمة الهنود فى التجارة .

وفى سواحل زنجبار أناس من البلوج ، وهم فقراء ، قليلو العدد . وأناس من الفرس الباقين على عبادة النار ، يعرف الانسان بمجرد رؤيتهم انهم من الجنس الآرى ، و يلبسون

مثل الأور بيين تقريبا ، ويجعلون على رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل وهم تجار ، ومنهم محامون صغار لدى المحاكم

وأكثر الغرباء فى تلك السواحل هم الهنود ، وهم قسمان المسلمون والوثنيون ، فالمسلمون أكثرهم من طائفة « الخوجه » (قسم من الاسماعيلية) وهم تجار وصناع ، منهم صاغة ، ومنهم خياطون وحذاءون وقصارون ، ومتى أثرى الخوجه عاد الى وطنه . وأما الوثنيون فبراهمة وبوذيون ، وكلهم يتعممون كالعرب لكن بعمائم مطرزة بالقصب ، ويستحضرون نساءهم الى تلك البلاد ، وهن جميلات يتحلين بالجواهر الكريمة ، ولكن داخل منازلهم قذر لايعرفون النظافة ، حتى ان الشوارع التى أمام منازلهم تغلب عليها القذارة . ومن الهنود صنف اسمهم البنجان ، ضعفاء لايأكلون لحوم الحيوان ، ولا طعام لهم الا من النباتات ، ولا يقدرون أن يقربوا سائر الأمم ، ولا يأتون بعائلاتهم من الهند . وبالاختصار فانهم مثقلون تحت التكاليف الدينية ، ومنذ مدة بدأ الهنود يدخلون الى الداخل ويوغلون فى البلاد ، فازداد عددهم فى « موروغورو » و « كيلوسا » و « ايرنيغا » و « طابوره » و « موانزه » و « بوكوبا » واجتمع منهم طرّاء كثيرون .

وهناك صنف اسمهم « الغوانزه » نسبة الى « غوا » بلدة من الهند تولاها البرتقاليون مدة طويلة ، فاختلطوا بالأهالى وتناسلوا وجاء منهم هذا الصنف ، ويسمون أنفسهم بأسماء برتقالية مثل « دوسيلفا » و « دوسوزا » وما أشبه ذلك ، وهم يشتغلون بالتجارة والخياطة والطبخ وخدمة الفنادق .

وفى تلك السواحل عدة آلاف من الألمان ، ثم عدة مئات من الانكليز ، ثم جماعات من الهولانديين والنمسويين والسويسريين والطليان ، وهناك أروام وسوريون ويقال لهم « الاوربيون المتوحشون » وهؤلاء يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعة ، وبأيديهم الفنادق ، وهم فى غاية الجد والنشاط وقد تملكوا الأملاك ، ففى الثلاثمائة رجل منهم ١٥ رجلا متملمون . اه ملخصاً وقد آلت مستعمرة شرقى افريقية الألمانية الى مستعمرات انكلترة بموجب معاهدة فرسايل .

مسلمو الحبشة

للأمير شكيب

أما الحبشة فبلاد من شرقى افريقيــة يحدها من الشمال النوبة والبحر الأحمر ومن الشرق بلاد الدناقيل والصومال ومن الجنوب بلاد الغاله ومن الغرب السودان المصرى وهى بلاد جبلية مرتفعة متوسط ارتفاعها ٢٠٠٠ متر وفيها قنن يبلغ علوها نحو ٤٦٠٠ متر كالتى فى جبل « أبا » فى الشمال وأخرى يبلغ علوها ٤١٢٠ كالتى فى جبل « غونة » فى الجنوب ويوجد الثلج على قنن الجبال المتناهيــة فى العلو صيفاً شتاء . وأما الهواء فهو حار فى القسم الأدنى الذى هو دون ارتفاع ١٥٠٠ متر ومعتــدل فى الأماكن التى ارتفاعها يقع بين ١٥٠٠ متر و ٢٧٠٠ متر وبارد فيما هو أعلى من ذلك . وفى أراضيها الحديد والذهب والصفر وفيهــا زراعات متنوعة ولكن اعتماد أهلها على المواشى . وفى جنوبى الحبشة بحيرة « تانا » التى يخرج منها بحر الأزرق والى الشمال من هناك يخرج نهر العطبرة الذى مصبه فى النيل ومارب الذى لا ينفذ من صحارى بلاد النوبة . والأحبــاش أجناس مختلفة منها من السلالة السامية ومنها من البهل ومنها من الزنج وهم يفترقون عن الجنس الزنجى بالرغم من شدة سوادهم . وبين اللغة العربية واللغــة الحبشية تشابه يثبت كون اللغة الحبشية هى من اللغات الساميــة . وبلاد الحبشة ثلاثة أقسام ففى الشمال بلاد « التيغرى أو التيجرى » ومدنها عدة واكسوم . وفى الوسط « الآمباره » وعاصمتها غندار وفى الجنوب « الشوا » ومدينتها آنكوبر . والى ولاية الشوا هذه أضيفت بلاد هرر التى أخذها الأحباش من يد أمرائها المسلمين سنة ١٨٨٧ .

وبلاد الحبشة من قديم الزمان هى فى منازعات وحروب دائمة منها ما هو بين الأحباش النصارى والأحباش المسلمين ومنها ما هو بين رؤوس الأحباش بعضهم مع بعض . وفى سنة ١٨٥٥ تنزّى على عرش الحبشة قائد اسمه كاساى بعد أن قهر جميع اقرانه وتتوج ملكا لملوك الحبشة باسم تيودوروس الثالث الا أنه خاشن فى معاملته دولة انكلترة فساقت عليــه حملة قهرته فانتحر سنة ١٨٦٨ فخلفه فى السلطنة أمير التيغرى وتلقب يوحنا . وحصلت

بينه و بين المصريين حرب كانت الطائلة له فيها آخر مرة فكف الخديوى اسماعيل عن قتاله . ثم خلفه نجاشى آخر اسمه يوحنا فى أيامه دبت دولة ايطاليـة الى هنـاك تبغى الاستعمار فصادمها بقوة الا ان السودانيين جماعة المهدى تغلبوا عليه وقتلوه . فخلفه منليك ملك شوا وصالح الطليان وامتد هؤلاء فى الاريتره وأطراف التيغرى لولا أن الخلاف وقع بينهم سنة ١٨٩٥ فانتهى بواقعة « عدوه » الشهيرة التى انهزم فيها الطليان هزيمة شنيعة عدلوا من بعدها عن استعمار الحبشة واكتفوا بالأريتره .

أما عدد أهالى الحبشة فجغرافيـات الاوربيين تحصيه خمسة ملايين . وهو من باب المتابعة والتقليد لأقوال قديمة العهد اذ مما لاشك فيه أن الحبشة اليوم فيها أكثر من ثمانية ملايين وقد ورد فى جريدة الطان (عددها المؤرخ فى ١٧ مايو سنة ١٩٢٤) فصل عقدته بمناسبة الرأس تافارى كافل ملك الحبشة لهذا العهد وزيارته لباريز جاء فيه مايأتى :

« ان الحبشة مساحتها نحو ٦٠٠ الف كيلو متر مربع وأهلها نحو ٧ ملايين الى ٨ ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مليون نصارى (على مذهب الكنيسة القبطية) وثلاثة ملايين مسلمون داخلا فى هذا العدد البلاد الاسلامية التى أطاعت مؤخرا . ومليون ونصف مليون وثنيون ونصف مليون يهود و بعض كاثوليك و برتستانت .

« ان البلاد الواقعة فى شرقى افريقية المسماة بالحبشة هى أشبه بقلعة طبيعية كبرى شوامخها مطلة على سيف البحر الأحمر و بلاد الصومال الفرنسى والصومال الانكليزى والاريتره الايطالية وأرض النوبة والسودان المصرى ، ولا يدخل الى هذه القلعة الا من منافذ ضيقة تحميها قبائل عاتية .

« أما ملك الحبشة الحديثة فينتهى الى زعيم وصل بغزواته وحروبه الى أن أخذ تاج الحبشة وتلقب بتيودروس الثالث ثم غلبه الانكليز سنة ١٨٦٨ فانتحر فى مغدلة وخلفه أمير آخر تنزى على الملك وتلقب بالنجاشى الأكبر أى ملك ملوك الحبشة . واسمه يوهانس وكان فى زمانه حاكم ولاية شوا واسمه (ساهالا ماريم) قد حارب يوهانس هذا وعانده ثم صاهره وانتهى الأمر بأنه خلفه على العرش باسم منليك الثانى وذلك لأنه ادعى كونه من ذرية سليمان بن داود الذى عشق الملكة سبا وجاءه منها ولد اسمه منليك كان هو النجاشى الأول . ولأجل توطيد وشائج الملك أعطى منليك ابنته (زاوديتو) الى ابن يوهانس فمات

هذا بدون ذرية ولم يكن لمنليك أولاد ذكور وانما كانت له ابنة ثانية (شوارقاد) زوجها من أمير مسلم كان حاربه وتغلب عليه ثم تنصر على يده وهو المسمى بالرأس ميكائيل . وولد له من ابنته هذه ولد اسمه (ليج ياسو) فجعله ولى عهده فلم يرق ذلك للامبراطورة (تايتو) ولا للاهالى ولكن توج بالرغم من ذلك ياسو امبراطورا سنة ١٩١٤ وتسمى أبوه الرأس ميكائيل ملكا على (فولو) و (التيغرى) والنائب العام للملكة . وكان مولد الامبراطور الفتى سنة ١٨٩٧ فظهرت منه أفعال شاذة أغضبت الأهالى واشتد الغضب عند ما أظهر الاسلام راجعا الى دين أهله فاجتمع الاساقفة والامراء وعظماء المملكة وعقدوا مجمعا خلعوا فيه ياسو و بايعوا زاوديتو ابنة منليك امبراطورة وجعلوا الرأس تافارى كافلا للملكة و وليا للعهد (٢٧ سبتمبر ١٩١٦) وكان الرأس تافارى متزوجا بابنة الرأس ميكائيل أخت ياسو فعزله ياسو من ولاية هرر فزحف على رأس العساكر الحبشية لقتال حميه وابن حميه فكانت حربا ضروسا طالت واشتدت ولكنها انتهت بتغلب تافارى على حميه وجئ بهذا مصفدا بالحديد الى اديس بابا بعد ان دارت عليه الدائرة فى وقعة « دبره برهام » (٢٧ اكتوبر ١٩١٦) وفى ٢ نوفمبر استعرضت الامبراطورة الجيوش وجئ بالرأس ميكائيل أيضا مقيدا بالسلاسل امام العرش الامبراطورى فيقال ان صهره وغالبه الرأس تافارى رق لحاله وتذكر مابينهما من الرحم فقام وأجلسه مكانه . أما ياسو فبعد مقاتلات شديدة أيضا أخذ أسيراً وحبس فى قلعة واستوسقت الأمور للرأس تافارى » انتهى .

فقد ظهر لك ان الحبشة هم مسلمون ونصارى وان المركز الأول فى هذه المملكة للنصارى وجريدة الطان تنقل ان عدد النصارى ثلاثة ملايين ونصف مليون وعدد المسلمين ثلاثة . ولكن الملحوظ ان عدد المسمين فى مملكة الحبشة بعد ان توسع ملك الحبش الى جهات هرر والصومال والغاله أصبح أكثر من عدد النصارى حتى نقل عن كافل ملك الحبشة يوم كانت الحرب واقعة مع تركية على أثر الحرب العامة انه لايريد زوال تركية لأنها مملكة اسلاميه ولأن المسلمين من رعاياه أكثر من النصارى . وقد اطلعنا على حديث أفاض به رجل من علماء الترك أقام بالحبشة مدة طويلة وعاد الى الاستانة فى العام الماضى فساله أصحاب مجلة سبيل الرشاد ان يفيدهم ماعرفه من أحوال الحبشة فذكر لهم فوائد جمة وقدر عدد مسلمى الحبشة بسبعة ملايين .

وقد يظن بعض القراء ان فى هذا العدد مبالغة وليس هذا الظن بصحيح . فعليك بأن تقرأ ماذكره المسيو موريس قال فى معجمه الجغرافى تحت اسم غاله Gallas : «شعب من افريقية منتشر فى جنوبى الحبشة وفى البلدان الضاربة الى الجنوب أيضا مما يجاور اقليم البحيرات الكبر المنفصل عن البحر ببلاد الصومال . وهم أقوام جميلة الخلقة لونهم نحاسى يختلفون فى الشكل عن الأقوام المجاورين لهم من جنوبيهم كما أنهم يختلفون عن الأحباش والصومال ويقدر عددهم من ٦ الى ثمانية ملايين وأكثرهم سكان مدر والغالب عليهم الزراعة ومعظمهم مسلمون . وقد كانوا أكثر الأحيان مع الاحباش وأخيرا تغلب هؤلاء عليهم فقسم من قبائل الغاله يؤدون أتاوة لملك شوا من الحبشة »

فانت ترى انه ليس فى كلام السائح التركى أدنى مبالغة لأنه عدا القسم الخاضع من الغاله لمملكة شوا الحبشية يوجد مملكة هرر التى استلحقها الاحباش بمساعدة بعض الدول الاوربية ويوجد مسلمو نفس الحبشة الذين هم كثيرون فى وسط تلك المملكة منذ وجد الاسلام .

وقد ذكر جغرافيو العرب بلاد المسلمين التى فى أطراف الحبشة فقال ياقوت : زيلع بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام وآخره عين مهملة جيل من السودان فى طرف أرض الحبشة وهم مسلمون . ثم ذكر غرائب من عاداتهم فى أمر الزواج وغيره .

ونقل صاحب صبح الاعشى جملا كثيرة عن الحبشة القسم المسيحى والقسم الاسلامى منها فنأخذ نتفا مما قال : مملكة عظيمة جليلة المقدار متسعة الارجاء فسيحة الجوانب . قال فى مسالك الابصار : وأرضها صعبة المسلك لكثرة جبالها الشامخة وعظم أشجارها واشتباك بعضها ببعض حتى ان ملكها اذا أراد الخروج الى جهة من جهاتها تقدمه قوم مرصدون لاصلاح الطرق بالآت لقطع الأشجار واحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثير عددهم ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الانسانى لأنهم اجبر بنى حام واخبر بالتوغل فى القتال والاقتحام طول زمنهم فى الأسفار وصيد الوحوش وقتالهم انما يكون عريا من غير لامة تدفع عنهم ولاعن خيلهم . ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف لولا ماهم عليه من الشرك لكانوا فى الرتبة العليا من مراتب بنى آدم فذكر أن المشهور عنهم مع ماهم عليه من المجاعة انهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم ومن عادتهم أن من رمى سلاحه فى القتال حرم قتاله

ويكرمون الضيف ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه واذا أحبوا أظهروا المحبة واذا أبغضوا أظهروا البغض والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الحدس . ولهم قلم يكتبون به من اليمين الى الشمال كما فى العربى حروفه ستة عشر حرفا لكل حرف منها سبعة فروع فيكون عدتها مائة واثنين وثمانين حرفا سوى حروف أخر مستقلة بذاتها لاتفتقر الى حرف من الحروف المذكورة مضبوطة بحركات نحوية متصلة بالخط لامنفصلة عنه . ومع كونهم جنسا واحداً فلغاتهم تزيد على خمسين لسانا الخ ثم ذكر فى صبح الأعشى القسم الأول من الحبشة وهو بلاد النصرانية قال وهو القسم الأوفر عددا الأوسع مجالا . وهو الذى يملكه ملك « أمحرا » بفتح الألف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين والف فى الآخر وهم جنس من الحبشة . ثم ذكر تقاسيم مملكة أمحرا وصفات تلك البلدان بلدا بلدا الى أن قال ان ملكهم فى الزمن المتقدم كان يلقب بالنجاشى وقد ذكر المقر الشهابى ابن فضل الله فى مسالك الأبصار ان الملك الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم يسمى بلغتهم « الحطى » بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت فى الآخر ومعناه السلطان اسما موضوعا لكل من قام عليهم ملكاً كبيراً . الى أن قال : ومع ماهم عليه من سعة البلاد وكثرة الخلق والاجناد مفتقرون الى العناية والملاحظة من صاحب مصر لأن المطران الذى هو حاكم شريعتهم فى جميع من أهل النصرانية لايقام الامن الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية بحيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر للبطرك المذكور بارسال مطران اليهم وذلك بعد تقدم سؤال ملك الحبشة الذى هو الحطى وارسال رسله وهداياه ، قال : وهم يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر الى مصر ويساعدون على اصلاح سلوكه تقربا لصاحب مصر وقد ذكر ابن العميد مؤرخ النصارى فى تاريخه انه لما توقف النيل فى زمن المستنصر بالله الفاطمى كان ذلك بسبب فساد مجاريه من بلادهم وان المستنصر أرسل البطرك الذى كان فى زمانه الى الحبشة حتى أصلحوه واستقامت مجاريه .

ثم ذكر القسم الاسلامى من بلاد الحبشة وقال انه البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالى بحر القلزم (البحر الأحمر) وما يتصل به من بحر الهند ويعبر عنها بالطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له[1]

(١) قرأت فى تاريخ نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى ان ساحل فلسطين يقال له أيضا الطراز الأخضر

قال فى مسالك الأبصار وهى البلاد التى يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع قال : والزيلع انما هى قرية من قراها قال الشيخ عبد المؤمن الزيلعى الفقيه : وطولها براً وبحراً خاصاً بها نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك لكن الغالب فى عرضها انه مقفر اما مقدار العمارة فهو ثلاثة وأربعون يوماً طولا وأربعون يوماً عرضاً . الى أن قال : ان بلادهم ليست بذات اسوار ولا لها فخامة بناء ومع ذلك فلها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين الا أنه لاتعرف عندهم مدرسة ولاخانقاه ولارباط ولا زاوية وهى بلاد شديدة الحر وألوان أهلها الى الصفاء وليست شعورهم فى غاية التفلفل كما فى أهل مالى وما يليها من جنوب المغرب . وفطنهم أنبه من غيرهم من السودان وفطرهم أذكى وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء ويتمذهبون بمذهب أبى حنيفة خلا « وفات » فان ملكها وغالب أهلها شافعية .

وقال ان هذه البلاد تشتمل على سبع قواعد : الأولى « وفات » والعامة تقول أوفات ويقال لها أيضاً « جبرة » والنسبة اليها جبرتى وموقعها بين الاقليم الأول وخط الاستواء . وقال الشيخ عبدالله الزيلعى : وطول مملكتها خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد وكلها عامرة آهلة بقرى متصلة وهى أقرب أخواتها الى الديار المصرية والى السواحل المسامتة لليمن وهى أوسع الممالك السبع أرضا وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفا فأكثر من الرجالة . والقاعدة الثانية « دوارو » وطولها خمسة أيام وعرضها يومان وهى على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات فى الفارس والراجل والثالثة «أرابينى» وطولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس أما الرجالة فكثيرة للغاية . والرابعة « هدية » بالهاء والدال المهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء فى الآخر وموقعها بين الاقليم الأول من الأقاليم السبعة و بين خط الاستواء وطول مملكتها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام وصاحبها أقوى اخوانه من ملوك هذه الممالك السبع وأكثر خيلا ورجالا وأشد بأساً على ضيق بلاده عن مقدار اوفات ولملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر . والخامسة « شرحا » وطولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالة مثل ذلك مرتين فأكثر . والسادسة « بالى » وهى تلى شرحا المتقدمة ولكنها أكثر خصبا

وأطيب سكنا وأبرد هواء . والسابعة « دارة » وهى تلى بالى المقدمة الذكر وطولها ثلاثة وعرضها كذلك وهى أضعف اخواتها حالا وأقلها خيلا ورجالا وعسكرها لايزيد على ألفى فارس ورجالة كذلك . انتهى ملخصاً .

ثم ذكر ان هذه الممالك السبع هى كلها خاضعة « للحطى » أو النجاشى سلطان أمحرا . وان الملك فيها فى بيوت محفوظة الا بالى اليوم فان الملك فيها صار الى رجل ليس من بيت الملك تقرب الى سلطان أمحرا حتى ولاه مملكة فاستقل ملكا بها . قال نقلا عن مسالك الأبصار : وجميع ملوك هذه الممالك وان توارثوها لايستقل منهم بملك الا من أقامه سلطان أمحرا واذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا جميعهم سلطان أمحرا وتقربوا اليه جهد الطاقة فيختار منهم رجلا يوليه فاذا ولاه سمع البقية له وأطاعوا فهم له كالنواب وأمرهم راجع اليه ثم كلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون اليه . ثم قال : وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة ثم حكى عن الشيخ عبدالله الزيلعى وغيره انه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على مدافعة الحطى أو الماسك معه ولكنهم مع ماهم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس . ثم قال : وقد كان الفقيه عبدالله الزيلعى قد سعى فى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا الى مصر فى تنجز كتاب البطريرك اليه بكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين وأخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك فكتب اليه عن نفسه كتابا بليغاً شافياً فيه معنى الانكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها . قال : وفى هذا دلالة على الحال . قال : القلقشندى صاحب صبح الأعشى . قلت وقد كتب فى أوائل الدولة الظاهرية « برقوق » كتاب عن السلطان فى معنى ذلك وقرينه كتاب من البطريرك متى بطريرك الاسكندرية يومئذ وتوجه به الى الحطى سلطان الحبشة برهان الدين الدمياطى الخ ملخصاً .

ثم قال : وأهمل المقر الشهابى بن فضل الله فى مسالك الابصار والتعريف عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين منها جزيرة «دهلك» وهى جزيرة مشهورة عن طريق المسافرين فى بحر عيذاب الى اليمن و بينها و بين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا . وملك دهلك من الحبش المسلمين . ومنها مدينة « عوان » على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة اليمن . واذا كان

وقت الضحى ظهر منها «الجناح» وهو جبل عال فى البحر. ومنها مدينة مقدشو قال فى «مزيل الارتياب» وهى مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة وهى على بحر الهند ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر فى زيادته بالصيف وقد ذكر أنه شقيق لنيل مصر فى مخرجه من بحيرة كورا ومصبه ببحر الهند على القرب من مقدشو. ثم قال القلقشندى: وقد أتى الحطى ملك الحبشة على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخربها وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف وأكره الكثيرين منهم على الدخول فى دين النصرانية ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دهلك تحت طاعة الحطى ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقررة. والسلطان سعد الدين صاحب زيلع وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته و بينه و بينه الحروب لا تنقطع وللسلطان سعد الدين فى كثير من الأوقات النصرة عليه والغلبة والله يؤيد بنصره من يشاء اه ملخصاً.

وقد حرر كثير من مؤرخى الافرنج ورحالاتهم كتباً عن الحبشة ملأى بوقائع الحروب بين مملكة الحبشة النصرانية وملوك الحبشة المسلمين كأصحاب هرر و بلاد الزيلع وكما أنه وجد فى ملوك الحبشة النصارى من قهر الاسلام وأثخن فى المسلمين وقتل وسبى وأحرق ودمر كذلك وجد فى أمراء الاسلام هناك من كال لملوك الحبشة بكيلهم وأزيد ومن أشهرهم السلطان سعد الدين هذا وأشهر منه الامام أحمد بن ابراهيم الذى ألف على غزواته وفتوحاته شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الملقب بعرب فقيه كتاباً ممتعاً اسمه فتوح الحبشة نشر الجزء الأول منه بنصه العربى المستشرق الفرنسى « رينه باسه « René Basset مع فذلكة للكتاب باللغة الفرنسية فهذا الامام الغازى أحمد بن ابراهيم يصح أن يقال انه صلاح الدين يوسف الحبشة فقد والى الهزائم على الحبشة النصارى مع شدة بأسهم وصعوبة مراسهم ووعورة جبالهم وكون بلادهم بقيت بكراً لم تطمثها قدم فاتح ولا ترقت اليها همة غاز فكان هو الذى أوغل فى قلب بلادهم وملكهم من نواصيهم واستنزلهم من صياصيهم حتى قال المستشرق « باسه » ان أشهر دور من أدوار تاريخ الحبشة التى بقيت أخبارها محفوظة فى أذهان الغربيين هو دور أحمد جران (لقب الفاتح المذكور) الذى كاد أن يسحق نصرانية الحبشة و يعيدها كبلاد النوبة. وقد كان دخول البرتقاليين فى هذه المعمعة هو الذى استجلب الأنظار الى هذه القطعة من تاريخ المشرق وجاءت كتابات البرتقاليين والطليان

موضحة لها فلهذا نقول : «ان هذا الدور هو أصح أدوار تلك البلاد أخباراً لتضافر الروايات على وقائعه من كل جهة فقد انضمت الى المنابع الغربية المنابع الشرقية مثل الكتاب العربى الذى نحن ناشروه الآن (تأليف عرب فقيه) وكتب مؤرخى الحبشة أنفسهم فيكون لدينا شهادات من جميع الأمم التى اشتركت فى هذه الحرب وتجد الغالب والمغلوب مدليين بالوثائق والبينات التى يكمل بعضها بعضاً و يؤيد واحدها الآخر على أننى أذهب الى كون الموقع الأول فى غزارة التفاصيل هو للتأليف العربى الذى حرره شهاب الدين أحمد عرب فقيه لا من جهة كونه أقل ميلا من غيره الى قومه بل من جهة كونه شهد بنفسه أكثر وقائع الامام غران فلهذا تجد فى مؤلفه تفاصيل دقيقة موضحة لا تجدها فى كتاب آخر من كتب المسيحيين على أن هؤلاء متفقون معه فى الروايات عن الحوادث الواردة فى كتابه » .

ولقد روى عرب فقيه من خبر الامام أحمد بن ابراهيم ما ملخصه :

كان للسلطان سعد الدين من الأولاد أبو بكر و بدلاى فبدلاى له ولدان أحدهما محمد ابن بدلاى جد السلطان عثمان بن سليمان .

ولأبى بكر ولدان أحدهما على وهو جد السلطان بركات وحبيب . فعلى له أولاد منهم أظهر الدين وهذا له محمد ومحمد له عمر دين . والولد الثانى لأبى بكر اسمه آزر وهو جد السلطان محمد ابن أبى بكر بن محمد بن آزر بن أبى بكر بن سعد الدين .

والولد الثانى الذى لبدلاى بن سعد الدين اسمه شمس الدين وقد انقرضت ذريته وتولى البلاد السلطان محمد بن آزر بن أبى بكر بن سعد الدين ثلاثين سنة من القرن التاسع وخرج السلطان محمد للجهاد فالتقى المسلمون والحبشان فكانت الدائرة لهؤلاء على المسلمين وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً . وعاد السلطان محمد الى بلاده فقتله صهره محمد بن أبى بكر ابن محفوظ وملك البلاد بعد سنة فقتله ابراهيم بن أحمد صاحب بلاد هو بت وملك بعده ثلاثة أشهر فقتله « وسنى » مملوك الجراد محفوظ وملك البلاد ثلاثة أشهر وأسر بعد ذلك أسره منصور بن محمد وقيده وأرسله الى زيلع وقتل فى زيلع . وملك البلاد بعده الأمير منصور بن محفوظ بن محمد بن الجراد آدش وتحارب الأمير منصور مع الجراد ابون سبع سنين وأقام الحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر واستأصل قطاع الطرق وأبطل الخمور واللعب والرقص وعمرت فى زمانه البلاد وصلحت الأحوال . وكان

أحمد بن ابراهيم (مترجم عرب فقيه) يومئذ فارساً من فرسان الجراد ابون وكان ذا عقل ورأى وشور فى صغره وكبره الهاماً من الله تعالى للامر الذى أراده الله على يديه وكان الجراد ابون يحبه حباً شديداً لما رأى من شجاعته وبراعته . وكان السلطان ابو بكر بن السلطان محمد بن آزر من ذرية سعد الدين قد جمع جموعاً من الصومال وغيرهم وقاتل الجراد ابون فقتل الجرادابون بن آدش وتولى السلطان أبو بكر البلاد ولكنه أساء السيرة فى الرعية وظهر قطاع الطرق وحدثت أمور أوجبت انكار العلماء والفقهاء من المظالم وشرب الخمور وكان الامام أحمد (الغازى) فى عسكر الجراد ابون كما تقدم فخرج هو وجماعة من رفاقه واجتمعوا فى محل يسمى هو بت وكانوا نحو مائة فارس وأمروا عليهم الجراد عمر دين فبينما هم كذلك اذ سمعوا بأن بطريقا من بطارقة الحطى ملك الحبشة من النصارى يسمى فانيل من أهل دوارو ومعه جماعة من البطارقة قصدوا بلاد المسلمين وأسروهم وسبوا عيالهم ونهبوا مواشيهم . فسمع أحمد بن ابراهيم بذلك فقصد جيش النصارى فى مكان يسمى عقم وهو نهر عظيم كثير الماء فاشتبك الفريقان فى قتال شديد انتهى بالدبرة على النصارى وقتل جماعة من البطارقة وغنم المسلمو غنائم كثيرة ورجعوا فرحين مستبشرين الى محل اسمه زيفه بقرب بلد السلطان أبى بكر بن محمد . فلما سمع السلطان بخبرهم وما فعلوه من الجهاد وحازوه من الغنائم انهزم هو ومن معه من الصومال الى بلد يسمى كداد من بلاد الصومال فقصدهم أحمد ابن ابراهيم الى هناك فتلاقى الفريقان عند نهر يقال له قرن فاقتتلوا وانهزم السلطان ومن معه وقتل منهم جماعة . فانثنى أحمد وأصحابه راجعين الى بلادهم هرر من برسعد الدين فلم يستقروا بالجلوس حتى جمع السلطان أبو بكر جموعا من الصومال وغيرهم وجاء بخيول وجيوش لا يحسبها حاسب فاخلى أحمد بن ابراهيم هرر وسار الى بلد اسمه هو بت زبرت واعتصم بجبل عظيم فيه فقصدهم السلطان بجموعه وحصرهم وضيق عليهم فنزلوا من الجبل وناجزوا السلطان القتال فانهزموا وقتل أميرهم عمر دين ورجع أحمد بن ابراهيم وأصحابه الى بيوتهم ودخل الناس واصلحوا بينهم . وما طال الصلح حتى غدر السلطان أبو بكر باحمد وجرده من خيله ورجله وقتل أميراً كبيرا اسمه عثمان بن يس ففر أحمد من وجهه لاحقا ببلده زعكه وليس معه الا ثلاثة من الخيل فتلاقى مع غلام للسلطان حدوش بن محفوظ معه اربعة من الخيل فاخذها منه وخرج الى

مكان اسمه شيح ومعه سبعة من الخيل فانضم اليه أمير يسمى جراد أبو بكر ابن اسماعيل ثم وصل اليه الامير حسين الجاترى فقصدهم السلطان بعساكره فلم يزالوا من بلد الى بلد يغير السلطان عليهم و يغيرون عليه فحدثت بين الفريقين وقائع عديدة انتهت بظفر أحمد ابن ابراهيم ودخوله هرر فاقام الحق وأزال المنكر وصاح المنادى كل أحد يلزم بيته وكل على عادته ولا تخافوا ولا تحزنوا . ولكن السلطان عاد فجمع الجوع من الصومال وغيرهم وقصد أحمد للقتال فرتب هذا عساكره و زحف اليه فاعتصم السلطان بجبل اسمه حون فدخل الناس من الاشراف والفقهاء بينهم بالصلح على ان السلطان يكون سلطانا على حاله وأحمد بن ابراهيم يكون من تحته و يقاب بالامام والبلد بينهم بالسوية فارتضى أحمد بذلك حقنا للدماء واقام ببلدة سيم وأقام السلطان بهرر . وأما وجه تسمية أحمد بالامام فاشهر رواية فيها ان رجلا اسمه سعد ابن يونس العرجى رأى النبى (ﷺ) وعن يمينه أبو بكر الصديق وعن يساره عمر بن الخطاب و بين يديه على بن أبى طالب رضى الله عنهم و بين يدى على ابن أبى طالب أحمد بن ابراهيم فقال الرائى لهذه الرؤيا يا رسول الله من هذا الرجل الذى بين يدى على بن أبى طالب فقال ﷺ هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة . وكانت هذه الرؤيا والامام حينئذ جندى ولم يكن الرائى يعرفه من قبل . فوصل هذا الرائى الى هرر فى زمان الجرادابون فقص رؤياه على أهل البلد فقالوا له هذا الذى رأيته فى منامك فقال لا فلم يزل يتولى البلاد أمير بعد أميرالى ان جاء الرائى فى زمن أحمد بن ابرهيم فلما رآه عرفه وقال لاهل البلد هذا الذى رأيته فى الرؤيا بين يدى على بن ابى طالب فسماه الناس الامام . وقيل ان بعض المشايخ رأى فى المنام الولى الصالح أحمد بن محمد بن عبد الواحد القرشى التونسى والشريف الولى أبا بكر بن العيدروسى وهما يقولان لاتسموه السلطان ولا الامير ولكن سموه امام المسلمين .

وبدأ من ذلك الوقت الامام أحمد بن ابراهيم يغزو الحبشة النصارى لانهم كانو فى زمان سعد الدين وفى زمان من تولى بعده وفى زمان الجراد آبون يغزون بلاد المسلمين وقد خربوها مرارا كثيرة وكان بعض المسلمين يؤدون لهم الخراج فلما ظهر الامام أحمد منعهم من ذلك وكان يجلس لاقامة العدل ويرفق بالمساكين و يرحم الصغير و يوقر الكبير و يعطف على الارملة واليتيم و ينصف المظلوم من الظالم ولا تأخذه فى الله لومة لائم .

ثم اختلف الامام مع السلطان أبى بكر وتجددت الحرب فقتل السلطان وانفرد الامام بالامر وأقام عمر دين أخا السلطان محل أخيه . وغزا النصارى بلاد المسلمين وكان عليهم بطريق كبير من الجبابرة اسمه دجلجان صهر الملك وتحته بطارقة كثيرة فوصل الى أطراف بلاد المسلمين وخربها ونهب أموالهم وسبى حريمهم وسبى أم أمير من أمراء المسلمين اسمه الامير أبو بكر قطين . فسار الامام اليهم بعسكره فالتقى الجمعان فى موضع يقال له الدِير (بكسر الدال) وكانت واقعة شديدة انتصر فيها المسلمون وأسروا نحو خمسمائة أسير وعاد الامام الى بلده منصورا محبورا . وكان عمره مع كل ذلك يومئذ احدى وعشرين سنة لا غير . ثم توالت غزواته منها عزاة الفطجار وغزاة قيجى وغزاة وانباريه فى داوارو وغزاة افات التى كانت فيها امرأة الامام مع زوجها . وكانت واقعة هائلة غنم فيها المسلمون ما لا يحصى وسبوا نساء كثيرة منهن بنت خالة الملك فوهبها الامام الى وزيره عدلى ففداها ملك الحبشة بخمسين أوقية من الذهب الأحمر . واستولى الامام بعد هذه الواقعة على أنطوكية ودخل كنيستها العظيمة ومعه زوجته دلونبره بنت الأمير محفوظ وجم غفير من الأمراء مثل الأمير حسين الجاترى صاحب دوارو بعد الفتح والأمير على صاحب عنقوت بعد الفتح والجراد احوش وكوشم أبو بكر والشيخ الزاهد حامد ابن الزاهد الفاضل شيخ واشره ثم خرب الكنيسة وأحرقها . وقصد الامام بلدة جندبلة وهى بلدة يملكها ملك الحبشة ولكن أهلها مسلمون فتلقوا الامام بالفرح والسرور وأعانوه بعشرين أوقية من الذهب وقالوا له نحن نعطى هذا الذهب لزوجتك دلونبره فرفض الامام ذلك وتوسط الأمير حسين الجاترى والوزير عدلى والجرادين والأمير على صاحب عنقوت فى أن يقبل الامام هذه الهدية لزوجته فأصر الامام على الرفض وقال لا يحل هذا وأنفقها على الجهاد واشترى بها ١٠٠ سيف وشهدوا بها وقعة شيزكوره (أول رجب سنة ٩٣٥ هجرية) .

وسار الامام من جندبله فى طريق حار دليله فما درى هو وجيشه الا وهم وسط شجر مشتبك أصبحوا لا يقدرون معه أن يتقدموا فأمرهم الامام بقطع الاشجار فما زالوا يقطعون منها حتى خرجوا الى الطريق الواضحة ووصلوا الى الدير فقسم فيها الغنائم وعاد الى هرر مؤيداً منصورا . ثم استنفر قبائل الصومال للجهاد فكانت أول قبيلة لبت نداءه «هبرمفدى» مع مقدمهم أحمد جرى بن حسين الصومالى فوصلوا الى هرر بعدتهم وخيولهم

وسر بهم الامام سروراً عظيما . و وصل بعدهم قبيلة جرى ومقدمهم متان بن عثمان بن خالد الصومالى فأظهروا آلاتهم وسلاحهم وتنكبوا قسيهم وركبوا جيادهم وكانت معهم أخت الامام فردوسة وهى امرأة كبيرهم . ثم طلعت قبيلة زر به ومقدمهم السلطان محمد بن عمة الامام ومعه من الرجالة الصناديد ألف وستون رجلا وتخلفت قبيلة مريحان بعدم استقامة مقدمها حرابو فعزله الامام وأمر عليها ابن أخيه فجاء منهم نحو ثمانمائة مجاهد بين فارس وراجل . و بعد ذلك تهيأ الامام لغصد بلاد الحبشة وجهز الجيوش وأنفق الأموال و باع حتى حلى نسائه وأثاث بيته وخرج بجيوشه ومعه امرأته دلونبره وكانت حاملا و وصلوا الى زيفه فتلقاهم الجراد دين ابن آدم وكان رجلا صالحا فأضافهم وأكرمهم وكذلك الجراد شمعون والجراد كامل صهر الامام والامير مجاهد فأكرموا الامام اكراماً زائداً . و وضعت امرأة الامام فى زيفه غلاما سماه محمداً وتأخرت بسبب الوضع عن المسير و بقيت فى زيفه عند مؤنسة أخت الامام . وسار الامام قاصداً ملك الحبشة « وناج سجد » وهو فى أرض بادقى فأخذ ملك الحبشة يجمع جوعه قبائل التجرى أو التيغرى وقبائل آقوا وقبائل قجام وأهل العنقوت وأهل جن وأهل قده وغيرهم وانقلبت الحبشة بأسرها وكان بطارقة التجرى أربعة وعشرين بطريقاً كل منهم تحته جيش عظيم . وكان من جملة البطاريق بطريق اسمه عثمان بن دار على كان مسلما وكان أبوه مسلما أسره الاحباش فى زمان السلطان محمد فارتد وصار بطريقا و ولد له أولاد كثيرون نصارى ثم فى آخر عمره عاد الى الاسلام وجاهد واستشهد . ثم ان ملك الحبشة ما زال يحشد الجيوش و يستفز القبائل لملاقاة الامام و بقى ينتظره فى أمحره كما أن جيوشاً أخرى كانت معباة فى بادقى . وكان الامام قاصداً كنيسة بادقى ناوياً احراقها والاحباش يقولون لا يصل الى الكنيسة حتى نقتل عن آخرنا . وقيل ان خيل الحبشة كانت ١٦ ألفاً والرجالة كانت نحو مائتى ألف لذلك طالت الوقائع فى شنبزكوره وكانت أيام للمسلمين وأيام للنصارى وعبى الامام أحمد جوعه هكذا : السلطان محمد بن السلطان على ابن خالته والشيخ أنس ابن الشيخ شهاب بن عبد الوهاب وقبيلة « زمن برة » وقبيلة « برزرة » وقيلة « يقله » وقبيلة « جاسار » وقبيلة « عرب تخا » وقبيلة « القى » وغيرهم من قبائل الحرله فى الميمنة . وقبيلة « جرى » وقبيلة « مريحان » وقبيلة « يبرى » وقبيلة « هرتى » وقبيلة « جران » وقبيلة « مزر » وقبيلة « برسوب » وكلهم صومال فى

الميسرة وكل قبيلة بأميرها . وكان الامام فى القلب ومعه أعيان الفرسان مثل الأمير حسين الجاترى والأمير زحربوى محمد . وفرشحم على والوزير نور بن ابراهيم والامير مجاهد وفرشحم السلطان وعبد الناصر والشيخ داوه وأبو بكر قطين وفرشحم دين والجراد احمدوش وصبر الدين وجاسا عمر والجراد عثمان بن جوهر الخ وجمع خمسمائة من الابطال ممن حضروا الحروب والغزوات وأمرهم بأن يلازموه . وضم اليهم ثلاثمائة من قبيلة هرتى من الصومال وأربعمائة من قبيلة يبرى لشدة صلابتهم وكان الثلاثمائة من أهل السيوف والاربعمائة من أهل القسى . ثم التقى الجمعان وكان المسلمون كالشامة البيضاء فى جلد الثور الاسود . وقام الامام يخطب فى المسلمين ويحرضهم على الجهاد وقرأ : « إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤْمنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجنَّةَ يقَاتلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فى التَّوْرَاةِ والإنْجيلِ والقُرآنِ وَمَنْ أَوْفَى بعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببَيْعِكُمْ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ » . فحينئذ قال له المسلمون دعنا نحمل عليهم . فنعهم الامام من الحملة وقال لهم اثبتوا مكانكم ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم به واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق ولا تخطوا بأرجلكم خطوة واحدة الا وأنتم تذكرون الله . ثم حمل الحبشة على المسلمين من جهة الميمنة حملة رجل واحد فصبر المسلمون لهم وحملت ميمنة الحبشة على ميسرة المسلمين من الصوماليين وحملت قبائل التيجرى والبطارقة على القلب الذى فيه الامام واختلط الجمعان واستمر القتل فانكشفت ميسرة المسلمين التى فيها الصومال وقتل الحبشة منهم ثلاثة آلاف واسروا كثيراً وانحاز من ثبت منهم الى القلب وأما ميمنة المسلمين من الحرله فتكاثر عليها الحبشة أيضا وزلزلوها فانحازت أيضا الى القلب فحمل الحبشة بأجمعهم على القلب ودامت الحرب من الضحى الى العصر الاخير فرد الامام الحبشة على أعقابهم وقتل منهم ألوف وامتلأت الارض من جثث القتلى وضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وولى الحبشة الادبار والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون فقتل من بطارقتهم البطريق روبيل من بطارقة التيجرى قتله أرعدى من خدمة الامام . وقتل البطريق عقبا أخوه وكان من أبطالهم قتله الامام بنفسه طعنه بالرمح فى صدره فخرج السنان يلمع من ورائه وقتل بطريق سيرى شوم قتله الجراد دين . وقتل البطريق زمنجان ابن عم البطريق وسن سجد قتله الوزير عدلى . وقتل بطريق محنطى

رماه رجل من الصومال مقدم الرماة فقتله . وقتل بطريق زونجيل قتله عبد الرازق بن سوحه أخو الأمير مجاهد . وقتل بطريق شوم عجامية . وقتل بطريق النبتين وقتل بطريق عمدو قتله رجل اسمه آداموا . وكان جملة من قتل من الحبشة عشرة آلاف ومن البطارقة مائة وأربعة عشر . وكل بطريق تحته ألف فارس أو خمسمائة أو مائتان وعرقب المسلمون من خيل الحبشة فى المعركة ستمائة فرس . وكانت جملة من قتل من المسلمين من الصومال ومن الحرله ومن الملساى ومن العرب خمسة آلاف ختم الله لهم بالشهادة . وغنم المسلمون غنائم لا تحصى وأسروا بطريقاً كان صهراً للملك اسمه تخلى مدحن ففدى نفسه بخمسمائة أوقية من الذهب الاحمر .

و بعد هذه النصرة الطائلة أراد الامام أن يسير المسلمين الى قلب بلاد الحبشة ويجهز على الباقى من جيشها فشكا له المسلمون ماحل بهم من الجهد وطلبوا الجمام فعاد الامام الى بلده واستراح شعبان و رمضان ونصفا من شوال ثم نهض غازيا الى جهة دوار و فدخلها من جهة نهر الوبى وهو نهر كبير يكثر فيه التمساح وطواهش كثيرة يسدب فى البحر المالح من ناحية مقدشو وقسم الجيش الى فرقتين فرقة عليها الوزير نور بن ابراهيم والفرقة الثانية قادها الامام بنفسه فوصلوا الى الجواتر وقاتلهم بطريق ادل مبرق فهزموه وأسروه و يقال ان الذى أسره كان رجلا اسمه تكية قد قطع الامام يده اليمنى و رجله اليسرى فى حق الله تعالى فبلغ من شجاعته ان اسر البطريق وهو مقطوع اليد والرجل . وغزا الامام بلد راس بنيات فاتفق مع بطريقها على أن يقدم له الضيافة و بعض هدايا والامام لا يتعرض له . ثم تقدموا الى بلد اسمه مصيحب نخربوها وخلوها رماداً وساروا الى بلد اسمها « مى فلح » ونهبوها وكان رجل اسمه راجح أصله مسلم تنصر وأعطاه ملك الحبشة أرضا وصار يغير على أطراف بلاد المسلمين فلما قرب الامام من أرضه أرسل اليه الامام قائلا : أنت مسلم وابن مسلم ومجاهد بن مجاهد من أول الزمان وقدر الله بالذى كان فتب وارجع الى الاسلام وكن أخانا ولا تقنط من رحمة الله . فلما وصل اليه الرسول . قال : كم فعلت وقتلت ونهبت من المسلمين وأخشى اذا رجعت ان تأخذونى بما فعلته . فراجعه الامام قائلا قد عفونا عنك فارجع فارسل راجح يقول : ارسلوا لى أميراً بجيوش كثيرة حتى أدلكم على أموال العدو فذهب اليه الوزير عدلى ومعه جيش فقتلوا وأسروا ونهبوا وعادوا وراجح

معهم . وحصلت بعد ذلك عدة غزوات والفريقان يبديان من ضروب الصبر وصدق اللقاء ما يندر مثله فى التواريخ . وعاد الامام الى هرر ثم جمع جوعه وقصد بلاد الحبشة وجمع هؤلاء جموعهم وتلاقوا فى محل اسمه انطاكية وكان المسلمون خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل فاجتمع عليهم من الحبشة ستة آلاف فارس ومائة ألف راجل وكانت مع الامام مدافع وأمر الامام عشرة من شجعان رجاله وهم الأمير زحربوى وأحمد جويتا والأمير علي والجراد أحمد بن لاد عثمان والأمير أبو بكرقطين وتكية السابق الذكر مقطوع اليد والرجل بأن يسيروا معه الى جهة «بالى» وكان عسكرهم قد آذى المسلمين كثيرا وأمر بأن يأتوا له بمدفع وأمر مقدم المهرة من العرب بأن يضرب عليهم بالمدفع فضرب فهاج بعضهم فى بعض فحمل عليهم المهرة والملساى فهزموهم وذهبوا فى طريق أخرى ولم يرجعوا الى بطريقهم . وكان تكية مقطوع اليد والرجل قال للامام فى بلده : ان شاء الله هذا السوط الذى فى يدى أضرب به فارسا من الكفرة وانزله عن فرسه وآخذ فرسه . وكان الأمر كما قال ففى ذلك اليوم ضرب فارساً حبشيا بسوطه ورماه عن فرسه وغنم فرسه . ثم ان الحرب دارت رحاها وانتهت بفوز المسلمين وأشبهت وقعة صمبر كورى فى كثرة من قتل فيها من الأحابيش . واحرق المسلمون كنيسة انطاكية وغنموا غنائم لاتحصى وكان ذلك فى الخامس من رجب سنة ٩٣٧ هجرية . وأوغل بعدها الوزير عدلى فى بلاد الحبشة واثخن فيها . وكان ممن أسره اثنان من كبار الحبشة عرضا فدية أنفسهما الواحد بمائتى أوقية ذهب والآخر بمائة أوقية فرفض الوزير الفداء وقتلهما وأقام أياماً بأرض جنبه ثم سار الى أرض شرخه وتلاقى فيها مع الوزير نور واسروا وسبوا . وكان من جملة السبى امرأة البطريق ازماج وأولاده فلما علم هذا بأسرهم دخل وأسلم فردوا عليه امرأته وأولاده وأسلم كثير غيره . و بعد ذلك وصل الامام ومعه وزيراه الى عندورة وفيها كنيسة لوسن من أعظم كنائسهم وأغناها فأحرقوها ونهبوا ماوصلت اليه أيديهم .

فجمع ملك الحبشة جوعاً أخرى وأمر عليهم بطريقاً اسمه تخلى سوس وكان معه ثلاثون بطريقا من التجرى فجاء اثنان من المتنصرة أحدهما اسمه عمر والآخر اسمه سكوكانا ارتدا عن الاسلام وأقطعهما ملك الحبشة بلداً يأكلان خراجه فلما وصل الامام بجيوشه الى قرب بلدهما دخلا على الامام وطلبا العفو ودلاه على عورات النصارى فقصدهم الامام

وتلاقوا فى واد فحمل المسلمون على النصارى وكان أول من حمل منهم صبر الدين صاحب وشلة بعد الفتح ودخل وسطهم ومن بعده على الوزادى وعبد الله بن ناصر الدين الجوى وآدش ابن ماحى وانضى هذا سيفه وضرب به رأس البطريق تخلى سوس ضربة ابانت رأسه عن جسده وحمل سائر المسلمين فانهزم الأحباش وقتل منهم البطريق اسلامو قتله أبو بكر بن جراد يماج واسر بطريق مرجاى والبطريق شوتلاى أسرهما فرشحم على ثم اسلم شوتلاى وحسن اسلامه وقتل فى الجهاد وكذلك أسلم بطريق مرجاى وجاهد فى صفوف المسلمين. واسر فى ذلك اليوم البطريق كفلى والبطريق أسير واسر البطريق جرجيس صاحب قجام وكان جملة من قتل من البطارقة الكبار مائة وثلاثون واما فرسانهم و رجالهم فقتل منهم الوف وغنم المسلمون خمسمائة فرس وكثيرا من الاثقال . ثم سار الامام فى أثر المهزومين الى عواش ومنها الى دل ميده ثم الى جميت وقسم الامام الغنائم وفرق الخيل والبغال على المجاهدين ثم سار الامام من جميت الى قنبورة وسوق دوارو وكان أهل سوق دوارو مسلمين يدفعون الخراج لبطريق داورو. وفى تلك الاثناء تشاور أهل دوارو بعضهم مع بعض وقر رأيهم على مهادنة الامام وكف الحرب ولو ندبهم النجاشى لم يطيعوه وان يبقى كل منهم على ملكه ودينه ومن أراد منهم الاسلام فله ذلك فكف عنهم الامام وتقبل هداياهم وسار الى الامام فوصل الى أرض الماية ودخلوا المرزير من أرض الماية . وكان فيها كنيسة عظيمة فأحرقوها وكان نجاشى الحبشة على مسافة يومين من هناك فعلم ان الامام يقصده فزحف الامام الى أرض بادقى ظانا ان ملك الحبشة يخرج لصده فيقاتله . فلما وصل الامام الى نهر دوخم نظروا نارا تشتعل فى وسط بادقى فاستدعى الامام بطريق حيب الذى كان أسلم وصار معه فسأله عن موضع هذه النار فقال له هذه قرى الملك فقال له هل تعرف سبب هذا الحريق فقال له نبيت هنا ولا نلبث أن يأتينا الخبر واذا بتجار مسلمين يسكنون بادقى اخبروا ان الملك كان فى أرض جبرجى فلما علم بقرب وصول المسلمين أرسل بطريقا من بطارقته وقال له سر الى بادقى وحرق بيوتى و بيوت اخوانى قبل أن يسبقك المسلمون اليها فيحرقوها و يقولوا حرقنا بيت الملك أما الكنيسة فلا تحرقها اذ لايحل لنا تحريقها فى كتبنا . فلما كان الغد أرسل الامام سرية عليها فرشحم على فأحرقوا كنيسة بادقى وكان فى شرار يفها ذهب ومن فوقها صليب من الذهب الأحمر . وسار الامام وجيشه الى «اندوتنه»

وهى قرية الملك نفسه وكان له فيها بيت فيه تصاوير كصورة الأسد وصورة الآدمى والطيور فدخل المسلمون البيت وحرقوه وعين الملك تنظر وكان بينه و بين البيت مرحلة واحدة فأصابه من الحزن أشد مما أصابه لتحريق بيوته فى بادقى و بكى وجمع الجوع وعبى الجيوش وسار الى قتال المسلمين وكان نهر عواش فاصلا بين الفريقين وكان فياضا لايقدر أحد أن يقطعه فأخبرت طلائع المسلمين الامام بأن النصارى وصلوا الى نهر عواش فأرسل الامام عبد الناصر صاحب جنز و بشاره وشمعون وصبر الدين وعلى ورادى ومعهم ثلاثون فارساً يستقصى أخبار الحبشة فوصلوا الى النهر فوجدوهم على شاطئه من الجانب الآخر ومعهم الملك بنفسه فتشاتموا بالكلام ولم يصل أحد الى الآخر. ثم رجع النصارى الى أرض «ورب» وجلسوا فيها وانبث المسلمون فى الاطراف ينهبون الكنائس وكان فيها من الذهب والفضة والنفائس مالا يقع عليه احصاء فوقعت كلها فى أيدى المسلمين وأحرقوا الكنائس. ثم تجاوز المسلمون عواش بعد أن قل ماؤه ووصلوا الى جبرجى وحرقوا بيت الملك فيها فانحاز الملك الى « نزارجح » من أرض الداموت و وافاه بطريق كبير اسمه « وسن سجد » كان معظما عندهم يسمونه أبا المساكين و يخافونه أكثر مما يخافون الملك فقال للبطارقة كيف ترضون أن يفعل بكم المسلمون هذه الفعائل وقد مات آباؤكم وأجدادكم وما فعل بهم أحد من المسلمين مثل مافعل هذا الرجل (يعنى الامام) وما هذا الا من ظلمكم وجوركم فسلط الله عليكم هؤلاء المسلمين أخربوا عليكم بلاد دوارو وفطجار و بادقى و برارة وحرقوا الكنيسة التى فيها بطرككم والتابوت الذى فيه جسد البطرك الخ فلما سمعوا كلام وسن سجد هذا قالوا له مر بما شئت فنحن نقاتل المسلمين ونموت بين يديك فقال لهم مضى ما مضى فكونوا بعد الآن رجالا ثم كتب الى الامام كتابا يقول له فيه: أما بعد انتم المسلمون ونحن النصارى وقد كنا نسير الى بلادكم ونخربها ونحرقها والآن فقد أدالكم الله علينا والنصر لا يدوم كل يوم والآن يكفيك مافعلت وارجع الى بلادك وأنت تقول فى نفسك انك هزمت الملك فى صمبر كورى وتقول فعلت فى انطاكية وفعلت فى ازرى فلا تغتر بنفسك فان الملك صارت عنده جيوش كثيرة مارأيتها ولا سمعت بها فأرجع الى بلدك بغنيمتك وذهبك والا فالميعاد بيننا و بينك يوم السبت فانا الذى قتل أخاك الجرادابون ابن الجراد ابراهيم وهو أكبر منك وهزمت جيشه وفعلت ذلك مرارا ولا تظن

انى مثل من لقيت من البطارقة . فلما وصل هذا الكتاب الى الامام كان الامام مريضا فقال الأمراء الذين بين يديه لرسول البطريق وسن سجد : أما ماخوفتنا به من لقائنا يوم السبت فقد أعلمنا مشايخنا ان قتلك يكون يوم السبت وان القتال هو بغيتنا ومرادنا وهذه البلاد لسنا بتاركيها حتى نأخذ الحبشة بأسرها ان شاءالله. فرجع الرسول وأخبر البطريق بما سمع فداخله الخوف والجزع وأرسل الى الامام مرة أخرى يقول : انى ماتكلمت بكلامى الأول الا خوفاً من الملك والبطارقة ولقد أعلمنى الرهبان انى سأقع فى يدك فاذا وقعت فارحمنى . فلما جاء رسوله وأخبر الامام بذلك ضحك الامام وقال له ، قل له ، اذا صرت فى أيدينا رحمناك .

وفى الثالث والعشرين من رمضان سنة ٩٣٧ تعافى الامام من مرضه ونوى أن يقصد ملك الحبشة فى أرض الداموت فراوده من معه عن ذلك فلم يسمع لأحد كلاما و زحف وأول ماحط فى بلدة زرارة وهى بلدة كبيرة يسكنها التجار من نصارى مصر ونصارى الشام ومن تولد منهم بأرض الحبشة يسكنها لطيب هوائها . ثم تقدم منها الى ويز وهى أيضاً مدينة عظيمة فيها سوق ليس فى الحبشة مثلها وجاءت جواسيس للامام تخبره ان الملك دخل أرض الداموت وان البطريق وسن سجد رجع الى وراء فى أرض وج كأنه يتهدد بلاد المسلمين. فمضى الامام يطلب الملك فاعتصم الملك بجبل مانع له طريق واحدة لاغير وعبى جوعه فى الجبل و وكل بمدخل الطريق الواحدة رجلا اسمه أورعى عثمان بن دار على وكان مرتداً فجاء المسلمون وهاجوهم وتسلق فريق منهم الجبل قاصدين الملك فى مكان ظن أن لن يصلوا اليه ففر الملك وجيشه قاصدين بلاد وج والمسلمون فى أثرهم ثم قصدوا بلادشوا لأخذ خزائن الملك وأحرقوا كنيسة اند قبطن وكنيسة داردبنى . وخضع للامام أهل شوى وأهل ورب وأدوا الجزية وصالحوا على بلادهم و وصل الامام الى برارة فقدم له أهلها الطاعة والضيافة . وهطلت فى هاتيك المدة الأمطار الغزيرة واشتدت العواصف وكل هذا لم يثن الامام عن عزيمته فى متابعة الجهاد وأرسل من أحرق كنيسة دير لبانوس على شاطئ نهر أورمه وهى من أعظم وأقدس كنائسهم . ومازال طول هاتيك المدة يضيق على الملك وهو يفر من وجه الامام من مكان الى مكان ومعه أربعون رجلا من الافرنج . ولكن البطريق وسن سجد تلاقى مع المسلمين واشتدت الحرب وجرت عدة وقائع وتبارز البطريق وسن سجد مع فارس

من أمراء المسلمين اسمه الجراد عابد فطعن البطريق الجراد عابدا بالرمح طعنة نافذة فى يده اليسرى وكان عنيه عدة مانعة فخرج السنان من يده ومن العدة وأراد البطريق أن ينزع رمحه فانكسر فى يد الجراد عابد فأراد أن يسل سيفه و يضرب الجراد عابداً فكان هذا قد ضربه فى رأسه ثم ثنى فأسقطه عن جواده فقال له لاتقتلنى أنا وسن سجد فنادى الجراد عابد أصحابه ان وسن سجد قد سقط فنادى المسلمون الأحباش ان رئيسكم وسن سجد قد مات فانهزموا وأخذ البطريق يصيح وهو فى الأرض صريع : الخ بلا ، الخ بلا . أى أنا حى ولكن الحبشة كانوا انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وأجهز الجراد عابد على وسن سجد فعاتبه الامام فيما بعد قائلا له : لم قتلته قبل أن أنظره ؟ فأجابه : قلت له أريد أن أوصلك الى سيدى فاضطجع الى شجرة هناك وأبى وقال اقتلنى فى مكانى هذا وشتمنى فقتلته . و بعد هذه الواقعة أمر الامام بالأسارى من البطارقة فكانوا ثلاثين بطريقاً فقتلهم منهم البطريق جان نهد الذى أسره الوزير عدلى والبطريق قاسم وكان مسلماً مرتداً ولاه الملك جان أموره بين التجرى والعنقوت ، وكان من أشد البطارقة أذى للاسلام أسره رجل من الصومال من قبيلة متان . ومنهم بطريق هنه . ومنهم بطريق اسمه جبر اندرياس عمره تسعون سنة مابقى أرض فى الحبشة من زمان الملك ادماس الى اسكندر الى ناود الى أيام الملك وناج سجد الاتولاها .

قال شهاب الدين أحمد الملقب بعرب فقيه : فلما قتل وسن سجد افتتحت البلاد وذلت جيوش الكفرة وأسلم أكثرهم كماسيأتى ذكره . ثم وصل الامام الى جان زلق فهرب أهالى البلد الى بلد شجره فأرسل الامام بعض من أسلم من الأحباش فنصحوهم فجاءوا الى الامام وأسلموا . وأرسل الوزير عدلى الى « زقالة » والى « لال بلا » فسبقه الأمير مجاهد ونهبهم فأسلموا . فلما وصل الوزير وجدهم مسلمين . فسار الوزير عدلى الى « عواش طبوا » فأسلم أهلها . وسار الامام الى أرض انطيط وكان هناك كنيسة للملك اسكندر مملوءة ذهباً فحط المسلمون عندها وأخذوا مافيها من الذهب ثم أحرقوها . وفر أهالى جان زلق الى الجبال ولم يسلموا فأرسل اليهم الامام خالداً الواردى وكان يعرف مسالك بلادهم فقال لهم : تعرفون أننى أعرف جميع بلادكم فأسلموا قبل أن نقاتلكم . فتشاور بعضهم مع بعض وقالوا ان لم نسلم نحن وقد أسلم أكثر الحبشة يرسل الينا الامام جيشاً يأخذنا كلنا ولايفلت منا أحد

فقدموا على الامام هم وأهل قوت وأسلموا جيعاً . وأسلم من البطارقة بطريق دلو و بطريق دبلى و بطريق اسمه حيزو وحسن اسلامهم وشهدوا المشاهد التى كانت بعد . ولما أسلم أهل قوت كانوا الف فارس وأربعة آلاف راجل كان معهم بطريق اسمه ايبس لحطى أبى أن يسلم وقال أنا ماجئت لهذا ولا أفارق دينى الذى مات عليه آبائى وأجدادى فقال له الامام : أنت أحسن من هؤلاء الذين أسلموا ؟ . فقال البطريق : هؤلاء بدو لايعرفون دينهم ولاديكم فاذا أسلموا لاعار عليهم أما أنا فاذا أسلمت يعيرنى الناس عند الملك والرهبان . فقال له الامام لاتفعل فأنت كبير النصارى و بيننا و بينك مصاهرة . وذلك لأن جارية الامام هاجرة كانت ابنة عمه . فبقى أسيراً ولكنه على دينه فقام البطارقة الذين أسلموا وقالوا له أسلم والا نقتلك أفانت أحسن منا فاسلم وجلس مع الامام ثلاثة أشهر فلما غزا الامام أمحرا هرب ولحق بالملك ورجع الى النصرانية ثم أمر الامام على جان زاق الجراد عثمان بن جوهر وعلى أهل قوت خالداً الورادى فسار اليهم وأسلم نساؤهم وأولادهم وحسن اسلامهم . ثم سار الامام الى بلد شجرة فتقبله الجراد نصر وقال له : بلادنا كلها أسلمت ببركة الله تعالى و ببركتك . فقال له الامام : أمرتك على الذين أسلموا وأما الذين لم يسلموا فسر اليهم وائتنى بهم فسار اليهم وقتلهم وأتى ببطريقين أسيرين فقال لهما الامام : كل البلاد أسلمت فمالكما لاتسلمان . فابيا الاسلام . فقال الامام : حكمنا بضرب أعناقكما . فقالا : مرحبا . فتعجب الامام من كلامهما وأمر بقتلهما .

وأمر الامام أميراً اسمه شمسو ان يسير الى افات و يفتحها فسار اليهم وقهرهم وحصرهم فى الجبال فأسلموا وأحرق المسلمون كنيسة للملك المتقدم اسكندر كان فيها ذهب كثير وانجيل ورقه من الذهب لايحمله الارجلان . وسار الامام الى ابونه فأسلم أهلها ومعهم بطريقهم اسلامو . فلما سار الامام الى أمحرا ارتد البطريق ولحق بالملك أما عسكره فقد جلسوا على الاسلام وقاتلوا مع شمسو عامة فتوح الحبشة . وكان اورعى عثمان المرتد فى افات فلما رأى جيوش الامام أقبلت وايقن ان قد احيط به قال لعساكره : أنا أقاتل المسلمين ولا يدخلون بلادى . ولكنه من جهة ثانية ارسل الى الامام سراً يقول : أنا مسلم وابن مسلم اسرنى المشركون ونصرونى وقلبى مطمئن بالايمان والآن أنا جار الله وجار رسول الله وجارك أن تقبل توبتى ولا تؤاخذنى بما عملت وهذه الجيوش التى معى أحتال عليهم حتى

يدخلوا عليك و يسلموا . فاجابه الامام : اذا فعلت هذا فقد قال الله تعالى: «قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » . لا تخف ولا تحزن . ويكون الميعاد بيننا و بينك ارض طو بيــة فانى سائر اليها . وأرسل اليه الامام مسبحته للامان وطيبة لنفسه . و بعد أيام جاء اورعى عثمان ومعه مرتدان آخران من صبيان الامام يريدان الرجوع الى الاسلام ومعهم نحو عشرين الف نسمة من الحبشة من رجال ونساء واولاد فدخل اورعى عثمان على الامام وقبــل يده وطلب العفو فتقبله الامام تقبلا حسنا وقال له : لا تخف ولا تحزن وقل للعسكر اسلموا . فاسلموا جميعهم من الظهر الى المغرب ومعهم نساؤهم وأولادهم وكان فرشحم على فى دبر برهان فارسل اليه الامام أن يسير الى أرض « تفلت » والى وقدة والى مجر ويقاتل أهل هــذه البلدان أو يسلموا ففعــل فرشحم على ما امره به وسار الامام الى « جــدم » فاسلم أهلها باجمعهم .

أما ملك الحبشة فقطع الامل من استرجاع البلاد التى ذهبت من يده وانهزم الى بيت امحره أصــل المملــكة وجمع حوله ما بقى من قوته : وكان هناك كنيسة أسس بناءها الملك ناود أبو الملك وناج سجد اشتغل بيناءها ثلاث عشرة سنة ثم خلفه ابنه فقام يجهد فى عملها أحسن مما جهد أبوه و بقى يتمم بناءها خمسا وعشرين سنة . وكان طولها مائة ذراع وعرضها مائة ذراع وعــلوها مائة وخمسين ذراعا وكلها بالذهب مرصعا بفصوص الجواهر واللؤلؤ والمرجان وكان قبر الملك ناود ابن ادماس بن زراقوب فيها . فلما فرق الملك جيوشــه الى أبواب المــدينة دخل هذه الـكنيسة فنظر اليها يمينا وشمالا وقال : هؤلاء المسلمون يريدون أن يحرقوا هذه الـكنيسة وهى دار ملـكى ودار الملوك المتقــدمة . فقال له من معه : المسلمون لا يصلون الى هنا أبداً ونحن نقاتل دونها حتى نموت .

أما الامام فارسل احد امراء جيشه «جويته نور » الى بلد كسايه من أرض جدم وكان بها كنيسة عظيمة فيها ألف راهب فنهبها وأحرقها . وأرسل أناساً الى بلد جن يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعضهم . ثم وصل الى الامام رجل من النصارى اسمه « وسن جان » ومعــه خمسمائة من أهل الدرق الأبيض فأسلموا . وما زال الامام يجد فى أثر ملك الحبشة حتى أدركه ودارت بينهما الوقعة المسماة بوقعة واصل فانهزم الملك ومن معه وقتــل من رجاله خلق كثير و بلغ الأمر به أن فر بنفسه شريداً ماشياً على رجليه ومعه خمس جنائب تقاد أمامه بأجلتها

وعدتها وذلك من وعورة الطريق . وذهب الامام من طريق أخرى هو وأصحابه وقد ترجلوا من صعوبة الطريق أيضاً . ومر الجراد عثمان بن جوهر وأورعى عثمان من على مقربة من الملك وهم لا يعلمون به وهو قد اختفى فى شجرة فى تلك الأوعار الى أن مر المسلمون ففر قاصداً بلد العنبا واحتوى المسلمون على غنائم لا تحصى ووصلوا الى خيمة الملك وهى منصوبة كما هى وفيها سريره وسلاحه وفرحوا فرحاً عظيما وكانت هـذه الواقعة فى ١٦ ربيع الأول سنة ٩٣٨

ودخل الامام بعدها بيت امحره فى أيام برد شديد مات فيـه بعض عسكره من شدة البرد وكان العسكر يطعنون الماء المتجمد بالحديد حتى يكسروه . ولما وصل الى كنيسة امحره العظيمة التى سبق الـكلام عليها دخل اليها هو والمسلمون فاعترتهم الدهشة مما شاهدوا فيها من بدائع الصنعة وروائع العظمة ووفرة الـكنوز ونهبوها وبات الامام بجانبها واستدعى من كان معه من العرب وسألهم هل يكون فى الروم أو فى الهند أو غيرها مثل هـذه الـكنيسة ؟ فأجابوه لا نظن فى الدنيا مثلها . وكانت بجانب الـكنيسة ثلاثة بيوت للملك يسكنها وكانت فيهـا عجائب لمن نظرها فجلس الامام فى أحدها وأعطى بيتاً الى الامير احوشه والأمـير أبى بكر بن قطين وجعل البيت الثالث مسجداً . وأما الوزير نور فوصل الى كنيسة اتووس مريم ووصل آخرون الى كنيسة بيت سمايات التى بنتها أم الملك وآخرون الى كنيسة دبر نقدقاد وكان الملك ادماس قد بناها وهو مدفون فيها كما أن أم الملك مدفونة فى كنيسة بيت سمايات فانتهب المسلمون جميع هـذه الـكنائس وأخرجوا منها من أحمال الذهب والفضة والديباج والحرير ما يعجز وصف الواصفين وأحرقوا الـكنائس ووجدوا فى كنيسة بيت سمايات أربعة رهبان لما شبت النار بها دخلوا اليها واحترقوا معها . ووصل عبد الناصر الى كنيسة يقال لها جنت جرجس من بناء الملك اسكندر فلم يجد فيهـا شيئاً لأن أهلها كانوا أخذوها معهم لخرقها . وأرسل الامام ألفين من أصحابه الى بلد « واله » فوجدوا فيها أربع كنائس منها كنيستان مصفحتان بصفائح الذهب فجعلوا يقلعون الذهب بالقداديم . وأرسل الامام سرية الى جبل العنبا وهو جبل يسكن فيه أولاد الملوك ومن عادتهم أنه اذا ولد للملك ولد ذكر أصعدوه الى هـذا الجبل و بقى فيـه حتى لا يكون خلاف فى الدولة فاذا مات الملك أنزلوا من يريدون توليته من أبناء الملوك من هـذا الجبل وولوه الملك . وهو جبل لا يصعد

اليه الا بالسلالم فوقعت هناك مقاتلات انهزم فى آخرها المسلمون وقتل أورعى عثمان وعلى ورادى والجراد متان الصومالى وعبد الله بن ناصر الدين الحموى وأسر الجراد احوشه . وكانت هذه الهزيمة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٩٣٨ ورجع المنهزمون الى الامام وأخبروه بما جرى فحزن لا سيما على صهره متان واسترجع وبكى ولكنه أراد أن يعاقب المنهزمين فربط أكابرهم فرشحم على والجراد احدوش ومائة فارس معهم وأراد قتلهم فشفع فيهم الفقهاء والأمراء فخلوا كتافهم ولكنه قال لا بد أن تسيروا الى جبل العنبا وتقاتلوا فقال الأمراء للامام أتريد أن تخلص الجميع فى ذلك المكان الضيق فان كنت تريد أن تهلك الجميع فسر أنت بنفسك على أنه ان أعطاك الله النصر وفتحتها لم تجد الا أولاد الملوك اذ ليس فيها شىء غير ذلك ونحن والحمد لله صار عندنا مال مثل التراب والأولى أن نرجع الى الوراء ونجتمع مع الوزير عدلى والجيوش التى خلفناها فى فطبحار . فانقاد الامام لنصيحتهم ورجع وسار يريد عنقوت لحط فى بحر حيق وهو عذب الماء فى وسطه جزيرة وفى وسط الجزيرة كنيسة و بساتين فيها ألذ الفواكه وكان الامام أرسل الأمير زحربوى محمد بن عمه والوزير مجاهداً وعبد الناصر وجيشه والجراد صديقاً وأورعى أحمد وضم اليهم ثلاثمائة فارس فتقاتلوا مع الحبشة عند كنيسة دبرازهير ونهبوها وأخذوا منهـا من الكنوز ما لا يحصى عدده . وكان لها من التاريخ يوم أحرقوها سبعمائة وعشرون سنة . أرسل الامام الى أهل جزيرة بحر حيق يدعوهم الى الطاعة و يأمرهم بتسليم الأسير المسلم الذى عندهم .

وكان من قصة هـذا الأسير انه غزا مع السلطان محمد فلما انهزم المسلمون فى « دل ميده » وقع أسيرا فلما علم الملك انه من حشم السلطان محمد أرسله الى تلك الجزيرة وأمرهم أن ينصروه فتنصر و بقى عندهم ١٦ سنة وقلبه مطمئن بالايمان . فهذه المرة أرسل الامام رسولا سبح فى البحر حتى وصل الى الجزيرة فرماه أهلها بالحجارة فقال لهم : لاترمونى أنا رسول . فقالوا له : أنت رسول هذا الساحر أى الامام فكلمنا من بعيد . فبلغهم الرسالة فأجابوه : قل لسيدك لا نعطى الجزية ولا الطاعة ولا نفك الاسير يفعل الذى يقدر عليه عرفنا انه يطلع الجبال بالخيل والرجال أما هذا فبحر . فرجع الرسول وأخبر الامام بما وقع فجمع الأشراف والعرب والمغاربة والمهرة وقال لهم : نحن مانعرف أيها العرب الا البر والجبال وأما البحر فهو شغلكم تعرفون أموره فطلب منه العرب الأخشاب والحبال فجمعوا لهم

أخشابا كثيرة ونحو عشرة آلاف حبل فشدوا بها شيئاً يقال له الرمس [1] وأنزلوه فسار سيراً بطيئاً فقال لهم الامام لا تصلون بهذا السير الى قرب الجزيرة حتى يكونوا أهلكوكم بالحجارة والنشاب . فاحتالوا للسرعة بشئ آخر وهو انهم وضعوا تحت الخشب قربا فسارت مثل السهم ففرح الامام وقال هذا ما كنت أريد . وأمر مقدم المهرة احمد بن سليمان المهرى أن يركب البحر هو وأصحابه وأردفهم بغيرهم من الجيش وكان أهل الجزيرة قد نظروا تجربة الارماس وعلموا أن المسلمين واصلون اليهم وقالوا هذا من شغل العرب ومعهم المدافع واذا خالفنا أمرهم أخذونا عنوة ، فعولوا على طلب الأمان وأرسلوا الاسير فى سنبوق ليلا فأوصله رجلان منهم وعادا فى الليل فلما أصبح الصباح شاهده الأمير ابسماور عند صلاة الصبح فقال له من أنت فقال : أنا حرب أرعد بن اروعى حبر الدين الاسير فى الجزيرة . فأخبر الامام بخبره فأمر بدخوله فلما رآه الامام بكى شفقة عليه لما رآه من تغير حاله بالاسر و بكى الاسير ثم أبلغه أن أهل الجزيرة خافوا من شغل العرب وهم يطلبون الصلح على شرط انك لا تقتلهم ولا تحرق كنيستهم فقبل الامام ذلك وقال له : ارجع اليهم وقل لهم يكون ذلك . فرجع الاسير وأخبرهم وأشار عليهم بأن يرسلوا الأبون الذى عندهم (الرئيس الدينى) و يعقد لهم الامان . فركب الابون سنبوقه وجاء الى الامام وأراد أن يقبل الارض فمنعه الامام وقال له : ياخسيس لاتسجد للناس . ثم قال له : تكلم حاجتك . فقال : جميع الرهبان يريدون أن تعطيهم الامان على أنفسهم وكنيستهم . فقال الامام بشرط أن لا تخفوا المال فقال : السمع والطاعة أنا أذهب الى الجزيرة وأجئ بالمال . فقال الامام : لا نأمن لكم ولابد أن يذهب أصحابى الى الجزيرة و يأتوا بالمال . فقال الابون : اذا كان لابد من دخول أصحابك فأوصهم بأن لا يغيروا على كنيستنا ولا ينقضوا عهدك . فقال له الامام : اذا أعطيتك الأمان أنا فلا أحد يقدر أن ينقض عهدى . فأمر الامام زحربوى محمداً بأن يذهب ومعه رجال من العرب والمهرة والمغاربة وأوصاه بأن لا يفعل شيئاً سوى نقل المال . فكان من الذهب والفضة حمل مائة رجل وأصاب كل رجل من المسلمين ثلاثمائة أوقية ذهب وفضة وأرسلوا الى الامام الارمسة ثلاث مرات مشحونات وليس فى الواحد منها أكثر من خمسة رجال مع انها يسع الواحد منها ١٥٠ رجلا . فرأى الامام أموالا هالته وقسمها فسهم

(١) ارتمس فى الماء انغمس فيه

أعطاه للعرب وسهم أعطاه لزحر بوى ولعسكر بحر والسهمان الباقيان فرقهما على جيوش المسلمين . ثم سار الامام الى بيت امحره وذلك لأنه كان بقى فيها كنيستان فأراد أن يحرقها احداهما مكان مريم والاخرى دبتره مريم فوصل الى امحره وأحرقهما . وذهب منها الى حنبورة حيث جلس لمرض الشريف أحمد القديمى الذى كان معه فبقى معه الى أن مات رحمه الله وصلى الامام عليه . وأرسل الامام الوزير عدلى الى دوار و فوصلوا الى نهر عواش فوجدوه ملآن وفى جانبه جيش الحبش فجعلوا يرمون المسلمين بالسهام فى الليل فقام من أبطال المسلمين الجراد شمعون وقال نحمل فى الماء وخيولنا تسبح فيه وحمل هو وخيله فى الماء وحمل المسلمون من ورائه والحبشة يرمونهم بالنشاشيب الى أن خرجوا الى الجانب الآخر . فدخل الجراد شمعون وسط صفوفهم وهو يجندل أبطالهم وحمل معه أصحابه فانهزم الاحباش وقتل منهم ثلاثمائة وخمسون . ثم جاءتهم من الاحباش كرة أخرى فتقاتلوا قتالا شديداً وانهزم هؤلاء وقتل منهم نحو ١٥٠ رجلا ثم أعادوا الكرة ثالثة فانهزموا وقتل منهم نحو ٥٠ رجلا .

ثم سار الجراد شمعون الى « دبر برهان » فصادفه البطريق جرجيس فاقتتلوا قتالا شديداً وقتل من الحبشة ألوف . أما الامام فكان سار الى بلد ملك الحبشة وهزمه هو و بطارقته وسبى نساءهم وفر الملك برأسه . وعاد الامام بالغنائم الى معسكر الوزير عدلى . وكان هذا سار الى دبر برهان فلما وصل الامام أحب الوزير عدلى أن يعرض أمامه الجيوش لأنهم كانوا فى وسط بلاد الحبشة وعليهم جواسيس للعدو فاستحسن الامام رأيه وجاء الوزير عدلى بخمسين راية وكل راية يتقدمها من الجرادات والامراء فكان عدد خيل الوزير يومئذ ثلاثة آلاف فارس لابس وثلاثة آلاف فارس غير لابس وكان عدد أصحاب التروس البيض عشرين ألف تراس وكان عدد أهل القسى مثلهم وكان مع الامام خمسة آلاف فارس كلهم لابسون بتجافيف التماسيح والقطيفة المثقلة بالذهب لا تظهر منهم الا احداق عيونهم من الدروع . ودخل أصحاب عدلى فى الصف الاول من الصومال مع مقدميهم والتقوا مع الامام وسلموا عليه وداروا ناحية الى جنب المحطة . ودخل الصف الثانى من أهل القطبحار والماية وأهل شوا ومن دخل فى الاسلام وسلموا على الامام وداروا ناحية جنب الصف الأول . وجاء الصف الثالث وفيه الوزير عدلى والأمير حسين والأمير شمعون واورعى نور

وكانوا خمسين أميراً فى عـدد عديد و زرد نضيد فجعلهم صفا بعـد صف لـكثرة جيوشهم فتواجهوا مع الامام وسلموا عليه وجلسوا وتحدثوا فبكى الامام بكاء السرور . وكان من يوم فارقهم الامام الى اليوم الذى واجههم فيه سبعة أشهر وأخرج الأمام الغنائم من الذهب والفضة والحرير وفرقها وكثر الذهب بين أيدى الناس حتى صار البغل يباع بأربعين أوقية من الذهب لـكثرة الذهب وابتذاله وكان الرجل يعطى صاحبه مائتى أوقيـة من الفضة فلا يرضى بها .

ولما رجع الامام الى دبر برهان ارسل ملك الحبشـة البطريق راس بنيات وكان من أعاظم البطارقة وأمره بكبس افات والقبض على اورعى ابون الذى كان فيها . وكان الامام أرسل الى افات الوزير عباس مع نجدة فتلاقى الفريقان فى كساية وانهزم البطريق ومن معه . ثم شاور الامام أصحابه فيما يصنع فقال بعضهم ان البـلاد ما أسلمت من نهر عواش الى نهر و بى وكذلك أرض بالى والجنز والوج فالرأى أن نسـير اليها . فقال لهم الامام : ان أهل افات وجدم وشجره اسلموا فاذا سرنا عنهم وتركناهم بلا عسكر فقد يرتدون . فقالوا له : المهم هو البلاد التى نقصدها لا التى نحن فيها . فوافقهم الامام وساروا الى أرض المایة و بعد قتال شديد فى الجبال والاوعار قاتل فيه الحبشة بالسهام المسمومة فـلم تنفعهم وتغلب عليهم المسلمون فأسلموا وأرسل فرشحم على الذى كان قائد الحـلة فى جهة المایة بكتاب الى الامام يقول فيه ان أهل «مايه» أسلموا وكذلك أرض «زقاله» و بلاد «جتوا» و «ارحتلو» و « شجن » أسلموا جيعهم ففرح الامام فرحا شديد . وكذلك كان أرسل عبد الناصر الى «جنز » وقال له قاتلهم أو يسلموا أو يعطوا الجزية . وأرسل الوزير مجاهدا الى أرض «وج» والى « جبرجى » وقال له : قاتل وأنا سائر من ورائك . فاهـل وج وجبرجى أعطوا الطاعة وأدوا الجزية واما بطريقهم «اسلام دحر » والبطريق الآخر «وينداب» صهر الملك فأبيا أن يسلما . فاما وينداب فسار بمائة وخمسين فارساً لاحقا ببـلاد الداموت وأما اسلام دحر فأرسـل الى الامام ولده و بطريقا اسـمه عسبو ليتـكلما مع الامام فى الصلح وكان عسبو فصيحا لبيبا فقال للامام : هذا ولد البطريق اسلام دحر وأنا صهره جئناك على أن لاتخرب بلادنا ولا تحرق كنائسنا ونؤدى الجزية ونبقى على ديننا . فرضى الامام بهذا منهما فأظهرا رغبتهما فى الاسلام بعد ذلك فقال لهما الامام : قولوا نشهد ان لااله الا الله وان محمدا رسول

الله . فأما البطريق فقالها وحسن اسلامه . وأما ولد البطريق اسلام دحر فقال انا لاأسلم حتى تحلف لى انك تتخذنى ولدا فضحك الامام من قوله وقال له : أسلم انا أفعل لك ماأردت كله . فقال لا اله الاالله محمد رسول اللهصلى الله عليه وسلم . ثم انه كان معهما ثلاثون فارساً فأسلموا جميعا . واما «تسفو » مقدم بلاد المايه فارسل الى الامام قائلا : لاتخرب بلادى فانى أسلمت على يد فرشحم دين . فأمنه الامام وقدم عليه هو والفى راجـل من الرماة فأكرمهم الامام وأقر تسفو على امارته . وجاء الوزير مجاهد مع أهل وج الذين أسلموا و وصل فرشحم دين بعد الوزير مجاهد ومعه من أسلم عـلى يده وهم أهل ستة بلدان بفرسانها وبطارقتها وكانوا الوفا فسجد الامام لله شكرا ودعا لفرشحم دين . وأما عبد الناصر فاقر الجزية عـلى الذين فتح بلادهم و بعضهم تحصنوا بالجبال فسار الى « كنبات» وقاتلهم وقتـل منهم خلقا كثيرا الى ان اقر الجزية و رجع الى « جيطو » من أطراف بلاد هديه فقاتلوه فقاتلهم الى ان اقر الجزية .

اما الامام فـكان فى أرض وج صام فيها رمضان وأفطر فى «جراجى» وأرسل جيشا فيه عدة امراء تحت قيادة الأمير حسين الى دوارو فدخـلوا أرض زرى ثم أرض وطمات. وكان هناك سافو ابن البطريق وسن سجد وغيره من البطارقة فانهزموا من وجه المسلمين . ودخل سافو أرض «جان زجرة » فتعقبوه اليها فانهزم الى عنقوت لاحقا بالملك وأخـبره بما فعل المسلمون فحزن جداً . أما الأمير أبو بكر فانه دخل جان زجرة وخربها وأحرق كنائسها ثم سار الى أرض «جراو رارى» وحط فوق نهر «بو ر » فدخل عليـه بطريق جراو رارى والبطريق « ر و بيل » والبطريق « وسن جش » والبطريق « تيدروس » وأسلموا جميعا وحسن اسلامهم . وكذلك أسـلم الجراد هنو وتحصن خمسة من البطارقة فى الجبال فقاتلهم الأمير أبو بكر وأسرهم هم ونساءهم وأولادهم .

وأما الأمير حسين والوزير عدلى فدخلا أرض جاتر فجاء أهل « ادل مبرق » اليهما وأسلموا جميعا . وكذلك أهل « اواولده » و « وتن » و « أجيت » و «ارقوى » كل هذه من أرض دوارو فأسلموا جميعا .

اما الامام فسار من جراجى مسيره يومين وحط فوق بحر زواى وهو بحر ماؤه عذب تسير فيه سنابيقهم مسيرة ثلاثة أيام وفيه ثلاث جزائر كل جزيرة فيها ثـلاث كنائس فأراد

الامام غزو هذه الجزر فقال له المسلمون دع البحر الآن وسر الى أرض هديه فجاء صاحب هديه وهو مسلم من الأصل وكان يؤدى جزية لملك الحبشة وكان يقدم كل سنة بنتا من أبكارهم جميلة للملك يأخذها و ينصرها . فلما دخل صاحب هديه على الامام مع جنده قال أنا مسلم وأنتم مسلمون فأكرمه الامام وخلع عليه وهو وأهل بلده أضافوا العسكر فسألهم الامام بصنعهم الذى كانوا يصنعونه وهو أن يصطفوا كل سنة بنتا لحسنها وجمالها و يقدموها لملك النصارى . فقالوا له : انه حكم على آبائنا الأولين وحكم علينا أن لانلبس عدة الحرب ولا نمسك السيف ولا نركب الخيل بالسروج وحكم أن نعطيه البنت فكنا نعطيه مخافة أن يقتلنا و يخرب مساجدنا وكنا متى جاءنا الذى يريد أخذ البنت غسلناها وكفناها بثوب وحسبنا أنها ميتة وأعطيناه اياها فانا وجدنا آباءنا يفعلون ذلك ففعلنا فالآن اتانا الله بكم وقد هزمتم الذى يحكم علينا وقتلتم جيوشه فنحن نجاهد معكم . فسار الامام الى أرض « أى فرس» ومعه صاحب هديه وأرسل «أحمد جويتا» الى «شرخه» فأسلم أهلها وسار الامام الى جاتر فأسلم أهل جاتر . وأهل «جان جى» وهم خلق كثير . وأسلم عثمان بن تخلى وكان أبوه مسلماً فارتد فى أيام السلطان محمد فعاد هذه المرة الى الاسلام هو وأخوه خالد ومعهما عدد عديد جدا من الفرسان والرجالة فولى الامام أرض جاتر شهابا و ولى الأمير عمر ارض «استر جاتر» وفرق خمسين أميرا على البلاد التى فتحها . وجلس الامام فى «عندوره» وأرسل عبد الناصر الى «جينه» وقال له : لا يسعك غيرها لأن معك جيوشاً كثيرة . و بينما الامام فى عندورة أرسل اليه البطريقان « سيمو » و « صبرو » انهما معه لامع أهلهما و يطلبان منه جيوشا حتى يقاتلا فيها فارسل الامام الى الوزير عدلى والأمير حسين بالمجئ بجيوش كافية فحضرا اليه فبلغه ان الاحباش خربوا بلاد هديه و بلاد جنز فاعاد عبد الناصر الى جنز وجعل صهره فى هديه وأسلم البطريق صبرو على يد الامام وأرسل الامام وزيره عدلى الى بالى وولاه عليها فسار اليها ومعه من أبطال المسلمين الوزير عباس ابن أخى الامام والجراد أحمد جويتا واورعى قاط عمر والجراد أحمد وش بن محفوظ وفرشحم سطوت وفرشحم على واورعى أحمد بن هرجاى محمد وحامد بن سوحه . ثم لما بلغ الامام أن صاحب بالى فى قوة عظيمة أرسل عبد الناصر صاحب الجنز والجراد صديق صاحب شرخه وصاحب هديه مدداً للوزير عدلى وكان دليلهم البطريق صبر و الذى أسلم وكان فارسا مشهورا ووافاهم البطريق سيمو واسلم أيضا .

فأرسلوا الى بطريق بالى ينصحونه أن يخضع لئلا يندم ويخوفونه بكثرة جيوش الاسلام فاجاب بانه لايسلم ولا يؤدى الجزية وانه حاضر للقتال وأمر صاحب بالى جوعه أن يخرجوا للحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم وتلاقى الجمعان فى بلدة زلة وأما المسلمون فكان على ميمنتهم الوزير عباس والجراد عثمان وعلى الميسرة عبد الناصر وأصحابه وفى القلب الوزير عدلى وأصحابه وفى المقدمة ابسما نور وصبر الدين البطل المشهور . وأما صاحب بالى فصف التروس قدام الخيول وركب فرسه وقام فى وسط القلب كأنه برج من حديد وجعل نساءه وراءه وعليهن زينتهن وفعل سائر البطاريق مثل فعله . ولما اختلط الجمعان حمل فرشحم على على بطريق بالى حتى اقتلعه من سرج فرسه وضرب به الارض وسقطا معا فنهض فرشحم على واستل خنجرا كان معه وقطع رأس البطريق فلما رأى الحبشة زعيمهم قد قتل ولوا الادبار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من الحبشة عدة الوف وكانت نساء المسلمين حملن أيضا وراء رجالهن وهن على بغالهم فكانت المرأة منهن تقول بعد الوقعة اسرت اربع نسوة وتلك تقول خمسا وتلك تقول ستا أو سبعا . وكان جملة البطارقة الذين قتلوا مائة بطريق منهم البطريق اسحق قتله ابسمانور . وايبب بطريق جاتر وكان شيطانا شجاعا قتله البطريق سيمو الذى اسلم . وبطريق ليمو صاحب شرخة قتله الجراد احمدوش بن محفوظ . والبطريق غفانى قتله حبشى أسلم . وقتل زمنكر ابن بطريق بالى قتله تماش ابون . والبطريق مجن قتله البطريق صبرو الذى اسلم مع سيمو . واسر نحو مائتى بطريق منهم « ازاج زخره » وكان من خواص الملك . ومنهم البطريق نقدية وكان مسلما مرتداً . ومنهم البطريق جرجيس ومنهم ابن دحرجويته . وقتل من الرجالة والفرسان ممن لم تعرف اسماؤهم ثلاثة آلاف . وملك الله المسلمين خيولهم ومتاعهم ونساءهم واولادهم وما ملكوا جميعا . وحط الوزير عدلى فى بيت البطريق عدلو فى زله وسأل هل بقى من البطارقة أحد فقالوا نعم وعدوا له خمسة بطارقة . قال الآن اين يونون . قال البطريق سيمو : ما يقصدون الا ارض «قاقمة» . عند البطريق ايدبس فارسل الوزير البطريق سيمو ومعه أربعون فارسا فلقيهم مختفين فى الاشجار فاسروهم وأخذوا معهم خمسين فارسا . وكان الوزير عدلى لما سار الى بالى أرسل الامام الجراد « جوشو » ابا بشاره الى باب دارة وقال له الذى يخرج من بالى لا يفلت منك لأنه لا طريق الا من هذا الباب فكان ما توقع وهو ان خمسة بطارقة

ومعهم ستون فارسا قصدوا العبور وهم منهزمون فما شعروا الا والمسلمون عند الباب فاسروهم وضربوا أعناقهم وقطع الجراد جوشو رأس البطريق « حجه » وأرسل به الى الامام لان الامام كان يتحرق عليه غضبا اذ كان ارسل الى الامام يقول له اريد أن أسلم فارسل اليه الامام رسولا فقتله ولحق بارض بالى، فلما وقع هذه المرة فى يد الجراد جوشو قتله وأرسل برأسه الى الامام ففرح به . ولم يكن وصل اليه خبر انتصار الوزير عدلى فى بالى فلما رأى الامام الراس قال للرسول : من أين لقيتم صاحب هذا الراس . فقال الرسول : أما جاءكم الخبر من الوزير عدلى بما جرى . فقال الامام : وما ذا جرى . فاخبره الرسول بالنصر العظيم الذى منّ الله به . فصلى الامام ركعتين شكرا وخلع على البشير خلعة تامة وجلس فى الفلاة وأمر بضرب النقارات والطبول . ثم وصل بشير الوزير عدلى بتفصيل خبر المعركة وهو يسأله كيف يفعل بالاسارى ونساء البطارقة وأولادهم فاجابه : أما البطارقة ونساؤهم وأولادهم والخيول التى غنمتموها فأخرج خمسه وفرق الباقى على المجاهدين . وأما امرأة البطريق عدلو فخذها لك ومن أسلم من البطارقة يكون معك ومن لم يسلم فاقتله . وأما نقديه المرتد فاشنقه بباب البلد زله . وأما خارج وازاج زخره وجرجيس وابن دحرجويته فارسلهم الىّ . ثم ارسل الامام الى البطريق سيمو سيفا من الذهب الاحمر فيه ٢٠ اوقية على مقبضه وذلك لما فعل من الجميل وكونه لم يغدر . فانفذ الوزير أمر مولاه وفرق الاموال ونساء البطارقة واخذ امرأة البطريق عدلو لنفسه . وارسل الى الامام الاسارى الذين طلبهم فامر بضرب أعناقهم . وأما خارج المرتد فشفع به المسلمون وقالوا للامام : هذا قد تربى فى بيتك وهو صغير وقد تاب . فعفا الامام عنه . أما أهل بالى فاسلموا باجمعهم بعد هذه الواقعة . وكانت واقعة بالى يوم الجمعة يوم الحج الاكبر سنة ٩٣٨ .

ثم ارسل الامام الوزير مجاهدا الى أرض وج فقاتله بطريقها « اسلام دحر » صهر الملك اسكندر ومعه ثلاثون بطريقا بجنودهم فهزمهم . وقتل اسلام دحر ومن معه من البطارقة واطاعت وج سهلها وجبلها وارسل الوزير مجاهد بخبر الفتح الى الامام وهو فى جراجى .

وكان ملك الحبشة أرسل بطريقا اسمه « أيكر » ومعه جيش الى بلاد جنز فقصده عبد الناصر من أرض هديه وهزمه وأسر عسكره ولم يفلت الا البطريق وحده واسلم العسكر الذين وقعوا فى يد عبد الناصر وحسن اسلامهم وشهدوا فيما بعد عامة الوقائع . وارسل

الامام قائدا اسمه يعقيم الى ارض ورب فاجتمع الحبشة تحت قيادة بطريق اسمه اكليل وقاتلوا يعقيم فهزمهم وقتل منهم الف رجل وكتب الى الامام بالفتح وسأله ماذا يفعل فاجابه بأن يأخذ من أهل ورب جزية سنوية مقدارها ١٥ الف جمل من الحنطة والف اوقية ذهب والف كدوجة من العسل والسمن . فاطاعوا على ذلك وجلس يعقيم فى بلادهم .

فبعد فتح الامام لبلاد دوارو وبالى وهدية وجنز ووج وورب وفطبحار وافات وما حولها لم يبق خارجا عن طاعته الا قدر ثلث الحبشة فارسل الامام الى بر سعد الدين بطلب امرأته وأمر المجاهدين بان يطلبوا نساءهم و يسكنوا ببلاد الحبشة ففعلوا و بعث الوزير عدلى الى بلاد الداموت ففتحها وهزم بطارقتها وفتح بلاد جافات وغنم غنائم لا تحصى . ثم جمع الامام الامراء فى دبر برهان ، وقال لهم : قد انفتحت بلاد الحبشة ولم يبق الا بلاد التيجرى ومدر والقوجام فاما أن نسير اليها واما أن نجلس فى هذه البلاد سنة حتى نقررها . فاشار بعضهم بالجلوس سنة واحدة حتى تتقرر الاحوال وقال الآخرون مثل الوزير عدلى وعبد الناصر والوزير مجاهد وزحربوى محمد لابل الاحزم أن نقصد ملك الحبشة من الآن لاننا فى قوة ومنعة . فقبل الامام رأيهم وسار بجيوشه من عدة طرق وجرت معه وقعة بقرب بيت امحره أخذ فيها أربعة آلاف مع بطريقهم ابن دجلحان فعرض عليهم الاسلام فاسلموا ولبثوا مع الامام الا ان ابن دجلحان فر فيما بعد .

ثم سار الامام الى جبل العنبا الذى تقدم ذكره وهو الذى يحفظون فيه أولاد الملوك ولا يمكن الصعود اليه الا بالسلالم وكان المسلمون عجزوا عنه أول مرة لخط الامام على هذا الجبل وأمر ملك الحبشة جميع جيوش التيجرى أن تقاتل الامام دون هذا الجبل فقاتلهم الامام نحو شهرين وما زال حتى فتح الحصن الأول والصخور والحجارة من فوق المسلمين مثل البرد تقع عليهم . وكان مع النصارى وأهل التيجرى مدافع و بنادق وكان يضرب لهم بالمدافع رجلان من المسلمين أحدهما عربى اسمه حسن البصرى والآخر عبد أصفر تركى كان عند الامام ثم تنصر ولحق بالحبشة . ولكن الامام كان أرسل الى زيلع فاشترى مدفعا كبيراً من نحاس ومدفعين صغيرين من حديد وجيء بها على الجمال الى جندبله ثم حملتها الرجال الى محلة الامام لأن الجمال كانت لا تقدر على السير فى تلك الأوعار وكان مع المدافع مهتاران من الهنود فضربا بالمدافع واشتد القتال وكان حسن البصرى يضرب بالمدافع على

المسلمين فلما رأى الامام أن لا سبيل الى أخذ الحصن الثانى أمر بالرحيل وقصد بلاد التيجرى ومر بكنيسة اسمها « لالبلا » وهى كلها منقورة فى الصخر وأعمدتها من الصخر وفيها صهريج ماء منقور فى الصخر وليس فى هذه الكنيسة خشب سوى التماثيل والتوابيت فأحرق الامام ما فيها من التماثيل . وسارت طلائع المسلمين مع مقدمها شمسو مع مسيرة يومين حتى بلغت نهر حرار وكان الأحباش عبروه وتركوا أثقالهم ومعها بنت أخت ملك الحبشة فوصل المسلمون وأخذوا الأثقال و بنت أخت الملك وعادوا بها الى الامام فتسرى الامام بنت أخت الملك وولدت له . ثم قدم الامام القائد شمسو فسار يومين فتلاقى مع الأحباش وهم فى عدة عظيمة ومن جملة ما معهم حبال كثيرة هيأوها لربط المسلمين فهزمهم شمسو وقتل منهم ثلاثة آلاف وربط كثيراً منهم بحبالهم . وزحف الامام الى الأمام واستشهد معه زحربوى محمد بحربة مسمومة فحزن عليه حزناً شديداً وهزم العدو وحط عند كنيسة مارية . وولدت له زوجته هناك ولداً أسماه أحمد النجاشى وكان أول ولد فى التيجرى ثم سار فحط فى « قرقاره » وهى كثيرة البر والعسل فأقام الامام بها وسرح جيوشه تغزو البلاد فتلاقى المسلمون مع العدو فى أرض التنبين فهزمهم وقتل منهم ثلاثة آلاف وسار يريد مدينة أكسوم فحط فى أرض « ارعدة » ودخل عليه أناس من مسلمى بلاد التيجرى من قبيلة بلو وقالوا له : ان الأحباش اجتمعوا بجبل هناك فقسم جيشه قسمين وقصدهم وأفنى منهم أكثر من عشرة آلاف حتى امتلأ السهل والوعر بجيف القتلى ونهبوا من مواشيهم ما لا يقع تحت حصر . ووصل الخبر الى ملك الحبشة أن المسلمين دخلوا الى التيجرى وأخربوها فبكى وحزن حزناً شديداً وجمع جميع بطارقته وجيوشه وسار الى اكسوم وأخرج الصنم الكبير من كنيسة اكسوم وهو حجر أبيض مرصع بالذهب ومن كبره لم يمكن اخراجه من الباب بل نقبوا من الكنيسة على قدره وأخرجوه وحمله أربعمائة رجل وذهبوا به الى حصن اسمه تابر . وسار الامام قاصداً اكسوم فمر بثلاثة حصون صالحه على الجزية أهل حصنين منها فخلاهم . وقاتله أهل الحصن الثالث فقهرهم وقتلهم عن آخرهم وفر ملك الحبشة الى « مزجة » وسلطانها مسلم اسمه مكتر . فأرسل هذا الى الامام يستصرخه قائلا : أدركنى قبل أن يقتلونى فجد الامام فى السير حتى ينقذ مسلمى مزجة ومر بكنيسة اباسامئيل وكان فيها خمسمائة راهب فقتلهم جميعاً وصادف جمعاً من الحبشة مقبلين لنجدة

الملك فاستأصلهم . ووصل اليـه من السلطان مكتر رسول يخبره بأن النصارى ضيقوا عليه وقتلوا كثيراً من رجاله وثلاثة من أولاد أخته وهو ينتظر وصول الامام فأرسل اليه الامام أنه قادم اليه ففرح فرحاً لا مزيد عليـه وخرج وهو مريض وركب فرسه ولبس درعه وسار يلاقى الامام ومعه خمسة عشر ألف مقاتل من النوبة . فنزل الامام بجيشه عند السلطان مكتر فأضافهم عشرة أيام . و بلغ ملك الحبشة أن الامام صار الى هناك فانهزم بجيشه الى أرض قجام وسار الامام وراءه فبعد مسيره بثلاثة أيام مات السلطان مكتر فأخفت أخته « جعوة » خبر موته عن العساكر وأرسلت تخبر الامام بموته فولى الامام ابنه نافع مكانه وهو صغير بكفالة عمته وكانت تدبر الأمور فى حيـاة أخيها . ثم تقدم الامام الى أرض الدنيه وسأل عن ملك الحبشة فقالوا له فاتك من ثمانيـة أيام . فسار الامام وحط عند كنيسة انفراز وأحرقها وقام يتبع الملك ففى الطريق أدركوا فارساً من النصارى فأسروه فاذا هو أبون أخو الوزير مجاهد وكان قد ارتد ولحق بملك الحبشة فسأله الامام عن الملك قائلا : اما نلحقه اذا سرنا وراءه . فقال لا لأنه قطع بلداناً كثيرة . ثم أمر الامام بضرب أبون المرتد هذا وعفا عنه فلم يقتله. و بقى الامام مجداً فى السير فصادف خيام الملك ومطابخه قد رموها فى أرضها ثم لقى صناديقهم مرمية قد تركوها حتى لا يتأخروا بسببها . وأدرك الامام ساقة جيش النصارى وفتك بهم ولم يدرك الملك وهذا نزل على نهر « اباوين » الذى يتصل بنيل مصر وكان الامام فى طليعة جيشه اختلط بعسكر النصارى ولم يشعر الا وهو فى وسطهم فكانوا يتكلمون بكلام النصارى حتى لا يعرفوهم . ولما لم يدرك الملك وقف حتى وصل اليه جيشه . وأسر فى تلك النوبة أحد صبيانه واسمه أنس كان ارتد ولحق بابن البطريق دجلحان فأمر الامام بقطع يديه وأسروا البطريق اقابسات الذى هو قاضى الحبشة وهو عندهم ثانى البطرك فقتله الأمـير ابسمانور وأسروا أخت ملك الحبشة وكان اسمهـا « امتى دنقل » . ودخل الامام بلاد التيجرى وقد اشتد بها الغلاء والجوع فبلغ ثمن كل ثلاثة آصع مثقالين من الذهب وصارت الأحباش تسرق بغال المسلمين . وكانوا لما دخلوا أرض التيجرى كل واحد منهم معه خمسون بغلا فما خرج منها الواحد الا ببغل أو بغلين . وكان الوزير عبـاس ذهب الى أرض السراوى ثم تبعه الوزير عدلى وأهلها مسلمون ومنهم نصارى فأسلموا . وقاتل البطريق « تسفولولو » فى مكان حرج مشتبك الأشجار وهناك طريق ضيقة لا يقدر أن يمر بهـا الفارس الا وحده يتبعه

الفارس . فأراد الوزير عدلى أن يتقدم الجيع فى هذه الطريق فلما توسط الطريق رماه النصارى بالحراب والمزاريق فأثخنوه بالجراحات فسقط فتقدم من المسلمين رجل اسمه بربرى فحمله على ظهره و به حشاشة على أن يهرب به والسهام عليهما مثل المطر فقال الوزير عدلى لبربرى ارمنى عن ظهرك فما بقيت بى روح . فتقدم فارس من صبيان الوزير عدلى يسمى كبير محمد فقتلوه فتقدم آخر اسمه الجراد هيجو من أهل بالى فاستشهد . فلما رأى المسلمون أن لا سبيل للمرور رجعوا الى الوراء وحطوا فى مكان فسيح وقطع النصارى رأس الوزير عدلى وأرسلوا به الى ملك الحبشة ولما وصل خبر موت الوزير الى الامام جمع الجيوش وكان أكثرهم من الذين أسلموا جديداً فأمر منادياً ينادى ان عبداً من عبيد الامام مات ويقوم واحد مكانه وهو الوزير عدلى فحينئذ ارتجت المحطة بالبكاء والنحيب وحزن المسلمون حزناً شديداً . أما النصارى فلما وصل رأس الوزير عدلى الى الملك جلسوا ثمانية أيام يضربون طبولهم ونقيرهم ويظهرون زينتهم ويشربون خمورهم .

وجعل الامام الوزير عباساً مكان الوزير عدلى وأرسله الى أرض السراوى فقصده البطريق « تسفولولو » وأسرع بالمسير آملا الظفر وأمام جيشه راهب على حمار يقول للحبشة اليوم لكم النصر على الوزير عباس فتلاحم الفريقان وحمل رجل من المسلمين على البطريق تسفولولو فجندله صريعا فلما رأى الأحباش بطريقهم قتيلا ولوا الأدبار فتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم أحد وقتل الراهب وهو على حماره ، وقتل أولاد البطريق وأخذ الوزير عباس بثأر الوزير عدلى وأرسل برأس البطريق ورؤوس أولاده الى الامام ففرح بالنصر وأخذ الثأر .

وجلس المسلمون فى بلاد التيغرى سنة واحدة حتى فرغ زادهم وأضر بهم الجلوس فمات منهم أناس كثيرون فى أرض السراوى بالطاعون مات أورعى أبو بكر ومات أحمد النجاشى ولد الامام وماتت طاوسى امرأة الوزير عدلى ومات الجراد عبد الناصر وامرأته بلقيسة وارتد بعض المسلمين ومنهم أخو فرشحم سلطان مع كثير ممن كانوا أسلموا وذلك من الجهد الذى جرى للمسلمين . ولم يبق لهم ظهر ولا حمار يحملون عليه فكان كثير منهم يحمل دبشه على ظهره . فلما رأى الامام ماحل بالمسلمين فى أرض تيغرى سار بهم قاصداً أرض « بقى مدر » لكثرة خيراتها وولى ولاة من قبله على بلاد السراوى و بحر نجاش

والجاسين وعزل الشريف بورا عن ذخنو وولى مكانه السلطان أحمد بن اسماعيل الدهلكى ومر الامام بارض مزجة التى أهلها مسلمون وصام عندهم رمضان سنة ٩٤١ ثم سار الى بقى مدر فكمن له الأحابيش فى الطريق وكان عليهم بطريق بقى مدر ومعه ثلاثة بطاريق فهزمهم وأسرهم . وفر منهم بطريق ساول الى بلاد سمين ، وهى جبال لايوجد أعصى منها فى جميع الحبشة وأهلها من يهود الحبشة ويقال لهم بلغتهم فلاشة يقرون بوحدانية الله ولا يعرفون غير ذلك من الايمان . وكان أهل « بحر عنبا » استعبدوهم أربعين سنة يحرثون لهم ويستخدمونهم فلما انتصر الامام على الحبشة جاءوا اليه من كهوف جبالهم وخدموه وصاروا حراثين للمسلمين ثم استفتح الامام بقى مدر وصار أهلها فلاحين للمسلمين واستفتح « وقرة » وبنى فيها مساجد وولى عليها الجراد صبر الدين واستولى على بلاد « درجه » من بقى مدر وولى عليها فرشحم عليا وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأخذ بلاد الوفلة وكنفات الى أرض واق وجعل فيها الأمير أبا بكر قطين مع جيشه وبنى فيها المدن والمساجد ودخل بلاد الدنبيه وهى كثيرة الخيرات وبندر الذهب فاتخذها مسكنا وأصلحها وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأعطى بلاد « تاكه » وهى ثغر بلاد الهمج الى الوزير عباس واستراح المسلمون وسار الامام الى بلاد قجام فأخربها وتلاقى فيها مع الأمير شمعون وكان لما تركه الامام فى جدم قصده ملك الحبشة بجموعه فهزمه شمعون وأخذ كل مامعه . وكان فى الدنبيه بحر عذب مسيرة أربعة أيام فى وسطه ثلاثون جزيرة مملوءة فواكه ورياحين وكان كل من لم يطع المسلمين من الأحباش التجأ الى هذه الجزائر فغزاهم الامام بالسنابيق الى جزائرهم . انتهى

هذه خلاصة الجزء الأول من كتاب عرب فقيه ولم يعثر المستشرقون على الجزء الثانى وانما مجمل الأخبار التى فى هذا الكتاب مؤيد بكتب الحبشة وتواريخ الافرنج . وقد ظهر هنا أن بلاداً كثيرة مما عده صاحب مسالك الأبصار من ممالك المسلمين فى الحبشة ونقله عنه صاحب صبح الأعشى كانت فى أيام الامام أحمد بن ابراهيم من بعض ولايات الحبشة مثل أوفات ودوارو وهديه وشرخه وبالى وان الامام الغازى أحمد انما فتح البلدان التى كان أصلها للمسلمين . وأغرب من هذا وذاك المبالغة التى حصلت فى احصاء أجناد تلك الممالك الاسلامية وان هذه فرسانها أربعون ألفاً وهذه عشرون الفاً الى غير ذلك مما لايمكن أن

يكون بدليل أن جميع فرسان الامام الذى هو أكبر غاز فى الحبشة عند ماعرض الجيش الوزير عدلى كانوا أحد عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل وهو الجيش الذى يمثل قوة مسلمى الحبشة بأجمعها ثم ان صاحب « هدية » الذى قال عنه انه أقوى اخوانه وأكثرهم خيلا ورجلا وان عنده أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم مثل الفرسان مرتين وأكثر هوهو الذى ذكر صاحب « فتوح الحبشة » انه كان يقدم كل سنة لمليك الحبشة بنتا مسلمة يتسراها وينصرها وانه لما وبخهم الامام الغازي أحمد بن ابراهيم على قبول ذلك قالوا له : كان هذا الملك مستبداً بنا ضاربا علينا الذلة والمسكنة محظورا عليناً مسك السيوف وركوب الخيل بالسروج فكنا نقدم له الطاعة والمال والبنت هذه فداء عن أنفسنا ومساجدنا . فكيف تخاط هذه القصة التى تاريخها فى القرن العاشر للهجرة (٩٣٠) مع قصة الأربعين ألف فارس والثمانين ألف راجل التى يجب أن يكون تاريخها قبل ذلك بقرنين أوقرنين ونصف قرن ولايظهر من حال هاتيك البلاد بحسب وصف عرب فقيه انها تحتمل هذه القوى الهائلة كلها لاسيما ما كان منها مثل مملكة هديه ضيق الرقعة قليل المادة . ولاشك ان عرب فقيه الذى كان فى البلاد نفسها ادرى من الشهابى بن فضل الله ومن القلقشندى ومن المقريزى الذين نقل بعضهم عن بعض .

لقد لخصنا فتوحات الامام أحمد جران وفتكه بالحبشان النصارى وحمله اياهم على الاسلام وليس ذلك الا جزءا مما كان يفعله الحبشة النصارى بالحبشة المسلمين والصومال والنوبة قبل ظهور السلطان سعد الدين والامام أحمد وبعدهما ومما كانوا لايزالون يفعلونه الى عهد قريب وهاك ملخصا تعريب ماجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسية تحت اسم الحبشة ، فبعد أن ذكر فيها ان جغرافيي العرب الأولين والمتوسطين مثل ابن خرداذبه والمقدسى والمسعودى والادريسى وأبا الفدا والدمشقى وابن الوردى والحرانى لم يذكروا شيئا طائلا عن الحبشة جاء فيها ان المؤلف الوحيد الذى تكلم بالتفصيل عن تاريخ الحبشة فى الأعصر الأخيرة وأخبار ممالك الاسلام فيها هو المقريزى فى رسالته « الاعلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ».

فالمقريزى يتكلم عن اقليم من الحبشة يسمى زيلع يشتمل على سبع امارات : أوفات ودوارو وارابابنى وشرخه وبالى وداره ومملكة هدية القوية . فكل من هذه الممالك

كان عليها أمير مستقل بها لكنهم جميعا كانوا تحت سيادة الحطى سلطان أمحره وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر دخل مسلمون كثيرون فى أرض شوا ووصلوا الى بقى مدر[١] وأول من أساء معاملة المسلمين من ملوك الحبشة يقال انه الملك يقونوا ملاك (١٢٧٠-١٢٨٥) فجر هذا الاضطهاد الى حروب ووقائع مستمرة اشتهرت كثيراً لاسيما فى أيام الملك عمدسيون الذى انتصر على ملوك عدال صبر الدين وجمال الدين الخ (١٣١٤ - ١٣٤٤) واستمرت هذه الحروب فى أيام خلفاء عمدسيون مثل نوايا كريستوس (١٣٤٤ - ١٣٧٢) ودافيت (١٣٨٢ - ١٤١١) ويسحق (١٤١٤ - ١٤٢٩) وزارا يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨) وبيدامريم (١٤٦٨ - ١٤٧٨) واسكندر (١٤٧٨ - ١٤٩٤) الخ وقد أخضع بيدامريم ملك الدناقيل أيضاً وهم أمة مسلمة لاتزال ساكنة الاقليم بين جبال الحبشة والبحر الأحمر ففى أوائل القرن السادس عشر (أى منذ نيف وثلثمائة) كان الاسلام فى هاتيك الأصقاع فى ذل عظيم .

وكانت تلك الحروب كلها مدة قرنين كاملين خارج الحبشة الأصلية ولكن سنة ١٥٢١ نقل سلطان «عدال» أبو بكر بن محمد كرسيه الى هرر فازداد الاحتكاك بينه وبين شوا والحبشة ثم لم يلبث ان ظهر أحمد بن محمد جران القائد الصومالى [٢] الذى عاونه الترك بالمدافع والجنود [٣] فشن الغارات على الحبشة حتى بلغ أقصى شماليها ونهبها مراراً واحرق كنيسة اكسوم . وكتاب هذه الفتوحات الذى ألفه عرب فقيه (١٥٤٣) هو التأليف العربى الوحيد الذى يذكر كثيراً أقاليم الحبشة . وسنة ١٥٤٤ انتصر الملك غلاديوس على جران هذا وقتله ولكن نور الدين خلف جران أخذ بثأره فغلب غلاديوس وقتله سنة ١٥٥٩ وكان الأتراك قبل ذلك بسنتين احتلوا مصوع وبمساعدة أمير البلاد الساحلية احتلوا عدة مدن من جملتها «دباروه» وثار هذا الأمير واسمه يسحق على الملك «سارسا دنقل» وظاهره الترك فانكسروا جميعا فى واقعة «عبا جريمه» وسنة ١٥٨٩ هزم سارسا دنقل الباشا التركى «قداورت» بقرب اركيكو وقتله .

وبسبب هذه الطوائل وغيرها مما احرزه الملك سارسا دنقل على محمد الرابع سلطان

---

(١) نقدم ذكرها فى فتوحات الامام

(٢) الذى نعرفه أنه أحمد بن ابراهيم

(٣) على كل حال فى الوقائع التى لخصناها عن صاحب تاريخ فتوح الحبشة لا يوجد أثر للترك

عدال و بمساعدة البرتقاليين للحبشة ضعف المسلمون فى الجنوب والشمال ولم يبق منهم خطر.
ثم فتح الملك سوسنيوس مملكة سنار (١٦٠٧ — ١٦٣٢) وسنة ١٦٣٢ استنفر المسلمون
العصاة سلطانهم طلحة لمقاتلة الحبشة فجاوبهم بأن هذا لم يعد ممكناً . ثم ان البجه الذين
كانوا أسسوا سنة ١٦٥٠ مملكة سنجار لم يقدروا على ملوك الحبشة مع اعتدائهم أحياناً على
الحدود واضطر النائب موسى بسبب نهب أمتعة تخص الملك ياسو الأول أن يذهب الى
اكسوم و يطلب العفو . وسنة ١٦٩٧ تغلب الحبشان على أمير البجة وسنة ١٧٦٩ ثار
البجة على ملك الحبشة فدوخ الراس ميكائيل بلادهم على أن غزوات الاسلام لا سيما
فتوحات جران فتحت أبواب الحبشة للاسلام وقد فهمنا من كتاب عرب فقيه ان مغازى
جران حملت كثيرين فى نفس بلاد الحبشة مثل فاقو ودنبيه الخ على الدخول فى دين الاسلام
وشيدت فيها مساجد مما يحمل على الاعتقاد بأن الدخول فى الاسلام لم يقع على حدود
الحبشة فقط . وفى سنة ١٦٤٨ وصلت رسل اسماعيل المتوكل امام صنعاء الى الحبشة فوجدوا
بقرب غندار مدينة أهلها كلهم مسلمون وشاهدوا فى بلاد اندرته (سبق ذكرها) مسلمين
شافعية ، وكان فى نفس غندار حارات للمسلمين . وسنة ١٦٦٨ عقد الملك يوهانس مجمعا
قرر منع المسلمين من السكنى مع النصارى ثم تجدد هذا الأمر سنة ١٦٧٨ مما يدل على كثرة
المسلمين الذين كانوا بين النصارى .

وفى القرن الثامن عشر انتشر الاسلام فى أمة الغاله الذين الى الجنوب الشرقى من
الحبشة والى الشمال من شوا و يقال ان أمة الفولو هداهم الى الاسلام عربى اسمه دبلو . وقد
حقق رو بل Rüppel انه سنة ١٨٣٠ كان الاسلام ينمو فى الحبشة و بالفعل ظهر ان أمماً
من التيجرى كانوا فى أوائل القرن التاسع عشر نصارى هم اليوم جميعاً مسلمون مثل
الحباب والتامار يان والتا كل الخ وان اما أسلم بعضهم مثل المنسا وغيرهم .

ولا يجوز أن نغفل أن التجارة قد أفادت الاسلام فى الحبشة كثيراً فان
التجار لأجل الوصول الى هناك كان عليهم أن يمروا ببلاد المسلمين فانحصرت التجارة
فى أيدى هؤلاء وازداد عددهم ونفوذهم . وكان الراس على من الغاله الذى نفذت كلمته
كثيراً من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٥ مع تظاهره بالنصرانية يساعد المسلمين كثيراً مما
أوجب حصول رد فعل فى أيام الملك تيودوروس عدو الاسلام الاكبر . وازدادت هذه

العداوة عند احتلال المصريين بعض أقاليم الشمال من الحبشة (١٨٣٠ — ١٨٤٠) فأرسل الخديوى جيشاً الى مصوع فاستأصله يوهانس (١٧ نوفمبر ١٨٧٥) وسنة ١٨٨٠ أصدر هذا الملك أمراً بموجبه ينبغى فيه للمسلمين أن يتنصروا أو يهاجروا من الحبشة . فهاجر كثير منهم الى القلابات وخلت غندار منهم تماماً . وأما مسلمو سراك وهمازن وغيرها فنالوا الاذن بأن يسكنوا فى بلدين خاصين بهم لكن هذه الاوامر لم يطل بها العمل . وكان المسلمون قبل تيودورس ويوهانس متفرقين بدون نسبة فى العدد فكانوا قلائل فى قوجان (تقدم ذكرها) وكانوا نصف أهالى الفولو وادجو والى اليوم تجد المسلمين كثيرين جداً فى بلاد كوالا حال كون المسيحيين كثيرين فى الداقا . أما فى الشوا فالمسلمون كثيرون جداً ولكنهم ليسوا كثيرين فى دنبيه مثلا . أما مستعمرة الاريتره الايطالية ففيها مائتا ألف مسلم أى ثلثا أهل المستعمرة ولهم أربعة قضاة فى المدن الاربع مصوع وكرن واقوردا واسماره وهناك امامة للحباب متوارثة فى بيت امارة من قبيلة الدركى

وما عدا أهل مصوع فمسلمو الاريتره أربع فرق : الأولى السوحو واتباعهم الى الجنوب الشرقى من الاريتره وكان قسم منهم قد أسلم فى القرن التاسع عشر . والثانية مسلمو الساحل والانسبا الأوسط واسلامهم حديث العهد ولكنهم شديدو التمسك به . الثالثة البجة والحبشان الذين أسلموا من قديم ونشروا الدين المحمدى بين قبائل القيدن والباريا فهؤلاء منذ ٥٠ سنة فقط دخلوا فى الاسلام . الرابعة مسلمو البلاد التيجرية من الاريتره .

على ان اسلام الحبشة المنتشر بين الغاله والسحو والبجة ليس له من القوة والشدة ماله فى البلاد الأخرى فليس ثمة مدارس دينية مربوطة بالمساجد وان وجد بعض افراد من مصوع يحبون أن يتفقهوا فى الدين ذهبوا الى الأزهر بمصر وفى الغالب لا يرجعون الى أوطانهم كما أن الطرق الصوفية التى هى من أعظم أسباب قوة الاسلام فى هذا العصر مجهولة فى الحبشة . انتهى .

وذكرت الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسية هرر فقالت ما محصله :

ان هرر مركز تجارى عظيم فى شرقى افريقية هى الآن داخلة فى ملك الحبشة وقاعدة ولاية اسمها ولاية هرر . موقعها بين ٤٢ و ٢٤ و ٣٦ من الطول الشرقى و ٩ و٢٣

من العرض الشمالى وعدد سكانها ٥٠ ألفاً منهم الثلث فقط هرريون فى الأصل والباقون صومال وغاله وحبشان وهنود وسوريون وأرمن وأروام وأوربيون وأشهر مساجدها مسجد الشيخ أبى ذر ومسجد عمر الدين . ويقال ان الأول هو الذى أدخل الاسلام فى هرر ونشره فى تلك الأصقاع أما الثانى فكان سلطانا على هرر فى أيام أحمد جران [(١)]
وهرر هى مركز الدعاية الاسلامية فى شرقى افريقية ومنها يذهب دعاة الاسلام الى بلاد الوثنيين من الغاله وعلاقاتها كثيرة ببلاد العرب ومصر . وقد سقطت هذه الأهمية وخفت هذه الحركة الدينية بعد استيلاء الحبشة النصارى عليها ولكن أهالى هرر لا يزالون متعصبين للدين . وألوان أهالى هرر شديدة السواد لكن ما مال منها الى الصومالى كان أميل الى الصفاء ولما كان الحبشان فى القديم استولوا على هرر فاللغة الامحرية معروفة فيها وان كان دخلها كثير من الصومالى والغالى ولا سيما من العربى . ولا يوجد وثائق تاريخية عن فتح الحبشة الأول لهرر والمظنون أنه كان فى القرن الحادى عشر والذى يليه ثم الذى يليه . أما فى القرن الرابع عشر فقد تدفق السيل الاسلامى الى الغرب حتى وصل الى الحبشة نفسها وطمى عليها فى القرن السادس عشر . وأول ما ذكرت هرر فى تاريخ الحبشة هو فى زمان الملك عمداسيون لأن أمراء هرر تألبوا عليه مع غيرهم فكانت يومئذ هرر قاعدة بلاد الزيلع وأول أمير عرف من أمراء هرر هو عمر ولا شما الذى يظن أنه تولاها سنة ١١٥٠ ثم ان الأمير أبا بكر جعل كرسيه فيها سنة ١٥٢١ ولا شك أن السبب فى ذلك هو قدوم الترك فى زمان سليم الاول اذ استولوا على اليمن وجميع سواحل افريقية الشرقية الى رأس غواردافى فاشتبكوا فى الحرب مع البرتقال . ثم ظهر أحمد جران ومعنى جران الاعسر وكانت ولادته سنة ١٥٠٥ وخدم فارسا فى عسكر الامير ثم دبر مكيدة وعصى سيده وما زال حتى استقل واجبر الصومال أن ينضموا الى عسكره ولا يزال الى يومنا هذا اسمه عظيما فى الحبشة ولم يتخذ لقب سلطان ولا أمير بل اتخذ لقب امام ومنذ عام ١٥٢٦ لم يزل يوالى الغارات على مملكة الحبشة حتى دوخها كلها وأحرق الكنائس والاديرة والكتب ونهبها وسبى النساء والاولاد واسترقهم فدخل كثيرون من النصارى فى الاسلام بحيث انهم فيما بعد التزموا فى الكنيسة الحبشية أن يوجدوا هيئة خاصة لاعادة الذين أسلموا الى النصرانية .

---

(١) تقدم ان جران جعله سلطاناً بعد قتل أخيه

وقتل جران سنة ١٥٤٣ فى حربه مع الحبشان والبرتقال وقد كان الملك غلوديوس ممن اشتهروا فى قتال أمراء الاسلام ولكنه قتل هو فى حرب مع الامير نور صاحب هرر. ثم نزلت هرر عن مقامها الاول وبقيت تضعف الى سنة ١٨٧٥ اذ افتتحها القائد المصرى رؤوف باشا بينما كان الامير حسن باشا ابن الخديوى اسماعيل يقاتل الحبشة من الشمال فاما حملات حسن باشا فقد فشلت وأما رؤوف باشا فقد تمكن فى هرر وزيلع وسنة ١٨٧٨ عزل رؤوف باشا وتوالى على هرر عدة ولاة مصريين الى أن قرروا اخلاءها سنة ١٨٨٤ وسلموها الى الأمير عبدالله فزحف اليها منليك الثانى من شوا واستولى عليها فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٧ فحازها الحبشة النصارى بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة من فتحهم الأول . انتهى .

أما بلاد الصومال فهى الممتدة من مرسى تاجورة الى راس غواردافى ومن راس غواردافى على البحر الهندى الى نهر جوبا . وفيها سلسلة جبال تعلو الى نحو ٢٠٠٠ متر عند بربرة وهواؤها حار والامطار فيها غزيرة لا سيما فى السواحل وزراعتهم قليلة وأكثر اعتمادهم انما هو على المواشى والخيل والجمال . وعدد الصوماليين مليون نسمة أصلهم مختلط من الغاله والسودان والعرب وكلهم مسلمون وهم أشداء البأس أعزة . وشمالى بلادهم داخل فى مستعمرة أوبوك الفرنسوية وباقى هذا الساحل مع زيلع وبربرة يخص انكلترة وادارته فى عدن وأما الساحل الشرقى من راس الخيل الى نهر جوبا مع مراسى اوبيا ومقدشو ومركا فهو تحت الحماية الايطالية

الاسلام فى ماداغسكر

وجزائر القومور

للامير شكيب

اشرنا فى غير هذا المكان الى كون الغرض الذى توخيناه فى هذه الشروح ، هو التعريف ببلاد الاسلام النائية ، ومطارحه القاصية ، والمواضيع التى تحتاج منه الى ايضاح ، دون البلدان المعروفة ، والمواضيع المطروقة . ولما كان من جملة هذه المواضيع مبحث الاسلام فى ماداغسكر ، وجزائر القومور ، فقد لخصنا منه ما يأتى معتمدين فى أكثره على كتاب « المسلمون فى ماداغسكر وجزائر القومور » للمسيو غابريال فرّان الفرنسى Gabriel Ferrand أحد معتمدى الوزير المقيم من قبل فرنسا فى ماداغسكر ومن أعضاء الجمعية الآسيوية بباريز .

قال فى مقدمة كتابه هذا ما مؤداه :

ان تاريخ الاسلام ونموه فى بلاد خط الاستواء الافريقية ، والجزر المجاورة لها ، لا يجود لنا الا بكلمات قلائل على الأشخاص والاشياء فى بحر الهند . فماداغسكر وجزائر القومور الأربع ، وسائر الجزر التى فى الشمال الغربى من ماداغسكر ، لا تكاد تذكر فى جغرافيات العرب ولا رحلاتهم الا نادراً [1] وقد أثبتنا نقصان معلومات الشرقيين عن هذه الأماكن فى نشر تذكراتنا على الصومال ونحو اللغة الصومالية سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٦ . ولم يعرف ساحل افريقية الشرقى الا منذ سنين معدودات ، ومن عرف الشعوب التى تأهله اليوم وقدر حالتهم الاجتماعية علم لماذا أسلافهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فى التاريخ السياسى والدينى

(١) قلت جاء فى معجم البلدان لياقوت قوله : والقمر بالضم ثم السكون جمع أقمر ، وهو الأبيض الشديد البياض ، ومنه سمى القمرى من الطير ؛ وقمر بلد بمصر الى أن قال : والقمر أيضاً جزيرة في وسط بحر الزنج ليس فى ذلك البحر جزيرة أكبر منها ، فيها عدة مدن وملوك كل واحد يخالف الآخر ؛ ويوجد فى سواحلها العنبر وورق القمارى الخ . وأكثر ما تذكر العرب هذه الجزائر فبكلمات قصار كهذه .

فيما مضى من الاعصر، لأن أقواما تتقوت بحفنة من الارز ، وتكتفى من كل اللباس بقطعة من القماش ، وتتحلى بحلقة من النحاس فى الاصبع ، لم تكن لتشاطر غيرها المعارك الحيوية الكبرى ، فلهذا تجدها معتزلة بقية الناس جاهلة غيرها بل جاهلة نفسها ، راغبة فى أن تبقى مجهولة . وهذا هو اكثر السبب فى سكوت مؤلفى العرب عن الكلام عليها أما عن ماداغسكر فان معلوماتهم كانت عدما ، فان اكبر شعب فيها وهو « الهوفا » لم يعرف الكتابة الا مذ زمن قصير وقد كانت قبيلة «الانتيمورونا» استعملت الخط العربى قبل الهوفا بكثير ، وصار عندهم بعد دخولهم فى الاسلام شىء من الادب اللغوى ، فترجمة بعض كتبهم تهدينا الى معرفة أصول القبائل التى تسكن ماداغسكر ان لم يكن كلها .

وأما جزر القومور الثلاث « نجزيجة » و « انجوان » و « موحلى » فالمكتوب عنها نزر جدا . حرر « المستركوست » بعض مقالات عن لغة سكان هذه الجزر . ونقل الربان البحرى « جوان » فى كتابة حررها على القومور عن كتاب عربى مخطوط فى مايوت [١] وذكر المسيو غفراى Gevrey فى بحثه عن القومور ما معناه ان مهاجرة الساميين الى تلك الجزائر هى من عهد سليما بن داود .

وفى « ماجونقه » [٢] جالية قومورية عظيمة من المسلمين السنيين وجميعهم يكتبون لغتهم بالاحرف العربية ، و بعضهم يتكلمون بالعربية جيدا وقد قضت علينا ضرورات الخدمة بان تكون لنا علاقات حبية مع مسلمى ماجونقة اثناء اقامتنا مدة سنتين بهذه البلدة ، فاتيح لنا أن ندرس أحوالهم وأخلاقهم وان نستفيد منهم حصة مما يتعلق بتاريخ هذه الجزر ، واطلعنا عندهم على كتاب مخطوط بلغة نجزيجه ، مع ترجمة عربية له ، يذكر شيئا على وجه الأختصار عن أهالى جزيرة القومور الكبرى قبل الاسلام . ولقد ذكر «فون در ديكن» :«ان لهجات القومور ان هى الا لهجات سواحلية الاصل ، تغيرت عن أصلها باختلاف اللفظ ، وباختلاط القومور مع الماداغسكريين . فان هؤلاء منذ احقاب متطاولة فى صلة مستمرة مع القوموريين ، ومنهم من تقلد عندهم مناصب عالية ، فان

---

(١) مايوت هذه جزيرة من القومور فى المنفذ الشمالى من قناة الموازمبيق بين ١٢ و ٣٩ و ١٢ و ٥٩ من العرض الجنوبى و ٤٢ و ٤٦ و ٤٣ و ٢ من الطول الشرقى مساحتها ٣٦٦ كيلو مترا مربعا وسكانها تسعة آلاف نسمة عرب وماداغسكريون وسواحليون وهنود وفيها ٢٠٠ فرنسى

(٢) ثغر من ثغور جزيرة ماداغسكر

الامير سولى صار سلطانا على جزيرة مايوت ، وهو الذى نزل عنها لفرنسا . وعندنا ان درسا مدققا فى نفس الجزر المذكورة يأتى بمعلومات ذات بال عن لغات القومور يين وآدابهم . وقد اكدوا لنا ان من استقرى هذه الجزر ، وجد كتبا مخطوطة ، منها ما هو عربى ومنها ما هو قومورى ، يؤخذ منها تاريخ القومور السياسى والدينى » .

ثم قال فران « ان تأليفنا هذا ثلاثة أقسام أولها يتكلم عن مسلمى ماداغسكر وجزائر القومور ، والثانى عن القبائل الاسلامية الساكنة فى الساحل الشمالى الغربى من ماداغسكر وفى الجزر الاربع نجزيجة وموحلى وانجوان ومايوت الصغيرة . والقسم الثالث موضوعه نشر بعض مخطوطات قومورية وضبط كلمات من لغات القومور مع مقابلتها باصلها من السواحلى أو العربى ونضم الى ذلك متن لغة من كلام ماداغسكر الخاص بالمسلمين الذين فيها مع ذكر ما هو منها من أصل سواحلى أو عربى » .

ثم ذكر من القبائل الماداغسكرية الكبيرة التانالا Tanala ، والانتانكارانا Antankarana والانتسيهاناكا Antsihanaka ، والساكالافا Sakalava والبتسميزاراكا Betsïmisaraka والهوفا والانتاآمورونا Antaimorona وقال انها مع اختلاف اصولها متشابهة بعضها مع بعض تشابها شديدا تمثل امة واحدة من كل وجه تقريبا . ولا شك ان الذين دخلوا ماداغسكر من الطراء ، سواء كانوا ممن جاءوها جرد العصا ، مثل امة الهوفا أو ممن قدموا اليها زرافات ووحدانا مثل العرب ، قد أدخلوا فيها عاداتهم وعقائدهم . ولكن لم يطل الامر حتى امتزجوا بالاهالى الاصليين ولم يبق من عقائدهم ومنازعهم الا الشئ اليسير يحفظه الافراد لا الجماعات فالهوفا الفاتحون تلقوا ديانة الماداغسكريين وعبدوا اصنامهم ، واقتدى الغالب بالمغلوب . وأما العرب فلم يظهر تأثيرهم الا فى قبيلة الانتاآمورونا ، التى اسلمت ولكن اسلاما ضعيفا . واناس منها رجعوا الى كثير من عقائدهم الاصلية التى لا تزال كثير من القبائل متمسكة بها ويجد الانسان آثارها حتى بين المتنصرين من الاهالى .

ثم تكلم المسيو فران على قبيلة الانتاآمورونا الاسلامية ، فقال انها تسكن فى الساحل الجنوبى الشرقى من ماداغسكر بين مصب نهر « المانانجاراه » ومدينة « مازيندرانو » أى على طول ٢٢٥ كيلو متراً . ويسكن الى الشمال من هذه القبيلة قبيلة

البتسيميزاراكا ، والى الشمالى الغربى قبيلة البتسيليو ، والى الجنوب الغربى قبيلة تانالا ، والى الجنوب أقوام متفرقة . وعاصمه الانتا آمورونا هى مدينة ماتيتانانا على ضفة النهر المسمى باسمها . ويوجد فروع كثيرة من الانتا آمورونا مستقلة بعضها عن بعض لكنها خاضعة من الوجهة الدينية والحكومية لقبيلة الاناكارا والاناكارا هؤلاء فيهم بيت الملك ولهم التقدم على الجميع ولا يتزوج بعضهم الا من بعض فكأنهم قريش الانتامورونا ، ومنهم ملوك القبيلة كلها . وهم أمناء الديانة وفى أيديهم ادارة الجوامع التى يفرضون لاجل نفقاتها ضريبة غير زهيدة على أبناء ملتهم . ويزعم الانتا آمورونا ان أصلهم من مكة ويحفظون كتبا خطية عربية متناهية فى القدم ، والوانهم نحاسية ، وأبصارهم حادة ، وشعورهم جعدة وهم أشد الماداغسكريين اعتقادا بالخرافات ، ولكنهم هم وحدهم الذين سبقوا سائر الماداغسكريين الى تعليم أولادهم ، كما قرر ذلك المسيو دسكامب والدليل على ذلك كثرة الكتاتيب التى عندهم والقانون الذى هم ملتزموه من ان كل انسان منهم يجب عليه أن يقرأ ويكتب العربى ليكون أهلا لتقلد منصب أو للزواج . والى الزمن الذى أدخل فيه مبشرو الانكليز استعمال الحروف اللاتينية فى تاناناريث (عاصمة ماداغسكر) كانت جميع الكتابات الرسمية فى قصور ملوك الهوفا يكتبها امناء السر من الانتا آمورونا باللغة العربية . والانتا آمورونا مشهورون بالاعتناء باولادهم ، وعندهم عادة أن يحلقوا شعور أولادهم ما داموا فى حجور آبائهم ، فلا يؤذن للولد بارسال شعره الا بعد الزواج .

وهم رجالا ونساء لا يختلفون فى ازيائهم عن سائر أهالى ماداغسكر وبالرغم من دعواهم شدة التمسك بالاسلام يشربون المسكرات ، ويصنعون هم بانفسهم المسكر المسمى « الروم » من عصير قصب السكر مع اضافة قشر شجر يسمى آمبولوا يعجل فى تخمير قصب السكر .

والخصومات والامور العامة يفصل فيها محتسب معين من قبل الملك . وعندهم مجموعة قواعد فى العقوبات أشبه بقانون جزاء . فالسرقة مثلا يعاقب عليها بالحبس والتكبيل بالحديد من سنتين الى عشر سنوات بحسب درجة الجريمة . وأما سرقة المواشى فيعاقب عليها بالقتل لأن اقتناء المواشى ذات القرون هو عندهم فى غاية الاهمية . وأما القتل فيجزى بمثله ولا يتحرجون من التعذيب فى القتل . ولا ينفذ حكم القتل الا بارادة الملك الذى

عنده أعوان يتولون أمر القتل ، وهؤلاء الجلادون يقومون بايصال البرد الملوكية وهم عند ملوك الانتاآمورونا أشبه بطبقة يقال لها « تسيماندو » لدى ملوك الهوفا . واذا قتل الرجل ابنه وكان الولد فى سن الخمس عشرة سنة فما فوق ، عوقب الوالد بالقتل . وان كان الولد دون تلك السن حصروا الوالد فى غلاف من قصب « البامبو » يمنعه من كل حركة ، و بقى محصورا هكذا الى أن يموت . و يقال ان مثل هذا العقاب معروف عند الحبشة وأمة الغاله الذين يظن بعض المؤرخين ان أصل الأمة الماداغسكرية منهم . واذا أنكر المتهم الجرم امتحنوه بعدة أمور ليثبت براءته فيسقونه كأس ماء بارد وضعوا فيها قطعة ذهب ، وقرأوا على هذه القطعة نصيبا من العزائم ، فان لم يصبه بعد شربها شئ عد بريئا . وقد يكلفونه أن يقطع نهر الماتيتانا سباحة ، فان وصل الى الضفة الاخرى سالما من أذى التماسيح الكثيرة التى فى ذلك النهر فهو برئ أو يشيرون اليه باجتياز حقل من الارز ، فان لم تتعرض فى طريقه أفعى ، ولا طار فوق رأسه طائر ، ولا حصل حادث غير معتاد أثناء اجتيازه هذا ، كان أيضا بريئاً .

واذا أراد الانتاآمورونى الزواج ، تنكب قوسه وحمل ترسه على ذراعه ، وذهب مساء الى من يكون خطب ابنته فيقول له: ادخل . فيدخل ، فيفاجئه بضربة حربة يجب عليه أن يتقيها بلباقة ، وبدون أن يحدث للضارب أذى ، فاذا وفق لذلك جلس بين العائلة وأخذ الفتاة ، والا فان أصيب أو لم يحسن اتقاء الضربة خرج متعثرا باذيال الحياء . والانتامورونا بحسب قول الأب لافسيار La Vaissiere أصحاب أخلاق فاضلة وطهارة وآداب ، يبالغون فى مراعاتها ، وهم يتزوجون بأكثر من واحدة ، وتسمى المرأة الأولى « فاديب » ومعناه الزوجة الكبرى .

وكان الانتاآمورونا فى جاهليتهم ، قبل أن دانوا بالاسلام فى أدنى درجات الجهل . وكان عندهم كهنة يحفظون بعض مبادئ أصلية ، و يقدمون قرابين دينية ، و يحتجنون ذلك لأنفسهم دون أن يطلعوا عليه العامة ، و يسمون الخالق « زاناهارى » وليس فى ماداغسكر تواريخ عن أصل الأهالى، وما كانوا عليه فى القدم تتجاوز القرن السادس عشر، فتاريخ تلك الجزيرة مظلم جدا الا ما كان عند الانتاآمورونا بسبب وجود الكتابة العربية عندهم . والذى قدرنا أن نفهمه من هذه الكتابات ان القبيلة الماداغسكرية ، التى باختلاطها

بالعرب نشأ منها الانتاآمورونا ، كانت قبل دخولها فى الاسلام تعتقد باله واحد ، أزلى ، أبدى ، خالق الكون كله بيده كل شىء ، لكن كانوا يتصورون لهذا الاله جسما وصورة على منتهى الجمال والكمال بحيث لايمكن تشبيه تلك الصورة بصور الآدميين . وكانوا يقولون بوجود آلهة صغار حول ذلك الاله الأعظم ، هم الشفعاء لديه وكل منهم له وظيفة خاصة به ، واليهم يلجأ الناس فى حاجاتهم ، لان الاله الأكبر هو أعلى من أن تصل اليه مطالب العباد ، فكان لابد ثمة من الوسطاء [1] فكان أصل تلك العقيدة توحيداً انقلب بسبب هؤلاء الشفعاء والوسطاء شركا . واقبلت العامة على عبادة أولئك الآلهة الصغار و بالغوا فى الأمر حتى انقسمت تلك الامة الى قسمين أحدهما الرؤساء والعامة والارقاء ، وهم حزب الوسطاء الذين جعلوهم لله أنداداً ، وانتهى الامر بأن رفضوا الاعتقاد بالاله الأعظم . والثانى الكهنة ، وأتباعهم الذين لبثوا على الاعتقاد بالاله الواحد ، ورفض اشراك غيره فى القدرة والتصرف فوقعت بين الحزبين منازعات تغلب فيها المشركون على الموحدين والتزم هؤلاء أن يتظاهروا بعبادة الانداد الا أنهم كانوا يعبدون الاله الواحد سراً .

وفى تلك الاثناء جاء العرب بتوحيدهم فانتصر بهم حزب الكهنة الموحدين ، لأن العقيدة العربية جاءت مؤيدة لما بين أيديهم فلما أسلم الجميع عاد هؤلاء الى مقامهم الاول بل ازدادوا سناء ورفعة . أما الزمان الذى وقع فيه اهتداء الانتاآمورونا ـ ويقال الانتاآمورو والانتاآمور ـ الى الاسلام فغير معلوم ، وانما يرجح كون هذا التحول لم يصادف معارضة شديدة ، بل تلقى هؤلاء القوم الدين الجديد بالفرح والنشاط ، ثم لم يطل الأمر حتى عادوا الى كثير من عقائدهم الاولى فصار اسلامهم مختلطا بالوثنية (كذا) وهم مثل العرب يستعملون غالبا جملا عربية ، هى دائما على شفاه المسلمين مثل : ان شاء الله . مكتوب الله . ويبدأون جميع كتاباتهم بجملة : الحمد لله وحده . ويكتبون : بسم الله الرحمن الرحيم . لااله الا الله محمد رسول الله . ولايبدأون بعمل الا بعد تلاوة هذه الجملة .

وهم يحافظون على الصلوات ، ويمتنعون عن أكل الحيوانات النجسة ، ويختنون أطفالهم . ومن العادات الاسلامية عند الانا كارا الذين فيهم بيت الملك ، أنهم يقرأون أمام

---

(١) عبارة ما كان عليه العرب فى جاهليتهم بعينها جعلوا لأنفسهم آلهة صغارا نحتوا لهم أصناما ، وقالوا « مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »

كل عمل صلاة تناسبه مثلا اذا أرادوا ذبح حيوان قالوا اللهم اجعل لحمه صالحا ، اللهم اجعل أجسادنا تنعم به وما أشبه ذلك . واذا مات الانسان جعلوا على جبينه و بطنه وعنقه أوراقا كتبوا عليها أدعية وقال أحدهم : هذه عادة قديمة جداً عندنا جاءتنا من مكة والمدينة . و يقولون للمدينة أحياناً «مدينازى» وأحيانا «مديناتى» و يقولون لمكة والمدينة «المدينتين» و يدعى الانكارا انهم من ذرية على .

و بالاختصار فالانتاآمور اجتازوا عدة أدوار دينية . الأول فى الجاهلية قبل الاسلام ، وهو قسمان : دور توحيد ، ودور شرك . والثانى بعد الاسلام ، وهو أيضا قسمان: اسلام صرف واسلام مشوب بوثنية . فالآلهة الصغار الذين يعتقدون بهم بعد الاسلام هم ستة « جو بوريلينا » و «مينكالو» ، وسيرافيلو » ، و «زار بزلو» ، و « بيزيلو » ، و «شيرا كيزيلو » و باللغات السامية يقال جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل . فجبرائيل هو المكلف بالوحى الى الأنبياء وميكائيل هو المكلف بالطبائع والغيم والمطر . وعزرائيل هو ملك الموت . واسرافيل هو الذى ينفخ بالصور فى آخر الزمان . فأما المسلمون الماداغسكريون فيجعلون لهؤلاء مقامات بائنة عن البارى تعالى ، وهى سبع طبقات منفصلة بعضها عن بعض بجدران غليظة بينها أبواب من حديد فالطبقة الاولى منها هى مكان الجزاء الآلهى من الناس من تكون آثامه فظيعة فيخلد فى عذاب النار . ومنهم من تكون آثامه خفيفة ، فيعذب الى أجل مسمى ثم بعد ان يتطهر يدخل الى النعيم المعد للصالحين . وهذه عقيدة تشابه تماما ماعند النصارى . والطبقة الثانية هى التى فيها «شيرا كيزيلو » الموكل بالزرع والأشجار وهو الذى يلتمس منه تزكية الزروع والطبقة الثالثة مقر « بيزيلو » وهو الموكل بالمواشى . وفى شهر يناير يقدمون له القرابين من النعاج . ثم ان « زريزلو » هو اله الأنهار والبحيرات ، و« سرافيلو » هو اله الحوادث السماوية والأرضية . ومينكالو هو اله الكواكب والشمس والقمر . وأكبرهم جو بوريلنا ، وهو ذو المقاوم الاول ، ولكنه دون الله ، وهو المبلغ ارادة البارى تعالى الى البشر سواء رأساً أو بواسطة سائر الآلهة (١)

(١) الذى نرجحه ان الذين سماهم المؤلف هنا آلهة ، وزعم أن مسلمى ماداغسكر اتخذوهم آلهة ، ان هم الاملائكة لكل منهم وظيفة كما هو فى سائر الأديان السامية ولكن قد تكون خيالات الماداغسكريين أوسعت هذه الوظائف وزادت عليها .

ويعتقد الانتاَمور بخلود النفس ، ولكن اعتقادا يخالف اعتقاد الهوفا . فان الهوفا يقولون ان النفس يمكنها أن تترك الجسد مدة بدون أن تفنى بذلك شخصية الانسان أما الانتاَمور فيقولون انه بمجرد انقطاع نفس الانسان تصعد نفسه الى السماء ، وتتمثل أمام جو بوريلينا الذى يعين لها مثوى بحسب استحقاقها . وان النفس عند تمثلها فى الملكوت تتخذ غلافا شبيها بالجسد الذى تكون فارقته فى هذه الدنيا ، وهذا القالب يشاطر تلك النفس أقدارها كلها من لذة أو ألم فى الدار الآخرة [١] ولاشك ان الانتاَمور بسبب معرفتهم للخط العربى تفوقوا على سائر سكان جزيرة مادا غسكر ، وهؤلاء بجهلهم اعتقدوا أن هذا النوع من من ترجمة الضمائر بالاشارات على الورق لايمكن أن يكون الا سحراً ، وفشا عندهم الرأى بأن الانتاَمور بأيديهم أقفال الغيب وأنهم مطلعون على كل شئ .

وعندهم الممنوع أو النجس اسمه « فادى » وقبيلة الساكالاف تقول « فالى » لعله محرف عن الفال العربى كما ان المقدس يقال له « اودى » ومن اشتهر بالتقوى من المسلمين ولم يعهدوا عليه طول حياته سوءاً يصير بينهم موضوع تقديس حتى فى حال حياته ويذهبون الى تأثير شفاعته لدى البارى تعالى ، ويستشيرونه فى المعضلات ، ويأخذون رقاعاً مكتوبة بيده يتقون بها المصائب .

والكتاب المقدس عند الانتامور يسمى بلسانهم « سوراب » ومعناه الكتابة الكبرى روى المبشر الانكليزى هوكت Huckett الذى كان قاطنا « فيانارانتسوا » قال : ضربنا الى الشمال على طول الساحل فزرنا مدن « نوسيكالى » و « اندرينامبى » و « آمبوهاب » و « آمبوهيبنو » وصرنا بين قوم يقال لهم « تيمورو » أو « نتيمورو » يظن أنهم جالية عربية . ومما لاشك فيه أن أسلاف هؤلاء الناس من جهة الذكور عرب ، قذف بهم البحر الى هذا الساحل وعندهم « السوراب » أى الكتابة المعظمة ، وهى نسخة من القرآن مع التفسير ، وتراهم مفتخرين بأصلهم ومتمسكين جداً بكتابهم . ففى المصائب والأحزان والأمراض يرجعون الى هذا الكتاب ويأخذون منه ماهو فى الموضوع وينسخونه على ورقة من شجر « الرافنيالا » ثم ينقعون الورقة فى الماء ثم يشرب المصاب

---

(١) هذه النظرية تخلص من مشكل بعث الاجساد يوم الحساب بعد أن تكون بليت ودخلت أجزاؤها فى تراكيب أجسام أخرى

هـذا الماء أما المسيو فران فيقول ان السوراب هو كتاب غير القرآن أتاهم به أسلافهم العرب ، وليس بذى فصول ولا أبواب وقد زيد عليه بتداول أيدى المشايخ له . وفيه تاريخ القبيلة و وقائعها المهمة وتجد فيه آيات كريمة من القرآن وكلاماً على المغيبات ، وأحرفا وطلاسم ، ممايستعمل فى دفع النوائب ومعالجة الأوصاب الى غير ذلك .

وكان جغرافيو العرب ماعلى مايظهر يجعلون جزيرة ماداغسكر من جملة جزائر القمر ويرونها كبرى هـذه الجزائر ، كما ان الأوربيين يسمون « نجزيجه » بجزيرة القمر الكبرى ، حال كون المسلمين الذين يأخذون و يعطون على الساحل الغربى من ماداغسكر لايسمونها الانجزيجه وان الحكومة الفرنسية عند ماضربت النقود لحساب سلطان جزيرة القومور الكبرى، كتبت عليها هذهالعبارة : «سيد على بن سيد عمر سلطان نجزيجه حفظه الله تعالى ».

أما ماداغسكر عند أهـل عمان العرب فتسمى جزيرة القمر ، كما كان الجغرافيون الأولون يظنون . وأما باللغة السواحلية فيقال لها « بوكينى » وهى مركبة من « بوكى » التى معناها « غريب » و « نى » وهى حرف بمعنى « فى » أى « فى بلاد الغريب ».

ولقد ذكر الجغرافى العربى ابن سعيد تفاصيل كثيرة على جزيرة القمر تطابق حال ماداغسكر مثل كونها طويلة عريضة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة ٢٠ يوماً ومن مدنها مدينـة ليران زارها ابن فاطمة . وقال انها هى وماغداشو تحت حكم المسلمين ولـكن أهلها أوشاب من جميع الأجناس وهى مرسى يرفأ اليه و يقلع منه الخ . وقد ذكر شمس الدين أبو عبدالله محمد الدمشقى فى فصل على بحر الزنج جزائر عديدة يظن أن منها ماداغسكر وهى جزيرة قنبلو التى فيها الأبنوس ومعادن الذهب والبحيرات . وجزيرة طايسان التى فيها جبال نار تقذف بالحمم فلايستطيع أحد أن يسكنها بسبب حرارة البراكين وجزيرة بربرة وجزيرة القطربية فيها مدينتان للزنج . وجزيرة زنجه . وجزيرة المحترقة . وجزيرة العور .

وكان البرتقاليون يعرفون أيضا ماداغسكر باسم جزيرة القمر ، وآخرون من البرتقاليين والطليان كانوا يطلقون على ماداغسكر اسم جزيرة سان لورانت St. Laurent انظر الى ماقاله السائح « اندريا كورساله » الذى كان فى خليج موازمبيق سنة ١٥١٤ :

« عند ما كنا فى موازمبيق وجدنا سفينتين برتقاليتين قادمتين من جزيرة سان لورانت الواقعة فى عرض البحر بازاء موازمبيق ، وهى من أعظم الجزائر التى اكتشفت فى أيامنا هذه » و بعد أن وصف مافيها من الحيوانات والحاصلات والمعادن قال : « ان أهلها لا يكادون يفقهون حديثا وانهم يتكلمون بلغة غير لغة الموازمبيق ، وانهم ليسوا بشديدى السواد ، ولكنهم فى جعودة شعرهم كسائر أهل تلك السواحل ، وان المورو (أى المسلمين) هم الذين بأيديهم مراسى هذه الجزيرة يشترون محاصيل البلاد بما يأتون به من القطن ومتاجر الهند ».

وقال « ادوارد و باربوزا » فى نحو سنة ١٥١٦ ما يأتى : « بازاء هذه الأرض على مسافة ٦٠ مرحلة من راس « كوريانت » توجد جزيرة عظيمة جدا اسمها سان لورانت ، يسكنها الوثنيون وفيها بعض مدن للمورو . وفيها ملوك كثيرون من الوثنيين والمورو معاً الخ » وسنة ١٥٢٩ كان اسم ماداغسكر قد صار معروفا ، وقد أشار « بارمانتيه » Parmentier الى وجود مورو بيض فى هذه الجزيرة . وذكر « جان دوس سانتوس » فى تاريخ اتيوبية الشرقية : « ان مورو جزيرة سان لورانت ثاروا على البرتقال ، وان هذه الجزيرة قد اكتشفت فى سنة ١٥٠٦ ، وصل اليها القبطان « تريستان دا كونيا » أثناء سفره الى الهند وسميت سان لورانت لكونهم وطئوا أرضها فى عيد سان لورانت مع ان اسمها الأصلى ماداغسكر » . الى أن قال : « وفى أيام ولاية « جورج دومنيس » فى موازمبيق ثار المورو على البرتقاليين ، وحاولوا منعهم من دخول المراسى ، زاعمين انهم يعارضونهم فى جمع الحبوب . والحقيقة انه كان تعللا مقصدهم به اخراج المسيحيين الذين كانوا يضمرون لهم أشد العداوة . فأرسل جورج دومنيس بارجة حربية معلنا الحرب على المورو فيما لو استمروا على المعارضة ، فلما وصلت البارجة مال المورو الى السلم وادعوا انهم لا ينوون شرا ، ولكن البرتقاليين لم يأمنوا شرهم ، ولم ينزلوا الى البر الا راهبا منهم اسمه الأب « دوسان توما » ورجعت البارجة الى موازمبيق بمن فيها . ولكن وردت اذ ذاك بارجة من مكة (كذا) فيها مورو ، فلما علموا بما وقع أرادوا الانتقام وسمموا الراهب المذكور ، فمات ، فانتقم البرتقال عن ذلك فى السنة التالية ، وخربوا البلاد ورجعوا الى موازمبيق وصادف أن مركباً آخر للمورو جاء من مكة فغرق ، فنهبوه وتم بذلك الفوز » .

ومن نكات الأوربيين فى معلوماتهم عن المسلمين لا سيما فى الأعصر الماضية ما ذكره رجل اسمه « جواو دو باروس » قال :

« أول من سكن زنجبار عصائب من بلاد العرب دخلت فى الاسلام يقال لها « امو زيدى » بحسب تاريخ وجد عن مملكة « كيلوا » كانوا نفوهم الى هناك لأنهم اتبعوا مذهب رجل مورو اسمه زيد هو ابن أخى الحسين بن على ، الذى هو ابن عم محمد ، وزوج ابنته عائشة ، فزيد هذا كانت له آراء مخالفة للقرآن . ومن تبعه يقال لهم « اموزيدى » .

يريد أن يقول ان أول من سكن بلاد زنجبار هم أناس من الزيدية ، نفوا الى هناك بحسب اختلاف مذهبهم ، وانهم ينتسبون الى زيد بن على بن الحسين بن على ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء وليس فى مذهب الزيدية شئ يخالف القرآن ولكن معلومات الأربيين عن الاسلام لا سيما بذلك العصر كانت ملأى بمثل هذا الخلط والى هذا اليوم مع تغلب روح التدقيق عليهم لا تخلو من الخلط والخبط أيضاً .

اتفق المؤرخون على جعل مدينة « ماتاتان » أو « ماتيتانانا » هى البلدة الأولى التى نزلتها الجالية العربية . وهى التى صارت عاصمة للقبائل الماداغسكرية التى اتبعت الاسلام ولا تزال الى هذه الساعة المركز السياسى والأدبى للمسلمين الماداغسكريين فى الساحل الشرقى من الجزيرة ، وبها يقيم أشهر المتعلمين والمتأدبين من الانتا مور .

وممن أشار الى وجود الاسلام بماداغسكر ، السائح الشهير ماركو بولو الايطالى البندقى . وفى أواسط القرن السابع عشر ذكر الانتا مور المسلمين هؤلاء رجل فرنسى اسمه « فرانسواغوش » خلط فى أخباره عنهم على طريقة قومه فى ذلك الوقت ومما قال : « ان الديانة المحمدية التى يدين بها أهالى السواحل المقابلة لماداغسكر لا شك أنها وصلت الى أهالى ماداغسكر ، فانهم يختتنون ولا يشتغلون يوم الجمعة [1] ولا يأكلون لحم الخنزير وكذلك أهالى جزر القومور القريبة منهم ، أكثرهم عرب وفرس تابعون لدين محمد ﷺ ويكتبون بالعربية ، ولا يأكلون الحيوان الا اذا كان مذبوحاً ، فلا يأكلون المختنقة ، ولا يجلسون الا متربعين على السجاد أو على الحصير على عادة الترك ، ولا يعملون شيئا من الشعائر بدون أن يغتسلوا » انتهى .

(١) لا حرج فى الشغل يوم الجمعة الا وقت الصلاة

وفى نحو سنة ١٦٥٨ ذكر المؤرخ « فلاكور » Flacourt أن أهالى مقاطعة ماتيتانانا يستعملون الحروف العربية التى كانت معروفة عندهم منذ قرنين ، ولكن الماداغسكريين بدلوا بعض صور التلفظ فيجعلون الياء زايا والثاء تاء .

وقال الكونت « دومانداف » De Mandave الذى عرف ماداغسكر سنة ١٧٦٨ ان جالية عربية وصلت الى ماداغسكر فى أوائل القرن السادس . ومما قاله : ان الروهاندريان حكام بلاد « آنوسى » هم غرباء مثلنا أصلهم عرب جاءوا الى الجزيرة منذ مائتين وخمسين سنة ، وعندهم معرفة بالكتابة يستعملون الحروف العربية والورق يصنعونه فى وادى امبول وبدلا من القلم يستعملون البامبو . على أن العربية غير منتشرة فى الجزيرة ما عدا الشمال الغربى . ثم قال : معلوم ان العرب أسسوا ممالك عظيمة على ساحل افريقية المقابل لماداغسكر ثم استولوا على جزائر القومور ويتجرون فى مسقط وعدن وسواحل اليمن ، ولكن أكثر تردد مراكبهم الى ماداغسكر ثم ذكر دومانداف وجود كتب عربية ماداغسكرية ، وقال هو وغيره انه يرجى بواسطة المخطوطات العربية الاطلاع على تاريخ تلك الجزيرة .

ثم ذكر المسيو فران نفسه أنه حصل على بعض مخطوطات عربية بواسطة رجل اسمه رامازينورو (رمضان) هو ابن ملك الانا كارا وشرح مضمونها وتكلم عن الكتب العربية الماداغسكرية التى فى المكتبة الوطنية فى باريز وفى غيرها ثم ذكر عناية الماداغسكريين بعلم الفلك والنجوم والحروف ومعرفة المغيبات وأطال فى ذلك وتكلم على لغة ماداغسكر وامتزاجها بالعربية ثم قال :

« ان قبائل الاسلام فى الجنوب الشرقى من ماداغسكر تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسكر من مكة » الى أن يقول « وهذه القصص التى نجدها عند كثير من الأمم التى دخلت فى الاسلام مؤداها أن الانتامورونا قد أسلموا فى زمان النبى ﷺ نفسه . قال المسيو رينيه باسه René Basset يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فمن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلى هرر فى الحبشة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن على [1] مع أن عقيلا ما وطىء تلك الأرض .

(١) الذى نعرفه أن عقيلا هو أخو على

وأن مسلمى كانتون فى الصين يزعمون أن الذى بنى مسجد كنتون هو وهب ابن أبى كبشة خال الرسول ﷺ ، مع أن مؤرخى سيرة الرسول مع احاطتهم بكل ما يخصه لم يذكروا شيئا من هذا » .

قال المسيو فران ان دعوى الانتساب الى آل البيت فاشية عند مسلمى السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسكر ، ولكنه مما لاينبغى أن يوثق به كثيراً .

ثم ذكر باللغة الماداغسكرية وبالحروف العربية كتابات على سبيل المثال ، اخترنا منها القصة الآتية ننشرها بحروفها وحركاتها ونردفها بترجمتها :ـ

طَطَرطَمين اعَلَى مُحَمَدُ

طَطَرطَمين اعلى مَحَمَدُ . نيفّى ركّىُ امين أنـكَرَنى بُواهَنُى . امَكَ امْديِنا أمدِيناتىْ نيى دِى طمْين أفى رَوْنى رَوَاً أعَلِىْ مُحَمَدُ بوْنيا طتىّ بُوْ اطَوً لَوُرّ . أنـكَرَ . اَطِىوَارّى كِىْ وَاً هوگَكىُ . نيىً أرَكَ طَمْينَ ع ى الآهاطِى ع مَك امَدينا امَدَيْنا اتِ . طوُدِى طِىْ مَهُورُوامى ايُوْنىْ اطَوً الاً ورَىْ انفّبيِر كِىْ طَوْ انـكَرَ نَادِىْ هَانى ع تَىْ مُوْطَوْ امطيْطَنا . طِى مَهاتَرَ . ناشِىْ طَاً كى عَ أطِى تى مىْ طبُوُْ . طُوُفُو طَينً طَاوْ اُلوْهَا اِطِى تِىْ اميْبطوُْ . نى شِىْ طَاكِى . طعَ بطوُْنَاشِى طبكى . اَطِى اتىْ مُيطبُوْ الك هِى رِنْى يِواوطوُمَشِنْ اَنـكَرَاىْ أبى إياهَى طَرَنـكَىّ أعَلىْ مُحَمَدُ تِى طِبىْ طَا إنْينْ ىُ فَنُدا فىْ إع ِ ىْ اللهُ كبَرُ اللهُ كبَرُ اللهُ كِبَرُ .

الترجمة

تاريخ على ومحمد الى أن جاءا الى الانا كارا . جاءا من مكة والمدينة . وتقاتلاهما الاثنان مع فاراونى (فرعون) وابحرا مع الانتا لوترا ، والانا كارا . والانتا فاندريكى ، شعوب كانت تصحبهما من مكة والمدينة . فوصلوا الى ماهورى ، وميازومبى . أما الانتا لوترا فلبثوا هناك وأما الانا كارا فاوغلوا فى الجنوب الى ماتيتانانا . ففى ماهاتزارا طردهم الانتا سيماتو . لأن هؤلاء كانوا أصحاب الارض قبلا فذهبوا الى آمباتو . فطردهم الانتا سيماتو ثانية . فأقاموا أخيراً بفاتو مازينا حيث هم الى الآن . فنحن ذرية على ومحمد هذه ليست بلادنا انما جئنا من وراء البحر . الله أكبر الله أكبر الله أكبر .

ثم ذكر المسيو فران فى الجزء الثانى من تأليفه قبائل سبعا هن « الزافيندارامينا » و «الانتامباهوا كا» و«الاونجاتسى» والآنتا آيونى و «الزافيكاز يمامبو »و «الانتا آفاندريكا» و« الساهاتفى » وقال انهم يسكنون بين قرى « مانانجارى » و « فارافانغانا » بين ٢١و٢٣ من العرض الجنوبى . فهؤلاء عقائدهم وأطوارهم تشابه عقائد الانتا آمورونا وأطوارهم قال و يزعمون انهم يرجعون الى أصلين أحدهما : خنى رامينيا . وهم الزافيندارا مينيا والانتامباهوا كا والثانى : أبناء الذين هاجروا من مكة الى ماداغسكر وهم القبائل الخمس الباقية . وذكر المؤلف ما يحيط بهذه المهاجرة من الحكايات والخرافات التى فيها من الخلط ما تقدمت له أمثلة ، ولكن القوم معتقدون بها . و يظهر ان رامينيا محرف من رحمن أو عبد الرحمن ، و يقولون من جملة خرافاتهم ان هذا الرجل كان صهرا للرسول ﷺ وأنه هاجر مع امرأته الى ماداغسكر على أثر المظالم التى وقعت على آل البيت .

وقد اشتهر الاونجاتسى ، والانا كارا ، والزافيكاز يمامبو ، والزافيتسيماتو ، بالسحر والطلسمات واجراء الخوارق . ويقول بعضهم ان أجدادهم رافقوا رامينيا جد الانتامباهوا كا فى هجرته من مكة وهؤلاء جلودهم مائلة الى الحمرة وشعورهم سبطة وذكر الاب رشون أنهم أهل شجاعة وبصائر بالحرب على أنه من نسبة عند قبيلة الانتامباهوا كا الى الاسلام سوى ما يدعونه من كونهم من ذرية رامينيا الذى قدم من مكة . فانهم تركوا حتى بقية العبادات الاسلامية التى لا تزال عند الانتا آمورونا ، وكذلك هم يجهلون الخط العربى ، وانما يحترمون التعاويذ والرقى .

وعلى بعض الروايات ، أصل الذين هاجروا من مكة خمسة أمراء « راما كارارو » و « راجوزوفا » و « آندريامار وهالا » و « راليفوازيرى » و « آندريانمبوازيريبه » جلوا من هناك بسبب ثورة أسقطت الأول منهم عن عرشه. وثلاثة من هذه الأسماء أصلها عربى ظاهر وهى راجوزوفا محرف عن يوسف . وراليفوازيرى يظن أنها محرفة عن على الوزير واندريانمبوازيريب يحللونها بأنها من اندريانا وهى بالماداغسكرى الأمير ، ثم الوزير ، ثم البه ومعناه الكبير أى الأمير الصدر الأعظم .

وذكر المسيو فران رحلة لأحد البرتقاليين الى مداغسكر سنة ١٦١٣ جاء فيها : «ان أهالى هذه الجزيرة يزعمون أن أصلهم من مانغالور ومن مكة ، جاءوا من جهة الهند و وطئوا

شاطئ الجزيرة الشمالى ثم انتشروا الى الجنوب ، وكانوا ينسبون قبائلهم الى أصلها ، منها ماعرفوا منها الى حد ١٧ بطنا ومنها الى حد ١٤ بطنا ، وهم مورو اوسوليا[١] عندهم القرآن مكتوب بالعربى ، ولهم مشايخ يعلمونهم القرءة والكتابة وهم يختتنون و يصومون رمضان ولا يأكلون لحم الخنزير ، ومنهم من يتزوج بأكثر من واحدة ، وألوانهم كألوان مسلمى الهند والجاوى ومن أعجب العجب محافظتهم على أصل عقيدتهم ونسبتهم مع تقطع مابينهم و بين المسلمين فى سائر الأقطار اه

وذكر الأب روشون الانكليزى الذى ساح الى ماداغسكر سنة ١٧٩٢ أحوال أهالى هذه الجزيرة فقال « ان السود منهم أربع قبائل : « القوادزيرى » و « اللوهافوهتيز » و«الاونتزوا» و « الاونديفا » وأعلاهم درجة القوادزيرى الذين يقال انهم سلائل ملوك البلاد ، وعندهم كثير من العبيد والمواشى ، وللواحد منهم الحق بأن يملك أكثر من قرية واحدة ، أما اللوها فوهتيز ، فليسوا بدرجة أولئك ولا حق للواحد منهم بأن يملك أكثر من قرية ، ويجوز لهم الاستكثار من الماشية ، ومن العادات المعروفة انهم لا يقدرون على ذبح الحيوان الا بيد واحد من قبيلة الروهاندريان ، أو الانا كاندريان (المنسوبين الى العرب) أما الفوادزيرى ، فيقدرون أن يذبحوا الحيوان بأيديهم الا اذا وجد واحد من هؤلاء ، فتكون الأولية له فى ذلك ، و بعد اللوافوهيتز يأتى الأونتزوا وليس لهم شئ من المكانة . أما الاونديفا ، فهم عبيد منذ ولادتهم . وأما البيض ، فانهم يسكنون مقاطعة أنوسى ، ومقاطعة كاركانوسى ، و يزعمون انهم أنسباء محمد ﷺ و يسمون «زافراهيمبنى» وأما البيض الذين فى «فولبوانت» و «نوسى ابراهيم» وخليج آنتونجيل ، فيقال ان أصل بعضهم قرصان ، وأن الآخرين من أصل يهودى لذلك لقبوهم زافى ابرهيم أى أولاد ابرهيم وهناك طبقة أخرى من البيض يروى أنهم أرسلوا من مكة لأجل هداية أهل ماداغسكر الى الاسلام . فاستولى هؤلاء على ماتاتانا و يقال لهم زافى كازيمامبو ومهنتهم تعليم اللغة العربية و يعتقد الزافراهيمينى ان أجدادهم قدموا من مكة وهم ثلاثة أقسام : الروهاندريان ، والانكادريان ، والاونتزاتسى . وأعلاهم درجة الروهاندريان ولهم الحق فى ذبح الحيوان ، ومنهم ينتخب الملوك . وأما الانكادريان ، فاصلهم من الروهاندريان من جهة الأب ،

(١) اليوم مسلمو الساحل الغربى من ماداغسكر يقال لهم سوليا ويظن انها محرفة من اسلام

ولكن أمهم كانت أدلى نسبا فلذلك انحطت درجتهم عن الروهاندريان . أما الانزاتسى ، فانهم عسكر لا مزية لهم سوى الحرب » اه

أما مسلمو الساحل الغربى من ماداغسكر فانهم خمس فرق : الانتانكارانا الذين يسكنون فى أعالى راس العنبر من شرقيه ومن غربيه . وقبائل الايبوانا الذين عاصمتهم موجانغا أو ماجونغا . والسا كالافا أصحاب بلاد الآبونغو الذين من أشهر رؤسائهم الملكة « باره رافونى » صاحبة خليج « مارامبيتسى » والملكتان « سافيتامو » و « سافيامبالا » صاحبتا « بالى » و « سوالالا » ثم السا كالافا الذين فى « ميناب » الشمالية حول مدينة « مانتيرانو » وما عدا بعض فصائل من الانتانكارانا والسا كالافا الذين هم فى علاقات دائمة مع مؤسساتنا فى «دييغو سوارس» و « نوسى به » و بعض فرق من سا كالافا خليج « بومبيتوك » الذين معاشرة الأور بيين هذبتهم شيئاً ، فالأهالى الذين يسكنون بين أعالى رأس العنبر ونهر مورونداڤا ، كلهم فى حالة الهمجية ، والملوك الذين عندهم سلطتهم اسمية تقريبا ، واذا شهروا حربا فلابد لهم من استشارة رعاياهم فيها ، وأكثر السا كالافا رحل يعيشون فى وسط الغابات ، والحضر منهم الذين فى السواحل على جون « ناريندرى » و « ماهاجاما » وجنوبى موجانغا يزرعون الأرز والبطاطة ، وعندهم بعض المواشى ولكن أراضيهم المزروعة عالية دائما عن البحر ، ولا يقطنون قراهم البحرية الا من شهر ديسمبر الى شهر مايو حينما تبدأ سفن الهند ، ومسقط ، و زنزيبار بالتردد على سواحلهم . ولم يكن الا نزر من هذه القبائل خاضعاً لملوك الانتيمارينا الذين فى تانانا ريف ، حتى انه لما دخل الفرنسيس تانانا ريف ، وخضعت لهم الملكة رانافالونا ، الثالثة ، وأبلغ الفرنسيس الملكة باره رافونى انه لم يبق امامها الا الخضوع أجابت بكل اباء : «اننى أنا لم أكن خاضعة لهؤلاء « الآمبوالامبو » (١) حتى بمجرد خضوعهم أخضع لكم ، وأن عساكرهم لم تدخل بلادى الا أسرى ، فانتصاركم عليهم لا يمسنى أنا ، فأنا باقية على استقلالى » وباره رافونى هذه ملكة مسلمة كسائر رؤساء الساحل الممتد من رأس العنبر الى مورونداڤا .

ويقول المسيو فران : « ان الجغرافى العربى المسعودى أشار الى كون العرب فتحوا جزيرة قبلو ، التى يترجح أنها هى انجوان الحاضرة ، من أرخبيل القمر فى أواخر

(١) لفظة تحقير معناها الكلب الخنزير

أيام بنى أمية أى فى نحو ٥٧٠ سنة للميلاد ، فلا يبعد أن يكون فاتحو القمر أو القومور قد وصلوا الى ماداغسكر لمصاقبتها للقمر ، فيكون مضى على العرب أحد عشر قرنا وهم ينشرون عقيدتهم وتجارتهم فى هذه الأرض . ومن هذا يفهم الانسان الموقع الرفيع الذى نالوه فى جزيرة ماداغسكر لا سيما بين السا كالافا .

وهؤلاء نظير الانتا مورونا لم يتعلموا من الاسلام الا ما وافق عاداتهم وأذواقهم ، وتراهم يكتفون بحفظ الشهادتين : « لاإله الا الله محمد رسول الله » . وبجمل مثل بسم الله الرحمن الرحيم . وان شاء الله . وبعضهم يقرأ القرآن ، ولكنهم يجهلون العربية وبعضهم لا يأكل الخنزير ، لكنهم يحبون الأشربة المتخمرة ويصنعونها بأيديهم .

ويوجد فى مدينة موجونغا جوامع ومدارس اسلامية ، والأذان مسموع عندهم فى الأوقات الخمسة ، وأبنية البلدة الحجرية التى على شاطئ البحر تخطر فى البال المدن العربية التى على ساحل الأوقيانوس الهندى أو البحر الأحمر . ولكن المسلمين الهنود يصلون فى مسجد الشيعة ، والمسلمين العمانيين والزنزيباريين والقوموريين يصلون فى مسجد أهل السنة . وأما الأولاد الذين يقرأون فى المدارس ، فجميعهم أبناء المسلمين الغرباء أو أبناء الذين هم متزوجون ببنات ماداغسكريات . ولم يعهد أن أحداً من السا كالافا أرسل ابنه الى هذه المدارس ، وقد زرت بعض قرى هؤلاء مثل اندامونى ، وسوالالا ، وبالى ، وهى القرى التى يزورها العرب والبانتو المسلمون فلم أشاهد فيها مسجداً ولا مدرسة ، ولا رأيتهم يقيمون الصلاة ، ومن الغريب انهم يحتفلون برمضان بدون أن يصوموه ، بل تراهم فى هذا الشهر يقومون قبل طلوع الشمس ويجتمعون فى ساحات قراهم ويشربون ويرقصون وهم على شكل حلقات ، ويعملون بأيديهم وأرجلهم حركات موافقة لأغانى النساء اللائى بجانبهم يغنين ويصفقن بالأيدى ، ويدور فى وسط الحلقة السحرة يتولون ادارة الحلقة وتسمع الراقصين يهتفون معا بكلمة « الله أكبر » واذا ختنوا أولادهم تضرعوا فى وقت واحد الى الله والرسول محمد ﷺ ، والى زاناهارى اله الخير والى انغاترا اله الشر . والغالب على الأمة الماغسكرية انها ولو دخلت فى دين جديد لا تترك عقائدها الأولى . وتجد أعاظم رجالهم مثل « رآنيليار يفونى » الصدر الأعظم الذى كان عند الملكة رانافالونا الثالثة ، يستشيرون العرافين ويستمعون لهم ، وفى ثورة ١٨٩٥ ثبت أن السحرة والعرافين ، هم الذين

دفعوا الشعب الى الرجوع الى عبادة «الصامبي» أى الصنم والى قتل الأوربيين . وفى غربى مقاطعة آمبوديرانو ثاروا ونهبوا بيوت المتنصرين والمبشرين ، وقتلوا أسرة مبشر انكليزى ، فساقت السلطة الفرنسية عليهم تابورا من الجند ، فقاوموه أشد مقاومة ، لأن السحرة كانوا وزعوا عليهم تعاويذ اعتقدوا أنها واقيتهم من النار ، فما زالوا يقاتلون حتى ماتوا عن آخرهم .

وقد وصف بعضهم قبائل الساحل الغربى بالتعصب الاسلامى وليس ذلك بصحيح ، وانما الساكالافا هم لم يزالوا فى الهمجية ، أما القبائل الاسلامية الأخرى مثل الانتاآمور الانتاآمباهوا كا ، فقد تلطفت طباعهم كثيراً وصار الأبيض يسافر بين قراهم بدون وجل بل يكون له قبول حسن بخلاف القبائل الوثنية مثل « الانتازا كا » [1] وجماعة «مانامبوندور» وجماعة « آفيبولا » وجماعة « مانانتينا » الخ ، فان الغريب بينهم لايأمن على نفسه وهم لايحبون الضيف . وكانت البعثة النورفجية أرسلت الى ملك «الاندريا باكارا» تلتمس منه رخصة فى فتح مدرسة لتعليم أولادهم ، فأجابها الملك : « ان اندريا باكارا لا حاجة لهم بمدرسة لتعليمهم زراعة الأرز والبطاطة واجتناء الكاوتشوك ونحن لا نحتاج الا الى هذه الأشياء الثلاثة » فبذلوا كل ما يمكن وقدموا له هدايا ليسمح لهم بتأسيس المدرسة ، فاصر على المنع وصرف المبشرين من بلاده ، وكذلك الساكالافا ، المسلم منهم والوثنى يكرهون الغريب وكل أبيض يصادفونه بينهم يظنونه جاسوسا للملكة تاناناريف ، التى تكره استقلال قبائل الساحل الغربى ، وحصل اعتداء فى « مانتيرانو » عاصمة ميناب على بعض الأوربيين . فهذه البلدة هى من أهم المراكز الاسلامية وأهلها يرفضون قبول الأجانب ، وليس هذا الأمر بحديث العهد ، بل منذ القرن السابع عشر وقعت الحرب بين قبيلة الساكالافا هذه والبرتقاليين الذين كانوا يغزونهم من موزامبيق ، ولكن كانت الطائلة أكثر الأحيان للماداغسكريين الذين كان يقودهم العرب من القمر أو زنزيبار ، مما يدل على أن عدد العرب كان يومئذ كثيراً فى تلك الديار

وبالاجمال فان مسلمى الساحل الجنوبى الشرقى ائتلفوا مع الأوربيين وأصبحوا لا ينفرون منهم بخلاف أهالى الساحل الغربى الذين منهم الساكالافا ، والانتيبوانا المسلمون

(١) كلمة انتا معناها جماعة فاذا قيل الانتازا كا فالمعنى جماعة زا كا

المستقلون ، والميناب والمازيكورو ، والماهافالى الوثنيون المستقلون فانهم يكرهون الأور بيين ولا يطيقون وجودهم بينهم . ومن هنا يقدر الانسان أن يقول ان دخول بعض هذه الأقوام فى الاسلام لم يزدهم بغضا للاور بيين . قال المسيو فران : « ولا أريد هنا الدفاع عن الاسلام ، بل المسلمون خلقوا أعداء لكل من ليس بمسلم وما ليس من القرآن ، وان عدم تسامحهم لا حد له . ولكن اسلام الوثنيين فى افريقية كان مرحلة لهم فى طريق المدنية . نعم هذه المرحلة يقفون عندها ولا يترقون عنها » . وأفاض المؤلف هنا فى شرح هذه النظرية التى كثيرا مانقرأها فى كتب الاور بيين وهو كون الاسود يترقى بدون شك متى أسلم عما كان عليه وهو وثنى . ولكن ترقيا محدودا بخلاف مالو دان بدين الافرنج فان رقيه لا حد له . والجواب على هذا ، ان ليس هناك رقى محدود ورقى غير محدود ، بل الرقى كله غير محدود وان كانوا يرون رقى الذين اسلموا من الزنج محدودا ، فالسبب فيه ليس طبيعة الاسلام بل التأخر والجمود اللذان بلى بهما الاسلام فى الأزمنة المتأخرة مما ليس هنا محل شرحه ، والأشبه أن يكون السبب فيه قلة العمل بمبادئ الاسلام الحقيقية من أن يكون العمل بها .

ثم قال ما يأتى بحرفه : يكون مخالفاً للسياسة أن نعضد الدعاية الاسلامية فى مستعمرتنا الجديدة (ماداغسكر) أو أن نترك فى ساحلها الغربى أقل نفوذ للبيبى [1] . نعم ان مسلمى الساحل الجنوبى الشرقى لا يحتاجون الى هذه المراقبة الشديدة ويمكن أن يتمتعوا بحقوق « البتسيميزاراكا » . ولكن التدابير الاستثنائية الشديدة لا بد منها فى معاملة الجماعات الاسلامية فى الساحل الغربى » اه

ثم قال : « أما المسلمون الغرباء فى الساحل الغربى الذين أصلهم من زنزيبار والجزائر القمر الاربع نجزيجة ، ومحلى ، وانجوان ، ومايوت ، ومن عمان ، ومن صور (غربى مسقط) ، ومن المكلا وحضرموت ، فان عددهم قليل ، وهم يجيؤن ويرجعون . وأكثر من يهاجر الى ماداغسكر القوم المسمون بالبانتو من زنزيبار والقومور ، فهؤلاء يظهرون بمظهر عظيم من الصلاح ويلازمون المساجد ، ويحملون المسابح ، ويكحلون أعينهم ، ويخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء ويلبسون الجبب الواسعة ويطوفون فى الأسواق ، ويحثون الناس

(١) البيبى هو المسلم القومورى أو الزنزيبارى الذى يتزوج بملكة من السا كالافا

على العبادات ، ويذكرون بالثواب والعقاب ، وأخيراً تصير لهم الكلمة العليا عند الساكالافا الذين يأخذون منهم التعاويذ والتمائم ، و بسبب معرفتهم الكتابة يتفوقون بالبداهة على السحرة الماداغسكريين وقد يصلون الى أن يتزوجوا ببنات زعماء البلاد وأحيانا بالملكات . فتصير لهم الكلمة النافذة و يأخذون من العوائد والمكوس ، وأحياناً يصيرون هم الوزراء عند ملوك الساكالافا ، وأهل الحل والعقد . »

ولكن مع كون الاسلام معروفا منذ عشرة قرون من تلك الديار ولا يزال القومور يون والزنزيبار يون ، يدعون اليه و يعلمون عقائده ، فلا يبرح فى ماداغسكر تأثيره سطحياً ، فان الساكالافا والانتاآمور والانتامباهوا كا قد تقبلوا الاسلام بدون أن يتركوا عقائدهم الاولى ، ولا تجد جوامع الا فى موجانغا ومانتيرانو ، والذين بنوها هم العرب والهنود .

والحقيقة ان الماداغسكرى لا يقدر أن يغير عقيدته ، فالقبائل الماداغسكرية كلها ، التى هى الانتيمار ينا والبتسيليو فى وسط الجزيرة ، والبتسيميزاراكا والسيهاناكا فى الشرق ، والانتاآمورونا والانتامباهواكا فى الجنوب الشرقى ، والانتيبوانا والساكالافا فى الغرب والشمال الغربى ، والبارا فى الجنوب ، والمازيكورو والماهافالى والابتاندروى والانتانوسى والانتانزاكا فى الجنوب والجنوب الغربى والجنوب والشرقى ، كلهم غير قابلين للاهتداء .

فالمسلمون يعلمونهم الاسلام منذ قرون . ومن سنة ١٨٢٠ وصلت اليهم جماعات المبشرين من جمعية لندن ، ثم وصل الجزويت واخوان العقيدة المسيحية ، وراهبات ماريوسف وراهبات التبشير بالانجيل ، والمبشرون النورفيجيون والأميركيون والعازريون الفرنسويون ، وأخيراً مبشرو البروتستانت الفرنسيين . وكل هذه الجعياب حصلت على اتباع ، ورؤساء الانتيمارينا يهذبون أولادهم فيها ، وحركة التنصير ماشية بدون انقطاع منذ ثلاثة أرباع قرن و بحماسة فائقة . وقد تعلم كثير من الماداغسكريين القراءة والكتابة ، وتعلموا كثيراً من الحرف ، ومن اللغات كالانجليزى ، والفرنسوى ، ولكن الايمان لم يدخل فى قلوبهم . واذا ذهبوا الى الكنائس وأبطلوا العمل يوم الأحد ، فذلك اطاعة لأوامر الحكومة وخوفا من العقاب الصارم لأن المبشرين حملوا الحكومة على سن قانون يجبرهم على الصلاة وغشيان الكنائس ، ومن لم يفعل يعاقب بشدة . وأما سريرة

الماداغسكريين ، فهى الاعتقاد بزاناهارى وانغاترا ، والاستماع للعرافين والسحرة لا غير . والآداب المسيحية لم يحصل لهم نصيب منها بل هى عندهم كالاسلام مما لا يطيقون حمل تكاليفه . فانهم شعب عائش تحت قانون الطبيعة . وأما الفضائل الاخلاقية ونقاء العرض والطهارة ، فامور لا يعرفونها ، فالمرأة فى ماداغسكر ، من الملكه الى الأمة ، لا تمنع نفسها من شهوة ولا تجد النساء فى ذلك سوى استعمال وظيفة طبعية . فالرجل والمرأة عندهم وجد كل منهما للآخر . ولذلك لا يقدرون أن يتصوروا التبتل والرهبانية ، بل يجدونهما مخالفين للطهارة . وهم لا يجدون اثما كبيرا فى الكذب والسرقة والسكر وسائر الرذائل ، وفى هذا لا يختلفون عن سائر الأمم الماليزية والبولينيزية ، التى هم واياها من أصل واحد ، ويسمون الذهاب الى الكنائس « فانومبوانا » أى سخرة قهرية ، لأنهم يذهبون اليها بالرغم من أنوفهم . وهم يتساءلون . « أيتها هى الديانة الحقيقية من جميع هذه الديانات التى جاءتنا من وراء البحر ؟ اهى الكاثوليكية أم البروتستانتية ؟ وأيتها من النحل البروتستانتية هى أصحهن قولا ؟ أترى هى الانغليكانية أم المتيودية ، أم الكويكرس ، أم النورفيجية أم اللوثيرية الأميركية ، أم البرتستانتية الفرنسية ؟ أم الاسلام ؟

وكان واعظ كاثوليكى فى كنيسة « فينارانتسوا » يتكلم يوم الأحد على جهاد سيمون دومونتفوره فى أصحاب البدعة الالبيجية Albigeois وكيف أن هذا المجاهد الكاثوليكى صدع بأمر البابا اينوشنسيوس الثالث واستأصل تلك الفئة الخارجة . وفى الأحد الذى يليه ، قام المبشر الانكليزى وتكلم فى المسئلة نفسها وقال ، ان سيمون المذكور لم يكن الا سفاحاً ، قام يستأصل الألبيجيين لكونهم تمسكوا بالحق وتركوا الضلال . ففهم الماداغسكريون من ذلك أن الفرنسيس الكاثوليك كانوا قاتلوا الانكليز البروتستانت ، وان تذكار هذه المنازعات لا يزال حياً . وكذلك سمع الماداغسكريون مبشرى الكاثوليك والبروتستانت يطعنون أفحش الطعن فى المسلمين ، وهؤلاء يسمون اولئك كفارا . فتجد الماداغسكريين يذهبون الى كهنتهم ويسألونهم عما يرون . فيجاوبهم هؤلاء : « لا تصدقوا شيئا من خرافات هؤلاء الأجانب أترى الانسان قادرا أن ينزل الله فى قطعة من الخبز أو قطرات من الخمر ! أيكون شخص واحد ثلاثة ! أيكون الابن مساويا لأبيه ! هذه أضاحيك . والحقيقة ان زاناهارى (اله الخير) وانغاترا (اله الشر) هما المحركان لهذا

السكون قد عرفهما آباؤنا فاقتدوا بهم و باحترامهما تكونون احترمتم آباءكم . »

نعم ان الأصنام الرسمية قد أحرقت سنة ١٨٦٨ عندما دخلت الملكة رانافالونا الثانية فى البروتستانتية ، ولكن العقيدة الأصلية لم تتغير .

وكذلك العمل بأوامر القرآن ونواهيه شاق عليهم ، لاسيما منع الخمر والميسر والانصاب والسحر فهى امور يحبونها حباً جماً . وأما الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والعفة ، فلا يعملون منها شيئا ، ويجدون آلهة ماداغسكر أقل تكاليف من اله النصارى واله المسلمين . فالقبائل الانتانكارانا ، والانيتبوانا ، والانتانبونغو ، والميناب يسمون أنفسهم « سيلامو » أى مسلمين وليس فيهم من الاسلام سوى الاسم .

والخلاصة التى استخلصها المسيو فرّان من المباحث التى أجراها بنفسه ومن الكتب والرحلات التى قرأها عن ماداغسكر ، والكتابات العربية الماداغسكرية التى اطلع عليها ، ان الاسلام دخل الى السواحل الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية من ماداغسكر بواسطة العرب أو المسلمين المتكلمين بالعربية ، مما يستدل عليه من الكلمات العربية الكثيرة التى يجدها الانسان فى لغة ماداغسكر . فلا شك أن العرب الذين كانوا فى الساحل الشرقى من افريقية منذ القرن السابع للميلاد ، نشروا دعوة الاسلام فى بحر الزنج منذ القرن الثامن . فجزيرة قنبالو التى ذكر المسعودى ان العرب فتحوها سنة ٧٥٠ ليست الا على مسيرة ٦٠ ميلا من مايوت و ٢٥٠ ميلا من خليج بومباتوك فى ماداغسكر ، وهى هى انجوان الحالية . ثم ان العرب نزلوا موجانقا ، ووصلوا إلى ماتيتانانا ، ومن هناك أحاط بقصص مجيئهم الى هناك من الخرافات والخيالات ومن خلط قصة باخرى ماتقدم لك مثاله . انتهى .

ونحن نرى أن العرب نزلوا بتلك الجزيرة منذ القرن الثانى والثالث للهجرة ، وان تلك الحكايات التى يروونها دائما من كون مسلمى ماداغسكر أصلهم من مكة هى من جملة الافتخار بالاصل العربى ولم يكفهم ان يكونوا عربا حتى جعلوا أنفسهم قرشيين ، بل من آل البيت — على انه لايوجد مانع من أن يكون أناس من قريش ، أو من الطالبيين وصلوا الى هناك . فاما بقاء المسلمين فى ماداغسكر على ماهم عليه من الجهل ، لايمتازون عن سائر أبناء وطنهم الا قليلا فله سببان أحدهما ، شدة تمسك أهالى ماداغسكر بعقائدهم القديمة ، بحيث انه لا الاسلام ولا النصرانية أمكنهما قلع تلك العقائد من رؤوسهم تماما ،

الثانى قصور المسلمين فى ماداغسكر كما فى سائر الأقطار من جهة التشكيلات اللازمة للدعاية ، ولو كانت لهم هناك مدارس ومكاتب وطرق منتشرة ، لكان الاسلام أرسخ وأنقى مما هو الآن فى ماداغسكر بدون شبهة .

جزائر القومور أَو القُمر

العرب الأولون يسمون هذه الجزائر بالقمر بضم القاف وسكون الميم وقد تحرك الميم فتلفظ قمر بضمتين ، ومنها قول الافرنج « قومور » ، وقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب ان قنبالو أو انجوان فتحت سنة ٨٢٤ (بالحساب المسيحى) على أيدى الازد الاباضيين . وبحسب قول كارتى Carthy فى كتابه « جزر افريقية فى بحر الهند والجزر العربية » المطبوع فى باريز سنة ١٨٨٥ ليس تاريخ هذا الفتح معلوما ، وانما ثبت أن رجلا عربيا امتاز بالبسالة والاقدام جعل نفسه سلطانا على جزيرة القمر الكبرى ولكن بسلطة محدودة . ولا شك ان أعقاب هذا الرجل ، هم الذين اشتبكوا فى الحرب مع البرتقاليين عندما طرأوا على هاتيك البحار . ثم انه بعد ذلك طرأت جالية عديدة من شيراز العجم ، فنزلت بساحل الزنج . وكان لهم زعيم اسمه محمد بن عيسى ، فاستولى على جزيرة القمر الكبرى ، وعلى جزيرتى هنجوان ومحلى ، وجعل فيهما ابنتيه ملكتين ، ثم جاء فزار جزيرة مايوت فأحسنوا استقباله ، فاستصحبها على هنجوان ، وتزوج ببنت سلطان مايوت .

ثم نقل المسيو كارتى عبارة حررها كاتب عربى ، اسمه الشيخ يوسف ابن المعلم موسى ، لسائح فرنسوى ، اسمه فيكتور نويل وهى هذه :

« ان جزيرة مايوت كانت تابعة لامراء جزيرة انجوان بحسب قول هؤلاء ، ولكن المايوتيين لم يكونوا يذكرون اسم أمير أنجوان فى خطبة الجمعة الا فى بعض فترات . ولما آل الأمر فى انجوان الى السلطان أحمد الذى ملك من سنة ١٧٦٠ الى ١٧٨٥ ، جرت حوادث من غارات الساكالافا ومن الفتن الأهلية زعزعت ملك الانجوانيين ، فاضطرب حبل الامن فيها ، وكانت أسرة عربية أصلها من عمان أقامت ببلدة « تشينغونى » حاضرة خزيرة انجوان القديمة ، وكانت ذات ثروة طائلة من تجارتها ، وقد أحسنت استعمال المال فى وجوه الخير والبر ، وتزوج واحد من هذه العائلة واسمه صالح بن محمد بن بشير بن المنظارى

العمانى ، وكان شاباً ماضيا فى الأمور عظيم الجاه بابنة سلطان مايوت . وسنة ١٧٩٠ مات سلطان مايوت ، فخلفه صهره صالح بن محمد بن بشير وتحول عن مذهب الاباضية الذى عليه أهل عمان ، الى مذهب الشافعية أهل السنة والجماعة الذى عليه أهل جزائر القمر الخ » وقال المسيو غافراى : Gevrey ان أصل سكان القومور يهود أو ايدوميون ، جاءوا من البحر الأحمر بعد عهد سليمان ، وجاء اليها فى الوقت نفسه زنوج من زنجبار ، وكانت تختلف اليها كثيراً سفن العرب ، ولكن هؤلاء لم يتوطنوا فيها الا فى القرن الخامس للهجرة . ثم فى القرن السادس عشر للميلاد جاء البرتقاليون وفتحوها ، ولكنهم مروا عليها كعابرى سبيل ، و بعد انصرافهم من هناك جاءت طارئة من الشيرازيين، فنزلت بها تحت قيادة محمد بن عيسى أما تاريخ جزيرة « محلى » فلا يعلم عنه شئ كثير ، وغاية ما يعلم أن أول من سكنها زنوج جاءوا من افريقية ، ثم جاءها العرب والماداغسكريون ، وفى سنة ١٥٠٦ جاءها طائفة من الشيرازيين تحت قيادة أحد أولاد محمد بن عيسى . وأما جزيرة انجوان أو انزوان فقد عمرت نظير ماعمرت محلى ، وفى العهد نفسه فقد جاءها أولا الزنج ثم العرب ثم الماداغسكريون ولما وصل محمد بن عيسى الى جزيرة القمر الكبرى أرسل ابنه حسن بن محمد ، فاحتل انجوان بشرذمة من الشيرازيين » .

نجزيجة أو جزيرة القُمر الكبرى

نأخذ زبدة معلوماتنا عنها من رسالة للدكتو نيقولا دو بلانتيه Du Plantier رئيس الاطباء فى جيش المستعمرات الفرنسى ، مطبوعة بباريز سنة ١٩٠٤ اسمها « القومور الكبرى La Grande Comore »

قال: «ان ارخبيل القومور مؤلف من أربع جزائر : مايوت وانجوان ومحلى والجزيرة الكبرى ، كلها واقعة فى مضيق موازمبيق طولها نحو ٢٤٥ كيلو مترا ، مع انحراف من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى . فالقومور الكبرى هى بين ٤٠ ر ٥٥ و ٤١ ر ١٢ من الطول الشرقى و ١١ ر ١٣ من العرض الجنوبى ، و بينها و بين شاطئ افريقية ١٦٠ ميلا ، ومنها الى محلى ٢٨ ميلا ، والى انجوان ٥٠ ميلا ، والى مايوت ١٦٩ . وطول هذه الجزيرة ٦٦ كيلو مترا فى عرض ٢٤ ، وأكبر مراسيها «مرونى» فى الغرب ، و « ميتساميولى » فى

الشمال الغربى ، « وشيندينى » فى الجنوب الشرقى ، و«ساليمانى» فى الجنوب الغربى . وهى جزيزه مرتفعة فيها جبل يقال له «الكاراتالا » علوه ٢٥٠٠ متر وفى رأسه حطمة نار . وتكثر فى هذه الجزير الحراج ، ويبتدئ القيظ فيها بشهر مايو وينتهى باكتوبر . وتكثر فى الشتاء العواصف والزوابع ، ويغزر المطر ، ومع هذا فليس فى هذه الجزيرة مياه جارية كما فى اخواتها الجزر الأخرى . وكل مافيها من العيون عينان نضاختان احداهما ، فى مقاطعة بادغينى والأخرى فى مقاطعة ميتساميولى . واعتماد الناس انما هو على الحياض التى تجتمع فيها مياه المطر ، وأهل سيف البحر يحفرون على الشاطئ ، فيستنبطون مايشربون . وبالرغم من قلة المياه فأراضى الجزيرة خصبة جدا ، ومناخها من أجود مايكون يناسب الغريب ، والحميات الملارية غير معروفة فيها ، والصحة العمومية فيها جيدة جدا . ومن قصد الفرار من الحر يجد فى الأماكن المرتفعة غير البعيدة عن الشاطئ مايرضيه ، وأجسام أهالى هذه الجزيرة فى غاية القوة والنشاط وهم يحبون النظافة كثيرا .

وعدد أهالى القومور الكبرى خمسون ألف نسمة ، لكن النساء أكثر جدا من الرجال حتى انهم حسبوا بازاء كل رجل ثلاث نسوة . وسبب نقصان عدد الرجال عن النساء ، هو الحروب التى كانت قد وقعت فيها بين سلاطينها ، مع كثرة المهاجرة الى زنزيبار . اذ انتقل منهم سنة ١٨٩٩ ، نحو ١٥ ألف رجل الى تلك الجزيرة . ويقال ان العرب نزلوا فى القرن العاشر بهذه الجزيرة قادمين من مسقط وغيرها ، ومعهم عبيد كثيرون . ووجدوا فيها زنوجا من أمة « الكافر » لم يعلم عهد مجيئهم . فباختلاط هذه الأجناس من السلالة السامية الخالصة الى المادغسكرية ، الى البانتو ، تكون الجنس القومورى الحالى وكذلك جاء فيما بعد هنود وعرب . والقومورى طويل القامة ، غليظ الشفتين بدون برطمة ، عالى الجبهة ، أقنى الانف ، أسود العينين ، قليل شعر اللحية . أما المرأة القومورية فهى صغيرة ، حسنة التقاطيع ، طويلة الذوائب ، لكن اذا تزوجت حلقت شعرها . وكبار القوم يخضبون أظافرهم بالحناء والنساء يستعملن الوشم والرجال الأغنياء يلبسون القميص الطويل من الجوخ الأسود أو الحرير المزركش وعلى رؤسهم الكوفية المطرزة بالقصب ، ويحملون فى أوساطهم خناجر معقوفة بقبضات من ذهب أو فضة . أما النساء فيلبسن الحرير ضافيا ويجعلن على أكتافهن ورؤوسهن منديلا من الحرير ، ويرخين أحيانا نقابا مزركشا

مفتوحا عند العينين ، ويتحلين با نواع الحلى من عقود اللؤلؤ ، والاساور والخلاخيل ، الذهب منها والفضة ، ويتطيبن بأنواع الطيوب ، وفى النهار تجلس المرأة من هؤلاء فى منزلها محاطة بجواريها ، أو تتنزه على سطح البيت ، فاذا غابت الشمس كان لها ان تخرج من منزلها وتتنزه فى الشوارع متنقبة جيدا . فاما الفقيرات ، فيظهرن فى الاسواق و يشتغلن ويلبسن ثوبا واحدا من القطن و ينتطقن عليه .

أما المساكن فمبنية بالحجر والجير ، وأكثرها ذات طبقة واحدة وسطوحها مستوية ، وسقوفها ودورها بالخشب ، والابواب والنوافذ مصنوعة بالخشب المنقوش المخرم . وعندهم مقاعد من خشب ذوات أرجل أربع مغطاة بالطنافس والمساند . ويشربون بالنارجيلة ، ويحبون الراحة ، ويقضون جانبا من أوقاتهم إما فى الجوامع أو فى ساحات البلدة مستأنسين بالاحاديث ، وكل واحد سبحته فى يده. وهم قوم متوكلون ، لكنهم كسالى لاينشطون للعمل الا قليلا ، ويميلون الى اللذة والرقص والغناء ، والى الاسراف فى النفقة ، فقد وجد منهم من يرهن عقاراته بمبلغ من المال ويشترى عدة رؤوس من البقر و يتصدق بلحمها على فقراء بلده أو يشترى ثيابا مزركشه بالذهب ، أو يتزوج امرأة جديدة . وللزواج عندهم أفراح طويلة عريضة تستمر أياما ، وقد يكون ذلك شهرا ، وتقدم الهدايا النفيسة الى العروس ، وتذبح الذبائح العديدة ، وتولم الولائم طول مدة الفرح لجميع الاهالى بين الزفن والغناء والطبل والزمر .

والطلاق معروف فى القومور ، ولكن الولد فى هذه الحالة يبقى عند أمه ويتبع حالتها ، فهو أمير اذا كانت أميرة وفقير اذا كانت فقيرة ، وللمرأة حق التصرف المطلق بأملاكها .

ويحتفلون أيضا بالختان ، فاذا ختن أحد الاكابر ولده ، عمل عيداً اشتركت فيه جميع أهالى المدينة . والمآتم عندهم لها شأن كبير أيضاً .

وجميع القوموريين ، أهل الطبقة العالية ، شديدو التمسك بدينهم الاسلامى ، وأهل الطبقات الدنيا يميلون الى الخرافات . والجوامع كثيرة فى المدن والقرى ففى « مرونى » مقر المقيم الفرنسى ١٢ مسجدا، مع أن أهل هذه البلدة لايزيدون على ٢٥٠٠ نسمة والمشايخ يعلمون الاولاد القراءة والكتابة ، والجميع يراعون الشريعة أتم المراعاة ويوجد مدارس فى كل المدن

والقرى ، أما لغتهم ، فهى نوع من اللغة السواحلية الزنزيبارية وتكتب بالأحرف العربية ، أما لغة دواوين السلطان ، فهى العربية الفصحى .

ولما جاءت فرنسا و بسطت يد حمايتها على القومور الكبرى كان فيها ١٢ مقاطعة ، لكل منها سلطان وأكبرهم اسمه « سلطان تيبه » يخضع له جميعهم . وقد كان السلطان السيد على ابن السلطان السيد عمر صاحب هذا المقام ، وأبوه السيد عمر كان سلطانا على جزيرة انجوان ، وقد قام بخدمات جزيلة لفرنسا ، وذهب على فى صغره الى مايوت وتعلم الفرنسية ، وكان السلطان تيبه فى القومور الكبرى عمه السلطان أحمد ، فقبلما توفى أوصى بأن يكون هو خلفه ، فلما مات أحمد وجاء على يتسلم الملك ، اعترض بقية السلاطين وقالوا انه غريب ، واعصوصبوا حول الامير موسى فومو ، سلطان مقاطعة ايتساندرا ، الذى طمع أن يكون السلطان تيبه . فوقعت الحرب ودارت الدائرة على الامير موسى بسبب معاونة سلاطين انجوان ومحلى ، وسكان مقاطعة بادغيني الكبيرة للسلطان على . و بعد ذلك جاء مركب من قبل سلطان زنزيبار ، عليه قنصل انكلترة يعرض على السلطان على حماية الانكليز ، فرفض على حماية انكلترة ، وأرسل الى قائد مايوت يعرض دخوله تحت حماية فرنسا [1] فلم يحصل يومئذ على جواب ، لكن بعد ذلك بثلاثة أشهر ، جاء المسيو همبلو Humblot العالم الطبائعى الفرنسوى بمهمة علمية الى القومور الكبرى ، فأعظم السلطان على موصله ، وشاهد المسيو همبلو خصب الاراضى ، فحول مأموريته من علمية الى سياسية .

وكان الأمير موسى فومو قد رضى بحماية انكلترة ، وأرسل له الانكليز ذخيرة وأسلحة ، فتهافت السلطان على على طلب حماية فرنسا ثانية ، فرجع المسيو همبلو الى فرنسا وأدى الرسالة . وفى ٦ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٦ ، عقدت فرنسا مع سلطان القومور الكبرى معاهدة تتضمن أن يكون لفرنسا الموقع الأول دون سائر الأجانب فى جزيرة القومور الكبرى ، وان السلطان لاينزل عن شئ من الأراضى لدولة أجنبية ، ولايعقد مع دولة من الدول معاهدة الابرضى فرنسا . ورضى السلطان بابقاء خمس مقاطعات وهى ، بامباو وايتساندرا ، وميتساميولى ، و بوذى ، و بادغيني ، كل مقاطعة منها يليها سلطان تابع للسلطان على الذى يلى مقاطعة بامباو رأسا ، جاعلا مركزها بلدة مرونى . وان السلطان

---

(١) هذه رواية المؤلف الفرنسوى

لايعزل أحداً من أولئك السلاطين ، ولا يعلن حربا الابرضى الحكومة الفرنسوية . وعند موت السلطان يكون لفرنسا وحدها الحق فى تعيين الخلف ، أو تعيين شكل ادارة البلاد . وقد تعهد السلطان على باقرار الاعطيات التى أعطاها الفرنسيس من أراضى الجزيرة ، و بتسهيل اعطاء غيرها لهم . وفى السنة المذكورة جاء المسيو ويبر معتمداً من قبل الدولة الفرنسية مقيما بالجزيرة .

فأثارت هذه المعاهدة ثائر القومور يين الذين اتهموا السلطان عليا بأنه ، أتى لهم بالفرنسيس الى الجزيرة وباعها من المسيو همبلو ، وخرب ديارهم وصيرهم عبيدا . وكانت الثورة بدأت سنة ١٨٨٩ فى مقاطعة بادغينى ، وتولاها أمير اسمه آشيمون ، فأرسلت فرنسا قوة وأخمدت نارها ، وقتل آشيمون فى أثنائها ، ولكن أهالى الجزيرة بأجمعهم بقوا ناقمين[١] بحيث اضطر السيد على أن يفر ليلا الى محلى (٢٣ فبراير ١٨٩١) فجاء القائد الفرنسوى من مايوت الى محلى ، وأخذ السيد عليا معه على ظهر بارجة حربية الى القومور الكبرى ، وحاول اقناع الأهالى بكون السيد على لايزال سلطانا وان فرنسا لاتزال معترفة بسلطنة القومور ، فلم يقبلوا كلامه فاعاده معه الى مايوت وازدادت الثورة ، فارسلت فرنسا قوة ضئيلة قمعت الثورة . وفى ٦ يناير سنة ١٨٩٢ ، عقدت مع السيد على اتفاقا الغت بموجبه السلطنات الخمس وقسمت الجزيرة الى ١٢ مقاطعة ، وجعلت الحكم فى كل مقاطعة لقاض وعلى رأس كل قرية شيخاً ، وصارت السيادة التى كانت للسلطان الى مجلس القضاة الذى ينعقد بحضور معتمد فرنسا المقيم ، وفرض على كل مكلف من الأهالى من سن ١٢ الى سن ٦٠ سنة دفع روبيتين ونصف روبية سنويا .

ولكن بعد ذلك جرى اعتداء على بعض الفرنسيس ، وقصد أناس من الأهالى اغتيال المسيو همبلو ، فجرح وجرح صهره المسيو لوغرو ، فاتهم السلطان على انه هو مدبر هذه المؤامرات ، فنفى الى دياغو سوارس ثم الى بوربون ، وخلعته فرنسا[٢] وصار الأمر الى المعتمد المقيم وهو المسيو همبلو ، فبقى الى سنة ١٨٩٦ ، ثم خلفه المسيودوكاز De Cazes ثم المسيو بو بيغون Pobeguin ، ثم خلفه المسيو بلانتيه (الذى ننقل عنه هذا التاريخ)

---

(١) ولا نراهم مخطئين

(٢) كما خلعت عبدالحفيظ سلطان الغرب مع انه هو الذى أدخلها الى مملكته وكل منهما لقى جزاءه

وتوالى من بعده المقيمون الى اليوم .

وليس لجزائر القومور حق فى ارسال مبعوثين فى البرلمان الفرنساوى (كما ليس لجزائر الغرب) ، وانما يوجد لها ممثل خاص فى مجلس المستعمرات الأعلى ، ويكون فرنسيا من أصحاب الأملاك المستعمرين فى تلك الجزائر .

وأما الادارة الوطنية فى الجزيرة ، فهى فى أيدى ثمانية قضاة ، و ١٤١ شيخ قرية . فالقاضى يفصل الدعاوى وينفذها ويصدق العقود ، وفى حال استئناف الدعاوى يوجد مجلس مركب من كل القضاة . وأما شيخ القرية فيجبى الأموال ، ويقوم بالضبط والربط فى القرية وله أعوان فى مهمته . واذا وقعت دعاوى مدنية بين الأهالى والفرنسيس ، فالفيصل فيها المعتمد المقيم . أما فى الدعاوى الجزائيـة فالمرجع هو محكمة مختلطة يرأسها المقيم ، ويكون فيها اثنان من القضاة الوطنيين واثنان من الفرنسيس . وفى قصبة مرونى مدرسة فرنسوية يتعلم فيها الاحداث ، ويحضر دروسها كثير من الرجال البالغين ، وفى القومورى ذكاء مفرط واستعداد عظيم للتعلم والتمدن .

وميزانية الجزيرة المالية هى ١٥٠ الف فرنك ، يؤدى منها سنويا خمسة آلاف الى السيد على فى منفاه ، و ٤٥ الفا الى شركة المسيو همبلو عن فائض الدين الذى كان لها عند السيد المشار اليه ، فلايبقى لادارة الجزيرة كلها سوى مائة الف فرنك .

جزيرة انجوان

هذه الجزيرة هى أيضا من أرخبيل القومور ، وكان لها سلطان مستقل بها نلخص أخبارها من كتاب اسمه « سلطنة انجوان » تأليف المسيو جول ربليكه Repliquet من كبار مأمورى المستعمرات الفرنسية قال : « انها بين ٤١ ، ٥٢ ، ٤٢ ، ١١ ، ١٥ من الطول الشرقى و ١٢ ، ٣٦ ، ٣٥ و ١٢ ، ٢٢ ، ٣٠ من العرض الجنوبى على ٢٠ مرحلة شمالى مايوت الى الغرب و ٩ مراحل عن محلى الى الشرق ، و ١٥ مرحلة عن القومور الكبرى . ومساحة انجوان ٣٧٨ كيلو مترا مربعاً ، وأعلى قمة فيها ارتفاعها ١٥٧٨ مترا . وهى جزيرة بديعة كثيرة الأشجار ، غنية بالنباتات ، لاسيما المقاطعة المسماة منها بومونى : والقسم الفاصل منها هو القسم الغربى ، والى الشمال الغربى منها جزيرة صغيرة مغطاة

بالشجر ، اسمها جزيرة السرج . وفى أكثر جزيرة انجوان تجد مياها جارية تفيض من بين الأودية ، وتسقى الأراضى الى الساحل سائلة من شلال الى شلال ، وكان الأهالى لجهلهم يسرفون فى قطع الأشجار ، فأصدر السلطان عبد الله برأى المعتمد الفرنسى المقيم المسيو أورميير أمراً يمنع فيه استئصال الشجر .

ومن جداول انجوان التى تسيل صيفاً وشتاء اكيبانى ، وبوزينى ، وشيكونى ، والباجى الذى لهمصب فىجون ترفأ اليه السفن ، وموروياجينى ، وباتسى عوانى ، وهذه الجداول تجدها من الغرب الى الشرق . وأما فى الشرق فجدول يقال له التاتنغا مجرورة مياهه الى مزارع القصب والجيجى . ثم الى الجنوب جومانى . وأنهار وسواق أخرى أقل بالا من تلك تدلك كلها على غزارة المياه الجارية فىهذه الجزيرة الصغيرة البديعة . وفىجهتها الشرقية ، بحيرة صغيرة مساحتها عشرة آلاف متر متناهية فى العمق وصفاء الماء وبرودته يظن أنها خزان الجداول الشرقية .

وفى انجوان مراس جميلة للسفن مثل فرضة انجوان ، ومرسى فومبانى ، ومرفأ بوزينى وباجى وباتسى ، وهى فى الشمال . ومراسى آجو ، وبومباو ، وغيرهما فى الشرق . وبمبينى وسيماسا نغانى فى الغرب . ومرفأ بومونى فى الغرب ، يصلح لايواء البوارج الكبار .

وهواء انجوان معتدل الحرارة ، ففى الصيف متوسط درجة ميزان الحرارة هو ٢٣ فى الظل ، والمناخ فى الجزيرة جيد ، والحميات قليلة مع وفرة المياه والاصطياف فى أعالى الجزيرة يفيد الصحة جداً .

وتنقسم الجزيرة الى نواح ، فمنها فى الشمال الشرقى موتسامودو ، وعوانى ، وباندانى وفى الغرب شيزيوانى . وفى الشرق دومونى . وفى الجنوب بومونى ونيوما كيلى . وفى الوسط يوجد بامباو متونى وكونى . والعاصمة هى موتسامودو ، تنسب الى رجل زنجى كان اسمه موسى مودو أى موسى الاسود ، كان يرعى مواشيه حول جون انجوان ثم استقر هناك ، وكان أول من بنى هناك بيتا ، ثم جاء الآخرون وبنوا بجانبه . وكانت لمدينة موتسامود أيام سعيدة لعهد سلاطين الجزيرة الذين سوروها بجدران عالية وحصنوها بقلعة. أما الآن فكل

هذه الأسوار متداع الى الخراب . وفى الحارة المسماة « آمومبو » [1] التى هى محلة الاشراف تجد قصر سمو السلطان ، والمحكمة المختلطة ، ودار الخزانة القديمة ، و بعض الدور القديمة الباقية على جاهها . وبالقرب من هناك « موكيره جيموى » أى الجامع الأعظم بمنارته السوداء ذات المصابيح وفى الخارج من السور على طول نهر موروجامجيني الضواحى المسماة باندامانجى ، فيها أكواخ الفقراء

أما القلعة ، فهى شاهقة مبنية على صخرة سينيجو ، لها برجان عاليان مربعان و برج آخر يرتفع عليه العلم السلطانى الأبيض والأحمر فى الأعياد ، ومن القلعة الى المدينة سلم عدة درجه ٢٨٠ ولكن هذه القلعة تنهار يوماً فيوماً بانهيار السلطنة العربية التى كانت شيدتها . وقد كان آخر عهدها بالقوة سنة ١٨٩١ يوم اطلقت مدافعها النار على البوارج الفرنسوية . والى اليوم فى هذه القلعة ١٠ مدافع قديمة بالية .

وعلى مسافة أربعة كيلو مترات من موتسامودو ، تظهر بلدة عوانى بمنارتها وسورها ومنازلها . وهناك عاصمة ثانية للجزيرة ، اسمها دومونى واقعة فى شبه جزيرة . وهى نظير أختها موتسومودو متداعية الى الخراب . وكانت قبلا كرسى السلاطين . ونظرا لمنعة موقعها ، كان أهلها اذا هاجمهم المداغسكريون من البحر قرعوا طبول الحرب ، فهرع الأهالى من الجوار ودخل رعاة المواشى وآووا الى جدرانها بقطعانهم . فلم يبق اليوم من سابق عظمة دومونى سوى بعض جوامع ، و بعض منازل للاشراف . وفى أحد هذه الجوامع صومعة منحوتة فى الحجر ، داخلها مزخرف بالنقوش العربية . وهو أثر معمارى يستحق الذكر . والى جنوبى الجزيرة فى نيوماكيلى مدينة صغيرة اسمها « مويا » وفى الجزيرة كلها ٨٠ قرية أكثر أهلها من جنس الماكوا الزنوج . وأما مبانى الادارة الفرنسية فهى على ارتفاع ٢٠٠ متر بمحل يقال له « هومبو » يشرف على موتسامودو وقلعتها . وتجد جميع الدوائر الرسمية والمستشفى والسجن مختفية تحت أشجار المانغا وغيرها من الأدواح الكبيرة وتحت اكمة هومبو مقبرة الجنود الفرنسيس ، الذين قتلوا فى حوادث سنة

---

(١) ان العرب من عادتهم أن لا يلفظوا الباء بعد الميم أبداً بل لا يسبق الميم عندهم الا النون مثل تنبكتو مثلا ، ولكن الافرنج يجعلون أبداً محل هذه النون ميا فيقولون تمبكتوا Tombouсto ولما كنا ننقل عن كتب الافرنج حافظنا فى الأسماء على كيفية نطقهم بها مع علمنا بأن الاصطلاح العربى هو لفظ مثل هذه الكلمات بنون بعدها باء كما حقق ذلك العلامة اللغوى ، الأب أنستاس الكرملى

١٨٩١ (يوم استولوا على الجزيرة).

وجميع سكان هذه الجزيرة ١٥ الف نسمة، يرجعون الى ثلاثة أجناس، من العرب والبوزمن والماكوا. ويقال ان أول من عمر هذه الجزيرة هم البوزمن، ثم جاء العرب ومعهم الماكوا. والبوزمن هم من أصل مالى بولينيزى كاهل ماداغسكر. وهم أقوياء شجعان يحبون الحرية أسلموا فى القرن السادس عشر، ولكنهم لم يقبلوا الرق وذهبوا من وجه العرب الى الجبال أما من جهة التمسك بالاسلام، فانهم فى الدرجة القصوى يعملون بالأوامر والنواهى القرآنية بحرفها، ولا يؤولونها بحسب أهوائهم مثل العرب (كذا).

أما العرب، فأصلهم من سواحل خليج فارس أو سواحل البحر الأحمر، وعليهم سحنة أهل اليمن، وفى نسائهم جمال بدقة التقاطيع، وتدوير الوجه، وملاسة الشعر، وسواد العينين ونفوذ اللحظ. وأكثر العرب كسالى أهل مكر ودعوى (كذا) وكلهم تقريبا يدعون الشرف وكونهم من ذرية الرسول ﷺ وأكثر أوقاتهم يقضونها مضطجعين فى داخل بيوتهم بين نسائهم، حتى اذا أزف الغروب ذهبوا الى الجامع للصلاة، ومن هناك يفيضون بالأحاديث التى فيها يكثر لعن الكافر الأبيض [1] وهم شديدو البغضاء لنا لاننا نصارى، ولأننا نحب الشغل وبحركتنا ونشاطنا صار لنا التفوق عليهم. وقد فهموا أنهم كانوا هم المغلوبين، لكنهم لا يريدون أن يجعلوا كسلهم هو المسؤول عن ذلك وهم مهما تقربوا الينا يكذبون ولا يوثق بظاهر محبتهم (كذا). أما الماكوا فاصلهم عبيد من الموزامبيق ومن سواحل شرقى افريقية، أتى بهم العرب ليعملوا فى أراضيهم فكانوا هم الحراثين لهم وصاروا الآن الحراثين فى أراضى المستعمرين الأوربيين، وهم أهل مودة ومعرفة للجميل. ولا تخلو انجوان من الهنود البانيان ومن المداغسكريين. أما لغات انجوان مع صغر حجمها فهى أربع العربية، ثم السواحلية، ثم الانجوانية، ثم الماكوية فالعربية «لاتينية الشرق» هى لغة الديوان والدين، وبها تصدر الأوامر السلطانية ومضابط القضاة الى هذا اليوم. وأما السواحلية فهى لغة التجارة، وكثيرا ما تكتب بها أوراق رسمية. وأما الانجوانية فهى خليط، من العربى والسواحلى والماكوى والبرتقالى

(١) الذى لا يقدرون أن يحبوه لأنه استولى على الجزيرة وسلبهم ملكهم

(٢) يقال له فى جبل لبنان الباكور أو البعكور

والفرنساوى والانكليزى ويتكلمون بها فى كل الجزيرة . وأما الماكوية فهى لغة الزنوج ، وهى تتلاشى أمام اللغات الأخرى

وذكر المؤلف عن ملابس أهل انجوان ما يقرب مما تقدم عن ملابس القومور الكبرى وهى فى الحقيقة ملابس العرب الضافية مع الكوفية على الرأس ، والخنجر فى الوسط ، وذكر أن الشبان يحملون بايديهم عصيا يسمى واحدها « البانكوره » من الخشب الصلب [١] ، وقال ان العرب رجالا ونساء يتطيبون ، ويرشون على ثيابهم ماء الورد والمسك ، ويكحلون عيونهم ، ويخضبون أظافرهم بالحناء .

والانجوانيون يتبعون الشريعة الاسلامية بجميع أوامرها ونواهيها ، ولكن عندهم عادات غلبت عليهم ولو لم توافق الشرع ، مثلا ، المرأة هى دائما صاحبة البيت الذى تسكن فيه مع بعلها فاذا وقع الطلاق ، وجب على الرجل أن يفارق البيت .

وكذلك الانجوانيون لا يعتبرون رقبة الملك للسلطان ، بل يرون أن تملكهم للأراضى هو من الله تعالى . وحكم القضاة هو بمذهب الامام الشافعى ، والكتب التى يعتمدون عليها من المذهب هى منهاج الطالبين ، والفتح القريب . ولم يبق فى الجزيرة سوى قاض واحد فى موتسامودو . وكان السلطان فى الماضى يبلغ الحكم بمجلس مشهود من الأعيان والقضاة ، أما الآن فلم يبق للسلطان الا اعطاء بعض النصائح لا غير .

ثم تكلم المؤلف عن العادات المألوفة فى انجوان ، فى الولادة والختان والزواج والجنازة مما لا يخرج عما تقدم فى الكلام على القومور الكبرى ، ومما هو معهود فى البلاد العربية مع بعض الزيادات . ولكنه قال ان الخاطب اذا خطب البنت من أهلها وارتضاه والداها ، زوجاه بدون معرفة الفتاة ، اذ الشريعة المحمدية لاتشترط رضى المخطوبة فى الزواج وهذا خطأ فظيع هو من جملة خلط الأوربيين ، الذين يلقفون كل ما يسمعون وأحيانا ما لايسمعون ، بل ما يتصورون بمجرد خيالاتهم ، فيقررونه وقائع ثابتة . فانه مما لاينكر كون الوالدين فى كثير من الأحيان يستبدان بالبنت ، ويعقدان عليها بدون استشارتها وهى تطيعهما حرمة وتأدبا معهما . ولكن القول أن هذا هو من الشريعة الاسلامية خطأ فاحش ، فان البنت البالغ لابد من رضاها فى الزواج ، واذا عقد العقد قبل البلوغ و بلغت المعقود عليها ، كان لها الحق أن تفسخه .

---

(١) يقال له فى جبل لبنان الباكور أو البعكور

ثم ذكر ما عند الانجوانيين من حب الرقص والغناء ، والضرب بالمعازف وآلات الطرب وما عندهم من سرعة الخاطر فى ارتجال الأزجال العامية الرقيقة ، التى يطرب لها كل من يسمعها . وقال انهم يضربون بالطمطام (نوع من الدربكة) ، والقابوسى (نوع من العود) وقال انهم مغرمون أيضاً بلعب الورق والشطرنج ، ويحبون المصارعة ولعب السيف والترس وغير ذلك مما هو من أوضاع العرب

وفى السادسة من العمر يرسلون أولادهم الى الكتاب ذكورا واناثا ولا يفصلون بعضهم عن بعض الا فى سن البلوغ ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة والحساب والتقويم والعقائد ، ويكتب لهم على ألواح بيضاء بقلم من قصب الكامو ، وحبر يقال له نيونغو [١] آيات من القرآن لا بد للاولاد أن يحفظوها . ويواظب أهالى انجوان على الصلوات الخمس ويوم الجمعة يخرج السلطان الى صلاة الجمعة وامامه اثنان يحملان العلم السلطانى والمظلة السلطانية ذات العذبات الخضر ، ومن العادات القديمة أن أهالى قرية ميرونسى يؤلفون موكب السلطان فى ذهابه الى صلاه الجمعة . وجميع الأهالى يصومون رمضان ، حتى الذين ليسوا مسلمين من الزنوج يصومون . وتقل فى انجوان الأوقاف لكن يوجد منها ما هو مربوط بالجوامع ، ومنها ما يقفه الانسان على جهة برّ ويجعل نظارته فى ذريته حفظا لثروة البيت بعدم امكان بيع الوقف . وأما حجاب النساء فهو شديد فى انجوان حتى الذين ليسوا معروفين بشدة العقيدة ، ومن يشرب الخمر سراً ، لا يتسامحون فى أمر الحجاب . وتسود الخرافات عند البوزمن والزنوج فى انجوان حتى ان العرب قلدوهم فيها ، فانهم يمتحنون السارق ، مثلا ، بأن يجبروه على مضغ حفنة من الأرز غير المسلوق وهم يقرأون عليه سورة يس ، فمن لم يمكنه أ كلها ثبت أنه سارق [٢] أما الصناعات فى انجوان فهى قليلة ، يعملون الفخار البسيط ، وينسجون الحصر والزنابيل ، وعندهم مطاحن على الهواء ، ويستخرجون عصير السكر ، وكان السلطان عبد الله قد أسس معمل سكر فى بامباو ، وغيره من الأهالى صنعوا السكر ونجحوا فيه . وأما الزراعة فهى فى حال التأخر ، والفضل

---

(١) مركب من البخار المتلبد محولا بالماء

(٢) الغالب على الأوربيين انهم اذا اطلعوا على حادثة أو حادثتين جعلوا ذلك قاعدة فلذلك تقل الثقة فى مروياتهم

فى المحاصيل انما هو لخصب الاراضى . وللعرب فى الاودية مزارع لطيفة من قصب السكر والكوكو ، وكان عندهم كثير من شجر البن . أما التجارة فلهم فيها نفاذ عظيم ، فقد ولدوا من بطون أمهاتهم نواتيه وتجارا . ومنذ القرن السابع عشر ، كان الانجوانيون ينقلون بضائع ماداغسكر وساحل شرقى افريقية الى خليج فارس ومسقط ، أما تجارة الرقيق فقد بطلت منذ سنة ١٨٤١ ، عند ما استولت فرنسا على جزيرة مايوت ، و بعد الغاء هذه التجارة سقطت تجارة انجوان عن درجتها الاولى ، أما سفنهم فهى قوارب ذات قلع واحد وهم فى غاية المهارة فى البحر سواء فى ادارة السفن الشراعية أو ذات المقذاف

أما تاريخ انجوان فهو تابع لتاريخ سائر القومور ، وكان استولى البرتقاليون مدة على هانيك الجزر ، ثم ثار الاهالى بهم فاخلوها ، وجاء محمد بن عيسى من شيراز مع جماعته ونشر فيها الاسلام واستقر ابنه حسن بن محمد فى أنجوان ، فتلقاه الاهالى براً وترحيباً ، و بنى جوامع فى جميع القرى ، وأسس هو سلطنة انجوان اذ كان زعيم بلدة موتسامودوا المسمى فانى على قد أعطاه ابنته ، فتزوجها وتلقب بالسلطان ثم خلفه ابنه محمد فتزوج بأمينة ابنة ماسيلاحا ، رئيس جزيرة مايوت ، فألحق بهذه الواسطة مايوت بانجوان ، ثم استضاف محلى واطاعته ملوك القومور الكبرى ، ولكن هذه الطاعة لم تطل كثيراً حتى انقلبت الى طاعة اسمية فى أيام عيسى ابن محمد ، ثم مات عيسى وعهد بالامارة الى امرأته مولالانه ، فانتقض أهالى مايوت عليها ولولا حزم « موانيه فانى » زعيم موتسامودو لكانت نجحت ثورتهم ، الا أن موانيه فانى هذا استأثر بالامر وفرت الملكة مولالانه الى مدينة دومونى ، وهناك زارها ربان البارجة الهولاندية « ناسو » وتكلم أحد ضباطها فان دن بروك فى رحلة كتبها عن اكرام هذه الملكة لهم ، ثم مات موانيه فانى وخلفته امرأته فاتنة فى الملك فصارت ملكة فى دمونى وملكة فى موتسامودو . و بقيت الاحوال مختلفة الى زمان « عالمة » التى بنت الجامع الكبير فى موتسامودو (١٦٧٠) و بعد ذلك شن الماداغسكريون الغارة على انجوان واكتسحوها ، وأحرقوا قراها واستباحوا حرمها ، وأسروا رجالها ، وقتلوا اسراها فقام فى وجوههم أحمدى حفيد عالمة ودفع غارات الماداغسكريين ثم خلفه الشيخ سليم وملك الى سنة ١٧٩٧ ، فمات و بويع ابنه أحمد وهو دون البلوغ ، فقام عمه علوى وأحدث ثورة ليستأثر هو بالملك ، ففشل أول مرة والتجا الى زنزيبار ، ثم

عاد بعد سنتين وخلع أحمد وتولى مكانه ، و بقى فى الملك الى سنة ١٨٢٠ و بعد موته خلفه عبد الله الاول ، وقضى معظم ملكه فى قتال الزعيم المداغسكرى « رامانا تيكا » وهذا الرجل كان ابن عم « راداما » ملك الهوفا ، فبعد موت الملك نفى مع جماعته من ماداغسكر فالتجأ الى أنجوان لما كان اشتهر به عبد الله من حسن الوفادة ونجدة الملهوف فتلقاهم عبد الله بالاكرام وأنزلهم أحسن منزل . ولكن رامانا تيكا كان كنودا للنعمة كسائر الهوفا ، فلم يلبث أن أخذ يحرك الثورة على مضيفه ، وأخيراً عالنه الحرب ، فدارت الدوائر على الباغى ، وفر هذا من انجوان الى محلى واستولى عليها . فأخذ عبد الله يجهز قوة لاسترداد محلى . وكان فى هذه الجزيرة أمير من السا كالافا ، اسمه سولى ، أبى أن ينقاد الى رامانا تيكا ، ولم يلبث عبد الله أن هاجم الضيف الخائن فى مايوت . وطرده منها ، فنصب سولى السكالافى أميراً كما كان وجاء يطارد العدو فى محلى (١٨٣٦) فصادفه اعصار شديد فرق مراكبه وقذف بالسفينة التى كان فيها الى الشاطئ ، فوقع فى يد رامانا تيكا ، فقتل جماعته صبراً وأمر بوضعه فى السجن ، ومنع عنه الطعام الى أن مات . فجمع الأمير سولى فل الجند الذى كان لعبد الله وجاء بهم الى انجوان وبايعوا علوى بن عبد الله مكان أبيه بالرغم من دسائس عمه سالم الذى طمع فى الامارة . ثم اشتعلت الفتنة بين العم وابن أخيه ، فزحف سالم برجاله ، وحصر علوى فى موتسامودو ، فكان سولى أمير مايوت ينجد علوى برجاله ، فثبت هذا فى وجه عمه نحو أربع سنوات . ولكن سالما أثار ثورة فى نفس مايوت حالت دون ارسال النجدات الى علوى ، ثم تعاهد مع رماناتيكا الذى كان متوليا أمر محلى وهاجت جنودهما موتسامودو ، فتسلقوا جدران قلعتها ليلا وانسل علوى خفية الى البلدة وركب قاربا أخذه الى القومور الكبرى ومنها ذهب الى موزامبيق ، ثم أخذه الانكليز الى كلكتا ، ثم جعلوا اقامته بجزيرة موريس حيث مات سنة ١٨٤٢ فانفرد سالم بالامارة . ودفعه الانكليز لمقاومة احتلال فرنسا لمايوت باعتبار أنها تابعة لسلطنة انجوان ، فلما نزل الأمير سولى عن مايوت لفرنسا احتج على ذلك بشدة ، فلم تبال وزارة غيزو باحتجاجه واستضافت فرنسا هذه الجزيرة الى مستعمراتها .

و بعد موت سالم خلفه ابنه عبد الله الملقب فى بلده بالكبير . وكان صديقا للانكليز وقد امضى معهم معاهدة رضى فيها بابطال الرق ، وكان يحب تنظيم ادارة بلاده على الطريقة

العصرية الاوربية واتخذ لنفسه مستشاراً طبيبا اميركيا اسمه ويلسون . وفى سنة ١٨٥٤ حاول علوى حسينى اغتياله ليملك مكانه ، فدخل عليه فى القصر فجأة بشرذمة من رجاله ، ولكن جماعة عبدالله استماتوا من دونه وقبضوا على المعتدى وصلب . وسنة ١٨٨٢ عندما امضى عبد الله معاهدة ابطال الرق ، ثار عليه أخوه الأمير محمد واعصوصب حوله جماعة وهاجم أخاه مرتين ، فهزمه السلطان فى كل منهما ، وعفا عنه فيما بعد . ولكن تلك الحرب الأهلية مع علوسن عبد الله أوهنت قواه وفتت فى عضده ، فطلب حماية فرنسا . وفى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٨٧ أصدر أمراً بقبول نظام الحماية ، وأرسل الفرنسيس معتمداً مقيما عنده اسمه المسيو ترويل . فكانت مذ ذاك الوقت سياسة المقيمين فى أنجوان اقامة النفوذ الفرنساوى مكان النفوذ العربى باسقاط سلطة السلطان تدريجا . ولكن لم تكن هذه الطريقة لتتم بدون صعوبة اذ قدم المقيم للسلطان مرة صورة أمر طلب منه امضاءه ، وهو يقضى بأن تكون الادارة الداخلية فى يد معتمد فرنسا ، فأبى السلطان امضاءه ، وثار العرب وهجموا على مقام المقيم ، وأهانوا العلم الفرنسى وأنزلوه فانسل المقيم المسيو اورمير الى مايوت ليأتى بسفينة حربية وفى هذه الأثناء مات السلطان عبد الله قيل مسموما وقيل مخنوقا . فبايع الماكويون (الزنوج) السيد عثمان أخا عبد الله ، وبايع أهل موتسامودو السيد سالما بن عبد الله ، فهجم الزنوج على البلدة واضطروا سالما والعرب الذين معه أن ينهزموا الى دومونى فسار عثمان خلفهم الى دومونى ونهبها ، وقتل كثيراً من أعيانها ، وقبض على سالم ورهطه وجاء بهم الى موتسامودو . وكان الفرنسيس فى تلك الأثناء أتوا باسطولهم وأنزلوا عساكرهم الى البر ، وسلم سالم الأمر اليهم ، أما عثمان فبقى يقاومهم نحو شهرين الى أن فرغ كل ماعنده فاستسلم اليهم أيضا . فنفى عثمان ونفى سالم معا الى كليدونية الجديدة [١] وأخذت الأسلحة من أيدى الأهالى وجئ بالسيد عمر ، وهو أمير من امراء انجوان خدم سياسة فرنسا كثيرا فى القومور ، وجعل سلطانا فى يوم مشهود سنة ١٨٩١ ، واتحد العلم المثلث الألوان مع علم الهلال والنجمة الانجوانى ، وسنة ١٨٩٢ امضى قبول الحماية تأكيداً لما كان سبق من السلطان عبد الله ، ومات فى تلك السنة وخلفه ابنه السيد محمد ، وفى مدته جعل لسلطنة (!) انجوان وسام اسمه « نجمة أنجوان » وجعلت طوابع بريدية خاصة بانجوان . اهـ .

---

(١) جزيرة فى البحر المحيط من الجزر البولينيزية تنفى اليها فرنسا المجرمين السياسيين

وأما جزيرة محلى فهى مع انجوان أخصب القومور ، وأما مايوت فأرضها بركانية وقد سبق الكلام عليها .

وربما يقال لماذا أطلنا البحث عن جزر صغيرة كهذه ، سكان أكبرها ٥٠ الفا ، وسكان الأخرى ١٥ الفا . وما هى الفائدة من ذلك ؟ والجواب ، ان الذى حدانا الى اطالة البحث عنها انما هو صغرها مع الأدوار التى مرت بها والحكومات التى تأسست فيها ، والسلاطين الذين لم يمنع ضيق بلادهم وقلة عدد رعاياهم من أن يكونوا مستقلين ذوى شأن وأن تكون لهم جنود وقلاع ومدافع ، مما يدلك على ماتبلغه هذه الأمة العربية ، من النفاذ والمضاء ومعالى الهمم فى الصغير من البلدان فضلا عن كبيرها . هذا اذا سلمت من الشقاق والنفاق اللذين هما آفة عزها وسلطانها .

تصحيح وتوضيح

بقلم عالم حضرمى

نحن عندما نقلنا مانقلناه عن ماداغسكر وجزائر القمر انما اعتمدنا على كتب الاوربيين . وهؤلاء كما لايخفى يخبطون كثيراً عندما يخوضون فى المباحث المتعلقة بالشرقيين ولا يأمن الانسان العثار فى النقل عنهم غير انه مما لامرية فيه ان للاوربيين مزية طرق المواضيع الشرقية التى يستجلب طرقها النظر فاذا جاء الموضوع ناقصاً تداولته الناس الواحد بعد الآخر الى أن يسمل . وهذا مالانراه عند الشرقيين الذين يهملون الاماندر ذكر مايعلمون عن أحوال بلادهم

غير ان من الشرقيين من يشذ عن قاعدة الاهمال هذه . فانه لما انتشر كتابنا حاضر العالم الاسلامى ووصل الى بلاد الجاوى اطلع عليه العلامة المؤرخ المدقق السيد محمد بن عبد الرحمن بن شهاب العلوى الحضرمى فى بتاوى فوجد فيما أثرناه عن الافرنج بشأن ماداغسكر وجزائر القمر مايقتضى التصحيح أو التوضيح ونشر فى جريدة « حضرموت » الصادرة فى سورابايا سلسلة مقالات فى غاية الافادة والاجادة اشتملت على معلومات نفيسة عن تلك الجزائر ومن استعمرها من العرب وعن مآثر السادة العلوية الحضارم وراء تلك الأبحر الخضارم وخاض فى تقاسيم فروع تلك الشجرة الزكية وسلسل أنسابها على الوجه الذى يشفى الغليل والذى يدل على سعة اطلاع لايضطلع بها الا القليل فهو كاتب نقاد مدقق مالك لموضوعه

ممتاز بدقة النقل مع سداد المنطق ورجاحة العقل قد سرنا جداً استدراكه على هـذا المقام بما أستدرك به ووعدنا القراء باضافة مقالاته هذه الى الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامى وهانحن أولاء منجزون للوعد قال :

طالعت كتاب حاضر العالم الاسلامى وما عليـه من التعاليق للأمير الـكبير والبحاثة النقاد الشهير ، والبليغ المصقع النحرير شكيب أرسلان . فرأيت فيه فوائد عزيزة . وابحاثا نفيسة ، فنقدم لذلك الأمـير وفير الشكر وعاطر الثناء . ولا ننسى فضـل مترجم الـكتاب عجاج الناهض، فقد قدم لأهل الشرق آراء أهل الغرب فيهم وذلك أمر تهم معرفته ، وقد رأيت فى مواضع من تعاليق الأمير حفظه الله أموراً جديرة بالعناية والتنبيه فأحببت نشرها فى جريدة حضرموت الغراء فأرجو أن تسارع الى نشرها فلعل أن يطلع على ما أ كتبه الأمير شكيب فيجد فيه فائدة يحسن السكوت عليها .

من هم الفاتحون لجزيرة مدغسكر وجزائر القمر

جاءت أسماء هذه الجزائر عند الأمير شكيب هكذا (انجزيجه ، انجوان ، او انزوان مهلى) وهى فى شجرات الانساب عندنا وعلى ألسنة العرب بافريقية الشرقية هكذا (جزائر القمر وهنزوان ، وانقيزجه ومولاى) وقد نقل الأمير عافاه الله فى تاريخ هذه الجزائر كلاماً طويلا عن مؤرخى الافرنج من صفحة ٣٦٦ الى صفحة ٣٩٩ من الجزء الأول بالحرف الصغير وتكرر فيما نقله عنهم ذكر الأشراف وأسماء بعض سلاطينها ، وأصل تلك العائلة التى فتحتها ونشرت الاسلام فيهـا ، فمرة يقولون انه محمد بن عيسى من شيراز ، ومرة يقولون انه أحد أولاد محمد بن عيسى وانه بعد استيلائه على جزيرة القمر الـكبرى أرسل ولده حسن بن محمد فاحتل بشرذمة من الشيرازيين مواضع أخرى ، وجاء فى كلامهم ذكر السلطان السيد على ابن السلطان السـيد عمر ، وأبوه السيد عمر ، كان سلطانا على زنجبار والسلطان محمد بن حسن والشيخ سالم واحـد بن سالم وعمه علوى وعبد الله الأول ، وعلوى بن عبد الله وعبد الله بن سالم الملقب بالـكبير ، وعلوى حسينى الى غير ذلك مع خبط وظنون لا يتحصل المطالع منها على حقيقة ، مما يدل على أن أولئك المؤرخين قد أخذوا ما كتبوه عمن يجهل انساب أولئك السلاطين وأصولهم كل الجهل .

وقد يدهش المطلع منا اذا رأى ذلك وهو يعلم أن أولئك السلاطين الفاتحين انما كانوا

من السادة العلويين الحسينيين الحضرميين المعروفة انسابهم وأسماؤهم وأخبارهم وأنباؤهم والمتضمنة شجرات أنساب السادة العلويين لأسمائهم فرداً فرداً . ويعجب كيف يستحيل التاريخ وتنطمس الحقائق اذا أهملها أهلها وأغفلها وعاتها ودراتها وشوهها نقلتها ورواتها .

أما الأمير شكيب فهو مشكور ومعذور والأ فبأى وسيلة يتأتى له الحصول على الحقيقة من أخبار تلك الأطراف النائية والأقطار الشاسعة وليس لها تواريخ منشورة ، ولا آثار مأثورة ، ومن أين يمكنه الاطلاع على تواريخ السادة العلويين الحضرميين وتنقلاتهم وهم من أقصى حجر باليمن بالبلاد الحضرمية التى يرحل منها ولا يرحل اليها ، والتى عرف أهلها باضاعة أخبار اوليهم ومناقب أهليهم وتعفية آثارهم ونسيان ديارهم ، وكيف لا نعذره على عدم اطلاعه على أخبار أهل هذا القطر البعيد وقد شكى انقطاع أخبار أهله أبو الفرج الاصبهانى على شدة تنقيبه عن أخبار العلويين وميله اليهم . فانه قال فى كتابه مقاتل الطالبيين « على أنا لا ننفى أن يكون الشئ من أخبار المتأخرين منهم فاتنا ولم يقع علينا لتفرقهم فى أقاصى المشرق والمغرب ، وحلولهم فى نائى الأطراف وشاسع المحال ، التى يتعذر استعلام أخبارهم فيها ومعرفة قصصهم لاستيطانهم إياها سيما مع قصور زماننا وأهله وخلوه واياهم من مدون لخبر أو ناقل لأثر ، كما كان المتقدمون قبلهم يدونون ويصنفون وينظمون ويرصفون » وقال فى آخر كتابه أيضاً « على أن بنواحى اليمن فى هذا الوقت وبنواحى طبرستان جماعة من آل أبى طالب (ع) قد ملكوها وغلبوا عليها الا أن أخبارهم منقطعة عنا لقلة من ينقلها الينا بل لعدمهم وفقدانهم وما ننفى من أن يكون لهم أخبار قد فاتتنا ولم نقدر على علمها » اهـ فهذا قول أبى الفرج فى زمانه فكيف بزماننا وكيف لا يعذر الأمير شكيب أرسلان وعذره أوضح وأوضح .

ذكر البطون العلوية المستوطنة بإفريقية

الشرقية والجزائر القمرية

أقدم قبل بسط القول فى ذلك تعديد البطون العلوية الحسينية الحضرمية الساكنة بتلك الديار ومنها كان سلاطين القمر مع الاشارة الى مراجع أنسابها فأقول : يوجد بتلك الجهات منهم ثلاثة عشر بطناً وان شئت قلت فخذاً .

الفخذ الأول يرجع نسبه الى أبى بكر بن احمد بن الحسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى الحسينى بافريقية الشرقية .

الفخذ الثانى يرجع نسبه الى محمد بن سالم المهاجر بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بيته من جزائر القمر .

الفخذ الثالث يرجع نسبه الى صالح بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بهنزوان و بته .

الفخذ الرابع يرجع نسبه الى محمد المجذوب ابن الشيخ على بن أبى بكر السكران العلوى الحسينى بيته وسيوى وزنجبار ، وسلاطين سيع من أرض الملايو أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن عمر بن حسن ابن الشيخ على المذكور .

الفخذ الخامس يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن ابراهيم ابن الامام عبد الرحمن السقاف العلوى الحسينى بالقمر بهنزوان .

الفخذ السادس يرجع نسبه الى شيخان بن الحسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى الحسينى بافريقية الشرقية

الفخذ السابع يرجع نسبه الى محمد بن علوى بن عبد الله بن على بن عبد الله باعلوى الحسينى وهم الفخذ المعروفون بآل المسيلة بافريقية الشرقة بيته ومولاى (مهلى) .

الفخذ الثامن يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن احمد بن عبد الله ابن الشيخ محمد الشهير بجمل الليل باحسن العلوى الحسينى المتوفى سنة ٨٤٥ بافريقية الشرقية وبالقمر وفى (آشى) أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن احمد بن عبد الله بن الشيخ محمد المذكور

الفخذ التاسع يرجع نسبه الى أحمد بن عبد الله باحسن بن محمد بن سالم بن احمد ابن عبد الرحمن بن على بن محمد جمل الليل بافريقية الشرقية وبملاكة (ملقا) من أرض الملايو ، أبناء عمهم المعروفون بآل القدرى ذرية محمد القدرى ابن سالم بن عبد الله باحسن المذكور .

الفخذ العاشر يرجع نسبه الى محمد جد آل باحسن الحديلى بن حسن الطويل بن محمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه بالقمر .

الفخذ الحادى عشر يرجع نسبه الى حسين بن عبد الله الأعين النساخ بافقيه بن محمد عيديد بن على صاحب الحوطة بن محمد بن عبد الله بن احمد المذكور بالقمر ، بمولاى

(مهلى) . — الفخذ الثانى عشر يرجع نسبه الى عبد الله بن على بن محمد عيديد بن على صاحب الحوطة الخ ما تقدم فى نسب الفخذ الذى قبله بافريقية الشرقية .

الفخذ الثالث عشر يرجع نسبه الى محمد سميط بن على الشنهزى بن عبد الرحمن بن احمد بن علوى عم الفقيه بزنجبار .

فهذه ثلاثة عشر بطناً يرجع نسب أربعة بطون منها الى عم الفقيه وبقيتها الى الفقيه محمد بن على . وهما أعنى الفقيه وعمه مرجعا جميع أفخاذ السادة العلويين وقد بلغ عددها مائة وتسعة وتسعين فخذاً فسكان البادية منهم الذين يعانون حمل السلاح يبلغون ثمانية عشر فخذاً أو يزيدون ، والباقون متحضرون ، ويجتمع نسب الكل على سيدنا محمد صاحب مرباط ابن على خالع قسم بن علوى بن محمد بن علوى بن عبيد الله بن المهاجر الى الله احمد[1] ابن عيسى بن محمد النقيب بن على العريض بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على الوصى المرتضى أخو رسول الله وابن عمه صلوات الله عليهم أجمعين .

عتاب موجع

لا باس أن يقف قلمى برهة قبل انجاز الكلام على سلاطين جزائر القمر لعتاب اخواننا العلويين اذ يقول القائل لماذا لم تنشر مناقب أولئك الأبطال الذين فتحوا تلك الجزائر البعيدة ونشروا فيها الاسلام وشادوا فيها المساجد و بنوا المعاقل و بسطوا لأهلها بسط العدل ؟

فنقول له ولماذا لم تنشر آثار بقية أفخادهم التى انتشرت فى الشرق فان فخائذ السادة العلويين كما سبق قد بلغت فى وقت ما مائة وتسعة وتسعين فخذا وقد أحصى عددهم منذ نحو خمسمائة سنة فكان عشرة آلاف نفس ، وقد أضاع اخلافهم آثار اسلافهم . فان أنكرت قولى هذا أيها القارئ واستكبرته وعددته شينا وعيبا . فارنى أى شئ نشر من أخبار وآثار من نزل منهم الديار الهندية فى سالف الدهر كالذين نزلوا

(١) أول من هاجر من البصرة الى حضرموت

أحمد اباد ، وسورت ، وبروج ، حيدراباد الدكن ، وبيجافور ، وكنور وقزرات ودلى وبرودة ومان كيسر وكاليكوت وبلقام وبنقراباد ومليبار وبنقاله ، ألم تعلم ان أول داخل منهم الى البلاد الهندية دخلها سنة ٦١٧. فلماذا لم تنشر أخبارهم مع ملوك الهند العظام ووزرائها الكبار ، وما كان لهم من الجاه والمنزلة عندهم وما لهم من الآثار والنفع العام ، ومن أصهر اليهم من السلاطين كالسلطان شاه جهان والسلطان ابراهيم عادل شاه وابنه السلطان محمود بن السلطان ابراهيم عادل شاه والسلطان حبش خان والسلطان فتح خان ، والسلطان برهان نظام شاه ، وكيف حملوا السلطان ابراهيم عادل شاه على أن يلبس لباس العرب . ومن اتصلوا به من الوزراء كالوزير عنبر قبل أن يصير ملكا وبعد تملكه ، ووزير أحمد اباد الأعظم عماد الملك وغيرهما .

ولماذا لم تنشر أخبار أول من دخل آشى منهم فى خلال القرن التاسع اعنى منذ أربعة قرون تقريبا فاكرمته سلطانة آشى فى ذلك الحين وزوجه بعض وزرائها ابنته فاقام هناك واعقب بها . وهو السيد أحمد بن محمد بن أبى بكر الشلى ، بل لعلهم دخلوها قبل ذلك ، وكالسيد أبى بكر بن حسين المتوفى بها سنة الالف وكالسيد محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن علوى الشاطرى الذى أزال ما انتشر بآشى على عهده من القول بالتشبيه دخلها فى أوائل القرن الحادى عشر، وفى ذلك التاريخ دخل جاوى السيد على بن عمر بن على باعمر فنشر بها الدعوة الدينية والعلم الاسلامى ، ولو نشر مثل هذا لما كنا نرى تخبط المتخبطين من مؤرخى الأفرنج فى أول من دخل البلاد الجاوية واسلم أهلها على يديه .

فهل تحسب ان السيد ابراهيم المقبور بقرسى والذى أسلم على يديه أهل جاوى كان من غير العلويين ؟ كلا .

لو نشرت لنا الاصول الأولى من شجرات انساب العلويين لا ستدللنا منها على شئ كثير ، ولكن مما يؤسف له انهم اكتفوا فى الشجرات المتداولة بالنقول عن تلك الاصول ولم يعبأوا بذكر من لم تتصل بهم أخباره من النائين فى الأقطار البعيدة ، فان اصل شجرة النسب التى الفها أبو الحسن على بن أبى بكر بن الشيخ السقاف المسماة بالجواهر السنية فى نسبة العترة الحسينية والتى جمعها ونقحها من بعده السيد على بن أحمد بن على بن حسن

أبو جبهات والتى جمعها وحررها وهذبها تاج العارفين زين العابدين العيدروس ، نعم ان الشجرة التى حررها من قبلهما سيدنا شيخ بن عبد الله العيدروس كان يظن انها مفقودة . ولكن قد ظفر الشهم الغيور السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف منها بنسخة ثمينة وجدها فى خزائن السادة العيدروسيين العلويين بالهند ، وفيها ذكر لكثير ممن انتقل عن الجهة الحضرمية من السادة وتديَّر غيرها من البلدان .

ألم تعلم أن بطناً عظيما منهم قد انتشر فى البلاد الهندية منذ سبعة قرون فلم تحتو الشجرات المتعددة على تفصيل أفخاذهم وتسلسل ذريتهم لقدم رحلتهم عن البلاد الحضرمية . وانقطاع أخبارهم وهم بنو عبد الملك بن علوى بن عم الفقيه المتوفى سنة ٦١٣ وغاية ما حفظته لنا الشجرات عن ذرية عبد الملك هذا قولها ان لها عقباً منتشراً بالهند يعرفون بآل عظمت خان معروفين بالشجاعة ، ميالين الى التجند والعسكرية فلم لا يكون السيد ابراهيم منهم

ان أسلافنا قد تفننوا فى ضبط أنسابهم حتى جعلوا للألقاب شجرة خاصة ، وللامهات شجرة خاصة ، وهكذا ولكنهم ما كانوا يميلون الى التنويه بما لهم من الأعمال فى البلاد التى يرحلون اليها وينشرون الدعوة الاسلامية بها ، ميلا منهم الى التواضع وكسر النفس وعدم الرضا عنها ولكنا قد احتجنا اليوم الى ذكرها ونشرها لما يعلم المنصف الخبير ، ولو ترك القطا ليلا لنامَ .

فمن المطالب والمخاطب بنشر ما بقى بأيدينا من المناقب والاعمال العظيمة ونسخ ما غفلت عنه أيدى الضياع من تواريخهم وطبقاتهم وتحريره وطبعه ونشره ؟

المطالب بذلك أغنياؤنا ولكن أين هم ؟ ! ان الاهمال والاضاعة قد بلغ عندنا مبلغا يفوق حد التصديق فان للسيد أحمد بن عبد الله الشهير بشنبل تاريخا مفيداً فى بابه ألفه فى حدود التسعمائة فهل تحس منه من خبر أو تسمع له ركزاً .

وللسيد عمر بن محمد باشيبان تاريخ لعل أكثر خزائن اخواننا خلية منه ولكنه موجود بخزانة لندن قد نقلته أيدى الاهمال والضياع الى تلك البقاع .

وللوجيه الشيخ عبد الرحمن بن على بن حسان ثلاثة تواريخ أكبر وأوسط وأصغر فاسأل عنها ان أردت أن تتحقق أين بلغت السِّنة والنوم من اخواننا .

وأين تاريخ باعيسى وتاريخ باز رعه وتاريخ أبي شكيل المسعودى . وتاريخ الطيب بافقيه وتاريخ الطيب بامخرمه الى آخر ما يطول عده منها الخاص بالعلويين الحضرميين ، ومنها العام وفيه من ذكرهم الكثير الطيب فهل اعتنى بها أحد منا أو استنسخها أو لخصها كلا .

انما يفتخر أغنياؤنا اليوم باوتومبيل يقتنيها أحدهم ويبذل الألوف فيها . قد أفنى فيها عمره وجعلها فخره ، أو ببيت يشيده أو ملهى يشهده ، أو امرأة يتزوجها وهم يفتخرون بالمنع والبخل كما يفتخر الكرام بالعطاء والبذل .

فان قال قائل ان هذه التواريخ النافعة كانت موجودة ولكن جاءتها الكارثة العظمى وهو دخول الوهابيين الى تريم سنة ١٢٢٢ فقد جاءوا الى خزائنها المشحونة بنفائس كتب التفسير والسنة والفقه والتاريخ فطموا بها الآبار جفاءً وغلظة وبداوة وغباوة . ولقد أتلفوا من بيت واحد اثنتى عشرة خزانة ومن آخر ست خزائن الى غيرذلك مما يطول عده كما فعلوا ذلك باليمن حينما دخلوها ، قلنا هذا صحيح ولكن هل تداركنا ما فاتنا واستنسخنا ما فقد منها من أيدينا وهو لا يزال فى أقطار أخرى كخزائن العيدروسيين بسورة وبيجافور وغيرها وكالموجود باليمن وعدن ؟ كلا .

لقد أراد بعض اخواننا استنساخ تاريخ القاضى أبى شكيل المسعودى فوجده بصنعاء فاستنسخه من هناك فما رأيك فى تاريخ حضرمى لا يوجد بحضرموت .

دع هذا وارجع بى الى العلويين الموجودين اليوم فى الاقطار المتباعدة ألا يحسن أن يكون بينهم نوع ارتباط وتعاون ومساعدة ، فهل فكر وسعى فى ذلك أحد من علمائنا أو وجهائنا وأغنيائنا ، وما هى المعلومات التى بأيدينا عن اخواننا المتفرقين فى قطر اليمن وهو أقرب الأقطار الينا كالموجودين منهم بحوطة الفقيه على ، ويبعث ، وحبان ، ويشبم وأحور ، وعياذ وانصاب ومرخة ، وحورة ، وردمان ، والسوادية وبلاد الرصاص ، والبيضاء ويافع وبيحان ورداع وابين والجرا وتعز والمكله [1] والحديدة وبيت الفقيه وبلاد الدريهمى وزبيد والحجرية ونخلة وأبى عريش وحيس والليث والقنفذة ورباط اليمن ورباط الصفا وخنفرا بين ودثينة وغير ذلك مما لا يتسع له هذا المحل .

---

(١) من أرض اليمن وهى غير المكلا المشهورة

سبحان الله ! لماذا نذهب الى اليمن وهنا أمر أقرب من ذلك ، هؤلاء اخواننا أهل البادية حمال السلاح والمعروفون بالشجاعة والحماسة والذين لن نستغنى عنهم يوما ما . فهل أرسلنا اليهم عالما أو مذكراً أو واعظاً وهل عقدنا بينهم عقداً أو جددنا عهداً أو أسسنا وداً ، وهل واسيناهم ولو مرة واحدة بشىء من الاموال التى تذهب جزافا فيما يرضى النساء والسفهاء . و يغضب جبار السماء وماذا نعرف من حال افخاذهم ورجالهم واعدادهم ؟

منهم بيت سهل و بيت حمودة و بيت مشائخ و بيت قرموص و بيت الكهالى و بيت عقيل و بيت الخشش و بيت محسن و بيت الاخسف و بيت كدحوم وآل البحرى و بيت مسلمة وآل الحكم ، و بيت رزينة و بيت هبارين و بيت الدحه و بيت الهادى .

وماذا نعرف من اخواننا بحول ، وعياذ ، وخورة ، ومرخة ، وهم الشجعان الذين فاقوا أسود خفا وعثر وزادوا على من يليهم شجاعة وفتوة وانوف حمية .

ذكر الامير شكيب عافاه الله فى صفحة ٣٤٢ من الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامى فصلا طويلا عن مسلمى الحبشة والجهاد الذى قام به الامام المجاهد الغازى أحمد بن ابراهيم مما تقرُّ به العيون ، جاء فيه انه منقول عن تاريخ عرب فقيه[٢] وتردد فيه ذكر الاشراف والمهرة من الغزاة وهم من العلويين لا محالة ، فأين الذى بيدنا من أخبارهم وماذا نعرف عن اخواننا القاطنين بالحبشة وسواحلها كزيلع وغيرها ومن بهرر وكيلاد وقلب وبوش .

* * *

ذكر عافاه الله فى صفحة ٣٤٣ ج ١ دخول الأشراف فى الصلح بين السلطان أبى بكر ابن محمد من آل سعد الدين الغزاة المجاهدين و بين الغازى المجاهد الامام أحمد بن ابراهيم جران ، وذكر فى صفحة ٣٥٣ منه ان الامام أحمد الغازى جمع الأشراف والعرب والمغاربة ، وذكر فى صفحة ٣٥٤ جلوسه لمرض الشريف أحمد القديمى وفى صفحة ٣٦١ منه انه عزل الشريف نور عن ذخنو الخ كما انه ذكر الشريف أبا بكر العيدروس فى صفحة ٣٤٣ منه.

فهذا كله يدل على مشاركة السادة العلويين و بنى عمهم من بنى قديم فى ذلك الجهاد . وعلى انتشارهم فى تلك النواحى فى ذلك العهد وقد أضيعت أعمالهم وأهمل ذكرها كما أضيع

(٢) لعله بافقيه السيد الطيب أو غيره

غيرها وان كان يوجد فى شجرات أنسابهم ذكر عدد ليس بالقليل ممن كانوا بها أو استشهدوا هناك ، وهاك من ذلك ماتيسر ، ذكروا منهم السيد أبا بكر بن علوى خرد توفى بالحبشة سنة ٨٩٥ والسيد على بن عبدالرحمن المنفر وكان سيدا جليلا سريا ناسكا صالحا توفى بدوار من أرض الحبشة سنة ٩١٥ وقبر بجانب المجاهد محمد مرزوق وقبره بها مشهور ، والسيد عمر بن أحمد بن علوى من آل عبدالله بن علوى قتل شهيداً ببر سعد الدين ، وأحمد بابريك العلوى توفى بزيلع فى الطاعون ، وابنه أحمد وعمه عبدالرحمن بن على ، وممن كان بهرر فى ذلك العصر نور بن عقيل بن علوى بن على من آل عبدالله باعلوى وقالوا فى جده على انه كان وليا صالحا فاضلا له الجاه الواسع ، والصيت الشاسع . وانه توفى بهرر سنة ١٠٢٣ والسيد أبا بكر بن عقيل من آل الشلى قتل شهيداً باوسه وأخاه اسماعيل أيضاً وأخاهما عبد الله ببر سعد الدين ، وعمهما توفى به أيضا ، وذكروا أيضاً السيدين عبد الرحمن وعمر ابنى حسن بروم العلوى توفيا بالطاعون الكبير فى الحبشة الذى مات فيه عشرة آلاف ومن السادة عشرون رجلا ، وكان ذلك سنة ٩١٧ وهو غير الطاعون الصغير الكائن فى حدود سنة ٩٤٠ .

وهذا ذكره الأمير شكيب فى صفحة ٣٦١ من الجزء الأول ، وقد ترجم للسيد عبد الرحمن المذكور فى السنا الباهر تاريخ أهل القرن العاشر ، والسيد محمد بن عمر الشاطرى العلوى توفى بزيلع سنة ٩٧٤ وممن كان من آل الشاطرى بها على عهده أبو بكر بن محمد الشاطرى وأخوه على العلويان والسيد المجاهد محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عبد الله السقاف العلوى ووالده أحمد توفى بالحبشة سنة ٩١٦ واعقب بها وحفيده المجاهد أبو بكر بن علوى ابن أحمد المذكور توفى بعده سنة ٩٥٥ وأخواه عمر وعثمان بالحبشة ، ومن هذه العائلة أيضاً ممن كان بالحبشة فى ذلك الوقت السيد عبد الوهاب بن عبدالله السقاف وبنوه عبدالله ومحمد ونور واعقب منهم محمد بها ، والسيد عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين توفى بقلب بالحبشة سنة ٩٤٠ وله عقب هناك ، والسيد محمد بن عبد الله بن حسن بن عبد الله السقاف العلوى وبنوه عبدالرحمن وعامر وحسن وعبدالله وقد توفى أخوهم الخامس على بن محمد بتريم سنة ٩٧٦ ، ومنهم عم السيد محمد المذكور السيد محمد بن حسن وبنوه عمر وعبد الرحمن وعبد الله وأخوه السيد عقيل بن حسن توفى بقلب بالحبشة وعقبه بها وكان من الأسخياء والسيد

عبدالرحمن القارى وأخوه أحمد أبناء ابراهيم بن عبدالله السقاف العلوى والأول منهما توفى ببالى بالحبشة سنة ٩٤٢ ، ومن عائلة آل شيخ بن عبد الله المثنى بن عبد الله بن السقاف العلوى السادة محمد وشيخ وخلف بنوعلى بن شيخ بن عبدالله المثنى وجدهم شيخ المذكور ومن عائلة آل عبدالله بن محمد بن مولى الدويلة العلوى السيد سالم بن على بن عبد الله توفى بهرر سنة ٩٧٩ ، وعائلة آل حسن الورع بن محمد مولى الدويلة العلوى عبدالله بن محمد بن عبدالله وجده السيد عبدالله بن عمر الهندوان توفى ببر سعد الدين بقلب سنة ٩١٦ ، ومن عائلة آل باعبود مولى الدويلة العلوى أبو بكر ومحمد وشيخ وأبوهم عبد الرحمن توفى شهيدا بالطاعون بها سنة ٩١٧ والسيد على بن أبى بكر بن عبدالرحمن باعبود العلوى توفى ببرسعد الدين سنة ٩٤٢ ، ومن عائلة آل شيخ بن اسمعيل بن ابراهيم بن السقاف العلوى عدة منهم أبو بكر بن ابراهيم بن أبى بكر البيتى كانت وفاة جده أبى بكر سنة ٩٠٥ ، ومن عائلة آل حسين بن السقاف السادة حسين وعلوى ابنى أحمد بن حسين بن السقاف وعمر بن حسين بن محمد توفى سنة ٩١٥ وحسن بن عمر قتل بها سنة ٩١٥ وعبد الله بن سليمان و بنوه حسن وسليمان وعلى ونور وحفدته وهم عدة ، ومن عائلة آل محمد بن السقاف العلوى عبد الرحمن ابن على وأبوه على بن عبدالرحمن و بالجملة فغير هؤلاء كثيرون يضيق بهم نطاق التعديد.

فهل حفظ أحد منا تاريخ هؤلاء الأبطال ؟ دع ذا وقل لى هل حفظناهم فى أعقابهم فعرفناهم بنا و بأنفسهم وحفظنا أنسابهم كلا وحاشا ، انما يقوم بذلك أهل الغيرة والحمية وقد فقد أهلها اليوم ، ولو رحل أحد من هؤلاء المتفرقين فى الأقطار البعيدة وساعدته الفرص فوصل الى (تريم) هل تظن أنه يقدر على اثبات نسبه ؟ لا . لأن الحفظة على الشجرات لايقبلون كلامه حتى يأتى بجملة من أهل بلده يشهدون له و يأتى بقرائن تثبت مدعاه ، ومتى يتيسر ذلك له فلا هو يقدر على ما يطالبونه به ولاهم يحيدون عن القواعد التى هم ملتزموها ، وانى يتيسر ذلك لأهل القمر وهنزوان تلك الجزائر النازحة فلا غرو أن تندرس أنسابهم وتضيع أعقابهم .

وماظنك بهذه الجنود المجندة المتفرقين فى جزائر الشرق فى سيليبس و برنيو وسومترا وجاوى وملقا (ملاكه) وآشى وقد دخل بعضهم منذ أربعة قرون ، ومنهم من لم يكتب اسمه ولا اسم أبيه ولاجده فى الشجرات الى اليوم .

وانى لأعرف قبيلة مشهورة فيها بيت ذوثروة عظيمة وهم لايزالون متصلين ببلادهم الحضرمية لم تكتب أسماؤهم ولااسم أبيهم فى الشجرات الى اليوم . ولوعلموا ذلك لانزعجوا ولكنهم لايعلمون بل يوجد كثير ممن بالبلدان الحضرمية التى تبعد عن تريم بثلاثة أيام أو أربعة لم يكتبوا واذا دام الحال لا يبعد أن يتعذر تقييد أنسابهم فيما بعد فلابد من المبادرة مادام العهد قريباً والشواهد بينة .

والعبرة ظاهرة فيما وقع منذ ٣٥ سنة أو نحوها فى مسئلة آل ابن ناصر وابن شيخان والضوضاء التى قامت حول ميراث بعض المنقرضين منهم بمكة .

ولا حيلة لضبط ذلك الا انتداب جماعة من أذكياء السادة للرحلة والطواف فى سائر البلاد الجاوية والهندية وافريقية واليمن وغيرها لهذا الأمر المهم ولتلافيه قبل فوات وقته . وبهذه المناسبة أقول ان من أعظم الناس منة على السادة العلويين الحضرميين سلطان المغرب الأقصى الادريسى اذ أرسل فى أواخر القرن الحادى عشر مائة ألف ريال لتقسم بينهم بالسوية والحق بها الشريف سرور أمير مكة ستين الفا فانتدب السيد الغيور الهمام الرحالة على بن شيخ بن شهاب الدين لجاب الأقطار واحتمل الاخطار ليقيد أسماءهم ويحفظ أنسابهم ففعل جزاه الله خير الجزاء فكانت هذه الصلة المادية سببا لتلك الفائدة الأدبية الكبرى .

فهل تظن أن الأغنياء من اخواننا العلويين التى تعد ثروتهم بالملايين ومئات الألوف ينتدبون فيفعلوا كما فعل سلطان المغرب ؟ لك أن تظن بهم أيها القارئ ماشئت أما أنا فلا أظن وهم أضعف أخلاقا وأقل توفيقاً من أن يحظوا بهذه المكرمة الجليلة .

العود الى الكلام على سلاطين القمر وهنزوان

نقدم اشارة لطيفة الى الحالة العامة فى ذلك القرن الذى كان فيه رحيل تلك العائلة العلوية الحضرمية الى تلك الأقطار والقرن الذى قبله .

الحضرمى حِلْفُ اسفار وركّاب اخطار وأبعد الناس منتوى وأقصاهم رحلة وقد كان ذلك شأن الحضارمة من قبل التاريخ حتى لقد ظن كثير من المؤرخين كالمؤرخ (جمس هنرى بريستيد) ان سكان مصر القدماء ومؤسسى الحضارة فيها و بعض أهل افريقية الشمالية انما جاءوا من تلك البلاد وما جاورها ، ومن نظر فى الفتوحات الاسلامية رأى انهم كانوا

فى مقدمة النازحين الى الفتوحات البعيدة عن بلادهم فكان سدس الجيش الذى فتح الاسكندرية من المهرة وفيه كثير من التجيبيين والصدفيين كما انه قد دخل الأندلس كثير منهم بَلْهَ من تديَّر العراق والشام ، فهم أشهر من أن يشار اليهم ، فلما نزل السادة العلويون بنو أحمد بن عيسى المهاجر بين ظهرانيهم أخذوا إخذهم بل اناروا لهم السبل فى غرباتهم ووطأوا لهم المسالك الوعرة وسبقوهم فى ذلك سبقاً بينا وقد ساعدهم على ذلك أمور منها مايحصل لهم فى كل بلاد وطئوها من الجاه والاجلال لمكان أهلهم وسلفهم الطاهر ومنها كثرة العلماء منهم بالعلوم الاسلامية فحيثما وقعوا نفعوا ، ومنها تفوقهم فى سبيل الدعوة الى الله والى دينه ومنها لطف اخلاقهم وغلبة آداب التصوف عليهم فهم الين أخلاقاً واسمى تربية ، واذا نظرت الى قديمهم رأيت ان قريشاً عامة كانوا ذوى رحلة وأسفار وقد قص الله ذلك علينا وامتن به فى القرآن العزيز ، وكان هاشم بن عبد مناف هو الذى أخذ الايلاف أى العهد والأمان لقريش وكان رجلا كثير الأسفار ، قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الايلاف وأجاز لها العيرات لهاشم والله ما شدت قريش رحالا ولا حبلا بسفر ولا أناخت بعيرا لحضر الا بهاشم ، والله ان أول من سقى بمكة ماءً عذبا وجعل باب الكعبة ذهبا لعبدالمطلب ، فاجتمع لهؤلاء السادة ما ورثوه من آبائهم وما أخذوه من جيرانهم وقد مضى لهم اليوم منذ سكنوا البلاد الحضرمية مايزيد على أحد عشر قرنا ولا نعلم أحدا من القبائل الموجودة اليوم بحضرموت أقدم سكنى بها منهم الا نحو أربع أو خمس قبائل ، وانك لتجد من بعض ذوى الطيش والنزق من الحضارمة من يظن أنه أقدم استيطانا بها منهم ويبنى على ذلك مالانحب ذكره ، ولو حقق تاريخه لرأى انه هو الطارئ الدخيل ولا نحب أن نمثل لذلك فى جريدة سيارة ولكن التاريخ لاينسى .

وقد كان أكثر الحضارمة فى أول ماقدم سيدنا المهاجر الى الله أحمد بن عيسى منعزلين عن العالم الاسلامى لمكان مذهبهم الشاذ الا قليلا منهم ، والحضرمى لابد له من رحلة وسفر فكان أهل الجماعة منهم يرحلون الى اليمن والعراق والشام ومصر ومنهم آل التنعى الذين اوعبوا كلهم الى البصرة وكان الآخرون يرحلون الى جهات افريقية الشمالية والى برقة وقابس وبودّان منهم جمع غفير وكانت لهم قرية تسمى بوصى ، فلما اتحد المذهب الحضرمى وذهب الخلاف عادوا يرحلون الى العالم الاسلامى الى الهند وافريقية الشرقية

والجزائر الملايوية والجاوية وكان السادة الحضارمة فى مقدمتهم .

وقد كان فى أوائل القرن العاشر زمن حرب وسلب، وأمور كثيرة تقتضى نزوح الحضرمى عن بلاده متلبسا لباس المكافحة والمناضلة . وكانت الروح الحربية شائعة فيهم اذ ذاك وكانت البلاد الحضرمية منقسمة قسمين يتنازع السلطان فيها قبيلان مشهوران وكانت المهاجات بينهما مستمرة وكان أحد القبيلين يتلقى المدد من الأمير التركى بتهامة ، والثانى منهما يتلقاه من امام اليمن ، وانقسمت قبائل حضرموت الى فرقتين فرقة تشايع هذا وفرقة تشايع ذاك ودامت الحال كذلك نحو مائة وعشرين سنة وانتهت بخروج جيش امام اليمن سنة ١٠٦٩ فاصلح بين ذينك القبيلين وحدّ لهما حدوداً وأبقى كلا منهما على ملكه.

وكان البرتغال قد أخذوا يهاجون السواحل الحضرمية فى أوائل القرن العاشر وكانت أساطيلهم تمخر البحر من سواحل الهند الى سواحل افريقية الى ساحل حضرموت . وهذا البحر هو مضطرب الحضرمى فكانت سفن الحضارمة والمهرة كثيراً ماتصادفها سفن البرتغال ويقوم بينهم القتال الشديد فتمرن الحضارمة على قتال البحر واذا انذر أهل الشحر (ساحل حضرموت) بأساطيل البرتغال أرسلوا الصريخ الى داخلية البلاد فكان أهل الفقه والعلم يتسابقون للقيام بفريضة الجهاد وتتبعهم العامة فتجتمع منهم الجموع هناك ترابط حتى تنصرف أساطيل العدو .

وفى شجرات أنساب العلويين ذكر عدد منهم ممن أسرهم الافرنج أو قتلوهم فى البحر فحازوا مرتبه الشهادة العلية .

وقد زاد فى حمية الحضارمة القتال القائم ببر سعد الدين والحبشة وفيه كثير منهم ، وكانت أخباره ترد تباعا الى حضرموت حتى كان السيد محمد بن الطيب بافقيه العلوى الشحرى يأتى بها مشروحة يوما فيوما فى تاريخه .

وقد زاد فى ضيق خناقهم القحط الواقع فى سنة ٩٤٥ حتى أكلوا الجلود . والسيول العظيمة التى وقعت سنة ٩٣٩ فانها اتلفت نخيلهم وأرضهم حتى لم يبق منها الا القليل واضرت بالجهات الجنوبية الغربية من حضرموت ضرراً بليغاً .

فزادت هذه الحوادث الحضرمى اذ ذاك محبة فى الرحلة والضرب فى البلاد و بغضا فى البرتغال الذين يقطعون عليه طريقه فعزم على مناوأتهم ومطاردتهم فكان لايسمع بمناوىء لهم

الا وانضم اليه ولا يحل ببلاد الا وشحنها بغضا لهم ، وقد كان للعمانيين فى ذاك القدح المعلى ولكن كان عملهم فى افريقية الشرقية متأخرا عن عمل الحضارمة بنحو ثمانين سنة فلما ابتدأوا فى العمل كان من جملة جنودهم كثير من أهل حضرموت .

وكان عدد العرب بافريقية لذلك العهد كثيراً وكانوا تجاراً قلما يتعرضون للامور السياسية حتى أهاجهم البرتغاليون بعسفهم وظلمهم ، وكان العرب على اتصال ببلادهم وأخبارها ترد اليهم فى سفنهم الأنباء بأفعال البرتغال فى بحر العرب فكان ذلك مما يزيد فى نقمتهم عليهم وتسبب عن ذلك قيام أهالى زنجبار عليهم سنة ١١١٠ فطردوهم منها وهاجت عليهم افريقية الشرقية وجزائر القمر واتصلت بينهم حروب زعزعوا بها مركزهم فلم يستقروا الا بسفالة وما والاها . وكان العرب هناك فى مقدمة الثائرين بل كانوا كثيراً مايتولون قيادتهم .

أما العمانيون فقد تولوا زنجبار سنة ١١٩٩

* * *

مما فاتنى التنبيه عليه امتياز العائلة المعروفة بآل ابن حسن من السادة العلويين ببعد الهمة ونفاذ العزمة ، والاستشراف الى تنفيذ الشرع الاسلامى وجمع الناس عليه ، والتوسل اليه بايجاد القوة المنفذة وأعنى بهم المنتسبين الى سيدنا حسن بن الشيخ على بن أبى بكر فان بنى محمد المجذوب بن حسن هم أكثر الانخاذ الموجودة بجزائر القمر بيته وسيوى وبزنجبار أيضا ، وقد ذكرناهم و بنى أعمامهم بنى عمر بن حسن هم الذين قد دخلت سومطره سيطرتهم وهم سلاطين سيك وهم المعرفون الآن بآل شهاب الدين (سيع) الى اليوم وان منهم دويلة صغيرة فى (فرليس) فى حماية سيام ، وان ملوك فنتيانق (فنتيانه) من آل القدرى العلويين يعود نسبهم الى سيدنا محمد جمل الدين بن حسن المعلم بن أسد الله وقد ذكرنا اخوانهم بافريقية ، ومنهم نخذ بآشى وآخر بمقدشوه ، ومن سلاطين فنتيانق (فنتيانه) من آل القدرى السيد عبد الرحمن (المتوفى سنة ١٢٣١) بن حسين بن احمد بن حسين بن محمد القدرى المتوفى بتريم سنة ١١٧٩ وقد تقدم بقية نسبهم ، وأما ابنه أبو بكر فتوفى بفنتيانق سنة ١٢٧٧ وفى تلك السنة أيضا توفى أخوه عثمان بن عبد الرحمن ولهما عقب وقد بلغ عدد آل القدرى بفنتيانق آلافاً وانقطعت الآن صلاتهم أو كادت ببلادهم

واخوانهم ، وأكثرهم يجهل حقيقة نسبه وتبعة ذلك واقعة على كواهل أغنيائنا وسرواتنا ، أما سلطان سولوك سندكان فلفاين فهو من آل العيدروس .

ومما ينبغي الاشارة اليه ان العائلة التي ظننا انها أول عائلة من العلويين دخلت الى القمر هي العائلة التي اشتهر كثير من أفرادها بالبطولة والشجاعة في حرب المسلمين مع الحبشة فان السيد احمد خطيب بته بجزائر القمر بن علوى بن محمد بن احمد مرزق بن عبد الله وطب المتقدم ذكره قد اشتهر جده السيد محمد بن احمد بالجهاد كما تقدم ، وأخو جده عبدالله ابن احمد فلا يبعد أن يكون السيد علوى ابن السيد المجاهد محمد بن احمد قد كان مع والده بالحبشة ثم نزع الى القمر مجاهداً وناشراً للاسلام ، وهذه العائلة وعائلة آل ابن حسن آل سيوى و بته هم أول من دخل القمر يقتضيه السبر بخلاف الانخاذ المنتسبة الى الشيخ أبي بكر بن سالم فانما جاءوا بعدهم ولعل أول رحيلهم اليها كان بعد جهاد الشحر والنفير العام الذي نودى به في حضرموت سنة ١٠٩٧ فقد نفر له كثير من المجاهدين من السادة العلويين وغيرهم من الحضارمة وقد منحهم الله النصر فهزموا البرتقال بعد أن احتل الشحر سنة و بضعة أشهر ، وقد استشهد بتلك المعارك عدة من السادة العلويين منهم السيد عبدالله ابن محمد بن احمد الفقيه على بن المعلم عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٨٧٣ ابن على (المتوفى سنة ٨٤٠) بن سيدنا عبد الرحمن السقاف العلوى الحسيني، وكانت حضرموت لاتزال لذلك العهد حية معمورة .

قالوا وقد خرج من نواحى هيتن فقط ستمائة فارس فذهبوا مع النفير العام وربما يستغرب بعض اخواننا هذا ويقول كيف تتسع هيتن لهذا القدر ومن أين يجدون لها الحشيش والعلف وهذا كلام من يجهل التاريخ ويجهل كيف كانت حضرموت وما كانت عليه من العمارة ، وليس لأهلها في تلك الاوقات من الاتصال بجهات المعمور وانتشار التجارة والغنى فيهم عشر ماهم اليوم ولكنهم كانوا ذوى محبة لاوطانهم واقتصاد في شؤونهم وكان همهم موجها الى عمارة بلادهم ولم يكونوا كخلفهم اليوم لاهم لهم الا تدمير بلادهم ولا هم لأغنيائهم الا جمع المال جمعا قارونيا أو بذله لاثارة الفتن وقطع السبل أو للترهات والعوائد والموائد والقصف والترف ، وقد كانت ظفار مثابتهم ومتردد تجارهم ومرعى خيلهم ، وكان لهم ضراوة باقتناء الخيل حتى لقد كان لسيدنا الحسين ابن أبي بكر بن سالم

وحده سبعون رأسا من الخيل ، وقد زار نبى الله هود عليه السلام مرة فزار معه من أبنائه وأحفاده أربعون فارساً (وكان معمرا) .

ويكفيك شاهداً على ما ذكرناه انه لما أسر السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر أبو طريوق محمد بن على بن فارس فى سنة ٩٣٨ غضب له نهد فلما أصعد السلطان يريد دوعن اعترضه من السور [1] مائة وستون فارساً من نهد غضبا لصاحبهم ولكن تم الأمر بينهم على اطلاقه وكانوا يستعملون الآلات الحربية القوية فى حروبهم فان ثابت بن على فارس النهدى استولى على القرين [2] سنة ٩٤٠ باستعمال الرمى بحجر العرادة [3] ولو جئت اليوم الى بلاد نهد كلها لم تجد فيها فرسا واحداً وأكبر داهية حلت بحضرموت حتى خرب خرابا لا يتصوره العقل هى الداهية التى حلت به سنة ١١١٧ فانها داهية هلكت بها العباد والبلاد و بقيت الى حدود سنة ١٢٧٠ ، وجاء فى أثناء ذلك الوهابية سنة ١٢٢٢ الى سنة ١٢٢٦ تقريباً فكان مجيئهم ضغثا على ابالة وأعنى بتلك الداهية المتغلبين من يافع على السلطان عمر بن جعفر بن على وكان الذى جلبهم هو السلطان بدر ابن محمد بن عمر بن بدر أبو طويرق خرج بهم من هناك سنة ١١١٦ وتم استيلاؤه على حضرموت بهم سنة ١١١٧ وقد غلوا يد ولده السلطان محمد بن بدر ثم استقلوا بالأمر وجرت أمور يطول شرحها .

ومن عجائب ما يراه الناظر فى تاريخ حضرموت ان الأباضية قد جلبوا على حضرموت من المصائب والبلايا والحروب والقتل ما يطول شرحه ولكن لم يؤثر ذلك فى خراب حضرموت خرابا يماثل ماوقع فى الزمن الأخير فانهم باحتلالهم حضرموت واستغوائهم أهلها ورميهم بهم فى تلك النحلة قد جعلوا العالم الاسلامى ألباً عليهم فصارت حضرموت ميدانا لهجمات جنود الاسلام اذ ذاك وأعظم واقعة مشهورة كانت سنة ١٤٠ فان معن بن زائدة الشيبانى الجواد المشهور وكان أميراً على اليمن للمنصور العباسى غزا حضرموت بجيش جرار فقتل رئيس الأباضية عبد الله بن يحيى وقتل معه من الخوارج خمسة عشر ألفاً حتى رجز بذلك الرجاز وأشاد بذكره الشعراء فقال الاعرابى :

---

(١) بلد من بلدان نهد قد خرب (٢) بلد بدوعن

(٣) العرادة آلة أصغر من المنجنيق يرمى بها الحصون والأسوار

يا معن من شيبان أنت انتا علمت أهل حضرموت الموتا

وقال شاعره مروان بن أبى حفصة فى قصيدة يمدحه بها أولها :

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعاً و إن كان من عهد الصبا قد تودعا

الى أن قال :

لقد أصبحت فى كل شرق ومغرب بسيفك أعناق المريبين خضعا

وطئت خدود الحضرميين وطأة لها هد ركن منهم فتضعضعا

فاقعوا على الأذناب اقعاء معشر يرون لزوم السلم أبقى وأودعا

فلو مدت الأيدى الى الحرب كلها لكفوا ومامدوا الى الحرب أصبعا

ثم توالت الأمراء على اليمن وحضرموت من ناحية العباسيين فبلغوا الى سنة ٢٦٣ زهاء نيف وخمسين عاملا أعنى الى ولاية المعتمد بن أحمد المتوكل وكان العامل على عهده محمد بن جعفر فامتنع عليه أهل حضرموت فغزاهم وأخضعهم ، ومعن بن زائدة هو أول من ألزم أهل حضرموت واليمن لبس السواد شعار العباسيين فصار زينتهم الى اليوم ، ولما جاء سادتنا العلويون لبسوا البياض واقتدى بهم وذلك شعارهم وهذا هو السر فى انكار جمهور العلويين على من لبس السواد من اخوانهم والتزامهم لبسه الى اليوم .

* * *

ومما وقع فيه مؤرخو الأفرنج من الخبط والخلط ما نقله الأمير شكيب عن المسيو فزان والمسيو رينيه باسه فى الجزء الأول من كتاب حاضر العالم الاسلامى فى الصفحة ٣٧٤ فننقل ما يتعلق به الغرض مما قالاه ثم نتعقبه ، قال عن المسيو فزان : ان قبائل الاسلام فى الجنوب الشرقى من ماداغسكر تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسكر من مكة ـ الى أن قال ـ قال المسيو رينيه باسه : يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فمن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلى هرر فى الحبشة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن على (١) مع أن عقيلا ما وطىء تلك الأرض ـ الى أن قال ـ عن المسيو فزان : ان دعوى الانتساب الى أهل البيت فاشية عند مسلمى السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسكر ولكنه مما لا ينبغى أن يوثق به كثيراً اهـ ونقول

(١) الذى نعرفه أن عقيلا هو أخو على

ان المسيو رينيه قد استعجل أمراً كان له فيه أناة ، وقد كان الواجب عليه أن يعرف المسمى عقيلا بن على وأن يتفطن لكون عقيل بن على لا بد أن يكون غير عقيل بن أبى طالب أخى على عليهما السلام ، وكثيراً ما يؤتى المؤرخ من العجلة و ترك البحث كما يؤتى من الغرض وسوء القصد . وذلك أن هناك عقيلا آخر غير من ظنه وهو عقيل ابن علوى بن على بن محمد بن حمدون بن علوى المتوفى سنة ٩١٤ ترجمه فى المشرع والسنا الباهر ابن محمد المترجم فى المشرع أيضاً ابن على الملقب بجحدب بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٨١٦ بن محمد المترجم فى الجوهر والمشرع والمتوفى سنة ٧٤٣ بن سيدنا عبد الله باعلوى المترجم فى الجوهر والغرر والمشرع والترياق وشرح العينية المتوفى سنة ٧٣١ وهو ابن علوى ابن الفقيه المقدم محمد بن على الى آخر النسب المتقدم فى المقالات السابقة ، وقد كان السيد على بن محمد جد عقيل المذكور قد قطن هرر من بلاد الحبشة وكان فاضلا وصار له بها جاه واسع وصيت عظيم ونفوذ مذكور مشهور ، وقد توفى ضحوة يوم الثلاثاء سنة ١٠٢٣ وأعقب هناك والعقب منه فى ابنه علوى ، وأعقب علوى من عقيل المشار اليه وعثمان وحميدون وكلهم لهم عقب هناك والعدد فى ذرية عقيل أكثر من أخويه . ولسنا بصدد التفصيل فانما المراد التنبيه والاشارة . وقد سبق أن السادة العلويين قد ترددوا الى الحبشة ودمثوها بخطاهم للتجارة والدعوة وكان دخول أول داخل منهم اليها سنة ٨٣٧ – أى منذ ٥٦٧ سنة وكانت تجارتها من بندر زيلع فكان للسادة العلويين بها مقام سام مالى وأدبى . ومن هذا القبيل تخبط مؤرخى الافرنج فى الدعاة الذين أسلم على يدهم الجاويون فتارة يقولون انهم كجراتيون[1] وتارة يقولون انهم فارسيون ولهم فى هذا الباب جولات لا تخلو عن تجاهل .

وقد يعتذر عنهم بأنهم رأوا هؤلاء الدعاة يأتون من ناحية تلك البلاد ولا يعرفون حقيقتهم وقد كان العرب الحضارمة وفى مقدمتهم السادة العلويون لهم ترددات الى مليبار وكجرات وكاليكوت وغيرها من البلاد الهندية ولهم بها مراكز تجارية ودينية ، وقد كان لكثير من العلويين رباطات مفتوحة لطالبى العلم وكانت السفن تذهب من ساحل حضرموت قاصدة الى مليبار ثم تأخذ شرقاً على السواحل الهندية ومنها الى سومطرا و بلاد آشى منها

(١) أى من كجرات من الهند

وفليمباغ (فولو امباغ) بجاوى ، وقد ترجم فى المشرع لبعض علماء السادة العلويين الذين دخلوا جاوى قبل وصول الهولنديين اليها بمدة طويلة الى آشى منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ولا يزال اسم السيد هاشم يدور على ألسنة سكان آشى الى اليوم لأنه كان العامل الأكبر فى الحرب المعروفة بحرب البوقيس قبل أن يطأ بلاد جاوى هولندى ولا غيره ، وآل هاشم هم من السادة العلويين آل عم الفقيه وهم ذوو عدد ببنجر (برنيو) و بسيلان يرجع نسبهم الى السيد هاشم بن أحمد بن علوى بن احمد بن عبد الرحمن بن علوى المشهور بعم الفقيه الخ النسب المتقدم ، وهناك من هو أقدم منهم دخولا الى آشى وهو السيد هاشم ابن محمد المتوفى سنة ٩٧٨ بن عبد الله بن مبارك بن عبد الله المتوفى سنة ٨٨٤ وهو المعروف بوطب ، وهو بن محمد بن سيدنا عبد الله باعلوى فان السيد هاشما قد دخل آشى ومكث بها حتى توفى وفى آشى مقابر محتوية على كثير من السادة العلويين وقد تولى منهم عدة سلاطين فى تلك الجزيرة وهو أمر معروف عند الأهالى وان تعامى عنه المتعامون

ولا يزال أهل آشى يطلقون على كل عربى لفظة حبيب وهذه الكلمة هى اللقب الذى يدعى به كل سيد علوى ولم نرفيما قرأناه مما كتبه الافرنج انصافا الا فى مقالة نشرتها مجلة فانچى فستا كا التى تصدر من ويلتفريدن فى عددها الخامس عشر الصادر فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٦ فانها ذكرت تعاهد الحبيب حسين القدرى جد سلاطين فنتيانق (فنتيانه) هو وثلاثة من اخوانه من العلويين وهم السيد أبو بكر العيدروس والسيد عثمان باحسين السقاف (١) والسيد أحمد الكوريس (٢) واتفق هؤلاء الاربعة بعد الحصول على الاذن لهم من شيخهم بمليبار (٣) على التوجه الى الشرق للدعوة الى دين الاسلام فاقام السيد أبو بكر العيدروس بآشى وأما باحسين (٤) فاقام فى سيك (سيع) واقام السيد محمد فى ترنقانو (٥) ثم ساقت المجلة ترجمة الحبيب حسين القدرى وتولى ولده عبد الرحمن بن حسين

---

(١) الصواب عثمان بن عبد الرحمن بنحسن وهو أول سلطان بسيك (سيع) بسومطرا من هذه العائلة

(٢) لعل الصواب الكريشة تصغير كرش فيكون هو السيد احمد بن علوى بن بركات بن محمد كريشة العلوي ، وقد توفى بالهند وله عقب بجزائر القمر بهنزوان

(٣) كذا قالت ولعله سيدنا شيخ بن علوى الجفرى مؤلف كنز البراهين وغيره المتوفى سنة ١١٧٢

(٤) الصواب بنحسن ويعرفون الآن فى سيع بآل شهاب

(٥) هكذا قالت ولم يتقدم لمحمد ذكر وقد اشتهر بترنقانو آل محمد وزين ابنى حسين بن مصطفى العيدروس المترجم فى مراءة الشموس فان لهم بترنقانو ذرية مباركة فيهم علماء نفعوا كثيراً ، وكان السيد محمد بن زين ابن حسين اماماً كاملا وعالما عاملا له صيت كبير يحضر درسه نحو ألف نفر فليحرر

سلطنة فنتيانق الخ ما فيها فليراجعه من اراده ، وقد كان بجزيرة سمبه (سومبه) من جزائر التيمو ر سلطان من آل القدرى الى زمن دخول هولندة اليها وله ذرية هناك معروفون ، والمقصود انه من المحتمل أن يكون من تكلم فى هذا الموضوع من الافرنج انما جاءه الوهم من جهة أن اولئك الدعاة انما جاءوا من طريق الهند وهذا صحيح فانه ما كان أحد يلج من حضرموت الى جاوى بل كانوا يسيرون اليها من الهند كما تقدم وكانت الهند مثابتهم بل قد تأسست بها دول كان من العوامل فى تأسيسها بعض السادة العلويين كمملكة الملك عنبر فقد كان من العوامل الكبرى فى تأسيسها ارشادات الحبيب على بن علوى بن محمد الحداد العلوى ، ولذلك قصة غريبة ذكرها فى عقد الجواهر والدرر ونقلها عنه صاحب خلاصة الاثر فلتراجع ، وما كان الامير جوهر سحرتى الا تلميذ الشيخ الامام شيخ بن عبدالله العيدروس العلوى ولذلك لما توفى اعتنى به السادة وجهزوه وكان له مشهد عظيم ودفنوه فى مقبرة السادة والعرب تحت مدينة بيجافور ، ترجمه فى عقد الجواهر والدرر ونقله عنه صاحب خلاصة الاثر ، ولا يحتمل المقام بسط حالهم هناك وتعديد من دخل من افخاذهم الى الهند ، ومن دواعى الوهم لاولئك المؤرخين الذى يستعمله العلويون فانه اشبه شىء بزى علماء فارس وفى كلامهم توهمات وظنون لا تخفى على المتأمل .

ولايزال اناس ممن دخل جاوى منذ قرون ينتسبون الى آل باشيبان أحد أفخاذ السادة العلويين ويصلون أنسابهم بالدعاة المغاربة[1] أعنى الموجودة قبورهم بموجو أقونغ ودونك مثالا واحدا من الانساب التى بايديهم فمنهم الآن كياهى (أى العالم) منصور بن طه بن محمد باقر بن مجاهد بن على اصغر بن على اكبر بن سليمان المقبور فى بلد موجو أقونغ بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الشيبانى العلوى وآل باشيبان منهم عدد كثير بشربون وفكالونقان (باكلنقان) وغيرهما وعبد الرحمن الذى ارجعوا انسابهم اليه توفى سنة ٩٧٣ وابنه عبد الله توفى بآشى وله عقب بالهند ببلقام والدكن وله ابن يسمى شهاب الدين قد خفى حاله ولم يذكروا فى الشجرات أعقب أم لا ، ولم يذكروا سليمان هذا فلا بد من بحث وتنقيب فان المواصلات كانت قليلة بين حضرموت وجاوى ولا سيما فى القرن العاشر بسبب حروب البرتقال وغيرها فينبغى أن يبحث عن تاريخ عبد الرحمن هذا والبلاد

---

(١) لعلهم أطلقوا عليهم المغاربة لأنهم جاءوا من غرب جاوى وكل جزيرة العرب غرب بالنسبة الى جاوى

التى رحل اليها وتزوج بها ولنا عودة الى هذا الموضوع ان شاء الله ، أما عـدد الآباء فى نسبهم الى أمير المؤمنين على عليـه السلام فيبلغون على ما حكيناه عنهم اثنين وثلاثين أبا على أن عـدد الآباء فى نسب الطبقة الحاضرة من العلويين يتراوح بين ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ أبا ، أما السيد عبد الرحمن صاحب المقام بشربون وفاتح بلاد السوندا جميعها وناشر الاسلام فيها وماحى آثار الشرك بها وابنه بصرى[1] المتملك بشربون وابنه حسن المتملك ببانتن من بلاد السوندا بجاوى فقد أقر مؤرخو الافرنج بأنهم لا يعلمون أصله من أى قوم وكانت وفاة السيد ابى بكر باشيبان جد آل باشيبان بعد الثمانمائة ووفاة ولده أحمد سنة ٨٧٠ ، وقد كان السيد عمر بن عبد الله بن عبد الرحمن باشيبان العلوى المتوفى سنة ١٠٦٦ ببلقام من بلاد الهنـد ممن تصدر للنفع والقيام بنفقة الطلبة وكان الملك عادل شاه قد سوغ له خراج جرام موضع قرب بلقام وكان ذلك بعد أن أقام مدة بجوار الملك عنبر ملك الدكن وقد قلنا ان أباه عبد الله توفى بآشى فهل يكون السيد عبد الرحمن فاتح السوندا من أحد انسبائه ينبغى اتمام البحث فى هذا الموضوع ولنا اليه عودة ان شاء الله تعالى .

أما الـكلام فى بقية أفخاذ السادة العلويين المنتشرة فى سومطرا وبرنيو وجاوى وملاكا (ملقا) وجزائر التيمور فيطول ولا تزال غالب انسابهم محفوظة وان كنا نخاف الآن ضياع أنسابهم وآدابهم وعوائدهم وسائر مميزاتهم اذا طال نومهم ولا سيما وقد سرت العجمة الى أكثرهم ودب داء التفرنج العضال الى كثير منهم ولا قوة الا بالله .

***

وقد أهدت الى جريدة حضرموت الغراء ما جاد به اخوانا العلامة عمر بن أحمد ابن سميط العلوى قاضى زنجبار الآن عن بيان نسب السادة المعروفين بآل بتة قال حفظه الله : من أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو وممباسه وزنجبار ويدعون بآل بتة ، من الموجودين الآن منهم بلامو سالم بن عبد الرحمن بن أبى بكر وهذا هو الملقب ببتة لـكونه ولد بها وهو ابن أحمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن أحمد بن أبى بكر وهذا هو أول من طلع من حضرموت وهو ابن عبد الله بن شيخان .

ومن أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو وزنجبار

(١) يحرفه الجاويون فيقولون بصريان

لا ينسبون الى أبى بكر بتة ، من الموجودين منهم الآن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عبد الرحمن يجتمع مع أبى بكر بتة فى عبد الرحمن بن أبى بكر بن أحمد بن أبى بكر بن عبد الله بن شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم .

وأما أولاد على بن أبى بكر السكران فمنهم عدد بلامو وسيوى ويدعون هناك بآل السقاف ، ومن الموجودين منهم الآن بلامو عمر بن محمد بن عمر ينتهى نسبه الى عبد الله ابن عيدروس بن عبد الله بن عيدروس بن حسين بن حسين بن محمد بن عمر بن حسين بن الشيخ على بن أبى بكر السكران ، ومما تقرر يعلم ان آل بتة هم من ذرية شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم لا من ذرية على بن أبى بكر السكران كما تبادر الى الذهن ، وبتة هى من البلدان الجنوبية (بافريقية الشرقية) الواقعة فى عرض ٢ ر ٢ وطول ٤٠ ر ٦٣ كانت فى الزمن الغابر معمورة بالعلوم والعلماء وأما اليوم فليس بها أحد ممن يشار اليه اهـ فنقدم شكرنا لأخينا السيد عمر ونرجوه أن يمن علينا بشئ من وقته الثمين ويطالع ما جاء فى الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامى صفحات ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٨٤ و ٣٩٠ وما بعدها من أسماء سلاطين هنزوان وانقيزيه وترتيبهم وسلسلة أنسابهم فانه أقدر الناس على حفظ ذلك والبحث عنه أبقاه الله ذخيرة للمسلمين والاسلام .

وقد آن لنا أن نذكر معلومات مهمة عن شاهد عيان خبير تردد الى ماداغسكر وجزائر القمر منذ خمسين سنة وهو الشيخ محمد الكلالى الشهير فقد أبلغنى بعض اخوانى انه لقى الشيخ محمد المذكور ليلة فى بتاوى فى احدى ليالى شعبان سنة ١٣٤٤ مع جماعة من الاخوان وتحادث معه فى المقالات التى نشرتها جريدة حضرموت الغراء فافضى اليه بالمعلومات الآتية وقد كتبها عنه ذلك الاخ واستأذنه فى نشرها فاذن له قال : (مداغسكر) جزيرة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات والغلال يسكنها شعبان عظيمان من شعوب البشر أحدهما يعرف بالسكلافا (بفتح السين والكاف) وهم على سواحل الجزيرة وأطرافها وسحنتهم أشبه شئ بسحنة العرب وكانوا قبل احتلال فرنسا لمداغسكر يكتبون بالحروف العربية واللغة العربية ويزعمون أنهم عرب ، ولكنهم ليسوا بمسلمين ، ثانيهما البلامبو ويقال لهم أيضا الهوته (بضم الهاء) وهم أشبه الناس بالملايو ولغتهم محرفة عن لغة الملايو وأعدادهم مركبة من أعداد الجاوى والسوندا والملايو وهى ريكى . ديوا . تيلو . ايفت .

ديمي شيتو . فيتو . والو . سيوِى . فولو . ويسمون الشراع لاى . والصدر . دا . والتمساح يوى ، فهذا كله محرف عن شبهه من لغة الجاويين والسونداويين والملايو وهو سيجى . دوا . تلو . اوفت . ليمو . فيتو (صحيحة غير محرفة) أولو . سغو [١] سفوله دادا . لايا . بوايا وكانوا رجال حرب شجعانا وتتجند نساؤهم للحرب ويقاتلن بشجاعة وبسالة نادرتين قال وقد رأيت جنداً من نسائهم يقاتلن الفرنسيس متوشحات ومتمنطقات بمناطق رصاص البنادق قال : ولقد كنا مرة فى مرسى مجنقا (بكسر أوله وفتح ثانيه) فى سفننا وقد كومت غلال الارز والذرة على الساحل كأنها الجبال أعدوها لمجئ التجار وقيام السوق فلم نشعر الا بمركب حربى فرنساوى قد وصل الى المرسى وأمرنا بالخروج منه فخرجت السفن كلها فدنا من البلدة وضربها بالمدافع فأحرقها وأحرق غلالها حتى اذا تركها جحيما تتسعر عاد ادراجه والنار تأكلهم وتأكل بيوتهم وغلالهم . أما الجزر الاربع فهذا ترتيبها من الشمال الى الجنوب . انقيزجه موالى (بضم الميم وفتح الواو بعدها ألف ولام مكسورة) هنزوان . ميوتا (بميم مكسورة فياء مشددة مفتوحة فتحا غير محقق فتاء بعدها ألف) أما انقيزجه فقد أدركت بها سلطانا من آل الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى خرجته فرنسا بعد ان وقع فى حبائلها بعد سنة ١٢٩٩ تقريبا فسار منها الى ميوتا وأقام بها حينا فلم تطب له فانتقل الى مداغسكر الى بلد يقال له سلالا (بفتح السين) فلم تطب له أيضا فسار عنها الى زنجبار ومنها الى المكلا ساحل حضرموت . ثم خرج الى سيوون من وادى حضرموت ونزل عند الحبيب العارف بالله على بن محمد الحبشى العلوى وقرأ عليه مدة فى العلوم النافعة ثم بعد مدة احتاجت اليه فرنسا فارسلت مركبا حربيا الى المكلا وطلبته من هناك وأعادته الى انقيزجه ملكا كما كان . ومن كبار ذوى النفوذ سيد من آل الشيخ أبى بكر العلوى فى شيله (بفتح أوله وثالثه وسكون الياء) وكان يسمى مكه بريكى ، قال وهؤلاء هم الذين يعرفون بآل بتة لأنهم نزلوا أول دخولهم الى افريقية الشرقية ببلد بتة وهى بساحلها الجنوبى وهم يدعونه (بانا مكه بريكى) ومعنى بانا سيدى .

---

(١) الغين على هذه الصورة تلفظ فى لغة الملايو والسوندا غينا مشوبة بغنة واضحة وتنقط بثلاث نقط بدلا من نقطة واحدة وهكذا ما تقدم من أسماء البلدان الملايوية والجاوية مثل فكولوغن فحقيقة رسمها فكولونغن فليقس على ماذكرناه مالم نذكره

وأما موالى فسلاطينها السادة آل القدرى [١] فنتيانق [٢]

قال : وأما هنزوان فاردك بها سلطانا من العلويين يسمى السيد عبد الله وكان أعمى وكان عنده عدد من فبريكات السكر ودخلت فرنسا هنزوان على عهده وقد احتلتها فى حدود سنة ١٣٠٠ . ثم تولى بعد السيد عبدالله الأعمى صاحب هنزوان السيد علوى و يسمونه منيو علاوى [٣]

وأما ميوتا فهى من أغرب الجزائر وذلك أن الله قد أحاطها وسورها بسور حجرى خلقى يفصله عن الجزيرة خليج مستدير بها فكأنها قد تسورت بسوارين من فضة وزبرجد أو كأنها دارت بها دائرتان من ماء فجر ثم وراء ذلك البحر وليس لهذا السور الطبيعى الخلقى الا منفذان متقابلان و يوجد فيها قصب السكر مثل هنزوان ، وقد أدرك بها السيد عمر من آل الشيخ أبى بكر وكان عالما فاضلا قال دخلت عليه فوجدته محاطا بكتبه العلمية من كل ناحية وهو فى قسم الجزيرة المسمى مسفيرا (بكسر الميم وفتح السين والفاء المشددة) والقسمان الآخران فا نزى (بفتح فألف فنون ساكنة) ومميو (بميمين مفتوحتين وياء مشددة مضمومة) ويوجد بانقيزجه كثير من بنى يعرب و بنى نبهان أهل عمان قد سكنوها وهم من ذوى الثراء بها ، وكان لبنى نبهان بها بلد تسمى مويرا (بضم ففتح فسكون) وكانت ولادة السيد العلامة المحقق الشاعر الناثر قاضى زنجبار أحمد بن أبى بكر بن سميط العلوى المتوفى أوائل العام الماضى بانقيزجه .

وقد ذكر الشيخ محمد الكلالى من أحكام فرنسا الجبروتية ما يعرفه كل أحد وان تجاهله المستأجرون الذين يصفونها بناصرة الأمم الضعيفة والام الحنون ! اه فنشكر الشيخ محمد على ما أفادنا به من ذلك وقد ضبط موالى كما تقدم وهى فى كتب الانساب عندنا مولاى وكذلك ذكرها فى نهاية الارب للنويرى فانه ذكر جزيرة القمر قال وتسمى

---

(١) قد علم القارىء أنهم أبناء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد الشهير بجمل الليل وآل القدرى سلاطين

(٢) فنتيانه هكذا ينطق بها العرب وهو الصواب فان قاعدة الملايو أن يكتبوا الهاء والهمزة المتطرفة فى لغتهم قافاً وينطقوا بها همزة فلما عانى لغتهم الأوربيون قرأوها قافا فوقع من أجل ذلك خبط فى الأسماء واللغة الملايوية طويل الذيل ، تقدم ذكرهم هم أبناء عمهم يجتمعون معهم فى محمد جمل الليل

(٣) منيو بلغتهم هو السيد وعلاوى محرف عن علوى

جزيرة ملاى وذكر من بلدانها كيدانه وملاى وغيرها راجع الجزء الاول صفحة ٢٤٢ منه فلعل اسمها تحرف على طول الزمان .

وقد استدرك علينا الشيخ الكلالى اهمالنا آل النضير من افخاذ السادة العلويين بمقدشوه وقد صدق فى ذلك وظهر لنا اننا أغفلنا غيرهم أيضاً كآل بافرج وآل على لالا وآل الحداد وآل البار وغيرهم .

فأما آل النضير فهم من آل عم الفقيه ومنهم بمقدشوه عدد ليس بالقليل وعدد بسورت من بلاد الهند وهم بنو محمد النضير بن عبدالله بن عمر المعروف بابن الصنهجية (١) وهذا هو الملقب أحمر العيون أيضاً ابن عبدالرحمن المعروف بصاحب مسجد بابطينة (٢) ابن أحمد بن علوى بن أحمد المتوفى سنة ٧٢٠ بن عبدالرحمن بن علوى المتوفى سنة ٦١٣ وهو عم الفقيه المقدم ويكنى به فيقال عم الفقيه بن محمد صاحب مرباط الخ النسب المعروف ويجتمعون هم و بنو عمهم آل هاشم فى أحمد بن علوى المذكور وآل باهاشم منهم عدد ببنجر (برنيو) وسيلان وقد دخلت العجمة فى بعض أسماء آل النضير بمقدشوه فانك تجد فى أسمائهم عددا من أسماء اعتاد البربر (الصومال) التسمية بها مثل حرمين . نور . سعاده دونى . موجود . منيا . مبانى . مقالو . ودخول العجمة فى الأسماء آخر حلقة تنقطع بها صلتهم بماضيهم ويتم معها اندغامهم فى غيرهم وامحاء رسومهم ، وأما آل الحداد فمنهم بمقدشوه آل عبدالله بن عمر بن محمد بن عمر بن علوى بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن علوى ابن أحمد الحداد بن أبى بكر بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه .

وأما آل على لالا فهم من آل عم الفقيه أيضاً ومنهم هناك آل أبى بكر بن علوش ابن نور بن أحمد بن على بن لالا ومنهم آل خلف بن نور بن أحمد بن على لالا وهو ابن أحمد بن حسن الطويل بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه ، وأما آل بافرج فيرجع نسبهم الى فرج المتوفى سنة ٨٧٢ بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن

---

(١) أمه من الصناهجة قبيله من حمير بحضرموت كانت لهم قارة الصناهجة المعروفة هناك وكان يضرب بها المثل فى العظم فيقال أعظم من صنهاجة

(٢) اسم مسجد مشهور بتريم هو الذى بناه

أحمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه ومنهم هناك نور ومحمد وأحمد بنو عثمان بن محمد ابن أبى بكر بن نور صادق بن أحمد بن صادق بن أحمد بن نور بن سعد الدين بن محمد بن شيخ بن محمد بن عثمان بن أحمدبن شيخ بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبدالله بن حسن بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن علوى عم الفقيه ومنهم أناس بقلب وهدله ومقدشوه وبها أناس من آل البار وغيرهم فلا نطيل بذكرهم .

ومما ذكرناه يظهر ان آل النضير وآل بافرج من أقدم من رحل الى افريقية من العلويين الذين تديروها فان لهم هناك ماينيف على ثلاثة قرون ، أما من تردد اليها ولم يتديرها فمنذ مايناهز سبعة قرون ، وأما سلطان انقيزجه الذى ذكر الشيخ محمد الكلالى خروجه الى حضرموت فقد ذكرناه سابقا وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر ذكره فى كتاب شمس الظهيرة وفى شرح الصدور .

ثم ان لنا الى ذكر حاضر العلويين ومستقبلهم لعودة بعد عودة كلما سنحت الفرصة ان شاء الله تعالى .

وانى لأشكر من صميم فؤادى جناب الأمير الشهير والعلم الساطع المنير على ما أظهره من العناية بمقالاتى الملفقة وأسأل الله لهعمرا مديداً وخيراً مزيداً وتأييداً على ماوقف نفسه عليه من النفع العام للمسلمين والاسلام والتمس منه أن لايضن على إخوانه المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بأمثال تلك البينات الواضحة والهدايات الصريحة وان يزيدنا من ذلك ما وجد الى الزيارة سبيلا فلقد بين لنا من تاريخ حاضر الاسلام وحال أهله فى مختلف الأقاليم ما كشف به عن أبصارنا الغشاوة وأزاح به عن عقولنا حجب الجهالة فجزاه الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء .

ثم انى أحث اخوانى المسلمين على اقتناء ذلك الكتاب أعنى كتاب حاضر العالم الاسلامى والاطلاع على مافيه مما لا يستغنىعن معرفته من يهمه مستقبل المسلمين والله الموفق والمعين .

بتاوى : محمد بن عبد الرحمن

الامير محمد بن عبد الكريم

زعيم الريف

الأمير شكيب

لا نبالغ اذا قلنا ان الأمير محمد بن عبد الكريم ، متولى كبر الثورة على الأسبانيول فى شمالى سلطنة المغرب ، هو فى التوة الحاضرة ، بطل الاسلام ، وأسده الضرغام ، والعلم المفرد الذى سار بذكره القاصى والدانى والخاص والعام ، لا بل اذا نظر الناس بعين الانصاف يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم .

وذلك أن العبقرية لا يجب أن تحدد على نسبة الأعمال التى يقوم بها الانسان من حيث الأهمية بل على نسبة الأعمال من حيث الوسائل التى يملكها عند العمل . فاذا نظرنا الى رجل عظيم قام فى دولة عظيمة ، و بسط يده الى ما حوله ، فامتلأت بالوسائل والأسباب الكافلة بحصول المرام ، الواقعة على طرف الثمام ، ففاز بالغلبة على العدو ، أو باتمام مقصد من المقاصد العالية ، فليس فى ذلك من دواعى الاعجاب ، ما فى عمل رجل عظيم ، اذا بسط يده وجدها خلاء من كل شئ ، سوى بعض المواهب الفطرية ، واذا نظر فيما حوله ، لم يجد من جميع أسباب القوة سوى قوة الارادة . لهذا لا نجد فى شخصية « المارشال فوش » قائد جيوش دول الحلفاء ، الذى حاز الغلبة القاطعة فى أعظم حرب عرفها التاريخ ، ولا فى شخصية « المارشال هندنبورغ » ، الذى وقف فى وجه قوى تفوق قواه عدة مرات مدة تزيد على أربع سنوات ، ولا فى شخصية الغازى مصطفى كمال ، الذى أحيى الدولة التركية بعد أن أرادت انكلترة أن تطويها طىّ السجل للكتاب ، ولا فى شخصية لنين ، الذى ثلّ عرش أعظم قيصرية فى العالم وحل محلها بحكومة صعاليك مفاليس لم يسبق لها مثيل على وجه الكرة ، ما نجده من حقيقة الرجولية ، والبطولة ، وجد الفضل ، والخصل ، التى فى شخصية محمد بن عبد الكريم الريفى الذى تغلب على دولة اسبانية وأجبرها على الجلاء عن الريف .

فان « فوش » عندما انتصر على جيوش الألمان ، كانت تحت قيادته نحو خمسة عشر مليون جندى تامة العـدد والاعتاد ، ووراءها سبعة وعشرون دولة هنّ أكثر سكان المعمور وأوفرهم ثروة . وان هندنبورغ عند ما تواقف مع هذه السبع والعشرين دولة مجتمعة ظهرة واحدة على دول أربع لا يساوين ربعها ولا خمسها ، انما كان على رأس الجيش الألمانى الشهير أحسن جيوش العالم دربة ونظاماً واتقان عدة . وان مصطفى كمال نهض بأمة قديمة العهد بالاستقلال ، حديثـة العهد باتساع السلطنة والبسطة ، مفطورة على حب الغزو والقتال ، مالـكة لـكثير من أسباب الدفاع ، قد أراد لويد جورج أن يحرمها كيانها السياسى دفعة واحدة ، وأن ينزلها من السنام الأمجـد الى الحضيض الأوهد ، ورماها بدولة صغيرة كالدولة اليونانية ليست بكفء للترك فى قوة ولا منعة ولا عدد ولا نخوة ، فتمكن مصطفى كمال ورفاقه بحسن قيادتهم واستبسال أمتهم التى عرض عليها الموت صلحاً ، فآثرت الموت حرباً و بتراخى ميادين القتال على جيش نظير الجيش اليونانى مدة سنوات متوالية أنقضت ظهره وأوهت صبره ، فقهر مصطفى كمال العدو وأخرجه من الأناضول ، وأخـذه أخذاً عزيزاً ، وأعاد لتركية وجودها السياسى الذى لم يكن من السهل نزعه منها . وان لنين كان يمثل ألوفاً ومئات ألوف من الصعاليك الذين كانت لهم جمعيات واشجة العروق فى جميـع البلاد ، على حين قد ضرست الروسية الحرب الـكبرى تضريساً أتى فيها على الحرث والنسل ، وانشب فيها أنياب الجوع ، فتهيأت فيها الفرصة لثل أعظم عرش بنيت قوائمه على الظلم والغشم ، وامتهان الشورى ، وتقديس ارادة الفرد ، والعمل باهواء اللذات والمودات ، والعبث بحقوق الشعب ، فـكان أعظم عامل للانقلاب الهائل هو رد الفعل ، وأقوى نصير للنين على تأسيس الحـكومة الشيوعيـة هو ما ينشأ من تجاوز الحد من تحول الأمر الى الضد ، سنة الله فى الخلق وما لسنة الله من مرد .

أما محمد بن عبد الـكريم ، فانه قد تغلب على اسبانية ، وهزم جيوشها عن الريف ، وهو بالقياس الى اسـبانية بمثابة واحد الى أربعين فى العدد ، وأقل من ذلك فى العتاد . وهـذا تقدير قد يكون فيه نقص أو زيادة ، ولـكنه على كل حال لا يخرج منطقة الريف بجملتها عن هذه النسبة . فقد قيل ان عدد سكان الريف الذى تدعى اسبانية « حمايته » هو نصف مليون نسمة ، وقيل انه ستمائة ألف ، وقيل انه سبعمائة ألف وقيل بل هو لا يزيد

على أربعمائة ألف . وليس للريف احصاء محرر ، ولا لسلطنة المغرب كلها احصاء وثيق ، وانما الذى نسمعه أن الريف هو سبع السلطنة المغربية ، فاذا كان المغرب سبعة ملايين فيكون الريف مليوناً ، اللهم الا إذا قيل ان رقعة الريف أقل سكاناً من سائر المغرب بالنسبة الى المساحة . فلهذا لم يكن فى الريف مليون نسمة . أما من جهة الثروة فلا ثروة فى هذه المنطقة وفى الحقيقة لاريف فى الريف[1] وسفوح جبال الريف لاتجرى فيها الأنهار كما فى سفوح الجبال الأخرى كالأطلس مثلا . وأعظم مدن الريف هى سبتة ، ومليلا ، وهما من المدن الاسبانية من القديم ، ومنها تطاون ، والعرائش ، وكلها لاأهمية لها فى جانب مدن المغرب . فلهذه الأحوال والظروف كان بدعا لاينظر فى التاريخ ، وسراً تحيرت فيه العقول ، ان يتمكن ابن عبد الكريم من طرد الاسبانيول بعد حرب ضروس استمرت عدة سنوات ، وان يخرج من هذه الهيجاء ظافرا ، فى عصر لم تتعود فيه أوربا أن تجد أمة اسلامية غالبة على أمة مسيحية ، ولا ان ترى أمة متبدية أو غير متمدنة ظاهرة على أمة متمدنة راقية . لاسيما وهوة الفرق بينهما عميقة جداً فى العدد والعدد . فان مملكة اسبانية عدد سكانها ٢٢ مليوناً ، وهى مجهزة بجميع أدوات الحضارة العصرية ، وجيشها معدود من الجيوش المنظمة التى لاتقل عن سائر الجيوش الأوربية دربة ونظاماً ، وجودة سلاح ، وتفنن ضباط . وقد ساقت اسبانية الى ميدان حرب الريف فيالق جرارة . كانت تبلغ مائة ألف جندى أحيانا و ١٥٠ ألفا الى ٢٠٠ ألف . وقرأت ساعة تحرير هذه السطور فى جريدة « الجورنال » الباريزية ، رسالة لمكاتب هذه الجريدة فى الريف ، يصف بها « الخزامى » مركز الأمير محمد بن عبدالكريم ، ويذكر فيها ملاقاته معه . وقد ورد فيها فى موضع الدهشة من أمر هذا الرجل « انه هو الذى قهر جيشا عصريا عدده مائة وخمسة وسبعون ألف جندى اسبانيولى » . فكيف كانت الحال لحرب الريف هذه ، وظهور الريفيين فيها ، هما من بواهر الآيات وخوارق العادات ، ومحمد بن عبدالكريم رجل أخذ مكانه من التاريخ وأخجل جميع عظماء الرجال ، بعظمة عمله ، وصغرهم فى أعين أنفسهم ، حتى اذا ما أخذت أحدهم هزة بأو وعجب ، فتذكر عظمة عمل ابن عبد الكريم ، مع فقدان جميع الوسائل التى لا يتأتى

---

(١) الريف في اللغة هو ما قارب الماء من الأرض ولذلك يطلق أحياناً على الساحل وعلى المكان الذى فيه المياه والخضرة . والريف هو أيضاً الخصب والسعة

الظفر بدونها ، رأى نفسه غير عظيم بجانب ذلك العبقرى الكبير . ولا جرم أن حرب الريف ومقاومة السنوسيين فى طرابلس ، قد رفعت من شأن الاسلام ، وحدت أوربا على أن تحسب له حسابا ، ولا تسترسل فى الاغترار الى قوتها ، والاحتقار للامم الاسلامية التى كانت تحسبها بتجردها من السلاح الحديث ، اما قد انطوى بساطها . فاوربا اليوم . ولا سيما دول الحلفاء « انكلترة وفرنسا وايطالية » صارفة جد اهتمامها الى منع السلاح عن الأمم الاسلامية بجميع الطرق ، ومراقبة سواحل افريقية ، وآسية وامضاء المعاهدات والمواثيق الدولية بعدم بيع الاسلحة الى الأمم التى « مدنيتها من الدرجة الثانية » تريد أن تعبر بذلك عن الأمم الاسلامية ولم يذهب قلق هذه الدول بمجرد منع الآلات والاعتاد الحربية عن هذه الأمم ، حتى قام رجال سياستها يتشاورون ويدوكون فى عمل ما يسمونه « جبهة » بازاء الاسلام ، على أثر تسحب الجيش الاسبانيولى مدحوراً عن الريف ، وثبوت استقلال الحكومة الريفية تحت امارة ابن عبد الكريم . ففرنسا قامت وقعدت ولم تكتم جرائدها كونها لا تطيق استقلالا اسلاميا بجانب المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وعلى ساحل البحر المتوسط . وانكلترة ، خشيب مغبة ظفر الريف فى استئساد الاسلام شرقاً وغرباً ، وصيرورة قصة الريف مثالا يحتذى عليه ، فتهيج له الخواطر فى مصر ، و بلاد العرب ، الى الهند . وايطالية ، واقعة مع طرابلس فى حيص بيص ، فلا تزيد أخبار الريف عزائم الطرابلسيين الا ثباتا .

وقال الكابتن سبنسر برايز على أثر عودته من زيارة الأمير ابن عبد الكريم فى حديث له مع مكاتب جريدة منشستر غارديان :

« ذهبنا براً من طنجة متنكرين بملابس عربية فاجتزنا المناطق الجبلية وأول ما أدركناه هو أن بلاد الريف وعرة المسالك ، كثيرة الأودية والمرتفعات الشاهقة ، وهى شقة من الارض يبلغ طولها نحو ثلاثمائة ميل ، وعرضها نحو سبعين ميلا الى الشرق من طنجة ، وهى أوعر الأقطار التى رأيتها فى حياتى . وليس فى داخليتها طريق معبدة ما ، اللهم الا طريقان ينشئهما اسرى الاسبانيين الآن قرب اجدير ، وقد أنشأ الاسبانيون طريقا عسكريا من تطوان الى ششوان ولكن لا يمتد من هذه الطريق فروع الى أماكن أخرى .

« أما نحن فاننا ذهبنا الى أجدير على ظهور البغال ، وكان يرافقنا خمسون خيالا من العرب وقضينا عشرة أيام فى السير من طنجة الى اجدير . وعند عودتنا ، ساءت المسالك فى سبيلنا لأن الأمطار هطلت والأودية فاضت بالأنهر ، فصرنا نتربص فى السير ريثما يهدأ ثوران الطبيعة .

« ومما لحظناه ، أنه على الرغم من الخلاف الذى كان متأصلا بين القبائل ، تمكن عبد الكريم من توحيد نزعاتها ، وجمع شتاتها ، وضم أطرافها ، فأصبحت كتلة واحدة تأتمر بأمره وتحارب الاسبانيين الى جانبه .

« وقد ذهبنا الى سنادة ، حيث مركز الاسرة الشريفة ، فاستقبلنا سيدى هنيدو الوزانى رئيس هذه الاسرة ، وأدبت لنا المآدب الشائقة حسب عادات القوم ، حتى ضقنا ذرعا بكرم الوفادة ، وحسن الضيافة . وزرنا أماكن لم يزرها أوربى بعد ، مع أنها لا تبعد عن جبل طارق سوى ٣٠٠ ميل .

«أما ما قيل عن ان الريفيين يسيئون معاملة اسرى الحرب ، فقد عرفنا بالاختبار أنه كذب صراح . فالاسرى يعاملون معاملة حسنة ، ويستخدمون فى انشاء الطرق . ولا صحة أيضاً لما يقال عن ان الاسبانيين يكثرون من استعمال الغاز الخانق ، فهم رجال قتال مملوءون شهامة . ولا شك أنهم لا يجدون بداً من القاء القذائف والقنابل على القرى ، لأنه لا يمكن التفريق بين جنود الجيش الريفى وأفراد الأهالى ، ويذهب كل فرد من الأهالى الى الانضمام للجيش والمقاتلة تحت لوائه عند ماياتيه الدور .

« وأما ما يقال عن المركز العسكرى ، فان الاسبانيين قد عملوا بانسحابهم عملا باهراً ، كان معرضاً لكثير من المصاعب والمشقات . فقد انسحبوا من عدد من المراكز المتفرقة انسحاباً منظما ، وعسكروا على خط تطوان — فندق الحصين . فاذا أراد الريفيون مواصلة القتال فانهم سيصطدمون بهذا المركز المنيع ، وهم غير مسلحين بغير البنادق والمدافع التى أخذوها من الجيش الاسبانى ، ومعظمها من بنادق موزر ومدافع شنيدر التى تجرها البغال .

« والريفيون فى حاجة عظيمة الى المساعدة الطبية . نعم انهم لم يصابوا بخسائر جسيمة ، وليس فيما بينهم أمراض وافدة عمومية ، ولكن جميع رجالهم يذهبون الى الحرب

بالدور ، حتى ان البلاد كلها تحارب . وليس فى الريف كله طبيب ما ، ولا عقاقير صحية ما عدا القليل الذى أخذناه نحن معنا ، مرسلا من جمعية الهلال الأحمر البريطانية ، فالحاجة عظيمة جداً الى المساعدة الطبية .

« والريفيون شعب من الزراع والرعاة ، وهم يعيشون فى قرى تبنى منازلها باغصان الأشجار و بالطين .

« و يعزى معظم نجاح عبد الكريم الى مقدرته على بسط سلطته على جميع القبائل . فاستطاع بذلك أن يزيل من بينها الضغائن والخصومات . والريفيون يجيدون الرماية والخطط التى يسلكونها فى مقاتلة الاسبانيين هى مهاجمة المراكز المنفردة ، حتى يتعذر على الاسبانيين أن يحتفظوا بها . أما الآن فقد تبدل الموقف أمامهم بعد انسحاب الاسبانيين التام من تلك المراكز ومرابطتهم على خط واحد . » اه .

والحاصل ان المستعمرات هى سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض ، فلا تجد قطرا تحت استعمار أمة أوربية قامت فيه ثورة ، الا وضعت جميع الدول الاستعمارية أيديها على قلوبها الواجفة ، ترجو أن ينتهى الخطب بظفر الدولة المستعمرة ، حتى لا تدب الثورة الى المستعمرات الأخرى و يتبع بعضها اثر بعض . والاسلام فى نظر أهل أوربا أمة واحدة ، مهما تفككت اجزاؤه ، وتباعدت أقطاره ، وقد شبهه المارشال ليوتى معتمد فرنسا فى المغرب « بصندوق رنّان » أى اذا ضربت عليه برأسه رن الى كعبه . فسياسة الدول المستعمرة هى سياسة من يعلم شدة ارتباط الاسلام بعضه ببعض ، ومن يأخذ أخذه لمنع هذا الارتباط بقدر الامكان ، فان لم يتأت منع هذا الارتباط تماماً — وكيف يتأتى وهو مع الضغط الأوربى والعسف الاستعمارى لا يزداد الا شدة — فعلى الأقل العمل على أن لا تظهر له نتائج فعلية . ولقد أصيب المسلمون فى هذه السلسلة الاستعمارية باشد مما أصيبوا به فى كل المواقف ، فانك اذا طالبت باستقلال وطن متمدن راق مستحق للاستقلال ، مثل مصر ، لم تلبث أن تسمع أن الدول التى ليس لها شئ بمصر ، والتى تدعى محبة أهل مصر ، لاترتاح الى قيام دولة مصرية عزيزة ، خشية عدوى الاستقلال المصرى لسائر المستعمرات . ومثل ذلك سورية ، ومثل ذلك تونس ، ومثل ذلك العراق . ومن شواهده أن (الوفد السورى) الذى محرر هذه السطور من أعضائه كان يراجع البعثة الاسبانيولية فى جمعية الأمم بمدينة جنيف ، فى أمر

استقلال سورية ، فكان جواب المندوب الاسبانيولى لزملائى الذين لم أكن معهم فى ذلك اليوم : «ان اسبانية لاتقدر أن تروج هذا المبدأ لأنه مخالف لمصلحتها ، وعندها من داهية الريف مايكفيها » . فانت ترى ان الشام والريف حلقتان من سلسلة . لا بل مصر ، وفلسطين ، والعراق ، والهند ، وزنجبار ، والسودان ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس الخ كلها . حلقات من نفس السلسلة . وما اجتهدت دول الحلفاء أن تقضى على الدولة العثمانية التى كانت تحمل الخلافة الاسلامية ، الا على خوف انها قد تكون السبب فى فك هذه السلسلة . فحاولت الدول المذكورة أن تجعلها من جملة تلك الحلقات ، وتضمها للسلسلة ، توثيقا لسلكها ، حتى كان ذلك هو السبب الأعظم فى الغاء الأتراك اسم الدولة العثمانية ، والاكتفاء باسم « تركيا » وابطال الخلافة الاسلامية من عندهم ، فراراً من الوقوع فى هذه السلسلة . ولقد بلغ التضامن الاوربى الاستعمارى بازاء الاسلام ، ان صارت حكوماتهم تخاطب بعضها بعضا فى المسائل الاستعمارية كانها امور مشتركة بينها . ومنذ أيام جمعنى القدر بأحد رجال الحكومة الاسبانيولية ، فتجاذبنا أهداب القضية الريفية ، ولما كنت أنصح لهم بالصلح مع زعيم الريف على قاعدة استقلال هذه المنطقة ، أقسم لى أن اسبانية تود من أعماق قلبها مصالحة هذه الأمة والاعتراف باستقلال الريف رسمياً . ولكن فرنسا وانكلترة تمنعانها من هذا الاعتراف ، وتستظهران عليها بالمعاهدات المشتركة . فترى اسبانية من هذه الجهة متحيرة فى أمرها . فهى قد أخلت الريف إلى الساحل ، ولكنها كما لاتقدر على امضاء صلح رسمى مع عبد الكريم لاتقدر أن تستمر على محاربته . ومما لامشاحة فيه ، أنه لولا خشية فرنسا مغبة حرب الريف بأنها تفتح عليها باب ثورة فى المغرب يتعذر عليها سده ، وتبتلع من النفقات الباهظة ما لا قبل لها به مع ماهى عليه من الارتباك فى أحوالها المالية ، لكانت فى هذه الحزة الحرب مشتعلة بينها و بين الريف ، وكانت طيارات الجيش الفرنسى الآن تمطر قرى الريف وابلا من الكرات المحشوة بالمواد السامة — لأن الدول تعاهدت على منع استعمال المواد السامة ، والغاز المخنق فى الحروب الاوربية ، واستثنين من هذا القيد المستعمرات التى تجيز فيها اوربا « المتمدنة » طرق الحرب الوحشية . كما أن الاسبانيول رموا قرى الريف بالغازات السامة ، وقتلوا بها كثيراً من الأطفال والنساء والضعفاء — ولكن فرنسا اجتزأت عن اجتياح الريف كله بانتقاص بعض أطرافه ، وتحصين المراكز

التى على الحدود بين المنطقتين ، والتربص بعبد الكريم الدوائر ، عاملة على اثارة الريفيين بعضهم على بعض ، وفصم عروة وحدتهم ، مما هو أحد وأمضى أسلحة الاستعمار الاوربى فى قتال الأمم الاسلامية .

فقضية الريف حين تحرير هذه الاسطر هى بالمركز الآتى لك تحديده : —

أما فرنسا ، فانها تحصن الحدود التى بين المنطقتين ، وتبنى المسالح والمعاقل ، حيطة وراء الحرب التى تنوى اصلاءها الريفيين فى أول فرصة ، وهى مع ذلك لاتهمل شيئا من الوسائل السياسية لاسقاط سلطة عبد الكريم ، ومنع تأسيس استقلال اسلامى فى الريف ، يكون بحسب زعمها « بؤرة » للجامعة الاسلامية فى افريقية .

وأما انكلترة ، فهى فى حيرة عظيمة من أمر الريف ، لأنها من جهة ترى اسبانية عاجزة عن المضىّ فى مصارعة أهل الريف ، فلا مندوحة لها من الانكماش فى جوار مليلا وسبتة فى منطقة ضيقة . ومن جهة أخرى تخشى أن فرنسا تفتح الريف فى يوم من الأيام فتصير بازاء جبل طارق ، وفى ذلك من الخطر مافيه ، فتود لو استعصى الريف على فرنسا . ولكنها توجس فى فوز الريف خيفة نشاط ينبعث فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وذلك عندها هو الهلاك الأكبر . وقد عولت أخيراً على منع اسبانية من عقد صلح رسمى مع الريف الى أن تكون ازدادت الحوادث جلاء .

وأما اسبانية ، فانها مخطت الريف من أنفها ورفعته من ذهنها ، بعد تجارب استمرت سنوات عديدة ، فلم تعد عليها الا بالخسارة . وقصارى ماتنويه هو الاحتفاظ بمنطقة ضيقة حول مليلا وسبتة ، ومنع الريفيين عن الاتصال بالبحر ، أملا بأن ينقادوا للحكومة الاسبانية تحت تضييق الحصر ، وأن تلعب بينهم أيدى الشقاق ، فتنال اسبانية بحوادث الدهر ، مالم تنله بوسائل القهر . ولذلك تعلن أن منطقة ابن عبد الكريم لم تبرح تحت « حمايتها » [1] .

---

(١) نشرت (مجلة المجلات) الانكليزية بعددها الصادر فى يناير — فبراير ١٩٢٥ ، ترجمة نداء بليغ لأحد أعاظم الكتاب الاسبان ، السنيور ايبانيز ، أذاعه هذا في بنى قومه فى نوفمبر ١٩٢٤ ، يبين لهم فيه فضائح الملك الفونس الثالث عشر والحاكم بأمره الجنرال بريمودى ريفيرا ، فى سياسة الدولة وفى حرب الريف ، ويدعو هذا الكاتب امته لاسقاط الملكية واستبدال الجمهورية بها . ومما جاء فى هذا النداء المقيم المعقد الذى كانت طيارتان مستأجرتان تجوبان آفاق اسبانية وترميان الناس به كراديس ، انه لما قام

وأما ايطالية، فتزعم انه لا حق لفرنسا فيما لو أخلى الاسبانيول الريف أن تجرد زحوفها عليه، وتبت أمره بدون مشورة الدول . ومرادها بذلك ليس أن تأخذ حصة من الريف الذى لو عرضت جرته على ايطاليا لاعتذرت عن مد يدها اليها، وانما هى مساومة تقصد بها الحصول على التعويض فى مكان آخر .

وأما العالم الاسلامى، فقد تخلى بأجمعه عن الريف، ولم يفكر فى معاضدته بشئ وذلك للاسباب الآتية : —

الأول : انصراف كل من الأقطار الاسلامية الى هم نفسه، والاشتغال بقضيته الوطنية الداخلية . فما كان منها مستقلا تمام الاستقلال مثل تركيا، وفارس، والحجاز، ونجد، واليمن، وافغانستان، تجده مشغولا بلم شعث نفسه، عن اغاثة الريف ولو بما يبل الصدى . وما كان استقلاله لما يتم، مثل مصر والشام، والعراق أو كان باقيا رهن الاستعمار مثل الهند تجده مشغولا عن النظر الى الريف بمسئلة استكمال استقلاله أو الحصول على الاستقلال الداخلى .

الثانى : الازمة الاقتصادية التى ولدتها الحرب العامة، ولا تزال تفعل مفعولها شرقا وغربا

الثالث : فشو الاعتقاد فى تركيا، ومصر، وقسم من بلاد العرب، بأن سياسة الاتحاد الاسلامى شئ مضر بالمسلمين، حافز لأوربا على التألب عليهم، ومنعها استقلال ما يرجى استقلاله منهم، حال كون الشعوب الاسلامية لو قامت بصائحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين، لما وجدت أوربا باساً من اعطائها استقلالها . فاما شعور أوربا بكون الاسلام فى وجهها متماسكا بعضه مع بعض، فانه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق

ملك أسبانية والجنرال بريمودى ريفيرا، منذ عدة أشهر، بزيارة البابا فى الواتيكان، ألقى الملك الاسبانى خطابا لدى البابا، ملؤه الغيرة الشديدة على الكثلكة خاصة والنصرانية عامة . ومما جاء فى هذا الخطاب، قول الملك : —

«ان اسبانية أيضاً قد تجندت لحرب المسلمين فى افريقية حربا لا تنفك عنها حتى تفوز بغرس الصليب فى ديار المسلمين، وجعلت اتباع محمد يخنعون له قهراً» وهذا الخطاب لم يرتجله الملك ارتجالا، بل سبق له فأعده فى مدريد قبل أن أتى رومية، وكان الأب توريس الجزويتى الشهير بمدريد هو الذى أنشأ وأعد هذا الخطاب للملك . «المعرب»

فرج فى وجه أبنائه . وقد زاد هذه العقيدة رواجا فى تركيا ، فشو الدعوة التورانيـة التى معناها ان الأتراك ينبغى أن يكونوا تركا فى الأول ثم مسلمين فى التالى ، بل يذهب الغلاة من التورانية الى محاربة الاسلام بكل الوسائل، لأجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الأتراك . كما زاد ذلك رواجا بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعمـاء ان ادماجهم الحقيقى فى الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفض اليد من الجامعة الاسلامية فـكانت خطة هؤلاء الزعماء مؤثرة فى سياسة الشعب ، لا سيما مع غلو الشعب المصرى فى متابعة ذوى الزعامة فيه . ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية أيضا ، لا سيما بين الحزب الذى انتقض على الاتراك أيام الحرب العامة ، والذى تحالف مع الانـكليز وتمنى فوزهم فى الحرب ، بحجة ان الذى ينبغى أن يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الاسلامية ، وان هذه الجامعة توجب نفور انـكلترة التى كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب . . . بخلاف ما لو كانت النزعة عربيـة قومية ، فان انـكلترة ترحب بها ترحيبا (!) ولقد خاب ظن هذا الحزب ، وتناقص عدده جداً ، ولـكنه ما زال يفر من الجامعة الاسلامية مراعاة لانـكلترة ، أما فى الماضى فثقـة واعتقاداً ، وأما فى الحاضر فخوفا ورئاء . ولقد كان لهذا الحزب العربى المناوئ للجامعة الاسلامية ، اليد الطولى فى حمل الاتراك على نبذها ، لأن التورانيين احتجوا بأنه ان كان العرب الذين ظهر الاسلام بهم وظهروا به ، بدأوا بمعاكسة أوامره ونواهيه ، وأخذوا بالسياسة القومية ، ومالأوا الانـكليز على الترك ، فالترك الذين لم يكن الاسلام الا دخيلا فيهم ، أولى بترك ما تركه العرب من جهته والخلاصـة أن شيوع هذه المبادئ فى الآونة الحاضرة كان مما صرف الانظار عن مساعدة الريف .

الرابع : ان الاعتقاد بكون نجاح الريفيين موقتا ، وانه لا بد من أن تـكون الطائلة الاخيرة لاسبانية . لان المسلمين ، لا سيما المفـكرين أو الذين يقال انهم مفـكرون منهم ، قد عمهم التشاؤم وفقدوا كل ثقة فى الاسلام ، وصاروا ينظرون الى كل مقاومة اسلامية لسلطة أوربية من قبيل حركة المذبوح تحت السكين . ويقولون ان أوربا نائلة منهم كل مرادها لا محالة ، الى غير ذلك من العقائد السياسية التى زادت الاسلام وهنا على وهن ، والتى كان هؤلاء المفـكرون يتبارون فيها اظهاراً لدرجة تعقلهم . وبعـد أفـكارهم عن الخيالات . . . الا ان مصطفى كمال وعبد الـكريم كذبا هـذه المبادئ التى كانت سائدة

بينهم وان انهزام الاسبانيول عن الريف غير متعمدين الكرة عليه آخر مرة ، قد انعش آمال المسلمين ، وأثبت لهم عدم استحالة المقاومة الاسلامية للسلطة الأوربية ، بعد ان كان القول بها عنوان التعقل ودليل بعد النظر . وان ظفر عبد الكريم القاطع ، فتّ فى عضد التشاؤم ، وجذب بضبع التفاؤل ، وصاروا يفكرون بمقتضى قول شاعر الحماسة :

قاتلى القوم يا خزاع ولا   يلحقكم من قتالهم وهل
القوم أمثالكم لهم شعر   فى الحرب لاينشرون ان قتلوا

نعم انهم لا يزالون خائفين على عبد الكريم من فرنسا ولكنهم أيقنوا بأنه يتأتى للمسلم اذا ترجل وقام بالواجب عليه ، أن يصارع الأوربى ويصرعه . فلهجت الألسن لاسيما فى بلاد العرب والهند ، بذكر محمد بن عبد الكريم وأجمع الناس على أنه أحق انسان بلقب « بطل الاسلام » ونشرت أخباره الجرائد الشرقية بالاعجاب ، والجرائد الأوربية بالعجب العجاب ، والجرائد الفرنسوية خاصة بالتشاؤم والارتياب . وظهرت عند الحزب التورانى من الترك غيرة ونفاسة من عظمة عمل محمد بن عبد الكريم مع قلة وسائله ، فتسلوا على ذلك بزعمهم أنه بربرى غير عربى ، وان أهل الريف هم من جنس البربر . ولكن لحظنا أن الأمير محمد بن عبد الكريم يقال له الخطابى وهذا دليل على نسبته العربية ، وسنشرع الآن فى ترجمة حاله اذ أن كتابا فى حاضر العالم الاسلامى ، لا يجوز أن يخلو من ترجمة الامير محمد بن عبد الكريم فنقول : ـ

لا شك أنه ستنشر فيما بعد سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الريفى وتؤلف كتب على وقائعه ، ومنشأه ، وأصله وفصله ، ويستفيض خبره عند الخاص والعام ، ولا يبقى شئ من أمره مجهولا . أما الآن فاننا لا نعرف من خبر نسبه شيئاً ثبتا ، وبلغنى أنه قد أخرج أحد الفلسطينيين فى ترجمة الأمير المشار اليه كتابا اطلعت على وصفه فى جريدة «الشورى» التى ظهرت حديثا بمصر ، ولكنى لم أقرأ فيما قرأته نقلا عن هذا الكتاب فى « الشورى » الا نعته « بالخطابى » ولم أعلم ماوجهه فيجوز أن يكون شريفا فاطميا ، ويجوز أن يكون قرشيا ، ولكن لا بد للتحقق من الاطلاع . فاما ماعندى من المعلومات عنه ، فهو خلاصة أخذتها من فم رجل شريف ادريسى ، يقال له السيد أحمد بن محمد الثمثان من أشراف فاس وله علاقة ببلاد الريف ، وقد وجدت رواية عن وقائع الحرب تطابق أخبار الجرائد

الأوربية والجوائب الطارئة علينا من تلك البلاد .

قال لى ان السيد محمد بن عبد الكريم الذى هو أمير الريف اليوم هو من بنى ورياغل من تاجدرت . و بنو ورياغل هؤلاء هم من القبائل الريفية العاتية على الاسبانيول ، ومعهم بنو تمثامن ، و بنو وليشك ، و بنو تافركسيث ، و بنو توزين ، و بنو سعيد ، [1] و يضم اليهم قسم من بنى الطف ، و بنى بقيوه ، و بنى زرقط ، وهؤلاء هم القائمون بجهاد الريف ، وأكثرهم بربر ومنهم عرب ، ويوجد بجانبهم قبائل مثل قلعية ، والمطالسة ، والعبابدة ، وكبذانة [2] ، قال : وعدد الجيش الدائم الذى يقاتل الاسبانيول هو ٣٠ ألفاً ، وانما المقاتلة فيه تحضر بالمناوبة ، كل ثلاثة أيام النوبة على قسم . وكثيراً ما قرأت فى الجرائد الأوربية أن الجيش الريفى لا يتجاوز ٣٠ ألفاً ، مع أنه يناوىء من ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندى منظم من الاسبانيول . والأمير هو فى نحو الثالثة والاربعين من العمر ، كان قاضيا عند الاسبانيول فى مليلا ، وكان تحصيله للعلم بمادريد ، وكان الاسبانيول يحبونه جداً ، ولكن وقعت له واقعة فى مليلا تحامل عليه بها الاسبانيول ، فخاصمهم ، فالقوا به فى السجن ، ففر منه بان رمى بنفسه من النافذة ، فانكسرت فخذه واحتمله الاسبانيول الى المستشفى حيث بقى الى أن انجبر كسره ، فلاطفه الاسبانيول وحملوه على البقاء فى منصبه ، ولكنه كان فى نفسه قد آلى أن يفارقهم و يلحق بقومه . ومما هو متواتر أن سبب خصامه مع الاسبانيول ، بعد أن تربى ونشأ وتولى القضاء عندهم ، هو ما كان يراه من عسفهم بابناء قومه ، واحتقارهم للمسلمين ، ومعاملتهم اياهم بما يعامل به السيد عبده أو بما يعامل به سائر المستعمرين الأوربيين أهالى مستعمراتهم . وقد اطلعت فى جريدة « الأومانيته » الاشتراكية الفرنسية ، على فصل لكاتب اشتراكى اسبانيولى ، بعثت به الى جريدة « السياسة » بمصر فعربته ونشرته ، فان صح جزء من الأخبار الواردة فيه من طغيان الاسبانيول وتعديهم على حقوق المسلمى ، وخبطهم اياهم بعصا القهر الى تجاوزهم على أعراض النساء ، كان كافيا لأشعال هذه الثورة عند شعب مثل هذا الشعب الباسل ،

قال لى الشريف الذى روى لى خبر محمد بن عبد الكريم : وكان الاسبانيول يومئذ

---

(١) وسلف هؤلاء من الاندلس

(٢) هؤلاء كانوا فى البداية مذبذبين

فى حرب مع أهالى الريف ، على حسب العادة باستمرار الحروب بين الفريقين . وكان لا يقدر مغربى على الخروج من مليلا الا باجازة من الحكومة الاسبانية . وكانت هذه الحكومة قد عهدت باعطاء الاجازات ووضع الاشارات على التذاكر الى ابن عبد الكريم نفسه . فاستأذنهم فى الخروج من مليلا ، فلم يأذنوا له ، ففر من مليلا خفية الى تاجدرت من طريق البحر . والمسافة بينهما فى البحر أربع ساعات . وقبل فراره كان عنده فى البنك ١٧ ألف ريال فسحبها منه ، وقطع علاقته مع مليلا ، ووطن نفسه على قتال الاسبان .

وكان هؤلاء قد بنوا ٤٦٠ معقلا وثكنة للاجناد ، وشحنوها بالمقاتلة والعتاد ، وكانت كل قبيلة تقاتل فى أرضها منفردة بدون نظام يجمع بينها . ولا علم يوحد حركاتها . فبمجرد وصول ابن عبد الكريم أبرم بينها اتفاقا أكيداً على الحركة الباً واحداً فى وقت واحد فحصرت القبائل جميع هذه الثكن وهذه الحصون ، وقطعوا عنها الماء فكاد يهلك الجنود الذين فيها عطشا فصارت اسبانيا تبعث اليهم بالجمد والثلج بالطيارات لتبل من ظمأهم . ولكن لم يطل الأمر حتى اضطروا الى التسليم بعد ستة أيام من وقوع الحصار . وكان فى كل ثكنة مئات من العساكر ، فاخذهم المغاربة وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، واستحيوا الضباط وكانوا ٥٧٠ ضابطا فارسل الاسبان الى ابن عبد الكريم يلتمسون منه ارسال الضباط ، ويقولون له ان أرسلت الضباط نخل لك مليلا . فاجابهم : لا نريدان تخلوا مليلا ، ولكن ارسلوا بمؤونة الضباط والا ماتوا جوعا . فارسلوا اليه بملء باخرة ارزاقا ، ومعها مبلغ عظيم من المال . وقد هدم الريفيون جميع هاتيك الثكن والنقاط العسكرية ، وأخذ كل ما فيها من سلاح وكراع ومتاع ، فكانت جملة الغنائم ١٦٠ مدفعاً ، و ١٥٠ رشاشا ، و بنادق لا تحصى ، وأمتعة لا يقع عليها حصر . وضيق المغاربة على مليلا ، وأحرقوا قطر السكة الحديدية والمحاط ، وفر كثيرون من الاسبانيول فى البحر الى بلادهم . قال لى الراوى :

ورشى الاسبانيول قبيلة « قلعية » و « بويحى » بواسطة رجل يقال له عبد القادر بن شلال ، فانحازوا الى الاسبانيول ، ولولا خيانة غمارة و بويحى وقلعية والعبابدة لم يبق من الاسبانيول أحد فى تلك الديار . قال : و بعد أن فاز الريفيون هذا الفوز اجتمعوا فى محل يقال له « انوال » وانتخبت كل قبيلة قوداها ، ورتبوا ما يلزم للحرب ، وبدأوا بحفر

الخنادق ، وجعلوا جزاء على كل من يتخلف فى النوبة عن الرباط ، وجزاء على كل من يترك الصلاة ، واتفقوا على قتل القاتل ، ورجم الزانى ، وقطع السارق . وهذه الحادثة وقعت من نحو ثلاث سنوات . اه

وسالت الشريف المذكور عن الرسولى وما شأنه ، وما هى نسبته ، وما هى خطته فى الريف فقال لى : ان الرسولى هو من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش الولى الكبير الحسنى الادريسى شيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما . وله مقام بجبل العلم (محركة) على مسيرة ستة أيام من فاس وثلاثة أيام من الريف . ومسكن الرسولى فى الريف هو بجوار غمارة ، والخماس ، ووادرس ، وهى قبائل كثيرة يسكتها الرسولى بأموال يأخذها من الاسبانيول . اه .

والظاهر ان الشريف الذى روى لى هذه الأخبار يشير بما تقدم الى الواقعة التى جرت سنة ١٩٢١ فى شهر يوليو واستأصل الريفيون فيها ٢٥ الف مقاتل ، وقيل بل أكثر من ذلك جداً ، وغنموا ١٧٠ مدفعا على رواية الجرائد الأوربية ، و ١٠ طيارات و ٧٠ الف بندقية ، ومقدارا لا يقع عليه الاحصاء من القرطاس المحشو ، وارزاقا فى غاية السعة ، وفى الحقيقة أن الريفيين يحاربون اليوم باسلحة الاسبانيول وعددهم وعتادهم . وقد هجع الاسبان بعد هذه الواقعة نحو سنة ، ثم جهزوا بعوثا جديدة نحو مائة وستين الف مقاتل ، فصادمها الريفيون بقلوب من حديد ، وردوها على أعقابها بخسائر فادحة . ثم لما آل الأمر الى الجنرال دوريفيرا ، الحاكم بأمره اليوم فى اسبانية ، وكان مذهبه ترك الريف، أراد أن يطبق برنامجه هذا من التسحب الى ساحل البحر ، فثارت عليه الضباط والقواد ، ورأوا فى التقهقر الى الوراء امام قبائل بربرية وقوة غير منظمة ، ذلة ومهانة لا تليقان بدولة أوربية ، فالتزم مجاراة رجال العسكرية ، وذهب بنفسه الى مليلا ، وتولى القيادة ، وظن أنه آخذ قريباً بناصية عبد الكريم ، وصرح بذلك على الملأ . فلما بدأ القتال ، صلى من نار الريف بنار لم يقو على أوارها ، وبعد وقائع متوالية ذهب فيها من الاسبانيول أكثر من ٢٠ الف مقاتل عاد الجنرال المذكور الى رأيه الأول ، وأخرست عظمة الخسائر الاسبانيولية بالمال والرجال أفواه أولئك الذين كانوا يرعدون ويبرقون ، بل صاروا راضين من الغنيمة بالاياب . فسحب الجنرال الجيوش الى الوراء ، واختط خطا فى جوار سبتة

ومليلا ، يدور على منطقة صغيرة لا نعلم مقدار سكانها ، لكن يرجح أنه لا يكون أكثر من ٨٠ أو ٩٠ الف نسمة . وقد كان الاسبانيول أثناء اخلائهم المراكز الريفية ، ونكوصهم على الأعقاب ، عرضة لمهاجات الريفيين الذين كانوا لا يمهلونهم فواقا ، فلما دخل الأسبانيول المنطقة التى اختطوها لأنفسهم ، عدوا ذلك فوزاً عظيما ، أى حسبوا ظفراً كونهم لم يهلكوا جميعاً . وعاد الجنرال ريفيرا الى مادريد ، بعد أن باء بالفشل وأصيبت جيوشه بالرزايا الوجيعة ، ولكنه قوبل فى عاصمة الاسبان مقابلة فاتح آب من الحرب بفتوحات عذراء وتلقى الأسبانيول خبر الانكماش الى سيف البحر والاكتفاء بمنطقة ضيقة جداً ، كبشرى فرحوا وتهللوا بها . هذا بعد أن كانوا ينزلون صواعق النقم بمن تحدثه نفسه بترك شبر أرض من الريف أو صلح مع عبد الكريم .

والنفس راغبة إذا رغبتها　　وإذا ترد الى قليل تقنع

وصدق من قال : السيف وجهه أبيض . ولى فى هذا المعنى من قصيدة :

فدا لحمانا كل من يمنع الحمى　　ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فما العيش الا أن نموت أعزة　　وما الموت الا أن نعيش ونسلما
تأملت فى صرف الزمان فلم أجد　　سوى الصارم البتار للسلم سلما
ولم أر أنأى عن سلام من الذى　　تأخر يعتد السلامة مغنما
يقولون وجه السيف أبيض دائما　　وما ابيض الا وهو أحمر بالدما
فان كان دفع الشر بالرأى حازما　　فما زال دفع الشر بالشر أحزما
تجاهل أهل الغرب كل قضية　　اذا لم يجئ فيها الحسام مترجما
وكابر قوم ينظرون بأعين　　ألا عمه الانسان أعمى من العمى

وقضية الريف هذه هى أيضاً من القضايا التى تجاهلتها أوربا ، ولم تفهم فيها أدنى نغية ، حتى جاء فيها الحسام ترجمانا فصيحا فأصغى اليه الجميع . وأتذكر اننا لما كنا فى لندرة فى يوليو سنة ١٩٢٢ لأجل الاحتجاج على مجلس عصبة الأمم عندما قرر مايسمونه « بالانتداب » الفرنسى على سورية و « الانتداب » البريطانى على فلسطين ، تلاقينا فى عاصمة انكلترة باثنين من جماعة الأمير محمد بن عبد الكريم ، أحدهما السيد عبدالكريم ابن الحاج على ، والثانى السيد محمد بن محمدى صهر الأمير ، وكانا موفدين من قبله الى الدولة

الانكليزية لأجل طلب وساطتها فى الصلح ، فدارت بينى و بينهما أحاديث طويلة ، وكانا لم يحصلا على جواب شاف من انكلترة على ما التمسا ، فقلت لهما : « لا أظن أن انكلترة تقبل هذه الوساطة وهذا محافظة منها على رضى دولة اسبانية أولا[١] ، ولما تعتقده من كون الاسبانيول لابد من أن تكون الغلبة الأخيرة لهم ثانيا . والذى أشير عليكم به هو أن تطلبوا الوساطة ، لكن بدون تهافت يشعر بالضعف ، لأن انكلترة لاتحب ضعيفاً . وانني على يقين بأن الانكليز إذا رأوكم قدثبتم فى مواقفكم الى الآخر يعودون فيستمعون لكم» وهكذا حصل فبعد أن كانت الجرائد الانكليزية مثل التيمس ونحوها تعرض عن الريف والريفيين ، وتصد عن كل كلمة صلح بينهم و بين الاسبان ، صارت تشير على هؤلاء بحسم هذه المادة ، وتتكلم فى عقم هذه الحرب وضررها باسبانية ، وحسبك ان من جملة من ذهبوا الى وجوب مصالحة الاسبان للريفيين ، أى الوقوف عن التجريدات والحملات ، هو لويد جورج ، فىمقالة حررها بهذه السنة ولم يكن السبب فى ذلك سوى ماشاهده الانكليز من ثبات الريفين مع النجاح .

وهذا لايمنع من كون انكلترة تهوى هذا الصلح بشرط أن لاتتأسس فى الريف دولة اسلامية مستقلة ، يكون شأنها مثالا لغيرها ، وتمتد شرارتها الىسائر المستعمرات ، لأنالبلاد الاسلامية مهما تناءت بعضها عن بعض سريعة التأثر بعامل واحد . على أن الجرائد الانكليزية تشبه سياسة النكوص الاسبانى عن الريف بحركة الانكليز فى الهند الشمالية الغربية[٢] اذعول الانكليز هناك على التخلية بعد الدخول، وقد ردت عليها بعضالجرائد الاسبانية بأن الفرق عظيم بين المكانين ، لأن بلدان الهند الشمالية الغربية خارجة عن

---

(١) وهذا هو تصريح مستر تشمبرلين وزير الخارجية يؤكد هذا الرضى والعطف . فقد نشرت جريدة « الاهرام » في ١٧ فبراير ١٩٢٥ ، برقية لمراسلها الخاص فى لندن تحت عنوان (موقف انكلترا تجاه حرب الريف) مايلى :—

تكلم مستر تشمبرلين فى مجلس النواب البريطاني اليوم . ومما قاله عن حرب الريف مايأتى :

« يسرنى أن أغتنم هذه الفرصة لأنكر صراحة جميع الأنباء التى ذاعت فى طنجة عن حصول الريفين على عطف الحكومة البريطانية ومساعدتها فى حملتهم على اسبانيا . فالحكومة البريطانية تعطف على الحكومة الاسبانية فى المصاعب التى أمامها فى مراكش وقد رفضت فى كل حين وما زالت ترفض اظهار أي رضى عن علاقات أو مخاطبات بين بعض الرعايا البريطانيين وعبد الكريم » . (المعرب)

(٢) أفغانستان وما جاورها

الطرق العامة العالمية ، بخلاف الريف و « الجباله » الواقعة على مضيق جبل طارق ، وقد حثت هذه الصحف الاسبانية على اتحاد الدول الأوربية فى وجه الاسلام واعتبرت تقهقر الاسبان الحالى أمراً موقتا .

وقد اطلعنا على بعض مقالات واردة فى الصحف الأوربية لمشاهدى عيان ذهبوا بأنفسهم الى الريف وتحادثوا مع الأمير ، وسبروا غور الأمور الريفية ، فمنها رسالة للكابتن سبنسر برايز والكابتن غوردون كاننج ظهر تعريبها فى جريدة الاهرام بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٤ نقلا عن جريدة « مانشستر غارديان » وهى التى تقدمت فى هذا الكتاب وفيها فوائد شافية .

وجاء فى جريدة الجورنال الفرنسوية رسالة لمكاتبها المسيو جاك مارسيلياك ظهرت فى الجورنال بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٢٥ أى منذ خمسة أيام ، يصف فيها الكاتب قرية اجدير مقر ابن عبد الكريم ، ثم يصف الأمير ، ويروى مادار بينهما من الحديث بحضور من يقول ان اسمه « ازرخان » وهو ناظر الأمور الخارجية فى دولة الريف ، وسيدى عبد السلام ناظر المالية فيقول ان عاصمة امارة الريف المستقلة عبارة عن قرية صيادى سمك فيها مساكن عبدالكريم وأعوانه ، وكلها أبنية بسيطة ، ليس فيها شئ من صنعة البناء ولا تطاول البنيان . وذكر منها المقعد الذى استقبله فيه الأمير ، وليس فيه شئ سوى حيطان مجيرة بالكلس البسيط بدون زخرف ولا نقش ، وبعض كراسى من المتاع المأخوذ من الاسبانيول . وذكر ان عبد الكريم هو فى نحو الأربعين من العمر ، وفقا لما تقدم من كلام الشريف أحمد بن محمد الثمثان . وكذلك يقول مارسيلياك انه يعرج من احدى رجليه ، وهذا أيضاً مطابق لما سبق من رواية الشريف ، وانه متوسط القامة ، أسود العينين ، حاد النظر ، أفلج الأسنان ، ذو لحية سوداء خفيفة ، بسيط الملبس كل ماعليه جلابة من تحتها ثوب من القطن وهو محتذ بابوجا أصفر ، وليس فى أصبعه خاتم ولا عليه شئ من الشارات المعتادة للامارة ، وعليه ملامح رجل ساكن ، رابط الجأش ، راجح العقل ، موفق الطالع وكثيراً ما يتبسم قال المكاتب :

« صافحنى الامير ، ودخلنا فى الحديث تارة بالاسبانيولى الذى يجيد الكلام فيه ، وطورا بالعربى الذى يختار المكالمة فيه بواسطة الترجمان ، لأجل أن يطلع أصحابه على معنى المحاورة

ولم يطل عليّ الديباجة بل سألنى فوراً عن غرضى من هذه الزيارة فقلت له : لما كنت قد عقبت حركات الجيش الاسبانى كنت شديد التوق الى معرفة ذلك الذى تمكن من تلك الطوائل الحربية عليه . ونحن نبغي أن نعرف فى فرنسا ما هى غايتك من هذه الحرب ؟أهى نشر لواء القتال لطرد الأجنبي أيا كان ، أم هى مجالدة لأجل الريف فتى استقل الريف كفى الله المؤمنين القتال ؟

فأصغى عبد الكريم الى الآخر ، شأنه فى جميع مفاوضاته ، ثم قال : عرفت ماذا تريد أن تسأل عنه . ان الجنرال دو ريفيرا وأصحابه أرادوا أن يحدثوا شبهة ، بأن يذيعوا كون مرادنا حربا دينية لا حربا وطنيــة ، وأن مرمانا هو ن نطرد من المغرب جميع الافرنج ، فهذا كذب : نحن نريد الريف ولا نريد غير الريف .

فقلت له : ان بعض الناس ممن لهم خلطة بك يزعمون أن مرادك الوثوب على المراكز الفرنسوية فى « ورغا » ، واذا خرقتها زحفت الى فاس حيث يبايعك القوم سلطانا على المغرب فى جامع سيدى ادريس .

فقال : هذه كلمات مسلوب من العقل ، وأنا والحمد لله أظن نفسى عاقلا .

فقلت : مع ذلك وجد بين المقاتلة التى صدت جنودنا على الحدود التى لم نتجاوز فيها على الريف رجال من ربعك . فأنت تكون فى مقاومتك للسلطان قد هاجمت فرنسا .

قال : صحيح انه كان بعض رجال من جماعتى بين الذين قاوموكم فى زحفتكم هذه . وذلك أنى كنت راجعتكم بعدة كتب ، أسألكم فيها ماذا تبتغون من هذا التقدم ، وما هى المراكز التى هى هدفكم ، فأبيتم الجواب . ومن جهة أخرى كان رؤساء الناحيــة يستصرخوننى ويتذمرون من عدم اعتنائى بهم ، وعليه فأنتم تدرون المركز الذى وجدت فيــه حينئذ . فانا لست عدوا لفرنسا بل أنا باغى الاتفاق معها . وفى أثناء أزمات شديدة كنتم تعانونها كان كثير من الزعماء يحرضوننى على القيام والزحف عليكم ، فكنت أرفض اقتراحهم لا بل أشير عليهم بمصالحتكم وطالما كتبت لكم عن ذلك ولكن ولا مرة حظيت منكم بجواب ، ولا لمجرد المجاملة .

فقلت له : وأنت أيضا ينبغى لك أن تعرف مركزنا فى مسئلة الريف ، فاننا نحن مقيدون بعهود نعترف بها لاسبانية بأنها هى وحدها صاحبة الريف .

فقال الأمير : الريف هولى ولأصحابى أهل البلاد [١]

فقلت : لماذا لم ترفعوا احتجاجاتكم فى وقتها ؟ ولماذا لم تؤيدوا حقوقكم يوم انفصلت قضية المغرب فى مؤتمر الجزيرة ؟

فقال : ان عهد الجزيرة كان ضامناً لناجميع حرياتنا الاقتصادية ، والتجارة ، والدينية فمنذ ابتدأت اسبانيا بغصب حقوقنا ، رفعنا احتجاجنا . وطالما نبهت أنا الحكومة الاسبانية الى المظالم والمغارم التى كان رجالها يرتكبونها ، و بينت لها الطريق المضلة التى تسير عليها فلم يشأ الاسبان أن يلتفتوا الى كلامى . [٢]

فقلت له : أكدوا لى فى تطاون انك تنوى محاربة فرنسا ، وان نيتك هذه قديمة منذ سنة ١٩١٤ اذ أردت اثارة القبائل علينا وهربت اليهم السلاح .

فثار دم عبد الكريم عند هذا السؤال الخشن وقال بحدة : لما كنتم فى نضال مع عبد المالك كانت سيرتى معكم معروفة . وأما تهريب السلاح فقد كنت عاملا عند الاسبانيول لما حصل وكانت قوافل السلاح تخرج من مليلا تخفرها ضباط الاسبانيول وهى لتجار المان . ولقد أثبت بعد مصير الريف الى رياستى اننى أود الاتفاق مع فرنسا . ولقد جاءتنى كتب من المغرب ومن جميع بلاد الاسلام تحثنى على قيادة الحركة لطرد كل رومى من المغرب [٣] فأبيت ذلك حباً للسلام معكم . أما أنتم فكنتم دائماً تقابلون تقربى اليكم بالانقباض ، ومنعتم أن تمر فى منطقتكم الى أقل الاشياء ، فلم تسمحوا بمرور حتى أدوات الحرث ، والمجارف ، والمعاول ، والجير ، والزيت اللازم للاوتوموبيلات .

فقلت له : أظن اننا اذا تكلمنا بحرية نجد الفرنسيس فى هذا غير مخطئين . اذ متى اعتقدنا أنك ستهاجمنا فى أحد الأيام ، فلماذا نسمح لك بمرور المعاول والمجارف ؟ أفلأجل أن تحفر بها خنادق للقتال ؟ أو نسمح لك بالكلس لأجل أن تشيد به مواقى للرشاشات ، و بمادة لتسير السيارات الكهربائية لاجل سرعة حركة أركان حربك . فهذه المواد ان لم

(١) على قاعدة مصر للمصريين وسورية للسوريين والريف للريفيين

(٢) سيرة الاستعمار واحدة فى جميع البلدان

(٣) هذه رواية مارسيلياك الفرنسوى عن عبد الكريم ، ولا ينبغى أن نتلق جميع ما يرويه آية منزلة ، لأن الصحفيين الأوربيين لا يرون الا ما فى اذاعته مصلحة لدولهم . واذا لم يجدوا بدا من النقل زادوا ونقصوا ، بحسب مقتضى مصلحة قومهم

نمنعها نحن رعاية للعهود مع الاسبانيول ، منعناها من أجل الشبهات التى عندنا من جهتك أفترى الحرب الدينية مستحيلة الى هذه الدرجة ؟ على أن فرنسا لم تزل تحترم دين البلاد التى تحتلها كما هو فى المغرب وسائر مستعمراتها .

فقال : قلت لك انى أعتبر فرنسا نوعا من ملكة للاسلام ، ولا أقول انها تضطهد المسلمين وأنا ممن يرى اطلاق الحرية الدينية للمسيحيين أيضا فى بلادنا . فهذه الاديان كلها صالحة ، ديانتكم صالحة لكم وديانتنا صالحة لنا . ويكفى للاتفاق فى هذه النقطة وغيرها صدق النية وحسن الارادة من الجانبين

قلت له : اذاً ان صرت أميرا للريف غير مدافع ترضى بدخول الأجانب الى مملكتك

فاجاب : هذا بدون شك . أفلا ترى كيف نعامل من يقدم علينا من الفرنسيس ، وكيف قوبلت أنت . اننا لذوو رغبة أكيدة فى الاخذ والعطاء معكم لتتجروا عندنا ونستفيد من أساليبكم .

قلت له : وفى ورغا ! أفلا ترى لنا حقا أن نصل الى حيث وصلنا ، أم أنت تبغى مهاجتنا هناك ؟

قال : هذا الحد هناك لا أعرفه جيداً ولا أظن ان قد جرى هناك تخطيط حدود بين المنطقتين . مع هذا أنا مستعد للمناقشة فى هذه المسئلة مع الميل الاكيد للتسوية . انى لست برجل سياسى وأرى الاولى الحرية والصراحة فى القول ، فانا أرجو منك أن تقول علنا انى أود الاتفاق مع فرنسا وانى أبذل كل ما فى طاقتى فى هذه السبيل .

قلت له: اسمح لى أن أراجعك أيضا فى مفاوضة اسبانية معك فى الصلح واشترطت عدا أداء الغرامة تسليم معدات حربية ، لاسيما من المدافع ذات العيار الكبير ، فالى من توجه هذه المدافع ؟ بديهى ليست موجهة نحو الاسبانيول لأنك ستصالحهم . اذاً مرادك بأخذها حرب فرنسا .

فتبسم عبد الكريم ساعتئذ . وقال: ان المفاوضة المذكورة لم يكن هو الذى تولاها ثم قال : هذه مساومات فعلى فرض اننا لم نحصل على الذى طلبناه كله فلا ينبغى من ذلك تعطيل كل شىء .

وصلت عند ذلك الى مركزه بازاء سلطان مراكش وهى أدق المسائل . وكنت أعلم

ان الكثيرين رغبوه فى اعلان الخروج على السلطان وأن يتخذ هو لقب سلطان لنفسه . ولكن عبد الكريم ظهر بمظهر رجل حكيم موزون العقل ، لم تسكره فتوحاته المدهشة ، ولا أضاع فى ظفره الحزم والروية ، فانه أقنع أصحابه بالاكتفاء بلقب « أمير » ولذلك مغزى كبير اذ لو رضى أن يحمل لقب « سلطان » لصعب عليه فيما بعد أن يطيع سلطان مراكش . ولقد تلطفت كثيراً معه فى المدخل بهذه المسئلة ، وتحوطت كثيراً بحيث لاأسوءه عند ذكر السلطان مولاى يوسف الذى يسميه أعداؤه « بسلطان الفرنسيس » .

فأجابنى : كتبت اليه مراراً بأن يضع حداً لتعدى الاسبانيول بما له من صفة سلطنة المغرب ، فلم يجاوبنى ولا مرة . (١)

فقلت : وهل تابى أن تعترف به الآن سلطاناً للمملكة الشريفية كما قد يطلب منك الفرنسيس ؟

ففكر قليلا ثم قال : ولماذا لا ؟ وان الفرنسيس ماهرون فى ايجاد الصيغ . فليجربوا العمل فقد يجدون صيغة يمكن أن أرضاها » انتهى .

من تأمل فى هذا الحديث مع كونه من الممكن أن يكون الراوى الفرنسوى اختزل بعض مالايوافقه منه ، يحكم بدهاء محمد بن عبد الكريم فى السياسة ، و بعد غوره فى المفاوضات الدولية ، وتحاشيه مالايفيد من الكلام ، و يقول انه أهل لما صار له ، وانه أصبح الخوف عليه قليلا ، الا ان طرأ ماليس فى الحساب .

أما فرنسا ، وهل تقنعها تأكيدات ابن عبد الكريم المكررة بحبه لها وخطبته لولائها ! لانعتقد ذلك أبدا . انما نعتقد انها مادامت أحوالها المالية غير مساعدة لها فلا تعلن عليه حربا ، وتكتفى بمصانعته ، كما يريد هوان يصانعها . وما تجده يكرر من خطبته ولاءها الا لما يعلم من ثقل ظفره على كل أوربا ، ولاسيما على فرنسا ، ومالايخفى عليه من تحفزها لصده وتوجسها خيفة مجده . فهو يحاول أن يسكن روعها بالتودد ، و يخدر أعصابها بالقول اللين ، وكل هذا يدل على عبقريته فى ادارة السلم ، كعبقريته فى ادارة الحرب .

فدحت فى أهل الريف الرزايا ، وعظم نقصهم فى الأنفس والثمرات ، وفشت فيهم الجراحات والعاهات ، وعضتهم المسغبة بأنيابها ، مما هو كله بديهى بالنظر الى فقرهم ،

(١) لانه مادام الفرنسيس لايجاوبون فمولاى يوسف لايقدر أن يجاوب

وضيق أراضيهم ، ووعورة مسالكهم ، وتأخر المدنية فى بلادهم ، مع تفوق عدوهم عليهم فى كل الوسائل . ولقد مضت على الريف بضع سنين وهم فى أشد بلاء ، وأعظم كرب ، وتولوا كبر هذه الحرب ، ولم تمتد اليهم يد مسعف ولا منجد من جميع العالم الاسلامى برغيف خبز ، ولا ضمادة جرح ، ولا زجاجة حامض فينيكى . وقد كان الأمير محمد بن عبد الكريم خاطب العالم الاسلامى بمنشور بعث به منذ ثلاث سنوات مختصا به مسلمى الهند ، والصين ، والافغان ، والجاوى ، فلم يعج بالترك ، ولا بالعرب ، ولا بالمصريين ، ولا بالمغاربة لعلمه ان الترك هم فى شغل عنه وعن غيره . وان العرب يكفيهم ماهم فيه من التخاذل والتواكل ، فيما هو أدنى اليهم من الريف فما ظنك بالريف ، ولا بالمصريين لماهم فيه من الانصراف الى مسئلة مصر دون غيرها ، حتى فى الأمور التى ليست من السياسة . ولا بالمغاربة لثقل الضغط الواقع عليهم الحائل دون أدنى مساعدة للريف من جانبهم . وكذلك لم يكتب فى منشوره الى أولئك كلمة يستمدهم فيها الاعانة بالمال أو القوت ، وانما عرفهم انه مع العدو المعتدى فى جهاد .

وكنت فيما أظن ، أول من نبه فى الصحف السيارة الى وجوب اغاثة الريف بمعالجة الجرحى ، ومسك ارماق الأطفال والعيال الذين برحت بهم هذه الحرب الضروس . وحررت فى ذلك النداء تلو النداء ، فلم أحس أدنى نجدة . ثم تصدى لهذا الموضوع الأستاذ الفاضل الشيخ فراج المنياوى رئيس جمعية تضامن السادة العلماء بمصر بعد خطاب ورده من معتمد امارة الريف بطنجة ، فنشر نداء فى الجرائد المصرية لم يكن فيه الا كالنافخ فى رماد . ولكن وردت الأخبار الأخيرة بأنه جدت حركة فى الهند لارسال بعثة طبية الى الريف لمعالجة الجرحى والمرضى . وقد بدأ بعض الناس بمصر يتبرعون بشىء ، فربما تهتاج الحمية ، وتأخذ القلوب الرأفة ، فيزداد التبرع ولا ينحصر فى مصر والهند . وقد اطلعنا على رسالة واردة الى الاهرام بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٥ بامضاء « محمد سعد الدين الجباوى » الذى يقول انه كان هناك فمن الاطلاع عليها غنى عن التعريف بالحال الحاضرة فى الريف وهى هذه :

« عدت من الريف منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن مكثت به مدة من الزمن ، وقد تحملت مشاق ومخاطر فى سبيل الوصول الى تلك الديار يعجز قلمى عن سردها . وأهم تلك الموانع كان اجتياز الحدود الفرنسية الريفية تارة ، واختراق المناطق العسكرية الاسبانيولية ليلا تارة أخرى ، بين الجبال ، وذلك فى منطقة الرسولى التى يطلق عليها اسم « الجبالا » وقد حيل

بينى و بين الوصول الى حدود المنطقة المذكورة من قبل الرسولى ، حتى أرغمت على العودة بعد اجتيازى مائة وخمسين كيلو مترا فى مرتفعات صخرية صعبة المسالك ، الى أن تمكنت من الدخول عن طريق « وجدة » و بلاد « المطلسة » رغما من المراقبة الفرنسية ، وذلك بواسطة مندوب الأمير ورجاله ، الذين يدخلون ويخرجون الى المنطقه المذكورة بقصد شراء مواد اقتصادية .

«وقد كنت ضيفاً مدة وجودى كلها بالريف، فى منزل دارجمهورية الريف ومع وزير الداخلية القائد يزيد ، الى أن اقتضى الحال عودتى الى هذه الديار السعيدة لطلب النجدة والمعونة من هذه الأمة النبيلة ، وهذا الشعب الكريم ، ولاشك انهم ملبون الدعوة لتكوين هيئة صحية ، باقرب مايستطاع ، وارسالها باسم الهلال الاحمر لاسعاف المجاهدين عن أوطانهم والمدافعين عنها بكل ماأوتوا من قوة .

«و بهذه المناسبة ننفى على صفحات جريدتكم الغراء صحة الاشاعات التى أشيعت على لسان الجرائد الأجنبية ، و بالأخص منها الفرنسية من أن بالريف ضباطا من الترك والالمان ، وان هناك أجانب يبيعونهم أسلحة ، وكذلك ننفى ماأشيع منذ مدة من أن الهلال الاحمر العثمانى أرسل بعثة صحية .

«و يعلن الريف الى العالم انه ليس للمجاهدين بالريف كبيرهم وصغيرهم مآرب الا الاستقلال التام ، وهم يدافعون عن أنفسهم غير مأجورين من رئيس جمهوريتهم الأمير عبدالكريم، ولا مرغمين من حكومتهم على ذلك. وهم وحدهم بشجاعتهم وقوتهم المعنوية وأساليبهم الحربية ، وذكائهم الفطرى ، حصلوا على كميات وافرة جداً من أعدائهم الاسبانيين من مدافع ميدان مختلفة العيارات ومدافع مترليوزات تعد بالمئات ، عدا بضع طيارات ، وكذلك لديهم جميع مايحتاج اليه هذا العدد الوافر من الذخائر الحربية المنوعة.

«وقد كان لبعض الجنود الريفيين الذين كانوا يخدمون فى الجيش الاسبانى قبل هذه الحرب نشاط عظيم فى تعليم أبنائهم استعمال هذه الأدوات الحربية بطريقة فنية ، حتى أصبحوا اليوم كما يعلم العالم ، قادرين ان شاء الله على مقاومة أكبر عدو يريد الاعتداء على استقلال بلادهم .

وهم يعلنون للعالم أنهم لايريدون من هذه الحرب الا استقلال بلادهم ، وهم يحترمون

المناطق المجاورة لهم إذا احترمت مناطق حدودهم ، والريف يفضل الاتفاق مع أقرب جارة من الدول اليه للاشتراك فى استخراج معادنهم ، اذ تكون المنفعه متبادلة بين الحليفين ، اذ لا يمكن لأمة على الأرض أن تعيش وحدها منقطعة عند العالم .

«والشعب الريفى يرجو تذليل صعوبة الطريق ، ويرجو ذلك من الأمة الفرنسية وحكومتها فى داخل منطقتها للهيئة الصحية المنتظرة اذ يكون هذا التسهيل اعلانا للرغبة فى توثيق عرى المحبة والوداد بين الريف و بين فرنسا .»

محمد سعدالدين الجباوى

ولا نظن الا أن العالم الاسلامى يعطف أخيراً على الريف ، و يلبى استغاثة أهله ، لاسيما وقد جاء منهم هذا البطل العظيم أحسن الله عاقبته .

التعصب الاوربي أم التعصب الاسلامي ؟

الاول هو الأشد بشهادات شهود من أهله

ومائة مشروع لتقسيم تركيا

الأمير شكيب

ما زلنا نؤكد أن الأوربيين فى عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصبا [١] ولا جفاء وان تاريخهم فى الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم فى المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورها فى الدماء ومن استئصالهم شأفة المسلمين من الاندلس، وصقلية وجنوبى فرنسا وسردانية، مع انهم كانوا يحصون فى هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول، فقد عنى الاوربيون كل أثر للاسلام فى أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقى تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون فى أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذى منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدى الذى يمنع الاكراه فى الدين ويرضى من المعاهد بالجزية . وقالوا ان السلطان سليمان القانونى كان فكر فى سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم فى الممالك العثمانية، وأحب اخراجهم، وقيل بل السلطان سليم، وكان كل مرة يعترض فى ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذى هذب الأتراك وحال بينهم و بين طرد المسيحيين من

(١) راجع صفحة ١٥ من الجزء الاول

ديارهم ، فلماذا ياليت شعرى لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس واساقفة الكنيسة فى اسبانيـة ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع فى العرب واليهود ممن بقى على ديانته سراً الى أن جلوهم بأجمعهم عن ذلك القطر الذى أوطنه العرب زهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يجيز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصى الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التى هـذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم . . . . .

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحرياً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الاوربى مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلا عنهـا أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم مجبولين من طينة هى غـير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بنى جلدته بالعين التى يرى بها عورات غيرهم من الأقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة فى موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد فى الدنيا أقل تسامحاً وسجاحة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الأندلس قالوا ذاك شئ آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شئ آخر . وبعضهم يقول هـذه حوادث جرت فى القرون الوسطى . فاذا سلمنا بكونها جرت فى القرون الوسطى فـاذا يقولون فى الموبقات والفظائع التى جرت من الجنس الأبيض الأوربى فى هذا العصر نفسه سواء فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين ممـا فعلوه فى مستعمراتهم بافريقيـة الوسطى وشمالى افريقية والكونغو والسودان المصرى وبما فعلوه فى الهند وغيرها من آسية بل بما وقع بمعرفة منهم فى الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بمـا أوقعه بعضهم ببعض فى الحرب العامة . . . . هذا كله لم يقع فى القرون الوسطى ، ولا فى الجاهليـة الأوربية ، بل جرى فى عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربى . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشا وبربرية وتمتلئ الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجيـة ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمى الروملى واستباحوا حرمهم أو الأروام مسلمى غربى

الأناضول ، لم تجد شيئا من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عـبر عنها بشئ قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداآت سبقته ويجتهد كل الاجتهاد فى تغطيتها وجر ذيول النسيان عليها .هذا الذى نعترض عليه وقلما نجد عليه جواباً سديداً ، ولـكن ليس صاحب هذا الـكتاب بالذى يتعمد تعمية الحقائق

* * *

قد ذكرنا هنـا البراهين الساطعة على كون تعصب الأوربيين على المسلمين يفوق مرات تعصب المسلمين على الأوربيين . وأوردنا على هذه القضية الشواهد المحسوسة التى لا تقبل المـكابرة . ومما أتذكره أن أحد وزراء الدولة العثمانية ـ رحمها الله وجزاها عن الاسلام خيراً ـ كان مرة فى أحد المجالس فى جدالٍ مع بعض رجال دول أوربة فيما يتعلق بهـذا الموضوع . فقال لهم الوزير العثمانى : « اننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرس وغـيرهم مهما بلغ بنا التعصب فى الدين فلا يصل بنا الى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم . ولقد مرّت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على أن لا نبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للاسلام . فما هجس فى ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً وكان اذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثمانى تقوم فى وجهه الملة ويحاجُّه مثل زنبيلى على افندى شيخ الاسلام ويقول له بلا محاباة ليس لك على النصارى واليهود الا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم . فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف . فبقى بين أظهرنا حتى فى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا وافرين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . أما أنتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه اذا أراد البقاء بينكم أن يتنصّر . ولقد كان فى اسبانية ملايين وملايين من المسلمين وكان فى جنوبى فرنسة وفى شمالى ايطالية وفى جنوبيها مئات ألوف منهم ولبثوا فى هاتيك الأوطان أعصراً مديدة وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق فى جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالاسلام . ولقد طفت فى بلاد اسبانية كلها فلم أعثر فيهـا على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم » فلما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحيروا جواباً . وبعد ايراد هـذه الرواية

لأحد كبار الاسلام يجمل بنا أن نورد شواهد من كلام رجال النصرانية أنفسهم حتى يصح لنا أن نتمثل بالآية الكريمة من سورة يوسف : « وشهد شاهد من أهلها » أو بالآية الكريمة من سورة الأنعام : « وشهدوا على أنفسهم » فنقول :

قد ألّف « هنرى دوكاسترى» Henry De Castries كتابا اسمه «الاسلام» ذكر فيه الأوهام المتراكمة فى أوربة بحق الاسلام فمن شاء فليرجع الى هذا الكتاب

وقد كتب ڤولتير نفسه فى كتابه « بحث فى عادات الأمم وأرواحها » وفى كتابه الآخر « القاموس الفلسفى » كتابة مؤثرة عن هذه القضية وأشار الى الأغاليط والضلالات التى ارتكبها كتّاب القرون الوسطى بحق المسلمين وأورد حقائق فى هذا الباب لا يزال الأوربيون يجهلونها الى هذه الساعة

وقد نقل اسماعيل حامد مؤلف Les Mosulmans Français Du Nord De L'Afrique فى فصل من كتابه عنوانه «التسامح الاسلامى» عن الأب «برولى» L'Abée De Broglie ما يفيد أن الأب المذكور — وهو قسيس شهير — قد أطرى ما كان عليه أبو بكر وعمر من الصدق والاستقامة وشدة الذكاء وقال انهما كانا أعلى كثيراً من القياصرة والملوك المسيحيين الذين كانوا يقاتلونهما

ونقل اسماعيل حامد — وهو من الجزائريين المتفرنسين — عن الأب ميشون جملة استشهد بها أيضاً « دوكاسترى » والدكتور «غستاف لوبون » وهى هذه : « ان من المحزن للامم المسيحية أن يكون التسامح الدينى الذى هو أعظم ناموس للمحبة بين شعب وشعب هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين »

ونقل دوزى المستشرق الهولاندى عن « بوركارد Burckhard [1] الذى يعده دوزى أعرف سائح بأحوال العرب أنه قال عنهم انهم أشد الأمم الأسيوية تسامحا

وقال الدكتور « برون » Perron فى كتابه L'Islamisme : « ان من احسن فضائل المسلم انه متسامح مع من يخالفه فى الدين تسامحاً عملياً »

وقال الكاتب الاسبانيولى « رافائيل كونتره راس » Contreras : « ان كثيرين

---

(١) سائح سويسرى ولد فى لوزان كان أول أوربى دخل الى مكة والمدينة وقد كانت وفاته سنه ١٨١٨

من المسيحيين الذين يعدهم الاسبانيول شهداء لم يكونوا ليقتلهم المسلمون لو اكتفوا بان يعتقدوا بالمسيحية و يسكنوا ولم يذهبوا حتى ابواب الجوامع يقذفون بعقيدة المسلمين فى وجوههم »

ثم ذكر اسماعيل حامد الادوار التى مرت بها النصرانية فى بلدان المغرب بعد ان علت فيها كلمة الاسلام وقال انه بعد ان اسلم اهل المغرب بقرون بقيت فيه كنائس واسقفيات أتباعها من اهالى البلاد ولم تزل هذه الاسقفيات بقايا حتى الى مابعد زحفة بنى هلال على المغرب . وكان فى قلعة بنى حماد مركز اسقفية وقد كان النصارى هناك يعاملون بمزيد الرعاية . ثم انه كانت اسقفيات فى قرطاجنة وغومى والقلعة فى المغرب الشرقى فدرست فى ايام البابا إينوشاينوس الرابع ولكن بقى نصارى متفرقون فى البلاد وصارت امورهم الدينية راجعة الى اسقفية فاس فى المغرب الاقصى . وقد ذكر البكرى انه فى القرن الثانى عشر للمسيح كان فى تلمسان كنيسة وطائفة من المسيحيين وقد نقل « مَاسْلَتْرِى » عن ليون الافريقى انه كان فى سنة ١٥٥٠ قبل مجئ الاتراك الى تونس طائفة من المسيحيين فى هذه البلدة وكان المسلمون يعاملونهم بكل رعاية . فانقراض النصرانية من شمال افريقية لم يكن بسبب اضطهاد واقع من المسلمين على المسيحيين بل كان المسيحيون يعادى بعضهم بعضا كانت أساقفتهم تتزاحم على الرياسات . ثم اخذت علاقات الاساقفة مع روما ترتخى بكرور الايام حتى انتهى الأمر بأن المسيحيين الباقين دخلوا من انفسهم فى الاسلام . واما فى اسبانية فكانت حرية المسيحيين فى ايام العرب اكثر منها فى ايام القوط انفسهم كما يعترف بذلك المؤرخ دوزى الشهير ولم تقتصر الحرية الدينية على المسيحيين بل بلغ منها ان المجوس عبدة النار كانوا يقيمون شعائرهم علنا فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وكان الأمير حَبُّوس البربرى صاحب غرناطة مستوزراً رجلا يهوديا بلغ مقاما عظيماً ولم تشعر اسبانية بشئ من التعصب الاسلامى الا فى عهد المرابطين الذين كانوا أحامس فى الدين . ولكن المرابطين كانوا من البربر وكانت فيهم شدة فطرية ومع هذا فان ابن خلدون يروى انه كان عند المرابطين جيش من المسيحيين كان له قائد يدعى « زُو بُور تايَار » وقد كانت العادة ليست عند المرابطين فقط بل عند جميع الدول التى تعاقبت على

مراكش وتلمسان وتونس واسبانية ان تستخدم جنداً من النصارى وكان هؤلاء يتمتعون بجميع حريتهم الدينيـة و يقيمون شعائرهم واذا ذهبوا الى الحرب يكونون جيشا مستقلا بنفسه بين جيوش المسلمين وكانت الحكومات المسيحية تأذن لهم فى الخدمة فى بلاد الاسلام . وممن امتاز برعاية المسيحيين عبد المؤمن بن على رأس دولة الموحدين فقد عقد معاهدات مع الجَنَويّة واهل بيزا وغيرهم واطلق لهم الحرية أن يتجروا فى بلاده وأذن للرهبان الفرنسيسكانيين والدومينيكانيين فى دخول بلاده واقامة شعائر الدين المسيحى بين الاوربيين الطارئين اليها للتجارة . وروى ماسلترى Masllatrie ان الاوربيين الذين كانوا فى المغرب تكاثر عددهم سنة ١٢٢٣ مسيحية الى ان استأذن البابا هونوريوس الثالث من سلطان المغرب لذلك العهد ان يجعل على رأسهم اسقفاً فأذن له .

ولما جاء القديس لويس ملك فرنسة يحاصر تونس كان فى جيش المستنصر الحفصى أمراء من المسيحيين الأروبيين مثل « فريديريك القشتالى » « وفريديريك لانزا » وكذلك كان « الفونس غوزمان » قائداً فى جيش أبى يوسف بالمغرب وكان جميع هؤلاء النصارى يعيشون بين المسلمين مع عائلاتهم كأنهم فى بلادهم وطالما كان النصارى والمسلمون فى ذلك العهد فى اسبانية يزوج بعضهم بعضاً ، وكثيراً ماتزوج أمراء المسلمين بمسيحيات ويهوديات . وحسبك أن عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح الأندلس تزوج بارملة لوذريق ملك الأندلس الذى غلبه العرب . وتزوج الأمير عثمان بن أبى نسعة بالأميرة لامبيجيا ابنة دوق اكيتّانيا . وقد كانت فلورا المسيحية التى ماتت شهيدة بحسب قول المسيحيين سنة ٨٥١ مسيحية فى قرطبة مولدة من أب مسلم ووالدة مسيحية وكان اخوتها مسلمين . وكان نبلاء الرومانيين فى اشبيلية قد أسلموا وتزوجوا من المسلمين . مثل « بنى أنجلينو » و « بنى سابار يكو » كما ان بنى حجاج من البطون العربية الشهيرة فى اشبيلية كانوا من جهة الأم سلالة غيطشة ملك اسبانية قبل لوذريق. وكان الأمير بكر من أمراء «شَانْتَمَريّة» الغرب، حفيداً من جهة الأم لرجل مسيحى ، وكانت جدة الحاجب الشهير المنصور بن أبى عامر مسيحية أيضا . وكانت زوجة الخليفة الحكم صبيحة المشهورة من أمة الباشْكُونْس . وفى أواسط القرن الحادى عشر للمسيح أسلمت أسرة مالكة فى أرَغُون اسمها بنو قِصىّ أصلهم

من القوط . و يقال أيضا ان عائلة بنى خطاب من مُرسِيَة أصلهم كذلك من القوط و يظنون انهـم من سلالة تدمير صاحب أُرْيُوله . ومن المعلوم انولد المنصور بن أبى عامر الذى ذهب الملك من يده كان اسمه شَانْجُول لان أمه كانت بنت شانجو ملك ناڤار وقيـل ان علىّ بن حزم وزير عبد الرحمن الناصر كان من سلالة عائلة مسيحية من « نبْله »

وفى سنة ١٢٣٠ مسيحية كان المأمون سلطانا فى مراكش وكانت عنـده حلائل مسيحيات وكانت احداهن حبيب أم ولده الرشـيد مسيحية وكان عند المأمون جيش من النصارى نحو من اثنى عشر ألف مقاتل . وطالما طلب البابوات من ملوك المغرب أن يعطوا هؤلاء القواد من المسيحيين بعض القلاع البحرية ولـكن الملوك كانوا أحـذر من أن يرضخوا لهم بذلك خوفاً من مغبة هذا الأمر

وقد ورد فى الاستقصا للناصرى السلاوى عن جيش النصارى الذى كان عند المأمون المتقدم الذكر ماملخصه : ان الموحدين بمراكش خنقوا الملك العادل و بايعوا أخاه المأمون وكان فى اشبيلية ثم بعد انفصال البريد ندم الأهالى و بايعوا ابن أخى المأمون يحيى بن الناصر ولـكن المأمون نشر بيعته على منابر الأندلس وأعمل فى الحركة الى مراكش ولما وصل الى الجزيرة الخضراء بلغه انتقاض الناس عليه فـكتب الى ملك قشتاله يستنصره على الموحدين و يسأله أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم الى العدوة لقتال يحيى ومن معه ، فشرط عليه صاحب قشـتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلى بلاده يختارها هو وان يبنى بمراكش اذا دخلها كنيسة لجيش النصارى الذين يكونون معه وأن يضربوا فيها نواقيسهم وان من أسلم منهم لايقبل اسلامه و يرد الى اخوانه فيحكمون فيه باحكامهم الى غير ذلك فأسعفه المأمون فى جميع ماطلب منه . قال : ودخل المأمون الى العدوة ومعه اثنا عشر ألفا من جنود النصارى وقال انه هو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب . وروى أنه لما مات كان فيمن أخذ البيعة لولده الرشيد فرنسيل قائد جيش الفرنج وذكر الناصرى اسم زوجة المأمون أم الرشيد وقال ان اسمها حباب وكانت فرنجية الأصل وكانت من دهاة النساء

وفى مقابلة هـذه الشواهد من أخبار تسامح المسلمين وصـفاء سرائرهم نذكر الآن مايقابلها من حقد الأوربيين وشـدة شنآنهم للمسلمين ويكفى من القلادة ماأحاط بالجيد لان

الاستقصاء متعذر ومما يضيق عنه هذا الكتاب فنأتى أولا على ذكر الحروب الصليبية التى أشار بها البابوات رؤساء الكنيسة الذين هم خلفاء عيسى رسول السلام الناهى عن كل مقاومة والآمر بان من ضرب على خده الأيمن يدير لضارب به الخد الأيسر فنقول :ـــ

جاء فى تاريخ البابوات تأليف المسيو فرناند هايوارد Fernand Hayward وهو مؤرخ كاثوليكى المشرب أن البابا سيلفستر الذى عاش فى أوائل الألف سنة بعد المسيح كان أول من نادى المسيحيين فى أوربا لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم وكان البابا المذكور افرنسيا وكان من العلماء فى اللاهوت والطبيعيات والطب والفلسفة وهو الذى كان يدعى جربرت Gerbert تلقى العلوم فى اسبانية أيام العرب عندما كان راهباً: وهو الذى أدخل الأرقام العربية الى أوربة وكانت معارفه فى ذلك الوقت مما يجهله الأوربيون . أما دعوته المسيحيين للزحف الى الشرق واستنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين فلم تصادف فى ذلك الوقت الحماسة اللازمة لها . لأن أوربا لم تكن مستعدة لحرب كهذه . وفى سنة ١٠٧٤ استنجد ميخائيل الثانى قيصر بيزانطية البابا غريغوريوس السابع لينصره على السلاجقة المسلمين الذين كانوا يشنون الغارات على أطراف السلطنة البيزنطية . ففى ذلك الوقت فكر البابا غريغوريوس فى اصلاء الاسلام حرباً صليبية يهاجم بها الترك فى الشرق والعرب فى الغرب لان العرب كانوا فى صيقيلية وأطراف ايطاليــة . ويقول المؤرخ المذكور ان غريغوريوس السابع هو أول بابا فكر فى مناشبة المسلمين حرباً صليبية ولكن لم تدخل هذه الفكرة فى حيز الاجراء الا فى زمان البابا اربانوس الثانى .

قال انه كان قد مضى قراب مئة سنة وأوربا تحدث نفسها بالزحف صفاً واحداً لحرب المسلمين ولا يتيسر ذلك لأسباب متعددة الا انه لما توالت من دولة بيزانطية الدعوات للبابا بأن ينصر مسيحيى الشرق على المسلمين توجه البابا اربانوس الى فرنسا وطاف فى كثير من مدنها وعقد مجمعاً فى كليرمون Clermont فى سنة ١٠٩٥ فى ١٨ نوفمبر فحضر ذلك المجمع أربعة عشر رئيس أساقفة ومئتان وخمسون مطرانا وأربعمائة قسيساً ممن يقال لهم أنصاف مطارين وبعد أن تذاكروا فى مسائل كَنَسيَّة خرج البابا الى ساحة فسيحة تسع الجمهور وخطب الشعب قائلا : ان شعبا ملعوناً قد اجتاح بلاد المسيحيين وأعمل فيها الحديد والنار وأهان المعابد وعذّب المسيحيين وهتك الأعراض فمن ينتقم لهذه الاهانات سواكم أنتم

معشر الفرنسيس الذين رفعكم الله فوق سائر الشعوب فى الشجاعة فتذكروا مآثر آبائكم وأعيدوا ذكرى شارلمان وابنه لويس وملوككم الآخرين الذين قاتلوا ملوك الاسلام وان أهم مايجب أن يحرك شعوركم هو استخلاص قبر المخلص والاستيلاء على الأماكن المقدسة التى استولى عليها شعب غيرطاهر فيا أيها الشجعان سلالة أولئك القوم الذين لم يغلبهم أحدٌ قط شقوا طريقاً الى القبر المقدس وانتزعوا الأرض المقدسة من يد ذلك الشعب الملعون.

فعند ماألقى البابار بانوس هذا الخطاب قابله الشعب الافرنسى بحماسة زائدة وعلا الصراخ هكذا يريد الله . ووضعوا علامات الصليب على أثوابهم وطاف بطرس الناسك فى البلدان يستنفر الأهالى للزحف وقتال المسلمين فى الشرق ولسنا الآن فى مقام تاريخ الحرب الصليبية وانما نحن فى ذكر كيفية تولّدها . ولقد زحف الصليبيون واستولوا فعلا على بيت المقدس فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وكان منهم ماكان من الفظائع التى يعترف مؤرخوهم بها فى جميع الأماكن التى اجتازوها من بلاد الاسلام ولما سقطت القدس فى أيديهم بعد قتال شديد استمر زيادة على أربعين يوماً ارتكبوا فى ظل القبر المقدس الذى زعموا أنهم زاحفون لتطهيره من أيدى أمة غير طاهرة من القتل العام والتفنن فى القسوة مايندر وجود مثله فى تاريخ البشرية من أول ماعرف التاريخ . قال أبو الفداء : ولبث الفرنج يقتلون فى المسلمين بالقدس أسبوعاً وقتل من المسلمين فى المسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألف نفس منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور فى ذلك الموضع الشريف وغنموا مالا يقع عليه الاحصاء ووصل المستنفرون الى بغداد فى رمضان فاجتمع أهل بغداد فى الجوامع واستغاثوا وبكوا حتى انهم أفطروا من عظم ماجرى عليهم انتهى .

وكان أبو الفداء قد ذكر فظائع ماعمله الافرنج عند استيلائهم على انطاكية والبلدان التى مروا بها وقال انهم ساروا الى المعرة وقتلوا فيها أكثر من مئة ألف انسان . وفى فاجعة القدس هذه عند ماوصل الصريخ الى بغداد قال المظفر الأبيوردى :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضةٌ للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يُفيضه ... اذا الحرب شُبت نارها بالصوارم
فايها بنى الاسلام ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملءُ حفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

واخوانكم بالشام صرعى مقيلهم ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
يسومهمُ الروم الهوان وأنتمُ تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى توارى حياء حسنها بالمعاصم
و بين اختلاس الطعن والضرب وقعة يظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروبٌ من يغب عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدى المشركين قواضبا ستعمل منا فى الطلى والجماجم
يكاد لهن المستكنُّ بطيبة ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتى لايشرعون الى العدا رماحهمُ والدين واهى الدعائم
وتجتنبون النار خوفاً من الردى ولا تحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعارب بالأذى وترضى على ذل كماة الأعاجم
فليتهمُ اذ لم يذودوا حمية على الدين ضنوا غيرة للمحارم
وان زهدوا فى الأجر اذ حمى الوغى فهلا أتوه رغبة فى المغانم

هـذا وفى زمان البابا أوجانوس الثالث عادت الحرب الصليبية الى الشدة وذلك ان الأتراك كانوا قد استولوا على الرها سنة ١١٤٤ وعادوا الى مهاجمة الصليبيين وفى سنة ١١٨٧ دعا البابا غريغوريوس الثامن الى حرب صليبية جديدة عند مابلغه أن صلاح الدين الأيوبى استرجع بيت المقدس .

وقد جاء فى تاريخ الباباوات هذا مواقف أخرى لهم فى اثارة الحروب على الاسـلام بينماهم رسل السلام على وجـه الأرض منها موقف البابا كاليكستيوس الثالث فقد ارتقى كرسى البابوية وهو فى سن الثمانين وبرغم شيخوخته هـذه لم يكن عنده مهم أكثر من اثارة المسيحيين على المسلمين . وفى سنة ١٤٥٦ بنى هذا البابا أسطولا بحرياً خمساً وعشرين سفينة حربية ودعا ملوك النصارى ليلتحقوا به ويشنوا الغارات على بلاد الاسلام وتطوع لذلك أناس كثيرون فى انكلترة وفرنسة والمانيـة و بلاد المجر . وفى سنة ١٤٥٨ جمع البابا بيوس الثانى مجمعاً عاما دعا اليه ملوك المسيحيين الى حرب عامة يصلونها الأتراك وفى سنة ١٤٦٠ قرروا أن تستمر هـذه الحرب ثلاث سنوات بالأقل الا ان الملوك لم يتفقوا وخطر ببال البابا بيوس الثانى أن يتولى هو بنفسه قيادة غزوة صليبية برغم مرض النقرس ومرض

الحصي اللذين كانا معه الا انه مات سنة ١٤٦٤ قبل أن أتم عمله . وسنة ١٤٧٠ استولى محمد الفاتح على بلاد اليونان وسرّح أسطولا أربعمائة سفينة تجوس فى سواحل بحر الأردياتيك وكان البابا يومئذ بولس الثانى فدعا ملوك المسيحيين الى صليبية جديدة فلم تتفق كلمتهم . وفى سنه ١٤٨٩ اختلف الأمير جم بن محمد الفاتح مع أخيه بايزيد فالتجا الى رومة وكان البابا يومئذ اينوشانسيوس الثامن فتلقاه بالترحيب أملا بالاستفادةمن خلافه مع أخيه . وفى زمن البابا اسكندر السابع اشتد العمل لمحاربة المسلمين وقدم البابا نفسه أسطولا لهذه الحرب المقدسة واجتهد البابا اكليمنصوس التاسع فى توحيد كلمة فرنسة واسبانية وحملهما على محاربة الاتراك الذين كانوا استولوا على جزيرة اقريطش (كريت)

هذه انموذجات مما حرض به رؤساء الكنيسه ابناء ملتهم على حرب المسلمين نقلناها من تاريخ الباباواتلمؤلف كاثوليكى ولنأخذ انموذجات اخرى من كتاب مئة مشروع تقسيم لتركيا Cent Projets de Partage de la Turquie تأليف دجوڤارا Djuvara من افاضل وزراء رومانيا قال الوزير دجوڤارا ان اصل العداوة المزمنة التى يشعر بها الاوربيون للأتراك ويميلون ابدا من اجلها الى حصرهم فى آسية هى راجعة الى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والاسلام ونقل عن « غُودْ فروا كورت » Godefroid Kurth كلاماً كتبه هذا فى سنة ١٨٨٩ فى كتاب عنوانه « الصليب والهلال » قال فيه : ان الاسلام قد عمل مالم يقدران يعمله بل مالم يجرؤ ان يعمله دين آخر وذلك بأن الصليب تغلب على كل شئ أمامهوجاء الاسلام أحيانا فتغلب عليه . وكان الصليبيون يقولون فى قتال الاسلام . هكذايريد الله ، ونحن يمكننا ان نعيد اليوم العبارة نفسها وان نحارب العدو الذى حارب به آباؤنا.وقالالمسيو دوڤاريك De Varrick من علماء الحقوق : انه من الواجبالقيام . بحرب دينية يستخلص بها القبر المقدس وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحى وحماية مجموع الدول العظام . ثم قال دجوڤارا : ان المسلمين كانوا أرعبوا اوربة وخنعت لهم اسبانيه مع عظمتها وفى أواخرالقرن الثانى عشرامتد سلطان العرب من الهند الى الاطلانطيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وارقى من حضارة إكس لاشابل وباريس وكان الفرنج Francs تحت قيادة شارل مارتلهم الذين كسروا المسلمين فى «بواتييه» وانقذوا النصرانية فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون اوربة الا تحت اسم بلاد الفرنج . وكان اول من دعا

الاور بيـين الى حرب صليبية هو البابا سلفستر الثانى وذلك سـنة الف واثنـين ولم يتوفق الى تحقيق ماأراده ثم جاء البابا غريغوريوس السابع فاستنفر جميع ملوك اوربا لحرب دينية يصلونها الاسلام وذلك سنة ١٠٧٥ الا انها هذه المرة أيضا لم تتحقق هذه الامنيـة وتأخرت نحـو عشرين سـنة عن ذلك التاريخ . ثم بدأت الحروب الصليبية فأخـرت فتح الاتراك للقسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة وانتهت الحروب الصليبية سنة ١٢٧٠ مسيحية الى سنة ١٢٩١ بسقوط عكا وخسر المسيحيون عـدا ما كانوا فتحوه من بلاد الاسـلام مملكتين مسيحيتين قبرص وارمينية . ثم ان الاتراك دخـلوا الى اوربة سنة ١٣٥٦ بعبورهم مضيق الدردنيل وافتتحوا ادرنة فى سنة ١٣٦٠ وفى جميع هذه الازمنة ومن قبل ان يدخل الترك الى اوربة كان كتاب النصارى والمفـكرون منهـم لا يريدون ان يتعزوا عن اخفاق الحروب الصليبية ولا يفتأون يهيجون خواطر الشعوب الاوربيـة ويحرضونهم على عمل مشـترك يقومون به لدحر الاسـلام ولا سيما عن فلسطين واشـتهر من بين هؤلاء المحرضين بيردوبوا Pierre Du Bois وماريئو Marino وسانوتو Sanuto وهايتون Hayton وريموندلول Raymond Lulle وغليوم دو نوغارى Guillaume De Nogaret وكذلك الشعراء مثل بترارك Pétrarque كانوا فى مقدمة المحرضين على قتال المسلمين

قال: ولما سقطت عكا وصور كتب البابا نيقولا الرابع كتابا تاريخه ٢٣ اوغسطس سنة ١٢٩١ الى فيليب لوبيل ملك فرنسا يظهر له به ألمه ويستنجده ليجمع كلمة ملوك النصارى وينتقم من الاسـلام ولـكن البابا مات قبـل تحقيق امله . وكان قـد تلقى بَرْنامَجَىْ حرب احدهما من ملك صقلية كارلوس الثانى والثانى من راهب يقال له «فِيدَانس دُو بَّادُو» وكان برنامج كارلوس الثانى العدول عن قتال المسلمين بالسيف الى مقاتلتهم بالتجارة قال لانهم اذا زحف الاوربيون الى بلادهم تركوهم يطؤن السواحل ويعمل فيهم تأثير الاقليم فيضعفوا فـكان الأولى قطع الطريق على متاجرهم واعداد اساطيل لهذا المقصد وتوحيد القيادة ويسمى هذا المشروع فى حرب الاسلام بمشروع كارلوس الثانى ملك صقلية. اما مشروع فيدانس دُو بَّادُو فلم يكن مقتصراً على حرب تجارية بل كان يشير بتجريد جيش يطأ البر ويكون وراءه أسطول من ثلاثين الى خمسين بارجة حربية وان تنزل الجنود فى سواحل انطاكية ثم يجعل الصليبيون انطاكية معتصماً لهم وقاعدة لغزواتهم . وقد انتقد بعضهم هذا المشروع وحكموا

باستحالته وفى سنة ١٣٠١ جدّ برنامج آخر صاحبهُ «كارلوس دوڤالوْا» أخو فيليب لو بيل ملك فرنسا وكان هذا الأمير قد تزوج بكاترينة ابنة « فيليب دوكوتنيه» Philippe آخر ملوك اللاتين فى القسطنطينية — لأنه كما لا يخفى ان اللاتين غلبوا الروم على القسطنطينية وملكوها مدة خمسين سنة — فتعلق أمل كارلوس المذكور بالاستيلاء على مملكة حميه وظاهره على ذلك البابا بونيفاس الثامن و بعض ملوك النصرانية ووعدته جمهورية البندقية بقوة بحرية الا ان هذا المشروع أُصيب أيضاً بالفشل وكانت معدّاته ضئيلة بالنسبة الى خطره . وأكثر من حرض عليه فيليب لو بيل ملك فرنسة الذى كثيراً ما فكر بفتح فلسطين . ثم ان البابا اكليمانضوس الخامس تقدم الى رئيس نظام الفرسان الهيكليين بترتيب برنامج لمحاربة المسلمين وذلك سنة ١٣٠٧ وكان الرئيس المذكور يدعى «جاك دوموليه» Jacque de Molay فاشار هذا بجمع كلمة النصرانية على قتال المسلمين وانه لا يجب أن يقل الجيش عن خمسة وستين ألف مقاتل وأن يكون معززا بأسطول يرسو فى مياه قبرص تحت قيادة الاميرال « روجر دولُورْيا » الأرَغُونى . ثم جد مشروع رابع صاحبه « بييردوبوا» وهو رجل من مدينة « كُوتَنْس » ولد بين سنة ١٢٥٠ و ١٢٦٠ واشتهر سنة ١٣٠٠ وقدم برنامجاً الى البابا ا كليمانضوس الخامس لاجل استرداد الاراضى المقدسة وقدم برنامجا آخر الى فيليب لوبيل ملك فرنسا فى الموضوع نفسه وحرّضه على أن يؤسس مملكة فى الشرق يضع على رأسها ثانى أولاده . وكان من جملة وصاياه أن تتوحد كلمة الملوك الكاثوليكيين وان يحملوا الروم الاورثوذكسيين فى الشرق على الخضوع للكنيسة الرومانية وأن يكون الجميع يداً واحدة فى وجه الاسلام وقال انه يجب تجهيز أربعة جيوش ثلاثة منها تذهب بحراً الى فلسطين والرابع يزحف برّاً وكان من رأيه أنه بعد استتباب الفتح يصير كارلوس دوڤالوا ملكا على جميع المملكة البيزنطية مضمومة اليها بلاد المجر والفلاخ والبودان وهكذا لو تم ما أراده لكانت مملكة رومانيا الحالية من جملة ملحقات فرنسا . وكان من جملة ما أشار به أن يكون البابا هو المصلح بين الامراء المسيحيين وان يجعل مجمعاً عاما وخزانة خاصة بالارض المقدسة يكون لها شعبة فى كل كنيسة مسيحية . وقال المؤرخ الشهير « البير سوريل » Albert Sorel انه كان فى برنامج « پيير دوبوا » هذا كثير من الخيال ولكن هذا الخيال كان فى ذلك الوقت يحوم على خواطر الجميع . ونقل

تجوڤارا فى أثناء كلامه على مشروع دوبوا ان البابا غريغوريوس الحادى عشر أنذر امبراطور بيزنطيه بأنه لا يساعده على المسلمين ان لم يرجع الى الكنيسة الرومانية. ونقل أيضا ان البابا سيلڤيوس كتب الى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٦٣ يدعوه أن يتنصر ويقول له « بقليل من الماء على بدنك تتعمد وتصير نصرانيا خادماً للانجيل . فان فعلت هذا لا يكون على وجه الارض ملك يمكنه أن يفوقك فى المجد والاقتدار »

ثم مشروع ريموند لول Raymond Lulle سنة ١٣٠٦ وهو فيلسوف مسيحى صاحب طريقة خاصة به ولد فى پالما من جزيرة ميورقة وقتله العرب فى تونس سنة ١٣١٥ وله مؤلفات كثيرة فى اللاتينية وقد كان من الدعاة الى الحرب الصليبية وله فى ذلك تأليف موجودة نسخته الاصلية بخط المؤلف فى المكتبة الوطنية فى باريز تحت نمرة ٣٣٢٣ وقد استحسن المجمع العام المنعقد فى « ڤيان » سنة ١٣١١ هذا الكتاب وأوجب العمل به وقرر القيام بصليبية جديدة واجتباء العشر من الحاصلات لاجل هذه الغزاة الصليبية وذلك على مدة ست سنوات ولم يقل ريموند لول شيئاً مما يتعلق بكيفية تقسيم بلاد الاسلام بين الفاتحين الكاثوليكيين ولكنه ذهب الى وجوب تعلم اللغات الشرقية لا سيما اللغة العربية لتسهيل هذه الفتوحات ونشر الدين الكاثوليكى بالوعظ والارشاد . وقال سان مارك جيراراذان Saint-Marc Girardin ان ريموند لول كان يرى الاولى هداية غير المؤمنين وهداية المسيحين المنشقين الى الدين الكاثوليكى بدلا من قهرهم بالسيف وقال جيراردان أيضاً انه اعترض نجاح الصليبيات فى المدة الاخيرة ثلاثة أسباب الاول خمود جذوة الحماسة الصليبية القديمة والثانى تنازع الامراء اللاتينيين فى الشرق مع مقاومة الروم لهم والثالث الشقاق بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية . هذا وكان ريموند لول يقترح تجريدتين صليبيتين احداهما تزحف الى مراكش فتونس فطرابلس والثانية تزحف الى القسطنطينية ومنها الى سورية . وقد اختلفت برامج هؤلاء الخياليين فى قضية الزحف على بلاد الاسلام فكان غليوم دادان الدومنيكانى يرى السير من طريق القسطنطينية وقد ألف بين سنة ١٣١٠ وسنة ١٣١٤ كتاباً سماه «كيفية استئصال المسلمين» وأشار فيه بايجاد أسطول مسيحى فى خليج فارس وأما بروكارد فأشار بالزحف من ايطاليا الى بلاد الصرب ومنها الى الشرق وأما سانوتو فكان يرى وجوب الحمل على بلاد الاسلام من البحر ويدخل فى

برنامج ريموند لول الزحف على بلاد الاندلس براً وبحراً وبعد الاستيلاء عليها احتلال مدينة سبتة فى افريقية ثم مدينة تونس وذلك لاجل تسهيل الاستيلاء على مصر والبلاد المقدسة وبينما يكون جانب من القوة الصليبية محاصراً مصر يكون الجانب الآخر زاحفا من القسطنطينية الى سورية ومنها الى جزيرة العرب

فهذه مشروعات خمسة لخصناها تلخيصا من كتاب مئة مشروع لتقسيم تركيا . وأما المشروع السادس فهو مشروع مارينو سانوتو Marino Sanuto وهو رجل ينتسب الى احدى الأسر النبيلة فى البندقية ولد سنة ١٢٦٠ وطاف فى بلاد الشرق مثل المورة وقبرص وأرمينية ورودوس واسكندرية وقد بدأ كتابه فى الحث على محاربة المسلمين سنة ١٣٠٦ ولكنه لم يقدمه الى البابا يوحنا الثانى والعشرين الا سنة ١٣٢١ وقد ذهب فى كتابه لأجل نجاح المشروع الى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وفى ذلك يقول الفيلسوف ارنست ره نان : «ان سانوتو كان يجهل درجة الخلاف بين الكنيستين ولا يعلم ان الروم لم يكن يصعب عليهم الخضوع للعمامة كما يصعب عليهم الخضوع للتاج البابوى . ولم يكن سانوتو يشير باستيلاء اللاتين على القسطنطينية بل كان يرى بقاء بيزانطية للروم . وكان من رأيه أن تكون سلطنة البقاع المقدسة لفرنسة وكان يحث كثيراً على حصر الديار المصرية ويعتقد انها اذا حوصرت مدة ثلاث سنوات فلا بد من الأستيلاء عليها وانه اذا استولى المسيحيون على مصر فلا بد من أن يستولوا على بيت المقدس . وكان أكثر مقصد سانوتو تأمين الطرق الاقتصادية امام بلدة البندقية وتمكينها من الاستيلاء الاقتصادى على الشرق».قال دجوڤارا: « ان انكلترة بعد سبعة قرون من زمان سانوتو قد حققت لنفسها الأمل الذى كان يحلم به سانوتو »

ثم المشروع السابع المنسوب الى هايتون Hayton او هيتوم Hétoum سنة ١٣٠٧ وكان هيتوم أميراً ارمنياً من « كرشى » وهى ثغر بحرى بازاء جزيرة قبرص وكان عمه ملكا على أرمينية فاستولى المسلمون على بلاده ولجأ هيتوم الى البابا اكليمنضوس الخامس وأقام بمدنية پواتيه حيث مات سنة ١٣٠٨ وكتب كتابا باللاتينية ثم ترجم هذا الكتاب سنة ١٣٥١ إلى الافرنسية وأشار فى كتابه الى وجوب فتح بيت المقدس وبيّن الطرق التى بزعمه يتيسر بها هذا الفتح ولكن الوقت الذى كتب فيه كتابه هذا لم يكن الوقت الذى تقبل

فيه الناس رأياً كهذا الرأى فقد كانوا فى فرنسة تحت تاثير فاجعة القديس لويس ملك فرنسة الذى كان قد أسر فى دمياط ثم عاد فقتل فى تونس وكان برنامج هيتوم تجريد جيش على شمالى افريقية وجيش آخر يزحف الى سورية من طريق القسطنطينية وجيش آخر يزحف بحراً وأكثر ما كان يهمّ هيتوم هو فتح بلاده أرمينيــة وكان يرى ان المغول يمالئون الصليبيين على المسلمين وانه اذا زحفوا الى حلب يضطر سلطان مصر الى نجدة حلب فيخرج من بلاده ويخلو الجو للافرنج فيمكنهم احتلال طرابلس الغرب . وكان يشير بعقد محالفة بين المسيحيين والمغول لكن على شرط أن لا يتلاقى الجيشان من الفريقين لئلا يحدث بينهما قتال بل يزحف المغول الى دمشق و يزحف الصليبيون من طريق الساحل الى القدس و بعد الأستيلاء على بيت المقدس يزحفون الى مصر ولم يكن نجاح مشروع هيتوم أعظم حظاً من مشروعات الآخرين .

ثم المشروع الثامن وهو المنسوب الى «غليوم دونوغارى» Guilloume De Nogaret وتاريخه سنة ١٣١٠ وكان نوغارى من رجال فيليب لو بل ملك فرنسة وكان هذا الملك شديد الاعتماد عليه ولذلك كان يشير بتولية فيليب لو بل قيادة الحملة الصليبية وان تجبى الأموال اللازمة لتلك الحرب وتوضع بين يديه ولذلك أساء بعضهم الظن فى فيليب لو بل واعتقدوا أنه انما أراد بهذه الصليبية جمع الأموال لا اعلاء كلمة الصليب . وكان مما أشار به نوغارى محالفة سلاطين المغول ومحالفة امبراطور الروم فى بيزانطية .

ثم المشروع التاسع المنسوب الى غليوم دادام Guilloume D'Adam وتاريخه سنة ١٣١١ وكان المذكور راهباً دومينيكيا قضى معظم حياته يعظ بالانجيل فى بلاد الشرق وذهب الى الحبشة والهند وكانت أراؤه فى الموضوع غريبة فكان يشير بأن الصليبيين يأخذون القسطنطينية فى طريقهم ويحولونها مملكة لاتينية وكان يشير أيضاً بعمارة أسطول فى بحر فارس لمنع تجارة الهند مع مصر . وحمل حملة شديدة على المسيحيين الذين كانوا يتجرون مع المسلمين لاسيما الجنوية الذين كانوا يبيعون الرقيق من أهل مصر فكان فى ذلك القطر جيش من المماليك نحو أربعين ألفاً أكثرهم بلغار ويونان ومجر وغيرهم وقال انه يجب على البابا اصدار حرم بحق كل المسيحيين الذين لهم علاقة تجارية مع المسلمين وقال بوجوب عقد محالفة مع الكرج ومع ملوك العجم وأن يعهد بالسيطرة فى بحر اليونان

المسمى ببحر الأرخبيل الى أولاد ذكريا الجنويين الذين كانوا يملكون جزيرة شيو. وألح غليوم هذا كثيرا بفتح القسطنطينية قائلا: «إنها مفتاح كل المشرق» وقال ان الروم لم يكونوا أقل عداء للاتين من المسلمين فيجب خضد شوكتهم. وقد اهتم صاحب هذا المشروع كثيراً بالمسألة الاقتصادية نظير سانوتو وقال انه يجب قطع تجارة مصر مع الشرق الأقصى بوضع قوة صليبية فى بحر الهند وفى عدن. وقد كان هذا الأمر فى ذلك الوقت ضربا من المحال.

ثم المشروع العاشر وهو مشروع « هانرى الثانى دولوزينيان » De Lusignan ملك قبرص وتاريخه سنة ١٣١١ وقد تقدم هذا المشروع الى مجمع « ڤيان » مع مشروع نوغارى المتقدم الذكر وكان هذا الملك يشير بتجهيز طليعة مسيحية قوامها ١٥ أوعشرون سفينة حربية تواصل غاراتها البحرية على مصر الى أن تتمكن من تخريبها وبعد ذلك يقدم الجيش الكبير فيطأ أرض مصر ويستولى عليها واذا استولى الصليبيون على مصر هان عليهم فتح سورية وقد أشار الملك المذكور بأن يبدأ الصليبيون باحتلال قبرص وان يتجنبوا احتلال ـ أرمينية يريد بأرمينية بلاد كيليكية واسكندرونة وذلك بقوله ان مناخ تلك البلاد شاق على الأوربيين وان الزحف منها الى سورية فى غاية الصعوبة ـ وقد كان لتقرير ملك قبرص هذا تأثير عظيم فى مجمع « ڤيان » فأعلن هذا المجمع الحرب الصليبية فى ١٩ ديسمبر سنة ١٣١٢ وبينما هم يجهزون الجيوش إذ مات فيليب لوبل ملك فرنسة والبابا اكليمانضوس فتوقف العمل ثم قام الأساقفة يحرضون شارل لوبل على اتمام المشروع فعارض فى ذلك دوق بورغونيه وبقى الأخذ والرد فى هذه المسألة الى سنة ١٣٣٣.

ثم المشروع الحادى عشر المنسوب الى بروكارد وتاريخه سنة ١٣٣٢ وكان بروكارد هذا راهباً المانياً من الرهبان الدومينيكيين فقدم تقريراً الى ملك فرنسة يشير به بحرب صليبية ويبين الطرق الموافقة لها ولم يكن يرى أن تكون الحملة بحرية ولا كان أيضا يستحسن الزحف من جبل طارق وشمالى افريقية الى مصر وكان يرى هذه الطريق طويلة شاقة وانما كان يجد الطريق الحسنى من خليج « اوطرانطو » الى كورفو الى البلقان ويرى أحسن من ذلك الطريق التى اتبعها بطرس الناسك وهى طريق ألمانية الى بلاد المجر الى البلقان الى القسطنطينية. ولم يكن بروكارد يرضى بمهادنة ملك الصرب

وأمبراطور الروم فى بيزانطيه بل كان يقول انه لايجوز الثقة بهما لأن نصارى تلك البلاد منشقون على الكنيسة ويجب فتح بلادهم كما يجب فتح بلاد المسلمين . وكان يقول ان الترك يدور بينهم كلام من قبيل الجفر على انه لابد أن يفتح بلادهم ملك افرنجى وان هذا مما يسهل نجاح هذه الغزاة . ولم يكن فى مشروع بروكارد شئ من الملاحظات الاقتصادية بل كانت جميع الأغراض التى بنى كلامه عليها حربية وسياسية ولذلك كان لتقريره وقع عظيم على المجلس الملوكى فى فرنسة وبعد أن قتلوا المسألة بحثاً رجحوا طريق البحر على الطريق التى اختارها بروكارد بحجة ان هذه طريق خطرة . ثم عرضت جمهورية البندقية عقد عصبة ضد الاتراك ودخل فى هـذا التحالف امبراطور القسطنطينية وفرسان رودوس وانعقد الحلف بين فرنسة والبندقية بحضور البابا يوحنا الثانى والعشرين فى آفينيون وأعلن البابا فيليب السادس المسمى دوفالوا « De Valois » قائداً للزحفة الصليبيةواكتتب للذهاب ثلاثمائة ألف مقاتل . وكانت السفن التى فى المراسى قد تهيأت لنقل ستين ألف مقاتل دفعة واحدة . وبينما هم على قدم الزحف اذ نشبت الحرب بين انكلترة وفرنسة فتوقف كل شئ ثم جاءت الأخبار بتهافت سلطنة بيزانطيه من كل جهة وتداعيها الى السقوط فخارت العزائم وفى سنة ١٣٨٠ وسنة ١٣٩٠ عقدت البندقية وجنوة وغيرهما من الجمهوريات البحرية معاهدات تجارية مع الترك وفى سنة ١٣٨٩ أحرز الترك ذلك النصر العظيم فى قوصوه ثم فى سنة ١٣٩٦ انتصر الترك انتصاراً باهراً فى نيقوپوليس على الجيوش المجرية والافرنسية وأخذ كثير من أمراء الفرنسيس وفرسانهم أسرى ولم يبق فى القرن الرابع عشر محل لحملات صليبية . واستمر امبراطور القسطنطينية يرسل بالصريخ الى أوربة فأرسل الى كارلوس الرابع ملك فرنسة يستعديه على الاتراك وأعلن البابا غريغوريوس الثانى عشر الحرب الصليبية على المسلمين فى ٩ نوفمبر سنة ١٤٠٧ الا أن الترك استولوا على القسطنطينية وقبرص وازدادت الآمال خيبة وآل الأمر الى أن توما باليولوغ باع من ملك فرنسة كارلوس السابع لقب امبراطور المشرق ولكن لم ينفع هذا شيئاً ولما نشبت الحرب بين ملك فرنسة المذكور وبين البابا اسكندر السادس اضطر البابا الى عقد معاهدة مع السلطان بايزيد العثمانى ضد ملك فرنسة الذى كان ينوى فتح الأراضى المقدسة .

ثم المشروع الثانى عشر وهو منسوب الى «برتراندون دولابر وكيار» Bertrandon de la Broquiére وتاريخه سنة ١٤٣٢

وكان هـذا الرجل من أخصاء « فيليب لوبون » دوق بورغونيا أرسله الدوق الى الشرق رائداً لمـا كان فى نفسه من القيام بحرب صليبية . فذهب الى القدس سنة ١٤٣٢ وعاد الى فرنسة من طريق البر فر بدمشق وانطاكية و برسا وغاليبولى والقسطنطينية وأدرنه وفيلبه وصوفيا و بلغراد وڤينا ووصل الى بلاط سيده دوق بورغونيا فى سنة ١٤٣٣ وهو باللباس الشرقى وعلى جواد كان اشتراه فى دمشق . وقد كتب رحلته هذه بلسان ذلك الوقت ونقحها باللسان الافرنسى الحديث المسيو « لوغران دوسى » Legrand d'aussy ونشرت سنة ١٨٩٢ ونسختها الاصلية هى فى المكتبة الوطنية بباريز ومن رأى «دولابر وكيار» ان الملك المسيحى الذى سيحارب المسلمين لاينبغى له أن يفكر بمجد ولا بحسن أحدوثة وانما ينبغى أن يكون عمله مجرداً لله وانه لايوافق أن تكون أرزاق الجيش الصليبى من النهب والغصب وانمـا يؤدون ثمن الأقوات كلها الى من يبيعهم اياهم الى أن يدخلوا بلاد الاتراك. ومن رأيه أن البابا يقدر أن يقوم بنفقات الحملة الصليبية . وقد تكلم دولابر وكيار عن الروم فطعن فيهم وطعن فى المجر أكثر مما طعن فى الاروام وقال انه يأمن الى تركى أكثر مما يأمن الى مجرى . ولما وصل الى غلطة فى القسطنطينية تلاقى مع «فورلينو» معتمد دوق ميلانو فى الشرق وذهبا معاً الى السلطان مرادالثانى فى أدرنه لأجل تبليغه رسالة من قبل دوق ميلانو معناها أنه يأمل من السلطان أن يتخلى للأمبراطور سيجيسموند عن بلاد المجر والبغدان والبلغار و بوسنه وألبانيا . فأجابهما السلطان قائلا : « سلما على أخى دوق ميلانو وقولا له ان طلبه هـذا غير معقول لا سيما انه ما وجـد الامبراطور أمامى فى معركة الا انهزم أو لاذ بالفرار » .

ثم المشروع الثالث عشر وهو المنسوب الى « فيليب لوبون » دوق بورغونيـا وتاريخه سنة ١٤٥٧

وهـذا الدوق كان ينوى دائماً تجريد حملة صليبية على السلطنة العثمانية قبل فتحها للقسطنطينية و بعده . وكان الامبراطور يوحنا باليولوغ صاحب هذه البلدة استصرخه سنة ١٤٤٢ فجهز أسطولا عاث ونهب وعمل أعمالا قرصانية الا انه لم يقدر على شىء يذكر . ولما

سقطت القسطنطينية فى أيدى الاتراك نذر الدوق أن يزحف بنفسه لحرب الترك وكان مراده أن يقصد القسطنطينية رأساً زاعماً انه يجب قطع جذع الشجرة قبل أغصانها . وكان يبنى آماله على الأمم المسيحية التى فى البلقان . و بعد أن رسموا له خطة السير وعيّن هو القواد و بدأ بالتجهيز و وعده لويس الحادى عشر ملك فرنسة بعشرة آلاف مقاتل لهذه الصليبية جدّت عوائق منعته من اتمام عمله ومات البابا بيوس الثانى الذى كان ظهيراً له فى هذه النية وفى هذه المدة كان الاتراك يسيرون من فتح الى فتح فى شبه جزيرة البلقان حتى استصفوها كلها و بقيت فى أيديهم بعد ذلك أربعمائة وستين سنة

ولهذا لانجد فى القرن الخامس عشر مشروعات صليبية الا قليلا . وما استؤنفت هذه المشروعات الا فى أواخر القرن السادس عشر بعد واقعة ليبانت البحرية الشهيرة التى انكسرت فيها شوكة الاتراك . وكان من أواخر الدعاة الى الصليبية الراهب « كاسبيستبرانو » Caspistrano الذى حضر حرب بلغراد سنة ١٤٥٦ وطاف فى اسبانية وفرنسة والمانية و بولونية و بلاد المجر داعياً الى الحرب المقدسة ومعه صليب و راية أعطاه اياهما البابا مع صورة القديس برناردينو . ومات هذا الراهب الصليبى سنة ١٤٥٦ بعد واقعة بلغراد بثلاثة أشهر

ثم المشروع الرابع عشر المنسوب الى كارلس الثامن ملك فرنسة وتاريخه سنة ١٤٩٥ وقد كان هذا الملك يفكر فى استخلاص بلاد اليونان من أيدى الترك ثم الزحف الى القسطنطينية ومنها الى الارض المقدسة. وكانت غارته على ايطالية انما هى على نية اتخاذ مدينة نابولى قاعدة بحرية يشحن منها الأساطيل الى الشرق . وأصل هذه الفكرة عند كارلس الثامن هو ان والده لويس الحادى عشر كان قد قال فى سنة ١٤٧٨ لوفد ايطالى : « انى ابتهل الى مريم العذراء المجيدة أن تمنح ولدى العزيز شرفاً عظيما ذلك بأن تمكنه من الذهاب بنفسه الى الشرق ومعه نبلاء فرنسة وفرسانها لقتال التركى المكروه وغيره من الجاحدين » ولما أرسل « لودفيك سنورزا » رسله من ميلانو الى كارلس الثامن سنة ١٤٧٨ يستحثه على القدوم الى ايطالية بعث يقول له : ان السلطان العثمانى فى القسطنطينية لايخشى أحداً خشيته من الأمة الافرنسية . قال « دوفونسمان » De Foncemagne : انه كان من السهل اقناع كارلس الثامن بأن فتح نابولى انما هو مقدمة لفتح القسطنطينية وان لقبه « الملك المسيحى كثيراً » يستدعى ذلك

فزحف كارلس الثامن الى ايطالية فى شهر يوليو سنة ١٤٩٤ وفى شهر دسمبر من تلك السنة كتب الى بعض أساقفة فرنسة قائلا : ليست نيتنا منحصرة فى فتح نابولى وانما هى ترمى الى تأييد الكنيسة والاستيلاء على الارض المقدسة

ونشر كارلس من فلورنسة منشوراً قائلا فيه : « اننا اقتداءً بآبائنا ملوك فرنسة المسيحيين كثيراً نريد أن نمنع بما أوتينا من قوة هذه الموبقات الكثيرة التى يرتكبها الاتراك بحق الديانة المسيحية وقد أخذنا على أنفسنا أن لا نضن بنفسنا ولا بشئ من وسائلنا فى دفع هؤلاء الطواغيت الاتراك والاستيلاء على الارض المقدسة وغيرها من الممالك التى انتزعوها من أيدى المسيحيين »

وذكر انه انما يريد بفتح مملكة نابولى العبور منها الى المشرق . ونظمله « غيليوش دو بوردو » أحد شعراء الوقت قصيدة يقول فيها «انه سيتوج ملكا على الروم ويدخل الى أورشليم ويصعد الى جبل الزيتون »

وكان « اندرى باليولوغ » قد أمضى صكاً مؤرخا فى ٦ سبتمبر سنة ١٤٩٤ ينزل فيه عن حقوقه فى تاج القسطنطينية لملك فرنسة . وكان دخول كارلس الثامن الى رومة فى ٣١ دسمبر سنة ١٤٩٤ وكان استيلاؤه على نابولى ودخوله اليها بالثياب القيصرية فى ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ وطلب من البابا اسكندر السادس (بورجيا الشهير) أن يسلمه الأمير جم أخا السلطان بايزيد الذى كان ملتجئاً الى رومة ثم كتب الى رئيس فرسان رودس يكاشفه بما نواه من« نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية وتحرير المسيحيين مما هم فيه من الخنوع للأمة الجاحدة واسترداد الأراضى المقدسة المغصوبة »

فأجابه رئيس نظام فرسان رودس متفائلاً متيمنا مؤملاً هذه المرة « استئصال شأفة الأمة الملعونة أمة محمد . . . »(١)

وكان الأروام منتظرين قدوم ملك فرنسة . ونقل « كلود دو سسل » Claude De Saissel ان الأتراك ارتاعوا لخبر زحفة كارلس الثامن وكان منهم حامية فى

(١) هنا ألفاظ أبينا نقلها وهذه المكتوبات هى فى صفحة ٤٩ من كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا » تأليف المسيو دجوقارا الرومانى

بلاد المورة فأخذوا يشترون قبعات من الأروام ليلبسوها و يتزيوا بزى الافرنج أملاً بتسكين حدتهم (١)

ورفع كثير من الأرناؤوط الراية الفرنسوية . و بلغ السلطان خبر عزيمة ملك فرنسة فجهز مائة وعشرين سفينة حربية وحشد ٤٠ ألف مقاتل . وقيل ان كثيرين من رعايا السلطان المسيحيين كانوا متحفزين للثورة . الا أنه حصل ما فتّ فى عضد ملك فرنسة فالأمير جم أخو بايزيد مات فى ٢٥ فبراير سنة ١٤٩٦ قيل ان السلطان بايزيد رشا البابا اسكندر بورجيا حتى سمّه . وانضم أعداء كارلس الثامن الى السلطان منهم الفونس الأراغونى ومنهم البابا نفسه . وانعقد الحلف المسمى بعصبة البندقية وحاربت هذه العصبة ملك فرنسة وظهر عليها الا أنه اضطر أن يرجع الى فرنسة

غير أن الهيجان على الأتراك فى أوربة بقى يشتد فى أوائل القرن السادس عشر . وكتب البابا يوليوس الثانى فى ٢٧ مارس سنة ١٥٠٨ الى ڤلاديسلاس ملك المجر و بوهيميا بأن الامبراطور مكسيميليان ولويس ملك فرنسة والبنادقة تألبوا يداً واحدة على الأتراك ولم يتم شئ الى زمن البابا لاون العاشر فهو أشهر من اشتهر باغراء النصرانية بقتال الأتراك . وعمله يسمى بالمشروع الخامس عشر وتاريخه من سنة ١٥١٥ الى سنة ١٥١٧ ومذ أعلن مجمع الكرادلة انتخاب البابا المذكور وأبلغه ملوك المسيحيين استجلب أنظارهم نحو قضية الاتحاد لأجل محاربة الأتراك . ثم كتب البابا نفسه الى الامبراطور مكسيميليان وملك انكلترة وملك بولونية والدوق بازيل المسكوبى . ثم انه كرر هذا الاستنفار سنة ١٥١٥ فى الجلسة التاسعة من مجمع لاتران . ثم وعد ڤلاديسلاس ملك المجر بخمسين ألف دوكا (٢) ثم أنفذ الكردينال « سادوله » Sadolet من قبلهِ الى لويس الثانى عشر ملك فرنسة ينتدبه ليقود حملة صليبية جديدة كما قاد « غودفروا دو بويون » الصليبية الاولى . ولما آل ملك فرنسة الى فرانسوا الأول تلاقى معه فى مدينة « بولونيه » Bologne وحرضه على قتال

---

(١) يظهر أن فكرة لبس القبعة عند الترك والتزيي بزى الافرنج أملا باكتساب عطفهم لم تكن جديدة فقد تولدت منذ سنة ١٤٩٥ ولكنها لم تتحقق بالفعل الا سنة ١٩٢٥ وما كذب ابن خلدون الذي قال ان المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب

(٢) سكة فى ذلك العهد كانت قيمتها من ١٠ فرنكات الى ١٢ فرنكا افرنسياً

الأتراك . وكتب أيضاً الى ملك البرتغال يدعوه لهذه الحرب مع سائر ملوك المسيحيين ثم عاد الى مطالبة فرنسوا الأول بانجاز وعده . ولما افتتح السلطان سليم الأول الشام ومصراً وازدادت بسطة السلطنة العثمانية كتب البابا الى فرنسوا الأول يقول له : أما لهذا الليل من آخر ؟ و بعد ذلك اجتهد البابا أن يؤلف بين الامبراطور وملك فرانسة وملك قشتالة و يوحد حركتهم لحرب الأتراك . وقد انتدب لجنة خاصة رسمت خطة حربية لقتال الدولة العثمانية كان من جملة ما فيها مداخلة بعض ملوك الاسلام من أعداء هذه الدولة واستعداؤهم عليها

وسنة ١٥١٧ فى ٥ مارس أعلن البابا هدنة خمس سنوات بين ملوك النصارى . وحينئذٍ لبّى نفيره ملك فرانسة فرنسوا الأول وملك اسبانية كارلس وملك انكلترة هنرى الثامن وملك البرتغال عمانوئيل وملك المجر لويس وملك بولونيا سيجيسموند وملك الدانمرك كريستيان وملك اكوسيا جاك وانعقد بينهم اتفاق بتصديق البابا . ثم فى سنة ١٥١٨ انفذ البابا أربعة كرادلة يستحث هؤلاء الملوك فى تجهيز الجيوش وأقام حفلة طواف فى شوارع رومة سار هو فيها والكرادلة حفاة . الا أن جميع هذه التدابير قضى الله يومئذ باحباطها ومات الامبراطور مكسيمليان الأول سنة ١٥١٩ وتوقف مشروع هذه الصليبية . ثم ان الترك استولوا على بودابست واستصفوا كل بلاد المجر التى بقيت فى يدهم مائة وسبعاً وأربعين سنة وحاصروا ڤينا فاضطر شرلكان امبراطور ألمانية الى طلب محالفة ملك فرانسة خوفاً من الترك

الا أنه لم يلبث الترك أن عقدوا الصلح مع اوستريا سنة ١٥٣٣ فاضطر فرنسوا الأول من جهته أن يتودد اليهم وأرسل « لافوره » Laforest فى السفارة الى تركيا وعقد معها معاهدة ولاء . ومن ذلك الوقت بقى فرنسوا الأول يستنصر السلطان سليمان فى حروبه مع شرلكان وسنة ١٥٤١ سرح السلطان أسطوله تحت قيادة خير الدين بربروس الى بحر مرسيلية لانجاد الاسطول الافرنسى . ولما جلس هنرى الثانى على عرش فرنسة بقى محافظا على الولاء لتركيا ولم تتصرّم العهود بين الدولتين الا فى أيام أولاد هنرى الثانى

وما تحالف فرنسوا الأول مع السلطان الا اضطراراً وخوفاً من خصمه شرلكان . قال روسو صاحب تاريخ « العلاقات السياسية بين فرنسة وتركيا » ان نتيجة تلك المحالفة بين تركيا وفرنسة قد كانت انقاذ فرنسا من مطامع شرلكان . ونقل عن أحد أمراء فرنسة

« ان فرنسة لا ينبغى لها أن تهمل أمرين مهما كان من الموانع دونهما : الاتفاق مع الشعب السويسرى والتحالف مع تركيا »

وهناك المشرع المنسوب للامبراطور ماكسيمليان وهو المشروع السابع عشر وتاريخه سنة ١٥١٨.

وكان البابا لاون العاشر قد أقنع الامبراطور بلزوم محاربة الترك . وفى معاهدة الامبراطور مع لويس الثانى عشر سنة ١٥١٣ جرى ذكر هذه القضية وكذلك خاطب الامبراطور نواب الامة عند اجتماعهم فى « مالين » قائلاً لهم : « اننا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر فى حملتنا المحمودة المقدسة على الترك » ولما سأله البابا عن الطريقة العملية التى يراها لأجل اشعال هذه الحرب على الأتراك اجابه بتقرير مفصل ذكر فيه لزوم الاتفاق بين ملوك المسيحين ودخول ملك فرنسة فى هذه الحرب وأن تستمر الحملة مدة ثلاث سنوات متواليات وأشار بتحريك العجم من جهة وتحريك سلطنة مراكش من جهة أخرى لمشاغبة آل عثمان . ثم ذكر ملوك النصارى الذين يجب أن يدخلوا فى هذه الحرب المقدسة فقال انهم الامبراطور وملك البرتغال وملوك فرنسة وبولونيا والمجر وان ملك فرنسة يجب أن يسير من طريق ايطاليا فيعبر البحر الى دالماسيا وينضم اليه البولونيون والفلاخيون والبغدانيون ويهاجون جميعاً ادرنة هذا فى السنة الأولى ، وأما فى السنة التالية فيكون ملك البرتغال استولى على شمالى افريقية والاسكندرية ويأتى فيتلاقى مع ملك فرنسة وملك بولونيا فى بلاد اليونان ويحملون جميعاً على القسطنطينية وبعد فتحها يسهل فتح آسية الصغرى والأرض المقدسة . ثم يصير توزيع الممالك المفتوحة على ملوك المسيحيين بمعرفة البابا ومجمع الكرادلة

وقد تمّ عقد هذا الاتفاق وتقرر العمل به ووعد ملك اسبانية بتجهيز ٢٣ الف مقاتل لهذه الحرب وبينما هم فى التأهب اذ مات الامبراطور مكسيمليان فى ١١ يناير سنة ١٥١٩ فتوقف كل شئ الى ما بعد انتخاب قيصر جديد

ثم مشروع « ايرازم » Erasme وهو الثامن عشر وتاريخه سنة ١٥٣٠ وكان ايرازم هذا من مشاهير رجال الأدب ولد فى روتردام سنة ١٤٦٧ ومات فى بازل سنة ١٥٣٦ وقد كانت دعوته لحرب الترك من آثار دعوة البابا لاون العاشر ومن آثار فتح الترك لبلاد

المجر . وكان ينادى ان الترك لم يتقدموا فى اوربة الا بسبب انقسام المسيحيين وكان يغضب لقول بعضهم ان الدين يمنع الحرب ويقول : ان المسيحى لا يمكنه أن يعيش ان لم يصرع الترك . وكان يقول للاوربيين : لا تهولنّكم عظمة السلطنة العثمانية فان السلطنة الرومانية والفتوحات الأسكندرية كانت أيضاً بمنتهى العظمة وقد جاء وقت انقرضت فيه . ولم ينظم ايرازم برنامجاً للعمل وانما كان يثير الأفكار ويحرك الهمم

ومثل مشروع ايرازم هذا مشروع « نانيوس » Nannius وهو التاسع عشر وتاريخه سنة ١٥٣٦ وكان نانيوس هذا راهباً هولاندياً عالماً ولد فى « الكمار » Alkmar سنة ١٥٠٠ ومات فى « لوڤان » Louvain سنة ١٥٥٧ وكانت دعوته بعد دعوة « ايرازم » بثلاث سنوات . وهى تتضمن الجواب على دعوى أن الديانة المسيحية انتشرت بدون سفك دماء فيقول نانيوس : ان المسيحيين الأولين كان عندهم صبر وجلد وكان استشهاد مؤمن واحد فى سبيل الدين سبباً لاهتداء الف نفس . وأما فيما بعد فقد تغيرت الحال وهذه سبعة قرون مضت والأمة الجاحدة تهين المسيحيين ولا يهتدى بهذه الاهانات أحد الى المسيحية . وكلما انتصر الأتراك وتقدموا ازدادوا استمساكاً بعروة ديانتهم . ثم ان الاسلام قد غزا آسية وافريقية واوربة ولذلك أصبحت محاربة المسلمين ضرورة من الضرورات لا مناص منها . والتركى ان لم تحاربه انت كان هو الذى جاء يحاربك فلا بد اذاً من محاربته ولو اتفق المسيحيون لابادوا الأتراك ولكن هؤلاء انتهزوا فرص الاختلاف بين المسيحيين وقد أدخل الاروام الترك فى بلادهم هم بايديهم كما يتجرع الانسان السمّ بيده وما فتوحات الترك الا انتهاز فرص . ومتى قاومهم المسيحيون حق المقاومة هزموهم أفلم ينهزم سليمان عن ڤينّا

ومن قبيل مشروع نانيوس هذا مشروع « كوسبينيانوس » Cuspinianus الطبيب الالمانى من فرانكفونيا كانت ولادته سنة ١٤٧٣ ومات سنة ١٥٥٩ وكان من مستشارى الامبراطور مكسيميليان ومشروعه هو العشرون وتاريخه سنة ١٥٤١ وقد ذكر فى أول كتابه أصل الأتراك وكيف دخلوا شبه جزيرة البلقان وكيف حاولوا فتح ڤينّا . ثم أخذ يتكهن بسقوطهم ويورد العلامات التى تؤذن باسترداد المسيحيين للقسطنطينية قال : ان راهباً تكهن قبل فتح الترك للقسطنطينية بان المسيحيين سيعودون اليها بعد ثمانين

سنة . وقد مضى من المدة تسع وسبعون سنة ولم يبق الا سنة واحدة . واورد كلام متنبئ آخر فلكي من نابولى اسمه « منياتنسيس » نظم نبوته شعراً وهى فى هذا المعنى . ثم اشار الى ملحمة لاتينية قديمة مضى عليها مائة سنة موجودة فى ماغد بورغ مآلها ان رجلاً من اعقاب شارلمان يكون اسمه كارلس هو الذى يعيد السلطنة الشرقية .

ثم ذكر كوسبينيانوس تاريخ آل عثمان الى السلطان سليم عاشر سلطان منهم . ثم أشار الى الطرق التى يمكن المسيحيين أن يدخلوا منها الى شبه جزيرة البلقان ويطردوا الترك من أوربة وقال انه يجب اتخاذ خطة الهجوم اقتداءً بانيبال وقيصر . وذكر مواقف جان هونياد الشهيرة وقال لو اتفق الالمان والمجر بدلاً من أن يتقاتلوا لطردوا الترك الى آسية . ونهاية كلامه حث الامبراطور شرلكان على قتال الترك

ثم المشروع الواحد والعشرون لمحاربة الترك وهو المنسوب الى « جيور جڤيتز » Georgevits تاريخه سنة ١٥٤٢ وكان جيور جڤيتز هذا رحالة مجريا نشأ عند الأتراك وقيل بقي أسيراً عندهم مدة ثلاث عشرة سنة وانتهت حياته فى رومة سنة ١٥٦٠ وكتب تاريخ وقوعه فى الأسر وما عاناه فيه وطعن فى الترك وذكر فى كتابه ملاحم تشير الى انقراض السلطنة العثمانية. وكان يرجو أن يهتدى الترك الى الدين المسيحى . وقد كان نداؤه لمحاربة الترك حرباً صليبية موجها الى الارشيدوق ماكسيميليان النمساوى . وقال : ان السلام الآن بين ملوك المسيحيين كاد يكون عاما فلا يجوز التوقف عن حرب الترك فألمانيا تقدر ان تجند لقتالهم بدون عناء ٥٠ ألف راجل و ٢٠ ألف فارس ومثل ذلك ملوك ايطاليا ويرجى من فرنسة واسبانية ان تجهزا أكثر من هذا العدد ويمكن هولانده ان تجهز ١٠ آلاف فارس و ٢٠ ألف راجل وفى استطاعة المجر وموراڤيا وسيليزيا وبوهيميا و بلاد الدانوب تقديم ٦٠ ألف مقاتل . قال المؤرخ دجڤارا : انه لو كان احتشد وقتئذ ٢٢٠ ألف راجل و ٩٠ ألف فارس لكان جيشا عرمرما وكان يرجى منه العمل . ولكن جيور جڤيتز يقع فى التناقض مع نفسه عندما يقول: « إن الجندى المسيحى لا يفكر الا فى الأجرة التى يأخذها وان الجندى المسلم يترك كل رذيلة اذا صار الى ميدان الحرب »

وفى سنة ١٥٤٢ ظهر فى مدينة « انفرس » (بلجيكا) نشرة فيها نداء للنصرانية ان تتحد وتزحف نحو الأتراك وتقهر هذه الأمة الجاحدة . . .

وفى السنة نفسها ظهر مشروع حرب صليبية للبرنس يواكيم الثانى من أمراء براندبورغ Yoachim II de Brandebourg

ثم المشرع الثانى والعشرون وهو المنسوب الى « غيليوم دو غرانترى دوغرانشان » Guillaume De Grantrye De Grandchamps وتاريخه سنة ١٥٦٦ الى ١٥٦٧

وكان هذا الرجل أقام ثلاث عشرة سنة فى القسطنطينية وعاد منها الى فرنسة مع السفير دارامون D'Aramon سنة ١٥٥١ ثم فى سنة ١٥٦٦ عينته فرنسة سفيراً فى تركيا نظراً لخبرته بأحوال تركيا . ولكن « غرانشان » لم يوفق كثيراً فى سفارته هذه الى حدان الملك كارلس التاسع كتب الى الصدر الاعظم محمد الصوقولى يقول له : «ان غرانشان الذى عهدنا اليه بجميع أشغالنا فى الشرق هو منتظر أن نرسل شخصاً بدلا عنه لانه لا يعجبكم » وسنة ١٥٧٠ رجع الى فرنسة و بيده كتاب من السلطان سليم الثانى الى ملك فرنسة وقد عين هذا مكانه سفيراً « فرانسوا دونواى » Francois De Noailles

وكان غرانشان يحلم أن يتزوج بالاميرة « كيابنه » الفلاخية الرومانية ابنة الويقود بترو الثالث أمير رومانيا ثم يرث بعد ذلك امارة رومانيا ولكن حلمه هذا لم يصح فاقترح على الباب العالى أن ينصبه أميراً على الفلاخ والبغدان وانه هو فى مقابلة ذلك يسعى فى تقريب الفرنسيس البروتستانت من الأتراك بحجة ان بين عقيدتى الفريقين تشابهاً وان ينقل البروتستانت الفرنسيس Huguanots الى بلاد الفلاخ والبغدان . وكان يقوى أمله فى ذلك « سجيسموند زابوليا » Zapolya أمير ترانسيلفانيا الذى كان يرجو مساعدة غرانشان له فى الحصول على وعد ملك فرنسة بتزويجه من الأميرة مرغريت أخته . وقد أرسل الصدر الأعظم ترجمانه محمود بك يلتمس من ملك فرنسة تزويج أخته من الأمير سيجيسموند المذكور ليكون فيما بعد ملكا على بولونيا

الا ان أمراء الممالك المسيحية تزاحموا على الأميرة مرغريت هذه فالامبراطور مكسيميليان أرادها لابنه رودولف وملك البرتغال « سباستيان » الذى لم يكن تجاوز السابعة عشرة من العمر أرادها لنفسه وأسعفه فى ذلك البابابيوس الخامس فثارت حماسة هذا الملك الشاب بما حركه من العشق وكتب الى البابا يشكره كثيراً ويقول : «انى ما أريد

بمصاهرة جلالة ملك فرنسة الا أن أبين له مقدار تقديرى لشرف الاصهار له وان أثبت لأوربة ما عندى من الوجد لانقاذ الكنيسة من ظلم الاتراك »

لكن كارلس التاسع ملك فرنسة أبى الا تزويج أخته من « هنرى دوبوربون » أمير ناڤار الذى صار فيما بعد هنرى الرابع ملك فرنسة .

وقد كانت ايزابلا والدة الامير « زابوليا » الترنسلڤانى أرسلت الى هنرى الثانى ملك فرنسة ترجوه أن يتفق مع السلطان سليمان لعل هذا يرد الى ترانسلڤانيا بلاد المجر السفلى ثم ان الامير زابوليا تزوج بابنة أخى الامبراطور شرلكان . وكان زابوليا قد كتب الى السلطان فى ٤ ابريل سنة ١٥٦٤ يستأذنه فى الزواج وظهر من تقرير مقدم الى الامبراطور ان السلطان سليمان كان يعامل الامير زابوليا كأحد أولاده ولذلك كان سليم الثانى يعدُّه كأخٍ له وكان زابوليا لا يتزوج الا من يرتضيها له السلطان والا يبقى عَزَباً . وكان مراد الترك أن يجعلوا أمير ترانسيلڤانيا ملكا على بولونيا ليقف فى وجه الامبراطورية الالمانية وان يزوجوه بأخت ملك فرنسة لاجل هذا الغرض . وقيل انهم كانوا يطمعون أن يجلسوه على عرش الامبراطورية نفسه وعلى فرض لم يصح حلم الامبراطورية له فيجمعون من بولونيا وترانسيلڤانيا والفلاخ والبغدان قوة تقف فى وجه الامبراطورية الجرمانية . وكانت تركيا تساعد حركة البروتستانت فى أوربة وكان من جملة ما فكرت به الملكة « مارى دومديسيس » ابعاد « الهوغنوت » هؤلاء من فرنسة لاعادة السلام الى البلاد فكانت تفكر تارة فى ايطانهم ترانسيلڤانيا و بلاد الفلاخ والبغدان وطوراً فى ايطانهم جزيرة قبرص وأحياناً فى الجزائر الخ وكان «غرانشان» يعرف مقاصد الملكة ويجتهد فى تحويل هجرة الهوغنوت الى رومانيا ويعد ملك فرنسة بأنه ان أزوج أخته بأمير ترانسيلڤانيا وكان هواى غرانشان تولى على الفلاخ والبغدان فانه ينزل عنهما لصهر ملك فرنسة . وروى المؤرخ هامر Hammar (١) ان الامير الرومانى بطرس الاعرج وأمه « كياينه » كشفا للباب العالى دسائس غرانشان وبذلا فى القسطنطينية ٢٠ ألف دوكا لأجل احباط مساعيه ولكنهما لم يقدرا على استرجاع الامارة لأنفسهما وانما عين السلطان سليم الثانى اسكندر أخا بطرس أميراً على الفلاخ وأرسل بطرس وأمه الى قونية وأجرى عليهما

(١) أشهر مؤرخ أوربى لتركيا

الارزاق اللازمة

ثم ان البابا بيوس الخامس هيأ مشروع الصليبية الثالث والعشرين وتاريخه سنة ١٥٧٠ ويقول المسيو فلامان Flament انه هو التدبير الوحيد الذى وقف تقدم الاسلام . وكانوا فى زمان البابا يوليوس الثالث قد استنفروا الناس أيضاً لقتال الترك ولكن القول لم يقترن بالعمل الا فى عهد بيوس الخامس

وكان الامبراطور ماكسيميليان قد جمع أمراء ألمانيا والنمسا فى اوغسبورغ للتذاكر فى قضية الاتراك وأرسل البابا بيوس الخامس لشهود هذا المجمع من قبله الكردنيال « كوماندون » ومعه « كانيزيوس » اليسوعى . فأجمع الأمراء الكاثوليكيون على الوعد بالسير لقتال الترك واستنكف عن ذلك أمراء البروتستانت . وقدم البابا للامبراطور لأجل تجهيز الحملة على الترك ٥٠ ألف دوكا وتعاهد عمانوئيل دوق ساڤواى و « الفونس رستى » دوق فرارى و « كوم مديسيس » و « غليوم غونزاغا » دوق مانتو وجمهورية « لوك » Lucques وجمهورية جنوة على قتال الترك اجابة لدعوة البابا . وشرع هذا يصلى ويقدس ويذرف الدموع وقيل ان السلطان سليمان قال : « إنى لأخشى من صلوات هذا البابا مالا أخشاه من جميع جيوشهم »

وكان سليمان قد شن الغارة على بلاد المجر وحاصر زيغت Zighet ومات قبل فتحها بثلاثة أيام (٣٠ أغسطس ١٥٦٦) وأخفوا موته عن الجيش الى أن تم الفتح وجاء ابنه سليم الثانى من الأناضول فرأى الأحوال مما يقتضى جنوحه الى الصلح فعقد هدنة الى ثمانى سنوات مع الامبراطور مكسيميليان

أما البابا فلم يفتر ولم يعدل عن مشروعه فى جمع كلمة النصرانية على الترك وكان يقول انه يجب على الأمة المسيحية أن تسير قاطبة لقتالهم . ومما كتبه « ان السلطنة التركية قد تبسّطت تبسُّطاً هائلاً بسبب نذالتنا الى حد أننا أصبحنا لانقدر أن نقف فى وجه اعتدائها الااذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو العام وناشبوه القتال برّاً وبحراً ولما كنا نحن على ثقة بأنه لايوجد فى المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لامندوحة لنا من أن ندعوهم جميعاً لقتاله وخضد شوكة الأتراك أعدائهم جميعاً »

فأرسل ملك اسبانية خمسين سفينة بقيادة « اندرى دوريا » (اميرال شهير)

و « بطرس دومونت » رئيس فرسان مالطة ثلاث سفن ودوق ساقواى أربعا وكان أسطول البندقية تحت قيادة « زان » Zanne وأسطول البابا تحت قيادة « كولونا » Colonna

وجاء الأسطول العثمانى فرسى أمام جزيرة قبرص فى أوائل يوليو سنة ١٥٧٠ وفى ٨ سبتمبر جرى هجوم عام وفتح الترك نيقوسيا قاعدة الجزيرة وفر الأسطول الاسبانى وانكفأ أسطول البنادقة وأسطول البابا الى كورفو

واذ بلغ هذا الفشل البابا أرسل الى ملك فرنسة يقول له : « إن قضية الحلف المقدس هى عندنا من الأهمية بحيث أنها لم تترك لنا راحة لافى الليل ولافى النهار ولا نرجو لنا راحة الا فى دخول جلالتك فى هذا الحلف »

ولما أجابه كارلس التاسع معتذراً بالمعاهدات التى بينه و بين تركيا كتب اليه البابا يقول «ان جلالتك لاتبرأ من اللوم اذا كنت لأجل فائدة شخصية أو أية فائدة كانت تستمر على علاقاتك الودادية مع الكفار »

ومراد البابا بذلك انه وان كان ملك فرنسة مرتبطاً بعهود مع الاتراك فهو فى حلّ منها وليس عليه أن يرعى عهوداً للمسلمين

فتأمل فى هذا وقابله مع شريعة الاسلام التى هى فى هـذا الموضع محددة بهذه الآية : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

ومعنى ذلك أن على المسلم نصر أخيه المسلم على غير المسلم الا اذا كان بين هذا و بينه ميثاق فلا يجوز نقض هذا الميثاق بوجه من الوجوه . وكم جاء فى القرآن الحث على حفظ العهود بازاء أىّ كان مسلماً كان أو غير مسلم . قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) وقال تعالى : (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) الآية وقال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الى أن

يقول : (وَالذينَ هُمْ لِأَمانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون) وقال تعالى : (إلاَّ الذينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَّقِينَ)

فأنت ترى أن الاسلام لايقيد المؤمن بالعهد اذا كان تجاه المؤمن و يطلقه منه اذا كان بازاء غير المؤمن كما فعل البابا بيوس الخامس الذى يصرح فى كتابه لملك فرنسة بأنه لايجوز له لمصلحة شخصية أو لأىّ سبب آخر أن يرعى عهوده للاتراك الذين هم غير مسيحيين .

وقابل قول البابا هـذا بوصية سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه للاشتر النخعى عند ماولاه على مصر وذلك فى كتابه الشهير للأشتر قال كرم الله وجهه :

« وان عقدت بينك و بين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جُنة دون ماأعطيت فانه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقـد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين (١) لما استو بلوا من عواقب الغدر . فلا تغدرنّ بذمتك ولا تخيسنَّ بعهدك ولا تختلنّ عدوك فانه لايجترىء على الله الا جاهل شقىّ . وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحريماً يسكنون الى منعته و يستفيضون الى جواره فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه . ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تعولنّ على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدرٍ تخاف تبعتـهُ وان تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك » اهـ

الخلاصة ان الامام علياً رضى الله عنه استقصى جميع مايخطر بالبال فى باب حفظ العهود و رد عذر كل معتذر فى نقضها ولم يجعل العهد مسؤولا بازاء المؤمن وغير مسؤول تجاه غير المؤمن .

ونعود الى الكلام على حلف ملوك النصارى لمقاتلة الاتراك ونقول ان كارلس التاسع ملك فرنسة أبدى بعض معاذير لكنه كان فى الحقيقة مستعداً لنكث عهده مع تركيا اذا ارتضى المسيحيون بتمليك أخيه على بولونيا . وكذلك الامبراطور مكسيمليان كان اعتذر للبابا بمعاهدة بينه و بين السلطان سليم الثانى فرد البابا عذره هذا وأجاز له الخيس بعهده بحيث لم تمض أيام ثلاثة حتى نقض الامبراطور الميثاق الذى بينه و بين السلطان كما

(١) أى حال كونهم دون المسلمين فى الأخلاق والعوائد

حرر ذلك « دجفارا » فى الصفحة ١٠١ من كتابه

ولما رأى البابا تثاقلا من سجيسموند ملك بولونيا عن اجابة النفير لحرب الاتراك خاطب ايفان ملك الروسية . ثم انه أرسل الى فيليب الثانى ملك اسبانية يشكو اليه قعود الاسطول الاسبانى عن مناجزة اسطول الترك القتال و يعرض عليه نفقات الحرب فتقبل فيليب ذلك بقبول حسن و وضع اسطوله تحت اشارة البابا . ثم ان هذا اختار الدون جوان النمساوى Don Juan D'Autriche ابن شرلكان من احدى حظاياه قائداً عاما للحملة . وسيّر أمراء ايطالية بعوثهم فقدم دوق اور بنيو ألف راجل ودوق فرّارى ألف راجل و ٣٠٠ فارس ودوق مانتو ألف راجل و ٢٠٠ فارس ودوق ساڤواى ألفى راجل و ٢٠٠ فارس وقدمت جنوة ولوك ألفى راجل و ٢٠٠ فارس والدوق كوسم دومديسيس أر بعة آلاف راجل وألف فارس .

ثم انعقد التحالف فى ٢٥ مايو سنة ١٥٧١ ونشر فى ٢٥ يوليو . وهو الحلف المسيحى الثالث عشر فى وجه الدولة العثمانية منذ تأسيسها الى ذلك العهد . وقد جاء فى صك هذا الحلف « ان البابا بيوس الخامس وفيليب ملك اسبانية وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الاتراك لأجل أن يستردّوا جميع المواقع التى اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس [1]

وكان البابا نفسه قدم للحرب ١٢ سفينة حربية وثلاثة آلاف راجل و ٢٧٠ فارساً وتقرر توزيع نفقات الحملة على الوجه الآتى : النصف على ملك اسبانية والثلث على جمهورية البندقية والسدس على البابا . ولما احتشدت أساطيل الحلفاء بلغت ٢٢٥ سفينة حربية و ٧٠ مركب نقل وكان اقلاعها من مرسى مسّينى فى ١٥ سبتمبر سنة ١٥٧١ وكان الاسطول العثمانى ٢٤٥ سفينة حربية و ٨٧ مركب نقل أى أرجح من اسطول الحلفاء

وتلاقى الفريقان فى خليج ليپانت ونشبت الواقعة البحرية الشهيرة وقضى الله بتمحيص المسلمين وفقدوا ثلاثين ألف مقاتل وأخذ المسيحيون منهم ١٣٠ سفينة و ١٠ آلاف أسير . وكانت هذه المعركة مبدأ تقهقر السلطنة العثمانية

وقيل ان السلطان سليما الثانى قال لسفير البندقية بعد المعركة : « نحن عندما نفتح

---

(١) تأمل كيف اعتبروا هذه الأماكن من بلدان المسيحيين

لكم مملكة نكسر لكم عضواً لايمكنكم تعويضه وأما متى خسرنا اسطولا فلا يكون ذلك الا كالشعر الذى يذهب بالحلاقة ثم ينبت »

والحقيقة ان نجم آل عثمان بعد هذه المعركة بدأ بالأفول وان ركب الاسلام شرع بالقفول وان واقعة ليپانت كان لها مابعدها

ولا تسل عن الأفراح التى عمت أوربة بهذه النصرة وعن القصائد التى نظمها الشعراء والخطب التى شققها الفصحاء و بلغ الفرح من البابا مبلغاً لايحيط به الوصف الا أنه لم يستنم الى الدعة بعد هذا الظفر بل بقى يعلن على النصرانية ان عدوها لايبرح شديداً وانها لاتزال منه بخطر . ولم يكتف باثارة ملوك النصرانية على الترك بل حاول اثارة ملوك المسلمين الذين بينهم و بين الترك ضغائن . ونقل المسيو دجفارا صورة كتاب من البابا المذكور الى طامهاسب شاه العجم من جملة ماجاء فيه : « لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين اذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات »

وأرسل البابا بواسطة البرتغال يستعدى ملك الحبشة والشريف مطهّراً امام اليمن على الدولة العثمانية ولكنه لم يعش طويلا بعد هذه الفرحة لأنه مات فى ١ مايو سنة ١٥٧١ وانحلت بموته تلك الرابطة وتصالحت البندقية مع الباب العالى وغضب البابا غريغوريوس الثالث عشر على البنادقة وكان هذا البابا قد اجتهد أن يقفو أثر سلفه فى حرب الترك وجمع لذلك الاسبانيول والبنادقة الا ان اسطول الحلفاء تقهقر أمام الاسطول العثمانى والتجأ الى ناڤارين (١٥٧٢) وانعقد الصلح بين تركيا والبندقية فى ٧ مارس سنة ١٥٧٢ و بقيت فى أيدى الترك قبرص والمدن التى كانوا افتتحوها من ألبانيا وقدمت البندقية ثلاثمائة ألف دوكا للسلطان و ٥٠ ألف دوكا للصدر الأعظم وزادت ماكانت تؤديه من جزية جزيرة « زانتى » فى المورة

ثم جدّ مشروع ايطالى لمحاربة الترك هو الرابع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٧١

قال المسيو دجفارا ان ظفر المسيحيين فى ليپانت أثار الحماسة فى رؤوس كثير من الاوربيين وشرعوا فى ترتيب برامج ورسم خطط لمحو الدولة العثمانية من جملتها برنامجان محفوظان فى خزانة كتب « امبروزياما » فى ميلانو أشار اليهما « جورغا » Jorga فى تاريخ السلطنة العثمانية وأحد هذين البرنامجين مقدم الى البابا بيوس الخامس وأكثر موضوعه

يدور على ايجاد المال اللازم لغزو الترك . وهو يحسب الاديار ١٤٤٠٠ والرعويات ٢٨٨٠٠٠ ويفرض عليها مبالغ معينة ويفرض مبالغ أخرى على الأمراء ويبين كيفية اجتباء المال مما لاحاجة بنا الى ذكره . وأما عدد الجيش اللازم فيقدره صاحب أحدالبرنامجين بمائة ألف راجل وخمسين ألف فارس وخمسين ألف بحرى . وهو يدخل فى تفاصيل من جهة نفقات الحرب لاحاجة أيضاً الى ذكرها ويشير بسيرالامبراطور الجرمانى منجهة البر وبسير اسطول الملك فيليب من جهة البحر وباثارة نصارى الشرق وبتوزيع الأسلحة عليهم وبمكاتبة شاه العجم لمهاجمة الترك من الوراء . وصاحب هذا المشروع يرجو هكذا تدمير السلطنة العثمانية ومن بعد تدميرها الاستيلاء على الأراضى المقدسة ويدخل فى مشروعه الحاق مصر وقسم من بلاد العرب بالحبشة . وأما شاه العجم فيعامل معاملة صاحب ولو كان مسلماً ويجوز أن تكون هذه المعاملة سبباً لاهتدائه الى الكثلكة . . .

وأما المشروع الثانى المحفوظ فى مكتبة ميلانو المذكورة فهو الخامس والعشرون وتاريخه سنة ١٥٧٢

وصاحبه يذكر استعداد الأتراك للدفاع خوفا من عادية الأوربيين ويقول ان لديهم ٢٥ ألف فارس فى المورة ومثلها فى شمالى بلاد اليونان فهو يشير بمهاجمة الدردنيل والزحف من هناك الى القسطنطينية وهكذا يضطر الترك الى اخلاء المورة ويحتلها الاوربيون وأما بلاد الجزائر فيخشى ان هوجمت أن تقاوم مقاومة شديدة وتأتيها نجدات من سلطان فاس وأما قبرص فهى بعيدة عن أوربة وأما بلاد المورة والأرخبيل فأهلها لا يثورون الا بعد انهزام الترك فالرأى الأولى عنده هو الزحف على الاستانة رأساً . وصاحب هذا المشروع يشكو تخاذل المسيحيين ويقول أنهم لو اتحدوا لما أبقوا للاتراك باقية ولكن دوق موسكو وملك بولونيا لا يعتمد عليهما . والنمسا ضعيفة بنفسها ولولا نجدة الألمان لها لأضافها الترك الى ممالكهم . وفرنسة مشغولة بمنافساتها مع الامبراطورية الجرمانية . وانكلترة واكوسيا والدانمرك والسويد بعيدات المزار وهن لا يلتفتن الى نداء البابا

قال صاحب هذا البرنامج : ان الذى يمكنه أن يصارع الأتراك هو ملك اسبانية ومعه ملك البرتغال . وأهم عدو للترك فى الشرق هو الشاه الصفوى لكن يحتاج الى المال والمدافع والكرج يمكنهم أن يدافعوا الترك لكنهم لا يقدرون أن يهاجموهم . ولو كان العرب متحدين

لأمكنهم أن ينتزعوا من أيدى الترك مصر والشام . وكذلك عرب ليبيا وافريقية ليسوا متحدين . وملك فاس لا يجرؤ على عمل حذراً من جيرانه . والنجاشى يمكن الاعتماد عليه لكنه لا يملك أسلحة نارية ولا أسطولا . قال : ولو كان عند دوق موسكو سفن بحرية لما كان أحد أقدر منه على مهاجمة الاستانة . والخلاصة أن صاحب هذا المشروع لا يعول فى حرب الترك الا على البابا واسبانية والبرتغال وهو يقترح جمع الأموال وجعلها تحت يد البابا ومن رأيه الخدمة العسكرية الاجبارية لمحاربة الترك وأن يتجند الرهبان والقسيسون لهذه الحرب المقدسة

ثم المشروع السادس والعشرون وهو مشروع الكابيتان « لانو » La Noue وتاريخه سنة ١٥٨٧

هذا الرجل كان من أعوان هنرى الرابع ملك فرنسة جرح فى إحدى الوقائع فى يده فقطعوها له ووضعوا له ذراعاً من حديد لأجل أن يتمكن من مسك اللجام فسمى من ذلك العهد « ذراع من حديد » وقد عاش فى عصر كثر فيه تأودالأوربيين على شقاء نصارى المشرق من أروام وصرب و بلغار ومكدونيين فكتب « لانو » رسالة أشار فيها باتحاد مسيحى على الأتراك وتقسيم سلطنة آل عثمان ، وقال ان الضرر انما وقع من مخالفات بعض ملوك المسيحيين لملوك المسلمين أعداء اسم المسيح . وقال ان ملوك المسيحيين لو اتحدوا لطردوا الترك فى أربع سنوات ! قال دجڤارا : ان « لانو » أفرط فى التفاؤل فقد لزم بدلاً من أربع سنوات أربعمائة سنة حتى أمكن التغلب على تركيا

وكان من رأى لانو أن يزحف الامبراطور الجرمانى ومعه خيالة المجر والبولونيين من طريق بوسنه الى تراقيا وان يجتمع الفرنسيس والسويسريون والطليان ويقطعوا الادرياتيك الى ألبانيا فتثور معهم بلاد الأروام وان تسير أساطيل اسبانية والبرتغال قاصدة غاليبولى وان يضم البابا مائة سفينة حربية الى اسطولها . وكان يشير باستنفار الفلاخيين والبغدانيين أيضاً على الترك الخ

وكان لبرنامج لانو وقع عظيم فى اوربة وقد استؤنف البحث فيه تحت أسماء اخرى

ثم مشروع « رينه دولوزينج » Rene De Lusinge وهو السابع والعشرون وتاريخه ١٥٨٨

هذا الرجل من اسرة نبيلة فى ساڤواى حصل العلم فى جامعة تورينو والتحق بدوق «ميّانزاً» الذى كان مع الامبراطور الجرمانى فى حرب الترك ثم جعله دوق ساڤواى سفيراً له فى باريز وله مؤلفات كثيرة باللاتينية والافرنسية منها كتاب اسمه « تاريخ منشأ الترك وتقدمهم وتقهقرهم » ودعا فرسان النصارى لقتال الأتراك بالفاظ مهيجة تناول فيها الاسلام وصوّر ما يجرى من فظائع القتل والنهب على اخوانهم نصارى الشرق

وقبح اعتذارات المسيحيين عن عدم اتحادهم وقال انهم وان لم يتحدوا بعضهم مع بعض فيجب عليهم الاتحاد على العدو العام وقال انه يجب أن يعقدوا هذا الحلف فيما بينهم فى زمان السلم

وكان يرى رأى « سانوتو » وهو أن الهجوم على تركيا يجب أن يكون من البحر. وقال ان السلطنة العثمانية متداعية الى الاضمحلال بعوامل داخلية. قال دجڤارا: ان لوزينج لم يخطئ فى هذا الرأى ولقد كان بعيد النظر فيه لانه تحقق بعد أعصر من ذلك العهد ثم مشروع البابا اكليمنضوس الثامن وهو الثامن والعشرون وتاريخه ١٥٩٤ — ١٦٠٠

وقد كان هذا البابا جادّاً مشيحا فلم يجلس على عرش البابوية فى ٥ يوليو سنة ١٥٩٢ حتى أرسل الى الامبراطور رودولف يستنفره لحرب غير المؤمنين. وامتاز هذا البابا على غيره بكونه أرسل الى الشرق عدداً كبيراً من القصّاد والدعاة لتحريك المسيحيين على الثورة ومقاتلة الترك ومنهم « كوميليو » Cumuleo الذى كانت مهمته أن يجمع على مشاغبة الترك العجم والقوزاق والترانسيلڤانيين والفلاخ والبغدان والبلغار. وأشخص الى مصر « كاميليو كاتانى » Camillo Caetani أسقف سرڤيا فارسل بطريرك الاسكندرية الى البابا بمقابلة ذلك معتمدين من قبله. ثم أرسل الى براغ (بلاد التشيك) « سبيزيانو » أسقف « كريمون » Crémone والكردينال مادروزو Madruzzo وأرسل الى بولونيا « مالاسبينو » أسقف « سان سيڤرو » Saint-Severo وأرسل الى جبل لبنان اليسوعيين « داندينى » Dandini و «برونو» Bruno وراسل الروس وهم أنفذوا اليه بعض مطارينهم. ولم ينس العجم بل أنفذ الى فارس الاب كوستا والاب « دياغوميراندا » وسعى كثيراً باقناع سجيسموند أمير ترانسيلڤانيا بترك الاتراك لأن هذا كان متمسكا بهم وكان يهون أمر الاتراك على ملوك المسيحيين ويبعث اليهم بما يترامى من أخبار دبيب

الفساد والانحلال فى تركيا وكان يوبخ البولونيين كثيراً على قعودهم عن حرب الترك وأرسل « كاميل بورغيز » Borghese الى اسبانية يستعدى هذه الدولة على الترك ثم شفعه بمندوب آخر هو « آلدوبراندينى » Aldobrandini الذى هو ابن أخت البابا وما زال يغرى هنرى الرابع ملك فرنسة بعداوة الترك حتى كتب هذا الى سفيره فى الاستانة «بريف» Bréves قائلا له : « ان الأب الاقدس يأبى الا ان أنضم الى ملك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين ونحارب الترك »

وكانت رسائله تترى الى جميع الجهات بالاستعداء على الترك وسنة ١٦٠٠ أرسل « ريموند دلاّتورى » الى ڤينا يطلب من الامبراطور الدخول فى حلف مسيحى ضد الترك . وكان يقول ان الواجب جمع كلمة المسيحيين وتفريق كلمة المسلمين (١) وكان يشير بأن يكون الحلف المسيحى عاماً و بأن لا يستثنى منه أحد ولا البروتستانت وأن يكون لأجل مسمى خمس سنوات بالأقل وان تراسل هذه العصبة الكرج والعجم والحبشة والأروام والارناووط والراغوزيين والبولونيين والفلاخ والبغدان وغيرهم . وأرسل الى الامبراطور مع الارشيدوق « ماتياس » برنامجا ثمانية بنود منها بنود تتعلق بكيفية الزحف على تركيا وكان يهم البابا اكليمنضوس أمر الزحف على تركيا الى الحد الأقصى بحيث انه فى مجمع سنة ١٦٠٠ تذكر انشقاق ملوك ايطالية وما يخشى من عدم انتظام كلمتهم على حرب الترك فأجهش بالبكاء . وسنة ١٦٠١ انكسر المجر ومن ذهب لنجدتهم ومن جملتهم دوق « مركور » De Mercoeur والجنرال « آلدونبراندينى » ابن أخت البابا وقتل هذان فازداد حزن البابا وشرع يلح على هنرى الرابع فى محاربة الأتراك وأرسل يسمعه انه يمكن اخراج الامبراطورية من آل « اوتريش » أى عائلة النمسا المالكة وانتخاب هنرى الرابع امبراطوراً وكل هذا ليحفزه على حرب حلفائه الترك ثم أراد أن يوفق بين هنرى الرابع ملك فرنسة وفيليب الثالث ملك اسبانية على شرط أن يتحدا فى محاربة الترك فبينا هو يسعى فى هذا الغرض اذ اطلع ملك فرنسة على دسيسة بحقه كان يدسها ملك اسبانية فخبط بها الاتفاق

ولم يقتصر البابا اكليمنضوس فى مناصبة الترك العداء على العوامل الخارجية بل

(١) على نسق سياسة الاستعمار اليوم

مديده الى داخل سلطنة آل عثمان وذلك كما يأتى :

كان فى السلطنة العثمانية رجل من أعظم أركانها يقال له سنان باشا اشتهر اسمه شرقا وغرباً وكان هذا الوزير العظيم طليانياً مسيحيًّا اسمه « سيبيون سيكالا » Scipion Sicala وقع فى أسر الأتراك فأسلم وحسن اسلامه لأنه كان مسلماً عن عقيدة لا عن غرض دنيوى وأسعفته فيما بعد ذلك الاقدار الى ن صار من أعاظم رجال السلطنة العثمانية وأصبح هنرى الرابع ملك فرنسة يراجعه فى المهمات التى له فى الشرق . فالبابا اكليمنضوس الثامن فكر فى اعادة سنان باشا الى المسيحية وأرسل اليه الراهبين اليسوعيين « انطونيو وڤنسنزو سيكالا » اللذين كانا من أسرته . وقد نشر « رينيرى » Rinieri عن هذه القصة وثائق كانت مجهولة وعلم منها ان لوكريس » Lucrèce والدة سنان باشا كانت شاهدت ابنها فى مسينى وراودته على أن يعود الى النصرانية . وذلك سنة ١٥٩٨ ولما لم تظفر ببغيتها راجعت البابا فى الأمر فاجابها بكتاب هنأها فيه على مساعيها وقال لها انه يرجو رجوع سنان لا الى أمه الدموية فقط بل الى أمه الروحية الكنيسة الكاثوليكية . ثم أرسل البابا الاب انطونيو سيكالا الى ارشيدوق النمسا وملك اسبانية يشاورهما فى مشروع اعادة سنان باشا الى النصرانية

وكان لسنان باشا أخ بقى مسيحياً اسمه « كارلوسيكالا » تولى بواسطة وجاهة سنان فى الدولة امارة جزيرة ناكسوس من جزر الأرخبيل الاغريقى وكان يطمح الى أن يتولى فى يوم من الأيام امارة الفلاخ والبغدان . فكتب البابا الى كارلو سيكالا فى ٨ مايو سنة ١٦٠٠ بمكانه من امارة تلك الجزيرة يرجو منه العمل لاعادة سنان الى المسيحية . وفى اثناء ذلك صدرت الارادة السلطانية الى كارلو سيكالا بامارة جزيرة ناكسوس وبجلب أُمِّهِ لتكون بجانبه فلحظ الناس من ذلك أن سنان باشا هو الذى استخرج هذه الارادة أملا بان تجىء امه وتهتدى الى الاسلام وكان قد كتب الى أخيه يستنجزه وعده بجلب امِّهِ . ثم اجتمع سنان باشا وأخوه فى جزيرة ناكسوس وقدم اليهما ابن عمهما «ڤنسنزو سيكالا» اليسوعى واطلع سنان على اقتراحات البابا وفيليب الثالث ملك اسبانية . وبعد ذلك بسنة أنفذ البابا الأب انطونيو سيكالا الى مجريط يلتمس من ملك اسبانية المعاضدة على اسقاط السلطنة العثمانية التى سيقوم سنان باشا ثائراً عليها بعدرجوعه الى النصرانية . وكان برنامج

البابا أن تتولى أسرة مسيحية عرش الاستانة وأن يُحمَل شعوب تركيا على المسيحية [١] ووعد البابا سنان باشا بأنه إن ثار على تركيا يكون من ورائه ملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين وان جميع ماينتزعه سنان من أيدى الترك من الولايات يصير اقطاعاً له داخلا فى ذلك القسطنطينية وغير مستثنى سوى الأرض المقدسة ودوقية أثينا اللتين ستكونان لملك اسبانية و بلاد المجر وترانسيلفانيا التى ستؤول للامبراطور . وكتب البابا اكليمنضوس الى سنان باشا فى ٥ ابريل سنة ١٦٠٣ كتابين فى أحدهما يعده بأنه يكون ملكاً على البلاد التركية التى يفتحها على شرط أن يحول أهلها الى العقيدة الكاثوليكية ويؤكد له بأنه فى هذا الوعد على وفاق مع الامبراطور رودلف ومع ملك اسبانية اللذين سينجدانه بجيوشهما وهو يدعوه أن يجحد الدين الاسلامى أمام شهود وهكذا يغسله من آثامه السالفة . وأما الكتاب الثانى ففيه تذكير سنان بوعده بالرجوع الى حضن الكنيسة ووعدله بأنه ان ثار على السلطان يكون الامبراطور وملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين ظهراء له ويختم البابا كتابه بوضع سنان باشا وعائلته تحت حماية الرسولين بطرس و بولس [٢]

والحق انه لو تم هذا المشروع لكان ضربة شديدة على تركيا لكنه لم يتم . وسنة ١٦٠٣ حدث شغب فى الاستانة ومات محمد الثالث . ثم فى السنة نفسها فتح الشاه عباس كرجستان فزحف سنان باشا فى ١٥ يونيو سنة ١٦٠٤ على رأس جحفل جرار الى أرمينية فهزمه العجم هزيمة شنيعة فى ٦ أغسطس سنة ١٦٠٥ فانحاش سنان الى ديار بكر حيث كان ابنه محمود والياً ومات فيها غمّاً فى تلك السنة . وكان له عدة أولاد منهم واحد روى « هامر » انه كان قد تزوج بأخت السلطان محمد الثالث

وأما البابا اكليمنضوس الثامن فمات قبل سنان باشا بتسعة أشهر خائب الأمل فيما حلم به

ثم مشروع الأب كومولي‍و Cumuleo وهو التاسع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٩٤ وكان هذا القسيس مكدونى الأصل عينه البابا غريغوريوس الثالث عشر زائراً رسولياً للكنائس اللاتينية فى تركيا الأوربية وكان بحسب قولهم محمود السجايا ثاقب الفكر نزيه

---

(١) يريد حملهم على ذلك بالقوة كما حصل بمسلمى الأندلس

(٢) كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا صفحة ١٣٧

النفس عالى الهمة لايعرف التعب ولا الملل إلا أنه قضى حياته يتعقب فكرة الانتقاض على الترك ودحرهم الى آسية

ومشروع « كوموليو » مشتق من مشروع البابا اكليمنضوس الثامن إلا أن فيه معلومات خاصة تستحق الذكر

فهذا القسيس أرسله البابا الى موسكو فمر بالبانيا وترانسيلڤانيا فى طريقه ثم عاج ببلاد الفلاخ والبغدان وكان بيده مراسيم من البابا الى ملوك النصارى فيها بيان خطر الترك وتوصية لهم برفض كل معاونة للترك وان لم يمكن الرفض البات فتأجيلها أو وضعها فى شكل سطحى فقط . وكان كومولیو مأموراً أن يعرف هل فى وسع الفلاخ والبغدان والقوزاق أن يثوروا على الترك أولا ؟ وان طلب القوزاق مالا للثورة فكان كومولیو مأموراً بأن يعدهم باثنى عشر الف فلورين لكن على شرط أن لا تؤدى اليهم إلا إذا دخلوا بلاد العدو[1] وكان « كوميليو » مأموراً بأن يسعى ويبقى دائماً على حذر من المسيحيين الأرثوذكسيين وبعد أن طاف فى هذه البلدان أرسل الى البابا بتقرير يقول فيه إن البانيا فيها ٤٠ الف مقاتل وانه يمكن أن يخرج من مكدونية وابيروس مائة الف مقاتل ومن الهرسك وكرواسيا ١٠٠ الف مقاتل ومن بوسنه وضفاف الطونه الى بلغراد ٢٠٠ ألف مقاتل ومن بلغراد الى البحر مائة ألف مقاتل الخ وبالجملة يمكن أن يثور على الترك أربعمائة ألف شاكى السلاح . وكان كوميليو يرى الواسطة لاثارة هذه الأمم هو أن تبدأ الروسية بالزحف لقتال تركيا فاذا زحف مائة ألف مقاتل من الروسية انضمت اليه هذه المقاتلة من أمم البلقان وبلغ عدد الجيع نصف مليون مقاتل . وأما القسطنطينية فان فتحها مستطاع بخمسين سفينة حربية . قال دجوڤارا : يظهر من هنا أن الأب كوميليو كان عظيم الايمان سريع الثقة ويظهر من مطالعة تقارير كوميليو الى الفاتيكان ان أمير البغدان رضى بالدخول فى الحلف المسيحى ضد تركيا وأما أمير الفلاخ فامتنع . وكان هذا الأمير هو الأمير الكبير ميشل الملقب بالشجاع وقد صار فيما بعد أميراً على الفلاخ والبغدان وترانسيلڤانيا معا . واجتهد كوميليو كل الاجتهاد فى منع الصلح بين النمسا وتركيا . ولكنه أخفق فى موسكو وفى بولونيا وعند القوزاق . وآب الى رومة سنة ١٥٩٨ ومات فى أوائل القرن السابع عشر

(١) ماأطبق هذه الدسائس على وصايا الانجيل الذى يبشر به هذا القسيس!

ثم المشروع الثلاثون لتقسيم تركيا المنسوب الى «لوتسيو» Lutcio وتاريخه سنة ١٦٠٠ ويوجـد نسخة خطية من كتاب لوتسيو فى مكتبة نابولى وهو مقسوم الى قسمين الأول يبحث فيـه بحثاً فلسفياً عن عظمة الممالك وسقوطها ويذكر الاشوريين والماديين والفرس والمكدونيين واليونانيين والرومانيين وغيرهم ويقول ان المسلمين سيصيبهم ما أصاب غيرهم وان سفينة الاسلام العظيمة المشحونة بالذخائر والنقائس لا بد أن تغرق مثل غيرها . وكما ذهبت دولة الرومان ستذهب دولة الاسلام . والثانى يبحث فيه عن آل عثمان ويذكر تاريخ سلطان سلطانٍ منهم ويقول ان السلطان مراد دخل الى بلاد اليونان من آسية ومعه ٦٠ الف مقاتلاً وانّ جيش بايزيد كان ٣٠٠ الف وان جيش مراد الثانى كان ١٠٠ الف وجيش محمد الفاتح ٣٠٠ الف وان سليمان حاصر ڤينا بخمسمائة الف . ومن بعـد فشله امام ڤينا لم تزل قوة آل عثمان فى هبوط . قال وقد كان قيام السلطنة الرومانية بالفضيلة وبحسن الطالع الذى كان يرافق الفضيلة فاما السلطنة العثمانيـة فليس لها أساس الا حسن الطالع لا غير . ولولا الاختلاف بين الروم واللاتين ما أمكن الترك أن يدخلوا أوربة . ثم أخذ لوتسيو يشرح حالة الدولة العثمانية وما طرأ عليها من الفساد وقال ان السلطان لا يراه أحـد وهو عاكف على لذاتهِ وان الوزراء لا شغل لهم الا نهب الرعية وان الديوان ليس بمجلس جدّ بل كل من فيه لا يعرفون الا التملق للسلطان وكم من وزير قتله السلطان لانه تجرأ على ابداء رأى مخالف لرأيه . وهكذا ساد فى الدولة الكذب والنفاق واستفاض النكث بالعهود. قال «دجوڤارا» وكان «لوتسيو» يورد هذه الانتقادات بحق الدولة العثمانية ثم ينسى غرضه فيعود فيورد أمثلة لها عند سائر الدول . وذكر ان مناصب الدولة صارت تطرح بالمزاد وان الجنود كثيراً ما تبقى بدون ارزاق بينما السلطان ووزراؤه وقرناؤه منغمسون فى الترف . وبعـد أن وصف كثيراً من مساوئ أحوال تركيا انتهى الى القول بانه محكوم عليها بالانقراض

ولكنه من جهـة ثانية كان يئن من اختلاف المسيحيين بعضهم مع بعض ويقول ان سبب بقاء تركيا الى ذلك الوقت هو تنازعهم . وكان يدعوهم الى الاتحاد ويبين لهم سهولة التغلب على تركيا ويقيم الأدلة على أن محاربة تركيا حق وعدل ويقول « أى شئ أفظع من وجود قبر المسيح فى أيدى غير المؤمنين »

وقد أطرى لوتسيو البابوات الذين دعوا الى الحرب الصليبية وعدّ منهم لاون التاسع وأوربانوس الثانى وغريغوريوس الثامن ونيقولا الثانى وجيلاسيوس الثانى واسكندر الثانى وكاليكستوس الثانى وهوموسيوس الثالث ونيقولا الرابع واكليمنضوس الثالث وسلستينوس الثالث واينوشنسيوس الثالث ونيقولا الخامس و بيوس الثانى وسيكستوس الرابع ولاون العاشر و بيوس الخامس

وكان رأى لوتسيو على المسيحيين هو المهاجمة لا المدافعة وقال انهم اذا كانوا بعيدين عن أوطانهم ازدادت حماستهم . ثم أشار لوتسيو بأن يتولى رودولف الامبراطور الجرمانى قيادة الحملة التى يجب أن تزحف الى تركيا وقال ان هذا الامبراطور يستطيع أن يجند ٢٠٠ ألف ماش و ٥٠ ألف فارس وانه يجب أن يدخل فى هذه الحرب ملك فرنسة وملك بولونيا والروس . وقال ان الروس يقدرون أن يسوقوا الى ميدان الحرب ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف فارس و ٦٠ ألف راجل وان بولونيا تقدر أن تسوق ١٠٠ ألف فارس وليتوانيا ٧٠ ألفاً

قال وأما ملك اسبانية فيمكنه أن يصلى الحرب فى افريقية ويطرد الترك منها وانه يجب على البابا أن يجهز الأساطيل لمحاربة الترك فى البحر . وقد أثبت الله فى أيام البابا بيوس الخامس ان التغلب على الترك انما يكون فى البحر[1]

وقال انه يجب على جمهورية البندقية أن تدخل فى هذه الصليبية ان لم يكن تحمسا فى الدين فاخذاً بالثأر عن « كورفو » و « كتارو » و « سريجو » و « زاره »[2] وغيرها مما انتزعه الترك من يدها ومما كان يهون به صاحب هذا المشروع من أمر الترك قوله انه ليس عندهم قواد مهرة وان الانكشارية والسباهية أصبحوا لا ينقادون لقوادهم وأن لا أمل لتركيا بنجدة أحد من جيرانها . وأما غنائم الحرب فقد ترك لوتسيو تقسيمها للامبراطور وجعل لملك اسبانية حقاً فى الاستيلاء على افريقية . قال دجوفارا : ان هذه الأفكار التى خطرت لصاحب هذا المشروع كانت منتشرة جداً فى أوربة فى النصف الأول من القرن السابع عشر

ثم مشروع « شاڤينى » chavignty وهو الواحد والثلاثون وتاريخه سنة ١٦٠٦

(١) يشير الى وقعة ليبانت

(٢) بلدة على بحر الادرياتيك يسميها المسعودى زهره

وكان هـذا الرجل منجما ولد فى « بون » Beaune (فرنسة) وقد كتب كتابا يدعو فيه النصرانية كلها الى الاتحاد على الأتراك ويعدّ الممالك التى ينبغى أن تدخل فى هذه العصبة وكان يتألم أشد الألم لرؤية برابرة كالأتراك مسيطرين على المسيحيين ويقول ان السبب فى ذلك كله انما هو الاختلاف الذى بين ملوك النصرانيـة والذى جعل الجيش التركى يمشى الى الأمام فى أوربة كما فى آسية وافريقية

ومما جاء فى هذا الكتاب فى مقام التقريع للمسيحيين ان جنودهم لا تعرف الا اتباع الشهوات البدنية وان معسكراتهم فيها من النساء أكثر مما فيها من المقاتلة

وجاء فيه أيضاً أنه يجب طرد التركى الى أقاصى آسية الصغرى ويجب حمل الأتراك على الديانة الكاثوليكية

أما تقسيم بلدان الاسلام فهو كما يلى :

الجلالة الامبراطورية يكون لها امبراطوريتا الغرب والشرق وتدخل فى ممالكها بلاد المجر وتراقيا . ويكون لملك فرنسة بلاد الأناضول والشام . ويكون للانكليز مصر . ويكون للاسبانيول افريقيـة . ويكون للطليان جميع مراسى البحر المتوسط وجزائره . ويكون للبولونيين والدانمركيين والنورفيجين والاسوجيين الأقاليم الشمالية وأراضيها الخصيبة

وكأن « شاڤينى » هذا نظر الى الآتى من قبل ما وقع بثلاثة قرون فان كثيراً من هذا التقسيم الذى تخيَّله قد تحقق بسياسة الاستعمار الاوربى الحالى

وأما ما جاء فى كلامه من التحريض على قتال المسلمين فحدث عنـه ولا حرج وقد نقل كلام « جاك سادوليه » Sadolet مطران « كاربنتراس » carpentras فى استجاشة المسيحيين لقتال الـترك . ونقل كلام « لويس ڤيڤ » Vives الأسبانيولى عن « آلام المسيحيين المعذبين تحت أظافر التركى » وذكر استصراخ البابا اوربانوس الثانى لاغاثتهم وذهاب كل هذا الصراخ سدى قال : فالتركى لا يزال قوياً وأحد صدور الدولة العثمانية قال انه لا يخشى المسيحيين ما داموا منقسمين وهم لم يبرحوا منقسمين

قال : وينبغى أن يتولى البابا والامبراطور وملك اسبانية كبر هـذه الصليبية وان يدعى ملك فرنسة لنقض عهوده مع الأتراك ... وقال ان الجيش البرّى يجب أن لا يقل عن ١٢٠ الفاً يتكون من الالمان والهولانديين والانكليز والفرنسيس والبولونيين

والبوهيميين والمجر الخ وينقسم الى قسمين أحدهما يسير تحت لواء الامبراطور والآخر تحت لواء الملك المسيحي كثيراً (أى ملك فرنسة) وأما الجيش البحرى فينبغى أن يجهزه ملك اسبانية الذى هو أقوى ملوك النصرانية وان يعضده البابا والبنادقة وسائر ملوك ايطالية ولا يجوز أن يقل عدده عن ٣٠ الفاً . وتجب متابعة القتال مدة أربع سنوات

ولما كان « شاڤيني » منجماً كانت أفكاره دائماً مشغولة بالكسوف والخسوف والنجوم ذوات الذنب وقال ان انكساف الشمس لا بد من أن تعقبه حرب كبرى

ثم المشروع الثاني والثلاثون من تقسيم تركيا وهو مشروع « سولى » duc de Sully وتاريخه ١٦٠٧

وقد كانت ولادة هذا الرجل سنة ١٥٥٩ ووفاته سنة ١٦٤١ واشتهر الى الدرجة القصوى بمعارفه الاقتصادية ولهذا تولى أمور فرنسة المالية . ومشروعه منسوب الى هنرى الرابع ملك فرنسة الا ان تحريره كان من قريحة سولى نفسه . وقد اختلف الناس فى هذه القضية فذهب « درايبرون » Drapoyron الى أن هنرى الرابع هو الذى فكر فعلاً بافتتاح السلطنة العثمانية وتقسيمها وتنظيمها وان هذا الرأى كان هو الرأى السائد فى وقته

وأما ڤولتير فقال ان تقسيم أوربة الى خمس عشرة مملكة خيال باطل لم يفكر به هنرى الرابع

وأما غيزو Guizot فذهب الى أن الناس نسبوا الى هنرى الرابع احلاماً يبعد عن العقل أن يكون تخيلها . وأما « آلبر سورل » Albert Sorel فيقول ان المشروع هو قدح فكرة « سولى » وكذلك المسيو « هاوزر » Hauser فى الانسيكلو بيديا الكبرى والمسيو هانوتو فى مباحثه التاريخية عن القرن السادس عشر والسابع عشر فى فرنسة يقولان ان سولى هو أبو عذرة هذا المشروع وانه لا يتعداهُ

وذهب المسيو «بوارسون» Poirson صاحب تاريخ هنرى الرابع أن هذا الملك كان فكر فى تأليف مجلس عام يفصل خصومات الممالك المسيحية بدلا من فصلها بالسلاح . وهذه الفكرة الأولى هى لهنرى فجاء سولى وفرّع عنها ما أوصلته اليه مخيلته من الترتيبات والتشكيلات

وقد جاء فى كتاب سولى الذى نحن بصدده الموسوم « بتدابير هنرى الكبير السلطانية الحكيمة » ان غرض هذا الملك المحارب السياسى الكبير كان تأسيس شئ أشبه بجمهورية تكون دائماً سلمية مع المسيحيين وحربية بازاء غير المؤمنين Infideles وكانت الجمهورية الحلفية الاوربية بحسب تخيل سولى عبارة عن خمس عشرة حكومة ١ السلطنة الجرمانية ٢ مملكة البابا ٣ فرنسة ٤ اسبانية ٥ انكلترة ٦ المجر ٧ بوهيميا ٨ بولونيا ٩ الدانمرك ١٠ اسوج ١١ لومبارديا ١٢ البندقية ١٣ الجمهورية الايطالية ١٤ هولاندة ١٥ سويسرة

فأنت ترى أنه ليس للروسية ذكر فى هذه المجموعة وذلك لأنهم كانوا يعدونها يومئذٍ مملكة آسيوية

وقد جعل الفلاخ والبغدان تابعتين للمجر ولم يشر الى تقسيم الولايات التركية الأخرى

وبالجملة فالترك نظير الروس لم يدخلهم سولى فى الجمهورية الأوربية المسيحية

الا أنه من مبادئ هذه الجمهورية المخيَّلة أن تؤذن تركيا بحرب دائمة أو تخرج هذه من أوربة . وقد اقترح فى هذا المشروع الزام كل دولة من الدول المذكورة تقديم جيش متناسب مع قوتها وثروتها لأجل اصلاء غير المؤمنين (أى المسلمين) حربا دائمة وفى هذه الحرب تكون أرواح الأهالى الأتراك وأموالهم مصونة الا أنهم يعطون مهلة معينة فى خلالها ينتقلون بأشيائهم الى البلاد التى يختارون الجلاء اليها أو يدينون بديانة المملكة التى يكونون بقوا فيها (أى بالنصرانية)

تجد هذا الشرط فى تاريخ « بوارسون » Poirson كما روى ذلك دجوقارا وأما الروسية فيجب أن تنتظر الوقت الذى تليق فيه للدخول فى هذا المجتمع الأوربى

ويكون جيش هذه الجمهورية بالغاً ٨٠٠ر٢٧٣ جندى و ١١٧ سفينة حربية

وعلى كل من هذه الممالك الخمس عشرة المتحدة تأليف جيش متناسب مع قوتها لقتال غير المؤمنين Infidéles (أى المسلمين)

ولما كانت الممالك المجاورة لتركيا أشد تعرضا للخطر فيشير سولى بتقوية بلاد المجر وتحصينها وتحصين ڤينا وكرواسيا وسائر بلاد النمسا . ولما كان سولى يخشى أن ينفض بعض المسيحيين من هذه العصبة أو ان لا يقوموا بما يجب عليهم أشار بوضع شروط عسكرية ورسم خطط لا يتيسر بها قتال غير المؤمنين فحسب بل قتال المسيحيين الذين

يخالفون شروط العصبة وذلك بتأليف جيش عرمرم مختلط خاص بالجمهورية المسيحية يتولى قيادته ملك فرنسة . وبهذا الاقتراح ظهر انه كان المقصد منه تحت ستار السلام العام اعطاء السيطرة للدولة الافرنسية

وأما هانوتو فيزعم انه كان المراد من ذلك ايجاد الوحدة الدينية واخراج الترك والروس من أوربة

وقد ذهب « سولى » الى انكلترة وقابل الملكة اليصابت ونال منها الموافقة على هذا المشروع وذلك سنة ١٦٠١ وكذلك تم الاتفاق عليه مع البابا وانعقدت به معاهدة وكان أربعة من الأمراء المنتخبين [1] فى ألمانيا أمير « البالاتينا » و « براندبورغ » و « كولن » و « ميانس » وكذلك دوق ساڤواى وجمهورية البندقية قد اطلعوا على هذا البرنامج ووافقوا عليه . وممن وافق عليه أيضاً ملك بولونيا وأمراء بوهميا وترانسيلڤانيا والمجر ولم يبق معارضاً الا النمسا . وكان هنرى الرابع لأجل أن يقطع حجة المعارضين قد أعلن انه ان دخلت الدول المسيحية فى هذه العصبة فانه يكتفى بحدود فرنسة الحاضرة ولا يتطلب الزيادة عليها بل يتعهد بأن لا يأخذ شيئاً من الفتوحات التى سيفتحها المسيحيون فى البلاد العثمانية

قال دجوڤارا : «وقد كان هنرى الرابع هو أول ملك فكر فى اقامة تحكيم دولى بين الدول المسيحية وبقيت هذه الفكرة ثلاثة قرون بعد هنرى الرابع حتى تحققت بتأسيس محكمة لا هارى . »

قلنا وقد تبع محكمة لاهارى تأليف عصبة الأمم التى هى أكبر وأشمل محكمة دولية عرفها التاريخ وقد كانت بنت فكر ويلسون رئيس جمهورية أمريكا ولولا اطماع الدول التى خرجت غالبة من الحرب العامة لكانت أتت بفوائد لا تحصى للمجتمع البشرى

ولقد انتهى مشروع سولى هذا المنسوب الى هنرى الرابع بالحبوط لأن هذا الملك تحقق فيما بعد استحالة تطبيقه بالفعل

ثم المشروع الثالث والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع طليانى وتاريخه سنة ١٦٠٩

---

(١) بكسر الخاء وهم أمراء المانيا الذين ينتخبون الامبراطور

وأصله ان فرديناند دوق توسكانا ساق اسطولا وأنزل جنوداً فى جزيرة قبرص وكان مراده فى ظاهر الحال الغارة على فلسطين للاستيلاء على الأراضى المقدسة ولكن الحقيقة انه كان ينوى احتكار تجارة سورية ومصر . ومن قبرص أخذ دوق توسكانا يراسل الامير فخر الدين المعنى أمير لبنان وعلى باشا جنبلاط والى حلب

نقل دجوڤارا عن « غالوزى » Galuzzi صاحب تاريخ دوقية توسكانا ان الدوق فرديناند اتفق فى هذا التدبير مع البابا وأرسلا الوزير « ليونسينى » ومعتمداً آخر اسمه « ميشال انجلوكوراى » الى والى حلب ليطلعا لهم على الأحوال هناك و يلقيا الفتنة بين المسلمين تعجيلا لبوارهم وفى ٢٩ سبتمبر سنة ١٦٠٧ عقدا مع جانبلاط معاهدة ذات ثلاثين بنداً منها بند يتعهد به جانبلاط بتمكين الافرنج من الميناء الذى يختارونه لتنزيل جنودهم وكان أروام قبرص وعدوا أيضاً بالثورة على الترك و بينما الامور جارية على وفق المراد اذ مات الدوق فى ٧ فبراير سنة ١٦٠٩ ومات به المشروع وأما برنامج هذه الغزاة فقد حرَّره رجل طليانى فى القاهرة فى السنة نفسها وقد كشف هذا البرنامج المسيو « جورغا » Jorga أحد أساتيذ جامعة بخارست . وقد بدأ محرر هذا المشروع نظير غيره ممن عالجوا الموضوع نفسه بالتحسر على عدم اتفاق المسيحيين و بالحث على انتهاز هذه الفرصة الموافقة وقال انه بعد موت الدوق التوسكانى لا يوجد غير ملك فرنسة للقيام بحملة كهذه وان أهم شئ انما هو ضرب الترك فى مركز معيشتهم فيجب لذلك الاستيلاء على الاسكندرية فاذا أُخذت من يدهم هذه المدينة سقطوا . ومن هنا يعلم ان المشروع مبنى على أساس تجارى مثل مشروع « سانودو »

وأما كيفية أخذ الاسكندرية فستكون بزعمه بسيطة : يدخل المقاتلون بازياء تجار حتى اذا صاروا داخل البلدة استولوا على الأبراج الأربعة التى تحمى الاسكندرية وذلك لكون الحامية التى فيها ضعيفة جداً . و بعد الاستيلاء على الاسكندرية يزحف المسيحيون الى رشيد ويسيرون الى قبرص حيث الاروام مستعدون أن يثوروا على الأتراك . وكذلك يجب الاستيلاء على برقة . وفى هذه الحرب يمكن الاعتماد على الأمير فخر الدين صاحب صيدا وعلى الموارنة وعلى أهل جبل لبنان وهكذا ينتهى الأمر بفتح بيت المقدس ثم تسترجع

الدول المسيحية ما أخذه منها الترك وتسترد البندقية المورة والبانيا واليونان الخ

ثم المشروع الرابع والثلاثون وهو مشروع « اسبرينشارد » Esprinchard وتاريخه ١٦٠٩

وهو تقرير متقدم الى ولى عهد فرنسة ومآله كمآل غيره من طلب اتحاد ملوك المسيحيين وان أحسن طريقة لحطم قوة الترك هى الحمل عليهم من البحر وان يزحف اليهم مع ذلك جيش برّى وان تثار الأهالى الذين فى داخل السلطنة العثمانية وتوقد حرب أهلية بينهم وان يعقد اتفاق مع العجم والتتر والمسكوب وينهدوا اليهم جميعاً

وليس فى مشروع اسبرينشاد برنامج مفصل بل هو أشبه بامانىّ منه ببرنامج

ثم المشروع الخامس والثلاثون وهو مشروع « مينوتو » Minotto وتاريخه سنة ١٦٠٩

وهو كمشروع سولى وكمشروع « بريف » Brèves من آثار أفكار هنرى الرابع الذى طالما فكر فى اصلاء الترك حرباً صليبية .

وقد عثر عليه « زنكيسن » Zinkeisen فى أوراق نظارة الخارجية الافرنسية ونشره كله فى الصفحة ٨٥٩ من الجزء الثالث من تاريخه للسلطنة العثمانية وكان أصل نصه باللغة الطليانية

وكان مينوتو هذا روميا من جزيرة كريد . وقد استهلّ كتابه بنداء استغاثة من نصارى الشرق الى نصارى الغرب لينقذوهم وأكدّ أن جميع الأروام حاضرون لمبايعة ملك فرنسة ملكا عليهم وانه يجب أن يعرف هل ملك فرنسة يود فتح السلطنة الشرقية كلها أو يكتفى ببعض مقاطعات منها . فان كان الشق الأول فيجب اعداد ٨٠ بارجة حربية فيها ١٥ ألف مقاتل وثلاثة آلاف فارس وسلاح كاف لخمسة وعشرين ألف مقاتل يمكن تجنيدهم من نفس البلاد

ويبدأ انزال الجنود فى المورة ثم فى جزيرة اغريبوز فتثور الأهالى فيهما ثم تساق حملة على الاستانة ويثور من فيها من النصارى ويفر السلطان الى اسكدار وتبقى استانبول فى يد الافرنج . وأما رودس فيمكن أخذها بثمانية آلاف ذهب

وان كان الشق الثانى فيكفى ٢٥ بارجة حربية و ١٠ سفن صغار وتختار المقاطعة

التى يراد فتحها . فالمورة فيهامعادن ذهب وسلانيك وقبرص وشيو ومدللى واغريبوز كلها توافق لانزال الجنود والأهالى فيها حاضرة للثورة ولميرة الجملة . وهو يطلب شحن ست سفن بالحدائد والجير لأجل تحصين القلاع التى يكون تم فتحها ومينوتو يؤكد نجاح المشروع ويقسم على ذلك ويفدى حياته وحياة أولاده إن لم يتم

قال« زينكيسن » إن هنرى الرابع لم يكن ممن يتهافت على أىّ اقتراح ليتهافت على قبول برنامج مينوتو ولكن مما لامشاحة فيه انه فى آواخر عهده نقم على الأتراك فى نفسه

ثم المشروع السادس والثلاثون وهو اقتراح « برتوشى » Bertucci وتاريخه ١٦١١

وهو تقرير محرر بالطليانى محفوظ فى « اينسبروك » Insbruck ومحرره « فرانسكو انطونيو برتوشى » قدمه فى ٦ ابريل سنة ١٦١١ الى ملك نابولى و بعث بنسخة منه الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوى . وهو يشير بالاستيلاء على قلعتى اشقودره وكروايا من البانيا لأنهما مفتاح مكدونية . ويقول انه بعد ذلك يمكن الاستيلاء على قلعة كليسا وقلعة كانيسا واثارة ٣٠ ألف ارنأوطى و ٣٠ ألفاً من أهل بوسنة واستجاشة المجر وعند ما تقوم هذه الثورات كلها يتحد أمراء ايطالية والبنادقة ويزحفون على دراج ودلسينو وانتيفارى وغيرها . ثم يزحف البولونيون والقوزاق من جهة ثانية على الأتراك فيضطر هؤلاء الى جمع قوتهم البحرية الى عاصمتهم و يخلو الجو للقوة المسيحية . ويقول برتوشى ان ملك فرنسة كان بالاتفاق مع دوق سافواى قد أرسل معتمدين من قبله يرودون البانيا ويروى ان قائد الجيش البولونى تعهد بتقديم أربعة آلاف فارس لهذا المشروع وهو يوصى كثيراً بكتمان السرخشية ان يصل الى من لا يروقهم اتمام هذا الخير العميم

ثم المشروع السابع والثلاثون وهو المنسوب الى الدوق « شارل دونفير » Charles de Nevers وتاريخه سنة ١٦١٣ — ١٦١٨

وهذا الدوق هو ابن «لويس دوغونزاغ » من الاميرة « هنرية دوكليفس » دوقة نفير . وكانت جدّتهُ من آل باليولوغ ملوك بيزنطية فهو ضارب بعرق ثابت الى مملكة القسطنطينية . وكان من جهة الأب أميراً طليانياً ومن جهة الأم ألمانياً ومن جهة الجدة يونانياً بيزنطياً ومن جهة المنصب افرنسياً وهكذا اجتمعت فيه عدة خصال تؤهله أن يتولى كبر هذه الجملة على مملكة آل عثمان . وكان ورد عليه دعوة لهذا الأمر من أهل المورة

ووعدوه بخمسة عشر ألف مقاتل وأرسل اليهم ثلاثة معتمدين عقدوا معهم اتفاقا . وفى ١٨ سبتمبر سنة ١٦١٤ أرسل وفداً آخر جمع اناساً من زعماء الصرب والارناؤوط والبوسنيين والهرسكيين والبلغار والدلماتيين وتحالفوا على محاربة الترك وكانوا يرجون عضد أمير الفلاخ والبغدان وكان البابا وملك اسبانية عاضدين هذا المشروع . وكان الدوق دونيڤير اتفق فى هذا الأمر مع الكردينال ريشليو وزير فرنسة الشهير . ونقل « نانى » فى تاريخ جمهورية البندقية ان الدوق نيڤير كان ذهب الى رومة واستمد البابا بولس وهذا قد استنفر جمهورية البندقية باعتبار انها أقوى دولة بحرية فى ايطاليا فالبنادقة أجابوا البابا أن العمل ليس بسهل وانه لا ينبغى الدخول فيه الا بعد التحوط التام وبعد تمالؤ ملوك النصارى على الترك فعلاً لا قولاً . وقالوا ان العدو الذى يريدون مهاجمته عدو شديد المراس وهكذا لم يتم للدوق دونڤير ما أراد لأن جميع المساعدات التى حصل عليها لم تتجاوز القول والوعد والتمنى . وحبط المشروع بدون أن يكون له أدنى أثر سوى زيادة حذر الترك الذين كانت ترامت اليهم الاخبار عما ينوونه بحقهم

ثم المشروع الثامن والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع الأب يوسف مستشار الكردينال ريشليو ويده اليمنى وتاريخه سنة ١٦١٥ الى ١٦١٨

قال « زنكيسن » ان ريشليو كان قد سعى فى التأليف بين فرنسة واسبانية لأجل القيام بحرب صليبية تنتهى بنصب أمير من بيت ملك النمسا من الفرع الاسبانيولى ملكا على القسطنطينية الا ان رجلا اسمه « جاك بيير » كان فى خدمة الدوق دونڤير ثم فى خدمة دوق سافواى ثم اتصل بخدمة دوق توسكانا ثم خدم البندقية وكان يقال له « الكابتيانو » لأنه من قرصان البحر قد اطلع على هذا السر وافشاه بحجة انه هو افرنسى وانه لا يهون عليه أن يجلس أمير اسبانيولى على عرش القسطنطينية . ولما سمع البنادقة بخبر هذه المؤامرة قاوموها وعدوها مكيدة عليهم . وهكذا حبط مشروع الأب يوسف مستشار ريشليو . وقد تكلم ڤولتير عن الأب يوسف المذكور وطعن فيه وذكره هانوتو فقال انه كان خيالياً أفاقاً متمسكا بالمشروعات المستحيلة . وقيل انه قضى عمره فى املين : تنصير المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة . ولما لم يتم شئ من تدابيره أخذ ليشفى غليله يرسل المبشرين والدعاة الى الشرق ونظم قصيدة سماها « التركية » Turciade وكتب فى سنة

١٦١٩ كتابا فى تهيئة الحرب ضد الاتراك وتبيين مصالح ملوك أوربة جميعا فى حربهم وكان قلم الاب يوسف لا يفتر عن الكتابة . وكان ينعى دائماً حالة النصرانية فى سكونها وعدم مهاجتها للمسلمين

وقال « غستاف فانييه » Fagniez فى كتابه « الاب يوسف وريشليو » ان حياة الاب يوسف كانت كلها مستغرقة فى فكر واحد وشعور واحد وهما استخلاص الاراضى المقدسة من أيدى غير المؤمنين والألم من وجودها فى أيديهم وكانت عنده أمنية أخرى يريد تحقيقها بواسطة جمع كلمة الامم المسيحية وهى ادخال غير المؤمنين (أى المسلمين) فى الدين المسيحى

وكان الأب يوسف جاء الى رومة واستحثّ حمية البابا بولس الخامس لكن هذا كان فاتر العزم و بقى الى سنة ١٦١٨ حتى أرسل دعاة من قبله الى « براغ » و « تريف » و « ميانس » و « كولن » و « تورينو » يستنفر الدول المسيحية الى قتال المسلمين . وفى ذلك الوقت كانت اسبانية تتردد فى اصلاء هذه الحرب فذهب الاب يوسف الى مجريط ورجع وقد فاز بمبتغاه وهو عضد الدوق دونفير فى الحملة على تركيا . الا ان الخلاف رجع فنشب بين أوستريا وفرنسة وذهبت المساعى لتحقيق هذه الصليبية بالفعل أدراج الرياح وسنة ١٦٢٥ قرر البابا اوربانوس الثامن والأب يوسف ارجاء المشروع الى أجل غير مسمى

ثم المشروع التاسع والثلاثون وهو المنسوب الى « ڤاليريانو » Valeriano وتاريخه ١٦١٨

وهو مشروع لا يزال مخطوطاً غير مطبوع محفوظا فى خزانة « انسبورغ » المسماة Statthalteri Archio وهو عبارة عن كتاب متقدم من الراهب الكبوشى ڤاليريانو الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوى ومعه مذكرة وهو يقول ان الكونت « دالتان » D'haltan قد تحادث مع أمراء البلدان المجاورة للسلطنة العثمانية ورأى امكان القيام باعمال عظيمة لقهر الأتراك لكن يجب تمكين الجيش المسيحى من المرور ببلاد الأمراء المجاورين للترك وقد عقد الامبراطور وملك بولونيا والبندقة معاهدات مع آل عثمان منها معاهدات موالاة دائمة ومنها معاهدات هدنة الى مدة عشرين سنة . ومن أجل هذا عند ما عرض الكونت دالتان على ملك بولونيا هذا المشروع أجابه بأنه لا يقدر أن يخفر ذمته ولكنه

يفسح له المجال أن يمر من خليج فنلانده ويأتى من هناك الى البحر الاسود . وكذلك رضى ملك بولونيا بتعيين مكان من بروسيا يحتشد فيه فرسان المسيحيين الذين يقصدون حرب الترك

ثم أخذ «ڤالرياونو» يعد الاماكن التى ينبغى أن تمر بها الحملة الصليبية وقال ان البابا سيكتوس الخامس كان أراد القيام بحملة على الترك يقودها « اتيان باتورى » فاشترط هذا قبل كل شئ الاستيلاء على بلاد المسكوب وقال ان هذا قد يتهيأ فى سنة ثم يساق المسكوب والعجم على التتار ويساق الفلاخيون والبغدانيون والترانسيلڤانيون على الترك . وكان البابا وملك اسبانية يدخران الأموال لهذه الغارة على مدة سنوات الا انها لم تتيسّر بسبب وفاة البابا سيكتوس

ثم المشروع الأربعون المنسوب الى « ساڤارى دوبريف» Savary De bréves وتاريخه سنة ١٦٢٠

وكان « دوبريف » سفيرا لهنرى الرابع ملك فرنسة فى الاستانة . وكانت سفارته حافلة بالفوائد لفرنسة وطالما كتب اليه هنرى الرابع يشكره على جلائل خدماته . وكان لدوبريف مكانة عالية لدى السلطان محمد الثالث . ولما قاد السلطان الجيش العثمانى بنفسه الى بلاد المجر كان دوبريف سفير فرنسة وريكارد سفير انكلترة فى معيته وحضرا معه معركة « آغريا »

وكان دوبريف من أوسع الافرنج اطلاعا على أحوال تركيا وكان يعلم فساد الأخلاق الذى كان قد تمكن من رجال السلطنة العثمانية وكان يعلم ماهناك من خلل الادارة البالغ الدرجة القصوى الى أن كتب دو بريف مرةً الى هنرى الرابع يقول له : ان الرشوة قد وصلت فى هذه الدولة الى حد انه لا يرجى نجاح عمل مهما كان الا بالمال . وأما برنامجه المحرر لتقسيم تركيا فقد كان تأليفا عنوانه « خلاصة بحث فى أضمن الطرق لمحو سلطنة آل عثمان » وكان مع هذا التأليف وثيقة تاريخية هى معاهدة منعقدة بين هنرى الكبير ملك فرنسة والسلطان أحمد امبراطور الأتراك بواسطة المسير [1] « فرانسوا ساڤارى دوبريف » وكان هذا الكتاب ينتهى بثلاثة مكتوبات من البابا اكليمنضوس الثامن وأما المقدمة

(١) أى الموسيو كما كانت تلفظ فى ذلك الوقت

فكانت موجهة الى لويس الثالث عشر وكان يقول له فيها : ـ

« فى مدة الاثنتين والعشرين سنة التى قضيتها لدى الباب العالى لخدمة المرحوم هنرى الكبير والدك اعتنيت بملاحظة ما تملكه الدولة العثمانية من القوة وما يملكه ملوك المسيحيين من الوسائل لتوهينها أو القضاء التام عليها وحررت ذلك فى خلاصة أقدمها الآن لجلالتك بحيث ترى امكان هذا العمل وانى أكون سعيداً بتحقيق آرائى هذه بالفعل وهكذا أكون خدمت دينى وخدمت جلالتك »

وقد خمن « دوبريف » قوى الدول المسيحية البحرية كما يلى :

الملك الكاثوليكى [1] يمكنه تجهيز ١٠٠ سفينة وجمهورية البندقية تقدر أن تجهز بكل سهولة ٢٠٠ سفينة وست بوارج كبار مما يسمى بجبال البحر . والبابا يستطيع تجهيز ٨ الى ١٠ سفائن . وفرنسة تقدر أن تسير ٥٠ سفينة . ومملكة ساقواى ٥ أو ٦ سفن . والتوسكانا ١٠ أو ١٢ وجنوة ٨ أو ١٠ ومالطة ٦ والجميع ٣٨٠ سفينة وست بوارج .

ولم يذكر « دوبريف » شيئاً عن كيفية توزيع اسلاب السلطنة العثمانية وانما أوجب اتخاذ قرار سريع بهذا الشأن وعدم انتظار الملحمة الكبرى لأجل اصداره

ولقد جرت لهذا المشروع معارضات من جهة الساسة الذين كانوا يرون ضرورة المحالفة مع تركيا للوقوف فى وجه الامبراطورية الجرمانية . ومن هؤلاء المعارضين كان « لوغاى » LeGay الذى رد على « دوبريف » برسالة اوجب فيها الاتحاد بل الاتحاد التام بين فرنسة والباب العالى ويكفى أن أذكر من هذا الرد بعض عناوين للتعريف بمقاصده . ففى الفصل الثانى يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى القديم . وفى الفصل الخامس يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى الجديد . وفى الفصل السابع يقول ان القياصرة وملوك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين قد اتفقوا مع الأتراك لأسباب هى أقل بالاً من الأسباب التى اتفق معهم من أجلها ملوك فرنسة . وفى الفصل العاشر يذكر أن اتحاد فرنسة مع تركيا لا ينفع فرنسة وحدها فقط بل ينفع النصرانية باسرها . وفى الفصل الحادى عشر يقول انه لا يجوز أبداً أن ترتفع ثقة التركى من المسيحى . وكذلك هذا الرجل يبين أنه اذا غيّرت فرنسا سياستها تجاه تركيا جاءت أستريا

---

(١) أى ملك اسبانية

وحلت محلها فى صداقة تركيا وكذلك أسرعت اسبانيا لموادّة تركيا. ثم انه يقول ان اتفاق فرنسا مع تركيا لم يكن ليضر فرنسا فى شئ بل كان يفيدها وكان هـذا التركى الذى يقال انه غير مؤمن وانه وثنيّ يحارب أعداء فرنسا .

ومن هـذا التاريخ ظهر أن المصالح الدوليـة أصبحت هى العامل الأول فى الصلح والحرب مع الأتراك وصار الشعور الدينى بالمحل الثـانى . وقد جاء فى رسالة أخرى لأحد نبلاء بولونيا يقول فيها : ان الناس يتهمون فرنسا بأنها ناصرت تركيا وانها استخدمت بولونيا فى سبيل أغراضها ولـكنهم نسوا أن فرنسة لم تكن قادرة أن تتخلص من شر اوستريا الا بالاتفاق مع الـترك . وقال المسيو ڤاندال : انه لمـا وقع فرانْسَوا الأول أسيراً فى معركة « باڤيا » وانكسر سيفه وسقط فرسان فرنسة من حوله صرعى ولم يجد عند ذلك أية نصرة من أية دولة مسيحية أجمع على محالفة الترك وهو عزم بعثه اليـأس لـكنه صار فيما بعد سياسة متبعة

ثم مشروع ڤازيل لُوبُو Vasile Lupu وهو المشروع الواحد والأربعون وتاريخه ١٦٤٦ وكان هذا الرجل أَميراً على بلاد البُغْدَان من سـنة ١٦٣٤ الى ١٦٥٣ وكان أميراً مشهوراً بكثرة الحركات . وكان أَزوج اثنتين من بناته الى بعض أمراء بولونيـا والبنت الثالثة ، وكانت بارعة الجمال ، الى تِيمُوش ابن أمير القوزَاق فـكانت له علاقات من شأنها أن تجعل له مركزاً منيعاً بازاء الأتراك . وكان التتار سنة ١٦٤٦ شنوا الغارة على بولونيا وعلى بلاد البغدان . وساقوا أربعين ألف أسير وفرّ الأمير المذكور وتوارى فى الغابات . ثم أخذ يترقب الفرصة للأخذ بالثأر من التتار فاتفق مع ملك بولونيـا على التحالف مع موسكو يداً واحدة على التتار والعثمانيين . وكان يرجو أن يستولى على بلاد القريم ومن هناك يغزو القسطنطينية وجاء يقابل ملك بولونيا فى جَاسِى الا أن المجلس البولونى لم يوافق على تلك المؤامرات وأرسل البولونيون معتمداً الى الاستانة يؤكد ولاءهم و بقاءهم على عهد الصداقة مع تركيا . و بعد هذا سقط فى يد « ڤازيل لوبو » ورجع يَسْفُر بين الباب العـالى والروس و يتوسط فى اطلاق سراح معتمدى التتار الذين كان الرُّوس قد اعتقلوهم وفى تفريق جموع القوزاق المخيمين بقرب أَزُوفْ وهكذا تلاشت صليبية الأمير « لوبو » هذا و كانت مدتها قصيرة

ثم المشروع الثانى والأربعون وهو مشروع افرنسى تاريخه ١٦٦٠ وقد ذكر هذا المشروع جورغا Jorga فى تاريخ السلطنة العثمانية فقال انه فى سنة ١٦٦٠ تصالح الفرنسيس مع الأسبانيول بواسطة الكاردينال مازَرِين وكان هذا ينوى غزو تركيا وترك فى وصيته مائتى ألف ريال لأجل هذا الغرض وانتشرت فى فرنسا فكرة الحرب الصليبية وأخذ فرسان البيوتات الافرنسية يتسابقون فى هذا المضمار وكان فرسان مالطة والبابا ودوق تُوسْكانا قد حشدوا أسطولاً مركباً من اثنتين وثلاثين سفينة وست بوارج واجتمع هذا الأسطول فى « سِيرِيغُو » ومنها قصد جزيرة كريد التى كان الأتراك يحاولون فتحها وأبحر ثلاثة آلاف فارس افرنسى ونزلوا فى ميناء سُودَا من بلاد اليانون واشتدت الحرب فى كريد وقتل فى خانيا القائد حسن باشا وكبير الانكشارية . وكان المسيحيون سائرين الى الأمام واذ جاءهم خبر بأن قوة عثمانية كبيرة قادمة اليهم من قَنْدِيا فلما سمعوا هذا الخبر وقع فيهم الرعب ونكصوا الى الوراء . ثم أقبل باشا « كاترش يُوغْلى » على رأس أربعة آلاف عثمانى وناجز المسيحيين القتال بقرب قنديا الجديدة وقتل منهم ألفاً وخمسمائة مقاتل وخارت عزائم الباقين وأرسل الباب العالى ١٨ سفينة حربية الى كريد فأذعن الأهالى للعثمانيين وخنعوا وا كتفى العثمانيون منهم بألف جارية ترسل الى الحرم السلطانى و بألف رأس غنم كل سنة

ثم المشروع الثالث والأربعون وهو المنسوب الى « تورين » Turinne وتاريخه ١٦٦٣ ومن المعلوم أن تورين كان من أَشهر قواد فرنسة فهل نسبة هذا المشروع اليه صحيحة أم لا ؟ وهل الخطاب الذى يقال انه ألقاه فى « مَارْسَال » قد صدر منه أم لا ؟ هذا لا نقدر أن نجزم به لا سيما أننا فى جميع الأوراق والوثائق التى خلفها المارشال تورين لم نجد أثراً لهذا الخطاب . وكذلك لم يذكر شيئاً عنه الكونت « غريموار » الذى كتب كثيراً عن تورين . وأما الخطاب كما نُسب الى تورين فهو انه اقترح على لويس الرابع عشر أن يعلن تركيا الحرب وذَكَّرَه بصليبية القديس لويس التاسع الذى ذهب الى مصر وافريقية . وقال ان الجيش الفرنساوى مع الألمان والمجر الذين يمكنهم أن يزحفوا لقتال الترك قد يكون ٣٦ ألف ماش و ١٢ ألف فارس وان جيشاً كهذا يمكنه أن ينازل المائة ألف عثمانى . وهو يتكلم فى مشروعه عن خصب بلاد الفلاّخ والبغدان وترانسلڤانيا ويقول انه يمكن فتحها وضمها الى فرنسة وقال ان الامبراطور الجرمانى تكون له بلاد المجر السفلى

واقترح أن يقدم السويسريون ألفي مقاتل والأسبانيول خمسة آلاف وأمراء ايطاليا ثلاثة آلاف فارس والمجر والكرواتيون أربعة آلاف ماش وأربعة آلاف فارس . وقال انه يجب على انجلترة وهولاندة أن تعاونا باساطيلهما لقمع قرصان الجزائر . وقال انه يجب اشراك البرتغال والبولدنيين فى هذه الصليبية وانه لا بأس بادخال القوزاق والمسكوب والعجم فى هذه الحرب . وفى نهاية هذا التقرير يقول تورين بزعمهم ان الضربة القاضية على تركيا لا تكون الا من فرنسا

ثم المشروع الرابع والأربعون وهو مشروع « ليبْنيتز » وتاريخه ١٦٧٢
فالفيلسوف الالمانى الشهير ليبنتز كان قد أعد برنامجاً أيضاً لمحو تركيا واستمر يُحرّره أربع سنوات وقدمه باللغة اللاتينية الى لويس الرابع عشر ملك فرنسة . وقد اعتنى لويس الرابع عشر باقتراح ليبنتز هذا وتلقى ليبنتز من نظارة الخارجية الافرنسية كتاباً يقول الناظر له فيه : انى قدّمت لجلالة الملك خلاصة كتبك والتقرير الذى معها الذى يتضمن رأياً عظيم الشأن يؤول الى مجد جلالة الملك ومصلحته

وكان ليبنتز يرى قبل كل عمل فتح مصر ويقول : انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم الى البوار . وكان يشير بتحريك المجر والبولونيين لمناشبة تركيا الحرب فاذا اشتغل الترك بهؤلاء جاءت الدول المسيحية الأخرى وشنت الغارات على بلادهم فلم يكن أمامهم الا السقوط . وخاطب ليبنتز لويس الرابع عشر قائلا : انك انت فى حربك مع هولاندة لاتجد حليفاً الا الحليف الذى تشتريه بالمال أما اذا حاربت تركيا فما أكثر انصارك فاسبانية وأمراء ايطالية والبابا وربما الامبراطور وملك بولونيا يكونون معك . واذا تمكنت من فتح مصر فتكون بيدك السيادة البحرية وتجارة الشرق وقيادة المسيحيين العامة وان لم يكن لك من فضيلة سوى تدمير السلطنة التركية لكان ذلك كافياً

وبرغم جميع هذه الأمانى العظام التى تمناها ليبنتز لملك فرنسة لم يحسن الفرنسيس به الظن ويقول المؤرخ « سوريل » ان ليبنتز لم يقصد بهذا الا ابعاد فرنسا عن الدين وتزيين فتح مصر للويس الرابع عشر حتى يلهو بذلك عن معاركة المانيـة . وأما « دجوفارا » فيقول ان هـذه الأفكار كانت تحوم كثيراً فى ذلك الوقت فى خواطر الناس وكان الفرنسيس بدأوا يحتجون على سياسة فرانسوا الأول والحكومات الافرنسية التى تابعته فى

موالاة الترك . فرأى ليبنتز كان الرأى العام حينئذ . وقد تعرض ليبنتز لقضية الحرب ولكنه أغفل قضية قسمة الأسلاب بعد سقوط تركيا ولم يذكر منها الا اعطاء مصر لفرنسة ولعله كان يضمر أن يكون الباقى راجعاً لأوستريا والمجر وبولونيا

بقى أن نعلم ماذا أجاب لويس الرابع عشر الفيلسوف ليبنتز على اقتراحه هذا فنقول انه ثبت كونه أجابه بان الحروب المقدسة قد مضى وقتها من زمن لويس التاسع

ومن الغريب أن لويس الرابع عشر نفسه بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة عاد ففكر فى مشروع اقتسام تركيا وان تخرج مصر فى نصيب فرنسة فكأنه رجع الى فكرة ليبنتز

ثم المشروع الخامس والاربعون وهو مشروع ميشل « فابفر » Michel Fébvre وتاريخه ١٦٨٢

وكان هذا الرجل راهباً كبوشياً اسمه الاب يوستينيانوس أصله من « نوفى » بقرب « تور » من فرنسة ارسله الكبوشيون الى حلب حيث أقام ثمانى عشرة سنة وتعلم التركية والعربية والكردية والارمنية وكان يتكلم بها كلها جيداً . والف كتاباً اسمه « حالة تركيا الحاضرة » وضعه باللغة الايطالية ثم ترجمه الى الافرنسية ثم ترجم هذا الكتاب الى الالمانية والاسبانية . وقد قدّم هذا الكتاب الى لويس الرابع عشر وصدّره بخطاب له يقول له فيه : ان أهالى البلاد العثمانية بما هو واقع عليهم من الجور والطغيان وما هم مبتلون به من سوء الادارة ينتظرون بذاهب الصبر استيلاءك على بلادهم

قال دجوفارا : ان هذا الأب الكبوشى كان بدون شك مبالغاً فى زعمه ان أهالى تركيا كانوا منتظرين مجىء الفرنسيس الى بلادهم ليخلصوهم

ولم يجد نداء « فبفر » هذا مجيبا . فنشر كتاباً آخر قدمه الى المونسنيور « لوڤوا » الذى كان وقتئذ وزيراً وقال له فيه :

« إنك تعلم جيداً الأسباب التى جعلت الدولة العثمانية تعيش برغم كل ماهى سابحة فيه من الفوضى واختلال الادارة . وانه ليجب الاستفادة من هذه الأسباب ومحو هذه الدولة واعادة الديانة المسيحية الى البلدان التى لها علاقة بنا . وان حميتك الدينية ياسيدى ومكانتك من جلالة الملك تساعدان كثيراً على القيام بهذا الفتح المجيد لأن شعور جميع

الأمم هو انه لايوجد دولة سوى فرنسا تقدر أن ترغم أنوف العثمانيين المتكبرين »

ويعود هذا الأب الى قضية حشد المؤمنين من كل فج لقتال غير المؤمنين[١] ويشير بآراء غريبة فى سبيل تدويخ الأمم الاسلامية ومما قال : انه ينبغى لاخضاع هذه الشعوب واستجلابها الى عقيدتنا منعها بتاتاً من حمل الأسلحة وان ينصب حاكم إفرنسى على رأس كل ولاية

ويرى دجوفارا هذه الآراء شاذة والحقيقة أنها سواء كانت شاذة أولم تكن فان الدول الأوربية العصرية لم تعمل شيئاً الا وفق ما كان أشار به الأب يوستيانوس هذا فقد كانوا يتفقون على منع بيع الأسلحة من المسلمين لاالمسلمين الذين فى المستعمرات الأوربية فقط بل المسلمين الذين لايزالون حافظين لاستقلالهم . وقد صح عندهم هذا العزم أكثر من كل وقت مؤخراً بعد الحرب العامة التى سقطت بها السلطنة العثمانية تخيل لهم ان الغرة لائحة لنيل كل ارب من الاسلام . ومنذ سبع أو ثمانى سنوات انعقد فى جنيف مؤتمر دولى لنزع السلاح فكان أكثر نزوع الدول الاستعمارية انما هو لمنع بيع السلاح من تركيا وفارس وافغانستان ومصر و بلاد العرب . ولقد قرر المؤتمر المذكور مناطق ممنوعاً ادخال السلاح اليها Zanes Prohibées من جملتها مصر وجزيرة العرب برغم أستقلال الحجاز ونجد واليمن وحاول منع بيع السلاح من فارس . الا أنه فشل فى ذلك لكون أكثرية المؤتمر لم تقدر أن توافق على قرار يمنع تسلح دولة مستقلة بجميع معانى الاستقلال مثل دولة فارس فعادت انكلترة وضربت العجم ضربة ثانية وأبت إلا انفاذها وهى منع تسريب السلاح الى العجم من طريق البحر وان يكون لانكلترة الحق فى تفتيش السفن الواردة الى مراسى ايران . وقد وافق انكلترة على هذا القرار الأعوج فرنسة وايطالية واليونان و بعض دول وأمسكت ألمانية وأكثر الدول عن ابداء رأيهن فتقرر بسبب امساك هذه الدول عن اعطاء الرأى تأييد ماطلبته انكلترة من هذه الجهة .

أما جزيرة العرب فلم يخضع ملوكها لهذا القرار ولم تنتظم كلمة أوربة على منع بيعهم السلاح ولما عقد ابن سعود ملك الحجاز ونجد معاهدة « بحره » مع انكلترة اعترفت فيها هذه بما ينقض قرار ذلك المؤتمر ويجعله حُرّاً فى شراء السلاح . وكذلك اعترفت بحق

---

(١) أى حشد المسيحيين لقتال المسلمين

شراء السلاح لامام اليمن دولة ايطاليا وغيرها من الدول ولم تعترف هذه الدول لملوك العرب بما ينقض قرار المؤتمر المذكور الا بسبب الشقاق الواقع بين الدول الغربية والمانيا و بينها و بين البلاشفة فرأت أنفسها عاجزة عن منع تهريب السلاح الى جزيرة العرب وعادت فوافقت على ما كانت جدّت فى منعه . وعلى كل حال نية هذه الدول كانت معلومة

ومقصودنا ان قضية نزع السلاح من أيدى المسلمين ومنع دخول الأسلحة الى بلدانهم هذه قضية طالما فكر بها الأوربيون قديماً وحديثاً . ولم تفتهم ولا ساعة . ولنعد الى كلام الأب يوستيانوس فى معاملة المسيحيين للمسلمين فنقول :

انه فى الفصل الثلاثين من كتابه يشير بحمل المسلمين على النصرانية و بأن يتوسل ملوك النصارى الى ذلك بوضع جميع الضرائب على المسلمين دون غيرهم[1] وهكذا يضطرون بزعمه من شدة عنائهم و يأسهم أن يتنصّروا . قال دجوفارا : الا ان الأب يوستنيانوس يحذّر من تحويل المسلمين عن الاسلام الى الكنيسة الارثوذكسية بل يشترط أن يكون دخولهم الى الكنيسة الكاثوليكية

قلنا ومسئلة الضرائب التى تصورها يوستنيانوس وحصر أدائها فى المسلمين ان لم تكن نفذت بحذافيرها فى هذا العصر بحق المسلمين المغلوبين على أمرهم فقد نفذ مايشبهها ففى جزائر الغرب مثلا لايؤدى الفرنسيس الضرائب التى يؤديها المسلمون بل قطعة الأرض نفسها يؤدى عنها الفرنسى شيئاً زهيداً فاذا صارت الى المسلم أدى أضعافه

ثم قال الأب : وأما مهاجمة الدولة العثمانية فيجب أن تكون من جهة مضيق الدردنيل وهذه أيضاً فكرة قد أجرتها أوربة بالفعل بعد الاب يوستنيانوس بمائتين وثلاث وثلاثين سنة . إذاً آراء هذا القسيس الكبوشى لم تكن سخيفة

أما اقتسام سلطنة آل عثمان بعد الظفر بها فقد شغل بال الأب المؤلف فرأى أخيراً ان أحسن حلّ لها هو أن يسير كل ملك من ملوك النصارى من جهته منفردا بدون أن يختلط بملك آخر . وهكذا يخلصون من مشكل تقدم الواحد على الآخر . فالامبراطور يزحف على بلاد المجر وجوارها . وملك بولونيا على سواحل البحر الاسود . والبنادقة على دالماسيا والمورة وكريد . وملك اسبانية على المغرب ومصر والقدس . وأما الملك المسيحى

(١) تأمل فى عدالة هذا القسيس

كثيراً (أى ملك فرنسة) فينهد الى القسطنطينية رأسا ويحتلها ويستولى بعد ذلك على الأناضول . وعند ذلك يزحف ملك العجم فيفتح ديار بكر والموصل

ثم يقول « فبفر » انه على فرض حصول منازعات بين ملوك النصارى على تقسيم الاسلاب فان البابا يكون الحكم فيما بينهم عند التقسيم . ولكن احتمال وقوع هذا النزاع لا يجب أن يبحث فيه من الآن خشية أن يحصل تردد فى مهاجمة تركيا وان يضيع الوقت

ثم المشروع السادس والأربعون وهو مشروع لويس الرابع عشر ملك فرنسة بل أعظم ملوكها وتاريخه ١٦٨٥ — ١٦٨٧

كان لويس الرابع عشر قد نسى عضد تركيا لفرنسا فى زمان فرنسوا الأول وغلب عليه الشعور الدينى الصليبي فكان له يد فى حروب المجر وكانت له نجدات لجزيرة كريد عند ما فتحها الترك وطارد بحرية الجزائر ورمى تونس والجزائر بالقنابر ولما أراد البابا اسكندر السابع تأليف عصبة مقدسة [1] كان أول من أجاب نداءه لويس الرابع عشر

وكانت حماسة الأوربيين للحروب الصليبية قد بدأت تتراجع لعهد الملك المذكور . ونظم له الشعراء القصائد ودعوه الى محو الاسلام . وألَّف المؤرخون والسياسيون كتباً فى استنفار لويس الرابع عشر وملوك النصارى لمحاربة المسلمين ومن هؤلاء « دوڤينيو » Du Vignau نشر سنة ١٦٨٧ كتاباً أوضح فيه ضعف الدولة العثمانية وسهولة هدم بنيانها وبين كيفية عبور الدردنيل وتفاءل باقامة صلاة الشكر على ذلك فى كنيسة القديس بطرس فى رومة أو ايا صوفيا فى الاستانة

أما برنامج لويس الرابع عشر فقد كان استيلاء فرنسة على المورة وتساليا وسلانيك وصربيا وبلغاريا والروملى وجزر الارخبيل وأن يكون كل هذا تحت تاج أحد أبناء لويس الرابع عشر . ويكون لبولونيا الفلاخ والبغدان . وللبندقية كرواسيا والبانيا ودالماسيا وبوسنه. وكان أرسل لويس الرابع عشر سفيراً الى الاستانة اسمه « جيراردين » Girardin ومعه « دورتيار » ضابط بحرى نظم خريطة فيها وصف القلاع التركية التى على سواحل البحر المتوسط وبيان العمل لكيفية أخذها . وقدم السفير المذكور للملك تقريراً وافيا عن دخل السلطنة العثمانية وخرجها وعن أصناف جيوشها وكيفية اعاشتهم

(١) أى فى وجه الاسلام

وكان لويس الرابع عشر يحب بولونيا وكانوا فى أيامه فكروا فى تزويج احدى أميرات البيت الملكى بفرنسة من ابن ملك بولونيا وتتويج هذا ملكا على الفلاخ والبغدان

وفى ٥ مارس سنة ١٦٨٤ كان قد انعقد حلف بين بولونيا والنمسا والبندقية والروسية يداً واحدة على تركيا ودعوا شاه العجم للدخول معهم فى هذا الحلف . وكانت فرنسة تريد اعطاء الفلاخ والبغدان الى بولونيا بحجة انه لولا الجيش البولونى لكان الترك فتحوا فينا وان بولونيا مع ذلك لم يكافئها الامبراطور بشئ

ولقد خمن « دورتيار » D'ortière كلفة هذه الصليبية لتقسيم تركيا بواحد وثلاثين مليون جنيه . ولم يكن هذا المبلغ اذ ذاك مما تعجز عنه فرنسة . ولكن مشروع لويس الرابع عشر هذا لم ينفذ منه شئ وكان لهذا الملك من حروبه مع اسبانية وهولاندة وانكلترة والامبراطورية الجرمانية شاغل عنه

ثم مشروع الأب « كوبين » Coppin وهو السابع والاربعون وتاريخه سنة ١٦٨٦

كان هذا الرجل فى مبدأ أمره ضابطاً فى الخيالة بفرنسة ثم تحول قسيساً وصار قنصلا لفرنسة فى دمياط . وبعد ايابه الى وطنه ألف كتابا سماه « ترس أوربة » Bouclier De L'europe فيه الدعوة الى تقسيم السلطنة العثمانية وفى الفصل العشرين من هذا الكتاب يقول : « كيفية تقسيم الولايات المذكورة فى الفصل السابق بين ملوك المسيحيين » . ثم : تقسيم الموره . تقسيم شمالى افريقية . تقسيم أملاك تركيا فى أوربة . تقسيم الجزر وهلم جراً . والأب كوبين يعطى البندقية فى هذا التقسيم بوسنه والبانيا وشمالى اليونان . ويعطى اوستريا المجر وصربيا وقسما من بلغاريا ومكدونية . ويعطى بولونيا الفلاخ والبغدان وقسما من بلغاريا وسواحل البحر الاسود الى أدرنه . ويعطى فرنسة القسطنطينية وأدرنه وبرسا وقورنيته ومن آسية الصغرى البلاد الممتدة من برسا الى طرابزون ومن افريقية مصر وعنابه وتونس . ويعطى انكلترة طنجة ومن بلاد اليونان تساليا . ويعطى اسبانية الجزائر ووهران ثم اثينا وتيبة من بلاد اليونان . ويعطى البرتغال طرابلس الغرب وساحل مكدونية الجنوبى وحلب وقسما من سورية . ولا ينسى هولاندة فيخصها ببرقة وبقسم من المورة . وينعم على دوقية سافواى بقبرص وقسم من بلاد اليونان ويقسم البقية على

جنوةوفلورنسة ولوك . وأما البابا فيكون له بيت المقدس وقسم من ارقاديا فى بلاد اليونان ويكون القسم الآخر من ارقاديا لدوقيات « مودين » Modéne و« بارم » Parme وتكون رودس لفرسان مالطة

قال دجوڤارا : ان تقسيمات هذا القسيس العسكرى مختلطة متداخلة جداً كما ترى وكأنه تعمَّد أن لا يترك مملكة مسيحية بدون شقص من هذه الغنيمة . الا أنه نسى فى القسمة دوق موسكو الذى كان مع ذلك كتب الى البابا يستنهضه لحرب صليبية . فالأب « كوبين » يقول : ان هذا المشروع يجوز اطلاع أمير موسكو عليه ليعلم ماذا يقترح من الحصص

أما تخصيص « كوبين » القسطنطينية بفرنسة فيقول : لأنها دخلت فيما مضى فى حوزة الفرنسيس ولأن هؤلاء أقدر على حفظها من غيرهم ولأن فرنسة هى ابنة الكنيسة البكر ولا تليق الامبراطورية الا بها

ثم المشروع الثامن والأربعون من تقسيم تركيا وهو المنسوب الى بطرس الأكبر الروسى وتاريخه سنة ١٧١٠

كثر البحث هل هذا المشروع صحيح النسبة الى بطرس الأكبر قيصر الروس أم لا ؟ فالمؤرخ الروسى « ڤاليزيفسكى » Valiszevski يقول انها اكذوبة . وكل من « جوبير » Joubert و« مورنو » Mornaud يقول ان بطرس الأكبر لم يحرره بخطه لكن أفكاره كانت هى هذه . ولقد نشر هذا المشروع المسيو « لزوّر » Lesur سنة ١٨١٢ ولكن المؤرخين الشهيرين « لاڤيس » Lavisse و« رامبو » Rambaud يذهبان الى أن « لزوّر » لفق هذا المشروع تزلفاً لنابليون الأول . وزعم « بركولز » Berkholz أن أبا عذرة هذا البرنامج هو نابليون نفسه . وقال « سوكولنيكى » Sokolnicki فى كتابه « وصية بطرس الأكبر » ان محرر هذا المشروع هو الجنرال ميشل سوكولنيكى المتوفى سنة ١٨١٦

وكيف كانت الحال فالجميع متفقون على أن خطة الأمة الروسية هى هذه التى تضمنتها هذه الوصية المنسوبة الى بطرس الأكبر . والمؤرخ الروسى « ڤاليزيفسكى » يقول ان المواد الاحدى عشرة الأولى من هذه الوصية المنشورة سنة ١٨١١ قد كانت هى خطة الروسية المتبعة فى سياستها فى الشرق منذ سنة ١٧٢٥

ولقد كان بطرس هو الذى رقى الروسية الى صف الدول العظام ومن قبله و إلى أواسط أيام لويس الرابع عشر فى فرنسة لم تكن الروسية شيئاً مذكوراً .

وقد كان أول من أظهر الطمع من ملوك الروس فى القسطنطينية القيصر ايفان الثالث الذى حرر نفسه من حكم التتار (سنة١٤٨٢) وتزوج بابنة شقيق الامبراطور ميشل باليولوغ فصار يدّعى ملك بيزنطية بهذه المصاهرة ولكن الذى بدأ بمقاومة الأتراك فعلاً ونصب نفسه لحماية المسيحيين فى الشرق هو بطرس الأكبر . وكان من أول أعماله أنه أرسل الى الفلاخ والبغدان دعاةً يحركونهم الى الثورة وكان هناك أسقف من القدس يشيع أنه وجد على قبر قسطنطين كتابة تشير الى أن الروس هم الذين سيطردون الترك من أوربة

وأما وصية بطرس فهى ١٤ بنداً أهمها البند الخامس وهو أن يصير الاتفاق مع النمسا على طرد الترك من أوربة ويجهز لهذا الغرض جيش دائم فى البر وتبنى دور صنعة لبناء السفن فى سواحل البحر الاسود و يستمر التقدم نحو القسطنطينية .

والبند السابع الذى يوصى بالاتفاق مع انكلترة والعمل للسيادة فى بحر البطليق والبحر الاسود اذ بدون السيادة على هذين البحرين لا يتم للروسية مرادها

والبند الثامن الذى يذكر أن أعظم تجارة فى الدنيا هى تجارة الهند ومن احرزها ساد على أوربة فيجب انتهازكل فرصة لاصلاء فارس الحروب التى تنهك قواها ومن ثمة يمكن الوصول الى الخليج الفارسى والاستيلاء على تجارة الشرق

والبند الحادى عشر الذى يوصى الروس بجمع كلمة الاروثوذكسيين تحت حمايتهم سواء الذين فى تركيا أو المجر أو بولونيا و بواسطتهم تثار الفتن والحروب على هذه الممالك الثلاث الى أن تتلاشى

والبند الثانى عشر الذى يوصى بايقاد نيران المنافسات بين فرنسا والنمسا وان تتعهد الروسية لكل من هاتين الدولتين سراً و بدهاء عظيم أن تمالئها على قسمة العالم فتقع بينهما الحروب ومن ثمة تتحول حربا عامة

والبند الثالث عشر الذى يقول فيه إنه بعد أن تنشب الحرب العامة فى كل مكان وتنهك قوى الجميع يصير للروسية الخيار فى ترجيح الجهة التى تريد ترجيحها على عدوتها . وحينئذٍ تجنح الروسية الى جانب النمسا ثم تزحف الجنود الروسية المنظمة نحو الرين ووراءها

تلك العصائب الآسيوية التى تنتشر فى المانية ثم يخرج اسطولان أحدهما من البحر الاسود والآخر من بحر اركانجل وعليهما هذه العصائب الآسيوية فيقذفان بها على ايطالية واسبانية وفرنسة وتأخذ هذه العصائب بالعيث والتدمير وتأخذ قسماً من أهل فرنسة اسرى فيقذف بهم الى سيبريا لاجل عمارة اراضيها الواسعة

هـذا أهم ما فى هـذه الوصية . وفى نظارة الخارجية الافرنسية نسخة من مشروع السيادة الروسية العالمية المنسوب الى بطرس الأكبر يوصى به خلفاءه والأصل كان فى خزانة أوراق قصر «بترهوف» Peterhof بقرب بطرسبرج

ثم المشروع التاسع والاربعون المنسوب الى الأب «سان بيير» St-Pierre وتاريخه ١٧١٣

هـذا الرجل كان من أعضاء الاكادمية الافرنسية الّف كتابا أعاد فيه مشروع سوّلى Sully وهنرى الرابع وقال ان تنفيذه غير مستحيل وان هنرى الرابع لو كان الله فسح فى أجله لنفّذه

إلا ان هذا الرجل امتاز عن سائر أصحاب المشروعات الصليبية بأنه لم يلتزم قضية محو السلطنة العثمانية من الوجود وانما قال انه متى علم الترك بوجود عصبة دفاعية عامة بازائهم لم يجرأُوا على مناجزة الامبراطورية ولا بولونيا ولا الروسية ولا البندقية حرباً ما لأنهم يعلمون أن هذه العصبة حينئذ تطردهم من كل أوربة

ثم يفـدر هذا الأب فى اختلاف الأديان التى ستشتمل عليها هـذا العصبة وما يخشى من تصادمها بعضها مع بعض لكنه يعود فيحلّ هـذه المعضلة بقوله انه بواسطة الاختلاط والاحتكاك تكون الديانة الحقيقية هى السائدة على الجميع فى آخر الأمر

ويقول فى موضوع الصلح بين المسلمين والنصارى كلاماً حرياً بالنقل . فيذكر أن بعض النـاس يعترضون قائلين ان الدين الاسلامى يمنع المسلمين من صلح دائم مع النصارى ولا يأذن لهم الا بهدنة مؤقتة. فالأب سان بيير يجيب على هذا الاعتراض قائلاً ان هذا يمنعه الدين الاسلامى فيما اذا كان المسلمون هم الحزب الأقوى أو المساوى بالأقل . فأما اذا كان أعداؤهم أكثر عدداً وأقوى مدداً فلا يمكن أن يكون الصلح ممتنعاً عندهم لأن استمرار الحرب يجعل الاسلام فى خطر شديد . ثم لنفرض أن الصلح الى أمد غير محدود ممنوع على

المسلمين أفليس لهم أن يعقدوا مهادنات الى ٢٠ سنة وأن يجددوها ؟ الجواب لهم ذلك . فاذاً هم يمكنهم أن يعقدوا مهادنات الى ١٠٠ سنة بدلاً من ٢٠ سنة وأن يجددوها . وهل الصلح الدائم غير هذا ؟ قلت لا بأس أن نورد هنا أحكام المهادنة والصلح فى الاسلام نظراً لورود هذا المبحث فى هذا المحل فنقول :

جاء فى « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » للامام الفيلسوف الفقيه الأصولى القاضى أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبى الاندلسى فى هذا الباب مايلى :

« فاما هل تجوز المهادنة ؟ فان قوماً اجازوها ابتداءً من غير سبب اذا رأى ذلك الامام مصلحة للسلمين وقوم لم يجيزوها الا لمكان الضرورة الداعية لأهل الاسلام من فتنة أو غير ذلك اما بشئ يأخذونه منهم لاعلى حكم الجزية . اذ كانت الجزية انما شرطها ان تؤخذ منهم وهم بحيث تنفذ عليهم أحكام المسلمين . واما بلا شئ يأخذونه منهم . وكان الأوزاعى يجيز ان يصالح الامام الكفار على شئ يدفعه المسلمون الى الكفار اذا دعت الى ذلك ضرورة فتنة أو غير ذلك من الضرورات . وقال الشافعى لايعطى المسلمون الكفار شيئا الا أن يخافوا ان يصطلموا لكثرة العدو وقلتهم أو لمحنة نزلت بهم. وممن قال باجازة الصلح اذا رأى الامام ذلك مصلحة مالك والشافعى وابو حنيفة . الا ان الشافعى لا يجوز عنده الصلح لأكثر من المدة التى صالح عليها رسول الله ﷺ الكفار عام الحديبية . وسبب اختلافهم فى جواز الصلح من غير ضرورة معارضته ظاهر قوله تعالى (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقوله تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) وقوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) . فمن رأى أن آية الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ناسخة لآية الصلح قال لايجوز الصلح الامن ضرورة . ومن رأى ان آية الصلح مخصصة لتلك قال الصلح جائز اذا رأى ذلك الامام وعضد تأويله بفعله ذلك صلى الله عليه وسلم وذلك ان صلحه ﷺ عام الحديبية لم يكن لموضع الضرورة . واما الشافعى فلما كان الأصل عنده الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وكان هذا مخصصا عنده بفعله عليه السلام عام الحديبية لم ير أن يزاد على المدة التى صالح عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اختلف فى هذه المدة فقيل كانت أربع سنين وقيل ثلاثا وقيل عشر سنين وبذلك قال الشافعى . واما من أجاز أن يسامح المسلمون المشركين بأن يعطى

لهم المسلمون شيئا اذا دعت لذلك ضرورة فتنــة أو غيرها فصير الى ماروى انه كان عليه السلام قدهمّ أن يعطى بعض ثمر المدينة لبعض الكفار الذين كانوا فى جملة الاحزاب لتخييبهم فلم يوافقه على القدر الذى كان سمح له به من ثمر المدينة حتى أفاء الله بنصره . واما من لم يجز ذلك الاّ ان يخاف المسلمون أن يصطلموا فقياسا على الاجماع على جواز فداء اسارى المسلمين لأن المسلمين اذا صاروا فى هذا الحد فهم بمنزلة الأسارى» اه .

ثم ذكر الأب سانت پيير اعتراضا لبعضهم معناه انه لايجوز أن يدعى الترك الى الصلح قبل أن يعطى البولونيون بلاد التاتار والقوزاق التى على سواحل البحر الأحمر وقبل أن يعطى البنادقة بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريد وقبل أن يرد الى فرسان مالطة جزيرة رودوس فيجيب الأب سانت پيير على هذا الاعتراض بقوله اننا لانرى فتح هذه الفتوحات ضروريا لأجل تأمين حياة العصبة المسيحية التى نحن بصددها ثم انه لايظن ان أكثر ملوك المسيحيين يفضلون فتح هذه الفتوحات لبولونيا والنمسا والبندقية وفرسان مالطة على ادخال الترك معهم فى المجتمع الأوربى قال دجوقارا انه غريب فى الحقيقة ان نجد قسيسا مثل الأب سانت پيير معارضا لاستئصال غير المؤمنين أى المسلمين وعاملا بالعكس لأجل ادخالهم فى مجتمع الدول المسيحية .

قلت قد مضى علينا الى هنا تسعة وأربعون مشروعا من مشروعات تقسيم تركيا ولم نجد فيها كلها مشروعا واحدا سوى مشروع هذا الأب يتضمن فكرة استبقاء المسلمين . بل جميعها كانت تدابير مقصودا بها محو تركيا والاسلام بأسره وان كان قد ورد فى بعضها اشراك دولة العجم فى حصة من تقسيمات تركيا فيكون هذا من باب السياسة الحربية حتى يدخل العجم فى العصابة ضد الترك ويزيدوهم ضعفا ثم بعد ان تسقط تركيا فمن البديهى انه لابد من سقوط العجم . وليس لنا الاّ ان نترحم على الأب سانت پيير الذى كان الوحيد فى ذلك العصر فى طلب توقيف الترك عند حدهم لافى السعى لابادتهم وابادة الاسلام جميعا .

وقد كان مشروع سوللى Sully السابق الذكر تأليف عصبة أوربيه من خمس عشرة دولة قدتقدم بيانها فى محله . فأما سانت پيير فقد جعل تأليف العصبة من ثمانى عشرة دولة ثم اسقط منها واحدة وقال انه يجب ان يدعى الى الدخول فى العصبة الملوك الآتى ذكرهم الأول الأمبراطور الثانى ملك فرنسا الثالث ملك اسبانيا الرابع ملك البرتغال الخامس ملك

انكلترة السادس جمهورية هولاندة السابع ملك الدانيمرك الثامن ملك السويد التاسع ملك بولونيا العاشر قيصر الروسية الحادى عشر ملك بروسية الثانى عشر امير باڤاريا الثالث عشر أمير الپالاتينا الرابع عشر سويسرة الخامس عشر دوق اللورين السادس عشر جمهورية البندقية السابع عشر ملك ساردانية . ولم يتم شئ من هذا المشروع و بقى أثرا تاريخيا فى الآثار

ثم المشروع الخمسون وهو مشروع نمسوى وتاريخه سنة ١٧١٨ .

وكانت تركيا فى حرب مع النمسا من أجل بلاد المجر والفلاخ وكانت اوستريا أو النمسا احتلت قسما من الفلاخ وفى ١٩ اكتوبر سنة ١٧١٧ كتب الصدر الأعظم الى البرنس أوجين النمساوى يدعوه الى الهدنه فرضيت النمسا بالصلح على الشروط الآتية وهى . ان الباب العالى يرفع سيطرته عن بلاد المجر الثائرة ويمتنع عن بيع الاسرى ويراقب الولايات العثمانيه فى شمالى افريقية ويمنعها عن الاعتداء ويعطى الرهبان الفرنسيسكانيين الاماكن التى يطلبونها فى القدس ويتخلى للنمسا عن قسم من الفلاخ . وفى ٨ فبراير سنة ١٧١٧ عقد الجنرال النمساوى «ستاڤيل» مع «جان‌ماڤروڤو رداتو» أمير الفلاخ معاهدة يتعهد بها الجيش النمساوى بأن لايقطع نهر «ألوتا» ثم دخلت انكلترا وهولاندة فى الوساطة بالصلح بين النمسا وتركيا فاذا بالنمسا تقترح ضم الفلاخ والبغدان الى الأمبراطورية النمساوية فالترك رفضوا ذلك وجاء الخبر بأن ١٨٠٠٠ إسبانيولى نزلوا فى ساحل ايطاليا الشمالية فقلقت من أجل ذلك النمسا وأسرعت بعقد الصلح .

ثم المشروع الواحد والخمسون وهو مشروع ديسلوڤاى Disloway وتاريخه سنة ١٧٣٢ وكان ديسلوڤاى هذا مجريّاً فى الاصل من حاشية البرنس «راكوتزى» وكان يسمو الى امارة فى الفلاخ والبغدان وكان يقول ان ثمة أرضا بين المجر وترانسيلڤانيا تابعة للفلاخ والبغدان عظيمة الخصب تستطيع أن تمير عددا كبيراً من السكان وانه اذا سمح له بها الباب العالى أمكنه أن يعمرها ويكون للباب العالى بذلك فائدة وهى وضع فاصل بين املاكه والامبراطورية الجرمانية وتكون هذه الامارة الحديدة تابعة فى سياستها للباب العالى ، وتكون كاثوليكية المذهب . الا ان الباب العالى امتنع عن قبول هذا الاقتراح لانه كان اتفق مع النمسا بأن لا يروّج غرضا كهذا يستفيد منه البرنس راكوتزى وقومه المجر . وقيل ان ديسلوڤاى انما كان يعمل ظاهرا لنفسه وباطنا لاميره البرنس المذكور وقد أجمع

الناس على ان هذا المشروع كان خياليا وهو على كل حال ليس فيه شئ مهم من تقسيم تركيا بل كان موجهاً فى الحقيقة لصد النمسا والاستعانة بتركيا عليها .

ثم المشروع الثانى والخمسون المنسوب الى الكردينال « البرونى » Alberoni وتاريخه سنة ١٧٣٦ وكان البرونى هذا طليانياً ولد فى « فيرانزولا » سنة ١٦٦٤ ومات سنة ١٧٥٢ وكان من أعاجيب الدهر .

قال دجوفارا ان فيكتور هوغو يذكر لنا رجلا اسمه روى بلاس Ruy blas كان فى أوليته خادم منزل فصار فى الآخر الوزير الأول فى اسبانية وقد يظن أن هذه الحكاية هى خيالية من نتائج تصورات ذلك الشاعر العظيم ولكن قصة الكردينال البرونى كانت حقيقة واقعية وقد تجاوزت قصة روى بلاس Ruy blas فان هذا الرجل كان من الطبقه الدنيا وكان أبوه حارس بستان وقد تربى فى دير فى مدينة « پلازانس » وتعلم مجاناً ثم صار معلما لابن أخى المطران « برنى » ثم صار ناموساً للمطران « رونكوڤييه رى » ثم دخل فى بلاط دوق پارم Parme وما زال ينال حُظوة حتى أرسلوه معتمداً سياسياً فى مجريط وهناك أبدى مزيد المهارة فى السياسة وذلك ان ملك اسبانية فيليب الخامس كان له حظية قد استبدت بالأمور فما زال البرونى به حتى اقنعه بالزواج بالأميرة « اليصابت فرنيزى » وارثة عرش پارم و بعد ذلك تمكن من نفى معشوقة الملك فلاجرم ان الذى يتصرف بقلب ملك اسبانية الى ذلك الحد يمكنه أن يحمله على السياسة التى يريدها فلم يلبث أن تولى البرونى رئاسة الوزراء فى اسبانية ثم صار رئيس أساقفة اشبيلية .

وقد ازدادت فى أيامه قوة اسبانية ففتحت جزيرتى سردانية وصيقيلية ولكن طرأ فى زمانه أن الأسطول الانكليزى دمّر الأسطول الاسبانى فى « سيرا كوزا » ثم انعقدت معاهدة رباعية بين انكلترة وفرنسا وأوستريا وهولاندة فخطر فى بال البرونى أن يقابل هذه العصبة بعصبة أخرى مؤلفة من اسبانية والروسية وتركيا والسويد . وفى تلك المدة أعلنت فرنسة الحرب على اسبانية أى سنة ١٧١٩ فخاف فيليب الخامس من هذه الخطوب المتوالية وطرد البرونى من اسبانية فخرج ذليلا وهام على وجهه فى الأرض لايملك شيئاً ثم قبض عليه فى جنوة بأمر البابا اينوشانسيوس الثالث عشر وحكم عليه بالحبس مدة أربع سنوات فى دير ولكنه بدهائه تمكن من نيل العفو وصار فيما بعد معتمداً للبابا .

وقد ألف البرونى هذا كتاباً يحتوى أفكاره السياسية قال فيه ماخلاصته : انه يجب على دولتى فرنسا واسبانيا أن تعضدا دولة النمسا على الدولة العثمانية عدوة المسيحية وهكذا تتمكن النمسا بالاتفاق مع الروسية من طرد الأتراك من أوربا واسترجاع الأراضى المقدسة. وهو يقول انه لواتفقت دول أوربا لم تطرد الترك من أوربا فقط بل أمكنها طردهم من آسية وافريقية وأشار بعقد مؤتمر فى رەغنسبورغ Regensbourg تنعقد فيه معاهدة بين الدول المسيحية ويتأسس صندوق مركزى للمال فى البندقية. وأما الجيوش فيجهز الامبراطور مائة الف مقاتل والروس مائة ألف وبولونيا ثلاثين الفاً والدانيمرك عشرة آلاف والسويد عشرة آلاف وفرنسا ثلاثين ألفاً وكل من حكومات الصيقيليتين والبرتغال وسردانية والبندقية وجنوة وسويسرةعشرة آلاف فجموع القوه يكون ٣٧٠ ألفاً . ثم انه يمكن تجهيز أسطول مسيحى لايقلعن ١٠٠ سفينة حربية و ٤٠ بارجة . وقداقترح « البرونى » تجهيز أسطول آخر من سفن فرنسة واسبانية والبرتغاللأجل صد أساطيل طرابلسوتونس والجزائر

وذهب « البرونى » الى كون فشل الحروب الصليبية انما كان السبب فيه الخلف الذى وقع بين المسيحيين من أجل تقسيم الفتوحات فيجب أن يضع مؤتمر «رەغنسبورغ» قاعدة يسير عليها المسيحيون فى المستقبل فلا يختلفون

قال البرونى : انه يجب أن يعين الدوق « هولستين غوتورب» Holstein-Gottorb امبراطوراً على القسطنطينية بجميع حقوق هذه الامبراطورية وان يكون ارثها فى عقبه الذكور وان يضاف الى القسطنطينية أملاك تركيا فى آسية وولاية الروملى فى أروبة

ولما كان الحصن الحصين الأكبر الذى وقى أوربة والنصرانية من عادية الاسلام هو الامبراطورية الرومانية (١) فيجب أن تضاف اليها بوسنة وصربيا واسكلاڤونيا ومكدونية والفلاخ وتكون من جملة أجزاء هذه الامبراطورية وأن يكون للامبراطور الرومانى حق التقدم على امبراطور القسطنطينية وغيره من ملوك النصارى

ثم قال انه لما كان قدثبت كون القيصرة حنة صاحبة الروسية ليس لها هم أعظم من نشر الديانة فاننا نرى من باب المكافأة لها على جهادها اعطاءها بلاد التتار وازوف وبمقابلة ذلك ترد هى بلاد فنلاندة الى مملكة السويد

---

(١) أى الجرمانية التى خلفت الامبراطورية الرومانية

وتجب مكافأة اسبانية باعطائها الجزائر ومكافأة البرتغال باعطائها طرابلس الغرب . ويجب تسليم أزمير وجزيرة كريد الى انكلترة وتسليم حلب وجزيرة رودس الى هولاندة

وأما بولونيا فمن حيث كانت مدة طويلة حصناً للنصرانية وقد أصيبت بمصائب كثيرة فيجب أن تكافأ بتسليمها بلاد البغدان و بلاد التتر المسماة « بودزياك » ومامن أحد ينازع فى اعطاء دالماسيا الى البندقية ولا فى اعادة المورة لها وقد انتزعت منها مذ عشرين سنة كما انه يجب اعطاء جنوة قسما من بلاد اليونان

فهذه خلاصة تقسيم الفتوحات بين الفاتحين وأنت ترى أن فرنسة وسويسرة وفرسان مالطة ليس لهم ذكر فى هذه التقاسيم وأغرب من هذا عدم اعطاء شئ للبابا . وكل هذا فيه نظر

ثم ان البرونى يقترح أن تكون ديانة الدولة فى القسطنطينية وفقاً لصلح وستفاليا (سنة ١٦٤٨) ولكن مع مراعاة الكنائس الارثوذكسية والارمنية والقبطية [١] ويقترح أن تكون المعاملات التجارية واحدة لا ترجيح فيها لاناس على آخرين . ومن جملة اقتراحاته طمس قلاع الدردنيل

أما كيفية الهجوم على تركيا فتكون على الوجه الآتى :

يزحف الروس صوب شبه جزيرة القريم ويأخذون آزوف . وفى الوقت نفسه تزحف جيوش بولونيا والدانمرك والسويد وتقطع نهر « دنيستر » وتفتح بلاد البغدان Moldavie وبلاد التتار و بلاد طرابزون

وتحتشد جيوش الألمان فى بلغراد وتهاجم « ودين » و « نيش » وقلاع الطونه

وتهاجم جيوش الفرنسيس وسائر الدول الجنوبية بلاد اليونان . وتجتمع الأساطيل وتهاجم جزيرة مدللى وجزيرة تنيدوس ثم الدردنيل ثم الاستانة و بعد انتهاء هذه الحرب بنيل المنى ينعقد مؤتمر دائم فى « رغنسبورغ » (مدينة فى باڤاريا) تمثل فيه جميع الدول المسيحية وتفصل فيه خصوماتها ومن لا يخضع منها للحكم يجبر على الخضوع بالقوة

قال « دجوڤارا » ان أربع دول بلقانية لم تنته من الحرب مع تركيا حتى اشتبكت فى حرب بعضها مع بعض لأجل قسمة الفتوحات وهذا برغم امبراطور الروسية الذى كان هو

(١) أى الاعتراف بكل ديانة الا الاسلام

الحكم فيما بينها . فكيف تريد أن تتفق دول أوربة بأجمعها على تقسيم البلاد العثمانية ؟ يريد أن يقول ان اتفاقات الدول على تقسيم الفتوحات هى أسهل فى النظر منها فى العمل

ثم المشروع الثالث والخمسون وهو مشروع نمسوى وتاريخه سنة ١٧٣٧

كان الروس اتحدوا مع النمسويين وهاجموا الترك سنة ١٧٣٧ الى سنة ١٧٣٨ وصد الباب العالى هاتين الدولتين معاً وأبدى قوة عظيمة الا أنه طلب توسط الدول الأوربية . وكانت فرنسة تعضده بواسطة سفيرها « ڤيلنوف » Villeneuve الذى كان يشدد الباب العالى ولا سيما فى منع الروس من الاتصال بالبحر الاسود خوفا من وصولهم الى البحر المتوسط . فانعقد مؤتمر الصلح فى « نميروف » من بولونيا وكان طلب الروس أن تكون لهم جميع سواحل البحر الاسود الممتدة من مصب الدانوب الى باطوم مع حرية الملاحة فى هذا البحر . وان تنضم الفلاخ والبغدان مملكة واحدة مستقلة الا ان الديانة الارثوذكسية فيهما تكون تحت حماية الروسية . وأما اوستريا فطلبت جميع بلاد الصرب ونيش وودين وبوسنه ونوڤى بازار وكانت تسمو أيضاً الى أخذ الفلاخ Valachie فالباب العالى رفض هذه المطالب كلها واستؤنف القتال . فدخل الاوستريون بلاد الفلاخ ووصلوا الى بخارست الا ان الترك كسروهم فى « مهاديه » Mehadia وأخذوا « ارزوڤا » وفى ١٠ نوفبر سنة ١٧٣٨ تصالحت فرنسة مع السويد وعرضت هذه المحالفة على تركيا

أما الروس فقطعوا نهر « البروت » وفى ١١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ زحف المارشال مونيك الى « جاسى » وكانت فرنسة توسطت فى الصلح مع اوستريا وانعقدت معاهدة بلغراد فى ١ ستمبر سنة ١٧٣٩ وبقيت بلاد الصرب وبوسنه والفلاخ لتركيا . ولما رأت الروسية ان استريا تركت الحرب وصالحت تركيا ورأت السويد تهاجم من الوراء أعادت الى الباب العالى البلاد التى كانت احتلتها من ممالكه ورضيت بطمس قلعة ازوف واقتنعت بما كانت عليه قبل تلك الحرب من عدم الاتصال بالبحر الاسود

وكان صلح بلغراد هذا آخر صلح مجيد عقده الباب العالى مع أوربة وكوفئت فرنسة على عضدها لتركيا فى هذه المصالحة بتجديد الامتيازات الافرنسية فى تركيا وبزيادتها

ثم المشروع الرابع والخمسون وهو المنسوب الى المركيز «دارغنسون» Ditrgenson وتاريخه سنة ١٧٣٨

وكان هذا الرجل ناظراً لخارجية فرنسة لعهد لويس الخامس عشر ويقال انه كان على جانب عظيم من استقامة المبادئ حتى قال عنه ڤولتير : انه أحرى بأن يكون وزيراً في جمهورية افلاطون من أن يكون وزيراً عند ملك فرنسة

وفى أواخر القرن الثامن عشر عادت فى أوربة حماسة النصرانية وتجددت العزائم لقتال الترك . وكان ڤولتير يدعو الى نصرة الأروام و « شنيه » Shenier ينظم الاشعار الحماسية لمقاتلة الترك . ونشر الكونت « دومارسيغلى » De Marsigli كتاباً اسمه « حالة تركيا العسكرية وتقدمها وتقهقرها » وكان هذا الرجل طليانيا اشتهر بالعلم وخدم دولة اوستريا وأسره الترك سنة ١٦٨٣ فقال فى كتابه: «انه اذا اتفق الامبراطور والروس وبولونيا والبنادقة أمكنهم محو السلطنة العثمانية من الوجود» أما الوزير دارغنسون فمع أنه كان يشاطر أبناء عصره هذا الشعور بحق تركيا كان يخالف الجمهور فى قضية تقسيم اسلاب هذه السلطنة فيقول : « انه لا يجوز أن نفتح بلدان تركيا ليستولى عليها الامبراطور بحجة انه هو حامى النصرانية وان تقويته لازمة . بل يجب أن يكون لكل واحد حصته من اسلاب تركيا وأن تؤسس على انقاض هذه السلطنة عدة ممالك مسيحية [1] وان لا يحصل خلل بالتوازن الأوربى وأن تعود بلاد اليونان الى مثل ماضى مجدها و يعود وادى النيل الجميل الى ما كان عليه وان تعاد النصرانية الى تلك البلدان وترتب ادارة للاراضى المقدسة الخ »

وقد تكلم دارغنسون عن وجوب اتفاق الدول المسيحية فقال : انه اجدر بها أن تتحد فى شبه جمهورية مسيحية من أن تستمر فى قتال بعضها بعضاً وهكذا تفتح ممالك الاسلام فى أوربة وما صاقبها من سواحل افريقية الشمالية التى هى مجاورة لاوربة كثيراً كمملكة مراكش المجاورة لاسبانية ومن سواحل آسية الصغرى وسورية وفلسطين حيث الاراضى المقدسة الخ

ولقد تم هذا كله لكن من بعد زهاء مائتى سنة من العصر الذى كان فيه دارغنسون . وهو يعين العروش التى يرى ايجادها فيقول : يكون ملك لمكدونية وملك لليونان وامبراطور للقسطنطينية له بلاد الاناضول ويكون ملك لسورية وفلسطين وملك لمصر وملك للجزائر وتونس وملك لمراكش الخ

---

(١) أما المسلمون فلم يفكر بهم دارغنسون فى شىء بل وظيفتهم دائما أن يكونوا تحت حكم المسيحيين

ثم المشروعان الخامس والخمسون والسادس والخمسون أحدهما لكاترينا الثانية امبراطورة الروسية والآخر ليوسف الثانى امبراطور اوستريا وتاريخه سنة ١٧٧٢

قال دوجوقارا : سنة ١٧٦٨ أعلنت تركيا الحرب على الروسية فانهزم الجيش العثمانى ودخل الروس الى بلاد الفلاخ واستولوا على اسماعيل و بندر واكرمان وكذلك ساعد الانكليز الروس فى البحر فظهروا على الاسطول العثمانى فى « چشمه » فتدخلت اوستريا فى الخلاف فعرضت عليها تركيا لارضائها تقسيم بولونيا فرضيت بذلك وانعقدت معاهدة تقسيم بولونيا فى ٥ أغسطس سنة ١٧٧٢ وانصرفت بها اوستريا عن البلقان واضطرت الروسية بسبب اتفاق تركيا مع اوستريا ان تخلى الفلاخ والبغدان وتعيدهما لتركيا الا أنه فى المعاهدة الصلحية التى انعقدت فى « كوچوك قاينارجى » سنة ١٧٧٤ فى ٢١ يوليو رضيت تركيا بأن يكون للروسية حق الدفاع عن رومانيا أى مملكتى الفلاخ والبغدان

وكانت اوستريا لا تزال طامحة الى الاستيلاء على رومانيا وكتب البارون « توى غوت » Thugut سفير اوستريا فى الاستانة الى حكومتهِ ما يلى : « عند سقوط السلطنة العثمانية القريب ينبغى أن تخرج ولاياتها الشمالية كبوسنة وصربيا والبغدان والفلاخ فى نصيب أوستريا »

وفى أيام كاترينا الثانية قيصرة الروسية ويوسف الثانى امبراطور النمسا اشتد الخطر على السلطنة العثمانية أكثر من كل وقت نظراً لاتفاقهما على تقسيم هذه السلطنة . وكانت كاترينا هذه ألمانية الأصل الا أنها أفادت الروس ما لم يفِدْه أحد من ملوكها وأكملت عمل بطرس الأكبر وأشاد بذكرها كبار العلماء مثل ڤولتير و « ديدرو » و « دالمبر » وغيرهم وحولوا الرأى العام صوبها . وكان ڤولتير يوصى فريدريك ملك بروسية بعدم معارضة كاترينا فى مشروعاتها المتعلقة بفتح القسطنطينية .

وأما يوسف الثانى امبراطور اوستريا ابن فرنسوا الأول ومارى تيريز فكان شديد العاطفة واسع الخيال سريع الحركة وكان فريدريك ملك بروسية يقول عنه : انه يحب العلم لكن ليس له صبر عليه . وقد عرفت كاترينا بدهائها مكان ضعف يوسف الثانى فأخذت تتزلف اليه وتطريه بغير ما فيه . وهكذا استولت على أفكاره وصار له بها اعتقاد شديد .

وكانت هى التى اقنعته بتقسيم بولونيا ووافقها على ذلك فريدريك ملك بروسية . وهذا

الملك كان يرى أن اوستريا لا يمكنها أن تترك الروسية تستولى على رومانيا فلذلك سعى فى التعويض على الروسية من جهة بولونيا . ولكن كاترينا لم تكن لتنزل عن مطامعها من جهة تركيا وكانت تطالب ببلاد آزوف وتضيق على السلطان العثمانى فى رفع سيادته عن القريم وتحاول الدخول فى الفلاخ والبغدان . وكانت أوستريا تعاكس جميع مشروعات الروسية هذه ولذلك انتهى الأمر بالسماح للروس بأخذ الجانب الأعظم من بولونيا ووجدت أوستريا هذا الأمر أهون عليها من تقدم الروسية صوب الاستانة . وكانت أوستريا لو رأت من الروسية اصراراً على فتح رومانيا مستعدة لمناجزتها الحرب . وأخيراً رضيت الروسية بان تترك تركيا لرومانيا استقلالها التام و يولى على رومانيا أمير من بروسية . وما تم ذلك الا فيما بعد إذ جاء أمير من بروسية وجلس على عرش رومانيا بعد ذلك التاريخ بقرن كامل فأما فى ذلك الزمن فان النزاع بين الروسية واوستريا على رومانيا قضى ببقاء هذه تحت السيادة العثمانية . وكان فريدريك ملك بروسية يختار هذا الرأى خشية أن يجر هذا الخلاف الى حرب بين الروس والنمسويين . ولقد جرى تقسيم بولونيا كما تقدم الكلام فداءً للنزاع على رومانيا الا أن أوستريا بقيت توّاقة الى أخذ رومانيا وخائفة عليها من الروسية

وكان الروس لا يزالون يقترحون اتحاد الدول الثلاث الروسية واوستريا و بروسية لأجل اسقاط تركيا . وكان ناظر الخارجية الروسية يقول ان مسئلة طرد الترك مما وراء نهر « دنيستر » لا تستحق اتحاد ثلاث دول عظام بل اتحاد دول ثلاث كهذه يجب أن يقضى على سلطانهم فى كل أوربة وفى قسم كبير من آسية . الا أن أوستريا كانت تخشى سقوط الدولة العثمانية التام لما وراء ذلك من استفحال أمر السلاف . وقد قال الامبراطور يوسف الثانى للمسيو « دوسوغورّ » Segur ان القسطنطينية ستبقى دائماً محل منافسة بين الدول وتمنع من اقتسام تركيا . وقد كتبت الامبر طورة مارى تيريز الى الكونت « مرسى ارغنتاو » Mercy-Argenteau بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٧٧٧ ما يلى :

« ان اقتسام السلطنة العثمانية لأعظم المشروعات خطراً وأوخمها عواقب . وماذا نستفيد لعمرى لو فتحنا كل هذه البلدان حتى صرنا على أبواب الاستانة ؟ اننا لا نفتح هناك الا أقاليم و بيئة الهواء قليلة السكان متأخرة الثقافة أو مسكونة بأروام خبثاء لئام يكون من شأنهم أن يستنزفوا قوى مملكتنا بدلاً من أن يزيدوها . ثم اننا نخسر بهذا العمل ثقة

الناس بعهودنا وهذا هو الخسران المبين . ان تقاسم السلطنة العثمانية أشد ضرراً من تقسيم بولونيا الذى لم أرض به الا مرغمة حتى أجارى به جيرانى . فأنا لا أميـل أبداً الى تقسيم تركيا وأرجو ان احفادنا أنفسهم لا يرونهم خارجين من أوربة »

قلت : قد مضى على هذا الكلام مائة وخمسون سنة ولا يزال الترك فى الاستانة وفى ولاية تراقيا الشرقية من أوربة

ولما ماتت مارى تيريز سنة ١٧٨٠ خلا الجو لـكاترينا الثانية وأخذت تعمل دسائسها لدى يوسف الثانى لاقناعه بتقسيم تركيا وأرسلت الى فرنسة أيضاً تقترح عليها الممالأة على هذا التقسيم وأن يكون لها مصر من أصل الأسلاب

وفى ٣٠ مايو سـنة ١٧٨٠ تلاقت كاترينا مع يوسف واتفقا على اسقاط تركيا واستلحاق بعض أجزائها واعادة الجمهوريات اليونانيــة القديمة . ثم فى سنة ١٧٨٢ كتبت الى يوسف صورة معاهدة سرية واقترحت أن يكون التقسيم بحيث لا يقع بسببه تصادم بين الممالك الثلاث بل تؤسس مملـكة من الفلاخ والبغدان مستقلة تماما تمنع الاتصال بين الممالك الثلاث التى تخشى تجاورها ويكون ملك هذه المملـكة الجديدة على المذهب المسيحى الأكثر عدداً فى الفلاخ والبغدان

أما الامبراطور يوسف فاستشار فى مذكرة كاترينا وزيره البرنس « كونتيز » Kaunitz الذى أجابه بان قبول اقتراح كاترينا على كل حال أقل ضرراً من رفضه وبانه يخشى أن كاترينا ان يئست من اوستريا تعود فتتفق مع بروسية

فاجاب الامبراطور يوسف كاترينا بكتاب مؤرخ فى ١٣ نوفمبر سـنة ١٧٨٢ مؤدّاه انه لا بد لنجاح مشروع التقسيم من قبول فرنسة وانه من جهة تأسيس مملـكة ارثوذكسية فى رومانيا وأخرى فى القسطنطينية فإن هذا كله يتوقف على نتائج الحركات الحربية . وأما من جهة ما تقترحه النمسا فى هذا التقسيم لنفسها فهو استلحاق قسم من الفلاخ مع ضفتى الدانوب الى بلغراد ومن بلغراد يكون للنمسا على خط مستقيم الى بحر الادرياتيك مع دالماسيا وايستريا وان تـكون حرية التجارة تامة فى نهر الدانوب عنـد مصبه وفى مضيق الدردنيل

ولما بلغ فرنسة هذا المشروع قاومته أشد مقاومة وقالت ان هذا المشروع اشبه بان

يكون اتساع السلطنة الروسية من أن يكون تقسيم السلطنة العثمانية وقال المسيو « ڤرغن » Vergennes للكونت « مرسى ارغنتاو » ما يلى :

« لا يوجد فى اوربة كلها دولة واحدة لا تبذل آخر جندى من جيشها وآخر درهم من مالها فى سبيل منع انهيار السلطنة العثمانية »

أما الامبراطورة كاترينا فاجابت الامبراطور يوسف بانها لا تطلب للروسية من الحقوق فى الدولتين الجديدتين اليونانية والرومانية أكثر مما ترضى به لاوستريا وان حرية الملاحة فى البحرين الاسود والابيض تكون مضمونة . وغاية ما فى الأمر انها تقترح عدم تصغير الدولة اليونانية ووجوب تسليمها الموره والارخبيل

وقد ظهر من هنا أن كاترينا بدأت تتعهد باسم الدولتين الجديدتين كأنهما من الممالك التابعة لها

قلت ان هذا المشروع قد تمّ فيما بعد فتأسست دولة يونانية بعد هذا التاريخ بنصف قرن ودولة رومانية بعده بنحو من قرن كامل . ولكن لم يكن للروسية أن تسيطر ولا على واحدة منهما . هى قد غرست ولكن الثمرة لم تكن لها

ثم ان كاترينا أعادت السعى الحثيث لدى الامبراطور يوسف فى اتمام مشروع تقسيم تركيا وكان الامبراطور لا يزال يتذبذب فى الموضوع نظرا لشدة اعتراض فرنسة على هذا التقسيم . وجاء من فرنسة الى أوستريا مذكرة صريحة بان مشروع تقسيم كهذا شديد الخطر و بليغ الضرر لا سيما بمصلحة اوستريا .

فاجاب عليها الامبراطور يوسف بانه لم يمكن منع الحرب بين الروسية وتركيا ومن أجل ذلك لا يمكنه لاجل سلامة سلطنته فى الوقت الحاضر وفى المستقبل أن يشاهد مجرى الحوادث من بعيد

فعند ذلك قدم « برتيليمى » سفير فرنسة فى ڤينا مذكرة شديدة للنمسا ينتقد فيها خطتها و يقول : « انه بينما الاتراك يحافظون على عهودهم معها اذا هى تنتهز فرصة ضعفهم وتحاول أن تضربهم ضربة قاضية لتقتسم ميراثهم الخ » وفى آخر المذكرة شئ من التهديد مما ساء وقعه جداً على الحكومة النمسوية واوجب توتّر العلاقات بينها و بين فرنسة

وفى ٨ يناير سنة ١٧٨٤ اضطر الباب العالى أن يعقد مع الروسية معاهدة يتخلّى

بها لها عن شبه جزيرة القريم

ثم حدثت ثورات فى بلاد المجر وترانسيلفانيا حالت دون استيلاء الامبراطور يوسف على قسم من الفلاخ . وأشقّ من هذا كان عليه خروج بلجيكا من يده . فمات من بعد هذه الحوادث غمًّا وتوقف كل شئ

ثم المشروع السابع والخمسون المنسوب الى «لنغه» Linguet وتاريخه ١٧٧٤ الى ١٧٧٦

كان « لنغه » هذا محامياً صحفياً افرنسياً خدم الامبراطور يوسف عاهل النمسا و بعد أن أقام زمناً فى أوستريا وقعت وحشة بينه و بين الامبراطور ففارقه وعاد الى باريز وهناك قتله رجال الثورة الفرنسوية بحجة أنه كان مؤيداً للملوك الظالمين كامبراطور أوستريا وملك انكلترة . وقد حرّر « لنغه » هذا المشروع أيام اقامته ببروكسل سنة ١٧٧٥ أو ١٧٧٦ وقدمه الى الخارجية الافرنسية وقد بقيت منه نسخة غير مطبوعة فى المكتبة الملوكية ببروكسل . وكان « لنغه » كاتباً شهيراً قال عنه ڤولتير « انه يحترق لكنه فى أثناء حريقه يضئ » .

وقد سمى « لنغه » مشروعه « طرد الترك من أوربة وتأسيس توازن سياسى جديد » فقال فيه انه لا خطر على أوربة الا من غارة تركية أو روسية . وقال كلاماً آخر عميق الغور وهو أنه اذا اقتضت السلم العامة اقتطاع نصف تركيا صار الأتراك أشد خطراً من ذى قبل بشدة تمرسهم بالقتال

وقال ان حصن أوربة من جهة الشرق كان بولونيا وهاهى قد سقطت . ولقد بقيت ألمانيا هى الحصن الحصين لاوربا من غارات الترك ولا شك أن ألمانيا قد أنقذت أوربة من عادية الترك مراراً الا أن الامبراطورية الجرمانية تشتمل على عناصر متعددة هى سبب كبير فى ضعفها . فما ذا تستفيد اوستريا من هولاندة مثلاً ؟

ثم أخذ « لنغه » يذكر أمراض أوربة السياسية ويعددها . وأشار بتوسيع اوستريا من جهة تركيا . وقال ان الروسية لا تقدر أن تمنع تدخل أوربة فى هذه المسألة . واجمال كلامه هو أن بروسية هى معقل أوربة من جهة الروس وان أوستريا هى معقل أوربة من جهة الترك وانه يجب التعويض على فرنسة لأجل التوازن الدولى باضافة هولاندة اليها

ثم المشروع الثامن والخمسون وهو مشروع «دوكارا» De carra وتاريخه سنة ١٧٧٧

كان «دوكارا» هذا ناموساً لأمير البغدان ثم للكردنيال «دو روهان» De Rohan ثم صار قيماً لخزانة كتب الملك فى باريز ولما ثارت الثورة الفرنسوية دخل فى زمرة الجاكوبيين Jacobins ثم انحاز الى الجيرونديين Jirondins ثم قتله رجال الثورة . وله تصنيف اسمه «بحث سياسى يتضمن اقتراح تقسيم تركيا» بدأ فيه بقوله «ان تركيا أصبحت بحالة يمكن فيها الفيلسوف نفسه ان يشير بفتحها » ثم ذكر اتفاق الروسية واوستريا على تركيا وتقدم اوستريا فى رومانيا وتقدم الروسية فى القريم وكرجستان و بلاد التتر والصين . وقال انه يجب تقوية بروسية لتكون حاجزا منيعاً بين الروسية والنمسا وكذلك تنبغى الموازنة بين قوى النمسا والروسية وبروسية وفرنسة . ثم قال : ان الأتراك هم الاعداء الطبيعيون الابديون للمسيحيين كما أنهم هم أعداء العلوم والصناعات فيجب طردهم من أوربة

أما كيفية التقسيم فان « كارا» يشير باعطاء اوستريا الفلاخ و بلاد البلغار والصرب و بوسنه وباعطاء بروسية بلاد البغدان و بسارابيا الى البحر الأسود مع قسم من بولونيا والروسية وباعطاء فرنسة المورة واقريطش وقبرص وجزر الارخبيل وباعطاء القريم وازوف للروسية . واما القسطنطينية وسائر تركيا فيجب أن تكون لجمهورية البندقية الا انه يكون أربعة مجالس فى القسطنطينية كل منها مؤلف من ١٢ عضواً مجلس للاستريين وآخر للفرنسيس وآخر للروس وآخر للبروسيين وأما اسبانيا فلها ان تفتتح مراكش والجزائر وتونس . ثم يذكر كارا كيفية هجوم الجيوش المتحالفة لفتح تركيا مما يشبه البرامج التى سبقت فلا لزوم لشرحه

ثم المشروع التاسع والخمسون ولم يعرف اسم صاحبه وتاريخه سنة ١٧٨٨

وهذا المشروع تضمنته رسالة اسمها « خيال سياسى لتقسيم جانب من السلطنة العثمانية »

وقد ذكر هذا الكاتب المجهول انه يجب اخراج الترك من أوربة والاناضول وسورية وفلسطين وجميع شواطئ البحر المتوسط

وانه يجب تأسيس مملكة مؤلفة من تركية أوربة الى حد بوسنة ومعها سواحل الاناضول الى مايقابل رودس وتكون هذه المملكة لفرنسه

ثم تأسيس مملكة مؤلفة من الاناضول وارمينية وكرجستان تعطى للروسية

ثم تأسيس مملكة مؤلفة من بولونيا وكورلندة والبوجاق يحون عليها دوق توسكانا ويكون لفرنسة أيضا مصر وللامبراطور الفلاخ والبغدان وللروسية القريم والقوبان ثم تتأسس مملكة مؤلفة من سورية وفلسطين يكون صاحبها الدون فيليب الاسبانى . وتتأسس مملكة لاسبانية أيضاً فى مراكش . وتنقسم ايالات الجزائر وتونس وطرابلس بين اسبانية وصردانية ومودينا (امارة فى ايطالية)

وتكون حرية البحار مضمونة للجميع وكذلك حرية المرور بالبواغيز مثل البوسفور والدردنيل وجبل طارق

وان اتفقت الروسية واوستريا لتمنعا فرنسا من الاستيلاء على الاستانة وتوابعها يجب أن تتحالف فرنسة مع بروسية والسويد والدانمرك وممالك الشمال ويأخذن بيد بولونيا ويضفن اليها الفلاخ والبغدان وباسارابيا

ثم المشروع الستون وهو مشروع « ڤولناى » Volney وتاريخه سنة ١٧٨٦ فالكاتب الافرنسى الشهير ڤولناى أعلن تأييده للسياسة الروسية السلاڤية فى رسالة نشرها تحت عنوان «اعتبارات فى الحرب الواقعة مع الاتراك »

وكان الروس قد أعلنوا الحرب على الترك وحبس الباب العالى سفير الروسية فى الاستانة ثم انضمت اوستريا الى الروسية وأعلنت الحرب أيضا على تركيا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٧٨٨

فبدأ ڤولناى بذكر الممالك التى افتتحها الترك فى أقل من اربعمائة سنة وقال انهم أحسنوا فتح أجل بلدان العالم وأعظمها . الا انه من نحو مائة سنة ظهرت دولة اسمها الروسية كانت قبل هذا التاريخ مجهولة فتقدمت بسرعة مدهشة وأصبح المستقبل لها . وسواء كان فى العالم المادى أو فى العالم الأدبى اذا بدأ الجسم يتحرك كان استمرار حركته بقدر جسامته

ثم قال ڤولناى : ان تركيا يجب أن تنقرض [١] وانه كما أمكن الاتفاق على تقسيم بولونيا بين حكومتى ڤينا و بطرسبورغ يمكن اتفاقهما على تقسيم تركيا [٢] ولقد أشار

---

(١) مضى على كلام الفيلسوف ڤولناى هذا مائة وأربع وأربعون سنة ولم تنقرض تركيا ولم تزل هى صاحبة القسطنطينية والاناضول . وما أصدق تلك الجملة : «الانسان يدبر والقضاء يضحك»

(٢) وهنا أيضا ضحك القضاء من الفيلسوف ڤولناى فقد نشر الله بولونيا من قبرها بينما الروسية جمهورية شيوعية واوستريا سلطنة فى الغابرين لم يبق منها الا الجزء الثامن مما كانت

ڤولناى عـلى فرنسة وطنه بالاتفاق مع الروسية وجعلها الحليف الطبيعى لها [١] و بعـدم معارضتها فى نزع القسطنطيينة من يد تركيا : اما تاج القسطنطية فيشير ڤولناى باعطائه الى امـبراطور يونانى وان يكون له الموره والارخبيل وان يكون المرور بالبوسفور حراً . واما اوستريا فتعطى البانيا و بوسنه وسواحل الادرياتيك كما انه يجب ان يؤول الى الروسية بلاد الفلاخ والبغدان والبلغار

وذكر ڤولناى أن الآراء مقسمة فى فرنسة فيما يجب أن تعتاض به فرنسـة على افتراض سقوط تركيا . فبعضهم أشار بأخذ المورة واقريطش وقبرص . وآخرون مالوا الى فتح مصر . وڤولناى لا يرى فى المورة والجزر طائلا كما أنه يخشى اذا تعرضت فرنسة لمصر أن تقع فى حرب مع تركيا وانـكاترة والمصريين [٢] وكان من رأيه أن تتجرد فرنسة وقتئذٍ لاصلاح أمورها الداخلية وتـكتفى بذلك

ومما أصاب به ڤولناى قوله ان مهاجمة هذه الدول لتركيا سيفيد تركيا والشرق ويبعث يقظة عنـد الشرقيين . وقال ان شعوب تركيا أعظم استعداداً فى كثير من الأمور من الشعوب الأوربية لا سيما أهل الشمال منها . قلنا ومما لا مشاحة فيه ان أهل الأقطار الشمالية من أوربة يغلب عليهم شيء من البلادة لـكن هذا الجنس من البشر يمتاز بالثبات والجـد فى العمل وهكذا أصبح فى هذا العصر أرقى الاجناس وأكملها مدنية برغم بلادته

ولقد رد على ڤولناى رجل يقال له «شارل دو بيسونل» Charles De Peyssonnel كان قنصلا لفرنسة فى ازمير ونشر رسالة قاوم فيها السياسة الروسية مقاومة شديدة وسفه رأى ڤولناى وأظهر تناقض أقواله اذ بينما هو يظهر الخوف من تبسط دول مفرطة الاتساع يشير بزيادة تـكبير الروسية فوق ماهى عليه . ثم قال هذا الرجل ان انـكلترة ستقاوم توسُّع دول كبيرة الى هذا الحد لأن وجودها يوقع خللا بالتوازن الدولى . وان فرنسة يصيبها من ذلك خسار كبير ان رضيت به

ومن أهم ما لحظه « بسيونل » هو انه ان تقدمت الروسية صوب البلدان العثمانية

---

(١) اما هذا فقد حققته الايام من بعد مائة سنة من كلام ڤولناى

(٢) فى هـذه صح كلام هذا الفيلسوف لأن كل هـذا حصل في زمن نابليون بعد كلام ڤولناي ببضع عشرة سنة

ودخلت هذه فى حوزتها جاء وقت تأسف فيه المسيحيون الذين فى هذه البلدان على الحرية التى يتمتعون بها فى ظل الترك وذلك بما سيقاسونه من فظائع الاستعباد الروسى الذى يعرفه جميع الشعوب التى دخلت تحت حكم الروسية

وأخذ « بسيونل » يذكر التوحش الذى كان لا يزال عليه الشعب الروسى وكيف ان أكثره ارقّاء للامراء وكيف ان بلادهم أكثرها غابات أشبة تسكنها الوحوش الضارية وخاطب قولناى قائلاً : « أمن مثل هؤلاء تنتظر الخير » ؟

ثم أخذ بسيونل يصف المسامحات العظيمة الخارقة للعادة التى يتمتع بها المسيحيون فى ظل سلاطين آل عثمان ويذكر الامتيازات المعطاة للأجانب مما لا يمكن أن تعطيه دولة أخرى وقال : «ان جميع ما فى تركيا من الأوضاع يهيئها لتكون سلطنة عظيمة وانما هى محتاجة الى رجل عظيم ينفذ ذلك». وختم بسيونل كلامه بما ستتعرض له فرنسة من الخطر اذا سمحت للروسية واوستريا بتقاسيم أملاك تركيا

ثم المشروع الواحد والستون وصاحبه « دوبريون دولاتور » De Brion De la Tour وتاريخه ١٧٨٨

وهذا الرجل قد رد أيضاً على قولناى واتهمه بالضلع مع الروسية . وحرر هو مشروعا خاصاً به سماه « اقتسام جلد الدب » أو « رسالة الى صاحب حلم تقسيم السلطنة العثمانيه »

وقد بدأ « دولاتور » هذه الرسالة باثبات ان الأتراك لم يكونوا معتدين وان سلطنة الروسية أصبحت واسعة جداً وانه ليس يكون اصلاحا لحال المسيحيين الذين تحت حكم تركيا ادخالهم تحت حكم الروسية

وقال انه لا يمكن تقسيم سلطنة عظيمة كالسلطنة العثمانية بدون حروب ومنازعات لا سيما بين الروسية واوستريا

غير ان «دولاتور» أشار بمعالجة المرض باحداث أربع ممالك الأولى القسطنطينية مع تركية أوربة الى بوسنة ومصب الطونة ومعها سواحل الاناضول وقسم من الارخبيل وهذه يتبوأ عرشها أمير افرنسى . الثانية الأناضول والقوقاس ويكون عليها الامير قسطنطين ابن أخى كاترينا امبراطورة الروسية . والثالثة بولونيا وكورلاندة و بسارابيا و يكون عليها

دوق توسكانا ابن أخى الامبراطور يوسف الثانى . والرابعة سورية وفلسطين ويتولاها دوق پارم

ثم يحدث ممالك فى شمالى افريقية تكون منها مصر ومراكش تحت سيطرة فرنسة أما الفلاخ والبغدان أى رومانيا فتكون لاوستريا

وقد حدث يومئذ ان انكلترة أرادت التقرب من كاترينا امبراطورة الروسية واقترحت عليها تقاسم النفوذ فى شرقى أوربة والشرق الاقصى فامتنعت كاترينا من اجابة اقتراحها . فعادت انكلترة واتفقت مع بروسية بموجب معاهدة ١٣ أغسطس سنة ١٧٨٨ وقررتا أن تكونا يداً واحدة فى أمور الشرق . ثم أخذت انكلترة تدافع من ذلك الوقت عن وجود تركيا توقيفاً لامتداد الروسية. وقد استفادت تركيا مدة طويلة من هذه السياسة

ثم المشروع الثانى والستون وهو مشروع « هرتزبرغ » Hertzberg وتاريخه سنة ١٧٩٢

وكان هذا الرجل ألمانيًّا من « بومرانيا » وكان من العلماء والمؤلفين وتقلد نظارة الخارجية البروسية لعهد فريدريك الكبير ثم لعهد فريدريك ويلهلم الثانى وصار له الحول والطول وفى أيامه صارت برلين مركز السياسة فى أوربة

وكانت خلاصة اقتراح هرتزبرغ أن تأخذ الروسية سواحل البحر الاسود الى مصب الطونه وأن تأخذ اوستريا الفلاخ والبغدان وترد فى مقابلة ذلك غاليسيا للبولونيين وهؤلاء يتخلون عن « تورن » و «دانتزيغ» لبروسية

وكان هرتزبرغ قد كتب الى سفير بروسية فى الاستانة فى ٣ ابريل سنة ١٧٨٨ قائلا له : «اذا كان الباب العالى سيضطر للنزول عن احدى ولاياته فليعمل ذلك بواسطة بروسية ليمكن هذه أن تنال عوضاً من جهة أخرى فان لم يفعل اضطرت بروسية الى التحالف مع الامبراطوريتين والدخول فى الحرب معه»

الا أن الأتراك كانوا فى أول هذه الحرب غالبين فلم يرعهم هذا الانذار واشترطوا على هوتزبرغ لقبول اقتراحه أن يعلن الحرب على النمسا . وفى ٣٠ يناير سنة ١٧٩٠ انعقدت معاهدة الصلح على أن تعود الى تركيا جميع الولايات التى كانت خسرتها ومن جملتها القريم

فخاب أمل هرتز برغ من جهة استلحاق بلدان كان يرجو الاستيلاء عليها بواسطة هذه الحرب . وكان الامبراطور يوسف الثانى أشد الناس معارضة لتبسُّط بروسية وكتب فى ٧ يناير سنة ١٧٨٨ الى « مرسى ارغنتاو » يقول له : « لا أقدر أن أرى فى ملك بروسية الا عدواً لبيتى ولا أرى فى كل زيادة يزدادها الا نقصاً من قوتى »

أما فرنسة فقد كانت استحسنت عدم توسيع بروسية من أملاك بولونيا واتفقت فى هذه المسئلة مع الروسية . ولم ينفذ شئ من مشروع هرتز برغ هذا

ثم المشروع الثالث والستون وهو مشروع « تاليران » Talleyrand وتاريخه ١٨٠٥

كان تاليران أشهر من أن يعرَّف ولد فى باريز فى ١٣ فبراير سنة ١٧٥٤ ومات فيها فى ١٧ مايو سنة ١٨٣٨ وكان ناظراً للخارجية الافرنسية مدة طويلة فى أيام نابليون الاول ولويس الثامن عشر . وهو من نوابغ الدهر فى السياسة يضرب به المثل . وقد كثر فى زمان تاليران التحدث بتقسيم السلطنة العثمانية أكثر من ذى قبل لان عصر نابليون كان عصر حروب وانقلابات وثلّ عروش وهدم ممالك وتأسيس ممالك فلا عجب أن يكون تقسيم هذه السلطنة أصبح محور الكلام . قال « ڤندال » : « لم يكن فى ذلك الدور رجل سياسة الا وعنده برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية هو محتفظ به لوقت الحاجة »

أما تاليران فلم تكن سياسته ترمى الى غرض الاتحاد مع الروسية بل كان يرى تقوية العنصر السلاڤى خطراً ويحب أن يعزز اوستريا فى وجه السلاڤ . ولتاليران تقرير حرره فى ستراسبورغ فى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠٥ وقدمه لنابليون ومآله الاتفاق مع اوستريا دون بروسية كما أنه يفصل مصالح اوستريا عن مصالح انكلترة ويحاول توجيه الجيع الى مقاومة الروسية . وقاعدة تاليران السياسية فى الشرق كانت هى أن الترك صاروا الآن لا تخشى غائلتهم بل صاروا هم يخشون غوائل الآخرين وقد قام مقامهم الروس وصاروا خطرا على أوربة . وليس لاوربة الآن فى وجه الروس حصن أمنع من النمسا فيجب تقويتها لتثبت امام الروسية .

وكان تاليران يريد اعطاء الفلاخ والبغدان و بسارابيا وشمالى بلغاريا للنمسا منعا لامتداد الروسية الى الجهة الاوربية . وكان يقول لبونابرت : « بعد أن تهزم جيوش النمسا فى معركة فاصلة يكون من باب الجزم أن تقول للنمسا : احتلّى الفلاخ والبغدان و بسارابيا

وأنا أحمل الباب العالى على تخليتها لك . وان عارض الروس فى ذلك كنت معك عليهم . وهكذا تعقد مع النمسا أمتن صلح بعد أن تكون أحرزت عليها أبهر نصر »

وكان تاليران قاطعاً الأمل من نهضة تركيا ذاهباً الى أن اقتطاع كثير من ولاياتها يزيدها قوة ولا يُضعفها كما يُظن وانه يمكن اعطاء هذه الولايات الدانوبية لامبراطورية أوستريا وعقد معاهدة بينها و بين الباب العالى تتعهد بها هذه الامبراطورية بالمحافظة على سلامة السلطنة العثمانية . ولكنه كان يريدان يقتطع من أوستريا بعض مقاطعات من جهة ايطالية بمقابلة ما كان يقترحه من اضافة الفلاخ والبغدان و بسارابيا الى أوستريا

وقد كان رأى تاليران هذا من الصواب بمكان . ولكنه لم يكن ضروريا اعطاء رومانيا و بلغاريا لامبراطورية النمسا من أجل وضع هذه فى وجه الروسية فان المناظرة بين هاتين الدولتين كانت واقعة لا محالة بهذا وعدمه

على أن الامبراطور نابليون رد اقتراح تاليران ومال الى التحالف مع الروسية كما سترى

ثم المشروع الرابع والستون وهو مشروع نابليون الأول واسكندر الأول وتاريخه سنة ١٨٠٨

قال نابليون فى منفاه بجزيرة القديسة هيلانة : « تذاكرت مراراً مع الروس فى أمر قسمة السلطنة العثمانية وكان ذلك ممكناً لولا القسطنطينية التى كانت دائماً سببا لمنع الاتفاق فقد كان الروس يريدونها وأنا لم أكن أرضى باستيلائهم عليها فان القسطنطينية وحدها مملكة ومن ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا »

وقال نابليون مرة أخرى « القسطنطينية مفتاح العالم »

الا انه فى قضية السلطنة العثمانية لم يكن على رأى ثابت فتارة كان يميل الى مجاراة الروسية فى فصم عراها وطوراً كان يأبى ذلك كل الاباء . وقد كتب الى سباستيانى سنة ١٨٠٦ بخط يده : « انى لاأريد أبداً تقسيم السلطنة العثمانية ولو أخرجونى بثلاثة أرباعها انى لاأرضى بذلك أصلا . وكل ماأريده انما هو تقوية هذه السلطنة فى وجه الروسية »

ولكن نابليون كان سنة ١٧٩٧ كتب الى الحكومة المركزية يقول : « اننا من جزر اليونان ومالطة الخ يمكننا أن نراقب أحوال السلطنة العثمانية حتى اذا انهارت كان لنا

نصيب منها »

وقد كانت علاقات نابليون مع اسكندر الأول قيصر الروسية بادئ ذى بدء غير متينة بل كانت أقرب الى التراخى . وكان جماعة اسكندر مثل الكونت « كوتشوبى » و « نوڤوسيلتزوف » و « كزارتوريسكى » و « ستروغونوف » أعضاء جمعية الخلاص أضداد سياسة الاتفاق مع فرنسة وأنصاراً لسياسة الاتفاق مع انكلترة . الا أن نابليون كان يتزلف الى اسكندر وقال لسفيره ماركوف سنة ١٨٠٢ « الا يوجد فى أمراء الأسرة المالكة فى الروسية من يرث عرش القسطنطينية »

ولما توج نابليون امبراطوراً على فرنسة حصل تحالف دولى عليها مؤلف من الروسية والسويد وانكلترة والنمسا وبروسية وتركيا ونابولى واقترح تاليران على نابليون عقد اتفاق مع النمسا الا أن نابليون بقى يؤثر سياسة التقرب الى الروسية وقال للبرنس « دولغوروكى » Dolgorouki : « لماذا يحاربنى الامبراطور اسكندر ؟ ماذا يريد منى ؟ ماعليه الا أن يوسع حدود مملكته من جهة ممالك جيرانه لاسيما الترك وحينئذ يرى أن ليس بيننا و بينه خلاف »

ولما انتصر نابليون فى وقعة « اوسترليتز » الشهيرة (٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥) عقد اتفاقاً مع بروسية تقررت فيه سلامة أملاك السلطنة العثمانية .

وأغرى نابليون الترك بمحاربة الروس فآذنوهم بحربهم فى ٢٧ ديسمبر سنة١٨٠٦ وهزموهم و بعد ذلك رضى الامبراطور اسكندر بتدخل فرنسة فى الصلح بين الروسية وتركيا

وكتب نابليون من ڤارشوڤا الى مجلس السنات فى ٧ فبراير سنة ١٨٠٧ يقول لهم : « إذا سقطت مملكة القسطنطينية لم يمكن أحداً أن يعرف مايتبع ذلك من المصائب والحروب . . . وان ارتفع تاج هذه البلدة على رأس يملك من البلطيك الى البحر المتوسط لم يبعد أن نجد أقواماً من البرابرة هاجين على فرنسة من جهة البحر » يعنى بذلك الروس

غير ان نابليون برغم هذه العبارات لو علم أنه يخرج بشقص يرضيه من انقاض السلطنة العثمانية لما كان يأبى الموافقة على قسمتها

وكتب تاليران فى ٢٧ يناير سنة ١٨٠٧ الى سفير فرنسة فى ڤينا يقول له ان عقدة

العقد كلها هى تركيا وانه من الواجب المحافظة على وجودها الى أن نرى أمكان حفظها بأجمعها مستحيلا فيجب حينئذ الاتفاق بين النمسا وفرنسا على قضية تقسيم انقاضها

ثم انه بعد معركة « فريدلاند » وغلبة نابليون على الجميع تلاقى مع اسكندر فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٧ فى نهر « نيمون » بقرب « تيلسيت » وحضر الاجتماع فريد ريك ويلهلم ملك بروسية ومعه وزير خارجيته البرنس « دوهاردنبرغ » فكانت بروسية هى التى اقترحت تقسيم تركيا وذلك على ان الروسية تأخذ قسما من الفلاخ والبغدان و بلغاريا والروملى مع البواغيز واوستريا تأخذ دالماسيا و بوسنه وصربيا وفرنسة تأخذ بلاد اليونان والجزر وان بولونيا تصير تحت تاج ملك الساكس ومملكةالساكس تؤول الى بروسية

وقدرضى نابليون وقتئذ بصيرورة رومانيا و بلغاريا الى الروسية الاانه أراد توسيع حصة فرنسة باضافة البانيا أو بوسنة الى بلاد اليونان التى ستكون لفرنسة . وفى ٧ يوليو سنة ١٨٠٧ انعقدت ثلاث معاهدات وتقرر خروج العساكر الروسية من رومانيا الا ان نابليون قال لاسكندر الأول انه لاينبغى له أن يكترث لهذه المسئلة واتفق معه على مقاسمة سرية هذا نصها :

« ان كان الباب العالى لم يقبل وساطة فرنسة أو قبلها ومضت ثلاثة أشهر على المفاوضات ولم تأت بنتيجة حسنة تتفق فرنسة مع الروسيــة وتخلصان من يد تركيا جميع ولاياتها الأوربية مستثنى من ذلك الاستانة وولاية الروملى [1]

وفى أثناء ذلك مات السلطان سليم الثالث حليف نابليون فقال هذا لامبراطور الروسية : « هذا ايذان لىمن الله بأنى صرت فى حِلّ من معاهدتى مع تركيا التى أصبحت لاتقدر على البقاء » وأرسل تهديداً بواسطة ناظر الخارجية الى الباب العالى فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٠٧ مآله انه ان كانت تركيا صالحت انكلترة وانفصلت عن فرنسة فقد بحثت عن حتفها بظلفها ويعود الامبراطور (أى نابليون) ويقبل التقسيم الذى عُرض عليه فى تيلسيت وتنتهى حياة تركيا

وأرسل اسكندر الاول الى الكونت « تولستوى » سفيره فى باريز يطلب بسارابيا والفلاخ والبغدان وقلاع بندر واكرمان وكيليا واسماعيل وهوتين وساحلا من الساحل

(١) هذا قريب مما هى الحالة اليوم

الشرقى من البحر الأسود وان تؤسس امارة لصربيا ونقل « ساڤارى » سفير فرنسة فى بطرسبرج عن اسكندر الأول انه قال له :

« ان الامبراطور قد بدأ يعرف ان بقاء الترك فى أوربة مستحيل وانه ان كان لابد من سقوط سلطنتهم فى أوربة فالروسية يجب أن ترث قسما منها . وهذا ما فهمته منه فى أثناء كلامى معه فانا ماذكره الا بوعده »

ثم ان سفير الخارجية الروسية «رومیانتزوف» قال لساڤارى سفير فرنسة «ان السرعة فى العمل أصبحت متحتّمة ويجوز ان تسقط السلطنة العثمانية من نفسها بدون هزاهز فنوجد بازاء انقاضها شئنا أم أبينا »

وكان نابليون لايزال متردداً فى الموضوع خائفا من أنه اذا اسقطت السلطنة العثمانية تقوى الروسية كثيراً وتستفيد انكلترة من تلك الفرصة فتستولى على مصر

وكان يجتهد فى اقناع الروسية بعدم التهافت على هذا المشروع وكتب مرة الى الجنرال « كولنكوره » Colaincourt الذى خلف « ساڤارى » فى سفارة فرنسة فى بطرسبورج يقول له :«ان مراده بقاء السلطنة العثمانية كما هى وان تكون عائشة فى سلام مع الروسية وفرنسة ويكون للترك القلاع التى على الدانوب مثل اسماعيل . ولكن ان كانوا فى بطرسبرج مستعجلين كثيراً فى هذا المشروع فانه لايعاكسهم فيه غير أنه يؤثر ان تقع قسمة السلطنة العثمانية بين الروسية وفرنسة لاغير وذلك بموجب اتفاق من قبل »

ثم ان نابليون كان يبعث الى القيصر اسكندر بأنه هو لا يخلى البلاد التى يحتلّها من بروسية الا اذا اخلت الروسية الفلاخ والبغدان

وكان نابليون يقترح على قيصر الروسية ثلاثة وجوه أحدها أن يخلى الروس الفلاخ والبغدان و بمقابلة ذلك يخلى الفرنسيس مااحتلّوه من أراضى بروسية . الثانى أن يأخذ الروس هذه الويالات الرومانية وتأخذ فرنسة فى مقابلتها ولاية سيليزيا من بروسية الثالث أن يجرى تقاسم السلطنة العثمانية على وجه تعرف فيه فرنسة من قبل ماذا سيخرج فى نصيبها ؟

اما اسكندر الأول فكان لايسمح لنابليون بتمزيق بروسية . وكان يبعث الى نابليون بأنه ان كان أخذ الروسية للفلاخ والبغدان يستلزم ان يكون العوض عنه من ملك بروسية فانه يقلع عنه ولا يرضى بمبادلة كهذه ولو كان البدل هو سلطنة آل عثمان كلها

وكان اسكندر الأول يعرض على نابليون بمقابلة سليزيا ولايات عثمانية مثل الموره والبانيا ولكن نابليون كان متمسكاً بسيليزيا . وكان معظم سبب خوف اسكندر من بقاء الفرنسيس فى سيليزيا انه يتقى جوارهم للروسية وأرسل الى نابليون قائلاً له : «انت قلت لى ان تجاور الدول الكبرى غير مستحب لأنه يؤدى الى النزاع»

وكان نابليون يوصى سفرآءه فى بطرسبوج بأن لا يقطعوا أمل الروس من تقسيم سلطنة آل عثمان لكن يجتهدوا ان يعلموا ماذا سيكون نصيب فرنسة من هذه القسمة

وأخيراً أرسل الى الروس يقول لهم انه يؤثر تأخير هذا المشروع الى مابعد صلحه مع الانكليز أو الى مابعد نزعه من أيديهم السيادة على البحر المتوسط لأنه ان وقع هذا التقسيم وهم على ماهم عليه من سيادة هذا البحر كانوا هم المستأثرين بانفس اسلاب السلطنة العثمانية

وقد أشار نابليون الى هذا المعنى فى كتاب شهير حرره الى القيصر اسكندر فى ٢ فبراير سنة ١٨٠٨ يعرض عليه اقتسام سلطنة آل عثمان وهدم دولة الانكليز فى الهند ويقول له انه يحسن إغزاء جيش مؤلف من ٥٠ ألف جندى افرنسى وروسى ونمسوى يزحف الى القسطنطينية فيأخذها ويتقدم صوب الفرات فهو لايصل الى هناك حتى ترجف انكلترة خوفا فترضى بالصلح . وطلب نابليون من اسكندر المواجهة لعقد هذا التدبير

ولكن اسكندر كان يأبى الا حمل نابليون على اخلاء سيليزيا . وكان يقول ان فى يد فرنسة بلداناً مثل « هانوفر » و « البرتغال » و « اترور يا » (من ايطالية) هى كافية للتعويض من الفلاخ والبغدان اللتين يقدر اسكندر أن ينتزعهما من تركيا بدون رضى نابليون اذا شاء

وقيل ان نابليون رضى احدى المرار بأن يعطى استانبول للروسية زاعماً انه يبعدها الى آسية . ولكن هذا لاينطبق على تصريحاته المتعددة بشأن أهمية الاستانة . وذهب المسيو «ڤندال» الى أنه ان كان ثبت ان نابليون رضى باستيلاء الروسية على القسطنطينية فيكون على شرط ان لايكون لها الا البلدة ومضيق البوسفور فقط وان يكون مضيق الدردنيل بيد فرنسة

وفى سنة ١٨٠٨ كان هناك برنامجان أحدهما فرنسوى والآخر روسى . فالبرنامج الفرنسوى كان يعطى فرنسة جميع سواحل الادرياتيك واليونان الى سلانيك مع هذه

البلدة . أما الروسى فكان يعطى الروسية الامارات الرومانية وقسما من صربيا الى نهر المريج الى البحر الرومى مع ساحل مرمرة الأوربى مع القسطنطينية و بعض سواحلها الأسيوية . و يبقى للترك ساحل مرمره الآسيوى . واما اوستريا فيكون لها الأراضى الواقعة بين حصتى فرنسة والروسية بحيث هاتان الحصتان لاتتماسّان . ويكون لفرنسة الخيار فى تحديد حدود حصتها مع اوستريا سواء كان فى بوسنة او مكدونية او كرواسية . ثم يؤول الى فرنسة عدا سلانيك و بلاد اليونان والبانيا جزائر الارخبيل ومصر وسورية والسواحل الغربية من الاناضول (بر القرمان

وبرغم هذا كله بقى نابليون يضن على الروسية ببلدة القسطنطينية والدردنيل الى أن رضى اسكندر الأول بجعل القسطنطينية مدينة حرّة . وهى فكرة طالما اقترحها الصحفيون فى القرن التاسع عشر

قال «دجوڤارا» الرومانى صاحب كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا » : «تأمل فى القسطنطينية مدينة حرة محاطة من كل جانب بمملكة عظيمة تعمل للسيادة على الشرق باسره »

ثم قال : «ان الروسية لم تفتأ فى كل فرصة تعمل للوصول الى القسطنطينية وقد جرى محاورة بين ناظر الخارجية الروسية رومانيتزوف وسفير فرنسة كالنكور قال فيها الناظر ما يلى ملخصاً : —

« كانت فرنسة تتوق دائماً الى الاستيلاء على مصر وفى أيام كاترينا الثانية سمحت لنا بأخذ القسطنطينية على شريطة أن نسمح لها بأخذ مصر . وفى الملاقاة التى جرت بتيلسيت تقرر أن نأخذ نحن الفلاخ والبغدان و بلغاريا وتأخذ فرنسة البانيا واقريطش . وأما اوستريا فلم تعمل شيئاً لتأخذ مكافأة . ولكننا نرى أن لا بأس بالاستعانة بها فلتأخذ كرواسيا أو فليجلس ارشيدوق نمسوى على كرسى امارة الصرب . اننا نحن لانبغى الاستانة الا بمقتضى جغرافية البحر الاسود الذى هو بحرنا »

وفى مجلس آخر وقع بين هذا الناظر وهذا السفير كلام فقال الناظر للسفير : «يمكن فرنسة أن تأخذ عدا البانيا والمورة والارخبيل مصر وسورية . أما نحن فلا نبغى الا الفلاخ والبغدان و بلغاريا وصربيا . وأما اوستريا فتأخذ كرواسيا وقسما من بوسنه »

فقال له السفير : «أرى حصتكم ازدادت عما كانت فى مجلسنا الأول فاذا كان هذا هو المنهج فانى أراكم آكلين كل شئ» . فقال الناظر الروسى : «لنتكلم عن القسطنطينية انه ان كان لا مناص من تقسيم تام لتركيا فهذه المدينة مع مضيقى البوسفور والدردنيل يجب أن تكون لنا . وتكون الصرب يومئذ لاوستريا مع الروملى وقسم من مكدونية لتفصل بيننا و بينكم . وأنتم الفرنسيس يبقى لكم قسم من مكدونية وقسم من الروملى ومعهما مصر وسورية» . فقال السفير : «ان هذه القسمة لضيزى والقسطنطينية وحدها أحسن من كل ما تعرضونه فى أوربة وأنا لا أرى سهلا فتح القسطنطينية لكن لنفرضه ممكنا فلا أرى موافقا أن يكون الدردنيل فى يد الدولة التى تملك الاستانة» . فقال الناظر : «لمن يكون الدردنيل اذاً» ؟ فقال السفير : «يكون لفرنسة» . فقال الناظر : «اذا كنتم تأبون الا الدردنيل فيجب أن تكون صربيا لنا» . فقال السفير : «وماذا تبقون لاوستريا ؟ ان الجغرافية تأبى أن تجعل صربيا لكم »

وأما اسكندر الأول فلم يكن يرضى باعطاء الدردنيل الى فرنسة وقال لكولنكور : «أنا لاأريد أن أصير الى جوار أصعب علىَّ من مجاورة الترك . فالروسية تريد القسطنطينية مع الدردنيل »

وكتب كولنكور الى نابليون فى ١٦ مارس سنة ١٨٠٨ يقول له : «لنفرض انك ضممت ايطالية واسبانية الى فرنسة وقلبت الدول واشترطت معاونة الاسطول الروسى فى البحر الاسود وقسم من الجيش البرى فى فتح مصر ونلت جميع التأمينات اللازمة وعملت جميع ماتشاء من المعاوضات مع اوستريا فان الروسية اذا صارت الى يدها الاستانة والدردنيل عملت فيما بعد كل ما تريد »

وفى ذلك الوقت كتب السلطان كتاباً خاصاً الى نابليون يستمده فيه أن يحافظ على سلامة السلطنة العثمانية . فأخذ نابليون يشوق الامبراطور اسكندر فى التبسط الى جهة الشمال وهكذا استولت الروسية على فنلاندة . وبقى الخلاف مشتداً بين الروسية وفرنسة على حيازة الدردنيل . وأخيراً تحررت اقتراحات بالكتابة فكانت اقتراحات الروسية مايلى :—

ان كان الاتفاق على محالفة بسيطة يكون للروسية بسارابيا والفلاخ والبغدان وبلغاريا . ولفرنسة البانيا وقسم من بوسنه والمورة واقريطش . ولاوستريا قسم من بوسنه

مع كرواسيا.وتصير صربيا امارة مستقلة يليها ارشيدوق نمسوى متزوج بغراندوقة روسية»

«وان كان الاتفاق على تقسيم السلطنة العثمانية فالروسية تأخذ الفلاخ والبغدان و بسارابيا و بلغاريا وقسما من الروملى الى نهر المريج . وفرنسة تأخذ بوسنه والبانيا والموره واقريطش وقبرص ورودس وجميع جزر الارخبيل وازمير وسواحل الشرق الأدنى وسورية ومصر . واوستريا تأخذ الصرب ومكدونية الى البحر الاسلانيك وما تبعها مما يجب أن يبقى لفرنسة . وكرواسيا تكون لاوستريا أو لفرنسة.والدول الثلاث يشتركن فى حملة على الهند»

وكان كولنكور سفير فرنسة فى بطرسبورج يبدى اعتراضات ويحتفظ فى الأمور الآتية ١ قضية استيلاء الروس على القسطنطينية ٢ ضرورة استيلاء فرنسة على الدردنيل ٣ تأسيس حكومة مستقلة فى الاستانة ٤ وجوب اشتراك الروسية فى الحملة التى ستساق على مصر وسورية وتأخذ عوضاً عن ذلك بلادا مما يلى طرابزون

وفى ١٠ مارس سنة ١٨٠٨ انعقدت الجلسة الخامسة بينهم فاعلن ناظر الخارجية الروسية رومیانتزوف أن الروسية مصرة على أخذ الاستانة والدردنيل معاً . فالسفير كولنكور لم يسعه الا أن يترك الشاطئ الاوربى من الدردنيل مع بقاء الشاطئ الآسيوى لفرنسة . وقد رفض ناظر الخارجية الروسية اشتراك الروس فى الحملة على مصر وسورية الا اذا كانت نفقات الاسطول الروسى على فرنسة

ولما اشتدت صعوبات التقسيم رغب الامبراطور اسكندر فى مقابلة نابليون . و بقى كولنكور يعارض فى استيلاء الروسية على القسطنطينيه والدردنيل ويكتب الى نابليون مخوفاً اياه من عواقب وجود الروسية فى القسطنطينية و بيدها تلك المضايق

وفى ٢٤ يونيو ١٨٠٨ جرى بين الامبراطور اسكندر الأول وسفير فرنسة المحاورة التالية :

الامبراطور ـــ القسطنطينية بعد خروج الترك منها لا تكون الا مدينة متطرفة والجغرافية تقضى بوجودها بيدى لانها ان كانت بيد غيرى لا أكون حراً فى منزلى بعكس غيرى الذى لا تهمه . فالقسطنطينية مفتاح بيتى والامبراطور (يعنى نابليون) لا يقدر أن ينكر ذلك .

السفير ـــ الا أن هذا المفتاح هو مفتاح تولون وكورفو ومفتاح تجارة العالم .

الامبراطور ـــ يمكننا الاتفاق على أن هذا الممرّ يبقى حراً للتجارة ولا يجوز سدّه

بوقت من الأوقات .

السفير — لو كان ملك جلالتك دائماً لما كان لنا شبهة فى هذه التأمينات ولكن قد يأتى امبراطور للروسية لا يدون حليفاً لفرنسة .. فاذا كان لا بد من مجاراة الوزير رومیانتزوف لا يبقى قوة فى الشرق الا للروسية ويختل التوازن الذى هو ضرورى لحفظ السلام . فالدردنيل أو الاستانة نفسها فى يد فرنسة لا محذور منهما اذ هما بعيدتان عن فرنسة وأما فى يد الروسية فهما قوة هائلة . اهـ

هذا و بينما كانت الروسية وفرنسة تتنازعان على هذه القسمة وكل منهما تشد من جهتها اذ جدّت حوادث ذات بال فى تركيا واسبانيـة وأوستريا وكثرت المشكلات على نابليون فمال الى التساهل وأرسل الى سفيره كالنكور بانه حاضر لاخلاء البلاد التى يحتلها من بروسية بدون مطالبة الروسية باخلاء الفلاخ والبغدان

ثم تقرر أن الامبراطورين يلتقيان فى ارفور Erfurt (من الساكس) وقد وصل اليها نابليون فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ ووصل اسكندر وأقاما بها ١٨ يوماً . وابتدأت المفاوضات فى ٢٩ سبتمبر وتقرر أن الامبراطور نابليون يرضى بأن الفلاخ والبغدان تصيران ملكاً للروسية و يصير الدانوب هو الحد الفاصل . ولكن اشترط حفظ هذا السر موقتاً وعدم القيام بحركات عسكرية الى ١ يناير سنة ١٨٠٩

ثم تقرر بين الامبراطورين انه ان وجدت صعوبات لم تتمهَّد بينهما يعودان فيلتقيان مرة ثانية وأما من جهة سائر أملاك تركيا أى ما عدا الفلاخ والبغدان فتقرر بينهما عدم البت فى شىء بدون اتفاق سابق

ورجع الامبراطور اسكندر غير راضٍ باطناً من الامبراطور نابليون وصار يتربص به الدوائر . ولما انكسر جيش نابليون فى « اسلينغ » Essling [1] كان أول شامت به الامبراطور اسكندر و بلغ هذا نابليون فحقد عليه . ثم فى سنة ١٨١٠ حاول نابليون أن يتزوج بالغراندوقة الروسية حنة باقلوفنا فامتنع الامبراطور اسكندر عن مصاهرته وتزوج نابليون بابنة امبراطور النمسا مارى لويزة وكان بذلك انتهاء الصداقة بين نابليون واسكندر ثم جاءت بعدها الحرب بينهما

ثم المشروع السادس والستون من تقسيم تركيا المنسوب الى « ميترنيخ »

---

(١) فى حرب مع أوستريا

Metternich وتاريخه ١٨٠٨

قال دجوڤارا : ليس هنا محل ميترنيخ وزير أوستريا الشهير الذى قضى حياته يجتهد فى تثبيت تركيا كما هو معلوم الا أنه اضطر فى آخر الأمر أن يلقى دلوه فى الدلاء من جهة هذه المسئلة

وكان ميترنيخ يقول : « ان وجود السلطنة العثمانيــة والمحافظة عليها وان كان فيهما كثير من المخالفة للمدنية المسيحية فهما خير لأوربة »

وكان ميترنيخ ممن ساعد انكلترة على منع استيلاء فرنسة على وادى النيل . وكان يشهد للباب العالى بحسن المحافظة على المعاهدات ويقول ان متاخمة تركيا كمتاخمة البحر لا تتغير بهــا الحدود بل تبقى على وتيرة واحدة . وكان اذ فكر فى استحالة بقاء السلطنة العثمانية وانه لا بد من أن تحل فى الاستانة دولة مسيحية يقول : « ان تلك الدولة ستكون حليفة للنمسا » يعنى بذلك أن الدولة المسيحية التى ستتولى القسطنطينية استئنافاً ستكون اليونان أو البلغار

وقال تاليران لمتيرنيخ فى ١٨ يناير سنة ١٨٠٨ ما يأتى :

« ان الامبراطور (أى نابليون) يفكر فى مشروعين أحدهما مؤسس على قواعد صحيحة والثانى هو من باب القَصَص والخيال . فالأول هو تقسيم تركيا . والثانى هو غزو الهند . وعلى كل حال ففرنسة والروســية ينويان اقتسام تركيا » فأظهر ميترنيخ لتاليران عدم ارتياحه لمشروع تقسيم تركيا . وقال له : « اننا نحن أصح حكماً فى مسائل تركيا لأننا نحكم فيهــا بدون ضلع ولأننا بناءً على ذلك نبغى بقاءها أما الروس فيرون تركيا بنظارات يونانية والنظارات فى العادة لا تصلح للسياسة . وانى لأؤكد لك أن فتح تركيــا يكلف ثلاثمائة ألف جندى قتلاً وموتاً بالأمراض وانه تمضى بعد ذلك ثلاثون سنة على تلك البلدان ولا تكون لمّت شعثها ولا عرفت المدنية تحت أىّ حكم كان »

ثم سأل ميترنيخ تاليران عن كيفية تقسيم تركيا ؟ فقال له تاليران : « المورة والجزر ومصر توافقنا (أى الفرنسيس) وأنتم يلزم لــكم وادى الدانوب وبوسنه و بلغاريا . ولو لا كون الروس فى القريم لــكانت القسطنطينية أولى بأن تكون لــكم ولــكنهم هم الآن أولى بها منكم » .

وكان تاليران سفيراً للنمسا فى باريز فكتب الى حكومته قائلاً : « لا نقدر أن ننقذ تركيا فلنجتهد أن نستأثر منها بالنصيب الأوفر »

ثم بعد هذا الحديث مع تاليران بثلاثة أيام تلاقى ميترينيخ مع نابليون . فقال له الامبراطور : « ما صرتم تحبون بقاء تركيا الا من بعد أن صارت الى حالة العدم التام » ثم صرح نابليون بأنه هو أيضاً يريد بقاء تركيا لو لا عداوة الانكليز له فهو يريد مهاجمة الانكليز أينما كانوا

ثم بدر من نابليون كلام يظهر منه أنه مقتنع باستيلاء الروس على استانبول وقال لميترنيخ : « متى صار الروس فى استانبول لم يكن لكم غنى عن فرنسة لتساعدكم فى وجه الروسية . والذى أراه هو ان نكون معكم متفقين فى مسئلة تقسيم تركيا . نعم لا ينبغى أن تكتب الى حكومتك أن التقسيم تقرر لكن ينبغى أن تكتب أنه متى تقرر تكون أوستريا معنا لندافع عن مصالحنا ومصالحها معاً فانتم لكم ادعاءات صحيحة وجغرافية على وادى الطونه . وهذه الادعاءات هى التى لها دائماً القيمة الحقيقية »

فاجابه ميترنيخ قائلاً : « اذا كانت فرنسة ستترك صديقتها القديمة تركيا فنحن لا نقدر وحدنا أن نحميها »

ثم سأل ميترنيخ حكومته عن المشروع فجاءه الجواب بالسلب وأبلغه الى الحكومة الفرنسوية وكان معناه :«أنه لن يجد الامبراطور عملاً أخسر وأوجب للندم من الموافقة على هدم تركيا . وان تقسيم تركيا يمكن اذا كان انهيارها أمراً واقعاً ولكن الحالة ليست كذلك » .

وأما تاليران فقال لميترنيخ انه هو شخصياً ضد فكرة تقسيم تركيا ولكن الامبراطور مصمم عليه . فسال ميترنيخ سفير الروسية فى باريز عما يعلمه عن هذه القضية فأجابه الكونت تولستوى : « نعم ان الكلام قد دار بين نابليون واسكندر على هذا التقسيم وانه ان كان لا مفر من سقوط تركيا فينبغى الاتفاق على اقتسامها »

وفى سنة ١٨١٠ كان ميترنيخ يقول : ان مركزنا منيع جداً لأن الجهات كلها تطلب عضدنا . وبالاجال كان ميترنيخ ضد فكرة تقسيم تركيا الا أنه كان يرى أنه ان حُمَّ أجل هذه الدولة ينبغى أن تقوم مقامها دولة مسيحية صديقة لاوستريا

ثم المشروع السابع والستون وهو المنسوب الى « دوتريف » D'hauterive وتاريخه سنة ١٨٠٨

وكان « دوتريف » من أنصار سياسة تاليران وممن يرون الضرر كل الضرر فى دخول نابليون فى تقسيم السلطنة التركية وكتب للامبراطور تقريراً ١٥ صفحة عن عواقب هذا التقسيم المشؤومة . الا أنه اذا كان هذا الأمر لا بد منه فهو يشير بقسمة شبه جزيرة البلقان الى نصفين من الشمال الى الجنوب فيكون النصف الشرقى مع القسطنطينية والدردنيل نصيب الروسية . ويكون النصف الغربى مقسّماً بين فرنسة وأوستريا . وتختص بفرنسة الجزر ومصر . ثم ان هذا المشروع يبلغ الى انكلترة لعلها تجنح للسلم وتريح العالم

وبعد هذا التقرير اقترح تاليران على دوتريف تقريراً ثانيا قبل ذهابه الى «ارفور» فى أثناء تلاقى الأمبراطورين نابليون واسكندر . فكتب دوتريف تقريراً قال فيه ان تقسيم تركيا وغزو الهند آتيان لا محالة لكنه يجب تأخيرهما بقدر الاستطاعة

غير أن الاتفاق بين الامبراطورين لم يتم وكان لتاليران اليد الطولى فى ذلك لأنه كان يعمل دائما لابعاد فرنسة عن الروسية

ثم المشروع الثامن والستون المنسوب « لبوزودى بورغو » Pozo di Porgo وتاريخه سنة ١٨٠٩

وكان هذا الرجل من كورسيكا وقضى حياته عدواً لنابليون خدم الروسية وبروسية وانكلترة واوستريا فى جميع سياساتها العائدة لاسقاط بونابرت . وكان لهذا الرجل مشروع خاص به فى تقسيم تركيا مآله ان الروسية يكون لها بسارابيا والفلاخ والبغدان و بلغاريا . ويكون لفرنسة البانيا وتساليا والموره وكريد . ويكون للنمسا بوسنه وصربيا . ويبقى لتركيا القسطنطينية مع الروملى

وقد روى « دومنتون باك » De Menthon bake بناء على تأكيد السير « روبرت آدير » Robert Adair سفير انكلترة فى ڤينا ان الامبراطور اسكندر الأول قد وافق على هذا المشروع . وفى هذا القول نظر لمخالفته لكل ما سبق . ومما رواه « دومنتون باك » ان الامبراطور نقولا الأول قال : «انى لا أريد الاستانة وأنا من ملكى الواسع فى غنى عنها . ولكنى على ثقة بأن هذه المدينة صائرة الىّ أو الى أولادى فى أحد

الايام . وانه لاهون أن يمنع الناس انحدار شلال من جبـل من منع الروس أن يصلوا الى البواغيز »

ومن غريب التكهنات ان « بوزو دو بورغو » هذا كتب سنة ١٨٠٦ « ان المشاة والمدفعية الفرنسويين سيقاتلون الروس جنباً الى جنب مع خيالة الأتراك ». ولقد وقع هذا فى حرب القريم بعد هذا القول بنصف قرن

ثم المشروع التاسع والستون المنسوب الى « دوفو » Dufau وتاريخه سنة ١٨٢٢

وكان « دوفو » كاتبا افرنسياً أشار بوجوب رئاسة فرنسة على عصبة أوربية تقف فى وجـه الروس . وقال انه يجب لذلك تعزيز السويد واعادة دولة بولونيا . أما تركيا فقال انها يجب أن تتقسم بين دول أوربة واليونان فتكون سلطنة يونانية تحت حماية الروس فاصلة بين هؤلاء والنمسويين . ويكون للنمسا صربيا والبانيا وتتأسس امارات يونانية فى يانيا والموره الخ وتعطى كريد مع الجزر كورفو واخواتها الى انكلترة وتكون جمهورية جزر فى الارخبيل

ثم المشروع السبعون وصاحبه « دوكابوديستريا‌س » De Capodistrias وتاريخه سنة ١٨٢٨

وكان هذا الرجل يونانياً مولوداً فى جزيرة كورفو خدم الروس عند ما بسطوا حمايتهم على تلك الجزر وبقى يتقلب فى المناصب السياسية عندهم الى أن استقلت بلاد اليونان فانتخب رئيساً لحكومة اليونان سنة ١٨٢٧ ولم تطل المدة حتى نقم عليه الأهالى ونشبت حرب داخلية وأخيراً فتك بعضهم بكابوديستيراس سنة ١٨٣١

ولما انعقد مؤتمر ڤينَّا الدولى سنة ١٨١٥ قدمت الروسية الى ذلك المؤتمر احتجاجاً على أعمال الأتراك القاسية فى صربيا لكن المؤتمر لم يطل النظر فى هذه المسئلة وسنة ١٨٢١ توسطت الروسية لدى الباب العالى فى أمر اليونان وطلبت رفع الجور عنهم ولما لم تقترن هذه الوساطة بنتيجة أعلنت الروسية الحرب على تركيا وظهرت عليها فى تلك الحرب واجبرتها على عقد معاهدة أدرنه . وكانت الروسية هذه المرة لا تطالب بنثر عقد السلطنة العثمانية كالعادة وكان ناظر خارجيتها يقول : « لا شىء أنفع لنا من مجاورة دولة ضعيفة كهذه » فكانت فى هذه النوبة متفقة مع النمسا على عدم التقسيم

وكان « كابوديستيرياس » وقتئذٍ رئيساً لحكومة يونان فقدم الى الامبراطور نقولا تقريراً فى ٣١ مارس سنة ١٨٢٨ يقترح فيه التشكيلات الآتية :

(١) مملكة للفلاخ والبغدان مستقلة (٢) مملكة ثانية مؤلفة من صربيا و بلغاريا وبوسنه (٣) مملكة ثالثة مركبة من تراقيا ومقدونية والجزر التى أمامها فى الأرخبيل (٤) مملكة مشتملة على ابيروس والبانيا (٥) مملكة مركبة من بلاد اليونان والجزر (٦) القسطنطينية مدنية حرة ومركز لهذه الممالك الخمس المرتبطة

ولقد أعيد البحث فى برنامج كهذا سنة ١٨٥٣ . وان كان « كابوديستيرياس » لم يطلب ضم مقدونية وتراقيا الى بلاد اليونان فقد اعتاض من ذلك باقتراح خمس ممالك ثلاث منها يونانية لحفظ الأكثرية فى العاصمة لقومه . وقد أمر الامبراطور نقولا بتأليف لجنة للبحث فى اقتراحات الرئيس اليونانى مؤلفة من البرنس « كوتشوبى » والمسيو «داشكوف» و « بوزودى بورغو » فقرروا بالاتفاق ان استقباء السلطنة العثمانية أولى وأقل ضرراً من القضاء عليها وغاية مافى الأمر انه يجب عقد صلح شريف معها . فانعقد الصلح فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩

ثم المشروع الواحد والسبعون وصاحبه المطران « دوبرادت » De Pradt وتاريخه ١٨٢٨

وكان هذا المطران سفيراً لفرنسة فى بولونيا وقد كتب سنة ١٨٢٨ كتاباً استجلب فيه نظر دول أوربة الى الاكتراث للخطر السلاقى . وقال ان لأوربة سيدين أحدهما بحرى وهو انكلترة والآخر برى وهو الروسية . وتذكر كلمة نابليون وهى : «من الآن الى ٥٠ سنة تكون أوربة اما قوزاقاً أو جمهورية»

قال « دجوفارا » كل التكهنات لاتصح ولو تكهنها عبقرى كبير مثل نابليون .

قلت: قد مضى على هذا الكلام نحو من ١٢٠ سنة ولم تتحول أوربة قوزاقاً ولاصارت كلها جمهوريات بل صارت نفس الروسية جمهورية . واية جمهورية ! جمهورية شيوعية

أما « دوبرادت » فكان برنامجه الاستعانة لصد خطر السلاف باليونان لابالترك وان هؤلاء تكون لهم السيادة التى للترك فى البلقان . ونسى حضرة الاسقف الجليل رومانيا و بلغاريا وصربيا والبانيا الخ كأن كل هذه لم تكن

ثم المشروع الثانى والسبعون وصاحبه افرنسى مجهول وتاريخه ١٨٢٨

ومحرر هذا البرنامج معتقد انه لامناص من زوال تركيا وانه يخشى من استئثار الروسية بالقسطنطينية واستيلائها على المشرق . فلذلك هو يقترح اعطاء النمسا بلادالبلغار والصرب وبوسنه وكرواسيا والبانيا العليا على أن تعطى النمسا الى ايطالية الولايات التى أهلها طليان من بلاد النمسا . ثم يقترح اعطاء عائلة ساڤواى بلاد لومبارديا والبندقية وپارم ومودين . وبمقابلة ذلك تتخلى مملكة ساڤواى عن صردانية لفرنسة . ثم يقترح تأسيس مملكة اسمها مملكة البوسفور مركبة من الاستانة والروملى ومقدونية وشواطئ البوسفور وتكون هذه المملكة تحت تكافل جميع أوربة ويكون المرور بالبواغيز حراً وبدون دفع رسوم . وملك الاستانة يكون دوق مودين . وأما الروسية فيكون لها الفلاخ والبغدان فقط

ثم المشروع الثالث والسبعون وصاحبه « دوبولينياك » De Polignac وتاريخه ١٨٢٩

وكان هذا من نظار دولة فرنسة تولى نظارة الخارجية ورئاسة الوزراء وفى أيامه ساد الاعتقاد بأن تركيا مُنْهارَة لامحالة ولذلك حرر ميترنيخ وزير النمسا برنامج تقسيم لتركيا قدمه الى بطرسبرج وبرلين وخشية أن تتفق فرنسة مع الروسية أخرج فرنسة بلا حصة . فأسرع امبراطور الروسية باطلاع فرنسة على اقتراح النمسا وردّ هذا الاقتراح بتاتاً .

وكان « نسيلرود » وزير الخارجية الروسية أرسل سؤالا باسم الامبراطور الى جميع الدول وذلك سنة ١٨٢١ يسأل كلا منها رأيها فى كيفية تقسيم سلطنة آل عثمان . وكان معنى ذلك اظهاره الرغبة فى القضاء عليها . فأجابت فرنسة بطلب برنامج هذا التقسيم من الروسية فى ضمن معاهدة . فامتنع القيصر عن اعطاء ذلك . ثم مات القيصر اسكندر وخلفه القيصر نقولا . وكان شاتوبريان الكاتب الشهير مديراً لزمام الخارجية الافرنسية وكان هواه مع الروسية فأرسل الى القيصر يقول له : « اذا شئت الذهاب الى الاستانة فادخل مع الدول المسيحية فى قسمة عادلة لتركية أوربا »

ولما كان بولينياك فى وزارة فرنسة سنة ١٨٢٩ وبلغه اقتراح أوستريا تقسيم تركيا بدون انصاف فرنسة عهد الى المسيو « بوالوكونت » Bois-le-Comte مدير الأمور السياسية

فى الخارجية بتحرير لائحة فى هذا الموضوع . فحرر هذا لائحة مؤداها أنه ما من دولة ترضى باستيلاء الروس على الاستانة والبواغيز . ولذلك يجب تأسيس دولة مسيحية فى القسطنطينية وان تُرضى الروسية بالفلاخ والبغدان و بارمينية وطرابزون . وتُرضى بروسية بالساكس وهولاندة وان تكون المستعمرات الهولاندية لانكلترة وان يرسل ملك هولاندة ملكاً على القسطنطينية وان تخرج أوستريا من اسلاب تركيا ببوسنه وكرواسيا ودالماسيا والهرسك . وأما فرنسة فتأخذ بلجيكا ولوكسمبورغ والالزاس واللورين وقسماً من هولاندة

و بعد أن تذاكر مجلس نظار فرنسة مدة ثمانية أيام فى هذا المشروع صدّقه وأرسل بولينياك الى الروسية يسألها رأيها فيه . ولكن كانت الروسية اذ ذاك قد قررت الصلح مع تركيا . فحبط هذا المشروع واعتاضت فرنسة بفتح جزائر الغرب فى أيام كارلس العاشر

ولقد ثبت أن بروسية اعترضت على برنامج بولينياك هذا وأبلغت اعتراضها عليه الى باريز و بطرسبرج . وقد كان لهذا المشروع أعظم نصيب من انتقاد المؤرخين حتى الفرنسيس منهم وقالوا : «لو لم توجد وثائقه فى أوراق نظارة الخارجية لما كان الانسان يصدق أن حكومة فرنسة تقترحه . وقالوا انه لو بوشر بشر به لأدّى الى حرب عامة »

وكتب الكولونل « روتيه » Rottiers سنة ١٨٢٩ فى « رحلة من تفليس الى القسطنطينية » الجملة التالية :

« لقد بينت مراراً الضلالات الشنيعة التى يبنى عليها بعضهم برامج استئصال جميع المسلمين أو اجبارهم على الجلاء »

ثم المشروع الرابع والسبعون وصاحبه الجنرال « دور يشمون » De Richemont وتاريخه سنة ١٨٢٩

وكان هذا من نواب البرلمان الافرنسى واقتراحه هو أن تأخذ الروسية الاستانة وان تاخذ اوستريا البانيا العليا وصربيا و بوسنة وتنزل عن سيليزيا لبروسية . وان تأخذ بروسية ماعدا سيليزيا مملكة الساكس ونصف هنوفر . وتأخذ هولاندة النصف الثانى من هنوفر . وتأخذ باڤاريا بلاد سالتزبورغ . وتأخذ انكلترة جزيرة كريد . ويكون نصيب فرنسة بلاد الرين ولوكسمبورغ و بلجيكا

ثم المشروع الخامس والسبعون وصاحبه « برونيكوفسكى » De Rronikoveski وتاريخه سنة ١٨٣٣

وقد كان هذا الرجل كاتبا ألمانيّا من درسدن وخدم فى جيش بروسية ثم فى جيش فرنسة عند ما كان الفرنسيس فى بولونيا وبرنامجه يقرب من برنامج « دوفو » المتقدم الذكر وهو مبنى على تقسيم تركية أوربة وتجديد قوة بولونيا ووضعها حاجزاً حصيناً فى وجه الروسية . ولا يشير هذا الرجل بهدم السلطنة العثمانية فى آسية بل يقتصر على ايجاب تسليم ولايات الدانوب لاوستريا بمقابلة اعادة اوستريا بلاد غاليسيا لبولونيا . ويقول انه يجب أن تعاض تركيا من ذلك بأخذ بسارابيا والقريم وبلاد القوقاس . فكأن مقصوده كله هو توقيف تقدم الروسية

ثم المشروع السادس والسبعون وهو المنسوب الى الامبراطور الروسى نقولا الأول وتاريخه سنة ١٨٥٣

كانت نظارة الخارجية الانكليزية نشرت وثائق فى احدى جلسات البرلمان سنة ١٨٥٤ يظهر منها ان القيصر الروسى نقولا اقترح على انكلترة اقتسام سلطنة آل عثمان لكن الوزراء كتموا هذا الاقتراح ولم يفشوه الا فى جواب على كتابة ظهرت فى « جورنال دوصان بطرسبورغ »

ففى ليلة سمر عند الغراندوقة هيلانة الروسية ٩ يناير سنة ١٨٥٣ قال الامبراطور نقولا للسير هاميلتون سيموز سفير انكلترة مايلى :

« تأمل . نحن بين أيدينا رجل مريض ومريض جداً ويكون بالفعل وبالا عظيماً علينا ان خرج أمره ومن ايدينا »

ثم استدعى الوزير « نسلرود » السفير المذكور الى حضرة القيصر فى ١٤ يناير فقال له أيضا : —

« انت لاتجهل المقاصد والمرامى التى لاتزال فى الروسية من عهد كاترينا . وخلاصة الأمر ان تركيا هى على مقربة منا وان فيها عدة ملايين من المسيحيين من وظيفتى السهر على مصالحهم وبيدى معاهدات تعطينى هذا الحق . ونحن أمة تلقينا ديانتنا عن الشرق وعلينا واجبات لايمكن التغابى عنها . وحالة تركيا هى كما قلت لك من قبل وبرغم ماتريده

من بقائها يجوز أن تموت بالرغم منا وتبقى عبئا علينا وليس فى استطاعتنا نشر الموتى [١] أفلا يكون الأفضل بحقنا تفادياً من حرب أوربيـة ان نتفق من قبل على أمرها حتى لا نؤخذ على غرّة ؟ وانى أقول لك بكل صراحة اننا ان استطعنا انا وانـكلترة ان نتفق فى هذا الموضوع لم يهمنا الآخرون . وانا لا اكتمك انه ان كان فى نية انـكلترة الاستيـلاء على الاستانة فلن أحتمل ذلك . لاأقول ان لـكم هذه النية ولـكنى أقول ان صحت هـذه النية فلن أكون راضياً . وأنا نفسى أتعهد أيضاً بأن لا أحتلّها مالـكا وأما بصورة موقتة على سبيل الاستيداع فقد أرضى . وأما اذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها فقـد يجوز انى احتلها قولاً واحداً »

فالانـكليز لم يأمنوا للفرق الذى بين « التملك » و « الاستيداع » الموقت و رفضوا مطالب القيصر . وفى ٢٠ فبراير سنة ١٨٥٣ تلاقى السفير سيمور مع القيصر عند القيصرة وقال له :

« ليسمح لى جلالتك بالقول بانه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على شرف الهلاك »

فاخذ القيصر شئ من الحدة وأجابه : « اذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لاتزال فيها عناصر حياة فتـكون المعلومات التى لديها غير صحيحة . وانا اؤكد لك ان المريض هو فى حالة الاختصار وانه لايجوز أن يموت ونحن غافلون بل يجب أن نتفق من قبل وأنا واثق بأننا نقدر أن نتفق ولست اكلفـكم عقد معاهدة أو تحريرصك وانما أطلب كلمة اتفاق عامة وهذا كاف فيما بين الرجال الاكياس » وقد كتب السير سيمور لحـكومته بعد سماعه خطاب القيصر للمرة الثانية بهذا الالحاح قائلاً : « لم يبق شك فى أن الملك الذى يتكلم بهذا الاصرار كله على موت دولة تجاوره يكون مقصده لاانتظار موتها كما يزعم بل تعجيله . ومرمى القيصر هو جرّ انكلترا واوستريا الى اتفاق مع الروسية على تقسيم تركيا بدون أن تدخل فى ذلك فرنسة »

وقد صرح القيصر مرة أخرى بجميع أفـكاره قائلا « انه لايوافق أبداً على احتلال فرنسة أو انـكلترة للقسطنطينية ولا يوافق أيضاً أبدا على تجديد سلطنة بيزنطية ولا عـلى توسيع مملـكة اليونان بحيث تصبح دولة منيعة الجانب ولا يوافق أيضاً عـلى تقسيم تركيا

---

(١) مضى على هذا الـكلام تسع وسبعون سنة ولا تزال تركيا فى الحياة و بيدها القسطنطينية

جمهوريات يتسلم أزمتها ثوار من أمثال « كوشوت » Kossuth (زعيم مجرى) و «مازينى» Mazzini (زعيم طليانى) وغيرهم . وانه يحارب الى أن لايبقى عنده جندى واحد ولا بندقية واحدة ولا يرضى بحل مسئلة تركيا على وجه من هذه الوجوه المذكورة

ومعنى هذا ان القسطنطينية يجب أن تدخل فى حوزة الروسية

ثم انه يدخل القيصر فى التفاصيل مخاطبا سفير انكلترة فيقول :

« تكون الفلاخ والبغدان مملكة مستقلة تحت حمايتى . وتكون صربيا حكومة مثلها أيضاً . وتكون بلغاريا أيضاً من هذا النمط اذلا مانع يمنع من استقلالها . وأما مصر فانى لاأجهل أهميتها بالنسبة الى انكلترة ولا أرى مانعاً من أنه اذا سقطت السلطنة العثمانية ووقعت المقاسمة بيننا تخرج مصر فى نصيب انكلترة . وكذلك جزيرة كريد التى توافقكم »

فاما انكلترة فمن أول الأمر رفضت تقسيم تركيا . وأرسل اللورد « جون روسل » ناظر الخارجية جوابا فى ٩ فبراير سنة ١٨٥٣ صريحاً فى الرفض . فأجابه نسلرود وزير الروسية بمذكرة تاريخها ٧ مارس يحاول فيها تسكين خاطر الحكومة الانكليزية و يقول ان الأحاديث التى جرت بشأن تركيا « ان هى الا تبادل أفكار والامبراطور لايرى من الضرورة الكلام فى هذه المسئلة قبل حلول أوانها »

بيد أن الحكومة الانكليزية التزمت فى هذه المسئلة الجلى تمام الصراحة خشية سوء التفاهم فيما بعد . فأرسلت الى الروسية مذكرة واضحة تاريخها ٢٥ مارس سنة ١٨٥٣ تقول فيها :

« ان حكومة الملكة علمت بمزيد السرور ان الامبراطور يكترث أكثر من انكلترة نفسها لمنع نازلة تنزل بتركيا لأن حكومة الملكة مقتنعة بأنه على سياسة جلالة الامبراطور يتوقف تعجيل أو تأجيل هذا الحادث الذى لجميع الدول الاوربية مصلحة فى منع وقوعه . ثم ان انكلترة لاتريد تبسطاً فى الارض ولا تقدر أن تدخل فى اتفاق من هذا القبيل ولا أن تشترك فى مفاوضات ومكاشفات يجب أن تبقى مكتومة عن بقية الدول . وكل ماتراه حكومة الملكة هو أن تركيا لاتحتاج الا الى شىء من التسامح من جهة حلفائها وان هؤلاء لايتخذون بازائها خطة تمس من كرامة السلطان أو استقلاله وانه يجب أن تعامل بالرفق الذى هو حق الضعفاء على الأقوياء سواء كان بين الدول أو بين الأشخاص » اه

وفى ٥ ابريل سنة ١٨٥٣ أرسل اللورد « كلارندون » باسم انكلترة الى الروسية مذكرة جديدة معناها « انه من العبث وضع هذه المسئلة موضع المذاكرة » فأجابه « نسلرود » وزير الروسية جواباً متغير اللهجة عن ذى قبل قائلا فيه : « ان الامبراطور مستعد للسعى بالاتفاق مع انكلترة فى اطالة حياة تركيا وترك كل سبب ارجاف من جهة انحلالها »

وكانت جميع هذه المحاورات سرية ولم يكن متوقعا أن تتعدى خارجيتى لندن و بطرسبورغ لولا حادث طرأ .

وهذا الحادث هو أن الحكومة الروسية قرأت خطبة للورد جون روسل ألقاها فى مجلس العموم الانكليزى سنة ١٨٥٤ فأجابت عليها بمقالة مآلها الاشارة الى المفاوضات المار ذكرها والادعاء بأن القيصر كان دائماً صريح اللهجة صادقاً بحق انكلترة

فعند ذلك اضطرت الحكومة الانكليزية الى نشر جميع المذكرات التى تبودلت بشأن تقسيم تركيا . وكان لذلك دوى عظيم فى العالم . وقال المسيو « روسه » Rousset صاحب تاريخ حرب القريم : « انه لم يوجد أمام العالم وأمام التاريخ ملك حمل عمداً واختياراً من التبعة ماحمله الامبراطور نقولا »

وقد عقب ذلك حرب القريم وتحالف فرنسة وانكلترة وتركيا على الروسية وانتهاء الحرب بصلح باريز سنة ١٨٥٦ و بعد هذه الحرب نالت رومانيا استقلالها الداخلى

ثم المشروع السابع والسبعون وصاحبه « داندولو » Dandolo وتاريخه سنة ١٨٥٣

وهذا المشروع يقرب من مشروع « كابوديسترياس) ومؤداه انه بعد طرد الترك من أوربة تؤسس الدول العظام خمس ممالك فى الشرق ١ بلاد اليونان مع سلانيك وجبل آتوس والجزر المصاقبة ٢ ابيروس والروملى الى أدرنة الى البحر الأسود ٣ الفلاخ والبغدان الى حدود الروسية من جهة واوستريا من جهة أخرى ٤ بوسنه وصربيا والجبل الأسود والهرسك ٥ جزائر اقريطش وقبرص وساموس وما يتبعها والقسطنطينية مدينة حرة لكن يونانية وكان « داندولو » من اليونانيين المتحمسين

ثم المشروع الثامن والسبعون وصاحبه « دالبونو » D'Al.Bonneau وتاريخه سنة ١٨٦٠

وكان « دالبونو) كاتباً افرنسياً له تآليف عن المشرق

وكان يذهب الى وجوب سد طريق البوسفور على الروسية حتى لاتصل الى البحر المتوسط . ولكنه كان يريد ارجاع المملكة البيزنطية الرومية بحجة أن الروم هم كانوا السبب فى مجىء الترك وانه يوجد بين الروم والسلاڤ عداوة شديدة . وأما نصب أمير أجنبى على القسطنطينية كما كان يشير به لويس الرابع عشر فلا يورث عنده الا الفوضى. وكذلك تقسيم تركيا دونه مشكلات ومعضلات لايمكن حلها . والخلاصة انه يوافق على جعل الاستانة مدينة أوربية تحت ملاحظة مجموع الدول التى ترسل كل منها اليها مندوباً وتكون حرية المرور بالبواغيز مطلقة للجميع . وتؤسس دولة سلاڤية واحدة وتستولى الروسيه على ارمينية . وتضاف تساليا ومقدونية والبانيا واقريطش الى مملكة اليونان . وتكون قبرص لبلجيكا ورودس لمملكة البيامون

ثم المشروع التاسع والسبعون وصاحبه « بيتزيبيوس » Pitzipios وتاريخه أيضا سنة ١٨٦٠

وهذا رجل يونانى كان أشد أصحاب هذه المشروعات التقسيمية تخيُّلاً كما سترى : —

١ القسطنطينية مدينة حرة ومركز للدولة الحلفية الشرقية وفيها مؤتمر دائم تتمثل فيه جميع دول أوربة وافريقية وآسية وأمريكا
٢ مملكة الفلاخ والبغدان
٣ مملكة السلاڤ : الصرب والبلغار والجبل الاسود وبوسنه والهرسك
٤ مملكة الأروام : تراقيا ومقدونية وابيروس وتساليا وألبانيا والمورة
٥ مملكة جزائر الارخبيل : كريد . قبرص . رودس . مدللى . ساموس . كورفو
٦ مملكة مصر
٧ مملكة تونس وطرابلس
٨ مملكة يون من اليونان
٩ مملكة الأرمن
١٠ الممالك السورية أى المملكة السلوقية القديمة
١١ مملكة قرمان والأكراد أى ممالك الماديين والفريجيين والغلاطيين والكبادوقيين
١٢ مملكة العراق أى عرب آسية والاثوريين والكلدانيين

١٣ مملكة التركمان

١٤ المملكة العبرانية أى فلسطين

١٥ مملكة اللاز

قال دجوڤارا : انه لم يكن كافياً وجود مقدونية التى لم تزل شغلاً شاغلاً لأوربة حتى جاء « بيتزيبيوس » يخلق لها مقدونيات جديدة يزعم أنه يتحالف فيها السلوقيون والماديون والفريجيون والغلاطيون والكبودقيون والكلدانيون والأثوريون واليهود واللاز ويجلس معهم ممثلو افريقية وأمريكا ! فياللحماقة

ثم المشروع الثمانون وصاحبه « راتوس » Rattos وتاريخه أيضاً سنة ١٨٦٠ وهو يونانى حذا حذو « بيتزيبيوس » فى كثرة تقسيماته وانما امتاز عنه ببقية عقل وانصاف حملته أن يترك شيئا للاتراك العثمانيين

وبرنامجه هو هذا :

١ الاستانة مدينة حرة مع شواطئ البوسفور والدردنيل

٢ المملكة التركية تصير مشتملة على جميع البلدان التى جنوبى جبل طورس مثل سورية وفلسطين وبلاد العرب ومصر وطرابلس وتونس . وقال ان العاصمة يجب أن تكون دمشق أو القاهرة أو الاسكندرية

٣ الممالك التى تؤخذ من الترك فى الأناضول ومعها أرمينية

٤ مملكة اليونان ومعها تساليا والبانيا ومكدونية

٥ مملكة الفلاخ والبغدان ويكون لها أمير

٦ مملكة الصرب ولها أمير

٧ بوسنه والهرسك ولها أمير أو أميران

٨ الجبل الاسود وله أمير

٩ بلغاريا والروملى ولها أمير أو أميران

١٠ أرمينية وعاصمتها ارضروم ولها ملك

١١ مملكتان يونانيتان فى الأناضول لكل منهما ملك

١٢ مجلس عام لهذه الممالك يكون التمثيل فيه على نسبة عدد الآهالى

قال دجوڤارا : ان راتوس جعل فى برنامجه ملوكاً للاروام بل للارمن لكنه لم يسمح للفلاخ والبغدان والصرب والبلغار الا بامراء

قلت : هذا البرنامج والذى قبله لا يستحقان الذكر الا كأطروفة

ثم المشروع الواحد والثمانون وصاحبه « ستفانوڤيتش » Stephanowitch وليس له تاريخ .

وهو على نمط المشروعين السابقين تقسيمات خيالية . وصاحبه يقترح حكومة حلفية يونانية سلاڤية ذات مجلس مركب من ثمانية أعضاء رئيسه نائب للقيصر الروسى

ثم هناك سلطنة يونانيــة مركبة من تراقيا وتساليا و بلاد اليونان وجزر الأرخبيل

ومملكة مركبة من صربيا ونوڤى بازار

ومملكة تتألف من دالماسيا والهرسك والجبل الاسود يليها أمير الجبل

ومملكة ألبانيا و يتولاها أمير روسى

ومملكة رومانيا

وامارة بلغاريا و يليها أمير روسى

ومملكة فريجيا (فى الأناضول)

ومملكة البونت (طرابزون)

ومملكة ارمينية

والسلطان العثمانى يذهب الى بغداد

وسورية تعطى الى الأمير عبد القادر الجزائرى

ومصر تصير ولاية فرنسوية

وقبرص تكون مملكة

وأزمير تكون مدينة حرة . والقسطنطينية مدينة حرة وفيهـا مركز المجلس العام لجميع هذه الممالك

ثم المشروع الثانى والثمانون وصاحبـه الكومندور « نيغرا » Nigra وتاريخه سنة ١٨٦٦

وكان نيغرا هذا طليانيا ومبدأ ظهوره فى خدمة « كاڤور » وزير ايطاليا المشهور

ثم صار سفيراً لايطاليا فى باريز ثم فى بطرسبوغ ثم فى ڤينا ومات فى « رابالو » سنة ١٩٠٧

وكانت الحكومة الروسية سنة ١٨٦٣ أجرت احصاء فى بولونيا تبعه من العسف والظلم ما حمل البولونيين على العصيان وتدخلت الدول فى الأمر . فاقترح نابليون الثالث عقد مؤتمر فى باريز وأجابه اليه الانكليز والبابا وايطاليا واسبانيا والسويد . وأرسل نابليون الثالث الى اوستريا يعرض عليها أخذ سيليزيا والتخلى عن غاليسيا التى كان يريد اعادتها الى بولونيا واحياء مملكة بولونيا من جديد . وكذلك عرض على اوستريا امارتى الفلاخ والبغدان على شريطة أن تترك البندقية لايطاليا ويقال ان هذه الأفكار كانت أفكار نيغرا وكان هو الذى يروجها فى باريز

ولكن انكلترة واوستريا كانتا معارضتين لهذه الفكرة . وكانت ايطاليا اتفقت مع بروسية سنة ١٨٦٦ على اوستريا وفى الوقت نفسه استدعى أهل رومانيا الأمير كارول من آل هونصولرن وجعلوه أميراً عليهم ثم صار فيما بعد ملك رومانيا . ولم يفلح نيغرا فى تقديم رومانيا لاوستريا عوضاً عن البندقية

ثم المشروع الثالث والثمانون المنسوب لغاريبالدى Garibaldi وتاريخه ١٨٧٣

يقال ان القائد الايطالى الشهير غاريبالدى ترك بين أوراقه برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية وقد تكلم عن هذا البرنامج « انريكوكروس » فى رسالة نشرها تحت عنوان « وصية سياسية للجنرال غاريبالدى »

مآل هذه الوصية اتحاد بين اللاتين والسلاف على الجرمانيين . ففرنسة يجب أن تصل الى الرين وايطالية يجب أن تأخذ تريستى وكاتارو وبولونيا يجب أن تعيش وتشيكوسلوفا كيا ينبغى أن تكون جمهورية عاصمتها براغ . ثم تكون جمهورية بلقانية سلافية عاصمتها الاستانة وتتوسع حدود رومانيا . وتكون اليونان دولة قويةوترفع عن البحر المتوسط السلطة التى لانكلترة وتعود الدانمرك فتحتل « شلسفيك هولشتين » وتحصر ألمانيا بين نهرى الرين و « الاودر » Oder ويرجع الترك الى برسا ثم يذهبون مع طول الوقت تماما وتتقسم اوستريا أقساما على حسب الأجناس التى فيها

قلت قد صح كثير من هذا البروغرام مثل أخذ ايطاليا لتريستى واستئناف استقلال بولونيا واستقلال بلاد التشيك وتوسع مملكتى رومانيا واليونان واسترداد الدانمرك ولاية

« شلسفيك هولشتين » وتمزق اوستريا قطعا متعددة بحسب الأجناس التى فيها . كل هذا قد تم على أثر الحرب العامة الا ان اتصال فرنسة بالرين واخراج الترك من القسطنطينية وخضد شوكة انكلترة فى البحر المتوسط فلم يتم منها شىء

ثم المشروع الرابع والثمانون وصاحبه الكونت « غريبى » وتاريخه ١٨٧٣

وكان غريبى Greppi هذا مستخدما فى سفارة اوستريا فى رومة وبعد ذلك صار سفيراً لايطالية

ونشر رسالة عن المسئلة الشرقية قال فيها : ان القسطنطينية يجب أن تكون للجميع مدينة حرة مستقلة ولا يتبعها الا البوسفور

ثم يجلس فى الاستانة ممثلو الاتحاد اليونانى السلافى وتضاف مقدونية وتساليا وابيروس الى اليونان ويكون لجزر الارخبيل استقلال داخلى لكن ضمن دائرة الاتحاد المذكور ولكن يكون لكل من الدول العظام قاعدة بحرية فى إحدى الجزر لتتمكن من السهر على التوازن فى الشرق ؟

ثم المشروع الخامس والثمانون وتاريخه ١٨٧٥ وصاحبه مجهول

وقد ظهرت به نشرة أثناء الحرب الروسية التركية ومآلها انه يحصل قريبا انقلابات فى شرقى أوربة فبوسنه والهرسك تصيران الى اوستريا أو الى الجبل الاسود والصرب . والفلاخ والبغدان والروملى وتراقيا تصير الى الروسية . والبانيا ومقدونية وتساليا تضاف الى مملكة اليونان . والصرب والجبل الاسود يستقلان تماما . ومصر تصير مملكة

ولكن صاحب النشره يشير بجعل الاستانة مركزاً لاتحاد شرقى مركب من خمس ممالك اليونان ومعها البانيا ومقدونية وتراقيا والجزر . ثم الصرب وبوسنه . ثم الهرسك والجبل الاسود . ثم البلغار . ثم رومانيا

ثم المشروع السادس والثمانون وصاحبه أيضا مجهول وهو محرر بالألمانية وبدون تاريخ

وصاحبه يريد دحر الاتراك الى آسية وتخليص صربيا ورومانيا ومصر وتونس وطرابلس منهم . ويشير بجعل الدردنيل والبوسفور وقناة السويس ونهر الدانوب ممار حرة للجميع وان تأخذ الروسية بلغاريا والدبروجه وارمينية وتأخذ اوستريا قسما من البانيا

مع بوسنه والهرسك وتأخذ اليونان تساليا ومقدونية وقسما من البانيا وتعتاض فرنسة وايطالية من جهة افريقية وتعتاض انكلترة من جهة آسية الصغرى

ولقد صح من هذا البروغرام أشياء مثل اعتياض فرنسة وايطالية من افريقية فان فرنسة من بعد الجزائر استولت على تونس ثم على مراكش وايطالية استولت على طرابلس وانكلترة بدلا من آسية الصغرى احتلت مصر وفلسطين وتكبير بلاد اليونان قد حصل كما قال

ثم المشروع السابع والثمانون وصاحبه « رولين » Rollin وتاريخه ١٨٧٦

وهو منشور فى رسالة عنوانها « الحل العملى لمسئلة الشرق » نشرها صاحبها عند ثورة الصرب والرومانيين على تركيا

وهو يقترح طرد الترك الى آسية وان تحتل أملاكهم فى أوربة انكلترة وأوستريا و بروسية والروسية . وان تحتل هذه الدول أيضاً القسطنطينية وادرنه والروملى وكريد . وان يعطى الاستقلال لجميع أقسام تركية أوربة ويكون لها مجلس عام

ومن تأمل فى هذا البروغرام الذى انتحل له صاحبه اسم « الحل العملى » وجده أبعد الأشيا عن « الحل العملى » لاسباب لا تحصى لا تخفى عن السياسى الخبير

ثم المشروع الثامن والثمانون وأصحابه آل تستا Testa وتاريخه ١٨٧٦

وهم يشيرون باراء لم نجدها الا من باب التسكين الموقت وذلك كاعطاء بوسنه الى صربيا لكن مع بقاء سيادة الباب العالى عليهما . واعطاء الهرسك الى الجبل الاسود . وان تجعل مجالس كبيرة للروملى والبانيا و بلغاريا ينتخب السلطان رؤساءها بشرط أن يكونوا من المسيحيين

وال تستا من الالمان

ثم المشروع التاسع والثمانون وصاحبه « ماتياس بان » Mathias Ban وتاريخه سنة ١٨٨٥

وولد « بان » هذا فى راغوزا ومات فى بلغراد سنة ١٩٠٣

ورأيه أن الاتفاق متعذر فى شبه جزيرة البلقان الا أنه يمكن أن يصار الى التشكيلات الكَنَسِيَّة . ففى القديم لم يكن الا الكنيسة البيزنطية الرومانية ثم جعلوا كنيسة

صربية وكنيسة بلغارية ثم عند دخول الترك الى القسطنطينية الغوا بطريركيتي البلغار والصرب . فيجب أن تعادا كما بدأتا وان تضاف الروملي الى بلغاريا تحت سيادة الباب العالى . وتعطى الى الصرب « ودين » و « ساموكوف » و بعض أماكن من بلاد البلغار . وتسلم الى اليونان والجبل الاسود البلاد التى تقررت لهما بموجب معاهدة برلين

ثم المشروع التسعون وهو خبر جرائد تاريخه سنة ١٨٩٦

نشرت جريدة الدالينيوز الانكليزية والبرلينرتا غبلاط الالمانية خبراً معناه أن الروسية متحفزة لاحتلال ارمينية وحمل الدول على تقسيم تركيا . وذلك على أن تأخذ الروسية القسطنطينية والولايات التركية الشرقية الىأن تنفذ من اسكندرونة.وأن تأخذ فرنسة سورية وفلسطين . وتأخذ انكلترة مصر وسواحل الخليج الفارسى والكويت . وتستولى النمسا والمجر على بوسنه ومكدونية . وايطالية على طرابلس . واليونان على كريد والجزر

ثم المشروع الواحد والتسعون وصاحبه « فون سيكادوف » Von Sydakof وتاريخه سنة ١٨٩٨

وهو محرر بالالمانية وكان محرره من كتاب الصحف فى ڤينا . و بعد أن ذكر ثورات البلقان وكريد وغيرها والحرب التركية اليونانية قال ان الروسية ستعود الى تأريث نار الحرب الصليبية على الاسلام . كما أن الالبانيين من مسيحيين ومسلمين يطلبون استقلالاً داخلياً تحت سيادة الباب العالى . وكما أن المسيحيين فى مقدونية لا يزالون يطالبون باصلاحات لا يعمل منها الباب العالى شيئاً . فلا مناص من النظر الى هذه الحالة . فهو يرى قسمة البلقان الى شطرين شرقى وغربى [١] الفاصل بينهما « الستروما » و « الواردار » بحسب استعداد الأرض . فتكون حصتها اليونان والصرب فى الشطر الغربى . وتبقى البانيا وقسم من مقدونية فتديرهما أوستريا كما أدارت بوسنه والهرسك . وتتحد هذه الممالك البلقانية مع أوستريا ــ هنكاريا اتحاداً اقتصادياً

وأما فى الشطر البلقانى الشرقى فتتحد بلغاريا مع رومانيا تحت تاج الملك كارول ويكون لهما مقدونية الشرقية وتكون لهما القسطنطينية . وقال انه ان لم تكن البلقان أوربية صارت أوربة كلها روسية . فهذا هو الحل الوحيد للمسئلة والطريقة الوحيدة لمنع الروسية

---

(١) قد تقدم مثل هذا الرأى

من تكدير صفو السلام العالمى

و بعد ظهور هذه النشرة بسنة ظهرت نشرة بامضاء « غورلوف » فيها أنه يجب اعطاء الاستانة والبوسفور وغاليسيا للروسية . وترانسيلفانيا لرومانيا . وجنوبى البانيا لليونان . والجبل الاسود و بوسنه والهرسك للصرب . وتراقيا مع ادرنه الى تشاطلجه لبلغاريا . وأن تستقل كل من المجر و بوهيميا . وما يبقى من اوستريا مع ڤينا يضاف لألمانية

قلت : وقد صح من هذا بعد الحرب العامة اعطاء ترانسيلفانيا لرومانيا وجنوبى البانيا لليونان والجبل الاسود و بوسنه وهرسك للصرب واستقلال كل من المجر و بوهيميا (بلاد التشيك) ويرجح أن ڤينا وما بقى من اوستريا سينضم الى ألمانية فى عهد غير بعيد

ثم المشروع الثانى والتسعون وهو رومانى Roumain وتاريخه ١٩٠٤

وصاحبه وزير سياسى يخفى اسمه . وهو يشير باتحاد بلقانى تحت رئاسة ايطاليا وذلك لأن الدول البلقانية لا يرضى بعضها رئاسة بعض . والروسية عظيمة جداً ومخوفة . واوستريا قريبة . وانكلترة وفرنسة بعيدتان . فايطالية لهذه الرئاسة أوفق من الجميع

وتتألف هذه الحكومات المتحدة من الولايات التركية القديمة ومن تركية آسية نفسها وتنقسم ولايات تركيا الى ثلاث مناطق : الأولى ألبانيا ومركزها اشقودرة . الثانية مقدونية ومركزها سلانيك . والثالثة تركيــة أوربة مع القسطنطينية وادرنة . و ينصب فى البانيا ومقدونية حكام طليان و يتخذون طرز ادارة سويسرة وتكون شرطة مسيحية محل الجيش . وتكون الوظائف على نسبة أجناس الأهالى . و يكون مجلس عام مركزه سلانيك أو رومة . و يكون ملك ايطالية هو حامى هذا الاتحاد .

قلت : لعل موسولينى فيما يحلم به من الفتوحات الرومانية يحلم بهذا أيضاً

ثم المشروع الثالث والتسعون وهو قسمة القسطنطينية وتاريخه ١٩١٢

لما كان أهم عقدة فى قسمة أملاك تركيا هى الاستانة فقد فكر بعضهم فى قسمة هذه المدينة نفسها . وسبق الى ذلك جريدة « الاندبندانس بلج » فى ٧ يناير سنة ١٩١٢ عن رسالة من سلانيك يقول كاتبها ان الأتراك لا يقدرون أن يصلحوا هذه البلدة الطيبة كما يجب وانه يلزم لهم لذلك عشرة مليارات على مدة ١٥ سنة فلا تجدهم يقدرون على انفاق مبلغ كهذا

فاحسن طريقة هى جعلها دولية . فيكون للالمان حيدر باشا وقسم من الارض الى جهة آسية . وللفرنسيس بك اوغلى وضواحيها . وللروسية أعالى البوسفور . وللاوستريا غلطه الى البحر وللانكليز استانبول أما ايطالية فقد أغارت على طرابلس الغرب فلم يبق لها حق فى حصة من عاصمة تركيا

وهذا الكاتب لم يفكر فى كونه أدخل فى الاستانة دولاً سبق أنها أخذت كثيراً من أملاك تركيا وأكثر مما أخذت ايطالية ولا حسب حساب تنازع الدول المذكورة على الحدود ولا تأمل فى وجود البوسفور فى يد الروسية وما فيه من المحذور

وقد أبقى لآل عثمان حق رئاسة المجلس الدولى وان تبقى لهم القصور التى لهم فى الاستانة . فأما عاصمة تركيا الحقيقية فتصير برسا

ثم المشروع الرابع والتسعون وصاحبه المسيو « رالف دونريكت » Ralf De Nerick وهو يشير باعطاء القسطنطينية للبابا ويكون مركزه بها . قال وهذه كانت فكرة قسطنطين الكبير فتأمل

المشروعان الخامس والتسعون والسادس والتسعون هما معاهدتا باريز وبرلين الاولى سنة ١٨٥٦ والثانية ١٨٧٨

قال دجوفارا : هذه كانت فى مدة ستة قرون مساعى المسيحيين ومحاولاتهم لمحو السلطنة العثمانية التى كانت من أعظم الممالك التى عرفها تاريخ البشرية . وان لم يكن قد تنفذ برنامج واحد من هذه البرامج الكثيرة بحذافيره فما زال تكرار هذه المساعى وتداول هذه الأفكار فى كل أوربة خلفا عن سلف يعمل عمله تدريجاً وينقض من بناء السلطنة التركية الى أن انهارت جوانبها

وقال : بعدواقعة ليبانت (١٥٧١)بدأت الدولة العثمانية تتقهقر . وقد أخذت أملاكها فى افريقية كمصر وطرابلس والجزائر وتونس تنفصل عنها ولم يبق لها عليها الاسيادة اسمية ثم ان الحروب الكثيرة التى أصلتها اياها كل من الروسية واوستريا نزعت منها المجر (١٦٩٩) وبانات وطمشوار (١٧١٨) وقسماً من الصرب وقسماً من الفلاخ والقريم (١٧٧٤) وبوكوفين (١٧٧٥) ثم خسر الباب العالى جزر كورفو وأخواتها (١٧٩٧) وكرجستان

(١٧٩٩) و بسارابيا الى حد نهر البروت (١٨١٢) و بلاد اليونان (١٨٢٩) وارمينية القوقاسية . ثم خسر جزائر الغرب (١٨٣١) وسنة ١٨٤١ استقلت مصر استقلالا داخلياً وسنة ١٨٥١ استقل الجبل الأسود استقلالا داخلياً أيضاً .

و بمعاهدة باريز ٣٠ مارس ١٨٥٦ نالت الاستقلال الداخلى رومانيا وصربيا وتقررت حرية الملاحة فى البحر الأسود والمرور بالدانوب . ثم أخذ الانهيار يتتابع ولاسيما بعد حرب سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ مع الروسية اذ وصل الروس الى ادرنه وأجبروا الباب العالى على قبول شروطهم فى ايا استفانو ولكن أوربة لم تصدق هذه المعاهدة وتبدلت بها معاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) فتقرر الاستقلال التام لرومانيا وصربيا والجبل الأسود وصارت بلغاريا امارة تؤدى الى الباب العالى الجزية وانفصلت ولاية اسمها الروملى الشرقية لكن تحت سيادة الباب العالى ثم استلحقها البلغار (١٨٨٥) واحتلت أوستريا بوسنه والهرسك مدة مديدة ثم اعلنت (١٩٠٨) استلحاقهما . ونزل الباب العالى فى آسية للروسية عن باطوم وقارص واردهان . وتخلى عن قبرص لانكلترة

وسنة ١٨٨١ تخلى عن تساليا وقسم من ابيروس لليونان وسنة ١٨٨٢ احتل الانكليز مصر وكانت قبل ذلك بسنتين احتلت فرنسة تونس . وسنة ١٨٩٦ نالت كريد استقلالها الداخلى

و بقيت برغم كل هذا بلاد البلقان غير ساكنة والنار تضطرم تحت الرماد الى أن سقط السلطان عبد الحميد (٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨) وتولت عصبة تركيا الفتاة فاستلحقت أوستريا بوسنه وهرسك

ثم شنت ايطالية الغارة على طرابلس الغرب وهذه الغارة هى المشروع السابع والتسعون من تقسيم سلطنة آل عثمان

وكان قبل ذلك فى سنة ١٨٩٤ تألفت فى باريز عصبة بروغرامها الحاق كريد باليونان وتأسيس حكومة لمكدونية والبانيا وأخرى لارمينية والأناضول وأخرى للقسطنطينية وتراقيا وان تكون البلدة بلدة حرة ومركزاً للحكومات المتحدة

ثم ظهرت حركة أخرى اتفق فيها بعض البلغار والارناؤوط على أن تكون مكدونية وألبانيا حكومتين مستقلتين تحت سيادة السلطان لكن الباب العالى رفض هذا المشروع

وكانت الحوادث والثورات تتوالى فى البانيا والروملى والقلق يشتد فى شبه جزيرة البلقان فاهتبلت ايطالية هذه الغرة وشنت الغارة على طرابلس و برقة بعد انذار أبلغته الباب العالى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ فاستمرت تركيا فى الحرب مع ايطالية نحواً من سنة وانعقد بينهما صلح لوزان فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ وخسرت تركيا بقية ما كان بقى لها فى افريقية.

واهتبلت دويلات البلقان الغرة من حرب أيطاليا مع تركيا فتحالفن وهجمن على تركيا : الجبل الاسود فبلغاريا فاليونان فالصرب

قلت واعلن كل من ملك اليونان وملك البلغار منشورا على العالم يذكر كل فيه الأسباب التى دعت المسيحيين أن يحملوا السلاح لمقاتلة الترك و يشير الى مصارعة الصليب للهلال وغير ذلك من العبارات التى كان ملوك المسيحيين يستعملونها فى الحروب الصليبية وتبعهم فى ذلك ملك الصرب وسرد تاريخ الجلاد بين الترك والصربيين وزعم أن تركيا كانت لا تعترف بديانة الصرب وتعارضهم فى حريتهم الدينية وتجبرهم على الاسلام ! وامثال ذلك من العبارات المهيجة.

و بينما مناشير الملوك الثلاثة المذكورين ملأى بذكر العداوة بين النصرانية وتركيا والمصارعة بين الصليب والهلال وجميع الكلمات المثيرة للعواطف اذ صدر منشور السلطان محمد الخامس ليس فيه كلمة واحدة مهيجة ولا جارحة بل كله حث على حفظ ذمار السلطنة وتوطيد نفوذ الحكومة مع الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الأعداء والتحرج عن سفك الدماء بدون موجب والمحافظة على الأموال والأرواح وأماكن العبادة

وقد نقل المسيو دجوڤارا المناشير الأربعة بنصوصها

ثم ذكر خلاصة الحوادث : —

فى ٨ اكتوبر ١٩١٢ اعلان ملك الجبل الاسود الحرب على تركيا

فى ١٨ « « اعلان ملوك البلغار والصرب واليونان الحرب واحتلال البلغار جسر مصطفى باشا

فى ٢٠ اكتوبر « استيلاء الصرب على بريشتينه

فى ٢٢ « « الصربيون ينتصرون على الترك فى كومانوڤو

فى ٢٢ اكتوبر ١٩١٢	الأتراك ينهزمون على قرق كليسه
فى ٢٦ « «	استيلاء الصرب على اسكوب
فى ٢٨ « «	انتصار البلغار فى لوله بورغاز
فى ٥ نوفمبر «	فوز اليونان فى وقعة بنتبيغاديا
فى ٨ « «	سقوط سلانيك
فى ١٣–١٦ « «	معركة مناستير
فى ١٧ « «	معركة شتالجه
فى ١٨ « «	جيش الجبل الاسود يحتل آلسيو
فى ٣ ديسمبر «	عقد متاركة
فى ١٦ « «	اجتماع مندوبى الصلح فى لندن
فى ٦ ينـاير ١٩١٣	توقف مفاوضات الصلح
فى ٢٠ « «	معركة تنيدوس البحرية
فى ٢٣ « «	أنور ومن معـه يسقطون كامل باشا ويسقط ناظم باشا قتيلاً
فى ٢٤ « «	تأليف وزارة محمود شوكة
فى ٢٦ « «	قطع المفاوضات فى لندن
فى ٣٠ « «	رفض تركيا التخلى عن أدرنه
فى ٣٠ فبراير «	رجوع المعارك
فى ١ مارس «	قبول الترك وساطة الدول
فى ٦ « «	فتح اليونان ليانيا
فى ١٨ « «	اشتداد المعارك فى شتالجه
فى ٢٥ « «	استسلام جاويد باشا للصرب فى «سكومبى»
فى ٢٦ « «	تسليم أدرنه
فى ١ ابريل «	تركيا ترضى باقتراحات الدول

فى ١٠	ابريل ١٩١٣	حصار الدول لساحل الجبل الاسود
فى ٢٢	« «	احتلال الجبليين لشقودره
فى ٢٥	« «	اجبار الدول لملك الجبل الاسود على اخلاء شقودره
فى ٣٠	« «	عقد مواد الصلح الاساسية

وزبدة هذا الصلح ان السلطان يترك جميع الأرضين الواقعة شمالى خط يضرب من أنوس الى ميديا ماعدا البانيا . ويترك لامبراطور ألمانيا وامبراطور اوستريا هنكاريا ورئيس الجمهورية الفرنسوية وملك انكلترة وامبراطور الروسية وملك ايطاليا الاعتناء بتحديد حدود البانيا مع البلاد المجاورة لها

وكذلك يتخلى لملوك الدول المذكورة عن جميع حقوقه على جزيرة كريد ويترك لهم تسوية القرار اللازم بشأن الجزر العثمانية فى الأرخبيل

ولكن هذه المعاهدة بقيت بدون امضاء لأن الدول البلقانية تحاربت بعضها مع بعض بسبب الاختلاف فيما بينها على تقاسم البلاد . وهى حرب لسنا الآن فى صددها وقد استوفى حوادثها المسيو دجوڤارا فعادت تركيا واستفادت من هذه الفرصة وسيرت جيشا استرجع ادرنه فبقيت لها فى أوربة القسطنطينية وادرنه وما بينهما

أى بقى لتركيا فى أوربة زهاء مليون ونصف من السكان بعد أن كان لها أملاك يسكنها اليوم زهاء ٤٠ مليون نسمة فى أوربة خلا آسية وافريقية

بقى علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف المسيو دجوڤارا الرومانى مؤثرين منقولنا على مقولنا لأنها شهادة من رجل أجنبى عنا بل رجل سياسى مسيحى بلقانى كانت الأمة التى ينتمى اليها من جلة الأمم التى تحررت من حكم تركيا

الخلاصة

قال المسيو دجوڤارا مايلى :

« مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الاقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينه مما يناهز مائة

الا ان الحماسة الدينية التى كانت تلتهب فى القديم فترت بمرور الأعصر فلم يبق عند هذه الشعوب تلك الحرارة التى كانت تجمعها على غير المسيحيين . وصارت المصالح الاقتصادية والمناظرات بين الملوك تفرق بين أولئك الذين كان الصليب يؤلف بينهم من قبل . فلما جاء الوقت الذى صاروا فيه يتكلمون عن « الرجل المريض » تنبهت المنافسات وثارت المنازعات وتحقق ان احتلالاً عسكرياً لتركيا سيجرّ بلا نزاع الى حرب عامة

ولا نعنى بهذا ان كل فكر فى تقسيم السلطنة العثمانية انقضى أو ان كل أمل فى الاتفاق على اسلابها قد انقطع . فمنذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية لم تزل الناس تتقوّل على سقوط سلطنة آل عثمان وفى سنة ١٧٨٤ كتب « دييز » Diez سفير بروسية فى الاستانة ان الروس لايلبثون أن يأخذوا تركيا فى مدة ١٠ سنوات . وكذلك تنبَّأ نابليون بمثل هذا ولم تصدق نبوته

وكانت الدول العظام لاتفكر ان هذه الأمم التى تتألف منها السلطنة العثمانية يمكنها أن تدير أنفسها بأنفسها . بل كان عندها ان هذه الشعوب لم توجد الا لتكون تحت حكم الأجنبى . و بقى هذا الفكر عند الدول الطامحة العظيمه الى أيامنا هذه فاذا قلت لبعض رجال السياسة : ان هذه شعوب يمكنها ان تتحرر وتستقل بأنفسها هزأوا بك . ولم أجد سوى رجل واحد نظر الى بعيد وهو المسيو كونستان سفير فرنسة سابقاً فى الاستانة فقد كان يقول : «ان المستقبل فى الشرق انما هو للشعوب الصغيرة »

على ان السلطنة العثمانية ان لم تكن سقطت كلها دفعة واحدة فقد تساقطت قطعة بعد قطعة فى مدة هذه الأعصر الطوال التى كانت أوربة تناصبها فيها العداء

فماذا كان السبب فى هذا السقوط ؟

الجواب ان الأسباب كثيرة منها السبب الذى نشأ عنه سقوط اكثر الممالك العظمى فى العالم وهو سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة واختلاف الأمم الخاضعة واستحالة اذابتها فى بوتقة واحدة وصعوبة اعطائها كلها فكرة قومية متحدة ثم فساد الادارة وارتخاء النظام وتردّى القوة العسكرية

واضف الى ذلك اختلاف الاديان بين سكان هذه السلطنة فالاسلام لايأتلف مع النصرانية لاسيما انه لا يكتفى بأن يكون دينا روحياً يعزى الأنفس بل هو مسيطر على

الادارة و يتدخل فى أمور الحكومة (١)

وقد كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع سماوى : ولم يكن القرآن مانعاً لامن العلوم ولا من المعارف ولا من الصناعات . ولو كان ذلك لما كانت المدنية العربية الباهرة ممكنة

وكذلك لولا التسامح الدينى العظيم عند الاتراك لكان تساكن المسيحيين مع المسلمين متعذراً . ولكن الدولة العثمانية أعطت المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخوّلتهم أيضا الحرية المدرسية ومما يجب أن نعترف به أن هذه الحرية الدينية التى منحتها الدولة العثمانية لرعاياها المسيحيين مع حرية التعليم هى التى كفلت نموهم وترقيهم وجعلتهم يسيرون فى طريق الاستقلال المطلق ولا جدال فى ان النصرانية عروة دينية وثيقة كانت جامعة للأمم البلقانية فصارت هذه الأمم تتأهب للمقاومة وما كان من الأمور يقبل العذر فيه من فى مملكة مختلفة الأجناس مثل اوستريا ـ هنكاريا أو سويسرة كانوا لايقبلون العذر فيه اذا صدر من مملكة غير مسيحية . على انه قد جرت حوادث كثيرة كان فيها النصارى على النصارى أغلظ من المسلمين على النصارى . وذلك كما جرى من البنادقة على أهل أثينا . ولكن الغيظ فى أواسط العائلات سريع الزوال فالعداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين فى الدين والحرية الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية . وقد قال المؤرخان «لاڤيس» Lavisse و «رامبو» Rambaud (٢) : «ان محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الترك والمغول بعيداً عن كل اضهاد دينى . وكانت حكومة الترك لاتعارض أحداً فى دينه وكان الاتراك لايمسون امتيازات الكنيسة الارثوذكسية» ثم نقل هذان المؤرخان من القرآن هاتين الآيتين الكريمتين : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ثم : (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

الا أن العداوة الدينية للاسلام لم تكن لتُنسَى . فكل ما كان يفعله المسيحيون بالمسيحيين من الجور والطغيان كان منسيّاً . وأىُّ شىء وقع من الترك على النصارى كان

(١) سيأتى فصل فى هذا الموضوع نبين فيه وجهة الاسلام الحقيقية

(٢) هذان من أشهر مؤرخى فرنسة وكتبهما تدرس فى مدارس الحكومة

يقابل بالصيحة : ياللانتقام

وهناك سبب آخر لعدم الائتلاف وهو اختلاف السلائل فالترك طورانيون فى السلالة ومثلهم البلغار . اما الروم والصرب والرومانيون فآريون . ثم ان هناك اختلافاً فى المشارب والأوضاع فالتركى جواد يكره ادخار المال والشح . والقرآن يمنع المسلم من الدين بالربا [١] ولذلك كان من الصعب أن يثبت التركى فى مجتمع مبنى على المضاربات وتثمير رؤس الأموال . ولا جرم فى ان هذه المبادئ شريفة فى ذاتها ولكن الحكومة التى تأخذ بها لاتلبث ان تجد خزانتها فارغة وان كان لايسع الانسان الا الأعجاب بمنازع عالية نادرة كهذه

ثم ان احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة كانا من مزايا العثمانيين يدور عليهما التاريخ العثمانى كله . فان كان الشعب التركى الآن قد غُلب فانه قد فقد كل شئ الا الشرف

ثم ذكر دجوڤارا ملخص تاريخ الحركات الوطنية البلقانية وخروج الروملى من أيدى الترك وانتهاء هذا الخلاف الذى استمر هذه القرون المتطاولة بين الترك المسلمين والبلقانيين المسيحيين وقال فى الختام انه لا يزال فى أيدى الترك القسطنطينية وادرنه والبواغيز وبهذا السبب لهم دور عظيم ويبعد كثيراً اتفاق الدول العظام على اخراج هذه الأماكن من أيديهم

قلت : قد تحقق قول هذا السياسى الرومانى بعد الحرب العامة . فقد جدّ بعد الحرب العامة مشروعا تقسيم لتركيا هما أهم كل ما ذكره من مشروعات التقسيم : أولهما معاهدة سيڤر Sèvre التى أرادت دول الحلفاء أن تجبر تركيا على امضائها والتى نزعت من يد تركيا جميع البلدان العربية وجعلت بلاد الأناضول التركية مناطق مقسّمة بين دول الحلفاء وجعلت القسطنطينية نفسها ـ وان كان سيبقى فيها السلطان مقيما ـ تحت حكم لجنة دولية . فهذه المعاهدة لو نفذت لكانت تركت تركيا أثراً بعد عين

ولكن الأتراك ثاروا عليها واعتصموا بالأناضول وجعلوا مركزهم أنقرة ورماهم الحلفاء بجيش اليونان فقاوموه واحتل اليونان قسما من بلاد الأناضول الا أن الأتراك نهضوا

---

(١) ويذكر هنا دجوڤارا الآيات القرآنية التي تنهى عن الربا وتحث على امهال المديون الى وقت الميسرة وتنهى عن البخل

ونشطوا واستماتوا فى سبيل استقلالهم فما زالوا حتى دحروا اليونان وأخرجوهم ومزقوا شملهم فاضطرت الدول أن تعود لمصالحة تركيا على غير قاعدة معاهدة سيفر المنبوذة وعقدت مع تركيا معاهدة لوزان التى أبقت لتركيا الأناضول والقسطنطينية وادرنه وأخرجت من يدها البلاد العربية كلها وكل ما كان لها فى افريقية وجزائر بحر الارخبيل الا الجزر المصاقبة للدردنيل تنيدوس وما جاورها

ولقد كان العامل الأعظم فى بقاء تركيا وعدم اخراج الترك من الاستانة هذه المرة أيضاً هو اختلاف الدول وخوفهن من أن تحتل انكلترة الاستانة ولا تخرج منها فآثروا أن تبقى تركيا فى الوجود وأن تبقى لها القسطنطينية على أن تكون لانكلترة وألفوا لجنة للبواغيز دولية ومنعوا تحصينها . وهكذا ثبت أن هذا الموقع العظيم الذى هو استانبول لا يزال بأهمّيتهِ الجغرافية والسياسية والعسكرية هو السبب الأكبر فى وجود تركيا

* * *

ولنعد الآن الى ذكر التسامح والتعصب وأىّ الفريقين أحق بان يقال انه متسامح الاسلام أم أوربة ؟ مما كان هو أصل البحث الذى ساقنا الى تلخيص « مائة مشروع تقسيم لتركيا » فنقول :

قد شهد هذا الرجل الضليع فى علم السياسة المطلع على تاريخها بما يندر أن يطلع عليه عالم آخر ان أشد التبعة فى هذه العداوة المستمرة بين الاسلام والنصرانية انما هى واقعة على المسيحيين . قال هذا فى مقدمة كتابه هذا المصدّر بمقدمة من قلم « لويس رنول » Lauis Renault من مشاهير أساتيذ الحقوق والعلوم السياسية .

ثم ذكر فى خلاصة كتابه أن من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى اعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للامم المسيحية التى كانت خاضعة لها لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحرّيتين كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالأ وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه الحقيقة أم لم يعلنها فانها الحقيقة التى لا شائبة فيها . ولذلك نجد ملاحدة انقرة يجعلون من جملة حججهم فى التفصى من الشريعة الاسلامية قولهم انه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم تطرأ عليها هذه المصائب التى لزمتها مدة ستة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث مسيحيين وبأن

الشريعة كانت تمنع السلاطين من اجبارهم على الدخول فى الاسلام أو الجلاء

وقالوا ان السلطان سليما الأول أراد توحيد عناصر السلطنة واجبار المسيحيين على احدى خطتين الاسلام أو الرحيل فقام فى وجهه زنبيللى على افندى شيخ الاسلام وقال له : « لا يحق لك هذا والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم »

ولقد كانت فى السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين يعيشون وافرين مترفهين كاسبين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الاسلامى . فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة و بطل العمل بالشرع وأخذ الترك باوضاع الافرنج وقلدوهم فى كل شئ وعولوا على سياسة « التمغرب » (غر بلاشمق) لم يبق فى جميع الأناضول الا فئة قليلة جدا من المسيحيين عدة آلاف . وان كان بقى فى الاستانة نحو من مائة وخمسين الف نسمة فهؤلاء قد أبقاهم الدول بالاتفاق مع تركيا فى مقابلة مسلمى تراقيا الغربية الذين أبوا أن يتركوا أوطانهم و يرحلوا الى تركيا عندما تقررت مبادلة السكان وأجلت الدول بمقتضى معاهدة لوزان المنعقدة سنة ١٩٢٣ المسلمين الذين فى الروملى الى الأناضول والمسيحيين الذين فى الأناضول الى الروملى والمورة

وهذا برهان ساطع على سماحة الشرع الاسلامى وامكان تساكن المسلم والمسيحى واليهودى فى ظله بالأمان ولاطمئنان وعدم سماحة الطريقة الأوربية التى منذ أخذ بها الترك أصبحوا لا يقدرون أن يساكنوا المسيحيين ورفضوا أن يدخلوا فى مجلسهم النيابى نائبا واحداً مسيحياً أو يهودياً . وقد كنت أُحصى عندما كنا فى مجلس الأمة أيام الدولة العثمانية عدد نواب الأروام بخمسة عشر ونواب الأرمن بخمسة عشر وكان بيننا خمسة نواب من مسيحيي العرب أربعة منهم عن سورية ولبنان وواحد عن الموصل . وكان أيضاً عدد من نواب اليهود . وقبل الحرب البلقانية التى ذهبت بست ولايات من الولايات العثمانية سلانيك ومناستر وقوصوه واسكوب واشقودرة ويانيا و بقسم من ولاية ادرنه كان نواب المسيحيين فى المجلس ضعف ما كانوا يوم كان محرر هذه السطور نائباً عن حوران من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩١٨

و بالاجمال لما كان العمل فى تركيا بمقتضى الشريعة الاسلامية كانت روح التسامح

والمساواة فى الحقوق والوظائف هى السائدة فى هذه المملكة. فلما اتخذ الأتراك خطة التفرنج أو « التمغرب » على رأيهم حصروا تركيا كلها بالترك وحدهم بدون نظر الى الأجناس الباقية عندهم . وكأنهم عاملوا بقية المسيحيين واليهود الذين فى تركيا معاملة فرنسة لمسلمى الجزائر وايطالية لمسلمى طرابلس مثلاً

ومن طالع تاريخ الاستعمار الأوربى وتاريخ الاستيلاء الأوربى سواءً كان فى القديم أو فى الحديث علم أن الأوربى بمقتضى فطرته لا يطيق وجود غيرهِ ولا يرى اذا ساد حقاً الا لنفسه . فهو لا يقف بمجرد الوجدان كما يقف المسلم عن استصفاء حقوق من يستولى على بلاده بل اذا وقف لا يقف الا بسبب قوة تصادمه أو بسبب موازنة يترجح بها عنده نفع الوقوف على ضرره . فأمّا اذا وجد نفسه قادراً أن يفعل ولا يلحق به ضرر فانه قلما يتوقف عن هضم حقوق الذين تغلب عليهم الا نادراً . ولقد تراه من شدة اثرته وطمعه واعتقاده ان له أن يحصر كل شئ فى نفسه ان سمح لرعاياه بان يمارسوا شعائر دينهم مثلاً عدّ ذلك منةً كبرى وأقامها حجة على تسامحه الدينى . فقد قرأنا كثيراً من الخطب والمقالات لرجال الفرنسيس يمنّون فيها على مسلمى المغرب بانهم لم يعارضوهم فى دينهم .... وكأنهم يرون ذلك فى الذروة العليا من العدل والنزاهة وكمال المدنية.

وقد نسوا أن الحرية الدينية حق طبيعى لكل انسان وانها من أقدس الحقوق المقررة فى تاريخ البشر منذ وجد البشر وان لكل انسان بحسب علم الحقوق العامة أن يدافع عن اية حرية دينية جرى عليها حجر أو تضييق فى اية بقعة من الأرض وانه لم يعهد أن أمة مهما بلغ بها التوحش ان قامت وعارضت قوماً فى دينهم . وان فعلت ذلك كما فعل الاسبانيول بمسلمى الاندلس مثلاً أصبح هذا الأمر حديث الاجيال وعدّه التاريخ وصمة أبدية لفاعليه على ممر الأيام والليالى

ويا ليت الفرنسيس وقد تبجحوا باعطاء مسلمى المغارب حريتهم الدينية قد فعلوا وقرنوا القول بالعمل . والحقيقة أنهم منذ نصف قرن سائرون فى افريقية على خطة الكردينال لافيجرى والأب فوكو واضرابهم ممن زرعوا فى عقولهم أنه ما دام مسلمو المغرب مسلمين تبقى سيادة فرنسة على هذا القطر تحت خطر الزوال . وانه لأجل أن تأمن فرنسة على مستقبل أمرها فى شمالى افريقية لا مندوحة لها عن تنصير المسلمين . ولقد

بدأوا بهذه السياسة فى الجزائر ورأوا أن الأمة البربرية بكونها أبعد عن الاسلام من الأمة العربية تكون أكثر قبولاً للنصرانية فبثّوا الدعاة والقسوس فى كل مكان ولا سيما فى جبل زواوة والبلاد التى يكثر فيها البربر وشادوا المستشفيات والملاجئ والمدارس الافرنسية الاكليريكية وكل ذلك على نية تنصير الأهالى وفرنستهم وتعمدوا رفع التعليم الدينى الاسلامى بقدر الاستطاعة. وهذا قد أشرنا اليه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى بحث جزائر الغرب وفى الرد على روجر لابون [1] . ولقد جدّ بعد ذلك حادث عظيم أبلغ الحنق فى العالم الاسلامى منتهاه وهو أن السلطة الافرنسية أجبرت سلطان المغرب مولاى محمداً الشاب لمضى أيام قلائل على توليه السلطنة أن يوقع على ظهير يلغى العمل بالشريعة الاسلامية بين البربر و باشرت ذلك بالفعل وألغت المحاكم الشرعية فى قسم كبير من بلاد البربر بالمغرب وسنت لهم قانونا من العرف البربرى يسيرون عليه بحجة أن البرابر طلبوا ذلك .

وأصبح البربر أجانب عن الاسلام لا فى الأحوال الشخصية ولا فى المعاملات المدنية . وفى الوقت نفسه أصدر الفرنسيس أوامر بعدم دخول الفقهاء والقرّاء ومشايخ الطرق الى بلاد البربر لاجل عزل هؤلاء عن الاسلام بالمرة وتسهيل عمل القسوس فى تنصيرهم . وقد بلغ بالسلطة الافرنسية الهوس فى هذا الموضوع ان أصبحوا لايسمحون لأىّ مسلم من العرب أو من سكان المدن عامة تاجراً كان أو صانعا أو زارعاً أو غير ذلك أن يدخل بلاد البربر الا برخصة خاصة ومن يقدم على الاختلاط بالبربر أو يذهب الى قراهم بدون رخصة من الحكومة يعاقب . وفى أثناء ذلك تركوا الرهبان الفرنسيسكانيين وغيرهم من الدعاة يجولون فى بلاد البربر كما يشاءون و يبنون المدارس الدينية والملاجئ والمستشفيات ووقع أن مسلمى قصبة اسمها زمور كانوا مباشرين بناء مسجد لهم فمنعهم من بنائه الحاكم الافرنسى الذى يلى أمورهم وأعطى فسحة الأرض التى كانوا يريدون أن يبنوا فيها الجامع الى الرهبان ليبنوا فيها كنيسة . والحال أنه ليس فى هذه البلدة مسيحى واحد الا الحاكم الافرنسى . ووقع أيضاً أن أناساً من البربر استدعوا اماماً يصلى بهم فى رمضان فلما بلغ الضابط الافرنسى الذى فى ذلك المكان هذا الأمر قبض على الامام وحبسه ثم طرده . ووقع أن بعض زعماء البربر جاءوا الى مدينة رباط الفتح لأجل طلب ابقاء قضاتهم الشرعيين فألقتهم السلطة فى

(١) راجع صفحات ١٧٥ — ١٨٧ وصفحات ٣٠٤ — ٣٥٩ من الجزء الثاني

السجن . وكان بعض زعماء البربر يرسلون أولادهم الى فاس ليتعلموا العقيدة الاسلامية واللسان العربى فنعوهم من ذلك وأنذروهم ان فعلوا بعزلهم عن القيادة . والحاصل أن السلطة الافرنسية باشرت عملاً كان يحلم به لافيجرى وفوكو والآباء البيض وتستنكف الحكومة عن الموافقة عليه بصورة رسمية فهذه المرة لم تستنكف عن ذلك وحاولت تطبيق البروغرام الذى طالما حام فى خواطر الكاثوليكيين الافرنسيين وأرادوا الحكومة الافرنسية عليه ولم يتمكنوا . وقد أصدرت فرنسة هذا الظهير الذى انطلق عليه اسم « الظهير البربرى » فى شهر مايو سنة ١٩٣٠ أى منذ سنتين وزيادة وكان بطل هذه المعركة المقيم الافرنسى العام فى المغرب المسيو سان الذى اشتهر بالتحامل على الاسلام وكان من قبل المقيم الافرنسى العام فى تونس وفى أيامه انعقد مؤتمر الافخار يستيا — أى استحالة الخبز والخمر بالتقديس الى جسد المسيح ودمه — فى قرطاجنة وأنكر المسلمون ذلك وعدوه مظاهرة مسيحية دينية فى بلاد اسلامية وكان للمسيو سان هذا اليد الطولى فى جعل هذه المظاهرة الصليبية فى تونس ثم ان الفرنسيس رفعوا درجته وجعلوه المقيم العام فى المغرب فجمع حوله عدة من متعصبة الكاثوليك كالجنرال « نوغيس » Nayues والمسيو « سوردون » والمسيو « كورديه » واضرابهم واندرأوا يهيئون الطرق اللازمة لما أملوه من تنصير البربر وتحقيق حلم كان المتشددة من كاثوليك الفرنسيس يحلمون به من زمن طويل . وجرّأهم على هذه الخطوة الغريبة ما رأوه من استنامة شيوخ المغرب والفئة المعممة الى كل ما يراد بهم وعدم معارضتهم فى قليل ولا كثير لارادة السلطة المحتلة ومن ممالأة أكثر رجال « المخزن » أى الحكومة المغربية مثل الوزير المقرى وغيره ممن لا يفكرون الا فى مآربهم الخاصة ويخشون على وظائفهم فيما اذا وقفوا فى وجه السلطة المحتلة . وزاد جرأتهم على العمل انهم وضعوا على كرسى السلطنة شابا هو ثالث أولاد المرحوم مولاى يوسف لا الأول ولا الثانى وجعلوا له مرشداً جزائرياً اسمه « المعمرى » يسوق السلطان الشاب الى ترويج مراضى السلطة الافرنسية فى الدقيق والجليل بلا نزاع بل بلا تردد ويبين له انه ان أبدى أقل تلكؤ فى تنفيذ ارادة الدولة الحامية كان نصيبه الخلع والنفى وما أشبه ذلك . ولكن الفرنسيس فى هذه النوبة لم يصح حسبانهم ولا أصاب تقديرهم ورأوا من أهل المغرب فى الحركة البربرية هذه غير ما كانوا ينتظرون . وقد كان الفرنسيس أرادوا مولاى يوسف

على اصدار الظهير الذى اجبروا ابنه على توقيعه فأبى أشد الآباء فما كاد يوارى التراب حتى جاءوا يضغطون على ابنه مولاى محمد فى امضاء هذا الظهير الغريب وبواسطة المعمرى والمقرى تمكنوا من مرادهم وحسب لوسيان سان هذا فوزاً مبينا . ويؤكد العارفون انه كان بين الفاتيكان ولوسيان سان مراسلات خفية فى قضية البربر وان الفاتيكان وعد سان اذا منع الاسلام من دخول بلاد البربر بدفع مبالغ طائلة نفقة بناء مدارس وكنائس ومستشفيات تبشيرية . وأخيراً صحت نيتهم على العمل وأرادوا أن يلبسوا هذه المسئلة ثوباً غير ثوبها الحقيقى وهو ان جل مرادهم بهذا الظهير هو ادخال اصلاحات عدلية واقامة البربر على اعرافهم كما يشتهون . الا ان هذا لم يقنع أحداً لأنه لو كانت المسئلة مسئلة اصلاحات عدلية لكان ذلك ممكنا بدون الغاء المحاكم الشرعية التى كانت تفصل فى قضايا الأحوال الشخصية ولما كانت السلطة الافرنسية تمنع اختلاط العرب وأهل الحواضر بالبربر ولاتتعرض لمنع التعليم الاسلامى واللسان العربى بين البرابر وتصد عن بناء المساجد الى غير ذلك

فأهل المغرب ثاروا بأجمعهم من أجل قضية البربر هذه . فقد وجدوا السلطة المحتلة لم تكتف بالاستئثار باراضيهم ومرافقهم ومعادنهم وحقوقهم السياسية والاقتصادية بل مدت يدها الى دينهم الذى تعهدت فرنسة فى معاهدة «الحماية» التى بسطتها على المغرب باحترامه قائلة «ان جميع الاصلاحات التى تقوم بها داخل المغرب لاتمس الدين الاسلامى فى شىء ولا تجلب أىّ ضرر على الحالة الدينية ولا تلحق أدنى مساس بنفوذ السلطان» وعليه كانت ضوضاء شديدة لهذه القضية وأكثر ما اهتاج لها الشبان والطلبة وخطبوا فى جامع القرويين وجوامع اخر احتجاجاً على الظهير وطلبوا الغاءه وساروا جاعات فى الشوارع صاخبين فلجأت السلطة الى القسوة وجلدت بالسياط نحو مائة شاب من الطلبة القرويين والقت فى السجون مئات وقيل ألوفاً وغرّبت عدة من رؤوساء الحركة وكل هذا لم يفد فتيلا فى تسكينها . وأوفدت فاس وفداً الى السلطان فى الرباط مؤلفا من أعيان البلدة وعلمائها وقدموا له عرض حال وبكوا على الدين وعلى مساس سلطة السلطان التى حلت محلها على البربر السلطة المحتلة . ولكن لم يكن فى يد السلطان شىء . وبقى لوسيان سان متمسكا بتنفيذ ظهيره . فوصل صريخ المغاربة الى مصر والشام والعراق والهند والجاوى وغيرها وأيقن المسلمون انهم ان خذلوا مسلمى المغرب فى هذه المسئلة لم يمض زمن حتى تعرضت جميع الدول المسيحية للدين

الاسلامى أما على سواء أو بخط منحنٍ وحاولت تحويل المسلمين عنه . ولذلك نشر أعيان مصر احتجاجا شديداً على عمل فرنسة فى قضيـة البربر أمضاه منهم الأمير الكبير عماد الاسلام وثمال كل مستضام الأمير عمر طوسون و زهاء مائة من كبار مصر وعلمائها وزعمائها وتوالت الاحتجاجات على فرنسة من كل فج والى جمعية الأمم وقامت الصحف الاسـلامية وقعدت لهذا الحادث . ولما انعقـد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف فى أواخر السـنة الماضية أصـدر قراراً بالاحتجاج على الظهير البربرى وكل قانون تقصـد به احدى دول الاستعمار رأساً أو بالواسطة تحويل المسلمين عن الاسلام وأبلغه المؤتمر الى جمعيـة الأمم بواسطة الوفد السورى الفلسطينى فى جنيف . وكان قد بسط القضية البربرية المذكورة فى المؤتمر الشاب الأديب الفاضـل السيد مكى الناصرى الذى كان من ممثلى المغرب فى المؤتمر . كما انه نشر بعد ذلك رسالة قيمة عنوانها « فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الأقصى » جمعت كل الوثائق والأدلة التى لا تقبل الرد ولا المماحكة على المراد الحقيقى من قضية هـذا الظهير البربرى وهو تحويل البرابر عن الاسلام الى النصرانية بطول الزمن و بقطع شأفة الشرع الاسلامى والتعليم العربى من بينهم . وكان شـبان المغاربة فى باريز نشروا رسالة بالافرنسية فى هذا الحادث عنوانها « عاصفة فوق مراكش » Tempete sur Le Maroc فمن شاء الاطلاع الوافى على هذا البحث فليقرأ هذه الرسالة ورسالة السيد مكى الناصرى المار ذكرها . وفى ٦ صفر سنة ١٣٥١ نشر كاتب هذه الأسطر رسالة فى «الجامعة العربية» فى القدس الشريف فى هذا الموضوع آثرت أن أنقلها الى هـذا الـكتاب لنستغنى بها عن اعادة الشىء نفسه وهى :

ان الحـكومة الافرنسية عنـد ما تتبرأ من دسيسة تنصير البربر وتزعم أنها بالغائها المحاكم الشرعية من بين البربر لم تقصد اخراجهم من الاسلام وانما قصدت معاملتهم بمقتضى عرفهم الذى هم متمسكون به ! تدخل فى مأزق ضيق لا مخرج لها منـه الا بالرجوع عن هذه السياسة العقيمة السقيمة التى ثلمت اسم فرنسا فى العالم وألحقت بها ضرراً كبيراً

أولاً — ان مسلمى المغرب بالاجمال متفقون على أن هذا الظهير لم يكن الا دسيسة لاخراج البربر من عقائدهم وأوضاعهم الاسـلامية وانه ليستحيل تواطؤ أمة عـدة ملايين على الـكذب

ثانيا — انه من سنتين كاملتين لا تزال احتجاجات أهل المغرب متواصلة منها ما هو

بتلاوة الأدعية العامة فى المساجد ومنها بالخطب ومنها بالكتابة فى جرائد فرنسة ومنها بنشر كتب خاصة بالافرنسية وبالعربية ومنها بتوزيع مناشير بين الأهالى ومنها بغير ذلك .

ثالثاً — قد ضرب من أجل القيام على هذا الظهير نحو من مائة شاب من طلبة القرويين بفاس وجلدوا بالسياط جلداً مبرحا وحبس مئات فى فاس والرباط والدار البيضاء ومكناس ونفى عدد كبير من الوجوه والطلبة والادباء ولا يزال بعضهم منفيين الى هذه الساعة ويستحيل أن يكون كل هذا من أجل محض توهم .

رابعاً — قد تألف وفد بعد صدور الظهير بشهرين وذلك من أعيان فاس وعلمائها وتجارها وقصدوا السلطان فى الرباط وشكوا له من هذه الفادحة التى فيها ما فيها من الخطر على الدين الاسلامى فى المغرب وعلى سلطنة السلطان نفسه وأبدوا له ما فيها من التناقض مع تعهد فرنسة فى المعاهدة الافرنسية المراكشية باحترام الدين الاسلامى وأوضاعه وقدموا له عريضة وصلت الينا صورة فوتوغرافية منها فنشرناها فى مجلتنا « لاناسيون آراب » فى العدد الثامن من اعداد سنة ١٩٣٠ وشاع يومئذ ان السلطان الشاب كان يبكى مما سمعه من وفد فاس ولكنه لم يقدر على شىء كما لا يخفى

خامساً — لم يكن المسلمون وحدهم هم الذين شهدوا بأن قضية الظهير هى قضية مقصود بها اخراج البربر من الاسلام ، بل شهد بذلك عدد كبير من كتاب الفرنسيس أنفسهم من الأحرار ومن ذوى الوجدان لأن فى هذه الأمة من الشرف والنزاهة وحرية الفكر ما لا ينكره أحد ، ولم يكن هؤلاء الذين كتبوا واحتجوا فى الجرائد هم الاشتراكيين فقط بل احتج على قضية الظهير البربرى رجال ليس بينهم وبين الاشتراكيين أدنى صلة مثل المسيو اوجين يونغ ومثل المسيو دريمنغهم العالم الفاضل الذى هو معدود من كتاب المسيحيين . . . وقيل لى ان المستشرق الشهير المسيو ماسينيون وهو كاثوليكى النزعة أيضاً يريد خلاص فرنسة من قضية هذا الظهير الذى شان سمعتها

وكل من يحب فرنسة ويحب كرامتها لا يرضى لها بهذه الدسيسة البربرية التى جرها اليها المسيو سان وبعض أشخاص من الفئة الاستعمارية الذين يقولون بقول الكردينال لافيجرى وأمثاله بأنه لا يمكن أن تأمن فرنسة على شمال افريقية الا بتحويل مسلمى المغرب الى الدين المسيحى . . . ان هذه المبادىء لو أعلنت فى القرون الوسطى لأنكرها

الناس وأكبروها فكيف فى هذا العصر وانه ليستحيل على المسلمين أن يرضوا بتعرض فرنسة للدين الاسلامى فى المغرب لأن المسلمين لو قدر وسلموا كل شيء يملكونه على وجه الأرض فان أمرين لايتساهلون فيهما أبداً ما دام فى الدنيا مسلم واحد وهما عرضهم ودينهم

سادساً — انه غير معقول وغير متطابق وغير منطقى أصلاً قول الحكومة الافرنسية اننا نحن لم نقصد اخراج البربر من الاسلام وانما ألغينا المحاكم الشرعية من بينهم نظراً لتمسكهم بعرفهم ! فان المسلم لا سيما فى الأحوال الشخصية لا يكون مسلما الا اذا اتبع شريعة الاسلام ومادام البربر يقولون انهم مسلمون فلا بد من أن يكون لهم قضاة مسلمون والا فيكونون معدودين قد خرجوا من الاسلام أو يكون المقصود تهيئة خروجهم منه ويكون بقاؤهم على الاسلام بالاسم موقتا الى أن يكون انقرض منهم طبقة البالغين الحاضرين

سابعا — لنفرض المحال وان الغاء المحاكم الشرعية لايعنى به الغاء الاسلام من أصله فنحب أن نسأل الحكومة الافرنسية مامعنى منع فقهاء المسلمين وحفاظ القرآن الكريم والأئمة والمؤذنين وكل خادم للدين الاسلامى من التجوال فى بلاد البربر ؟ فان هذا المنع قد وقع فعلاً وكان كل انسان يريد الذهاب الى قرية من قرى البربر لشغل خاص أو لتجارة أو أى عمل من الأعمال لايؤذن له فى الذهاب الى هناك الا بتذكرة جواز يعلم عليها. وقد شددت الحكومة الافرنسية فى المغرب فى هذا المنع تشديداً ارتفع به عويل الناس الى السماء لأن البلاد مختلطة بعضها ببعض وعلاقات العرب والبربر وأهل المدن متشابكة وبرغم هذا كله بقى المسيو سان مصراً على منع الاختلاط بين العرب والبربر ولم نسمع انه بدأ الناس يجولون فى القطر المغربى بدون تذاكر جواز وعاد مشايخ الدين وحملة القرآن يترددون الى قرى البربر التى كانوا يترددون اليها الا منذ عهد قريب وذلك أيضاً تحت المراقبة

ثامناً — بمقابلة منع الفقهاء وحفاظ القرآن من التجول فى بلاد البربر كان القسوس والمبشرون قد ملأوا السهل والوعر وباشروا بناء الكنائس والمدارس وذلك فى أماكن ليس فيها مسيحى واحد وقد حصل ان أناساً من البربر كانوا يريدون بناء مساجد جمعوا لها أموالا فأوقفتهم السلطة الافرنسية عن بنائها . وحصل أيضا ، وعندنا اسم المكان والحاكم الذى فعل ذلك ، ان أهالى قصبة كانوا مباشرين بناء مسجد فى أرض خاصة بالوقف الاسلامى فنعهم الحاكم الافرنسى الذى بتلك القصبة من البناء وأعطى قطعة الأرض نفسها للرهبان

الفرنسيسكانيين و بنوا فيها كنيسة وهذا وليس فى تلك القصبة التى يقال لها زمور مسيحى واحد . ان الفرنسيس يحتجون على عملهم هذا بكون الاتراك الانقريين أبطلوا العمل بالشريعة الاسلامية وانهم هم لا يجب عليهم أن يحافظوا على الشرع أكثر من الاتراك المسلمين أنفسهم ، والجواب على هذا ان الاتراك وان كانوا خالفوا الشريعة فى بعض القوانين التى أدخلوها فى حكومتهم فلا يزال أهالى تركيا مسلمين ولا يزال لهم رئاسات دينية فى كل بلدة ولا يزال المفتون هم المنفذين للشريعة والحكومة تمنع اية دعاية دينية مسيحية بين المسلمين كما تمنع أية دعاية اسلامية بين المسيحيين أو اليهود فالمسلمون فى المغرب لا يحاولون بث الدعاية الدينية الاسلامية بين المسيحيين ولكنهم يطالبون فرنسا بعدم ترويج الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين و بعدم حمايتها بالقوة العسكرية والسياسية فان فرنسا تزعم انها دخلت المغرب لأجل أن تحمى السلطان وتحافظ على الدين الاسلامى وشعائره وهذا صريح فى المعاهدة التى وقعت بينها و بين مولاى عبد الحفيظ والحال اننا نراها اليوم كأنها انما دخلت لترويج دعاية دينية كاثوليكية وتحميها بالقوة السياسية والعسكرية . وغريب جداً ان أمة تعد نفسها فى مقدمة الأمم المتمدنة تنقاد الى سياسة كهذه ارضاء لخواطر بعض الاكليريكيين من الفئة الاستعمارية .

تاسعاً — ان المؤامرة فى قضية الظهير البربرى لم تقع على الدين الاسلامى وحده بل على الثقافة العربية بأجمعها فانهم منعوا التعليم العربى بين البربر بتاتاً وقد ثبت أن بعض زعماء قبائل البربر كان لهم أولاد يتعلمون العربية فى فاس فأنذروهم بسحب أولادهم من هناك أو يقطعوا لهم رواتبهم وقد ثبت أيضاً انهم لايريدون ان يتعلم البربرى الا اللغة البربرية و بجانبها اللغة الفرنسية فقط وهذا كما ثبت ان بعض زعماء من البربر جاءوا الى الرباط يلتمسون ابقاء القضاء الشرعى فى ديارهم فقبضوا عليهم والقوهم فى السجون ارهاباً لهم ولغيرهم وسداً لهذا الباب .

عاشراً — ان كثيرين من الافرنسيس كانوا لايصدقون باجراء هذه السياسة المقصود منها تحويل البربرى عن الاسلام و يعتقدون ان المسئلة عبارة عن اصلاحات عدلية مماله عادة ان يجرى فى تركيا ومصر اللتين أدخلتا فى بلادهما كثيرا من القوانين الاوربية .

ولكن لما مضى على ذلك زمن واطلعوا على الحقيقة وعرفوا ان المسألة ليست مسألة

اصلاحات عدلية وان كل المقصود هو انسلاخ الامة البربرية من الدين الاسلامى ، ولما كان التعرض للاديان من الامور التى يستقبحها الرأى العام بأسره والتى هى مخالفة للدستور الافرنسى فقد شرعوا يقبحون هذه السياسية فى المغرب وقد اطلعنا منذ أشهر على مجلة راديكالية تطالب الحكومة بالرجوع عن هذه السياسة وتقول ان فرنسا لم تكن قط دولة دينية ، بل حرية الاديان فيها مقدسة . وأخيراً اجتمعت الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان فى باريس وقررت ما يلى :

«ان الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان بعد أن اطلعت على ماجريات القضية البربرية وعرفت ماحصل فى المغرب على أثر الاحتجاجات التى قام بها الاهالى على الظهير الصادر فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ طلبت من اللجنة المركزية ان تسعى لدى الحكومة الافرنسية فى المغرب بتخلية سراح المنفيين محمد اليزيدى وعبد اللطيف الصبيحى وعبد اللطيف العتابى ومحمد شماعو الذين أبعدوا بسبب القضية البربرية وبالاحتجاج على خطة السلطة الافرنسية فى المغرب بتكافلها مع الرهبان الفرنسيسكانيين فى تعرضهم للاسلام مما أقام العالم الاسلامى كله على فرنسا . وان الشعبة المذكورة تطلب من جميع جمعيات حقوق الانسان الفرنسية أن تقوم عصبة واحدة وتذكر الحكومة الافرنسية بان حرمة العقائد والضمائر ينبغى أن تكون أساساً لعلاقات فرنسا مع جميع الامم من كل الاجناس والاديان وان تحتج على سياسة الادماج التى هى جارية فى المغرب وذلك بناء على أنه من الحق الطبيعى لكل شعب أن يترقى ضمن دائرة ثقافته الخاصة »

فمن هذه الأسباب كلها نقول ان سياسة فرنسا فى القضية البربرية كانت سياسة تهور حملها عليها ماجد بعد الحرب العامة من الاعتقاد عند بعض الاوربيين ان سياج الاسلام قد انخرق بتمامه ولم يبق مانع من مد اليد الى دين المسلمين كما امتدت الى دنياهم . وهذا خطأ عظيم أساسه جهل الاوربى بحقائق أحوال العالم الاسلامى مهما زعم انه مطلع عليها . ومن حيث انه كما قلنا نجد كثيراً من الافرنسيين حتى من غير الاحزاب الاشتراكية يستنكرون هذه السياسية البربرية ويودون لو ترجع حكومتهم عنها ، فقد صرنا بعد فوز الفرق الشمالية فى الانتخابات نرجو ان تتألف حكومة راديكالية تبتعد عن الصبغة الاكليريكية أكثر من الحكومات السابقة وتقضى على هذا الظهير البربرى الذى ألحق

باسم فرنسا عيباً كبيراً وآسف كل محبيها

ومن قبل ان تأتى هذه الحكومة الجديدة وصلت الينا معلومات جديرة بالتأمل وهى مطابقة لما كنا نعتقده من ان الحكومة الافرنسية لابد أن تعود الى التبصر ولن ترضى لنفسها بهذه الضوضاء القائمة حول الظهير البربرى وذلك ان نظارة الخارجية الافرنسية قد استفتت بعض العلماء المتخصصين فى الامور الاستعمارية وسألتهم عن رأيهم فيما يجب أن يكون العمل به فى العدلية البربرية وعلمنا ان من جملة من استفتتهم فرنسا العلامة سنوك هوركرونييه المستشرق الهولاندى الشهير المعدود الآن رأس المستشرقين فى أوروبا فقد سألته هكذا : «ماذا كان موقف الحكومة الهولاندية أمام القانون العرفى المعروف عند الاهالى بالعادات فى الجاوة وماقولكم فى جمع عوائد البربر بشكل قانون وتطبيقها عليهم مع العلم بانهم مسلمون لاشك فى اسلامهم ؟ »

فاجاب الأستاذ هوركرونييه بتقرير طويل قائلا فيه : « ان هولاندا لم تحاول قط أن تجعل من العادات الأصلية القديمة قوانين رسمية تعاقب من يخالفها وجل ما عملته فى هذا الباب أنها جمعت فى بعض النواحى طائفة من العادات وأعطتها اسم قانون خاص Code Privé ولم تجبر الأهالى على الخضوع له . أما فى القضية البربرية فان جمع عوائد البربر بشكل قانون ومحاولة تطبيقها يعد خطأ فاحشاً وذلك أن الفائدة هى فى تحويل العرف وتطبيقه على روح المجتمع الحاضر فاما اذا جمعت تلك العوائد وجعلت قانوناً فانها تصير عقبة فى وجه ترقى المجتمع لأن العرف البربرى هو عبارة عن عادات وأوضاع نشأت فى وسط متأخر بسيط فتطبيقها الآن بعد أن ارتقى المجتمع وكثرت المعاملات واشتبكت المصالح وصار البربر أهل عقار وتجارة هو مما يرجع بهذا القوم الى الوراء وقد يضر الفرنسيين أيضا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان وسطاً متديناً كالوسط المغربى لا يفيد فيه الا قانون له صبغة مقدسة بحيث يعد خرقه جريمة لا أمام ضمير الانسان فقط بل أمام الله تعالى . وليس العرف البربرى بذى صبغة دينية بل هو ، مع تأخره وسذاجته وعدم موافقته لمجتمع راق ، فاقد الصفة المقدسة التى تجعل من خالفه يخاف من ربه» وقال العلامة هوركرونييه : «ان من مصلحة فرنسا الحقيقية أن لا تحكم فى المغرب الا بالقانون الذى له أكبر حرمة فى نفوس أهل المغرب والذى هو مرتبط بعقيدتهم الدينية وان بذلك لو تأملت فرنسة زيادة فى تأمين

حقوق المستعمرين . »

فلجنة المصالح الاسلامية فى الخارجية الفرنسية نصحت المسيو سان المقيم العام فى المغرب بالرجوع عن خطئه واستشهدت له بما فعلته هولاندا فى الجاوة . فكان جواب المسيو سان بالاصرار على تطبيق الظهير البربرى زاعماً أن هولاندا طبقت العوائد القديمة على كثيرين من مسلمى الجاوة وتأتى لها ذلك . وحقيقة الحال أن هذه المحاولات ان كانت من فرنسا أو من هولاندا هى صادرة عن مبدأ واحد وهى محاربة الشريعة الاسلامية التى تزرع فى قلوب المسلمين روح الاستقلال . ولكن لا فرنسا ولا هولاندا تجنى من هذه المحاولات سوى عداوة الاسلام ويجوز أن تكون هولاندا فى بعض أماكن من الجاوة قد أرادت أن تجرب هذه التجربة من بعد ما بدأت بها فرنسا فى المغرب لا من قبل ذلك ، نستدل على هذا من الاحتجاجات التى حصلت من مسلمى الجاوة فى المؤتمر العظيم الذى عقدوه مؤخراً والذى احتجوا فيه أيضا على عمل فرنسا فى المغرب [1]

فالمسلمون غير مخطئين فى خوفهم من التساهل مع فرنسا فى القضية البربرية لأنها قضية متعلقة بالدين الاسلامى فاذا ساغ لفرنسا أن تقطع وتصل فيما يتعلق بالدين الاسلامى فى شمالى افريقية لم تبق دولة أوربية لها رعايا مسلمون الا حذت حذوها وربما زادت عليها ومن المعلوم أن ثمانين فى المائة من الثلاثمائة والخمسين مليون مسلم الذين على وجه الأرض هم رعايا لدول غير اسلامية . فاذا بدأ البثق الدينى كما بدأ البثق الدنيوى ولم يصده المسلمون من الآن بكل شدة كان الخطر على الملة الاسلامية باجمعها أكثر مما يتصور المتصورون وذابت ذوباناً فى الأمم الأخرى بعد أن كان القرآن لها جامعاً مانعاً

حدانا الى هذه المقالة ما نأمله من الحكومة الافرنسية الآتية قريباً من المحافظة على شرف فرنسا والرجوع مع الاسلام الى السياسة التى تزول بها هذه الضوضاء القائمة من أجل قضية البربر وبهذه المناسبة نوصى القراء بمطالعة الرسالة الأخيرة التى ظهرت فى هذه المسألة تحت عنوان « فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الأقصى » المتضمنة تقريراً مقدماً الى المؤتمر الاسلامى العام وجميع مسلمى العالم من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب والمصدر بمقدمة لمندوب الأمة المغربية فى المؤتمر الاسلامى السيد محمد المكى الناصرى الذى شفا

(١) اقرأ جريدة حضرموت عن جلسات هذا المؤتمر

الغليل من هذا الموضوع بحسن بيانه وقوة برهانه وبالوثائق التى لا تمكن المكابرة فيها وبأدلة لا يستطيع الخصم نفسه أن يمارى فى شئ منها . فعسى أن الحكومة الافرنسية الجديدة تتوخى فى هذه المسألة الخطة التى ترضى العالم الاسلامى وتحفظ المبدأ العام الذى اتفقت عليه الأمم والاقوام من عدم المساس بالاديان وتلغى الظهير البربرى الذى تدهورت فيه بدلالة أناس اكليريكيين كان من أقبح الآراء أن يعهدوا اليهم بالادارة فى بلاد اسلامية . « انتهت المقالة »

* * *

فمن كان يظن أن حكومة تقول انها لادينية وتدير أمة راقية من أرقى الأمم كالأمة الفرنسية ترضى لنفسها ولأمتها بالسير على خطة دينية تبشيرية مخالفة للنزاهة وللحرية الدينية المقدسة ولعهود فرنسة نفسها . ومن كان يظن أن لوسيان سان وهذه الزمرة التى حوله يتغلبون على الحكومة الافرنسية الراقية ويسوقونها الى ما لا يليق بسمعتها فضلاً عما يضر بمصلحتها

وهذا كله انما هو راشح من بقايا المبادئ الصليبية القديمة التى لم يتمكن العلم العصرى من اقتلاع جذورها من رؤوس الاوربيين لا سيما الأمم اللاتينية منهم

وتأمل فى الأعمال التى أقدمت عليها ايطاليـة فى طرابلس الغرب والموبقات التى ارتكبتها جنودها منذ عشرين سنة فى ذلك القطر البائس (١) مما لم يسبق له مثيل الا فى القرون الوسطى وقد يكون من باب النادر فى القرون الوسطى نفسها

ومن جملة ذلك أنهم أخرجوا ثمانين ألف عربى من الجبل الأخضر من أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة وأسكنوهم فى صحراء قاحلة من أرض « سرت » وأماتوا بذلك جانباً كبيراً منهم وجميع مواشيهم وارتكبوا فى هؤلاء المساكين من الفظائع والشنائع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأخيراً اغتصبوا من أيديهم أطفالهم من ذكور واناث ممن فوق سن الأربع الى سن ١٥ سنة وحملوهم الى ايطالية لأجل تنشئتهم فى الدين المسيحى وهذا برغم آبائهم وأمهاتهم وبرغم الصراخ الذى ملأ الفضاء فى ذلك اليوم . وقد فصلوا الطفل عن أبيه، وأخذوا الطفلة عن ذراع أمها ولم ترق قلوب الطليان لبكاء ولا لعويل ولا تأملوا فى عار ولا شنار ولا فى مخالفة هذا العمل لحقوق الأمم التى لا تجعل للحكومة سلطة

(١) راجع رسالة الفظائع السود الحمر أو التمدين بالحديد والنار التى انتشرت فى هذه السنة

على القاصرين فى وجود آبائهم وأمهاتهم ولا فى مخالفته للمعاهدة التى بين تركيا وايطاليا على طرابلس والتى تعهدت فيها ايطاليا بحفظ حقوق المسلمين فى عقائدهم وأعراضهم ودمائهم وأموالهم . وأغرب من هذا كله أنهم يعترفون بعملهم هـذا ولا يرجعون عنه وتفتخر به حكومة الفاشيست فى مجلس الامة الطليانية وتصدر به القرارات وتنشر فى الجرائد . وقد عم الصريخ العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه بمـا جرى من الطليان على مسلمى طرابلس وملأت الاحتجاجات رومة وجنيف وغيرهما ولم يزل الفاسيشت على غيّهم ولم يزل العرب المطرودون من الجبل الأخضر ساكنين فى بادية سرت ورواية جرائد ايطاليا هى أن منهم خمسة آلاف نسمة أذنت لهم الحكومة فى الرجوع الى بيوتهم . وما كان المقصد من اقصاء هؤلاء الثمانين ألفاً من العرب الا أخذ أراضيهم وتسليمها للمستعمرين الطليان يتمكنون منها ولا ينازعهم أحد

اننا اذا تأملنا فى هذه الاعمال وعلمنا أنها صادرة من أمم تزعم أنها تريد أن تلقى دروس التهـذيب على العالم وجدنا أن أعرق الامم الاسلامية فى الغباوة والبداوة لا تتنزل الى مثلها . فلا وجه اذاً للمقايسة بين العـالم الاسلامى والعالم المسيحى فى التسامح وعدم التسامح . ان الاستبداد المطلق لا سيما فى الدين هو منزع أوربى محض ولا يقاس المسلمون بالاوربيين فى هذا الامر فى قليل ولا كثير

ولم يستطع الفيلسوف الافرنسى ارنست رنان Renan انـكار ذلك لـكنه حاول تعليله بكونه تراثاً مسيحياً أخذه النصارى عن اليهود . قال فى الصفحة ٢٣٨ من « حياة يسوع » طبعة سنة ١٩٢٥ ما يلى

« نعم قد كانت المسيحية غير متسامحة فى الدين ولـكن عدم تسامحها هـذا لم يكن مسيحياً فى جوهره بل هو وضع يهودى فان اليهود هم أول من قرروا الحصر المطلق فى الديانة وزعموا أن كل مبتدع ولو جاء بالمعجزات أدلة بين يديه تجب المسارعة الى رجمـهِ وبدون محاكمة .ولا انـكار أن العالم الوثنى كان أيضاً غير متسامح احيانا لـكن لو كانت عنده هذه القاعـدة لما كان ممكنا أن يتنصَّر . فاليهودية هى التى أعلنت عقيدة سرمدية مسلحة بالسيف . فلو كانت النصرانية لم تتابع اليهود فى بغضائهم العمياء ولو كانت الغت ذلك النظام

الذى كان السبب فى موت مؤسسها لـكانت بدون شك أثبت مبدأ ولنفعت النوع الانسانى أكثر بكثير » اهـ

ونحن لا نوافق رنان على هذا التعليل من جهة حصر منشأ هذا التعصب الاعمى فى تراث المسيحيين عن اليهود . بل نقول ان أعظم السبب فيه هو الغريزة الاوربية المبنية على الأثرة والطمع والجشع وحب التسلط فى كل شئ مما يثبت بالحروب الـكثيرة الاوربية التى منشؤها الاطماع وناهيك بالحرب العامة شاهداً . فالنصرانية كانت دين سلام ورفق وحلم وتوصية بالقريب و بكاء على الحزين وفيها هـذا المبدأ الشريف : « أحبّوا أعداءكم فان كنتم تحبون أصدقاءكم فأىّ فضل لـكم » فاما دانت بها الامم الاوربية تلونت بلون الآنية التى انصبّت بها وانقلبت الى ما نراه عليه الآن من الاستبداد والحصر وامتاز أتباعها من الاوربيين لا سيما اللاتين بشدة العداوة والشنآن خلافا لما كان يأمر به السيد المسيح على خط مستقيم

مباحث اجتماعية

تدخل فى غرض هـذا الكتاب

للأمير شكيب

خلط الاوربيين فى قضية الشرع الاسلامى ورميهم إياه بالجمود لتعلقه بالمعاد والمعاش معاً

قرأنا وقرأ غيرنا وما زلنا نقرأ هذه الخرافة التى معناها أن سبب تقهقر المسلمين هو الشريعة الاسلاميـة بسبب كونها أحاطت بامور المعاد والمعاش معا وجاءت بأحكام سرمدية لا تتغيَّر ولا تتبدَّل وقضت بتطبيقها فى كل زمان ومكان بدون نظر الى اختـلاف الأزمنة والأمكنة الى غير ذلك من الأقاويل التى منهم من يلقفها من دون روية ولا انعام نظر ومنهم من يعلم سر المسئلة لـكنه يتجاهل ذلك عمداً كراهيـة منه للاسلام وعملاً لهدمه ، ومنهم من يرويه كحكاية حال ويظن أن لهذا الأمر بعض التأثير فى الحالة التى آل اليها المسلمون وهؤلاء كصاحب كتاب « مائة مشروع لتقسيم تركيا »

وأغرب من هـذا أن بعض المسلمين الجغرافيين وفى طليعتهم الأتراك الانقريون شيعة مصطفى كمال قد وافقوا هذه الفئة من الأوربيين على مزاعمها هـذه وذهبوا الى أن تأخر الممالك الاسلامية وتأخر تركيا انما جاء عن اختـلاط أمور الدين بالدنيا وعن عمل المسلمين بشرع سماوى أرادوا أن ينفذوه مفرداً وأن يجعلوه سرمداً وأن يردّوا اليه كل شئ ولهذا كان لا مندوحة للامم الاسلاميـة بزعمهم اذا أرادت الرقى فى معارج الفلاح من أن تنبذ هذه الشريعة القديمة البالية التى أصبحت لا تصلح لعصرٍ كعصرنا هذا ولا مفر لها من الأخذ بشرائع وقوانين انما صلحت لهـذا العصر لـكونها وُضعت بهـذا العصر . وطابت للاتراك الـكماليين كلمة أخـذوا يلوكونها بألسنتهم ويظنون أنهـم أتوا فيها بالقول الفصل ! وهى :«نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا ولـكن شرعاً فيه قلنا ونقول» . وطاب

لمقلدة الاتراك الانقريين من أهل مصر وغيرهم وان كانوا نزراً فى عددهم أن يرددوا ما يردده الكماليون بدون تأمل فى حقائق الامور ولا فى حقائق تلك الالفاظ التى يلوكونها

وحقيقة الحال أنه ليس فى الدنيا شرع ولا قانون يخلو من « قال » و « قالوا » ولا يستقى فى منابعه الى قواعد وأوضاع وأقوال سبقت منذ مئين من السنين وربما من آلاف من السنين .

فكون الانقريين عملوا بمقتضى « قلنا » و « نقول » وأرادوا مساوقة العصر الحالى هو غير صحيح . وهم ما أرادوا الا « التفرنج » لا غير . ولم يكن عمل الاتراك بمجلة الاحكام العدلية هو الذى منع تركيا من الرقى بل كان عملها بمجلة الأحكام العدلية فى المعاملات المدنية هو عين الحكمة والصواب لان القاعدة فى القوانين هى أنها لا تفيد الا اذا كانت مطابقة لأذواق الأقوام التى تطبَّق فى محاكمهم وموافقة لمشاربهم وعاداتهم وأخلاقهم .

فعندما أخذ الاتراك بقانون سويسرة المدنى وبقانون الجزاء الايطالى أخذوا بقوانين بعيدة عن عقليتهم وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم بعد المشرق عن المغرب وما اخالهم استفادوا منها شيئاً الا التحيُّر فى القضاء والصعوبة فى التطبيق وقد بلغنى أنهم اضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة فى هذه القوانين بعد ان كانوا قبلوها على علاتها وحاولوا تطبيق قوانين جارية فى زوريخ وبرن على أهالى وان وبتلس ومعمورة العزيز . . . .

فأما خلو القوانين التركية الجديدة من « قال » و « قالوا » فقد كفانا اظهار ما فى ذلك من السفسطة « موريس برنو » Pernot الكاتب الافرنسى فى رحلته المسماة « فى آسية الاسلامية » على كون هذا الكاتب المفكر هو من أشد الاوربيين ابتهاجاً بخلع أنقرة للتقاليد والقواعد الاسلامية . لم يلم الاتراك الكماليين على العمل بقوانين أوربية وانما انتقد زعمهم أنهم انما أخذوا بقوانين لا تستند على أقوال ماضية .

فى الصفحة ١٩٠ من كتابه هذا يذكر برنو جلسة فى مجلس النواب بانقرة ألقى فيها الغازى مصطفى كمال خطبة فى معنى التجدد قال فيها : « ان التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لاحوال الزمان لا للمبادئ ولا للتقاليد »

قال برنو : « وبعد رئيس الجمهورية قام محمود أسعد بك ناظر العدلية ورقى المنبر

وقال : « ان الشعب التركي جدير بان يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله . وقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة « قال » المقدسة . فاما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا فى الماضى بل يهمنا أن نفكر نحن وان نقول نحن » وقد قوبلت هذه الجمل بعد كلام الغازى بابتهاج شديد وأشد من رأيته مبتهجا بها أحمد أغايف القوقاسى ويونس نادى ومختار بك وذلك لأن هذه الافكار هى أفكارهم وفى تصفيقهم كانوا يصفقون لفوزها » قال موريس برنو :

« الا أن هذه القضية التى قررها الغازى ومحمود أسعد فيها نظر . فاذا نظرنا الى القانون المدنى الذى استعارته تركيا من سويسرة فهل يجهل مصطفى كمال أن هذا القانون ناشئ عن منبعين أحدهما رومانى والآخر مسيحى ؟ وهل يجهل الدور الذى تلعبه فى هذه القوانين العادات القديمة والعرف الجارى الذى يريد هو الغاءه ؟ لعمرى أن كنا نريد أن نأخذ بمبدأ الغازى هذا لزم أن نقول أن على أهل كل عصر أن يلغوا الاحكام القضائية التى كان يعمل بها أهل العصر الذى سبقه وان لا يعملوا الا باحكام جديدة بحجة أنها أوفق للزمان الذى يعيشون فيه » . اه

ان موريس برنو هو من الفئة التى استحسنت كل ما فعلته أنقرة من الخروج على العقائد والقواعد الاسلامية ومع هذا فلم يقدر أن يهضم هذه السفسطة التى معناها أن القوانين العصرية لا يجوز أن يكون فيها مبادئ وأصول قديمة . وان هذا القانون المدنى السويسرى التى اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولاً وقواعد ترجع ان التشريع الرومانى القديم فهى أقدم عهداً من الفقه الاسلامى الذى يزعم مصطفى كمال أنه الغاه بسبب توغله فى القِدَم(١)

وأما قانون العقوبات الايطالى الذى اتخذته تركيا لنفسها أيضاً فهو قانون رومانى مسيحى وايطالى كاثوليكى وفيه من الاوضاع اللاتينية القديمة والاعراف المسيحية الموروثة ما لا ينكره الا المكابر فكيف يكون مصطفى كمال سيَّر أمته على نهج عصرى محض لا مدخل فيه لقال ولقالوا ولا لرأى عتيق ؟ ولقد نسى الغازى أن القوانين ينبغى أن تكون لا وفقا للزمان فقط بل للمكان أيضا وان بين المكانين تركيا وسويسرة وتركيا وايطالية

---

(١) فكيف يكون القديم مكروهاً منبوذاً والأقدم منه مقبولا معولا عليه فى وقت واحد .

بو نا شاسعا فى المشرب والمذهب والعرف والعادة . وناهيك أن جميع سو يسرة بلاد مرتبطة بعضها ببعض وسكانها لا يبلغون أر بعة ملايين وهم لا يزالون غير متفقين على قانون واحد بل تجد فى المقاطعة الواحدة قانو ناً غير قانون المقاطعة الثانية وذلك بحجة اختلاف الاعراف والعادات بين المقاطعتين . فاذا كان هذا هو تأثير الخلاف بين مقاطعة ومقاطعة فى سو يسرة فكيف تكون لعمرى درجة الاختلاف بين سو يسرة وتركيا . واذا كان القانون الذى تمشى عليه جنيف لا يوافق أهل لوسرن مثلاً وكل المسافة التى بينهما بضع ساعات فكيف يوافق قانون سو يسرة أهالى ديار بكر وسيواس وقره حصار مع أنك اذا عرفت هذه وعرفت تلك ظننت أن الارض غير الارض والسماوات

ان الذى قصده مصطفى كمال و رهطه لم يكن سوى مجرد التفرنج وان تفهم أور بة انهم هم نبذوا التقاليد الاسلامية و رموا بالشر يعة القرآنية عرض الحائط وأقاموا مقامها قوانين أور بيــة . وليس أدل على ذلك من كون المجلس الانقرى يوم قرر اتخاذ قانون سو يسرة المدنى قرر قبوله بأصباره بدون مناقشة ولا تعديل و بقيت قضاة تركيا مدة طو يلة لا تكاد تفهم من هذا القانون شيئاً . وما باشر وا تعديل القانون السو يسرى الذى اتخذوه قانونا مدنياً الا بعد اتخاذه ببضع سنوات . أما قانو ن العقو بات الايطالى الذى اتخذوه للأمور الجزائية فان ايطالية نفسها عادت فأدخلت فيه تعديلات توخت فيها ز يادة المطابقة بينه و بين مبادئ الكنيسة

وسواءٌ كان هذا أو ذاك فليس فى أور بة قانون غير متأثر بالتعليم المسيحى والتشر يع الرومانى . وعليه يكون من الخطأ البين الاعتقاد بأن القوانين الأور بية هى كلها من باب التشريع الانسانى الصرف وأنه لا مدخل فيها للمبادئ الدينية ويكون تحكما القول بأن الشر يعة الاسلامية وحدها هى التى جمعت بين أحكام الدنيا والآخرة ! ومن طالع الشرائع الانسانية عرف أنها بأجمعها سماو ية بشر ية أى أنها راجعة الى أصول دينية واجتهادات بشر ية معلقة عليها . وليس الشرع الاسلامى وحده ناصاً على أمو ر الدنيا والآخرة بل الشرع الموسوى أيضاً وديانة سيوا التى هى عقيدة أهل الهند وديانة بوذا التى هى عقيدة أهل الصين . وأما الانجيل فليس كتاب تشريع وانما هو كتاب مواعظ وآداب أراد بها السيد المسيح صلوات الله عليه تهذيب النفوس وتطهير الأخلاق واعادة الخلق الى روح

الشريعة الموسوية فلم يرد الاتيان بشرع جديد لكنه نبه على وجوب اتباع الشرع القديم فالعهد الجديد اكمال للعهد القديم لا نقضٌ له كما صرح بذلك المسيح نفسه . فيكون الانجيل أيضا لم يخرج عن الشرع السماوى وتكون دعوى بعضهم من أن الانجيل لم يتعرض لأمور الدنيا غير صحيحة . و بعبارة أخرى اذا نظرنا الى الحقيقة نجد الشرائع كلها راجعة الى أصلٍ سماوى ولكن قد فرّع الناس منها بقدر الاستطاعة و بحسب احتياجهم و بعد التجاريب المتعددة ومع مراعاة الأزمنة والأمكنة وأخذ بعض الناس فى هذا عن بعض فكل قبيل قلد قبيلا فيما هو موافق لحاله ونبذ ما هو غير موافق لحاله وجميع المشترعين انما يقصدون الرفق بالعباد وحياطة الحق ما أمكن و يرمون الى غرض واحد هو مصلحة الأمة . وهذا ما يسميه المسلمون بالاجتهاد وقد بلغوا فيه ما لم تبلغه أمة قبلهم ولا بعدهم وقد عظم على من تضيق صدورهم بالاسلام أن يكون فقهاء الاسلام بلغوا من الاحاطة بالنوازل البشرية وتبيين وجوه أحكامها ما بلغوه فزعموا أن أئمة الاسلام انما أخذوا ماأتوا به عن الفقه الرومانى . وهذا من أغرق المزاعم فى الباطل ولقد تقدم لنا فى هذا الكتاب البحث فى هذه المسئلة ونقلنا فيها كلام العلامة صاوا باشا الرومى الذى فنَّد هذا الزعم وأثبت كون أئمة الاسلام انما فرعوا على أصلين هما القرآن والحديث ولكنهم أضافوا اليهما الاجماع والقياس فتوسعوا فى الفقه ما ندر أن يكون تيسّر لغيرهم وكل من زعم ان الفقه الاسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى لا يكون اطلع على شئ من تاريخ الرسول ولا أصحابه ولا التابعين . فالشرع الاسلامى هو شرع سماوى باعتبار الأصل وتشريع انسانى باعتبار الاجتهاد والتفريع . وكذلك القانون الرومانى نفسه بعد ظهور النصرانية تلوّن بلونها . وصاوا باشا يقول طبق ما أسلفناه فى أول هذا الفصل وهو : ان السيد المسيح قد اقتصر على الوعظ بآداب عالية كانت أعلى من كل ماعهده البشر من نوعها ولكنه لم يقصد تبديل الشرائع التى كانت موجودة فى عصره وانما تأثر الفقه الموسوى والفقه الرومانى بالعقيدة المسيحية التى كانت قد بدأت تنتشر فى المجتمع وما كان لشريعة قوم من الأقوام الا أن تتأثر بديانتهم . فالآداب المسيحية قد كان لها تأثير عميق فى الفقه « الرومانى البريتورى » وأما الفقه اليوستنيانى (١) فقد كان تشريعا مسيحياً بحتاً الخ »

---

(١) نسبة الى الامبراطور الرومانى يوستنيانوس

وقد ألف فائز بك الخورى من أدباء المسيحية السوريين والحقوقيين البارعين تأليفا فى الفقه الرومانى والفقه الاسلامى وأثبت عدم اشتقاق هذا من ذاك . وعلى أىّ الأحوال لم يكن الفقه الاسلامى وحده هو الذى يرجع الى وحى سماوى بل جميع الشرائع قد بنيت على أصول دينية أو تأثرت بها . وهذه الأصول الدينية قسمان عبادات ومعاملات فقسم العبادات متعلق بالبارى تعالى الأزلى الأبدى الذى لا يتغير فلم يكن من شأن عباداته أن تتغير ولا كان دين من الأديان ولا الدين المسيحى مماجرت العادة أن تتغير أصوله بحسب الزمان والمكان . وأما قسم المعاملات فهو وان كانت له أصول من القرآن والسنة فقد كان فيه مجال الاجتهاد واسعا وكانت مصلحة الأمة هى المحور الذى يدور عليه ذلك الاجتهاد . وأينما تكون المصلحة فثمّ دين الله .

ومن نظر الى الكليات الفقهية مثل قولهم : العرف قاضٍ والعادة محكمة ولا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات واذا ضاق الأمر اتسع وما رآه المسلمون حسناً فهو حسن وعلم ان المذاهب الأربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى قد أجازت العمل بالمصلحة المرسلة أدرك من مرونة الشرع الاسلامى ومن سعة مذاهبه ومن تنزله على كل الحوادث ومن مناسبته لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل ولا يريد أن يدركه المتعنت . ولا شك أن جمود بعض فقهاء الشرع الاسلامى وشدة تعصبهم لكل شىء قد سبق العمل به وشدة نفورهم من كل أمر محدث ولو لم يكن فيه منافاة للشرع وعدم اجازتهم العمل الا بما علموه ولو كانت المصلحة المتعينة تقتضى خلافه وتهافتهم على الجزم بحرمة مالم تثبت حرمته برغم ماورد من التشديد والتدمير على كل من يقول بالحلال والحرام بغير علم كل هذا قد اتخذه اعداء الاسلام حجة على الشريعة الاسلامية بأنها جامدة و بأنها لاتلتوى مع الوقت و بأنها لاتسع جميع الحوادث و بأنها قد تخالف المصلحة وقد يضطر المسلمون الى ترك المصلحة من أجلها وغير ذلك مما ترمى به الشريعة ظلماً وعدواناً . والحق فيه ان الشريعة لايمكن أن تخالف المصلحة لأن هذه انما جاءت لمصالح العباد والله لايشرع لهم الا مايّيسر أمورهم ولا يجعل عليهم فى الدين من حرج . وكذلك المصلحة لا يمكن أن تكون مخالفة للشريعة وما يقال انه مخالف منها للشريعة فغير معترف بكونه مصلحة فان تعين المصلحة ليس بالأمر السهل وقد يظن

بعضهم المصلحة فى شئ يظن غيرهم انها فى خلافه لاختلاف الذوق وقد يجمع أكثر الأمم على اصطلاحات وعادات هى فى الواقع مخالفة للمصلحة مثل اجماعهم على الربا الذى مهما يكن من عمل العالم المتمدن به فليس هو من المصلحة الحقيقية فلا يجوز أن يقال ان تحريم الشرع اياه مخالف للمصلحة وأما المصلحة الحقيقية فلا يمكن أن يأتى الشرع بضدها وقد رأينا أموراً عدل فيها الفقهاء الى العرف وتركوا نصوص الكتب الشرعية وذلك بعد أن تبيّن لهم ان المصلحة هى فى اتباع العرف الجارى فى ذلك المكان المعين وقد رأينا أموراً ترك فيها المسلمون ظاهر الشرع لضرورة قضت عملاً بكون الضرورات تبيح المحظورات و بأن الأمر اذا ضاق اتسع . وليس بصحيح ان المسلمين لايعملون الا بنص من الكتاب أو السنة بل هم يعملون بالنص ما وجدوه فان لم يجدوه عملوا بالقياس . وما منع علماء الاسلام العمل بالرأى لافى القديم ولا فى الحديث . وغاية مافى الامر انهم اشترطوا فى الرأى بلوغ مرتبة من العلم يصح بها اعطاء الرأى . وهذا لايقدر أحد أن يقول فيه شيئا لأن الاجتهاد له شروط لايصح بدونها . وليس لكل انسان أن يجتهد وان يستنبط أحكاماً شرعية . وهذه رتبة عالية جداً لايرقاها الا من أحاطوا بالكتاب والسنة و وصلوا الى الأمد الأقصى من الرواية والدراية ثم عرفوا من أحوال المجتمع البشرى ماتتجلى لهم به وجوه المصالح و يظهر مكان سد الذريعة . واما الرأى فى نفسه لمن قدر عليه فلم يمنعه احد وكل رأى اتفقت عليه الامة اجازوه وقالوا ان الامة لاتتفق الا على صواب واستدلوا على جواز العمل برأى الامة بقوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) وقال ابن قيم الجوزية فى « اعلام الموقعين » كانت النازلة اذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس فيها عنده نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم . وعن شريح القاضى قال قال لى عمر بن الخطاب : «اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ فان لم تعلم كل أقضية رسول الله ﷺ فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين فان لم تعلم كل ماقضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح». وكتب عمر الى شريح : «اذا حضرك أمر لابد منه فانظر مافى كتاب الله فاقض به فان لم يكن ففيما قضى به رسول الله فان لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل فان لم يكن فانت بالخيار . فان شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك وان شئت أن تؤامرنى ولا ارى مؤامرتك اياى الا خيراً لك . »

ومن كتاب لعمر الى أبي موسى الاشعرى : «ثم الفهم الفهم فيما ادلى اليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة ثم قايس الامور واعرف الامثال ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق»

ولما بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل والياً على اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟ قال اقضى بما فى كتاب الله : قال : فان لم يكن فى كتاب الله؟ . قال فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأيي لا آلو . ففرح رسول الله ﷺ بقوله هذا وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله

وربما قيل : الا ان الرأى فى الفقه الاسلامى لايصح الا اذا كان ضمن دائرة الاسلام ولم يصادم الكتاب ولا السنة . وكأنهم لا يرون القضاء موافقاً للمدنية العصرية الا اذا كان غير مقيّد بالكتاب والسنة . وليس هذا الافلات بضرورى أصلا اذا كان الكتاب والسنة لايأمران الا بما فيه المصلحة ولا يحملان الناس على مافيه ضرر لهم ومادام خير الأمة اينما كان هو رائد الشريعة فمن الظلم ان نتهم الشريعة بضيق العطن ونقول انها لاتسع النوازل وهى قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحاً لكل من كان حقيقاً به وجعلت المصلحة والضرورة وسد الذريعة من الاصول الكلية التى يرجع اليها والحاصل ان جميع الشرائع تقريباً لها أصول دينية مرعية مقدسة عند اتباعها ولم تختص بذلك الشريعة المحمدية . وجميع الشرائع أيضا قد توسعت وتكملت بالاجتهادات البشرية التى اختصت منها شريعة الاسلام بالقسط الأوفى . ولم تختص بذلك القوانين الأوربية وحكاية جمود الشرع الاسلامى على وتيرة واحدة وأنه لا يتقدم ولا يتأخر ولا يراعى تغير زمان ولا مكان هذه من جملة الدعايات التى يبثّها أعداء الاسلام وروّاد الاستعمار الأوربى ويدخلون بها على ناشئة المسلمين بالشبه التى تكره اليهم هذا الشرع وتحبب اليهم المروق منه وهذا جل ما تبغيه أوربة من الدعاية فى هذا العصر بين المسلمين لمعرفتها انه ما دام الشرع المحمدى هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم الا بالاستقلال التام وعاراً لا يرحضه الا طرد الأجنبي المتغلب من المستعمرات التى تغلب فيها عليهم . وأية مصيبة على أوربة أعظم مَن هذه !

قضية فصل الدين عن السياسة

ويدخل فى هذا الباب قضية « فصل الدين عن السياسة » وزعم الفئة الدسّاسة من رواد الاستعمار وأعداء الاسلام ان أوربة قد فصلت الدين عن السياسة بتاتاً وطلقت هذه من هذا ثلاثا وانه لم يبق من يخلط الدين بالسياسة ويجعل للحكومة صبغة دينية الا المسلمون الذين لم ينظروا الى ما حولهم من المحدثات العصرية التى من جملتها جعل الدين فى واد والسياسة فى واد . وقد مشت هذه الأغلوطة على كثير من المسلمين وآمنوا وصدقوا ان الدول الأوربية تفصّت من كل نزعة مسيحية وأنها لا تعرف شيئا سوى الانسانية العامة وان الدين المسيحى لا تهتم به حكومة من حكومات أوربة أكثر مما تهتم بغيره من الأديان ! وانه ان كان المسلمون يريدون أن يفلحوا فلا مناص لهم من الاقتداء بالأوربيين فى هذا المشرب ولما كان الأوربيون قد نزعوا من حكوماتهم كل صفة مسيحية كان على المسلمين المقتدين بهم فى طلب الفلاح أن ينزعوا عن حكوماتهم كل صبغة اسلامية بحيث تنظر الى الدين نظر من لا ناقة له فى الأمر ولا جمل . ويسمون هذا المنزع « باللايبقية » Laïcisme ومعناها ماليس « باكليريكى » ويجزمون بأن أوربة قد نزعت هذا المنزع وعضت عليه بالنواجذ وانه لم يبق من يقيم للدين وزناً الا دول الاسلام ومن أجل هذا هى متأخرة متقهقرة !

ولقد روّج هذه الأغلوطة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقرة لغرض فى نفسه من جهة سلخ الترك تدريجا من العقيدة الاسلامية وصرفهم عن اللغة العربية فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الاسلامى أجنبيا عن الحكومة التركية كما ان الدين المسيحى هو بزعمه أجنبى عن الحكومات الاوربية الراقية ! وتابعه فى ذلك الحزب الذى يسمى فى تركيا «خلق فرقه سى» والذى هو من أوله الى آخره أشبه بجند لمصطفى كمال تحت قيادته لايملكون معه قبضا ولا بسطا . فألغوا جميع ما تشتمّ منه رائحة الاسلام من أوضاع الحكومة التركية وأبطلوا المحاكم الشرعية بعد أن أبطلوا العمل بالشريعة وألغوا الوزارة التى كان اسمها « مشيخة الاسلام » وجعلوا مكانها دائرة صغيرة تابعة لنظارة الداخلية سموها « ديانت ايشى » أى أمور الديانة . وحذفوا من دستور تركيا المادة التى فيها « ان الاسلام هو دين الجمهورية التركية » وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا اقامة مراسيم العيدين النحر

والفطر وقالوا ان الحكومة التركية لا تعرفهما ولكنهم وجدوا فيما بعد أن المأمورين شاء رئيس الجمهورية أم أبى لا بد لهم من الاحتفال بهذين العيدين فعادوا فى السنة الماضية يعطلون دوائر الحكومة فيهما وعاد رئيس الجمهورية يقبل فيهما التهانىء

وأما الكتابة التركية بالحروف العربية برغم كل ما جرى لها من المعارضة فقد كان تعليلها فى ظاهر الحال تسهيل التعلم على النشء وتقصير المدة اللازمة للقراءة ولكن الغرض الحقيقى منها كان اقصاء الترك عن العرب وابطال قراءة القرآن تدريجاً وأهم من ذا وذا اقناع أوربة بأن تركيا قد تفرنجت تماماً وانه صار من العدل أن تدخل فى العائلة الاوربية ولهذا الغرض الأخير نفسه حمل مصطفى كمال الاتراك على لبس القبعة ليزدادوا اندماجاً فى الاوربيين . ولقد كان ترك الحروف العربية ضربة عظيمة على تركيا فى حياتها العلمية والأدبية والاقتصادية والتجارية وتعذرت الكتابة على الجميع بالحروف اللاتينية فانحصرت فى فئة قليلة وقلت المكاتبات والمراسلات بين الناس وقل جداً عدد القراء للكتب والجرائد وأصبحت الجريدة التى كان عدد قرائها يحصى بالالوف لا يقرأها ولا خمسمائة شخص وصارت الحكومة مضطرة أن تقوم باودها .

وازدادت الكتابات الرسمية صعوبة فتأخرت أشغال الناس لدى الحكومة . ودثرت ملايين من الكتب نخربت بذلك بيوت لا تحصى . وأما من الجهة الفنية فالحروف اللاتينية برغم ما أدخلوا من العلامات على بعضها لايتاء اللفظ التركى حقه لا تؤدى اللفظ التركى الصحيح فى كثير من المواضع فلذلك قد تغير بها اللفظ التركى عن أصله وصارت كأنها لغة جديدة . ثم ان الحروف اللاتينية المنفصلة وان كانت أسهل فى القراءة والكتابة فانها تأخذ من الفسحة على القرطاس وتستغرق من الوقت للكتابة أكثر مما تستغرق الحروف العربية بكثير وان الكتابة العربية هى أشبه شىء بالاختزال Sténographie وانها أوقع على مبدأ الاقتصاد فى الزمن والمكان وأقرب أن تكون كتابة العصر الحالى المبنى كل وضع فيه على الاختصار والاقتصاد

ولا تزال هذه الأزمة الكتابية مشتدة فى تركيا ولكن الغازى لا يزال مصمماً على حمل تلك الأمة على الحروف اللاتينية حباً بالتفرنج

والذين لا يعلمون حقائق الأحوال يظنون أن الأتراك راضون مغتبطون بالغاء

الشريعة الاسلامية من المحاكم ورفع التعليم الديني من الكتاتيب والمدارس واجبار النساء على السفور وخلط الاناث والذكور في دور العلم وحمل الأوانس على الزفن مع الشبان ولبس القبعة والكتابة بالحروف اللاتينية الى غير ذلك مما أحدثته الحكومة الأنقرية الكمالية ويقولون انه لولا رضى الترك بذلك لثاروا بحكومتهم ولأسقطوها ولردوها عن ثنيَّات الطرق ! ولكن الذي يتأمل فيما تحمله الشعب التركي من المصائب وما نوجز من الحروب المستمرة بدون انقطاع ويعلم أن جيران الاتراك كلهم واقفون لهم بالمرصاد ينتظرون أول غرة ليهتبلوها وينقضوا عليهم ويعيدوهم أثراً بعد عين والذي يفكر في أن آمال الاتراك كانت بعد الحرب العامة قد انقطعت من الاستقلال وان كثيرين منهم ومن جلتهم عصمة باشا رئيس وزارتهم الحالية كانوا يذهبون الى طلب « انتداب » أمريكا أي وصايتها على تركيا ومع هذا فقد أذن الله بأسباب متعددة يطول شرحها أن تتمكن تركيا من استرجاع استقلالها وأن تعود دولة كسائر الدول ولو من الدرجة الثانية نعم الذي يستعرض أمام نظره جميع ما أناخ على تركيا من المصائب والنوائب التي تدك الجبال يفهم لماذا هي صابرة على مرارة هذه الاوضاع الاجتماعية التي هي مخالفة لمذهبها ومشربها وعادتها وذوقها ولماذا هي تفضل الخضوع لها على الثورة والانتقاض والتطريق للاعداء أن يعودوا فيقضوا على تركيا كما كانوا قرروا على أثر الحرب العامة

أما العقيدة الاسلامية فلم تزعزعها حتى الآن في تركيا هذه السياسة اللادينية ولا يزال الشعب التركي شديد الاعتصام بعروة الدين الوثقى تدل على ذلك مظاهره الدينية في استانبول وغيرها مما لم يخفَ على الافرنج الذين أشاروا اليه في جرائدهم . ولن يكون خطر على اسلام الشعب التركي الا ان استمر الحكم الحالي مدة طويلة ونشأت الافواج الجديدة على ما هي عليه من فقد التعليم الديني . والانقريون يزعمون أن المدارس الاميرية في فرنسة ليس فيها تعليم ديني وانهم هم انما يقتدون بفرنسة . ولكنهم يتجاهلون أن المدارس الخاصة والمدارس العائدة للرهبان وللاساقفة وللجمعيات الدينية من كاثوليك وبروتستانت هي في فرنسة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولذلك التربية الدينية لا يمكن أن يخشى عليها هناك . هذا من جهة فرنسة . ونعود فنقول من حيث ان تركيا اتخذت لنفسها قانون الجزاء الايطالي ومن حيث انها على أتم الموالاة لايطالية وبين الدولتين اتفاق سياسي كما لا

يخفى فلماذا لا تريد ان تقتدى بايطالية فى جعل التعليم الدينى من أهم برامج المدارس الاميرية . وأيضاً فالأمة الالمانية التى هى فى الذروة العليا من المدنية تفرض التعليم الدينى فى جميع مدارسها . وأيضاً فالأمة ألانكليزية التى هى أعظم الدول قوة وسلطاناً فى الارض تعتنى مزيد الاعتناء بالتعليم الدينى فى مدارسها الابتدائية والتالية والعالية . ولا نعلم من حكومات الارض كلها الا ثلاثاً يحارбن الديانات وقد الغين التعليم الدينى من مدارسهن وهن الروسية والمكسيك وتركيا

ثم ان فرنسة وان كانت حكومتها ذات صفة لادينية فى القانون فانها تظهر فى كل فرصة بمظهر دينى مسيحى لايقدر القائل ان يجد فيه مقالاً . ولما مات المسيو بريان استدْعت الحكومة رئيس اساقفة باريز وصلى على جنازته فى نفس نظارة الخارجية . ولمامات المارشال فوش والمارشال جوفر أقيمت لهما مراسم دينية فى فرنسة وفى سفارات فرنسة فى الخارج . ومن شهرين أقاموا حفلة دينية فى كنيسة الانفاليد بباريز تمثلت فيها الحكومة الافرنسية وذلك شكراً لله على انتصار الجيش الفونسوى فى المغرب وافتتاحه لواحة تافيلالت واستمطاراً للرحمة علىأرواح الذين قتلوا منهفى المعارك . الىغير ذلك من المظاهر الدينيةالتى تقوم بها الحكومة الافرنسية والتى شهدنا منها نحن فى سورية أيضاً مالا مجال فيه للمراء . ولولا النعرة المسيحية ماكانتالحكومة الافرنسية تعضد الآباءالبيض والفرنسيسكانيينوسائر المبشرين الجائلين فى الجزائر وتونس والصحراء والسودان الغربى وتمد بضبعهم وتسهل امامهم عقبات تنصير الأمم الاسلامية وغيرها . وهذه القضية البربرية التى قام لها العالم الاسلامى وقعد ولا يزال الفرنسيس متمسكين بها ان هى الامظهر تحت حكم الجمهورية الثالثة من مظاهر فرنسة فى أيام لويس التاسع . فكيف تكون فرنسة الرسمية قد خلعت عنها الرداء الكاثوليكى وكيف يسوغ فى الاذهان قول ينفيه ظاهر الحال

وهذه الدولة البلجيكية قد جعلت فى بروغرام حكومتها الرسمى العمل لتنصير زنوج مستعمرتها الكونغو . وهذه الدولة الايطالية ـ صديقة تركيا ـ جمعت الوفا من أطفال عرب طرابلس أخذتهم من بين أيدى والديهم بالقوة وحملتهم الى ايطالية لأجل تربيتهم فى الديانة الكاثوليكية ولم تبال مافى ذلك من خرق العهود والاعتداء على أقدس حرية بشرية وهى الحرية الدينية . وهذه الحكومة الالمانية الحاضرة قد ضبطت منذ أشهر نشرات شيوعية

بحجة انها تتضمن دعاية لهدم الدين المسيحى. وكان الدكتور شترزمان قد أعلن فى الرايخستاغ قائلاً : «ان الثقافة الالمانية مبنية على النصرانية» . وقبل الحرب العامة كان امبراطور المانية وملك بروسية هو الرئيس الرسمى للكنيسة اللوثيرية كما ان ملك انكلترة الآن هو الرئيس الرسمى للكنيسة الانكليكانية

وماذا يقول الانسان فى تدين الامة الانكليزية الشديد كبارا وصغاراً ومن جميع الطبقات حتى من طبقة الاشتراكيين . وكل أحد يعلم المناقشات التى ثارت فى مجلس اللوردة الانكليزى ومجلس البرلمان الانكليزى من أجل سر استحالة الخبز والخمر بتقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فانه لم يعلم الناس مسئلة أخذت من الأهمية فى انكلترة ما أخذته هذه المسئلة حتى ان المرضى من اللوردة حضروا جلسة هذه المسئلة محمولين بالأسرّة . وتحرير الخبر ان فى الكنيسة الانكليكانية التى عليها دين المملكة الرسمى خلافاً قديماً فى قضية الخبز والخمر . فالجناح الأيمن من رجال الكنيسة يقولون بما تقول به الكثلكة وهو انه بمجرد تقديس الكاهن على المذبح ينقلب الخبز الى جسد الرب والخمر الى دمه بناء على كون المسيح فى العشاء السِرّى مع الحواريين ناولهم من الخبز وقال لهم : «هوذا جسدى ومن الخمر» وقال : « هوذا دمى »

فالكنيسة الكاثوليكية والمحافظون من الكنيسة الانكليكانية المنشقّة عنها يقولون انه كلما قدّس الكاهن على الخبز والخمر ولفظ هذه الجملة التى قالها السيد المسيح ينقلب الخبز الى نفس جسد المسيح الحقيقى والخمر الى دمه . وأما الوسط والجناح الأيسر فيقولون ان هذه الاستحالة مستحيلة بذاتها مخالفة للعلم والفن وأن الخبز لا يمكن أن يتحول الى جسد المسيح ولا الخمر الى دمه بالمعنى الحقيقى وانه يقدس كل يوم ملايين من القسوس فكم مليون مرة كل يوم يقع هذا التحول لجسد واحد ؟ فلا يمكن أن يكون كلام المسيح هذا الا رمزاً بحيث إذا حصل التقديس يتذكر الناس جسد الرب ودمه تحت صورة الخبز والخمر . وقد طال هذا الجدال بين الفريقين ولم تكن فئة منهما توافق الثانية واستظهر حزب الوسط والشمال بكتاب الصلاة الذى فيه عقيدة الكنيسة الانكليكانية والذى بمقتضاه لا يكون هذا الكلام الا رمزاً . فاعترض حزب اليمين على ذلك وطلبوا تعديل هذا البند من كتاب الصلاة .

ولما كان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترة وفيه نص بأنه لا يجوز أن يعدّل منه لا كثير ولا قليل الا باقرار مجلسى اللوردة والعموم جاءت هذه المسئلة الى هذين المجلسين.

وكانت الحكومة قدحولت هذه المسئلة الى مجلس مؤلف من كبار المطارين وذلك من سبع وعشرين سنة فجرت المذاكرة فى هذا المجلس الأسقفى ولم يحصل اتفاق بين المطارين أنفسهم على هذه النقطة وهى : «هل استحالة الخبز والخمر حقيقية أم رمز»؟ ثم قرر المجلس الأسقفى بالأكثرية كون الاستحالة حقيقية وطلب تعديل كتاب الصلاة فيما يتعلق بها . وعند ذلك عرضتها الحكومة على مجلس اللوردة فبعد مناقشات شديدة قرر اللوردة بالأكثرية تنفيذ قرار المجلس الأسقفى الذى كان يرأسه رئيس أساقفة كنتربرى أكبر أساقفة انكلترة . ولما كان لابد لأجل تعديل كتاب الصلاة من قرار مجلس العموم أيضاً طرحت الحكومة هذه القضية فيه وانبرى ناظر الداخلية واعترض على اقتراح تعديل كتاب الصلاة وصرح بأنه لايرضى بالرجوع الى عقيدة الكنيسة الرومانية وان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترة فلا يمكن تعديل شئ منه الابرضى أكثرية الأمة ثم ردَّ على مزاعم الفئة الثانية وقال إن هذه الاستحالة المسماة عند الكاثوليك بسر الافخارستيا مشروط فيها الابتهال الى روح القدس وان هذا الابتهال الى روح القدس لم يكن واقعاً فى الكنيسة الانكليزية فلا يمكن تمام هذه الاستحالة مع فقد هذا الشرط . وأبدى الناظر المذكور وأعاد فى هذا الموضوع بحيث عند الاقتراع كانت الأكثرية فى جانب عدم التعديل لكتاب الصلاة وفى جانب ان قضية الخبز والخمر لم تكن الا شيئاً مجازياً . وماانفق مجلس العموم يومئذ الاعلى اضافة جمل دعائية جديدة تتلى لأجل الملك والعائلة المالكة ويبتهل فيها الى البارى تعالى بنصرهم وتأييدهم الخ . فالبرلمان الانكليزى المؤلف من نواب ليست لهم صبغة دينية نقض قراراً دينياً محضاً متعلقاً بالعقيدة كان قد قرره مجلس أساقفة تحت رئاسة رئيس أساقفة كنتربرى

فأنت ترى أن مسئلة دينية صرفة كهذه قد كانت مدار جميع هذه المناقشات فى مجلسى الشيوخ والنواب فى أعظم دولة أوربية وأعلاها كعباً فى المدنية . وترى أيضاً أن ملك هذه الدولة هو نفسه رئيس كنيستها وهو الذى يُدعى له على منابر كنائسها بموجب دستور ايمانها كما يدعى للخليفة على منابر الاسلام . بل الدعاء للخلفاء والملوك فى المساجد لم يتفق على وجوبه جميع مجتهدى الاسلام . وأما الدعاء لملك الانكليز فى الكنائس فقد اتفقت عليه شيوخ الأمة الانكليزية ونوابها . فهذا الذى يسمونه بفصل الدين عن السياسة ؟ ويزعمون أن أوربة اتخذته قاعدة أساسية لسياستها . لاجرم أن هذا تضليل للأذهان وبهتان

ما وراءه بهتان

ان فصل الدين عن السياسة هو فصل ادارى كما هناك فواصل فى سائر فروع الادراة بعضها عن بعض وانه ليس من المعقول ان الدول الراقية لاتكترث لامور الدين وهو الذى عليه يحيا ويموت السواد الاعظم من رعاياها . فالدولة التى لاتهتم بأمور رعاياها الدينية تكون جاهلة معنى السياسة بالمرة . وأما ان تنفصل الامور الدينية عن الامور الدنيوية فذلك ضرورى لا نزاع فيه الا أنه لايفيد ان الدولة بفصلها هذا عن ذاك قد أهملت تعزيز ديانة قومها . بل نحن أولاء نجد ملوك أوربة ورؤساء جمهورياتها ورؤساء جمهوريات امريكا لايدعون فرصة لتعزيز المبدأ المسيحى والتصريح على الملأ بالعمل فى سبيله الا انتهزوها . ولقد مرّت بى خطبة لرئيس جمهورية الولايات المتحدة وخطبة أخرى لما زاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا كل منهما صريحة فى هذا المعنى

وهذه هى الامة اليابانية التى هى اليوم أرقى أمة شرقية ومن أرقى أمم البسيطة أمة شديدة التمسك بعرى دينها وعاهلها هو رئيس الكهنة الاعظم وايام تتويجه اقامت له الحكومة مراسم احتفال استمرت شهراً وكانت كلها مراسم دينية . ومما يعتقدون به ان العاهل هو من سلالة الآلهة ابنة الشمس وانه لابد ان يؤاكلها فى احدى الحفلات الارز المقدس وهم يزرعون هذا الارز من قبل الاحتفال بأشهر وتزرعه الحكومة تحت إشراف الكهنة حتى لاتشوب قدسيتهُ شائبة . ولقد كنت من بضع سنوات نشرت فى الصحف نقلاً عن « الجورنال » الباريزى بقلم المسيو « سان بريس » تفاصيل المراسم الدينية الملوكية التى أقيمت لعاهل اليابان عند تتويجه . وكذلك نشرت فى الصحف خلاصة مناقشات الخبز والخمر فى مجلسى اللوردة والعموم فى انكلترة . وهذا ليفهم الشرقيون وبخاصة المسلمون تضليل أولئك المضللين الذين يحاولون اقناعهم بهذه المغالطة وهى انه لما كانت الامور الدينية منفصلة بحكم الضرورة عن الامور الدنيوية كان يجب الاستنتاج من هذه التفرقة الادارية البراءة من الدين ونفض اليد منه !

وأما عضد الدول الأوربية للرسالات التبشيرية بالدين المسيحى فهذا موضوع ذو بال وطويل الأذيال قد نذكر له خلاصة فى مكان آخر الا اننا نوصى فيه القراء بمطالعة كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » تأليف المسيو « لُ شاتليه » رئيس تحرير مجلة « العالم

الاسلامى » الافرنسية المترجم بقلم السيدين مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب صاحب جريدة « الفتح » التى لها فى النضال عن الاسلام المواقف العظام والخدمات التى لا يمحوها كرور الايام

وخلاصة القول ان فصل الدين عن السياسة لم يكن معناه فى أوربة والممالك المتمدنة اهمال الدين ولا تجريد الحكومات من صبغته اذ أن الحكومات انما هى ممثلة للشعوب فكما تكون الشعوب تكون الحكومات وما دامت شعوب أوربة وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولا واحداً . وما دامت أمة اليابان طاوية فحكومتها طاوية وما دامت الصين بوذية فحكومتها بوذية وما دام أهل صيام يعبدون الفيل الابيض فحكومتهم تسجد للفيل الابيض

وليس فى الدنيا سوى ثلاث حكومات تناهض الدين باطناً وظاهراً وهى الجمهورية الحمراء الروسية والجمهورية الكمالية الانقرية وحكومة المكسيك وذلك كما قال المسيو «شارل موراس » الكاتب الافرنسى المشهور

أما سبب محاربة البلاشفة للأديان فهو انهم لا يزيدون على ثلاثة ملايين فى مملكة عدد أهلها ١٤٢ مليوناً كلهم متدينون وهم يعلمون انه ان عادت الكنيسة الارثوذكسية الى الظهور كان لا بد من اعادة الحكم القيصرى أو تأسيس حكومة جمهورية مسيحية فلا تبقى منهم ولا تذر وستثأر من البلاشفة عن كل ما سفكوه من الدماء التى أسالوها أنهاراً . فالبلاشفة فى محاربة الدين يحاشون عن خيوط رقابهم لا أكثر ولا أقل

وأما المكسيك فان أحبار الكثلكة كان لهم فيها الكلمة العليا وكانوا مستبدين بكل الأمور فوقع الخصام بينهم و بين رجال الحكومة واشتد الى أن تحولت الحكومة نفسها الى عدو لدود للديانة . وهذا أمر لا يلبث أن يزول و يعود الدين هناك كما فى سائر البلاد الامريكية . وأما أنقرة فان الغازى يعلم أن المبدأ الدينى فى تركيا هو والسلطنة توأمان فهو يعمل لتوهينه اتقاء رجوع آل عثمان الى السلطنة والقضاء على الجمهورية التى هو الالف والياء فيها . فهو يعمل لتوهين مبدأ ان عزّ وتغلب كان فيه سقوطه وسقوط الحزب الذى يرأسه فى شر مستطير و يوم عبوس قمطرير

***

يكثر فى الشرق الآن كلام الخلق فى « فصل الدين عن السياسة » ويظن بعضهم ان الأوربيين فصلوا الدين عن السياسة فصلا تاما وان الحكومات فى الغرب لا تعنى بشئ من أمر الدين وغير ذلك من الترهات التى هى أبعد الأمور عن الواقع

ومن أغرب الأمور ان حكومة انقرة هى التى أعلنت كونها حكومة لا دينية عملا بمبدأ فصل الدين عن السياسة وهى نفسها لا تزال كل يوم تصدر أوامر وتسن قوانين متعلقة بأمور دينية محضة من جلتها الصلاة باللغة التركية التى من أجلها ثارت الافكار فى تركيا فى هذه الأيام ورفض الاكثرون امتثال أوامر الحكومة بها وقالوا انه لا بأس بأن يلقى الخطيب خطبة الجمعة بالتركى فأما الصلاة نفسها بالتركى فهى مخالفة للسنة

وعلى كل حال فحكومة تركيا الكمالية تناقض نفسها بنفسها عند ما تدعى الاقتداء بالحكومات الراقية فى فصل الدين عن السياسة وهى تتدخل كل يوم فى الأمور الدينية الصرفة على حين ان « فصل الدين عن السياسة » معناه ان الحكومة لا تتدخل أصلا فى أمور الدين وتترك هذه الامور لرؤوساء الدين وحدهم

وحكومة تركيا الكمالية لا تصدق رعيتها القول أصلا عند ما تقول لهم ان دول أوربة قد نبذت الديانة المسيحية ظهرياً وان رقيها المادى لم يتهيأ لها الا بنبذ العقائد الدينية .

فأوربة وأمريكا وجميع الأمم المنسوبة اليها باقية على نصرانيتها تماما لم يتغير شئ من صبغتها المسيحية بل لم يتغير شئ من عقائدها الكَنَسيَّة التى كانت عليها من قرون

نعم يوجد فى أوربة أقوام يجاهرون بعدم الاعتقاد ويناصبون الاديان وبخاصةٍ الديانة المسيحية . ولكن هذا الجنس من الاوربيين لا يزال قليلا بالنسبة الى السواد الأعظم والاوربيون يعلنون بأجمعهم ان ثقافتهم هى الثقافة المسيحية وأن مدنيتهم هى المدنية المسيحية وان حكوماتهم — ما عدا الحكومة البلشفية الروسية — هى الحكومات التى يتألف منها ما يقال له « العالم المسيحى »

وان المكابرة فى هذه الحقيقة هى مكابرة فى المحسوس لا غير

ولقد استرعينا أنظار المسلمين مراراً فى مقالات متتابعة فى الجرائد وفى الفصول المتقدمة الى مظاهر الحكومات الاوربية المسيحية من قبيل المناقشات التى وقعت فى قضية الخبز والخمر وقول أصحاب الجناح الايمن من أبناء الكنيسة الانكليكانية الانكليزية — أى الكنيسة الرسمية — ان الخبز والخمر يستحيلان بتقديس القسيس فعلا الى جسد المسيح ودمه . مما لا نحتاج لاعادة ذكره

فهل رأى القارئ المسلم الآن كم يخدعه المضللون بقولهم ان الحكومات الاوربية لا سيما الراقية منها لا تعنى بامور الديانة المسيحية وان الديانة عندها منحصرة فى الكنائس لا غير ! فهل مجلس اللوردية ومجلس الامة الانكليزية من الكنائس ؟ وهل فى أوربة حكومة أرقى من الحكومة البريطانية ؟

مما لا مشاحة فيه ان بين الديانة والسياسة فصلا إداريا بحيث كل منهما لها دوائر تختص بها . ولكن مرجع الجميع الى الحكومة . والحال فى بلاد الاسلام لا تختلف عن ذلك . فمشيخة الاسلام منفصلة عن سائر النظارات المدنية

إذاً خرافة فصل الدين عن السياسة فى أوربة التى لايزال يتشدق بها بعض المضللين فى الشرق ليس لها أصل الا بالمعنى الادارى الذى هو جارٍ أيضاً فى بلاد الاسلام .

والحكومات الكاثوليكية بأجمعها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الكاثوليكى . ولا يشذ عن ذلك الا الحكومة الافرنسية التى اتفقت مع الفاتيكان اتفاقاً يحدد العلاقات بين الكنيسة والحكومة والتى لاتوجب التعليم الدينى فى المدارس الرسمية . ولا يجب أن يؤخذ من ذلك أن الحكومة الافرنسية تعارض التعليم الدينى فى غير المدارس الرسمية بل التعليم الدينى مالئ فرنسة بواسطة المدارس الأهلية . والحكومة الافرنسية فى مستعمراتها ومناطق نفوذها تحمى الدين المسيحى ولا سيما المذهب الكاثوليكى أكثر من كل حكومة مسيحية وهى تعلن نفسها حامية النصرانية فى الشرق وتوجب على رجالها شهود الشعائر الدينية الكاثوليكية فى جميع الأعياد والمواسم وتحافظ على الرسالات الدينية والرهبانيات بأجمعها كاليسوعية والعازرية وغيرهما . ومما لايحتاج الى التعريف أخذها بيد الكردينال لافيجرى والآباء البيض وأصناف المبشرين بالدين المسيحى فى الجزائر وتونس والمغرب و بلاد النيجر وعدم مراعاتها شعور المسلمين الذين هم أهل هذه الأقطار بما تظهر به من هذه المظاهر

الكاثوليكية فيما بينهم الى حد أن بعض الجوامع الكبرى فى مدينة الجزائر قد تحولت الى كنائس وان بعض البربر من سكان الجرجرة من الجزائر هم حسبما روى المؤرخ الثقة السيد أحمد توفيق المدنى فى « كتاب الجزائر » هم على شفا التحول عن الاسلام بما نشبت فيهم من براثن الرسالات التبشيرية فأما قضية الغاء فرنسة الشريعة الاسلامية من بين البربر وحمايتها للرهبان الفرنسيسكانيين الذين يعملون لتنصير البربر ولغيرهم من الرهبان فهى مشروع قديم العهد بقى الفرنسيس يحدثون أنفسهم به مدة طويلة الى أن أنفذوه من ثلاث سنوات فى أيام المسيو لوسيان سان الذى كان مقيما عاماً فى تونس وفى أيامه و بمساعيه عقد الكاثوليك مؤتمراً دينياً اسمه مؤتمر الافخاريستيا فى تونس فكانت لذلك ضجة شديدة بين المسلمين الا أنها لم تبلغ درجة ضجتهم شرقاً وغرباً عند ما أجبر المسيو سان حكومة سلطان المغرب بعد أن صار مقيماً عاما عندهذه الحكومة على اصدار ذلك الظهير البربرى الذى يُخرج عدة ملايين من البربر من الاسلام و بعد أن منع تجوال فقهاء الاسلام وحفاظ القرآن ومشايخ الطرق من التجوال فى قرى البربر وحظر على قواد البربر وزعمائهم أن يرسلوا أولادهم الى فاس أو غيرها من المدن لتعلم العقيدة الاسلامية واللغة العربية . كما تقدم

و بالاختصار فان الدولة الافرنسية التى يزعم بعضهم أنها حكومة لادينية أو لاييكية كما يقال هى أشد الدول حماية للنصرانية عموماً وللكثلكة خصوصاً . وان الحزب الحرّ الذى يلتزم الحرية الدينية التامة و وقوف فرنسا موقف الحياد التام بازاء الأديان لايزال فى فرنسة ضعيفاً .

وأما ايطالية فبعد أن غلب عليها حكم الفاشيست أعادت الى المدارس الأميرية التعليم الدينى الكاثوليكى ونصبت الصلبان فى المدارس وفى المحاكم وعدلت قوانين العدلية تعديلا موافقاً لمبادئ الكنيسة . وأعلنت بدون محاباة أنها دولة مسيحية كاثوليكية و بثّت أيضاً فى مستعمراتها القسوس والمبشرين وزادت على غيرها أنها أخذت صغار المسلمين من حجور أمهاتهم قسراً لأجل أن تربيهم فى الكاثوليكية فى نفس ايطاليا كما ذكرنا من قبل . وهذا لم تفعله فرنسة حتى الآن وغاية مافعلت هو أنها تركت الكردينال لافيجرى ورهبانه البيض يصطادون بعض أحداث من المسلمين فى أثناء المساغب التى هى كثيرة الوقوع فى الجزائر ويربونهم فى النصرانية . وقد ذكر السيد توفيق المدنى فى كتاب

الجزائر أن هؤلاء بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة شخص وان منهم من رجع الى الاسلام بعد أن بلغ رشده ومنهم من بقى مسيحياً حقيقيا

ولنعد الى سائر الدول الكاثوليكية ومواقفها بازاء الدين المسيحى فنقول انها باجمعها على أشد ما يكون من الاعتصام به . ومنذ أربع سنوات تشكلت فى بلجيكا وزارة أعلنت من جملة بروغرامها العمل لتنصير أهالى مستعمرة الكونغو . وكان فى هذه الوزارة وزراء من السوسياليست ولم يعترضوا على دخول الحكومة فى قضية التنصير . ففى هذا مجال للتأمل . ولم تكن بلجيكا الى الآن مهملة هذا العمل الدينى لأنه من التسعة الملايين الزنوج الذين تتألف منهم مستعمرة الكونغو قد تنصَّر حتى اليوم نحو من مليون منهم ثمانمائة كاثوليكى ومائتا الف بروتستانتى وكل ذلك بمساعى القسوس وعضد الحكومة . ولا يخفى ان فى مستعمرة الكونغو عرباً ومستعمربين يبلغ عددهم حسبما قرأنا فى كتب البلجيكيين الذين كتبوا عن الكونغو نحواً من مائتى الف نسمة . ولكن الحكومة تراقبهم أشد المراقبة . ومن البديهى انها تمنعهم من بث الدعاية الاسلامية . وهذا دليل آخر على كون الحكومات الأوربية الراقية غير مهملة العمل لنشر الدين المسيحى كما يزعم أولئك الذين لا يفتأون ينصحون الحكومات الاسلامية باتخاذ الصبغة اللاييكية أو اللاايقيية كما يقول الترك . ويزعمون أن رقى رعاياها متوقف على هذا الشرط !

ان بلجيكا هى من أرقى ممالك أوربة بلا نزاع والحكومة البلجيكية هى هذه التى تنص فى بروغرامها على قضية تنصير أهالى الكونغو

وأما الدول البروتستانتية فكلها تعلن أن ثقافتها مسيحية وان مدنيتها انجيلية وانها لا تحيد عن هذا الطريق . وكثيراً ما تعلن هذه الدول ذلك فى برامجها أمام المجالس النيابية . وناظر معارف هولاندة افتتح مؤتمر المستشرقين فى ليدن سنة ١٩٣١ بخطاب قال فيه : ان هولاندة لم تذهب الى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحى . ولقد كنا ممن سمعوا هذا الخطاب وصرح شترزمان ناظر الخارجية الالمانية فى احدى خطبه امام الريخستاغ قائلاً : «ان ثقافة المانيا مبنية على الدين المسيحى »

ولم يمض الى غاية تحرير هذه السطور الا أيام قلائل (فبراير ١٩٣٣) على اعلان هيتلر رئيس الحزب القومى الاشتراكى الالمانى عند ما ولاه المارشال هيندنبورغ رئاسة

الوزارة برنامجا وزاريًّا صدقه جميع الوزراء استهلاله : « ان أول واجب ستقوم به الحكومة القوميــة الالمانية هو العمل لأجـل الوحدة الروحيــة واحياء العقيـدة النصرانية فى الأمة والتقاليد المجيدة الماضية » كما قدمنا

ومن قبل مجيء هيتلر الى رئاسة الوزارة كان فون بابن رئيس الوزارة سابقا والذى هو الرئيس الثانى للوزارة لاحقاً قد خطب خطبة شهيرة أودعها الـكلام نفسه

وكان الشيوعيون الالمان قد بثوا منشورات حملوا فيها على الدين المسيحى فامرت الحـكومة بجمعها ومنعها وأصدرت بلاغاً رسمياً قالت فيــه : انها منعت توزيع هـذه النشرات لما فيها من التحامل على الدين المسيحى

هذا وغير خاف ان امبراطور المانيا وملك بروسيا كان الرئيس الأعلى للـكنيسة اللوثيرية ولا يزال حتى الآن برغم نزوله عن العرش لأن أتباع هـذه الـكنيسة لايزالون يرجون اعادة الامبراطورية . كذلك غير خاف أيضاً ان الـكاثوليكيين فى المانيا الذين هم ثلث المملـكة لهم حزب فى الرايستاغ يقال له « الوسط » أساس تأليفه هو المحافظة على الـكثلـكة

ولدىّ كتاب وافٍ اسمه « الأديان فى المانيــا » ان سمح لى الوقت ونسأ الله فى الأجل أريد أن أترجمه الى العربية ليعلم أهل الشرق لاسيما المغرورون منهم أية قوة للدين المسيحى فى المانيا وكيف ان التعليم الدينى مقرون بالتعليم المدنى فى جميع المدارس الرسمية وغير الرسمية وانه لايوجد مع ذلك أحد يقدر أن يزعم ان الأمة الالمانية أمة غير راقيــة أو أمة غير عصرية بل لاأحد يقدرأن يقول انه يوجد أمة أرسخ منها قدماً فى العلوم والصنائع وأعلى كعباً فى المدنية

ان المصلح المسيحى الأشهر كلفين الذى كان هو ولوثير سبب وجود البروتستانتية فى العالم كان يقول مايلى :

« ان الدولة المسيحية رأسها هو الله . فلأجل أن يكون الانسان تابعاً لهـذه الدولة ينبغى له أن يقسم الايمان بعدم الحيد عن خطة الانجيل وبالمواظبة على اقامة الشعائر المسيحية وبتناول القربان أربع مرات فى العام. وذلك لأن الاشتراك فى المائدة الالهية هو عبادة لله

رأس الدولة المسيحية وليسوع المسيح رأس الكنيسة . فهاتان السلطتان الدنيوية والروحية باتحادهما من شأنهما تنفيذ ارادة البارى تعالى . فالسلطة السياسية بيدها السيف ولها حق القصاص ان لزم . كما ان السلطة الروحية لها حق الوعظ وحق التحريم والتحليل وكلا نوعى الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يبنى على الكتاب المقدس

« والرئاسة الأولى هى للسلطة السياسية خلافاً لرأى البابا غريغوريوس السابع وذلك لأنه يجب أن تتحد السلطة المذكورة من الرق الاكليريكى . ولكن لايعنى بذلك ان الدولة يجب أن تنفصل عن الكنيسة بل يجب أن تلازمها »

ويقول كلفين : « ان الملك الذى لاينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وانما هو يقيم لصوصية . وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاة الدين ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة لاالنظام المدنى فقط بل النظام الدينى أيضاً والنظام الأدبى والاجتماعى وعليه أن يعاقب اللصوص والفساق والمومسات والقتلة والقاذفين بالدين واتباع البابا الذين يشهدون القداس وأن يحرق بالنار السَحَرَة ويجزى بالصرامة من يشتغلون يوم الاحد ومن يهملون إقامة الشعائر الدينية الخ » (١)

فروح هذا البروغرام هو السارى الى هذه الساعة فى الحكومات البروتستانتينة ولن تجد الحكومة الكمالية فى تركيا ولا مقلدوها فى البلاد العربيـة جواباً واحداً مقنعا على هذه القضايا التى قدمناها . وما بعد الحق الا الضلال

(١) (اقرأبروغرام كلفى فى كتاب فيلفريد موندو Wilfred Mondo المسمى La Nuée de Femains المطبوع فى باريز سنة ١٩٢٩)

احصاء المسلمين

للامير شكيب

سبق لنا تعليق[1] على قول ستودارد ان المسلمين ٢٥٠ مليونا وقلنا إن المؤلف تابع غيره من المؤلفين الأوربيين الذين يخطئون فى احصاء المسلمين وان الحقيقة هى أن المسلمين يزيدون اليوم على ثلاثة ثلثمائة مليون

ولقد ظهر لنا بعد ذلك اننا نحن أيضاً أخطأنا فى تقدير عدد المسلمين وانه أكثر من ٣٠٠ مليون بكثير وقد يناهز ٤٠٠ مليون

فسلمو الجاوى وسومطرة بلغوا فى احصائهم الاخير ٥٠ مليوناً وليسوا ٣٥ مليوناً كما ذكرناه نقلاً عن احصاء قديم لا يزال جغرافيو أوربة يحررونه . ولقد نشر فى العام الماضى رجل سويسرى كان فى الجاوى مقالة فى « جورنال دو جنيف » قال فيها ان مسلمى المستعمرات الهولاندية بلغوا ٦٤ مليوناً

أما مسلمو الصين فلا تزال الاقوال متضاربة فى عددهم فمن الجغرافيين من يحزرهم بعشرين مليوناً ومنهم من يحزرهم باكثر من ذلك بكثير . وفى هذه الايام لما وقعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشوريا أبرقت الجمعية الاسلامية فى الصين الى أوربة بتلغراف احتجاج على اليابان قالوا فيه انهم يتكلمون باسم خمسين مليوناً من مسلمى الصين

ثم ورد تلغراف من توكيو يرد على مسلمى الصين زاعماً أنهم ١٥ مليوناً لا ٥٠ مليوناً . وفيه أن فى منشوريا مليونين من المسلمين ينزعون الى تحرير منشوريا

ومما لا شك فيه أن التلغراف اليابانى بخس مسلمى الصين عددهم بما رأى من شدتهم على اليابان .

ولقد حزرنا عدد المسلمين فى العالم فى مجلتنا « الأمة العربية » La nation arabe التى نصدرها أنا وسعادة أخى احسان بك الجابرى فى جنيف نحن الوفد السورى الفلسطينى

(١) انظر صفحة ٢٢ من الجزء الاول

فى أوربة وذلك بنحو من ٣٣٣ مليوناً هذا على تقدير أن مسلمى الصين ٢٠ مليونا فقط
أما اذا ثبت أنهم خمسون مليونا فيكون المسلمون ٣٦٣ مليون نسمة

وتفصيلها هكذا : الجزيرة العربية ١٢ مليوناً . وسورية ٣ ملايين . وفلسطين
وشرقى الاردن مليون . والعراق ثلاثة ملايين ونصف . وتركيا أربعة عشر مليونا .
وايران ١٠ ملايين وأفغانستان ٩ ملايين . والهند الانكليزية ٧٨ مليوناً . والصين ٢٠
مليوناً . وصيام نصف مليون . والروسية الآسيوية ٢٥ مليوناً

فهذه ٢٧٦ مليوناً فى آسية

والروسية الأوربية قازان والقريم ٤ ملايين . وليتوانيا وبولونيا ٢٠ ألف نسمة .
ويوغوسلافيا مليون ومائتان وخمسون ألفاً . والمجار ثلاثة آلاف . ورومانيا ٢٥٠ ألفاً .
وبلغاريا نصف مليون . وبلاد اليونان ١٠٠ ألف . وألبانيا ٩٠٠ ألف

فهذه سبعة ملايين و٢٣ ألفاً

ومصر مع سودانها ١٨ مليوناً . وطرابلس ٧٠٠ ألف وتونس مليونان . والجزائر
خمسة ملايين ومراكش ٨ ملايين . والصحراء الكبرى ٣ ملايين . والحبشة ٣ ملايين .
والغالا والصومال ٦ ملايين . وشرقى افريقية (زنجبار وسواحلها ودار السلام) ٦ ملايين .
والكونغو والأوغاندة مليون . والآداموا والكامرون مليونان . وغينية وفوتاجالون مليون
والسنيغال مليون . وسلطنة سوكوتو ١٥ مليوناً . وبورنو ٥ ملايين . ووادای ٥ ملايين .
وكانم مائة ألف

فهذه ثلاثة وثمانون مليوناً فى افريقية

والمستعمرات الهولاندية (أندونيسيا) ٦٤ مليوناً . والفيليبين مليونان

فهذه ستة وستون مليوناً فى البحر المحيط الباسيفيك

فيكون جملة المسلمين ٣٣٣ مليوناً و ٣٢٣ ألفاً . أما ان صح أن المسلمين فى الصين
٥٠ مليوناً فيكون الجميع ٣٦٣ مليوناً هذا بالتقريب لأن بعض الممالك احصاؤها مضبوط
كمصر وتركيا وسورية والعراق وطرابلس والجزائر وتونس وايران والروسية والجاوى والهند
وبعضها نصف مضبوط كجزيرة العرب والحبشة ومراكش وسوكوتو ووادای الخ وهذه
تؤخذ بالتقريب من الجغرافيات والرحلات على أن بعض الناس يرون احصاءنا لجزيرة

العرب ناقصاً ويرون فيها ١٥ مليونا وأكثر. ثم اننا علمنا فيما بعد أن مسلمي يوغوسلافيا مليون وثمانمائة ألف نسمة وان مسلمي البلغار ثمانمائة ألف وان مسلمي رومانيا أربعمائة ألف أى أكثر مما ذكرنا بما يقرب من مليون فى الممالك الثلاث المذكورة وقد فاتنا ذكر مسلمي قبرص وهم ٧٠ ألفاً ورودس واستانكوى وهم ٢٠ ألف نسمة

مسلمو الفيلبين

جاء فى « مجلة العالم الاسلامى » الفرنسية تحت عنوان « السياسة الاسلامية » بقلم الكاتب المطلع على أحوال الشرق المسيو شاتليه Chatelier الجملة الآتية : —

« ان الحروب التى كان الكاثوليكيون الذين افتتحوا الفيلبين[1] يصلونها مسلمي « سولو » لم تأت بثمرة من جهة منع أولئك القرصان عن اجتياح جزر ذلك الأرخبيل ، الا فى أواسط القرن التاسع عشر ، بعد وصول السفن الحربيـة على البخار. ولكن لما استولى الأميركيون على الفيلبين ، وكانوا ألطف ملكة من الاسبانيول ، تحولت حركة تلك المقاطعة الاسلامية من الاوقيانوس عن الدعارة الى التجارة .

«وبينما كان الماليزيون فى برونى Brunei وساراواك Saravak وبورنيو يترقون فى درجات المدنية ، ويقتدون بالأوربيين مثل مسلمي ملقا ، وتجد منهم أعضاء الأندية والتجار والسماسرة ، كان مسلمو الهند النيرلاندية يعرجون أيضا فى مراقى الحضارة الا فى آتجه Atjeh حيث قوة التدين لا تبرح ظاهرة بمظاهر المقاومة الحربية ، أما فيما عدا هـذا المكان من الجاوى وسومطرة والجزر القريبة ، فانك ترى الاسلام أبعـد عن الفتن من الهيئات الاجتماعية التى ترجع الى نصاب هندى . ومضى زمن طويل على الماليزيين كانوا فيه تحت ضغط ادارى هولاندى من مبادئه القهر والاحتكار . فكانوا لا يتجاوزون أفق العمل لغيرهم كرها ، فأما فى هـذه الآونة الأخيرة فقد نالوا شيئاً من الحرية ، وبدأوا بالصعود المادى والمعنوى والاجتماعى ، فاتسعت أنظارهم الى ما يشمل عالم القارات الكبرى ولا ينحصر فى عالم هاتيك الجزائر .

(١) راجع صفحات ٣٥٨ — ٣٦٣ من الجزء الأول

« وفيما يتجاوز الجزر التى تملكها هولاندة توجد جاليات من المسلمين مبعثرة فى جزر الباسيفيك كلما تباعدت من القاعدة الماليزية قل عددها ، ولكنها على كل الأحوال أكثر فى هذه الأصقاع البعيدة من الجاليات الأوربية ، وهى تبث الاسلام هناك بالتجارة والأخذ والعطاء عوضا عن الفتح والغزو . وهكذا ففى نفس استراليا من جالة الافغان وتجار الهنود وصيارفة المالبزية ، جالية اسلامية لها جامع شهير فى برث Perth ، كما أنك تجد مسلمين كثيرين من الهند فى فانكوفر Vancouver من أميركا ، وتجد مسلمين ومسيحيين من أبناء اللغة العربية من سورية فى الولايات المتحدة والارجنتين وزنوجا مسلمين من افريقية فى البرازيل » اه ثم قال : ان اسلام الشرق الاقصى نقطته النهائية فى ماليزيا ويقدر بنحو ٤٠ مليوناً عدد المسلمين فى مستعمرات هولاندة وبورنيو وسائر الجزر الى « بابوازيا » الى « الفيلبين »

قفقاسيا

ومما وجدته فى كناشاتى التى أخذت ما فيها عن أوثق المصادر ما يلى :(١)

ان قافقاسيا ثلاثة أقسام كرجستان والطاغستان و بلاد الچركس

فكرجستان تحتوى أمة الكرج وهى أمة لها لسان خاص بها ومنهم مسلمون ومنهم نصارى ولكن النصارى أكثر . وعاصمة كرجستان تفليس ومن مدنها باطوم ومن أشهر أمراء الكرج المسلمين سنجاق بكى زاده ابراهيم بك وحسين بك ولابرهيم بك ولد اسمه أرسلان بك و ولد اسمه حسن بك وولد اسمه محمد بك . وهذا قد نفته الروسية الى موسكو فى أثناء هذه الحرب العامة ولهذه الاسرة مناسبة مع أسرة چوروك صو على باشا زاده محمود باشا وأخوه أحمد باشا فى تركيا . ومن مشاهير الرجال الذين خرجوا من الكرج المرحوم حسن فهمى باشا ناظر العدلية السابق فى تركيا وكان من أعز أصدقائنا . وجميع الكرج ثلاثة ملايين المسلم منهم وغير المسلم . وفى كرجستان لا سيما فى جوار تفليس مليون ونصف أرمنى . وفى كرجستان قوم يقال لهم (اجاره) مسلمون أصابهم ضرر كبير أثناء هذه الحرب وأفنى الروس أكثرهم بحد السيف بحجة ميلهم الى الدولة العثمانية . أما الطاغستان فهى

(١) راجع صفحات ١٨٨ ــ ١٩٣ من الجزء الثانى

قسمان طاغستان لزكى والثانى طاغستان التركى فاللزكيون يتكلمون ويكتبون بالعربية ومحاكمهم لسانها العربى . وأما الطاغستان التركى فيتكلمون ويكتبون بالتركى أما الشيخ شامل فهو من اللزكيين من قرية « كمره » كان من مريدى القاضى ذى الجناحين محمد الكمراوى تلقى عنه العلم والفقه وهما من قبيلة (اوار) التى منها الامير حمزة الخنزاخى وهذا كان من الامراء . وكلهم قد جاهدوا فى حرب الروس جهاداً شديداً . وأول من استشهد القاضى محمد فلما استشهد نصب الطاغستان مكانه الامير حمزة فاستشهد بعد سنة من الحرب فانتخبوا مكانه الشيخ شامل . وعدد الطاغستان من ٧ الى ٨ ملايين وكلهم من أصل واحد ولكن بعضهم يتكلم بالتركى لكون الاتراك تولوا البلاد قبلاً و بعضهم يتكلم العربى من زمان الفتح العربى اذ اختلطوا بالعرب و بلادهم باب الابواب مدفون فيها كثير من الصحابة وفى الطاغستان اليوم كثير من السادات . ومن عاداتهم ان الانسان لا يدخل مقبرة لهم بدون وضوء . وأما الجركس فهم من مليون الى مليونين وهم قبارتاى وابزاخ وشابسخ واوبوخ . أما القوموق والشاشان والخيداك وتابسران وكراه وكوباه والجار وشكيشروان وباكو وكنجه وقره باك واغداش وطاليش جيلان فكلها من الداغستان

ترجمة القرآن

ثم انه بعد تحرير هذا الفصل[1] ظهرت كتابات فى موضوع ترجمة القرآن الكريم لجهبذين عظيمين من جهابذة الاسلام السيد رشيد رضا صاحب المنار ومصطفى صبرى افندى التركى شيخ الاسلام السابق فى السلطنة العثمانية رحمها الله لايجوز لمن أراد أن يرتوى من هذا الموضوع أن يعرّد عنها

ولقد اشتمل كتاب مصطفى صبرى افندى على كلام شديد بحق الأستاذ فريد وجدى المصرى الذى سوّغ للاتراك الكماليين ترجمة القرآن والصلاة بها بدون قيد ولا شرط وآلم الناس أن يكون مثل فريد وجدى من يذهب هذا المذهب وهو صاحب المواقف المشهورة فى الذب عن الحقيقة الاسلامية ولا سيما فى مقالاته الأخيرة « الاسلام دين عام خالد » ولا جرم ان التساهل فى أمر الصلاة بترجمة القرآن بدون ثبوت العجز التام عن قراءة آية من آياته لايلتئم مع تأييد الدين الاسلامى الذى يقتضى تأييده قدسية نص الكتاب الالهى والمحافظة

(١) راجع صفحات ٢٠٥ ـ ٢١٣ من الجزء الاول

عليه كما نزل والاعتقاد بأن الصلاة بترجمته بدون عذر مقبول انما هى فك من عراه الوثق وما آل ذلك الى التصرف بالصلاة الى الحد الذى لايعرف منتهاه

ان زعم بعضهم ان الدين هو مجرد علاقة بين العبد ور به وانه مسئلة قلبية يكفى فيها الخلوص وحسن النية الى ماأشبه ذلك من الأقاويل هو قول داحض اذا دقق المفكر فيه النظر ظهر له بطلانه فان الدين لأجل أن يصان فى القلوب وان تعتصم به الشعوب يجب أن توقر شعائره الظاهرة كما يجب أن تخلص فيه النية الباطنة وان يكون بعيداً عن التصرف والتغيير والتبديل الذى يؤول بالعقائد الى الفوضى وربما انتهى بزوالها بالمرة . لقد سنت البشر كلها قوانين تجزى بالشدة كل من يخرق هيبة الملك أو يمس مقام الحكومة ملكية كانت أو جمهورية وما كان ذلك الا حرصاً على بقاء تلك الهيبة فى صدور الناس وتفاديا من ان تقتحمها العامة فيضعف بذلك الوازع الضرورى بين البشر . وكما كانت هيبة الملك واجبة ضرورية فهيبة الدين أيضاً ضرورية ومن أهم شروطها حرمة نصوصه وتقديس آياته كما نزلت

وأما ترجمة القرآن لأجل فهمه وتفسيره بكل اللغات فليس ذلك بجائز فحسب بل نراه واجبا على الأمة الاسلامية

مسألة الصلب وقول ابن حزم

وأما ابن حزم الأندلسى الفيلسوف الشهير البحاثة الكبير فرأيه فى مسئلة الصلب[1] هو مايلى :—

إن صلب المسيح عليه السلام لم يقله قط كافة ولا صح بالخبر قط لأن الكافة التى يلزم قبول نقلها هى إما الجماعة التى يوقن أنها لم تتواطأ لتنابذ طرقهم وعدم التقائهم وامتناع اتفاق خواطرهم على الخبر الذى نقلوه عن مشاهدة أو رجع الى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعداً . واما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق فى الطبيعة على التمادى على سنن ماتواطأوا عليه فأخبروا بخبر شاهدوه ولم يختلفوا فيه . فما نقله أحد أهل هاتين الصفتين عن مثل إحداهما وهكذا حتى يبلغ الى مشاهدة فهذه صفة الكافة التى يلزم قبول نقلها و يضطر

(١) راجع صفحات ٦٢ ــ ٧٣ من الجزء الاول

خبرها سامعها الى تصديقه وسواء كانوا عدولا أو فساقا أو كفاراً ولايقطع على صحته إلا ببرهان .

فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام فوجدنا كوافّ عظيمةً صادقة بلا شك فى نقلها جيلا بعد جيل الى الذين ادعوا مشاهدة صلبه فان هنالك تبدلت الصفة ورجعت الى شُرَط مأمورين مجتمعين مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل والنصارى مقرون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهاراً خوف العامة وانما أخذوه ليلا عند افتراق الناس عن الفصح وانه لم يبق فى الخشبة إلا ست ساعات من النهار وانه أنزل أثر ذلك وانه لم يصلب إلا فى مكان نازح عن المدينة فى بستان فخار متملك للفخار ليس موضعاً معروفا بصلب من يُصلب ولا موقوفا لذلك . وأنه بعد هذا كله رشى الشُّرَط على أن يقولوا ان أصحابه سرقوه ففعلوا ذلك وان مريم المجدلانية وهى امرأة من العامة لم تقدم على حضور موضع صلبه بل كانت واقفة على بعد تنظر هذا كله فى نص الانجيل عندهم فبطل أن يكون صلبه منقولا بكافة بل بخبر يشهد ظاهره على أنه مكتوم متواطأ عليه وما كان الحواريون ليلتئذ بنص الانجيل إلا خائفين على أنفسهم غيَّبا عن ذلك المشهد هار بين بأرواحهم مستترين وان شمعون الصفا غرّر ودخل دار قيقان الكاهن أيضا بضوء النهار فقال له أنت من أصحابه فانتفى وجحد وخرج هاربا عن الدار . فبطل أن ينقل خبر صلبه أحد تطيب النفس عليه على أن نظن به الصدق فكيف أن ينقله كافةٌ و (هذا) معنى قوله تعالى (وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطأوا عليه هم شبهوا على من قلدهم فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه وهم كاذبون فى ذلك عالمون أنهم كذبة ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذى حاسة سليمة لبطلت النبوات كلها إذ لعلها شبهت على الحواس السليمة ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها ولأ مكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس وفيمن يجالس وفى حيث هو فلعله نائم أو مشبه على حواسه وفى هذا خروج الى السخف وقول السوفسطائية والحماقة وقد شاهدنا نحن مثل ذلك وذلك أننا اندرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن وقدشاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة فى بيت وخارج البيت أبى رحمه الله وجماعة عظماء البلد ثم صلينا فى ألوف من الناس عليه ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا وبويع بعد ذلك بالخلافة ودخلت أنا عليه وغيرى وجلست بين يديه ورأيته وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام . انتهى

عود الى رأى المستشرق هورغرونيه

من بعد الطبعة الأولى من هذا الكتاب أتيح لنا أن نتلاقى مع الاستاذ المستشرق الشهير سنوك هورغرونيه[(١)]

وذلك أنه فى أواخر سنة ١٩٣١ انعقد مؤتمر المستشرقين فى ليدن من هولاندة وجاءه نحو من ألف مستشرق من جميع الأقطار وكانت رئاسته معقودة اللواء للاستاذ هورغرونيه . وكان محرر هذه السطور من أعضاء هذا المؤتمر وألقيت فى منتدى القسم الاسلامى منه محاضرة فى علاقة اللهجات العربية بالتاريخ نشرتها مجلة المقتطف . ومما لا مرية فيه أن هذا المؤتمر كان حافلاً بالفوائد وانه قد ألقيت فيه نفائس من المحاضرات فى كل قسم من أقسامه نادرة فى بابها

ولما حصلت المعارفة بينى و بين الاستاذ المشار اليه قال لى ان بيننا نقطة خلاف لا بد من ازالة الشبهة فيها ولكن بعد أن يتسع لنا الوقت . فقلت له : انى منتظر هذه الفرصة

وانفضّ المؤتمر بعد عشرة أيام من انعقاده لكن لم يتيسّر لنا الاجتماع من كثرة الاشتغال وشدة الازدحام . وغاية ما حصل أنى لما ودعت الرجل قال لى : اننى أنا لم أقل شيئاً ماسا بالاسلام . فقلت له : أنا انصفتك وذكرت ما لك وما عليك . فقلت انك عارضت القائلين من الهولانديين بأن جميع المسلمين فى أندونسيا ليسوا بمسلمين والقائلين بأن لهولاندة أن تحملهم على النصرانية . وهذه مأثرة لا تُنسى لك . وكذلك عارضت القائلين بمنع الحج وقلت انه لا ضرر على هولاندة من الحج . ولكنك قلت ان سن القوانين من الشريعة الاسلامية هو غير موافق لأنه ينبغى لنا أن نفهم المسلم أنه لا يقدر أن يعيش معيشة عصرية راقية وهو متمسك بشريعته . . . وانه يجب أن يعلم أن شريعة الاسلام لا تتسع لقبول المدنية الحاضرة . وهذا غير صحيح لأن المدنية التى أمكنها أن تنطبق على النصرانية يمكنها أن تنطبق على الاسلام . فقال : لكن القانون يحتم العمل بوجه واحد والشريعة لا تحتم الأخذ بمذهب واحد من مذاهب الفقهاء . فقلت : للسلطان أن يرجح أحد المذاهب ويوجب العمل به وهكذا فعلت الدولة العثمانية . فسكت . ثم قال لى : ان الملاحدة من مسلمى الجاوى هم أشد تعصباً على هولاندة من المتدينين . قلت : نعم ومع ذلك فأنتم وجميع الاوربيين لا تكرهون الالحاد والملاحدة كما تكرهون الاسلام والمسلمين بل العدو الاكبر

---

(١) راجع صفحات ٣٣٨ ـ ٣٥٧ من الجزء الاول

عندكم هو الاسلام والحال ان الاسلام كدين يتفق مع النصرانية فى مبدأ مقاومة الالحاد والاباحة وفى معارضة الشيوعية . وانى لانصحك أن تنصح قومك الهولانديين لا نك مسموع الكلمة بينهم فى الامور الاسلامية أن لا يروجوا فى بلاد أندونيسا سياسة التنصير وأن يلزموا الحياد فى الدين ولا يجعلوا الحكومة آلة لأجل دعاية دينية فلا تجنى هولاندة من سياسة كهذه سوى الضرر لنفسها . فأومأ لى بأن هذا صحيح

ثم كتبت اليه وكتب لى عدة مرار . وأرسلت اليه برسالة « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » فقرأها وأجابنى بأنه يوافقنى على كثير من نظرياتى الا أنه يخالفنى فى بعضها وذلك مثل قولى ان اليابانيين تقدموا الى أقصى ما تقدم اليه الاوربيون من المدنية الحاضرة ولبثوا من أشد الامم اعتصاماً بعقيدتهم وتقاليدهم . فقال : ان اليابانيين ساكنون فى جزائر ليس بينهم أمم أخرى تخالطهم الخ

فأجبته : ان موضوع البحث هو هذا : هل يمكن المسلمين أن يترقوا ترقى الأمم الاوربية أو الامة اليابانية مع بقائهم مسلمين ومعتصمين بعقيدتهم وتقاليدهم أم لا ؟ فنحن نقول : نعم : ممكن ونضرب مثالاً على ذلك هو كون أوربة ترقت هذا الترقى المادّى كله و بقيت متمسكة بديانة هى أقدم عهداً من الاسلام باكثر من ستمائة سنة . وكذلك اليابان رقت هذا الترقى نفسه وهى معتصمة أشد الاعتصام بعقائد وتقاليد هى أقدم عهداً من الديانة المسيحية نفسها بقرون . فياليت شعرى لماذا المسلمون وحدهم هم الذين لا يمكنهم الرقى الا بخلع الدين الاسلامى ؟ كما يزعم بعض أعداء هذا الدين . ولماذا هذا الاستثناء للاسلام ؟

فلم يحر الاستاذ على هذا جواباً

وفاتنى أن أذكر أن ناظر معارف هولاندة عند ما افتتح مؤتمر المستشرقين فى ليدن فى خامس يوليو سنة ١٩٣١ قرأ على ذلك الحشد الكبير من العلماء من كل قطر خطبة ترحيب فيها قال :

« ان تبسُّط الأمة الهولاندية فى المشرق لم يكن المقصد منه مجرد المكاسب المادية بل أكثر ما قصدته هولاندة بذلك هو نشر فضائل النصرانية »

فذكرت هذا فى حديثى لسنوك هورغرونيه وقلت له : كيف تدعون المسلمين الى ترك الاهتمام بأمر دينهم ورجالكم الرسميون يعلنون مثل هذا الكلام فى محفل كهذا المحفل.

فوجم الأستاذ من سماع كلامى هذا ولحظت من وجهه انه كان متألماً من هذا التظاهر الرسمى بالدعاية المسيحية . فان الحكمة عندهم هى فى العمل بدون اعلان

ولقد سمع كل من كان فى المحفل هذه الجملة ومنهم الوفد التركى الانقرى الذى كان يمثل حكومة لا تفتأ تقول للسلمين : ما دمتم متمسكين بالعقيدة الاسلامية فلا يرجى لكم نجاح أفلا ترون الأور بيين كيف نجحوا وأفلحوا بعد أن نبذوا النصرانية ؟

وأين نبذ الأوربيين النصرانية ؟ لا نعلم أين ! ولا متى !

وكان فى هذا المحفل حاضراً هذا الخطاب أيضاً الوفد المصرى و بينهم الدكتور طه حسين

السيد احمد الشريف السنوسى

إنه من بعد ظهور الطبعة الأولى[1] من هذا الكتاب قد جد من أخبار السيد أحمد الشريف السنوسى ما يلى :

إنه كان آخر إقامته بتركيا فى قرية خريستيان كوى بظاهر مرسين وكانت الحكومة التركية تجرى عليه الأرزاق التى تكفيه كضيف كريم كان حليفاً للدولة العثمانية ثم بعد سقوطها انحاز الى جهة الحكومة الوطنية فى أنقره واستعمل نفوذ كلمته فى الأناضول سواء كان فى قونية أو فى بلاد الأكراد لأجل تأييد الحكومة الكمالية التى كانت تمثل الاستقلال التركى . و بقى الأتراك الكماليون يكرمون الأستاذ السنوسى و يحسنون معاملته إلى أن فازوا على اليونانيين وتم الفوز بعقد معاهدة لوزان التى ضمنت استقلال تركيا . فمن بعد ذلك فترت تلك المودة التى كانوا يظهرونها للسنوسى وصاروا يتربصون فرصة لأجل التخلص منه والاشارة إليه بالخروج من تركيا التى وجوده فيها قد يغيظ إيطاليا . ورأوا بالاختصار أنه لم يبق عوز إليه كالماضى عندما كان مصطفى كمال يقول له إن تركيا كلها طوع إرادته و إنهم هم إنما ينوبون عنه فى الحكم وانه لو شاء يبايعونه بالخلافة . و بينما هم يفكرون فى التخلص من السنوسى إذ سنحت لهم هذه الفرصة بهفوة صغيرة جسّموها عمداً وهى أنه قد جاءه فى أحد الأيام شاب تركى من طلبة العلم كان تلقى الطريقة السنوسية وقال له إنه متوجه الى بيروت لزيارة الأمير سليم كبير أولاد السلطان عبد الحميد المقيم بتلك البلدة و إنه يلتمس منه كتابا الى الأمير سليم توصية به فاعتذر له السيد بأنه لم تسبق مراسلة بينه و بين الأمير فألح الشاب المذكور عليه و بكونه مريداً للطريقة لم يجد السيد

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى

بدءا من إعطائه ذلك الكتاب الذى ختمه السيد بقوله (والله مع الصابرين) وهى آية كريمة توافق الحالة التى عليها الأمراء آل عثمان بعد سقوطهم هذا من أعلى الدرجات الى الهاوية التى أصبحوا فيها الآن . فذهب الشاب التركى بهذه الوصاة من مرسين قاصداً بيروت ففى اجتيازه الحدود بين ولاية أطنه وحلب قبض عليه الخفراء الأتراك الذين على الحدود وفتشوا فى جيوبه فوجدوا ذلك المكتوب فقدموه الى أنقرة فصدر الأمر من أنقرة بارسال الرجل إليها حيث استنطقوه بمزيد التدقيق والتشديد فاخبرهم بأنه هو الذى ألح على السيد باعطائه هذه التوصية واعترف بأنه كان قاصداً زيارة الأمير سليم أفندى ابن السلطان عبد الحميد . فأحالوه الى محكمة الاستقلال التى كانت تحكم بدون استناد على مواد قانونية بل بمجرد الوجدان بزعمها وقتلت على هذه الصورة ألوفا من الابرياء الذين لاذنب لهم سوى كونهم فى ذات صدورهم لا يحبون الحكومة الجمهورية ومن جلتهم هذا المسكين الذى أصر وأبرم حتى نال تلك الوصاة من السيد السنوسى بدون ارتياح منه . ولما فرغوا من قتل الرجل عادوا الى السيد فأمروا والى مرسين بأن يقول له ليخرج حالا من تركيا . فلما أبلغه الوالى الأمر وكان لم يوجد فى يده مايساعده على السفر استمهل الحكومة بعض أيام حتى يتمكن من بيع بعض أشياء يستعين بها على الرحيل فصدر الامر ثانية بعدم إمهاله ولا ساعة واحدة : وكانت حكومة أنقره وعدته بأنه إذا أراد مغادرة تركيا بانها تؤدى اليه الفي جنيه يستعين بها على السفر فنسيت الحكومة الأنقرية هذا الوعد وعدّت هذا الكتاب الذى كتبه السيد السنوسى الى الامير سليم أفندى خيانة فظيعة لها ولا سيما استشهاده بالآية الكريمة (وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) . ورأوا فى ذلك إشارة الى كون السنوسى يتمنى رجوع آل عثمان الى الملك فاكبروا هذا الأمر إكباراً ونشروا صورة السيد فى بعض جرائدهم ووضعوا تحتها هذه الجملة (بزى خيانت ايدن سنوسى) وبالجملة فقد حققوا ماينسب اليهم من قلة الوفاء وقلبوا ظهر المجن لاجل هفوة غير مقصودة لرجل بقيت تركيا فى طرابلس الغرب عدة سنوات تقاتل بسيفه وسيوف رجاله وتحافظ على شرفها بين الدول بواسطة اتباعه . ثم بعد ذلك أعملت لديه الوسائل حتى حملته على ترك مدينة بورصة والمجىء الى الاناضول منحازا الى الحكومة الانقرية ثم لجأت إليه فى تسكين ثورة قونية ثم فى تسكين قبائل الاكراد عند مابدءوا بالعصيان على أنقرة وتمكن السيد ذلك اليوم

من ابقائهم فى دائرة الطاعة . هذا وخرج السيد مبادرا وقصد دمشق الشام ومنها جاء الى بيروت ثم زار القدس الشريف ثم عاد إلى الشام ومنها ذهب بالسيارات الى المدينة المنورة . وقد قام الأمير سعيد الجزائرى من إضافته واكرامه مقاماً يحمد . و بعد أن استقر السيد السنوسى فى المدينة المنورة مدة من الزمن جاء الى الحج وأقام عدة أشهر فى مكة ثم قصد بلاد عسير ضيفا على السيد حسن الادريسى أمير صبيا وجيزان . و بقى عنده زمناً لما بين هاتين الاسرتين من القرابة والعلاقة ثم عاد السيد الى مكة وأقام مدة بالطائف ومدة بالزاوية السنوسية فى جعرانة بقرب مكة ولما حججنا سنة ١٣٤٨ تلاقينا معه فى مكة وكان أوانئذ على أوفاز قاصداً المدينة المنورة وهو فى هذه الايام أيضاً مقيم بها. قصدنا الحاق هذه الاخبار بترجمته إذ لاتتم الا بها. وهو خاتمة كبار السادة السنوسية و بقية السلف الصالح رحمه الله رحمة واسعة

تقرير

عن القضية الطرابلسية البرقاوية

نضم الى هذا المبحث (١) هذا التقرير الذى تقدم الى المؤتمر الاسلامى فى القدس

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أن أخذ الاوربيون يشنون الغارة على البلاد الاسلامية بحجة الاستعمار لم تفجع بلاد اسلامية — بعد الأندلس — بمثل ما فجعت به طرابلس — برقة ، تلك البلاد التى منذ سطا عليها الايطاليون وسيوف نقمتهم لم تبرح أعناق أهلها بدون رحمة ولا شفقة ، حتى آلت الى مجزرة بشرية ومرسح تمثل فيه أفظع الأدوار الهمجية .

لا نريد أن نطيل البحث فى مناقشة الوسائل التى تذرعت بها الدولة الايطالية لاحتلال طرابلس - برقة التى لا تربطها بها أية علاقة ، ونكتفى هنا بنظرة عامة فى تطور القضية الطرابلسية منذ الاحتلال الايطالى الى يومنا هذا ، اذ أن المجال لا يسمح بسرد جميع الحوادث مفصلة :

لقد أغارت الدولة الايطالية على القطر الطرابلسى - البرقاوى فى ٥ تشرين الأول سنة ٩١١ على حين غفلة من أهله ، وكان مع خلوه من المعدات الحربية لم يكن به من الحامية العثمانية سوى ثلاثة آلاف جندى مبعثرين فى عدة مناطق . بيد أن سكان تلك

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى

البلاد الذين كلهم كتلة عربية ـ اسلامية واحدة قد فطروا على عزة النفس والاباء . لذلك قاموا فى وجوه الغاصبين قومة رجل واحد يدافعون عن أوطانهم ويذودون عن حياضهم بقلوب ملؤها الايمان بالله والاعتماد عليه .

واستمرت الحرب سنة كاملة لم تتمكن فى خلالها الجنود الايطالية من التقدم شبراً عن مرمى مدافع اسطولهم ، الى أن اضطرت الدولة العثمانيــة الى عقد صلح مع الايطاليين منحت فيه الطرابلسيين استقلالهم الادارى وسحبت جنودها وهى مرغمة

وعقب ذلك أخذ الايطاليون يدعون أهالى البلاد الى السكينة ويظهرون لهم حسن النية لخير تلك البـلاد فوضعت الحرب أوزارها وألقى أكثر أهالى طرابلس ـ برقة السلاح وعادت السيوف الى أغمادها . ولـكن رجال الدولة الايطاليــة ما كادوا يظفرون بتجريد الأهالى من السلاح حتى قلبوا لهم ظهر المجن واخذوا يسومونهم سوء العذاب وينتقمون من كل من حرض النـاس على قتالهم فيخلقون لهم تهما واهية ويزجون بعضهم فى أعماق السجون ويرمون بالبعض الى جزر ايطاليا .

فثارت ثائرة القوم من تلك الأفعال المنافية للعهود والمناقضة للوعود فانقضوا على ايطاليا . وكانت أول وقعة دموية جرت وقعة تسمى بوقعة « القرضابية » وهو مكان قرب خليج سرت . جرت تلك الوقعة فى أوائل سـنة ١٩١٤ أضاع فيها الايطاليون ما ينيف على « ٨٠٠٠ » جنـدى . وعقب ذلك ازداد حقد الايطاليين على الأهلين فانهالوا على العزل منهم بالقتـل والتعذيب فقتلوا فى يوم واحد من الأعيان ورؤساء القبائل رمياً بالرصاص ٣٠٠ نسمة فى قضاء سرت وأخذوا يقتلون الأبرياء والشيوخ والأطفال من النساء والرجال .

وعلى أثر ذلك اشتعلت فى البلاد نار حرب سرى لهيبها فى كل ناحية من النواحى وظلت الفتن تتقد الى أن نشبت الحرب العالميــة فارسلت الحكومة العثمانية بعض القواد العسكريين منهم نورى باشا شقيق أنور باشا الشهير . عندئذ اضطرت الجنود الايطالية أن تنسحب من كل المواقع التى أشغلتها أثناء السـلم وتتحصن فى مدينـة طرابلس ، زواره ، الخمس ، بنغازى ، درنه ، طبرق ، الى أن انتهت الحرب الكبرى فخرجت ايطاليا منها وعسكرها منهوك القوى لما لاقى من الهزيمـة تلو الهزيمة فى ساحات الحرب الاوربيــة .

ورغم ذلك ساقت عدة فيالق من جيوشها الى طرابلس — برقة وجهزت منهم مائة الف جندى زحفت بهم على خطوط المجاهدين فى منطقة طرابلس . وما كادت تدور رحى الحرب بين الفريقين حتى انهزم ذلك الجيش العرمرم شر هزيمة وغنم المجاهدون منهم أسلحة ومعدات حربية كثيرة

ولما باءت الدولة الايطالية فى تلك التجربة بالفشل وعلمت أنها غير قادرة على اخضاع الشعب بقوة الحديد والنار عمدت الى التضليل والتمويه فسنت قانوناً سمته « القانون الأساسى » وأعلنته فى سنة ١٩١٩ ومع انه جاء غير ضامن لحقوق الأهلين قبلوا به بغية حقن الدماء وراحة الفريقين وانتظروا من رجال الحكومة الايطالية تنفيذه ثم ما لبث أن ظهر أنهم اتخذوه غشاوة على أعين الناس وأخذوا يبثون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لايقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن و بنيه والاخ وأخيه . وكادوا يصلون الى رغائبهم ويوقعون البعض فى تلك الحبائل التى نسجتها أياديهم الاثيمة ، لو لا ان عقلاء البلاد أدركوا تلك الدسائس وتلافوا الأمر بعقد مؤتمر عام فى مدينة غريان ضم نخبة من رجالات البلاد فى سنة ١٩٢٠ فتبادلوا الآراء وفكروا فيما ينقذ البلاد من الفتن والفوضى . وكان الجيش الايطالى وقتئذ كما ذكرنا آنفاً منحصراً فى بعض المدن الساحلية.

و بعد المداولة فى جلسات متوالية قرروا بالاجماع مايلى :

« ان الحالة التى آلت اليها البلاد لا يمكن تحسنها الا باقامة حكومة قادرة ومؤسسة على مايحتمه الشرع الاسلامى من الأصول تحت زعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لايعزل الا بحجة شرعية واقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وان يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة .

وقد تناقش المؤتمر فى أن ذلك لا ينافى منافع دولة ايطاليا التى جاءت الى وطننا من أجلها مع اللزوم القطعى لراحتنا وسلامتنا و بين ثقة فى أن الشعب الايطالى لا يرضى فى هذا الزمن الذى تنال فيه كل الأمم أكبر أمانيها ، أن يقيم نفسه من أجل مطامع وأوهام فئة المستعمرين عقبة فى سبيل النظام والامن والعدل فى طرابلس الغرب ولذلك لا تزال للامة

ثقة فى أن تسعف بضروریاتها وان لا تصادم فى أمنية لا ترضى ولا يستقر لها حال بغيرها

وقد أنبنا للمطالبة بذلك وفداً من حضرات نورى بك السعداوى ومحمد خالد بك القرقنى ومحمد فرحات بك ومحمد الصادق بك ابن الحاج ليراجع كل مصدر يرى ضرورة مراجعته لتحقيق الغاية المذكورة فى القرار المبين أعلاه داعين المولى جل شأنه أن يوفقهم وأن يحقق أمانى أمتنا حرر فى ٦ ربيع الأول سنة ١٣٣٩

ثم انتخب المؤتمر هيئة حكومة عهد اليها ادارة شؤون البلاد الداخلية التى عمت فيها الفوضى بسبب الفتن التى خلقها رجال الحكومة الايطالية . وذهب الوفد المشار اليه فى ذلك الحين الى رومية ليبلغ حكومتها ما أجمع عليه الشعب من المطالب وأخذ يراجع المقامات الرسمية وغير الرسمية فلم يكن حظه من رجال الحكومة الايطالية سوى الاعراض والاستخفاف بمهمته .

أما هيئة الحكومة الوطنية التى عهدت اليها ادارة شؤون البلاد فانها أخذت فى اقرار دعائم الامن وتنظيم الشؤون الادارية كالدوائر المالية والقضائية وتنظيم الجيش لما سيحدث من الطوارئ فساد الامن ورجعت الطمأنينة بعد الخوف الذى استولى على النفوس وانصرف الاهلون الى معائشهم ومصالحهم

أما منطقة بنغازى فان نورى باشا الذى أوفدته الحكومة العثمانيه اليها خلال الحرب العالمية حمل الاهالى على التعرض على القطر المصرى وهى خطة رسمتها وزارة الحربية العثمانية فجهز جيشاً مؤلفاً من « ٥٠٠٠ » مجاهد بالاتفاق مع السيد أحمد الشريف السنوسى وتجاوزا به الحدود المصرية وترك السيد أحمد الشريف وكيلاً عنه فى برقة ابن عمه السيد ادريس السنوسى .

ولما دخل المجاهدون الحدود المصرية اصطدموا بالجيوش الانكليزية وبعد حروب بين الفريقين تراجع المجاهدون بصورة غير منظمة وخلال ذلك عمت الفاقة منطقة برقة واشتدت المجاعة

فرأى السيد ادريس من الحكمة أن يعقد هدنة مع الايطاليين وأوقف رحى الحرب وبعد انتهاء الحرب الكبرى بايعه الشعب البرقاوى بالامارة ووافقت على ذلك الحكومة الايطالية بمقتضى معاهدة عقدت بين الفريقين .

بيد أن رجال الحكومة الايطالية كعادتهم فى كل عهد يعقد معهم أخذوا ينقضون العهود ، فاضطر الأمير السيد ادريس أن يوحد مساعيه مع حكومة طرابلس الوطنية وعقدت الاتفاقية بين الفريقين المعروفة باتفاقية « سرت » المتضمنة توحيد القطرين الشقيقين والتضامن على المطالبة بحقوقهما معاً ؟ وتنص المادة الخامسة من هذا الاتفاق على توحيد الزعامة وتنصيب أمير واحد للقطرين .

وما كادت هذه الاتفاقية تتم حتى هاجم الايطاليون سواحل مصراته فى منطقة طرابلس سنة ١٩٢٢ فأعلنت الحكومة الوطنية الحرب فى كل المناطق واستمرت الحرب بشدة هائلة ثلاثة أسابيع عجز الايطاليون خلالها عن التقدم ولو كيلو متراً وضحت البلاد بالوف من الخلق فى سبيل الدفاع ، كما ان الايطاليين خسروا اضعاف ذلك لأنهم كانوا المهاجين . ولما أيقنوا بالخيبة والفشل طلبوا توقيف القتال بغية التفاهم وانتدبوا للمذاكرة السنيور « بيلا » والسنيور « رابكس » وخرجا فى الموعد المضروب الذى قررته الحكومة الوطنية فى مكان يسمى « فندق الشريف »

وقد كتبت الحكومة الوطنية للوالى الكتاب الآتى : « باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدثت فى البلاد حالة فوضوية وقفت الحكومة الايطالية أمامها موقف المتفرج فاضطرت الأمة الى عقد مؤتمر فى غريان بلغت مقرراته الصائبة الى الحكومة وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه الا الاعراض والاستخفاف بمهمة ذلك الوفد مع استمرارها على خطة المراوغة والتفريق

ولما حال الحول على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرة على تلك السياسة المنفورة . وتحقق أهل القطرين طرابلس — برقة ان حياتهما محفوفة بالخطر فى الحال والاستقبال وان ما دهم أحد القطرين لا بد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية لا سيما ان ادارتهما الى عهد الاحتلال واحدة عندئذ تبادل عقلاء الفريقين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الاخاء ويسهل سير الأمتين العربية والايطالية فى سبيل الحياة الاقتصادية مع المحافظة على حق ايطاليا السياسى .

فقرر الفريقان بالاجماع فى سرت اتفاقية من جملة فصولها المطالبة بتوحيد ادارة

القطرين وهو الحل النهائى الذى لا يبقى معه ريب لهذه القضية المعضلة التى لا تزيدها سياسة المراوغة والتفريق وطول الأمد الا تحكما فى عقد الخلاف فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها فضلاً عما تصاب به الامتان من الخسار وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى

أما نحن أهل القطرين فان الادوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا الى صورة حل هذه المشكلة حلا لاحظنا فيه المنافع الايطالية سياسية كانت أو اقتصادية وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الامة وتكون له السلطات الادارية جميعها مع السلطة الدينية ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد ان تجردت عن ملاحظة الاشكال والاعتبارات ووجهت دقيق نظرها الى الحقائق والجوهريات . كنا قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة وعلمنا خلالها ان سفركم الى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك والحصول على إذن وصلاحية واسعة تخول لكم المفاوضة معنا للوصول الى مايرفع الخلاف الذى لا تتحمل البلاد دوامه ورعاية لاحكام اتفاقية سرت المذكورة فانا فى انتظار مندوبى برقة الذين قرب وصولهم بالنظر لاشعار سمو الأمير السيد محمد ادريس ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التى لا نشك أنها ستبنى على أساس الاخلاص وحسن النية والأمل وطيد فى أن دولتكم ستضمون الى تاريخ حياتكم السياسية فخراً آخر فى حل المشكلات واقبلوا يادولة الوالى عاطر التحية وفائق الاحترام

وبعد استمرار المذاكرة ثلاثة أشهر والايطاليون يراوغون فى أحاديثهم مراوغة الثعالب تبين أن الغاية من توقيف القتال وتلك المذاكرة الاستفادة من الوقت لاعداد العدة للحرب وقد تجلت فكرتهم هذه فى تكليفهم الأخير وهو طلبهم تسليم السلاح الذى بيد الأهلين قبل كل حل والا الحرب ، عندئذ لم تر الحكومة الوطنية بدأ من رفض هذا الطلب وخوض غمار الحرب ، واستؤنف القتال الذى لم يزل شرره يستطير من ذلك التاريخ الى يومنا هذا

ان الحكومة الايطالية بعد ان اتخذت كل ما فى وسعها من الوسائل لتفريق كلمة أبناء البلاد ولم تنجح ورأت ذلك الشعب متضامناً مستميتا فى سبيل الشرف والمطالبة بحقوقه عمدت الى تنفيذ سياسة الشدة والارهاق خصوصاً بعد استلام الفاشيست زمام الحكم فانهم أضافو الى تلك الشدة فكرة ابادة ذلك الشعب وامحائه لتخلو لهم الديار ويستخلفوا

فيها المستعمرين من أبناء جلدتهم الذين ضاقت بهم أرضهم وهكذا أخذ الفاشيست فى تنفيذ سياستهم الغاشمة وما برحوا ينزلون بذلك الشعب العربى ضروب العذاب فلا يرحمون طفلا صغيراً ولا شيخا كبيراً

فانهم يحكمون البلاد بأحكام عسكرية وأعمدة المشانق منذ الاحتلال حتى يومنا هذا لم تزل منصوبة فى كل بلد من ذلك القطر فادارة البلاد تحت حاكم عسكرى مطلق اليد لا يسئل عما يفعل وله فى كل لواء وقضاء وناحية حاكم ادارى وجميع الدوائر المالية والعدلية والبلدية يديرونها بمعرفتهم وليس للأهلين مشاركة فى شؤون بلادهم ولا يستخدمون منهم حتى الخدم ولا الحجاب أيضاً الذين يقفون على الابواب وجميع المعاملة باللغة الايطالية والأغرب من هذا كله ان جباة الأموال من الفاشيست فيطرحون الضرائب ويجبونها من المكلف وهو لايدرى ما عليه ولا يعرف باية نسبة تجبى منه تلك الضريبة بل انه مرغم على ادائها عن يد وهو صاغر واذا سأل سائل عن أساس الضريبة يعد خائنا ويعاقب العقاب الأليم .

وبالجملة فان السياسة المرهقة التى تتمشى عليها الحكومة الفاشستية لم يسبق لها مثيل منذ ان عرف التاريخ ، فسفك الدماء وقتل النفوس البريئة والتجاوز على الاعراض والنفى والحكم بالسجن المؤبد وسلب الأموال وغصب الاملاك والأراضى من أيدى أصحابها وقذف البشر من الطيارات والقاء بعضهم مكبلين بالاغلال فى لجج البحر وقتل الاسرى وهتك حرمات الدين ودوس القرآن الكريم تحت الاقدام امام جماهير من المسلمين وهدم اضرحة بعض الصحابة الكرام والاولياء واتخاذها اصطبلات للحيوانات والترنم بالاناشيد فى الطعن بالدين الاسلامى فحدث عن ذلك ولا حرج ، ولانريد أن نأتى فى هذه العجالة على ذكر الفظائع التى كتب فيها تأليف خاص يغنينا عن التفصيل فان فيه من الفظائع ماتتفطر منه الاكباد ويذيب الفؤاد

ومنه يعلم القارئ أن سياسة الفاشيست فى ذلك القطر ترمى الى ابادة أهله فقد كان عدد الشعب الطرابلسى — البرقاوى قبل الاحتلال الايطالى يربو على « ١،٥٠٠،٠٠٠ » نسمة وقد صرح الجنرال غرتسيانى قائد الحركات العسكرية انه بعد الاحصاء الدقيق تبين أن سكان طرابلس — برقة لم يتجاوز عددهم « ٧٠٠ » ألف ولا ريب فى أنهم قد قضوا

على ذلك الشعب المسلم بين قتل وتهجير والبقية الباقية أيضاً محكومة بالفناء لأن الضغط الشديد وشد الخناق على الاعناق لابد أن يؤدى الى تلك النتيجة وعدا ذلك فان مرافق الحياة فى تلك البلاد قد استولوا عليها جميعا فالمسلم لايتمكن من الاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة ولا بأية حرفة تؤمن معاشه فالتاجر لا يمكنه التوسع بالتجارة والتجول فى البلاد لتوسيع نطاق عمله بل أنهم يحددون له المبالغ التى يمكنه أن يتاجر بها والايام التى يتغيبها فى الاقطار المجاورة وصنف البضاعة واذا تغيب عن الاجل المضروب له أو تاجر بأصناف غير مسموح له بها تسحب من يده اجازة التجارة و يعاقب ، زد على ذلك انهم أطفأوا نور العلم وتركوا ذلك الشعب يتخبط فى دياجير الجهل فلم تكن فى تلك البلاد الا بضع مدارس ابتدائية أسست فى عهد الترك يعلمون فيها الاطفال باللغة الايطالية للوصول الى اماتة اللغة العربية حتى لاتبقى ناحية من مقومات ذلك الشعب الا و يقضى عليها القضاء المبرم

ولما رأت الجاليات الطرابلسية البرقاوية التى تقطن مختلف الاقطار الاسلامية ماأحاط ببلادها من الاخطار فكرت فى تأليف لجنة للدفاع عما حل ببلادها من الضيم الفظيع والظلم المريع وانتخبت هذه اللجنة و وضعت أساسا لعملها «الميثاق الوطنى» وهذه مواده :

١ ــ تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس ـ برقه يرأسها زعيم مسلم تختاره الامة

٢ ــ دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد

٣ ــ انتجاب الامة مجلساً حائزاً على الصلاحية التى يخوله اياها الدستور

٤ ــ اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم .

٥ ــ المحافظة على شعائر الدين الاسلامى وتقاليد القطر فى جميع ارجائه

٦ ــ العناية بالاوقاف وادارتها من قبل لجنة اسلامية

٧ ــ العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه

٨ ــ تحسين العلاقات بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الايطاليه بمعاهدة يعقدها الطرفان و يصدقها المجلس النيابى

ومنذ تاسست هذه اللجنة أخذت على عاتقها معالجة القضية بشتى الوسائل الداخلية فى حيز امكانها فأذاعت على الملأ السياسة الهوجاء التى تتمشى عليها الدولة الايطالية فى تلك

البلاد بواسطة الصحف والنشرات والرسائل وهى ترسل فى كل موسم حج الى مكة المكرمة عشرات الآلاف من النشرات لتحيط المسلمين فى جميع الأقطار علماً بما هو حادث فى تلك الديار النائية ولم تكتف بذلك بل خاطبت طاغية الفاشيست و بينت له عقم سياسة الحديد والنار التى يتعقبها فى طرابلس برقة ولكن نصحها له لم يزده الاغروراً وعتواً كبيراً وقد اقتنعت بعدم الفائدة من مراجعة أولئك الطغاة الذين لايرضيهم الا تمزيق اللحوم والولوغ فى دم البشر

لذلك يتحتم على المسلمين الاهتمام باخوانهم فى الدين والقومية فى تلك البلاد النائية أولئك المساكين الذين تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت فى وجوههم السبل الا سبل الموت وفى الموت راحة البائسين ولطالما ملأنا الفضاء بأصواتنا و رفعنا شكوانا الى العالم الاسلامى ليصرخ فى وجوه وحوش الفاشيست عساهم يرجعون عن غيهم و يؤوبون الى رشدهم رحمة بالانسانية وشفقة على البشرية ولكن انى للمسلمين الذين تفرقت كلمتهم وانحلت عرى جامعتهم أن يتضامنوا على القيام بمثل هذا الواجب ، ولما كان المؤتمر الاسلامى الموقر من ضمن واجبه التفكير فى مثل هذه الشؤون الهامة فها اننا نبسط بين يديه قضية من أهم القضايا التى يجب العناية بها فان ذلك الشعب المفجوع فى وطنه ودينه اذا لم تشمله عناية المخلصين من اخوانه المسلمين الذين يهمهم أمر الدين سيصبح « لاسمح الله » أثراً بعد عين وفى ذلك مافيه من المسئولية الكبرى والبلاء العظيم

فيا أيها السادة الأكارم

إن الشعب الواقف فى وجوه أعدائكم منذ احدى وعشرين سنة هو منكم ، والدين المهان فى تلك الديار هو دينكم . وأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الله هم شهداؤكم ، هنالك فى تلك الصحارى المحرقة والفيافى المقفرة اخوان لكم « صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ومَا بَدَّلُوا تبدِيلاً »

أجل . إن اخوانكم فى تلك الديار النائية يستصرخونكم و يناشدونكم الله أن تعملوا على معالجة شؤونهم ونشلهم من براثن الأعداء قبل أن يقضى عليهم فيموتوا و بذلك تفقدون قطرا اسلاميا فتحه جدودكم الكرام و رفعوا فيه راية الاسلام منذ أر بعة عشر قرناً .

وقد أصبحت اليوم تلك التربة التى خضبت بدم الشهداء تخيم عليها سحابة سوداء تمطر ظلما وجوراً على اخوانكم البؤساء ، هنالك تسمعون الصراخ والعويل والبكاء والنحيب ، هنالك الانسانية المعذبة ، هنالك تحار الأفكار وتزيغ الأبصار ، ولامنجد ، ولا مغيث ، ولا منقذ ، ولا معين .

فان فى تلك البلاد طائفة من المسلمين لم يزالوا شاكين السلاح يذودون عن أوطانهم ويدافعون عن كيانهم وعدوهم الجائر يتربص بهم الدوائر ، فنرجو أن تفكروا فيما يخفف عنهم المصائب التى تحل بهم قبل أن تمزقهم القوى الغاشمة ولا نخال أنها تعوزكم الوسائل لمد يد المساعدة لاولئك البؤساء وأنتم رجال الاسلام الذين تمثلون « ٤٠٠ » مليون مسلم فى الكرة الأرضية والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه

٢٦ رجب سنة ١٣٥٠ — رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات
٦ كانون اول سنة ٩٣١ — الطرابلسية البرقاوية

بشير السعداوى

رئيس الجامعة الاسلامية

بجمهورية ليبيريا

تكرم بزيارة هذه الجريدة[1] سيدى أفاريل رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية ليبيريا . وقد كان سيادته وزير الحربية ثم رئيس الوزارة . وكان فى وسعه أن يكون رئيسا للجمهورية لولا أنه آثر رياسة الجامعة الاسلامية وهى أكبر منصب دينى فى البلاد عين فيه سيدى أفاريل هذا لمدى حياته كلها فى حين أن رئيس الجهورية تنتهى مدة رياسته فى مدى أربع سنوات ولا يستطيع تولى منصبه الا بموافقة سيدى أفاريل بوصفه أكبر رئيس دينى لمسلمى الجهورية

وسيدى أفاريل يمثل اللون الافريقى الأصلى ولكن ملامح وجهه وسيماءه وتناسقه غير ما تراه فى بعض الزنوج فهو أقرب الى سماحة الوجوه العربية وفيه جاذبية تستريح اليها النفس وطيبة مرتسمة فى محياه لا يشك فيها أحد

(١) نقلا عن جريدة السياسة الغراء

وسيدى افاريل يزور الديار المصرية للمرة الثانية . فقد زارها فى العام الماضى وظل فيها أياماً معدودة وكذلك تكون زيارته قصيرة هذا العام . ومهمته تجارية فهو بالرغم من صفته الدينية يحمل تفويضاً من حكومته فى عقد الاتفاقات التجارية مع الحكومات الأخرى .

وسيدى أفاريل يرتدى ملابس عسكرية رشيقة على الطراز الحضرى وهو فى مصر يلبس « الطربوش » ويزدان صدره بنياشين عدة يأخذك بريقها الجذاب ترى بينها نيشان اللوجيون دونير الفرنسى ونيشاناً فرنسياً آخر وثلاثة نياشين أمريكية ونيشاناً انجليزياً واثنين من ملك الحجاز وواحداً من الحكومة التونسية

وهو يتكلم اللغتين الفرنسية والانجليزية ويعرف بعض العربية وقد تلا علينا المعوذتين وسورة الفتح من دون لحن ولا غموض

وسيدى أفاريل من سلالة الملوك الذين تعاقبوا على عروش السنغال وليبريا وسيراليون ستة قرون ونصف قرن وقد بلغ عددهم ستين ملكا . ولقد كان آخرهم والد ضيفنا المحترم كان ملكا على السنغال وحارب الفرنسيين ثلاثين عاماً . وما زال والده حياً وقد بلغ من العمر مائة عام وتسعة أعوام ولم تنفرط ثنية من ثناياه حتى اليوم . وكذلك والدة سيدى افاريل . بلغت من العمر ثمانية وتسعين عاماً وهى كزوجها فى عافية وصحة

ولقد اضطرت الظروف القاهرة سيدى افاريل أن يحارب جنبا لجنب مع الجنرال غورو فى سوريا أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٧

ومن مهامه فى زيارته الحاضرة لمصر أن يخاطب ذوى الاختصاص فى تعيين قناصل يمثلون مصالح ليبريا التجارة فى القاهرة والاسكندرية وبورسعيد . وسيدى افاريل ينوى كذلك أن يعقد اتفاقا مع بعض المدرسين المصريين الذين يحسنون اللغة العربية ليسافروا الى ليبريا ويتولوا التعليم فى مدارسها .

ولما كان سيدى افاريل قد أصبح الرئيس الدينى الأكبر فى البلاد فسترسل حكومة الجمهورية ولديه الى الازهر الشريف فى العام القادم لكى يدرسا العلوم الاسلامية دراسة متقنة تمكن احدهما من أن يتولى منصب قاضى قضاة المسلمين هناك وتمكن الآخر من

تولى منصب دينى آخر حتى اذا وافى الأجل أباهما خلفه أحدهما فى رياسة الجامعة الاسلامية بديار ليبريا

وحكومة ليبريا وأهلوها قوم أشداء فى الاحتفاظ باستقلالهم غاية فى الغيرة على مرافقهم وحقوقهم القومية لايفرطون فيها ولا ينزلون عنها لأحد . ولقد بلغ من حرصهم على بلادهم انهم لايسمحون لاجنبى كائنا من كان ولا سيما الغربيين بأن يشترى شبراً من الارض فى ديارهم .

حدثنا رفيق كان يصحب سيدى افاريل فى زيارته لجريدتنا قال : — توصل أحد المستعمرين الانكليز الى أن يستحوذ على منجم لتعدين الذهب فى ليبيريا فلما توجس خيفة على نفسه وعماله استنجد بمائتى جندى بريطانى فلم يكد هذا النبأ يصل الى مسامع حكومة الجمهورية حتى أنذرت الرجل بأن ينسحب هو وجنوده من البلاد والا نزل بهم من المكاره مالا يحبون فى أربع وعشرين ساعة . فانسحب الجند ووقف العمل ولم يسع القنصل الانكليزى سوى ان ينصح للجنود بسرعة الخروج من البلاد والا لم يكن أحد مسئولا عن حياتهم سواهم

وقد أخبرنا سيدى افاريل أن عدد أهل ليبربا يبلغ خمسة ملايين وان كانت المراجع الجغرافية تحدد العدد الأقصى بمليونين وربع مليون . لكننا قد نرجح صحة الرواية التى رواها سيدى افاريل لعلمنا ان الاحصاء الدقيق فى مثل تلك الأصقاع يكاد يتعذر .

ومما ذكره سيدى افاريل وأقرته عليه المراجع الجغرافية أن الأجانب لايزيدون فى بلاد الجمهورية عن مائتى شخص كلهم فى البلاد الكبرى وفى هذا دليل واضح على أن أهل الجمهورية ينفرون من العناصر الأجنبية كل النفور .

ولا عجب فان أمريكا التى تعهدت هذا الشعب منذ حوالى مائة عام أسلمته قياد نفسه فى النهاية وعلمته الحذر الشديد من تدخل الأجانب فى شئونه فأحسن الشعب الليبيرى تلقن هذا الدرس الثمين وجرى عليه حتى يومنا هذا .

وفى ليبيريا زهاء ١٢٠٠٠ من الزنوج الامريكان لعل الشفيع لهم فى البقاء بين أبناء الجمهورية أنهم من طائفة الزنوج فلهم باهل افريقيا قرابة الجنس وانهم ينتمون الى الأمة الامريكية التى أحسنت رعاية ليبيريا يوم كانت قائمة بشئونهم القومية منذ مائة من السنين .

وسألنا سيدى أفاريل كم عدد المسلمين بين أبناء الجمهورية فقال ان من الخمسة الملايين الذين يتألف منهم أهل ليبيريا ثلاثة ملايين لا يزالون فى حالة البداوة الاولى لا تكاد تكون لهم حضارة أو دين . و بينهم زهاء مليون ونصف مليون من المسلمين وزهاء نصف مليون من المسيحيين الذين اعتنقوا المسيحية بجهود المبشرين الامريكان وغير الامريكان

وسألنا سيدى افاريل من ذا يقوم بنشر التعاليم الاسلامية فى بلاد الجمهورية فاجاب . بأن بين مسلمى السنغال رجالا متفقهين فى الاسلام الذى هو دينهم فنهم نستمد المعلمين الدينيين .

وفهمنا من سيدى افاريل أن فى الجمهورية نهضة حديثة ترمى الى ترقية البلاد فى نواحى مرافقها المختلفة من تجارة وتعليم ومواصلات . والخدمة العسكرية عندهم تتناول أبناء الجمهورية جيعا وقت الضرورة من سن السادسة عشرة الى سن الخمسين

وحكومة الجمهورية تشترى آلات مدرعة حربية كبرى من أمريكا يبلغ ثمنها ١١ مليون دولار كما أخبرنا سيدى افاريل

وقد ظل سيادته فى دار الجريدة زهاء خمس وأربعين دقيقة ثم نهض منصرفا فودع بمثل ما استقبل به من الاكرام . والشرقى على الشرقى عطوف . وقد طلب الينا سيادته أن نرسل اليه أعداد السياسة فى مقره بليبيريا التى يصل اليها بعد شهر من الزمان يقضيه فى رحلته من القاهرة الى بور سعيد الى جبل طارق الى اسبانيا ومن ثمت يركب السفينة الى بلاده بسلام

***

أما من جهة عدد سكان جمهورية ليبيريا فقد سمعنا روايات تختلف عن رواية سيدى افاريل صاحب هذا الحديث وذلك اننا كنا اجتمعنا مع مندوب ليبيرنا فى جمعية الأمم وهو معتمد هذه الجمهورية فى باريز هولاندى الاصل وقد توفى منذ ثلاث سنوات ولما اجتمعنا به سألناه عن عدد أهالى ليبيريا والمسلمين منهم فقال لنا انهم مليون ونصف مليون. المسلمون منهم مليون ومائتا ألف نسمة والمسيحيون ٣٠٠ ألف وربما يكون أهمل الوثنيين لأننا لا نزال نعتقد أن رواية سيدى اقاريل رئيس الجماعة الاسلامية فى ليبيريا هى الصحيحة «وصاحب البيت أدرى بما فيه »

الدفاع عن الحروف العربية

بينا لقرائنا [١] فى رسالة سالفة تلك التيارات الحائمة حول قبول الحروف اللاتينية والاحتفاظ بالحروف الحالية بتعديل أو بغير تعديل . واليوم قد سنحت لنا الفرصة للدفاع عن الحروف العربية حيث قد اطلعنا على رسالة تركية حديثة الظهور ، يصح لنا أن نعتبرها حجة قوية لم يستطع أنصار الحروف اللاتينية أن يقابلوها بمثلها بعد .

وهذه الرسالة عبارة عن محاضرة شائقة ألقاها الأستاذ اللغوى عالمجان شرف بك فى مؤتمر باكو الذى انعقد فى أوائل العام الحالى من مندوبى جميع الشعوب التركية للنظر فى تاريخ الأمم التركية ولغاتها وآدابها واصلاح حروفها . انما كانت أهم مسئلة وضعت على بساط البحث هنالك مسألة الحروف ، وكان حضرة الاستاذ السالف الذكر أبلغ مدافع عن الحروف العربية . لقد ألم حضرته بالموضوع من جميع جهاته وخرج من بحثه مبرهناً أن الحروف العربية أفضل من الحروف اللاتينية من وجهة الرسم والخط وسرعة القراءة والموافقة للصحة وسهولة الطباعة وجمال الشكل وهلم جرا

لهذا رأينا من الموافق أن نلخص هذه الرسالة للقراء نظراً لأهمية الموضوع من جهة ولاتصاله بجميع الامم التى تستعمل الحروف العربية من جهة أخرى

الشعوب التركية والحروف العربية

ان تسعين فى المائة من أفراد الشعوب التركية يستعملون الحروف العربية أما البقية وهم جماعة على الديانة المسيحية فانهم يستعملون الحروف الروسية المعدلة . ومع ذلك فان فريقاً من هؤلاء الاتراك المسيحيين القاطنين فى قازان قرروا ترك الحروف الروسية وعادوا الى استعمال الحروف العربية ، كما ان فريقا آخر وهم قبيلة « الياقوت » تركوا الحروف الروسية وقبلوا الحرف اللاتينية

نتائج تبديل الحروف

فاذا ما اتجهت الأنظار اليوم الى تبديل الحروف العربية بغيرها فلا شك أن سيكون لهذا التبديل نتائج مدنية واقتصادية واجتماعية عظيمة . وأولى هذه النتائج ضرورة تعليم

(١) لمراسل السياسة فى الاستانة بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦

المتعلمين أجمعين مرة أخرى ، ونشر المؤلفات بالحروف العربية والحروف اللاتينية سنين عديدة وبذل الجهود لتعليم الناس القراءة بنوعين من الحروف ، وتهذيب المعلمين وتربيتهم من جديد واصلاح جميع الآلات الفنية والعملية وتعديلها . أضف الى ذلك ، تلك الزلزلة الروحية الاجتماعية التى تقع بين الشعوب التركية بتبديل الحروف العربية والتى تجعل مسألة الحروف أهم مسالة اجتماعية اقتصادية تهم الشعوب التركية

مقارنة الحروف العربية بالحروف اللاتينية

اننا إذا قارنا الحروف العربيه بالحروف اللاتينية وجب علينا أن نقرر أولا ان الحروف العربية أوفق لافادة الكلمات التركية . كانت تتكون الحروف العربية من ثمانية وعشرين حرفا . زاد عليها الأتراك ثمانيـة حروف فبلغت ستة وثلاثين حرفاً أربعـة منها حروف متحركة وباقيها حروف ساكنة ، أما الحروف اللاتينية فعبارة عن ستة وعشرين حرفا فى الأصـل ستة منها متحركة وعشرون ساكنة . لذلك فانه لما شرع الآذريون فى قبول الحروف اللاتينية لم يجدوا فيها الا تسعة عشر حرفا (أى ٥٦ فى المائة) من أربعة وثلاثين حرفاً تلزمهم لتكوين حروفهم الهجائية .

وعليه فانهم زادوا عليها حروفاً روسية وحروفاً أرمنية لتفى بالمطلوب .

أما قبيلة الياقوت التركية فانهم لم يستطيعوا أن يجدوا فى اللاتينية الاسبعة عشر حرفا تنفعهم ، ثم زادوا عليها حروفاً أخرى لا كمالها وكذلك أتراك (قازان) و (باشقيرد) لم يستطيعوا أن يقتبسوا من الحروف اللاتينية إلا تسعة عشر حرفاً . وقد ثبت من ذلك أن الحروف اللاتينية لا تفى بحاجة اللغة التركية إلابدرجة (٤٧) فى المائة أو (٥٦) فى المائةعلى أعظم تقدير . وهذا أسطع دليل على أن الحروف العربية أوفق للغة التركية .

سرعة القراءة

اذا تبين ذلك أمكنا أن ننتقل الى موضوع « سرعة القراءة » . اننا اذا قرأنا لا ننظر الى الكلمة حرفاً حرفاً بل يقع بصرنا على الكلمة بأجمعها دفعة واحـدة فنميزها كما نميز الأشياء والأشخاص .

ان الحروف اللاتينية ترسم فى الغالب بخطوط مستقيمة ويمزج قسم منها برسم حرف()

فتتجلى كزوايا مستقيمة . فيكون السطر المطبوع مصفوفاً بين خطين متوازيين وترصف الكلمات كأحجار مرصوصة .

أما الحروف العربية فليس لها خطان متوازيان أو زوايا مستقيمة . بل ليس للسطور فيها الا خطاً أساسياً تمتد منه خطوط مستقيمة أو معوجة الى أعلاه وأسفله بحيث تكون مجهزة النقط أو الاشارات الصغيرة . وهذه الحالة الخاصة بالحروف العربية تسهل لنا تمييز الكلمات دفعة واحدة بخلاف الحروف اللاتينية التى ليست كذلك .

أى الحروف أوفق للصحة

يدعى بعضهم ومن بينهم الشيخ (جوزى مندلى) وهو عربى مسيحى تعلم فى المدارس الدينية الروسية ثم كان رقيباً على الصحف التركية أيام القيصرية الروسية أن كثرة النقط والخطوط فى الحروف العربية تجعلها ضارة بصحة البصر . وذلك خطأ . وقد دلت التجارب على انه خطأ . ويكفى أن يجئ الانسان بشئ مكتوب بالعربية وآخر مكتوب باللاتينية وأن يقرب كل منهما الى بصره ثم ينظر فيهما ليتبين له انه يستطيع قراءة الحروف العربية من مسافة أبعد من المسافة التى يستطيع بها قراءة الحروف اللاتينية . وقد تبارى طلاب مدرسة المعلمين التركية فى قازان مع طلاب مدرسة المعلمين الروسية فى موضوع سرعة القراءة والكتابة ففاز الأتراك بنسبة ٢٦ فى المائة فى القراءة ونسبة ٣٢ فى المائة فى الكتابة .

قراءة المخطوطات اليدوية

ثم إن المخطوطات اليدوية العربية تشبه الخطوط المطبعية كثيراً ولذلك تسهل قراءتها هذا بخلاف المخطوطات اليدوية اللاتينية والروسية فانها تصعب قراءتها . وتسهل قراءة المخطوطات العربية من جراء النقط ومن اتحاد الرسم المطبعى والرسم اليدوى .

سرعة الكتابة

ان الحروف العربية كالعلامات الستنوغرافية ولذلك فانها تكتب بكل سرعة .واذا ماجربتم الكتابة بالحروف العربية واللاتينية ألفيتم أن فرق السرعة بينهما بنسبة ٣٠ فى المائة .

الحروف والطباعة

يمكننا بعد ذلك أن نقارن الحروف العربية والحروف اللاتينية من وجهة الطباعة ان الحروف اللاتينية الكبيرة والصغيرة التى تستعمل فى المطابع الآزرية اليوم يبلغ عددها (١١٠) حروف مع الأرقام

أما الحروف التركية فرغما من أن لكل منها أربعة أشكال فانها لاتزيد على (١٥٠) حرفا وليس هذا بالفرق العظيم الذى يلجئ الى تبديل الحروف . وقد استطاع عبدالرحمن بورناش افندى تقليل عدد الحروف التركية بحيث ساوى ما بينهما و بين الحروف اللاتينية. واذا مانجح عبد الرحمن أفندى فى وضع شكلين لكل حرف كما هى غايته فسيكون عدد الحروف العربية أنقص من عدد الحروف اللاتينية وهنالك لايبقى اعتراض من وجهة الطباعة أيضاً

تعليم الحروف

أما اذا نظرنا الى مسألة تعليم الحروف وجب علينا أن نعترف قبل كل شئ أن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة بين الأتراك ليسوا كثيرين ، بل انهم تتراوح نسبتهم بين خمسة فى المائة وخمسة وعشرين فى المائة . انما اذا تبدلت الحروف فقد هؤلاء كذلك . لكن المسألة مسألة سهولة التعليم

ان لكل حرف من الحروف اللاتينية أربعة أشكال : كبير وصغير للطباعة وكبير وصغير للكتابة . وأكثر هذه الحروف غير متشابهة فى الرسم . أما الحروف العربية فلثلاثة عشر منها شكلان ولبقيتها أربعة أشكال انما تتشابه جميع الاشكال ولهذا فان تعلم الحروف العربية أسهل بكثير من تعلم الحروف اللاتينية

الشعوب المتآخية والحروف الهجائية

لا جرم ان لاستعمال الشعوب المتكلمة بلغة واحدة أو بلغة متقاربة حروفا مشتركة قيمة عظيمة . لا سيما اذا كانت هذه الشعوب مرتبطة بروابط جغرافية واقتصادية ، اذ هنا لك يسهل لهذه الشعوب تبادل كل شئ كما تقوى بينها العلاقات المدنية والاقتصادية

وحيث ان أحسن الحروف التى توافق اللغة التركية هى الحروف العربية وجب على جميع الشعوب التركية الاحتفاظ بهذه الحروف

أى الحروف أجمل ؟

ثم اننا اذا سئلنا بعد ذلك عن أى الحروف أجمل ، وجب علينا أن نعترف أن هذه المسألة مسألة شعور شخصى . بيد اننا رأينا ان الشيخ (جوزى) السالف الذكر يدعى أن الحروف العربية قبيحة المنظر ، فى حين ان الكثيرين من كتاب الأوربيين ينقضون قوله ويقولون ان الحروف العربية التى تتنوع أشكالها أجمل بكثير من الحروف اللاتينية التى ليست الا عبارة عن أشكال هندسية . وعليه فان الحروف العربية تمتاز على غيرها بانها :

مزايا الحروف العربية

١ — تقرأ الكلمات العربية بها بكل سهولة

٢ — تكتب الكلمات العربية بها بكل سرعة .

٣ — ومن الممكن اصلاح الحروف العربية بلا عبث يصيب شكلها وهنالك تسهل الطباعة .

٤ — والحروف العربية أسهل للتعليم . كما ان

٥ — الحروف العربية هى الحروف التى تستعملها الشعوب التركية المتجاورة ، المتكلمة بلغة واحدة فينبغى الاحتفاظ بها .

الجهة السياسية

ان تسعين فى المائة من الشعوب التركية يشتغلون بالفلاحة . فلا شك أن الاقدام على تغيير الحروف يؤثر فى جميع هؤلاء الفلاحين أسوأ تأثير . وقد فطن (لنين) الى هذه النقطة فقال (لاغا معلى الاذرى) الذى يستهدف لتغيير الحروف « كيف يرى الفلاح هذا العمل ؟ » وهذا سؤال لا يصح الاستخفاف به . نعم ان الفلاح التركى متأخر . لكن تأخره غير ناجم من الحروف الهجائية بل من حالته الاقتصادية

ومن الارهاق الذى يصيبه وليس للحروف الهجائية أى تأثير فى انحطاطه . ولهذا فلن يفيد تغيير الحروف فى رقيه المدنى والاقتصادى بل يضاعف فى تأخره . وهذا ما لا يصح اقترافه .

اظهار محاسن الاسلام

للعالم الايطالى لورا فكشيا فاليرى

من الكتب المهمة التى ظهرت فى الأيام الأخيرة فى الدفاع عن الدين الاسلامى كتاب اسمه « إظهار محاسن الاسلام Oppalogie de L'Islamisme بقلم « لورا ڤكشا ڤاليرى من علماء ايطالية Laura Veccia Valglieri وهو يقول فى مقدمة كتابه هذا المترجم الى الافرنسية إنه مما لا شك فيه أن وصف محمد بتلك الأكاذيب التى كانوا يشيعونها فى القرون الوسطى عنه وعن ديانته قد خفت كثيراً فى هذا العصر وصار الناس ينشدون الحقيقة التاريخية عن محمد وعن الاسلام الذى قلب وجه العالم . ولكن مما لامراء فيه أن صوت المسلم الحر الذى يحب الله ورسوله ويرى فى الاسلام الحسنات التى لا نهاية لها فى الدنيا والآخرة لا يزال غير مسموع تماما والنادر من الأوربيين يعلم هذا الصوت

فمحاسن الاسلام لا يمكنها أن تظهر بتدقيقات المؤرخين من الافرنج مهما كانوا منصفين لأنها تدقيقات جارية على أقلام أناس غير معتقدين بالاسلام وبحسب طرق ومفاهيم خاصة بالأوربيين . ومع ذلك فان مستشرقين مشاهير مثل مويرMuir واسبرنجر Sprenger وغولد سيهر Gold-Ziher ونولدكه Noldek وكاتانى Caetani وغيرهم قد وصلوا بعد التمحيص الى الاعتراف بصدق محمد فى دعوته والى الحكم بانه كان ملهما إلهاما اختلفوا فى سره ولم يفسروه على وجه واحد بل علله كل واحد بشكل . وبعض هذه الأشكال لا يقبلها حتى غير المسلم. فمن هؤلاء من يقول ان العقائد التى بنى عليها الاسلام أكثرها نتيجة نمو هذا الدين بعد وفاة واضعه وأنه هو لم يضع إلا أسساً أولية فقط وأن المسلمين فيما بعد قد فرعوا عليها . ثم بعد أن جردوا صاحب الشريعة الاسلامية نفسه من وضع هذه العقائد وردوا إليه مبادئها فقط عادوا فمحصوا أقواله وأعماله التى لم يشكوا فى نسبتها إليه وفصلوا هنا بين الوحى الذى كان يوحى إليه وبين المعلومات الشخصية التى اتصل بها بثمرة اجتهاده واطلاعه على الأديان الأخرى واحتكاكه بالحوادث أى إنهم فصلوا بين الالهى والبشرى فى الدعاية المحمدية

قال كاتانى : إن محمدا لم يجمد على حالة واحدة بل مر بأطوار متعددة بحسب مقتضيات الزمان ووفقا للحوادث . وتغير هذه الأطوار ملحوظ جداً سواء فى القرآن أو فى السنة لمن عرف أن يفهمها حق الفهم . فالفرق عظيم بين محمد فى أوائل بعثته و بينه بعد أن هاجر إلى المدينة واضطر أن يعلن المقاومة بالقوة لمن أشركوا بالله

فالمسلمون متفقون مع هذه الطبقة من المستشرقين على أن فى ديانتهم نقاطا كثيرة متفقة مع النصرانية واليهودية ولكنهم يرون هذا زيادة فى تأييد رسالة محمد و برهانا على أنه خاتم الرسل.ولكن بين المسلمين و بين هؤلاء المستشرقين اختلافا فى كيفية فهم القرآن. فعند المسلمين أنه كتاب قديم غير مخلوق وغير قابل للمعارضة . وقد نزل على رجل أمى لم يتعلم شيئاً إلا ما أوحاه الله إليه وقد أوحى اليه هذا القرآن وألهمه أيضاً أعمالاً لا يجوز الجدال فيها على حين المستشرقين الذين نعنيهم يرون القرآن تمثيلاً لحالة محمد الروحية ويزعمون أن فيه تفاوتا وأن محمدا أضاف من نفسه الى ما هو من ربه بحسب مصلحته وأن هناك تناقضا بين بعض أقواله الى غير ذلك من الآراء . فلأجل هذا الفرق العميق بين المسلمين و بين مؤرخى الاسلام من غير المسلمين اقتصرت كثيراً فى إيراد آراء المستشرقين المحدثين إلا ما أخذته من تدقيقات غولد سيهر وعولت على أقوال المسلمين أنفسهم تاركا أقوال الطبقة الماضية من علمائهم حتى أقوال مثل الامام الغزالى ولو كانت آراؤه توافق مبحثى بما فيها من المعانى العالية . عولت على المسلمين المحدثين الذين احتكوا بالحياة الغربية وأحبوا الاسلام حباً جماً ورأوا فيه ديناً يأتلف مع الأعصر الحديثة ويقبل كل ثقافة فقد كتب هؤلاء كتباً تعجز جميع انتقاداتنا العصرية عن المكابرة فيها . فأخذت اذاً من الكتب الآتية :

الاسلام والرد على منتقديه للشيخ محمد عبده . والاسلام والنصرانية لمحمد عبده أيضاً . والعروة الوثقى لجمال الدين الافغانى ومحمد عبده . والرسالة الحميدية لحسين الجسر . والمدنية والاسلام لمحمد فريد وجدى . وإظهار الحق لرحمة الله بن خليل . ومقال للزهراوى فى ائتلاف الاسلام مع المدنية . وروح الاسلام لأمير على الهندى . وعبقرية الاسلام لعثمان بك قبرصلى زاده . وتقرير لنعمان كامل بك فى مؤتمر المستشرقين العاشر . وتقرير آخر فى المؤتمر المذكور لعمر لطفى

وقد استقيت من هـذه المنابع كلها مختاراً منها ما أريدهُ بدون مراعاة الترتيب بل بمراعاة المعنى و إيراد الشواهد المتطابقة فيه من أى موضع من الـكتب المذكورة

ثم ذكر صاحب هـذا الـكتاب فصلا فصلا عن الاسلام فالأول سرعة انتشار الاسلام و إن ذلك بيد الهية والثانى بساطة العقيدة الاسلامية وانطباقها على العقل . والثالث حكمة كل شعيرة من الشعائر الاسلامية . والرابع معالى الفضائل والآداب الاسلامية و بعد تأثيرها فى الخلق . والخامس ائتـلاف الشريعة الاسـلامية مع المدينة والسادس قيمة التصوف فى الاسلام . والسابع الاسلام فى مناسباته مع العلم

فنحن نوصى ناشئة المسلمين باقتناء هذا الـكتاب وهو ١٢٥ صفحة مختصر مع الافادة معتدل مع الاجادة

طرابلس وبرقة أيضا

ولاتمام الفائدة نذكرهنا كتابا مطبوعا فى مرسيلية سنة ١٨٦٣ بقلم «شارل ادوارد غيز» Charles — Edouard Guys قنصل فرنسة فى الشرق ومن أعضاء جمعيات علمية متعددة وعنوان هذا الكتاب « معلومات عن جزائر بومبا و بلات وخليج بومبا ونواحيه[١] » قد أخذها هذا الكاتب عن أبيه الذى كان قنصل فرنسة فى طرابلس الغرب ومنه علمنا أمراً غريبا وهو أن الحكومة الروسية تدخلت لدى والى طرابلس سنة ١٧٧٢ حتى ينزل لها عن جزيرة بومبا بمقابلة شئ تؤديه له لكنه أبى اجابتها الى طلبها هذا خوفاً من تركيا وفرنسة (كذا) وكان طلب الروسية هذا فى اثناء حروبها مع تركيا

ويقول المسيو غيز ان الامريكيين أيضاأرادوا أن يكون لهم مرسى فى البحر المتوسط فحاولوا الاستيلاء على جزيرتَىْ بومبا لكنهم لم يأتوا اليهما بقوة كافية وانصرفوا

وهو يصف ما فى خليج بومبا من المراسى الامينة للسفن ويرى فى هذا المكان مركز علائق بين الغرب والشرق ذا بال عظيم

ويقول ان جزيرة بومبا بنفسها صغيرة صخرية لكنها تشتمل على ميناء من أحسن مايوجد وكان اللاسيديمونيون (من اليونان) قد عمروها قديماً وجعلوها مرسى لاصلاح سفنهم وصارت مدينة وهى تبعد عن الساحل أربعة فراسخ وموقعها شمالى غربى من الخليج وشرقيها جزيرة صغيرة اسمها « باردة » والبحر هناك كثير السمك ومحيط الجزيره الكبيرة ثلاثة فراسخ ونصف وفيها أراضٍ قابلة للزراعة وأشجار . و يقول ان العرب لاوائل مجيئهم الى برقة كانوا يقيظون فى هاتين الجزيرتين نظراً للطف هوائهما وبرودة نسماتهما . ومن هنا سموا الصغرى منها باردة . وهو يمتدح عرب برقة بحسن الضيافة وجودة الاخلاق

ثم يقول ان جزيرتى بومبا تقابلان رأس التين أى مرسى درنه ويذكر انه مرَّ بنفسه من هناك فى سفينة فرنسوية استقلها فى «لارنكا» (قبرص) قاصدةً مرسيلية وذلك

---

(١) انظر صفحات ٦٤ من الجزء الثانى وما بعدها

فى شهر يوليو سنة ١٨١٧ فساقتهم الريح نحو جزيرة اقريطش ثم بعد ذلك اضطروا ان يتقدموا نحو ساحل برقة ومنها ساروا امام السواحل حتى وصلوا الى مدينة طرابلس لعهد يوسف باشا القرمانلى

وهو يذكر ان الامريكيين كانوا نزلوا براس التين وقصدوا الاستقرار بدرنه لكن والى طرابلس كتب الى متصرف درنه لحشد العرب وطردوهم . ثم انعقدت معاهدة بين والى طرابلس وأمريكا بأن يكون لها قنصل صغير فى درنه لملاحظة تجارتها

وهذا المؤلف يشير على أوربة بأن ترسل الى جزيرة بومبا فرسان مار يوحنا أورشليم الذين أخرجهم الانكليز من مالطةوتراهم يرتادون لانفسهم محلاً يلجأون اليه ويقول انه لما كانت ترعة السويس ستُفتح [١] فيتسع مجال الحركة البحرية فان عمارة هذه الجزيرة بالاوربيين أصبحت ضرورية (تأمل)

ومن أهم ماقرأته فى هذا السفر الصغير هو ان سكان حضر برقة كان يقدَّر عددهم لذلك العهد بثلاثمائة ألف نسمة عدا العرب البوادى

والحال انه عند مجئ الطليان كان عددهم ٣٠٠ ألف داخلاً فى ذلك العرب البوادى . واما الآن فقد نزل عددهم عن هذا المقدار

ولقد شاهد محرر هذه السطور جزيرتى بومبا وخليج بومبا يوم ذهبت الى جهاد طرابلس وبتنا بساحل هذا الخليج ليلة وفى زاوية أم أرزم ليلة وفى زاوية مرطوبة ليلة وذلك قبل وصولنا الى معسكر أنور فوق درنه

---

(١) قد فتحت بعد طبع هذا الكتاب بأربع سنوات

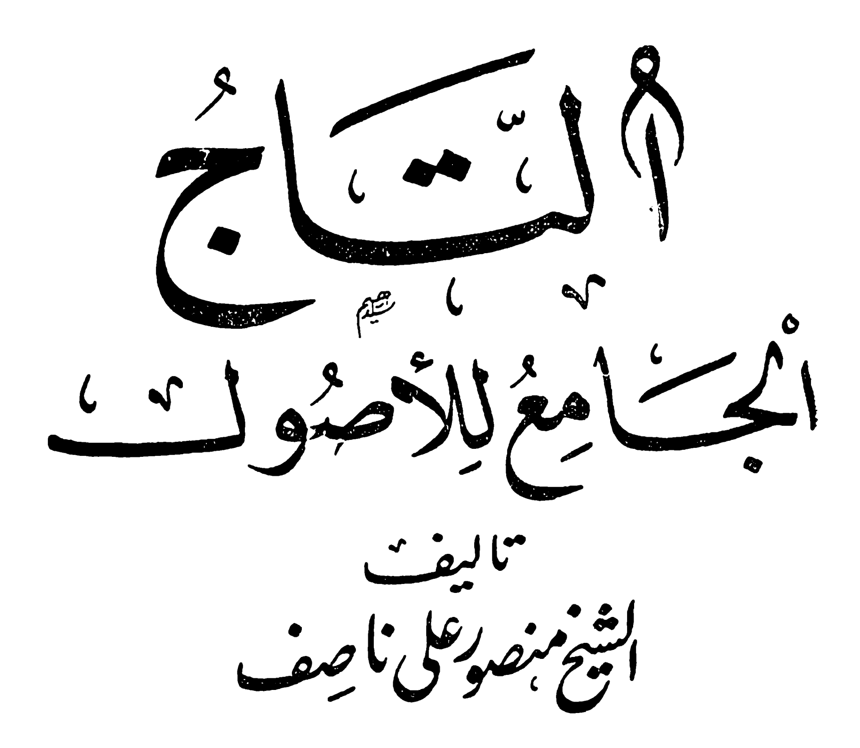
حياة الشرق

دوله وشعوبه وماضيه وحاضره

تاليف الكاتب الكبير

محمد لطفى جمعه المحامى وعضو المجمع العلمى العربى

احتاج لمراجعة ٥٠ كتاباً من أنفس ما ألف باللغات العربية والافرنسية والانجليزية وما كتب فى أمهات الجرائد العربية والافرنجى وهو فى ٣٨٤ صفحة من القطع المعتاد مطبوع على ورق أبيض ناعم عال ومهما قيل فى الكتاب فلا يكفى للتعريف به لذلك نكتفى بأن نحث كل مشتغل بالقضايا الشرقية أو العربية أو الاسلامية بمراجعة هذا السفر النفيس فيجد فيه زبده ابحاث مؤلفه الفاضل ويغنيهم عن مراجعة كتب عديده ويوفر عليهم أوقاتهم



ألف هذا الكتاب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ منصور على ناصف من علماء الأزهر الشريف والمدرس بالجامع الزينبي وقد جمعه من كتب الحديث الخمسة المعتمدة . وقسم الكتاب الى أربعة أقسام . الأول فى الايمان والعلم والعبادات وهو موضوع الجزء الأول الذى تم طبعه . والكتاب مزدان بشرح جامع يوضح الغامض ويشتمل على تراجم الذين ورد ذكرهم فى المتن والشرح ولقد توسع المؤلف الفاضل فى بعض الأبواب فافتتحها بآيات من القرآن الكريم وزاد فى الأحاديث ماجاء فى موطأ الامام مالك ومسند الامام الشافعى والامام أحمد وغيرها والكتاب مطبوع طبعاً متقناً بالشكل الكامل على ورق جيد . ويقع فى ٤٤٤ صفحة بالقطع الأكبر فنحث رجال العلم وطلاب الحديث على اقتنائه لاجتناء ثمراته . وجارى طبع الجزء الثانى الذى قارب على التمام ويتلوه باقى الأجزاء